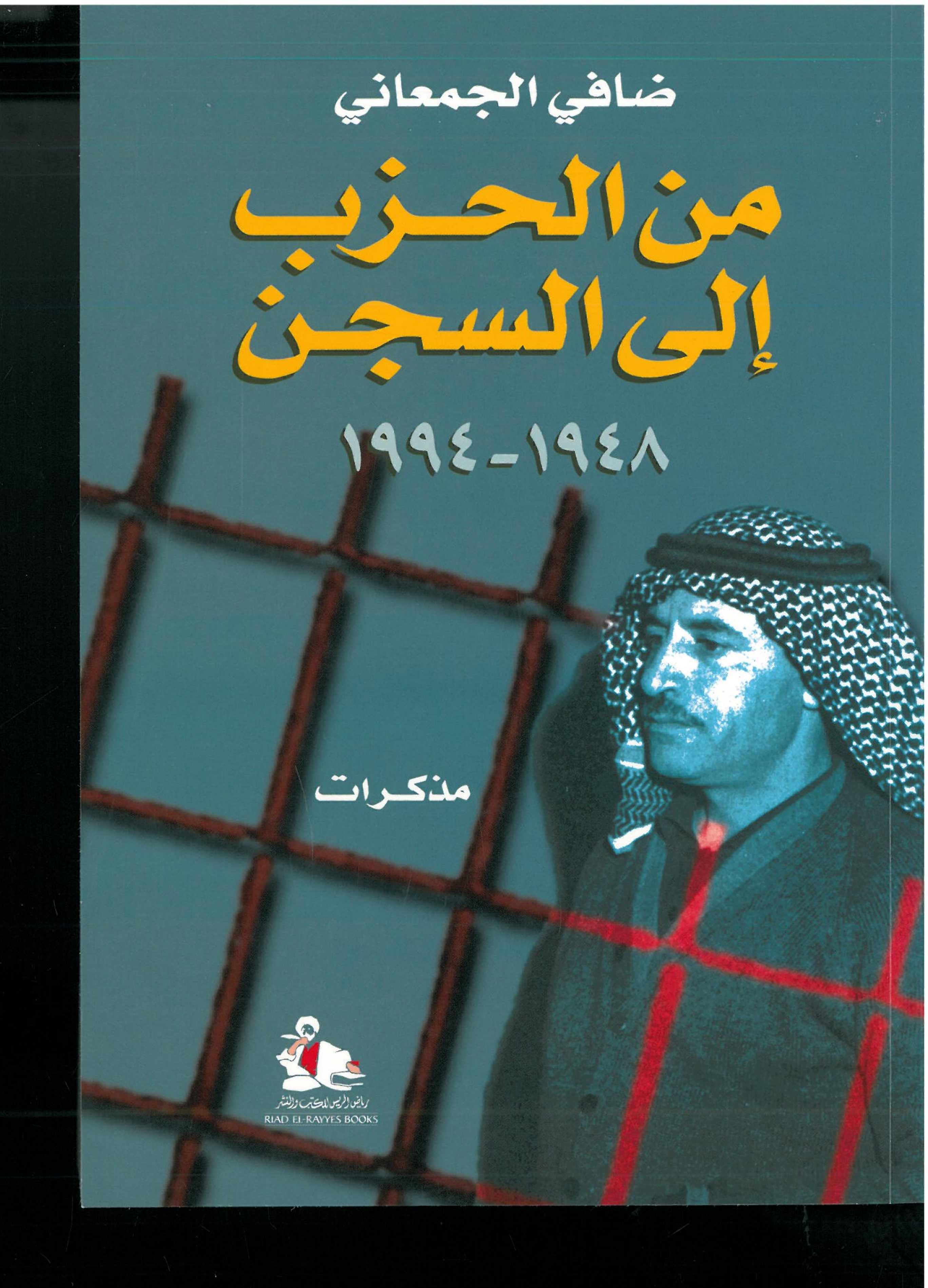
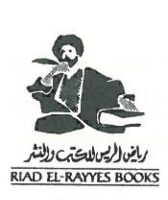

ضافي الجمعاني
من الحزب
إلى السجن
١٩٤٨ - ١٩٩٤
مذكرات
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ضافي الجمعاني

# من الحزب إلى السجن

## ١٩٤٨ - ١٩٩٤

مذكرات



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

## الإهداء

إلى وجدان العزيزة... ابنة عمي التي عانت كثيراً من سلوكي هذا الطريق الوعر، والتي لولاها لما كونت عائلة من ثلاثة صبيان وابنتين عزيزتين نافعين لوطنهم.

ضافي

*DAFI AL-JAM'ANI*

**From the Party to Prison**
**(1948-1994)**
**Memoirs**

First Published in February 2007

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-242-2



**تصميم الغلاف: محمد حمادة**
**الطبعة الأولى: شباط/فبراير ٢٠٠٧**

سألني سليمان أصغر أبنائي في إحدى زياراته لي في سجن المزة في دمشق وعمره ثمانية أعوام ـــ قال ماذا استفدت من كل ذلك وقد أمضيت عمرك في السجون؟ ـــ هذا السؤال المليء باللوم لطفل افتقد أباه وعمره حينها خمسة أعوام، هذا التساؤل المشروع، أوجب الرد فبدأت أكتب سيرة حياتي.

ولدت في عام ١٩٢٧ لأبٍ توفي قبل أن أعيه ولأمٍّ من عشيرة بني حسن، كان إخوانها قد (جلوا) عندنا لقتلهم رجلاً في عشيرتهم. أما لماذا هذا التاريخ الذي قد لا يكون دقيقاً؟ فذلك لأن والدتي وجدتي قالتا أنني ولدت (عام الهزة)، يوم (انهدّت الدار على سلامة) وهذه الأحداث هي التي كان يؤرخ بها في بيتنا آنذاك. توفي والدي صغيراً قبل أن أعيه ولا أتذكر أي شيء عنه في مجتمع (رعوي فلاحي).

كانت عائلتنا ميسورة، تملك أرضاً واسعةً للفلاحة وتمتلك أكثر من قطيع غنم ومتجراً هو الوحيد في المنطقة، وكنت أعمل فيه أثناء العطلة الصيفية، ومطحنة في ذيبان التي تعتبر حاضرة المنطقة (كولاك[1])، وكانت قريتنا التي لا نعيش فيها وإنما نخزن بها الحبوب والتبن والسمن واللبن وبها آبار لجمع المياه، هي (أم الشجيرة) سميت كذلك لأن بها شجرة وحيدة آنذاك.

عشت طفلاً مدللاً في كنف عمّيَّ سليمان وعبد الله وفي حضن جدتي (مريم العوض) سيدة الجدات، الجميلة النظيفة، كان لها بيت من الشَّعر مستقل، وتكن لها عشيرة الجماعين كل الاحترام، وكنت طفلاً صحيح الجسم، سليم البنية بعد أن

(١) كولاك ــ الفلاح متوسط الحال.

شفيت من مرض كاد أن يودي بي قبل أن أنهي العام الثاني من عمري. وعلى العموم كانت طفولتي سعيدة، فأنا لم أشعر باليتم، كنت أشعر بالاهتمام.

وأذكر أنني (قعدت) عند (الخطيب) كما يقولون عندنا، والخطيب هنا تعني (الكتّاب) أو المدرسة. وكان الخطيب (يوسف) من قرية سنجل في قضاء نابلس، جاء إلى قريتنا قبل أن أولد وبقي عندنا إلى أن توفاه الله، وهو الذي سماني (ضافي) والصحيح أنه سماني (أحمد ضافي)، وكان حريصاً جداً على تعليمي. درست مع عدد من التلاميذ عنده لمدة ستة أشهر في مضاربنا، وانتقلت بعدها إلى بلدة مأدبا لأدرس في مدرستها الوحيدة، ولما (فحصوني) ليختاروا لي الصف الذي أستحقه وضعوني في الصف الثاني، لقد كان خطي حسناً وجيداً في الإملاء، ونحن عند (الخطيب) لا نتعلم إلّا القرآن الكريم والخط والإملاء على(صفائح تنك) وريشة من القصب.

عشت ثلاث سنين في بيت عمي سليمان في مأدبا، درست خلالها صفوف الثاني والثالث والرابع الابتدائي الذي به كانت نهاية الدراسة في مأدبا.

لم يترك عمي سليمان أحداً من أبنائه وأبناء إخوته الذين يعيشون في بيت واحد، إلّا وحاول أن يدفعه لأن يكمل دراسته في مأدبا. إلّا أنه كان يخفق في مسعاه النبيل. كان جميع أبناء عمومتي يهربون من الحضارة إلى البداوة، إذ إن البداوة تستهوي من هم في هذه السن، فميدان اللهو كبير وحريتهم مطلقة، يركبون الخيل، يمرحون كثيراً ويعملون قليلاً، بعكس ما هي عليه الحال في مأدبا، فأنت محصور في بيت مع عمك وزوجه وأطفاله. مكانك وسلوكك محددان وعليك واجبات منزلية ومدرسية لا بد أن تقوم بها، هذا الواقع لم يكن يتوافق وطبيعتهم وفهمهم للحياة. أما أنا فلم أترك هواية خلفي تجذبني، وكنت قد عايشت عائلة عمي في فترات سابقة عديدة، وكنت أبدو هادئاً وغير مشاكس بل مطيعاً أقوم بالخدمات المطلوبة مني دون تبرم، وأتحاشى أن يوجه إليّ لوم أو كلمة نابية، فأي زجر أو نهي حاد كان يبكيني. وقد عشت هذه السنوات الثلاث عند (أم خالد) زوجة عمي (وحماتي فيما بعد) ـــ يرحمها الله ـــ براحة تامة. ولا أذكر في هذه السنوات أنني تشاجرت مع أي من بنات عمي، فناجية كانت تكبرني بأربع سنوات، ووجدان تصغرني بخمس، وكان خالد طفلاً لا يتجاوز عمره عامين.

وبعد أن أنهيت الدراسة في مأدبا، واجهت عمي مشكلة، فقد كان يرغب كثيراً أن



ألتحق بإحدى الثانويات في الإمارة، وكان في الإمارة حينها ثلاث ثانويات تنتهي الدراسة فيها بالصف الثانوي الثاني، في عمان والكرك وإربد، والثانوية الكاملة الوحيدة كانت في مدينة السلط، وعمي لا يعرف أحداً في هذه المناطق يمكنني أن أسكن عنده. وقد فكر في إرسالي إلى مدينة الكرك عند أخوال له من عشيرة (ابن منيزل) هو شيخ عشيرة النوايسة لكنه تراجع عن ذلك، لأن الصلة بينه وبينهم كانت قد بعدت، وقد تحدث إلى بعض معارفه من أهالي مأدبا حول هذه المعضلة التي تواجهه، فقال له أحدهم، لماذا لا ترسله إلى مدرسة المطران في عمان؟ فسأله (وشيه مدرسة المطران هذي؟) أي ما هي مدرسة المطران هذه؟ فوصفها له قائلاً: إنها مدرسة أهلية داخلية، تضع ابن أخيك فيها وهم يكونون مسؤولين عن سكناه وإطعامه وتدريسه مقابل أجر. وارتاح عمي لأنه وجد مخرجاً لهذه المشكلة. ومدرسة المطران مدرسة أهلية أسسها في عمان مطران الطائفة الإنغليكانية في القدس.

## إلى مدرسة المطران

في نهاية الموسم الزراعي، كما هي العادة دوماً ولا سيما إذا كان الموسم جيداً وقد كان كذلك في ذاك العام، سافر عماي إلى عمان ليشتريا لوازم عيالهما من كسوة وحاجات أخرى، وكنت معهما أمسك بيد عمي عبد الله، قلت له عمو (قول لعمي سليمان أن يشتري لي حذوة) وكنت (أهاب) أن أطلب ذلك مباشرة من عمي سليمان، فقال عمي عبد الله، لعمي سليمان ذلك فرد (لوهي على حذوة لكانت بسيطة). وفي اليوم الثاني أخذني عمي سليمان بيدي ـــ رحمه الله ـــ وسار بي باتجاه جبل عمان حيث مدرسة المطران، وبعد أن قطعنا ثلث المسافة تقريباً وصلنا إلى بيت من طابقين، ولما صرنا على مسافة مائة متر بعد ذلك البيت، سمعنا صوت امرأة تنادي (يا عمي يا بدوي يا عمي يا بدوي) فتوقف عمي والتفت إلى صاحبة الصوت، فإذا بسيدة تقف على شرفة البيت وتقول بصوت عال (إتحط إبنك أجير) فلوى عمي نفسه قائلاً: (عشمه[1]). انظروا إلى هذه المفارقة الطريفة، صبي يقوده والده ليضعه في أرقى مدرسة في الإمارة حينه، يلبس ثوباً وحطة وعقالاً وينتعل (أم إصبع). منظر

(١) عشمة: ترغب في شيء ولا تحصل عليه.

يغري سيدة أن تقول ما قالت. وحين وصلنا إلى المدرسة دخل عمي وأنا معه على مدير المدرسة، فقبِل أن أكون أحد تلامذته الداخليين، وأعطى عمي قائمة طويلة باللوازم التي يجب أن تكون لتلميذ المدرسة الداخلي. خرج بي إلى سوق عمان واشترى لي كل اللوازم التي بالقائمة، وسلمني إلى مدير المدرسة وغادر ــ يرحمه الله ــ. ومن هنا بدأت حياة جديدة كل الجدة مختلفة تماماً عما قبلها دراسة وسلوكاً عاماً وأسلوب حياة، سواء على مائدة الطعام أو في الصفوف مع أقرانك الطلاب. وقد هبت هذا الواقع في الأيام الأولى، فأنا لا أعرف أحداً لا من المعلمين ولا من التلاميذ. ولم أكن أملك الجرأة على المبادرة للتأقلم مع هذا الواقع ومن هم فيه. وكانت مظاهر وعلامات البداوة واضحة عليّ تماماً، فانفردت في الأيام الأولى بنفسي معتزلاً، وكنت أجلس بعيداً لوحدي. وفي أحد الأيام، مر بي أحد الأساتذة وقال لي مبتسماً: (مستوحش ها). كان قولاً ودوداً، وعرفت فيما بعد أنه الأستاذ حنا الشوارب ابن الخوري عوده الشهير في الكرك.

وواضح أن انفرادي وابتعادي لم يشجعا من هم في سني من الطلبة على الاحتكاك بي، فالطالب في مثل هذه السن لا يحتك عادة بزملائه إلّا عن طريق المزاح أو السخرية ممن هم أضعف منه، أو التزلف والمجاملة لمن هم أقوى منه، ولم يكن هؤلاء الطلبة قد تبينوا معدني بعد، فابتعدوا عني في الأيام الأولى من وجودي بينهم، ولكن الفرصة واتتهم في الوقت والموقع اللذين لا بد أن نجتمع فيهما، خلال خلال مناوبتي لخدمتهم على مائدة الطعام.

كانت خدمة الطالب لرفاقه على مائدة الطعام دورية، فعلى كل طالب أن يقوم بها حين دوره يحضّر المائدة، ويضع عليها كل ما تتطلبه من أدوات ويأتي بالماء والطعام لرفاقه، وإذا نقص الماء أو الطعام عليه أن يقوم ويأتي بالحاجة، وعليه أن يجمع أواني الطعام والصحون ويضعها على المجلى في المطبخ، ومن بعد ذلك يمسح طاولة الطعام وينظفها. وكنت أنا لا أعي كل هذه المسؤوليات، فما كان من أحدهم، هادفاً استفزازي، أن طلب مني بلهجة الأمر (هات ميه). فاستأت من صيغة الأمر هذه ورفضت طلبه، فقال: إما أن تجلب لنا الماء أو أشكوك للأستاذ المناوب. فقلت تشكوني؟ (أنا لست خادماً عند أبيك)! فشكاني للأستاذ المناوب قائلاً: إن هذا يرفض أن يجلب ما ينقص المائدة، فتوجه إليّ الأستاذ قائلاً بود: لماذا لا تجلب لزملائك ما



ينقص المائدة؟ قلت له: أنا لست خادماً عندهم، فأدرك الإشكالية وتوجه إليّ بلطف مبتسماً قائلاً: لا، إنك لست خادماً، ولكنك اليوم (Waiter) (نادل)، ولم أكن أعرف معنى هذه الكلمة وقبلت هذا المخرج بسرور، لأن الأستاذ تحدث إليّ بلطف مبتسماً، وقال لي: طبعاً أنت لست خادماً، وأعطاني معنى لما أقوم به مع أنني لم أفهمه، ولكن الطلاب الذين كانوا على الطاولة ضحكوا كثيراً على هذا المخرج الذي سرّني.

سارت بي الحياة بعد ذلك سيراً طبيعياً، إذ ليس أسهل على الطفل السوي من الاندماج في حياة أقرانه. وقد تبين لي بعد أن سارت بي الحياة شوطاً في هذا الواقع، أنني كنت طفلاً مكبوتاً، وهذا أمر طبيعي ولا غرابة فيه، فالصغار في مجتمع البادية الذي نشأت فيه، ليسوا محط رعاية واهتمام على الإطلاق، بالرغم من أن حالتي مختلفة نسبياً. فأنا أثناء دراستي في مأدبا وسكناي في بيت عمي، لا أتذكر أنني قلت كلمة مسيئة أو رفضت طلباً، وكنت مطيعاً جداً، وقد تبين لي السبب الآن، وهو أنني كنت أتحاشى أن يساء إليّ، وقد اتضح بعد أن امتلكت حريتي وممارستها حسب طبيعتي دونما كبت، أنني سريع الغضب شديد الانفعال مرتفع الصوت كأنني أرد على الواقع الذي كنت أعيشه، هذا الواقع المختلف جذرياً عما قبله والذي ساهم في إبراز إمكاناتي الدراسية والرياضية.

وفي بداية الدراسة وضعوني في الصف الذي أنهيته في مأدبا، لأني لم أكن أعرف الإنكليزية، والدراسة في مدرسة المطران في حينه، كانت بالإنكليزية لكل المواضيع الدراسية فيما عدا اللغة العربية وآدابها. سارت دراستي في ذلك العام سيراً حسناً وكانت نتيجتي هي (السابع) بين أكثر من عشرين طالباً. وبقي مستواي الدراسي يراوح بين الثالث والسابع حتى الأول الثانوي، بدأت بعدها في التراجع بعد أن دخلت سن المراهقة، إضافة إلى عامل مهم آخر كان يقود نشاطي في تلك المرحلة وهو الرياضة في كل ميادينها، وكنت من أبرز ممارسيها (في كرة قدم)، (كرة سلة)، (تنس) وألعاب الميدان الأخرى. وفي السنتين الأخيرتين من الدراسة، أصبحت شخصية لا يسهل السيطرة عليها، إلّا أن مدير المدرسة آنذاك وهو أميركي اسمه السيد (Sutten) كان يعتبرني إنساناً قادراً على النجاح، لأنني كنت أتمتع بشخصية قوية، متميزاً في الرياضة ولدي حس قوي في تقدير الأمور، إلّا في (حالات الغضب). ومع أنني أعدت الصف الثالث الثانوي ولم أحصل على المعدل المطلوب الذي

يؤهلني لدخول الجامعة الأميركية في بيروت في العام التالي، إلّا أن مجلس المعلمين بتأثير من المدير وبعض المعلمين ـ أظن من بينهم الأستاذ (جريس هلسه) ـ أوصى أن تقبلني الجامعة الأميركية، إذا ما تقدمت للدراسة فيها. فلغتي الإنكليزية كانت جيدة لغة وكتابة، وإثباتاً لهذه الحقيقة تنقّذ مدرسة المطران في نهاية الدراسة من كل عام، يوماً يسمى يوم الميدان (Field day) تقام فيه مباريات في كل أنواع رياضة الميدان، وتمنح فيه الجوائز للمبرزين في آداب اللغتين العربية والإنكليزية، ويدعى لرعاية هذا الحفل إحدى الشخصيات السياسية البارزة. وكان راعي الحفل في ذلك العام (الجنرال كلوب)، وفي هذا الحفل سلمني جائزة الفائز الثالث في الإنشاء بالإنكليزية. وعلق على ذلك عندما سلمني الجائزة (بني حميده وجائزة باللغة الإنكليزية).

## التخرج

تخرجت في مدرسة المطران عام ١٩٤٧ بعد أن أمضيت سبعة أعوام في القسم الداخلي، كانت من أسعد الفترات في حياتي. وكان ذلك العام عام (قحط) هلك فيه الزرع والضرع. وحضر عمي حفل التخرج الذي كان ضيف الشرف فيه الأمير طلال ولي العهد وخطيب الحفل الأديب اللبناني البارز الأستاذ ميخائيل نعيمه، وبعد أن انتهى الحفل وخرجت مع عمي إلى ساحة المدرسة ممسكاً بيده، قال رحمه الله قولاً لا أنساه ما حييت. قال (والله يا ولد أخوي) ما أنا متأسف على الزرع والضرع الذي هلك، إلّا لأنني لم أضع لك ألف دينار في البنك لأرسلك إلى الجامعة. وكان ما قاله لي يساوي ذهابي إلى الجامعة وتخرجي منها، فلم أنس هذا الموقف أبداً.

## في مواجهة الحياة

وهكذا وضعت في مواجهة الحياة ولم أكن مستعداً لها الاستعداد الكافي. كان من الصعب إيجاد عمل في الحكومة في ذلك الحين (تماماً كما هو الحال في هذه الأيام). ومع ذلك فقد حاول عمي إرسالي إلى الجامعة عن طريق البعثات التي ترسلها وزارة التربية والتعليم. فقابل (الشيخ محمد الأمين الشنقيطي) وكان وزيراً للمعارف في حينه، فسأله الشنقيطي: ومن أي مدرسة تخرج؟ فأجابه عمي: من مدرسة المطران،



فقال الشنقيطي (أف! ما وضعته إلّا في مدرسة الكفر هذه). وفي اليوم التالي قابل عمي الأمير عبد الله وطلب منه أن يرسلني في بعثة على حساب وزارة المعارف، فقال الأمير عبد الله لعمي: يا سليمان (ما تخليه يسرح بمعيزاه) أي يرعى الماعز. فرد عليه عمي قائلاً: يا سيدنا (إحنا ناقصنا رعيان؟) فقال الأمير لعمي: أنا أستطيع أن أرسله إلى الكلية العسكرية في بغداد، فأبلغني عمي ذلك فأجبته: أنا أكره العسكرية، ولو كان لدي رغبة بذلك لدخلت سلك الجيش قبل أن أنهي الثانوية.

## الوظيفة الموقتة

نتيجة للقحط في عام ١٩٤٧ أوجدت الدولة مراكز لبيع الحبوب في المناطق التي أصابها الجفاف، فعملت في مركز مأدبا لمدة أربعة أشهر، انتهى بعدها هذا العمل. ثم ذهبت إلى عمان أبحث عن عمل، راجعت جميع دوائر الدولة، ولكنني لم أوفق. فاضطررت أن أراجع قيادة الجيش من أجل عمل موقت، وكنت لا أزال مصراً على الدراسة الجامعية، ولست أدري لماذا سيطر هذا الأمر على ذهني، والأرجح أن الحياة في مدرسة المطران استهوتني فرغبت أن أستمر هكذا أطول مدة ممكنة دون وعي.

عينتني قيادة الجيش معلماً مدنياً في مدرسة ضباط الصف في معسكر العبدلي برتبة (عريف) وحددوا لي علاوة معلم خمسة دنانير، وهذا مبلغ جيد في ذلك الحين. لم أبق في هذا العمل سوى شهرين، ثم غادرت المكان غير نادم على تركه دون أن أبلغ المسؤولين. وذهبت إلى أهلي في مأدبا وطلبت من عمي أن يقابل (كلوب باشا) ليسلّمني وظيفة مؤقتة في الجيش غير هذه الوظيفة. فاصطحبني إلى القيادة العامة للجيش في عمان، وفي القيادة طلب مقابلة (كلوب). فأذن له بعد فترة قصيرة ودخلت معه، فدخلنا معاً إلى مكتب (الباشا) فاستقبل عمي استقبالاً حسناً، قائلاً له: إننا لم نرك منذ مدة يا سليمان، فرد عمي قائلاً: (والله يا باشا أنت شايف السنين امحول.. واللي ايشوفني على باب القيادة ايقول الجمعاني جاي يتشحد)، فرد (كلوب): لا عيَّ الله يا سليمان إحنا كل واحد له إضبارة. ويشن انت بيه (أي ماذا تريد؟)، فرد عمي قائلاً: والله أنا جاي لك من أجل ضافي، فقد أنهى دراسته الثانوية وكنت أنوي إرساله إلى الجامعة إلّا أن السنة ما ساعدتنا. (يريد عمل يستطيع إذا ما ساعدتنا الظروف أن يخرج منه ويعاود دراسته)، عندها توجه الفريق كلوب بالسؤال

إليّ: ماذا تريد أن تدرس؟ فأجبته بما يتمناه كل طالب في ذلك الحين (طب أو هندسة)، فقال كلوب لعمي: إحنا نرسله على حساب الجيش.

ولما كان لدي نقطة ضعف لم أستطع التخلص منها إلّا مؤخراً وبحدود جزئية، وهي أنني عندما أحدد موقفي من أمر آخذه بكليته، لهذه الحقيقة لم أستطع التمييز بين أن تخدم عسكرياً في سلك الجيش أو أن تذهب في بعثة دراسية على حساب الجيش (لتصبح بعدها طبيباً أو مهندساً، تكون هي مهنة الحياة) فأجبته: يا باشا أنا لا أرغب أن أخدم بالجيش، فرد عليّ: طيب ماذا تريد؟ قلت وظيفة مؤقتة أستطيع الخروج منها لأكمل دراستي الجامعية إذا سمحت لي الظروف. فكتب لي ورقة وسلمني إياها قائلاً: خذ هذه لحسام الدين. (وحسام الدين المفتي) كان مديراً لما يسمى بالسجل في ذلك الحين (أي إدارة الأفراد).

وذهبت في اليوم التالي إلى (السجل) والتقيت السيد حسام الدين وأعطيته الرسالة، وطلب ضابط صف برتبة (وكيل) وأعطاه الرسالة. أخذني ضابط الصف إلى مكتبه وأخرج (إضبارتي) القديمة ووجد مكتوباً عليها اسمي ورقمي السابقان، ومكتوب عليها أيضاً (رُمّج لعدم الاستفادة)، فصاح قائلاً: الله أكبر تترمّج لعدم الاستفادة وتعاد للخدمة برتبة أعلى وبراتب أعلى! وقد عدت إلى ضابط الصف هذا بعد ثلاثة شهور بالضبط لأدخل مدرسة المرشحين، فنظر إلي بحقد قائلاً (والله بعد كم سنة إذا سارت الأمور هكذا غير تقعد محل كلوب). وهكذا اتجهت بي الظروف ودفعتني في مسار كرهت أن أجعله ميدان حياتي. وهذا دليل واضح على أن الإنسان في واقع مثل واقعنا ـ في حينه ـ لا يملك حرية الاختيار.

## رحلة إلى فلسطين

وقبل أن أغادر مدرسة المطران لأدخل ميدان الجيش، لا بد من أن أكتب عن رحلة إلى فلسطين مع عدد من التلامذة في مثل سني بصحبة مدير مدرسة المطران. كانت الرحلة في نهاية العام قبل الأخير في مدرسة المطران، وقد ابتدأت رحلتنا في غور الأردن الشمالي وتحديداً من قرية العدسية المطلة على نهر اليرموك، قبيل مصبه في نهر الأردن، وهي تعاونية زراعية تملكها طائفة البهائيين ومقرها حيفا في ذلك الحين،



ومؤسس هذه الطائفة من أصل إيراني وكذلك من يعيشون فيها. وكان ابن مسؤول هذه التعاونية طالباً في مدرسة المطران، واستضافنا بها ليلتين، وكانت مزرعة حديثة فيها الموز والحمضيات وتظلل أطرافها أشجار الكينا الباسقة. غادرنا هذه المزرعة عبر جسر المجامع إلى غور فلسطين الشمالي أي إلى المستعمرات اليهودية المقامة جنوب بحيرة طبريا، وكان خط سير رحلتنا بعد زيارة المستعمرات اليهودية هو طبريا ـ الناصرة ـ حيفا ـ تل أبيب ـ يافا ـ فالقدس.

وأذكر هذه الرحلة ليس لأنها كانت ممتعة حقاً، بل لأنها عرفتني بواقع كنت أجهله، إذ لم يكن لدي أية فكرة عنه وأشارت إلى دلالات لم أميزها إلّا مؤخراً، ومنها ما للمدارس التبشيرية من مهام ذات صلة برؤية القائمين عليها لمستقبل هذه البلاد.

كنت بعد أن قطعنا جسر المجامع سرنا إلى (كيبوتس أفيكيم[٢]) وهي تعاونية زراعية لا أعرف حتى الآن مدلول أسمها، أو معناه، وهي ملك لإحدى المؤسسات التي تعنى بالاستيطان في حينه في فلسطين، لا يملك القاطن فيها غير متاعه الشخصي ويكون غالباً عاملاً زراعياً. وفيما عدا السكن، فالحياة هناك جماعية يأكلون وجبات الطعام في مكان واحد ومن مطبخ واحد، ولأطفالهم مدارس واحدة وحضانة واحدة. وللعامل في هذه التعاونية أجر محدد يصرفه على حاجاته ومتطلبات عائلته، وكل عامل له حرية المغادرة متى أراد ذلك، ضمن الأنظمة المعمول بها. لم أعد أذكر كم أمضينا في هذا (الكيبوتس)، ولكنها كانت أكثر من ليلة واحدة عايشنا بها ساكنيها. وأسرد على القارئ الواقعة التالية التي لم أدرك معانيها في حينه: كنت أقف على شاطئ بحيرة تربية الأسماك والتي كانت تستخدم للسباحة أيضاً، وكان هناك فتاة تسبح في البحيرة كنت أقف متفرجاً عليها، وكنت ألبس لباس الكشافة (الذي هو عنوان هذه الرحلة). وعلى كتفي شريطا الكشافة المشهوران، أحدهما أصفر والثاني أزرق سماوي، وإذ وقف إلى جانبي رجل ليس شاباً، مد يده إلى الأشرطة التي على كتفي ضاحكاً، وسألني: هل تعرف ماذا يعني هذان اللونان اللذان على كتفك (لم أعد أذكر، أقالها بالإنكليزية أم بالعربية)؟ قلت له: أعرف فقط أنهما شارة الكشافة. فرد قائلاً: إن هذين اللونين هما لونا علم (إسرائيل). وطبعاً (إسرائيل) لم تكن موجودة، والاسم بذاته كان

---

(٢) تعاونية زراعية.

مجهولاً لي. وكنت أعرف بشكل عام أن اليهود يطلبون ويتمنون إقامة دولة في فلسطين. ومع ذلك فلا زلت أذكر اللامبالاة وعدم الاهتمام الذي قابلت به هذا القول، لأن القضية بكليتها لم تكن واضحة لي، ولم تكن كذلك في عقل وفهم من هم مثلي في شرق الأردن في حينه، أما في فلسطين فالأمر مختلف جذرياً، وهذا ناجم عن واقع ذي اتجاهين: إرادة السلطة المنتدبة وأدواتها التي تتولى الحكم في الأردن؛ وعدم قدرة القيادة الوطنية الفلسطينية على اختراق هذا الواقع وإيصال قضيتها ورؤياها لجميع مستويات الناس في شرقي الأردن. طبعاً كان هناك مؤيدون ومريدون للرموز الأساسية في الزعامة الفلسطينية وخاصة الحاج أمين الحسيني - يرحمه الله - وبينهم زعماء عشائر كثيرون ومهمون. بل إن كل من كان في المعارضة من هؤلاء الزعماء كان يعتبره الإنكليز والأمير عبد الله مؤيداً للحاج أمين. ولكن هذا التأييد لم يكن كافياً ولا فاعلاً لأنه لم يكن التزاماً مقروناً بفعل. وإثباتاً لمدى خوف الإنكليز وأدواتهم (إدارة شرقي الأردن) من هذا الأمر، أروي للقارئ هذه الواقعة: سافر عمي سليمان إلى الشام ليجهز لعرس أحد أبنائه وكان ذلك في عام ١٩٤١، وكان عمي من مريدي الحاج أمين، وبعد عودته بأيام قليلة استدعي لمقابلة الأمير بواسطة أحد فرسان الدرك في مخفر ذيبان. في اليوم التالي توجه عمي إلى عمان، ولدى وصوله إلى ديوان الأمير أدخل فوراً إلى مكتبه. قال عمي: بعد أن سلمت على الأمير وقال لي اجلس يا سليمان، ما إن جلست حتى سألني الأمير: يا سليمان أنت كنت بالشام؟ فعرفت الأمر ولكنني أخطأت ما في ذهن الأمير، فقلت نعم يا سيدنا كنت في الشام، وهناك التقيت صديقاً لي لا يمكن أن أكون في الشام دون أن ألقاه وهو الدكتور صبحي أبو غنيمه، زعيم المعارضة في الأردن آنذاك وكان لاجئاً بالشام في ذاك الحين. فرد الأمير قائلاً لعمي: يا سليمان سمعت أن الحاج أمين أعطاك ثلاثمائة ليرة لتقوم بثورة في جبل بني حميدة، فرد عمي قائلاً: يا سيدنا أنت تعلم موقفي الموالي لسموكم، وكذلك تعرف أنني لست بحاجة إلى ٣٠٠ ليرة فلسطيني. ولكنني أقول لك أن الناس في جبل بني حميده (جيعانه) (والجوع كافر). ولم يكتفِ الأمير بهذا اللقاء والنفي، بل أرسل إلى كل مشايخ بني حميده واجتمع بهم وتحدث إليهم في الأمر. الأمر الذي يدل على جدية الموضوع وخطورته.

أمضينا في (كيبوتس أفيكيم) يومين وليلة واحدة عرفت فيهما نمط حياة جديداً وفهماً ومضموناً جديدين، ومن بين ما عرفت من إحدى الفتيات التي أطعمتنا عنباً ممتازاً



وقالت إن هذا العنب هو من عنب السلط. سافرنا بعد ذلك إلى طبريا وأمضينا بها ستة أيام في بيت لجمعية الـ (Y.M.C.A) قائم على منحدر صخري يصطدم بالبحيرة مباشرة على طرفها الغربي. وكان قرب سكننا مباشرة بركة ماء من نبع ماؤه دافئ كنا نسبح بها خلال النهار، وفي سكن مجاور لسكننا شيخ جليل في العقد الثامن من عمره أميركي الجنسية أظنه كان ينوي أن يقضي ما تبقى من عمره مجاوراً لتراث المسيح، وكان هذا الشيخ يرأس «جمعية الشبان المسيحيين». وكنا نجلس ونتحدث إليه، وفي إحدى الجلسات قدم لنا سجاير فأخذ بعضنا وأنا منهم يدخّن فقال قولاً يبقى في الذاكرة، قال بالإنكليزية: (I am sorry for the man who smokes before forty, and I am sorry for the man who does not smoke after forty) (أنا أأسف على من يدخن وعمره دون الأربعين ولكنني أيضاً أأسف على من لا يدخن وعمره فوق الأربعين).

خلال هذه المدة التي أمضيناها على بحر الجليل زرنا كل الأماكن التي لها علاقة بتراث المسيح. فعلى هذا البحر وعلى شاطئه قام السيد المسيح بأكثر من معجزة، فحينما هبت ريح عاتية على قاربه هو وبعض حوارييه أمرها أن تسكت فسكتت، وعلى سطح ماء البحر هذا مشى السيد المسيح، وعلى شواطئ بحر الجليل عاش الصياد بطرس أشهر حواريي السيد المسيح، وقد أبحرنا كذلك في بحيرة الحولة التي كانت قائمة آنذاك. وخلف طبريا وإلى الجنوب الغربي منها تقع تلال حطين التي جرت على أرضها معركة حطين الفاصلة بين المسلمين والفرنجة.

بعد عدة أيام قضيناها في هذا المكان الجميل، تابعنا رحلتنا إلى مدينة الناصرة، وكانت بيوتها حسنة البناء وشارعها الرئيسي مبلطاً ولم نبق طويلاً بها. زرنا إحدى الكنائس وغادرنا إلى حيفا. كانت جميع الطرق التي سرنا عليها مبلطة بشكل جيد وإشاراتها ودلالاتها منظمة، وبعض مواقف الانتظار على الطرق تستظل بالأشجار، وكان التشجير يلفت النظر في هذه المناطق، الأمر الذي لم يكن موجوداً في شرقي الأردن. وصلنا إلى حيفا ونزلنا في معهد «التكنيون» الذي ما زال يحمل هذا الاسم حتى الآن وإن كان قد تحول إلى (جامعة التكنيون). وتميزت حيفا في حينه بمصفاة تكرير نفط العراق، وبشارع الملوك الواسع والذي تقع على جانبيه العديد من العمارات الكبيرة والحديثة وكذلك (بالهدارا كرمل) التل الذي يشرف على البحر، وهو مشجر

وبه مساكن جميلة وفيلات حديثة. أمضينا في حيفا ليلتين، اتجهنا بعدها إلى (تل أبيب ـ يافا). وصلنا تل أبيب في صباح يوم السبت، لقد كانت مدينة نظيفة حديثة منظمة، معظم أبنيتها من الإسمنت. وكانت في ذلك الحين مدينة يهودية لا يسكنها أحد من العرب كما أن يافا الملاصقة لها لا يسكنها أحد من اليهود.

بعد أن نزلنا أحد الفنادق ووضعنا أمتعتنا هناك، قصدنا المدينة بقيادة مدير المدرسة وتجولنا في شوارعها الواسعة والنظيفة، وكانت جميع متاجرها مغلقة في يوم السبت. اتجهنا إلى شاطئ البحر، ومع أنني كتلميذ داخلي في مدرسة المطران لم يكن منظر الفتاة يثيرني، فنحن نرى تلميذات مدرسة البنات الإنكليزية (C.M.S) والتي كانت تجاورنا. وكانت تلميذات المدرسة الداخليات يأتين إلى الصلاة في مدرستنا كل أيام الآحاد، وكن يحضرن في أيام الأعياد والاحتفالات الرياضية التي تقيمها مدرسة المطران في نهاية كل عام، فمنظر الفتاة بزيها الحديث لم يكن أمراً غير عادي بالنسبة لنا. غير أن الأمر كان مختلفاً تماماً على شاطئ البحر في تل أبيب، حشد هائل من البشر نساء ـ رجال ـ أطفال ـ لا يلبسون إلّا ملابس البحر والكثير منها من قطعتين، وهذا منظر نراه لأول مرة في حياتنا. منظر نساء شبه عاريات على شاطئ البحر كان في حينه أمراً مثيراً لرفاقي. أما بالنسبة لي فقد كان الأمر مختلفاً إذ لم أحس بأي انفعال بل تحول الأمر لديّ إلى رد فعل معاكس. فهذا المرأى جعلني أميز بين فتاة جميلة ساترة جمالها تجعلك في شوق دائم لاكتشافه، وبين فتاة جميلة شبه عارية يفقد جمالها تأثيره بإدغامه بهذا الحشد العاري الذي فيه من القبح أكثر مما فيه من الجمال.

تجولنا في اليوم التالي في مدينة يافا، وكانت يافا نقيض تل أبيب، مدينة عربية إسلامية محافظة. وفي اليوم التالي توجهنا إلى القدس وأمضينا هناك ثلاثة أيام في ضيافة مدرسة (سانت جورج). وفي العام التالي عدت وزرت مدينتي يافا وحيفا كعضو في منتخب الأردن لكرة القدم والتقينا مع شباب العرب في حيفا، ومع إسلاميي يافا في يافا.

وهكذا يرى القارئ أنني أعرف فلسطين جيداً، وخاصة بعد دخولي الجيش، فيما عدا منطقة غزة والنقب. وقبل أن أغادر تراث مدرسة المطران لا بد لي أن أذكر أن لي، على المستوى الأدبي، إنتاجين، قصة قصيرة وموضوعاً سياسياً بالإنكليزية عنوانه



(Evolution is better than revolution) أي أن التطور أفضل من الثورة ـ إلّا أن هذا الإيمان لم يثبت، ولقد فرض الواقع في وطننا تبدلاً في الأسلوب وليس في الجوهر (فلو أن التطور في التاريخ كان يأخذ مجراه طبيعياً ولا تقف في وجهه أدوات القهر الاجتماعي والسياسي، لما كان هناك ثورات اجتماعية وسياسية).

## الجيش

في اليوم المحدد للذهاب إلى الفحص الطبي ومن ثم إلى التجنيد، ترددت كثيراً بالذهاب، ولو كنت أملك في حينه ما يكفيني مؤونة الذهاب، لما ذهبت إلى مقر التجنيد على الأقل في الوقت المحدد، لأنني كنت أكره أن يكون الجيش مهنة الحياة، لأن طبيعتي تتعارض مع كل ما تتطلبه الجندية من طاعة (وفي واقع مثل واقعنا طاعة عمياء وجاهلة نفذ ومن ثم ناقش). ذهبت للفحص الطبي واجتزته، وفي اليوم التالي ذهبت إلى التجنيد (في معسكر العبدلي) وهناك تسلمت تجهيزاتي العسكرية مع أكثر من مائة مجند، نقلنا في اليوم التالي إلى مدينة أريحا، وبعد وصولنا بيوم واحد نقلنا من هناك إلى معسكر التدريب الأمامي (في مركز بوليس النبي صالح) في منطقة رام الله، والحقيقة أن المكان لا يصلح أن يكون مركزاً لتدريب الأغرار، فليس فيه أرض مستوية ذات مساحة كافية تصلح للتدريب. بدأنا تدريبنا على السير وعلى حركات السير بدون سلاح، وبعدها بالسلاح، ولم يكن هذا النوع من التدريب مجهولاً لدي. ومع ذلك فلا أحد يمكن أن يتصور الأسى الذي سيطر علي، أن تنتقل من مدرسة المطران إلى (وسط عسكر أبو إحنيك). عملية تبدو متناقضة لا بل صارخة التناقض. فالجندية ضمن تركيب الجيش في الأردن في ذلك الحين وما بعد ذلك وحتى يومنا هذا، هي عملية قلب لما يجب أن يسود من مفاهيم وقيم وقوانين وأنظمة تجعل الحياة في ظلها مقبولة لكل إنسان حسب معرفته وقدراته. فهذا الجيش في ذلك الحين كان مبنياً، بشرياً ومعنوياً، تدريباً وتسليحاً ليخدم سياسة معينة ومحددة. وكنت أعرف هذه الحقيقة قبل دخولي إلى صفوفه، ومع ذلك فما على الإنسان السوي، إلّا أن يتقبل الواقع ويواجهه بعقل وبنفس صابرة، وهكذا عدت إلى طبيعتي ما قبل المطران، وطبعاً مع اختلاف الواقع والظرف المكاني والزماني. وقد عانيت من مشكلة مسلكية لم أستطع التغلب عليها كليةً، وهي أنني في سلوكي تجاه المدرسين والمسؤولين: أظهر سلوكاً متعالياً خلافاً لما يتطلبه الأمر من جندي غر. وأنا بوجه عام

لم أكن قادراً دوماً على تقديم الاحترام بالشكل المرضي في أي مستوى لمن لا يستحقه. ومن هنا كانت معاناتي شديدة فلقد خرجت من التدريب أكثر من مرة مقهوراً حد البكاء، إلّا أن الأمور مع الأيام صارت أسهل، وبدأ المدربون والآمرون يتفهمونني، وبعدها سارت الأمور سيراً عادياً قبل أن أذهب إلى مدرسة مرشحي الضباط.

## إلى دورة مرشحي الضباط

وفور إعلان قيادة الجيش في ذلك الحين طلب متطوعين لدورة المرشحين المقبلة، تقدمت بطلب الفحص لهذه الدورة، وتمت الموافقة على طلبي، وفي الموعد المحدد ذهبت إلى عمان ومن هناك إلى مكان الفحص في محطة عمان. وبعد خمسة عشر يوماً من الفحص طلبت قيادة الجيش برقياً من قائد مركز تدريب النبي صالح الرائد عبد الحليم الساكت في حينه أن يبين رأيه بي، إن كنت أصلح أن أكون ضابطاً، فأجاب على برقية القيادة بكلمتين (بم، ممتاز) أي إشارة إلى برقيتكم المذكور ممتاز.

وفي فترة وجودي بمركز تدريب النبي صالح حدثت واقعتان لا بد من ذكرهما، **الأولى**.. احتل اليهود مدينتي اللد والرملة، وكان في مدينة اللد سرية مشاة مركز قيادتها في مركز بوليس مدينة اللد، يقود السرية النقيب (أديب القاسم)، وقد انسحبت هذه السرية دون قتال حسب الأوامر التي أعطيت لقائدها وهي (رواية لا تنسجم مع ما جاء في مذكرات اللواء صادق الشرع)، لأنه بعد احتلال اليهود لمدينتي اللد والرملة قامت سرية مدرعات من كتيبة المدرعات بقيادة الملازم في حينه (حمد أبو إدخينه) وبمبادرة ذاتية منه بهجوم على اليهود وأجلتهم عن كثير من المواقع وكبدتهم خسائر جسيمة. ولما أكمل قائد السرية ما ظنه واجباً قام بتنفيذه، أبرق إلى قيادته مفتخراً ومزهواً بالعمل الذي قام به، وطلب قوة (مشاة) لاحتلال المواقع التي طهرها وتمويناً وعتاداً لجنوده وسلاحه، فجاءه الرد: عليك أن تنسحب فوراً ولن نزودك لا بالعتاد ولا بالتموين، فاضطر إلى الانسحاب فعاد «الإسرائيليون» واحتلوا المواقع التي أخلاها (هذه الرواية رواها لي النقيب عبد الله قاعد الذي كان ضابط صف يقود إحدى فئات السرية). وهنا لا بد أن أذكر قصة هذا الجندي الشجاع والمشهور في



الجيش الأردني بكنية (أبو إدخينه). فمحمد أبو إدخينه، كما قيل من عرب فلسطين، فر من سجن (عكا) والحديد في قدميه مسجوناً لجرم لا أعرفه (لكني أعتقد أنه سياسي)، ووصل إلى مضارب الخرشان في منطقة الموقر غرب عمان، ودخل على الشيخ حديثة الخريشه الذي بدوره (دخل على كلوب للعفو عنه) وجنّده (كلوب باشا) بعد ذلك في الجيش.

**والواقعة الثانية**، هي أنه بعد أن احتل اليهود مدينتي اللد والرملة، سارت جموع من اللاجئين الفارين من إرهاب اليهود نساءً وشيباً وأطفالاً إلى الشرق، حيث المناطق التي تحت إشراف الجيش الأردني، وهناك واجهت أول تجربة إنسانية، فقد أعطيت عدداً من سيارات النقل الكبيرة لتساعد هؤلاء الهائمين في الوصول إلى المقرات المخصصة في مدينة رام الله، وكانت تجربة لا تنسى. وكانت معركة القدس في تلك الفترة على أشدها، ووصلتنا الأخبار أن اليهود في القدس رفعوا الأعلام البيضاء وطلبوا الاستسلام، وكنا شديدي الفرح بهذه الأنباء، إلّا أن اليهود لم يستسلموا لأن الهدنة قد أعلنت في لحظة تاريخية جرى اغتيالها بقرار سياسي من أعلى (إنها المؤامرة).

## الفحص لدورة المرشحين

في الفحص الذي تقدمت إليه لدخول الجيش كمرشح ضابط، قدم لنا سؤال حول القضية الفلسطينية، لم أعد أذكر صيغة السؤال تحديداً ولكنه بشكل عام يطلب وضع رؤيا لحل القضية. وأنا الآن طبعاً لا أستطيع أن أحدد مضمون إجابتي بدقة، إلّا أن هناك فكرة أساسية في الإجابة لا يمكن نسيانها وهي أن توحد فلسطين بمن فيها من عرب ويهود مع شرقي الأردن تحت قيادة الأمير عبد الله. إن قضية التوحيد هذه لم تكن عفوية، ففي تلك الفترة كان الأمير عبد الله يطرح باستمرار مشروع سورية الكبرى كما كان يسميه، وكان القوميون السوريون يقولون بذلك أيضاً. وكان هذا المشروع في تلك المرحلة يستهويني.

## مقابلة قائد الجيش

استدعيت إلى عمان مع جميع الذين نجحوا في فحص القبول، من أجل اللقاء بـ(كلوب باشا) قائد الجيش والذي يعتبر لقاؤه نهاية المطاف بالنسبة لقبولك ضابطاً

في الجيش، دخلت عليه في مكتبه وحييته وكنت منفعلاً هذه المرة بخلاف ما كنت عليه حينما قابلته بصحبة عمي في المرة الأولى.. وسألني: لماذا تود أن تدخل الجيش؟ فارتبكت وتمتمت بشيء لم أعد أذكره، لأنني لم أستطع أن أقول الحقيقة التي يعرفها هو، وهي أنني اضطررت لذلك.

## دورة المرشحين

بعد قبولي كمرشح ضابط، ذهبت أنا وزملائي في اليوم التالي إلى مركز التدريب في معسكر العبدلي، وهناك زودونا بتجهيزات مرشح ضابط، واقتادوا المدنيين منا إلى مقر سكناهم في جناح تدريب المرشحين في المعسكر. أما العسكريون فقد أبلغهم قائد مركز التدريب أن عليهم العودة إلى وحداتهم التي كانوا يعملون فيها لإنهاء علاقتهم، وطلب مني قائد مركز تدريب العبدلي أن أكون مسؤولاً عن قافلة تحمل مجندين إلى مركز تدريب النبي صالح. فلبست ملابس (مرشح ضابط) وهو أمر غير مستساغ مع أنه جائز، وركبت في أول سيارة نقل وقدت القافلة إلى فلسطين، وفي الطريق بعد أن تجاوزنا بيرزيت باتجاه مركز تدريب النبي صالح، التقتنا سيارة (فورد صالون) ترفع على مقدمتها (علم قائد اللواء). وبإشارة من سائق الفورد، توقفت القافلة التي كنت أقودها. ولم أترجل من السيارة مع أنني رأيت ضابطاً برتب عسكرية كثيرة وشارات حمراء، سأل بواسطة سائقه بالعربية، لماذا القافلة مسرعة؟ فأجبت من موقعي أنها ليست كذلك، ولما رأى الضابط الكبير، وهو إنكليزي، أنني غير مهتم كثيراً بما يقول، أمر سائقه بالمسير، والواقع غير الطبيعي في الجيش تجاه الضباط الإنكليز في ذلك الحين، هو الذي فرض على قائد اللواء التسامح تجاه تصرفي ذاك، لكن في اليوم التالي وردت برقية من قيادة اللواء الأول إلى قائد مركز (تدريب النبي صالح) يسأل في هذه البرقية عن اسم ورتبة الضابط الذي كان يقود قافلة المجندين التي وصلتهم. فأجابه قائد مركز تدريب النبي صالح، أنه لم يكن هنالك ضابط في هذه القافلة. وهكذا أسقط الواقع أول مخالفة عسكرية لي.

أنهيت علاقتي بمركز تدريب النبي صالح وعدت إلى مركز تدريب العبدلي ـ جناح المرشحين.



## جناح تدريب مرشحي الضباط في معسكر العبدلي

لم يكن جناحاً خاصاً بما تتضمنه كلمة الخصوصية من مضمون ومستلزمات، لقد كان هناك (براكيتان من الصفيح) BARRACKS مخصصتان للمرشحين. إحداهما تستخدم مسكناً للضباط والأخرى مطبخاً، والجزء الآخر مكاناً للجلوس ومائدة للطعام. ولم يكن هناك حتى مغاسل نغسل عليها وجوهنا، بل كنا نستعمل أباريق الماء لغسل وجوهنا صباحاً. وكانت الحمامات عامة.

أمضينا فترة التدريب وكانت مدتها قرابة الثلاثة أشهر، وكانت عناوينها ـ المسير ـ المسير بالسلاح ـ التدريب على الأسلحة الخفيفة وبعض التكتيك الحربي الأولي، وختمنا الدورة بأسبوع في منطقة (قصر الخرانه)، حيث أجرينا تدريبات حربية بالسلاح. بعدها انتقلنا إلى مدرسة الإشارة (اللاسلكي) في معسكر الزرقاء لنأخذ فكرة عن وسائل الاتصال بالشيفرة واللاسكي لمدة ثلاثة أسابيع، وبدورة اللاسلكي هذه اختتمنا دورة مرشحي الضباط.

وفي نهاية الدورة انتخبوا منا ستة مرشحين لإرسالهم إلى كلية (ساند هرست) العسكرية في بريطانيا، وكنت من بينهم. طرنا من مطار عمان العسكري على إحدى طائرات شركة الطيران الأردنية التي تكونت حديثاً، طائرة لا تتسع لأكثر من عشرة أشخاص مع أمتعتهم، جناحاها من طابقين، أوصلتنا بعد جهد إلى معسكرات (فايد) على قناة السويس، والجيش الأردني في حينه جزء من قوات (M.E.L.F) (Middle East Land Force) الشرق الأوسط. وبعد أن أمضينا ليلة واحدة، انتقلنا في اليوم التالي إلى ميناء بورسعيد، ومن هناك ركبنا الباخرة إلى بريطانيا، وكانت باخرة تنقل جنوداً بريطانيين وعوائلهم إلى بريطانيا. واستغرقت الرحلة البحرية أسبوعين إلى ليفربول وكانت رحلة (كايفه[٣]). انتقلنا بالقطار من ليفربول إلى لندن. وفي اليوم التالي استقبلنا الملحق العسكري في السفارة الأردنية، المقدم (كمال الحمود الخصاونة) الذي أرسلنا إلى مدرسة مرشحي ضباط الاحتياط الذين يؤدون الخدمة

(٣) ممتعة.

الإلزامية في (Aulder - shot) ومدتها ثلاثة أشهر. والمقدم كمال ضابط ناعم ووسيم وكان قائداً لمدفعية الجيش الصغيرة برتبة نقيب، وكانت مساهمة مدفعية الجيش الرئيسية هي الإعلان للناس في شهر رمضان أن موعد الإفطار قد حان، وكذلك موعد الإمساك، وفي إحدى هذه المرات سقطت إحدى قنابل الإبلاغ هذه على معسكر للاجئين البولنديين في منطقة الساحل في غزة وقتلت عدداً منهم وجرحت آخرين، فخفضت رتبته إلى ملازم أول وسرح بعض ضباطه. وقد دامت هذه الرحلة إلى بريطانيا قرابة أربعة أشهر منها شهر عشناه مع عوائل بريطانية من أجل اللغة والمعايشة. وبعدها عدنا إلى الوطن.

## في سلاح المدفعية

تم فرزي بعد عودتي إلى الأردن إلى سلاح المدفعية، وكانت مدفعية الجيش تتكون في بداية عام ١٩٤٩ من كتيبة مدفعية ميدان واحدة مؤلفة من بطاريتي ميدان عيار (٢٥ باوند)، وكل بطارية تتألف من ثمانية مدافع. وملاك كتيبة مدفعية الميدان في حينه يتألف من ثلاث بطاريات، كانت قيادة الكتيبة في رام الله، أما البطاريتان فحول مطار (قلنديا)، البطارية الثانية في نهايته والأولى على جانبه الجنوبي. وكان يدير البطاريتين والكتيبة ضباط إنكليز. فألحقوني حينها ببطارية مدفعية الميدان الأولى التي يتواجد في حينه من ملاكها من الضباط إلّا النقيب (هولمان) قائد البطارية والملازم الثاني زهير عمر مطر (وصل إلى رتبة لواء مديراً للأمن العام)، أما بقية الضباط فقد كانوا في بريطانيا لأسباب عديدة، منها دورات تدريبية واقتصادية (لمصلحة السياحة) ومنها التعرف على بريطانيا.

حدث بعد التحاقي ببطارية المدفعية الأولى بفترة قصيرة أن زار الملك عبد الله مدينة القدس، وحطت طائرته (بمطار قلنديا)، فذهب كبار الضباط لاستقباله بمن فيهم الضباط الإنكليز ولم أكن طبعاً من بينهم، وكما هي عادة الملك عبد الله فقد تأخر وصوله عن الوقت المحدد، وعلى مائدة الغداء خاطبني قائد البطارية بالإنكليزية قائلاً: لماذا لا تعلّمون ملوككم احترام الوقت؟ فأجبته قائلاً على السجية (لقد قطعتم رأس أكثر من ملك حتى تعلم ملوككم ذلك)، فاستغرب الجواب ولكنه احترمه.



انتقلت كتيبة مدفعية الميدان الأولى في بداية الشتاء إلى غور فلسطين شمال مدينة أريحا، وفي هذا المكان بدأ قائد الكتيبة أولى دورات التدريب الجدية للمرشحين الجدد في السلاح وكنا ثلاثة، أحدنا المرشح في حينه صديقي عزمي مهيار، ونقطة الضعف في هذه الدورة أن برنامجها كان متقطعاً ولم تكن كافية لإعطائنا المعلومات اللازمة عن واجبات الضابط المدفعي من مستوانا، ولكنها أعطتنا صورة عامة عن مواصفات مدفع الميدان وإمكاناته ومهام المدفعية بصورة عامة.

في هذه الفترة زار الكتيبة ملازم أول على ذراعه شارة سلاح المدفعية. كان له دور وتأثير في بلورة وتحديد توجهاتي السياسية والعقائدية. شاب وسيم يلبس شماغاً وعقالاً مقروناً غير رفيع رتبته عالية بالنسبة لسنه، غادر الكتيبة بعد الزيارة دون أن نتعارف. ولما سألت عنه بعد أن غادر، قالوا لي إنه شاهر اليوسف ضابط في سلاح المدفعية معار إلى لجنة الهدنة الأردنية ـ الإسرائيلية. أمضينا شتاء ذلك العام في غور فلسطين وقد (أثلجت) علينا في مكاننا هذا، وهذا قلما يحدث في الأغوار. وفي أوائل الصيف انتقلنا إلى منطقة مدينة الزرقاء ـ شرقاً ـ وقد أصبحت هذه المنطقة معسكرات ثابتة لأسلحة الجيش المساندة. وكان يقع شرق مدينة الزرقاء مباشرة معسكر لقوة حدود شرقي الأردن التي كانت تتبع مباشرة لقيادة القوات البريطانية في فلسطين كان أغلب مجنديها من العرب والأقليات في فلسطين بشكل خاص، وقادتها ضباط بريطانيون، انحلت هذه القوة قبل حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وورث الجيش العربي معسكرها هذا ـ الذي أصبح جزء منه مساكن ومراكز خدمات للجيش العربي. وفي هذا المقر الثابت اكتمل ملاك كتيبة مدفعية الميدان الأولى وأصبحت ثلاث بطاريات مدفعية تضمّ أربعة وعشرين مدفعاً ـ يدير هذه البطاريات ضباط بريطانيون. في ذاك الوقت من العام نفسه عاد ضباط المدفعية الذين كانوا في دورات تدريبية في بريطانيا. إلّا أنهم لم يلتحقوا جميعاً بسلاح المدفعية، فقد تشكل في حينه في مطار عمان العسكري جناح اسمه جناح «الملاحظة الجوية» خاص بسلاح المدفعية. التحق به في حينه كل من الملازم الأول عامر خماش، والملازم الأول عبد الله البيطار، والملازم الأول منذر عناب، والملازم الثاني عبد الرحمن العرموطي، والملازم الثاني سامح فالح. والتحق بسلاح المدفعية الملازم الأول محمود المعايطه والملازم الثاني بهجت المحيسن.

## أم الرشراش – إيلات

في أواخر عام ١٩٥٠ استولى اليهود على قرية أم الرشراش على رأس خليج العقبة مع الحدود الفلسطينية، وكان يدافع عن هذا الموقع سرية مشاة يقودها ضابط إنكليزي برتبة نقيب اسمه (Promig) يتحدث العربية على طريقة كلوب، انسحبت السرية دون قتال، لأنه حسب المخطط لا بد أن تطل إسرائيل على البحر الأحمر وتفصل مصر براً عن المشرق العربي. إزاء هذه الرؤيا الاستراتيجية الإسرائيلية – الإنكليزية، لن تقف اتفاقية الهدنة أمام هذا الهدف، وكان يرأس الحكومة آنذاك السيد سعيد المفتي – الذي كره أن يحدث ذلك في عهد حكومته. ولذا أصر على استعادة هذا الموقع ولو بالقتال، وطلب من قيادة الجيش العمل على ذلك. فكان لا بد لقيادة الجيش أن تطيع أوامر رئيس الوزراء مضطرة. فتحركت كتيبة المشاة الأولى تساندها بطارية مدفعية الميدان الأولى وسرية مدرعات. وكنت في حينها بين ضباط بطارية المدفعية، تحركت هذه القوة بالقطار إلى معان، وهناك عسكرنا في معسكر بريطاني مهجور وبقينا في هذا المعسكر عدة أسابيع لا تتجاوز الشهر، ولم نتقدم أبعد من ذلك، إلى أن استقال السيد المفتي من رئاسة الوزراء. وعدنا بعدها إلى معسكرنا في منطقة الزرقاء.

وكنت قبل ذهابنا في هذه المهمة قد تزوجت من ابنة عمي سليمان في ١٩٥٠/١١/٢ وسكنت مدينة مأدبا. بعد عودتنا من معان التحق بكتيبة المدفعية الأولى النقيب شاهر اليوسف، وكان قد ترفع في شهر (١٢) عام ١٩٥٠ إلى رتبة نقيب، والملازم الأول محمود المعايطه. وتسلم شاهر ركن الكتيبة وعُيّن محمود مساعداً لقائد البطارية الأولى التي كنت أخدم فيها، وتعرفت إليه لأول مرة، وهو من الأشخاص الذين ما إن يتعرّف المرء إليهم يشعر بالراحة والطمأنينة. ومحمود مشهور بأنه ضابط شجاع قاتلَ في فلسطين بشجاعة موصوفة. توثقت علاقتي به بسرعة لكنه لم يبق طويلاً في سلاح المدفعية، فقد نقل إلى مركز تدريب العبدلي، في ملاك جناح (التدريب الحربي).

## اغتيال الملك عبد الله

في منتصف عام ١٩٥١ على ما أتذكر اغتيل الملك عبد الله في المسجد الأقصى



في القدس وهو يشق طريقه بين المصلين. وقد بكيته بالرغم من مأخذي على سياسته الخاصة بالقضية الفلسطينية وعدائه للحاج أمين الحسيني. فالملك ترك فراغاً بين الأردنيين لا يملأ بسهولة، فالأردنيون – كما يعرف الجميع في ذلك الحين – كانوا عشائر بمسيحييهم ومسلميهم. وكان شيخ هذه العشيرة وقاضيها هو الملك عبد الله. وكان تقياً فقيهاً وأديباً بسيطاً وصادقاً، وكان الناس يحتكمون إليه كما يحتكمون إلى كبارهم. وكان أهل الأردن في زمانه يشعرون بالأمان ولا يشعرون بأن الإنكليز يستعمرونهم. بالرغم من وجود (كلوب)، فقد كانت طباعه ولغته العربية وصلاته بالعشائر تكاد تنفي عنه صفة المستعمر. وكان الإنكليز لأسباب استراتيجية خاصة بالإقليم وخاصة بالقضية الفلسطينية يهمهم استقرار الأردن، ومن هنا لم يشعر أهل الأردن في زمن الأمير عبد الله بضيق اقتصادي خارج سنيّ (المحل) التي اعتادوا عليها، حتى في زمن الحرب لم يحدث في الأردن ضيق اقتصادي مثل الذي حدث في فلسطين وسورية.

صحيح أن احتياجات الأردن كانت بسيطة في ذلك الحين، ولكن المبدأ السياسي العام للإدارة البريطانية كان باتجاه خلق واقع مستقر في الأردن في تلك المرحلة، أي أثناء الحرب العالمية الثانية، والأهم من ذلك أن الملك عبد الله كان طموحاً ولا زالت أسباب قيام الثورة العربية حية في ذهنه وضميره، وقد سعى جاهداً إلى تحقيق ما كان يسميه مشروع سورية الكبرى، ولما فشل في ذلك توجه إلى العراق، وطلب من رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الأسبق أكثر من مرة أن يزوره، ولما زاره حمّله رسالة إلى المسؤولين في العراق قائلاً لهم: إنه في آخر عمره والملك فيصل الثاني لا يزال صغيراً، فلتتوحد العراق والأردن تحت قيادته وبعدها يتولى الملك فيصل الملك. لا أعرف هل قبل رياض الصلح القيام بهذه الوساطة أم لا، لأنه في طريقه إلى المطار اغتيل. وكان الذي اغتاله رقيباً في المخابرات العسكرية الأردنية وبعض من ينتمون للحزب القومي الاجتماعي، رداً على إعدام (أنطون سعاده[٤]) وبعده بأسبوع اغتيل الملك عبد الله. وما كان له أن ينجو من هذا الصراع المحتدم منذ قرن بين المشروع الصهيوني الاستعماري وبين طموح الشعب العربي المعادي لهذا المشروع. خصوصاً

(٤) أنطون سعادة: رئيس الحزب القومي السوري في حينه.

أن الكيان الأردني مخلوق ليكون عاملاً رئيساً من العوامل المساعدة لنجاح المشروع الصهيوني، ومن وراءه من عتاة المستعمرين. والملك عبد الله كان يحاول أن يخرج من هذا الفخ، وأنا أعرف الكثير من الجوانب الإيجابية في شخصية الملك عبد الله، من خلال الروايات التي كان عمي يرويها لي. ومنها أروي واقعتين من حوادث عديدة تدلان القارئ على جوانب من شخصية هذا (السيد).

بعد ثورة ابن عدوان الشهيرة، وسلطان ابن عدوان هو (شيخ البلقا) التي تسكن عشائرها بين جرش وسيل الزرقاء شمالاً ووادي الوالة جنوباً، وهي أكبر تجمع عشائري في الأردن في حينه، هي ثورة نسج خيوطها الإنكليز، وذلك من أجل إضعافه وإضعاف طموحاته بإظهار أن أهل البلاد يكرهون سلطانه. وبعد أن قامت الثورة قمعها الإنكليز بالطيران والمدرعات ليقولوا له بعد ذلك: إنك لا تستطيع البقاء في هذه البلاد دون دعمنا وتأييدنا ومساندتنا لك. بعد قمع هذه الثورة قام الأمير بجولة على كل مناطق الأردن، وطبيعي أن يفعل ذلك بعد هذا الحدث، ومن بين المناطق التي زارها، بلدة مأدبا، وخيم في ظاهر البلدة في منطقة تسمى (بيادر مأدبا). وكان وجهاء البلدة وشيوخ عشائر بني صخر والبلقاء وبني حميده وغيرهم يتوافدون على مخيمه يومياً. ويجلسون في مجلسه يتحدثون إليه. وفي إحدى هذه الجلسات كان المجلس مليئاً بوجوه المنطقة. وكان بين الموجودين سليمان الجمعاني. توجه الشريف شاكر – يرحمه الله – وكان ساعد الأمير الأيمن، توجه إلى الأمير عبد الله في حينه قائلاً: يا سيدي (والله إذا لم نضرب الرؤوس الحامية بقوة – أمس قام عليك ابن عدوان – باكر يقوم عليك بن فايز) فرد الأمير على الشريف قائلاً (يا شاكر والله لصار عندي من ذول ميتين) أي من هؤلاء مئتين (وكان هناك جنود يتدربون أمام المخيم لإظهار القوة ماني إمسايل عن كل شيوخ هذه البلاد) أي (ما أنا سائل)، فقال عمي: انتظرت أن يرد على هذا القول من هم أكبر مني سناً ومكانة في شيوخ العشائر الجالسين، ولما لم يرد منهم أحداً رفعت صوتي قائلاً: يا سيدنا! فالتفت إليّ وقال: ها – الجمعاني – فقلت: (يا سيدي والله بعيوني الثنين ذول. اللي سبان ما يأكلهن الدود. شفت الآلاف من مثل ذول هاربين يركض وراهم من هو على بعير، وإلّا على رجليه) وكانت الإشارة إلى جيش فيصل وهو يطارد جيش الأتراك، ففهم الأمير المغزى وضحك وقال: والله إنك صادق (وهذه صفة معروفة فيه) فعندما تقول الصدق أمامه لا يمكنك أن تخاف.



وأما الواقعة الثانية فهي إنسانية وسياسية. فقد قام الأمير بزيارة لمنطقة الطفيلة وبينما هو جالس في المضيف، تقدم منه رجل ووضع عقاله في عنقه، الأمر الذي يعني حسب العادات والتقاليد: أنا داخل عليك. فقال له الأمير (وراك يا رجل ويش أنت به) أي ماذا بك، فقال الرجل: يا سيدنا، أنا دخيل عليك. قال له ممن، قال الرجل: من قاضي الصلح هذا غرمني خمسة دنانير لا أملك منها فلساً واحداً. (لأنني جمعت حطب أدفي بيه عيالي أيام البرد)، فالتفت الأمير إلى قاضي الصلح سائلاً، هل هذا صحيح؟ فرد القاضي قائلاً: نعم هذا صحيح يا سيدنا، لقد حكمته بموجب القانون، والقانون مصدق عليه من سموكم. فقال الأمير: بغضب: ألا تخاف الله، القانون مطاط وبه ميدان واسع للرحمة. أما أنني وقعت عليه فنعم، صاغه (كوكس) ووقعت عليه رغم أنفي هذا. هل هناك اعتراف بالواقع أبلغ من هذا. من أجل هذه الصفات شن الإنكليز من خلال عملائهم، حملة جدية من الافتراءات عليه من أجل تشويه سمعته بين الناس.

## الملك طلال وولاية العهد

وحينما اغتيل الملك عبد الله، كان الأمير طلال ولي العهد يستشفي من مرض عقلي في مستشفى حلوان في مصر. ولهذا عين الأمير نايف الابن الأصغر للملك وصياً على العرش، وذلك كون الأمير الحسين بن طلال الابن الأكبر للملك طلال لا يزال تحت السن القانونية لارتقاء العرش. وفي واقع مثل هذا، ولي العهد مريض والابن الأكبر لا يزال تحت السن القانونية، والوصي على العرش هو الأخ الأصغر لولي العهد، فمن الطبيعي أن تبرز اتجاهات في مراكز القوى بالدولة تدعو إلى هذا وتحبذ ذاك. وأنا لا أعرف التفاصيل حول هذا الأمر. إلّا أنه جرت محاولة لتجاوز الأمير حسين في حينه، وتنصيب الأمير نايف ملكاً على الأردن. وكان أبرز الشخصيات الواضحة في هذا الاتجاه المؤيد من العراقيين: نوري السعيد والأمير عبد الإله. والعقيد في حينه حابس المجالي قائد الحرس الملكي، وقد حسم هذا الأمر حين تولي توفيق أبو الهدى رئاسة الوزراء، إثر استقالة سمير الرفاعي بعد واقعة الاغتيال مباشرة. فلقد جيء بالأمير طلال من مشفى حلوان في مصر، وتم تنصيبه ملكاً على الأردن، وما كان لتوفيق أبو الهدى أن يقوم بهذا الأمر لولا أن البريطانيين قد أشاروا عليه بذلك. وتوفيق أبو الهدى والإنكليز كانا يعرفان أن الأمير طلال مريض عقلياً، ولا يمكنه البقاء ملكاً على البلاد

طويلاً. والسبب الأهم وراء هذه الإجراءات، هو تثبيت ولاية العهد للأمير حسين قبل أي هدف آخر.

## بدايات التزامي السياسي

في أواسط عام ١٩٥١ كان لي صديقان، من بين أصدقائي هما النقيب شاهر اليوسف والملازم الأول بطرس حمارنه، وكان الأول ينتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي والثاني للحزب القومي الاجتماعي السوري، وقد أطلق بطرس على ابنه البكر اسم مصطفى تيمناً باسم مصطفى إرشيد الأمين العام للحزب القومي السوري آنذاك. وكان كل منهما ينشط معي لكسبي إلى حزبه. وكان لدي فكرة عن القوميين السوريين (الاجتماعيين فيما بعد). فقد كان لهم وجود جدي في كل من سورية ولبنان وفلسطين. وكانوا يدعون إلى وحدة سورية الكبرى، أي سورية ولبنان وفلسطين، والأردن، وفيما بعد إلى وحدة الهلال الخصيب. أي إضافة العراق إلى هذه الدعوة. ولم يكن لدي فكرة واضحة عن حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي كان ما زال يحبو في حينه. وكان لبعض شخصياته رواج دعائي كعبد الله الريماوي وعبد الله نعواس وكمال ناصر (يرحمهم الله) من خلال هجوم جريدة «الصريح»(*) الدائم عليهم. والعروبة كواقع ملموس أصبحت موجودة من خلال مظهرين بارزين **أولهما** الجامعة العربية ونشاطها الظاهر في حينه حول القضية الفلسطينية. **والثاني** دخول الجيوش العربية تحت قيادة موحدة بغض النظر عن النتائج والأهداف التي لم تتحقق. هذا بالإضافة إلى عامل ذاتي وأساسي بالنسبة إلي وهو (الحرية)، فقد اتصفت عقيدة القوميين السوريين بإلغاء الحرية في المجتمعات التي تسود فيها، مثلها في ذلك مثل العقيدة الجرمانية الألمانية. (وهي مأخوذة عنها). ومن خلال تربيتي المدرسية كنت أعشق الحرية وأعتنقها كمذهب سياسي لبناء المجتمعات والحياة. وقد تطور فهمي فيما بعد وفقاً للأسس الاجتماعية التي يجب أن تبنى عليها الحرية (أي أنك لا يمكن أن تناضل نضالاً ديموقراطياً في ظل نظام قمعي إرهابي)، ومن هنا جاءت شعارات البعث في الوحدة والحرية والاشتراكية لتلبي في نفسي هذا الطموح. وهكذا توثقت علاقاتي بشاهر الذي بدأ يطلعني على نشرات

(*) جريدة «الصريح»، تصدر في القدس لصاحبها هاشم السبع.



الحزب ونتحدث معاً في الشؤون السياسة وشؤون الجيش والحكم وكيف ضاعت فلسطين. وبقيت صداقتي لبطرس كما كانت دائماً.

## «التنظيم» في الجيش الأردني

لم أعد أذكر بدايات التنظيم في الجيش، إلّا أنني أعتقد أن هذه الفترة كانت في نهاية عام ١٩٥١ وبداية عام ١٩٥٢، كانت الفترة التي بدأ فيها تنظيم الضباط في الجيش. ولست هنا بصدد التأريخ الدقيق فأنا لا أستطيع تذكره في واقعي الحالي، ولكن ما يهمني هو الحدث ومضمونه وحقيقته. إن شاهر الذي انتمى إلى حزب البعث العربي الاشتراكي قبل ذلك هو أول من بدأ تنظيم الضباط في الجيش الذي أطلق عليه في حينه (تنظيم الضباط) وكان شاهر في الوقت نفسه مسؤولاً عن تنظيم حزب البعث العربي الاشتراكي في الجيش الأردني. وبتقديري أن فكرة تنظيم الضباط في الجيش خرجت من صلب تنظيم البعث في الجيش لأن مؤسسي (تنظيم الضباط) ما بين عامي ١٩٥٢ ــ ١٩٥٤ هم البعثيون، شاهر اليوسف، محمود المعايطه، قاسم الناصر، تركي الهنداوي، ضافي الجمعاني، ولم أكن قد أقسمت اليمين بعد، ولكنني كنت عضواً في تنظيم الضباط. هذا ما قلته في مذكراتي قبل أن أقرأ مذكرات الرفيق شاهر والتي يقول فيها (إنني حينما طرحت فكرة تنظيم حزبي في الجيش على الأساتذة عبد الله الريماوي وعبد الله نعواس ــ وهذا يعني قبول بعثيين في الجيش يكونون جزءاً من تنظيم الحزب، وليس تنظيماً عسكرياً في الجيش ــ كان هذا أمراً يستحيل تطبيقه واقعياً). ومن هنا يمكن أن يكون التوجه الذي قام به شاهر بتشكيل تنظيم للضباط في الجيش وليس تنظيماً للحزب، يستند إلى واقعة رفض قيادة الحزب تكوين تنظيم في الجيش. وهذا أمر يدعو إلى التساؤل؟ مع أن فكرة توسيع التنظيم بنقله من واقع حزبي إلى واقع وطني هي فكرة صحيحة وسليمة.

## الملك طلال (حول حالته العقلية)

لقد كانت أولى تجاربي في ممارسة النشاط السياسي والخروج على الشرعية العسكرية، في زمن تولي الملك طلال العرش. فقد كثرت الشائعات حول مرض الملك طلال، وكنا نعتقد أنها تثار لتبرير عزل الملك طلال لأنه ملك وطني. فتحدث

إليّ شاهر حول هذا الأمر، وقال: تعال نذهب إلى عمان لنلتقي عبد العزيز عصفور. وكان عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ضابطاً في سلاح المدفعية برتبة ملازم أول منتدب كمرافق للملك طلال (قتل في حادث تدهور سيارة الملك طلال في مصر بعد تنازله عن العرش)، ركبت مع شاهر في سيارته اللاندروفر وسرنا إلى عمان. وكان عبد العزيز يسكن في جبل عمان خلف مجلس النواب (السابق)، وحين وصلنا وجدناه في المنزل يحمل طفلته الرضيع. فرحب بنا وأدخلنا غرفة الضيوف. وبعد أن شربنا القهوة، قال لنا: خيراً: ما وراءكم؟ قال شاهر: جئناك لنسألك عن أمر واثقين أن ما ستقوله لنا سيكون القول الفصل فيه. إننا نشعر أن الإنكليز ينوون عزل الملك طلال وهم يشيعون أخباراً حول حالته العقلية تمهيداً لذلك، ويقولون أنه (مختل من الناحية العقلية). وكان عبد العزيز صريحاً ومباشراً وثقتنا بما يقول مطلقة، قال لنا: نعم (إن الملك طلال مريض). نهضنا وودعناه وعدنا إلى الزرقاء.

## لماذا التنظيم في الجيش؟

لم يكن هذا العمل التنظيمي الذي بدأه شاهر في تلك المرحلة، هو أول تنظيم في الجيش. فقد سبقته محاولة لا نستطيع أن نقول عنها أنها عمل تنظيمي، وإنما نستطيع أن نقول إنها محاولة جمع قوة قام بها عبد الله التل (يرحمه الله) للفكاك من الاختناق المر الذي فرضه الإنكليز والعرب الموالون لهم على الجيش، ومنعه على الأقل مما كان قادراً عليه في حرب فلسطين. أما لماذا التنظيم؟ فالحقيقة أنني لم أطرح هذا السؤال على نفسي في ذلك الوقت. ولم توضع أهداف محددة في بداية التنظيم ليعمل التنظيم من أجل تحقيقها، أو أن الأهداف كانت محددة وموضوعة وقام التنظيم من أجل تحقيقها، إلّا إذا افترضنا أن العمل التنظيمي الذي مارسه شاهر لكسب عناصر في الجيش لعضوية حزب البعث العربي الاشتراكي، ومن بعد تطور إلى عمل تنظيمي يشمل ضباطاً وطنيين في الجيش سمي فيما بعد (تنظيم الضباط الأحرار) هو من وحي عقيدة حزب البعث العربي الاشتراكي، وهذا الافتراض سليم، وكنت مقتنعاً به. فأي إنسان منتم فكرياً وملتزم بالعمل على تحقيق أهداف هذا الفكر، يقوم بعمل تنظيمي في الوسط الّذي هو منه وفيه، ولا بد أن يكون هذا التنظيم هو للمشاركة في تحقيق أهداف هذا الفكر، وهكذا كنت أنا شخصياً أنظر لأهداف هذا التنظيم.

ومع ذلك وفي أي واقع سياسي مثل واقع الأردن في حينه، تكون أسباب الوهن



والمخاطر بارزة بحيث تصبح بديهيات، فوجود الإنكليز وسيطرتهم على الأداة الأساسية التي هي الجيش، والتي لو كانت وطنية لتغيّرت النتائج التي أفرزها الصراع على فلسطين في حينه والمخاطر الأمنية على مواطني الدولة، فلسطينيين وأردنيين في ظل نظام لا يملك الإرادة ولا النية لمواجهة هذه المخاطر، بعد أن قامت الدولة الصهيونية. هذه الأسباب الرئيسة التي دعت الساخطين والخائفين من المستقبل، إلى العمل على قيام تنظيم وطني في صفوف الجيش. وهذه الأسباب قادتني إلى التجاوب من دون تردد، والالتحاق في صفوف هذا التنظيم.

## دورة إلى بريطانيا

في أواخر عام ١٩٥٢، التحقت مع عدد من ضباط سلاح المدفعية بدورة تدريبية في مدرسة المدفعية في بريطانيا، وشارك في هذه الدورة ضباط من جنسيات مختلفة، بينهم ضابط إسرائيلي، وهي دورة (قادة مواقع) مدتها ثلاثة أشهر. ومهمة (قائد الموقع) في بطارية الميدان حينما تكون بطارية الميدان في حالة فعل (أي حرب)، تكون إدارة رمي المدفعية حسب ما يطلبه ضباط المدفعية المرافقون لوحدات المشاة لإسنادها. ولما عدت عملت في بطارية مدفعية الميدان الأولى في موقع (قائد الموقع). وفي بداية عام ١٩٥٣ نقلت من البطارية الأولى، إثر خلاف بيني وبين قائد البطارية آنذاك النقيب محمد خليل عبد الدايم (رئيس للأركان فيما بعد لفترة قصيرة)، وسبب الخلاف أنه تحرش بجندي يعمل في إمرتي، فشكا الجندي أمره إليّ، وكان هذا الجندي صغير السن ولكنه (شاب شجاع) فتحدثت إليه (وهو قائد البطارية) بما أبلغني به الجندي، ونصحته بالابتعاد عن هذا الجندي، الأمر الذي شكل خلافاً شديداً بيني وبينه، فشكاني في فترة لاحقة لقائد الكتيبة تحت ذريعة أنني أتأخر عن الاجتماع الصباحي للبطارية. استدعاني قائد الكتيبة وأبلغني شكوى قائد البطارية، فقلت لقائد الكتيبة بالإنكليزية إنه كاذب والسبب غير ذلك، وأنا لا أريد أن أقول السبب الحقيقي. فنقلني قائد الكتيبة إلى بطارية الميدان الثالثة في الكتيبة نفسها وهي بطارية عين لقيادتها النقيب شاهر اليوسف، وكان في حينها في دورة في بريطانيا. وكنت حينها برتبة (ملازم ثان) وكان في البطارية ثلاثة مرشحين جيدين، هم إبراهيم المحادين وفوزي أبو نوار وخالد أبو فرحه. أثبتُّ خلال ثلاثة أشهر من قيادتي البطارية بالإنابة، أنني ضابط قادر على القيادة. وهكذا بعد أن أنهى شاهر دورة التدريب في بريطانيا والتحق بكتيبة مدفعية الميدان

الثالثة التي كانت تتشكل في ذلك الحين مساعداً لقائد الكتيبة. تم تعييني رسمياً حينها قائداً لبطارية مدفعية الميدان الثالثة تحت إصرار قائد الكتيبة المقدم (TARR) وكان ضابطاً كفؤاً يحترمه المسؤولون في قيادة سلاح المدفعية، وكانت السابقة الوحيدة في تاريخ سلاح المدفعية أن يتسلم ملازم ثان قيادة بطارية ميدان، وهناك في السلاح الكثيرون الذين هم أعلى منه رتبة، وأقدم منه في رتبته يحتلون مسؤوليات أقل مكانة (ولم أخيّب أمله، فقد بيّضت وجهه في إحدى تدريبات الاختبار).

## تسارع نمو تنظيم الضباط

في عام ١٩٥٣ لقي التنظيم تجاوباً من ضباط مهمين في الجيش في تلك المرحلة. وبالإضافة إلى الضباط البعثيين الذي ذكرت، انضم إلى التنظيم الرائد محمود الروسان الذي كان يشغل في حينه رئيس أركان اللواء الثاني – مشاة، وبذلك كان محمود الروسان هو أعلى قادة التنظيم رتبة، كما انضمّ إلى قيادة التنظيم النقيب أحمد زعرور (هندسة الميدان الأولى) وهو الضابط العربي الأقدم في هذه الكتيبة، والملازم الأول نذير رشيد (السلاح المدرع – كتيبة المدرعات الأولى) والنقيب المهندس شوكت الشبول والملازم الأول مهندس جعفر الشامي – مشاغل الجيش، والملازم الأول غازي العربيات (استخبارات الجيش) والملازم الأول عبد الله قاعد (السلاح المدرع – كتيبة المدرعات الثانية) والملازم الأول مازن العجلوني. هؤلاء الضباط شكلوا وشاهر اليوسف ومحمود المعايطه وقاسم الناصر وتركي الهنداوي وضافي الجمعاني قيادة تنظيم الضباط الأحرار، إلى أن تم اعتقالهم عام ١٩٥٧ باستثناء الملازم الأول مازن العجلوني والمقدم قاسم الناصر، وغازي العربيات الذي كان يتابع دورة في بريطانيا، إلّا أنه اعتقل بعد عودته بعد أن أصر على العودة، وكان بإمكانه البقاء لاجئاً سياسياً في سورية. وكان سبب تنامي التنظيم في تلك الفترة هو الدور الذي قام به تنظيم الضباط الأحرار في مصر في تغيير نظام الحكم وقيام الجمهورية في مصر. وتأثراً بهذا الحدث سمي تنظيم الضباط في الجيش (تنظيم الضباط الأحرار).

في ذلك الحين كنا نبحث عن ضابط ذي رتبة عالية (أي عن محمد نجيب آخر في تنظيم الضباط الأحرار في الجيش الأردني) بعد أن أصبح التنظيم قادراً على الفعل، ليكون وجهاً وقائداً لهذا التنظيم، يطل به على الواقع إذا حدث الفعل. ولم يكن بين



الضباط العرب في تلك المرحلة من هو برتبة أعلى من رتبة مقدم، إلّا بين معاوني كلوب وخلصائه أو الذين لم يكن لهم علاقة بالعمل السياسي. ووقع اختيارنا على المقدم علي الحياري وكان قائداً للكتيبة الخامسة – مشاة ومقرها في قيادة (مركز بوليس) مدينة نابلس، وأبو صخر ضابط جيد، وهو أكفأ الضباط العرب من القادة العسكريين في الجيش الأردني (كضابط ميدان)، اتسم سلوكه العام بالنظافة ولم يقترب من واقع سياسي يمكن أن يمسه. فعبد الله التل – رحمه الله – كان قد قام بدور في المباحثات بين الملك عبد الله و«الإسرائيليين»، وكان مسؤولاً عن أمنهم ونقلهم من القدس إلى قصر المصلى (في شونة ابن عدوان) حيث كانت تجري المباحثات التي كان من أبرز المترجمين فيها الأستاذ حمد الفرحان الذي كان يعمل في الحكومة في حينه. وأيضاً لم يكن بين الضباط الذين شكلوا الوفد العسكري في محادثات (رودس)، ولا حتى في لجان الهدنة، وقد كلفت قيادة التنظيم الملازم الأول نذير رشيد والملازم الأول ضافي الجمعاني بالتحدث إلى المقدم علي حول هذا الأمر، والذي أصبح رئيساً للأركان قبل لجوئه إلى سورية في شهر نيسان/أبريل عام ١٩٥٧، وزيراً للدفاع قبل أيلول عام (١٩٧٠).

وصلنا إلى مقر قيادته في (مركز بوليس نابلس) ظُهراً ووجدناه ومساعده الرائد راضي العبد الله الشهير بصلته بـ(كلوب). فأصابنا نحن الاثنين ارتباك شديد، ولا أذكر الأسباب التي قدمناها كمبرر لهذه الزيارة (لم نقل شيئاً). ولكن الأمر بالتأكيد لم يخفَ على الرائد راضي، وجلسنا جميعاً نتحادث حتى الغداء، وذهب كل منا إلى مكان يستريح فيه. وبعد فترة وجيزة من دخولي إلى مكان استراحتي، دخل عليّ المقدم علي وجلس. وخفت أن أتحدث إليه في المهمة التي كلفتنا قيادة التنظيم بها بعد أن عرف الرائد راضي بهذه الزيارة. وتأملت أن يكون نذير قد قام بالمهمة، ولكن تبين لي أن نذير قد اتخذ الموقف نفسه. وفي فترة لاحقة زاره بعض أعضاء التنظيم في منزله في معسكر الزرقاء، وأظن أنه كان من بينهم الرائد شوكت الشبول، فقال لهم: أرجو أن لا تتحدثوا معي في مواضيع مثل هذه.

## أسلوب عمل قيادة تنظيم الضباط الأحرار

ما هي المرحلة التالية لخلق التنظيم، وهي المهمة التي وجد من أجلها، التنظيم، كان

التصور حولها مبهماً ومختلفاً عليه بين الشخصيات الأقدم في التنظيم. لا أذكر منذ أن بدأ التنظيم وحتى إعفاء الفريق (كلوب) من مسؤولياته، أن تم جمع قيادة التنظيم كاملة أو أكثرية الأعضاء، وذلك من أجل مناقشة الواقع ووضع الأسس اللازمة للعمل السياسي والعسكري من أجل تحقيق الهدف الذي من أجله قام التنظيم إلّا مرة واحدة. كانت هناك لقاءات ثنائية أو ثلاثية لكنها لم تطرح ولم تناقش بجدية وبمستوى ما (العمل)، لتضع تصوراً عملياً لمهمات التنظيم، ولم يكن أقرب من شاهر ومحمود ومني بعضنا البعض، ومع ذلك لم يجر بيننا بحث جاد على هذا المستوى. صحيح أنه لم يكن من السهل حينه جمع هذا العدد من الضباط في ظل رقابة سيطرة مخابرات الجيش، لكن بتقديري أن السبب لم يكن أمنياً فقط، بل إن السبب الرئيسي في جانبه الأهم، هو نقص الوعي معرفةً وممارسةً، بالمهمات، لقد كان هدف التنظيم محدداً وهو إحداث تغيير الإطاحة بالنظام، وكل قول وفعل جاء بعد ذلك هو نتيجة ومحصلة لواقع قيادة تنظيم الضباط الأحرار. فالتنظيم لم يخلق في الجيش من أجل (طرد الإنكليز وإبقاء النظام ولكن من أجل تغيير النظام)، وطرد الإنكليز محصلة لذلك.

## لقاء الإخوان المسلمين

ولم يحدث إطلاقاً أن تكوّن تنظيم في أي جيش في أي واقع مثل واقع الأردن من أجل هدف جانبي كإخراج الإنكليز وعلى رأسهم (كلوب) من الجيش، وخاصة إذا كان مؤسسو التنظيم حزبيين ملتزمين بأيديولوجية تنادي بالوحدة العربية. أما اللقاء مع «الإخوان المسلمين»، فلم يتطرق إلى النوايا الحقيقية لكلا الطرفين، وإنما للاستماع إلى رد الإخوان على ما طرح، والذي لم أعد أتذكره. ولكننا بالتأكيد لم نفصح عن أهدافنا ونوايانا. وكنت أنا وشاهر ونذير المشاركين في هذا اللقاء عن تنظيم الضباط. وكان رد المرشد العام للإخوان المسلمين هو التالي: «حتى نتعاون وإياكم. عليكم أن تكونوا جزءاً من تنظيم الإخوان المسلمين، تؤمنون بعقيدته وتلتزمون بنهجه السياسي». وبعد هذا القول لم نعد للاتصال بهم. أما الحزب الآخر والذي كان ممثلاً بتنظيم الضباط تمثيلاً مؤثراً، فقد كان حزب البعث العربي الاشتراكي، والذي اعتبرت أنا موافقته على أهداف التنظيم أمراً بديهياً، وانطلاقاً من فهمي لموقف الحزب، كان تسليمي بنوايا شاهر وقيادة الحزب مطلقاً في تلك المرحلة ولو لم أكن بعثياً ملتزماً لكنت بالتأكيد قد طرحت على شاهر وغيره الكثير من الأسئلة والاستفسارات.



## الاجتماع الحاسم الذي أقر فيه التنظيم هدفاً ثانوياً بديلاً عن الهدف الأساس

في أواسط عام ١٩٥٥، جرى على نهر الزرقاء في قرية السخنه غرب مدينة الزرقاء، اجتماع حضره العدد الأكبر من أعضاء قيادة التنظيم، وكان ذلك اليوم يوم جمعة، ناقش فيه المجتمعون لأول مرة الواقع السياسي في الأردن، وتحديد مسؤوليات تنظيم الضباط الأحرار في المساهمة في تصحيح هذا الواقع. وقد لاحظت أثناء المناقشة أنه كان هناك تحولٌ عن الهدف الأساس الذي قام من أجله التنظيم، إلى هدف فرعي آخر وهو طرد الإنكليز من قيادات الجيش العليا والدنيا. وحينما جاء دوري في الحديث قلت إن هدف التنظيم الذي قام من أجله، لم يكن طرد الإنكليز، بل الإطاحة بالنظام والعمل على إحداث تغيير جذري في بنية النظام السياسي الأردني يجعلان من هدفكم هذا (تحصيل حاصل)، أن يذهب الإنكليز مع النظام، وهي فرصة أن نتخلص من النظام. وما إن قلت ذلك حتى أطبق الصمت على الجميع. بعدها سألني أحدهم: وماذا نعمل في الأردن؟ وهنا أجبت الإجابة التي تدل على وعي سياسي فقير في تلك المرحلة، قلت إن الأردن جزء من سورية اقتطع لأهداف استعمارية، وعلينا أن نعيده إلى أصله. ولم يعلق أحد من الحاضرين على هذا الرأي، ولم تتم مناقشة ما قلت. فعرفت في حينه أنه رأي غير مقبول وأن الهدف الأساس للتنظيم قد جرى تجاوزه. وقد ورد على ذاكرتي تساؤل، لو أنني طرحت على رفاقي فكرة قيام أردن بدون ملكية مرهقة لإمكاناته المادية والسياسية، لكان بالتأكيد قد وجد من يناقش هذا الرأي بين المجتمعين، كالتزام خجول بأسباب قيام تنظيم الضباط الأحرار، ولكن إقراره كان مستحيلاً وخاصة بعد الرأي المتطرف الذي طرحته.

وفي أوائل عام ١٩٥٥ استثني شاهر من الترفيع إلى رتبة (رائد) وترفع ضباط إلى هذه الرتبة هو أقدم منهم، فقدم استقالته، فاستدعاه الفريق (كلوب) بعد ذلك (والقصة مذكورة في مذكرات شاهر). قال له ـ كما أبلغني شاهر ـ: (يا حبيبي أنت تشتغل بالسياسة وإحنا نغض النظر عن ذلك، وأنت ضابط صغير ولن نسمح لك أن تصبح ضابطاً برتبة كبيرة وتشتغل بالسياسة)، وقد ذكر لي شاهر الجهة التي يمكن أن تكون قد سربت لكلوب) المعلومات عن نشاطاته. لقد كان لشاهر صديق برتبة نقيب في سلاح الهندسة يدعى نايف السعد البطاينه، وكان شاهر قد تحدث إليه حول موضوع

التنظيم ودعاه إلى الانخراط فيه. ومن هنا وصلت إلى كلوب المعلومات عن نشاط شاهر. وأنا مقتنع أن شاهر لم يكن مخطئاً (بالرغم من محاولة شاهر تبرئة نايف السعد مما قاله لي في مذكراته). وبعد مقابلة شاهر لكلوب (والتي يذكرها تفصيلاً في مذكراته) استدعاه كلوب وعينه مرافقاً عسكرياً له، وبعدها رفع إلى رتبة رائد حسب أقدميته، ولم يكن شاهر الوحيد بين قادة تنظيم الضباط الأحرار الذي عمل مرافقاً لكلوب، فقد عمل قبله الرائد تركي الهنداوي.

وهناك حادثة طريفة تدخل في باب التشكيك في الضباط المعروفة تطلعاتهم الوطنية: زار الفريق (كلوب) كتيبة مدفعية الميدان الأولى التي كنت أخدم فيها، وأقمنا له طعام الغداء في نادي ضباط الكتيبة، وكان كل ضباط سلاح المدفعية عرباً وبريطانيين موجودين في معيته، وبعد الغداء والانتهاء من شرب القهوة، تقدمت منه وطلبت إليه تجنيد ابن عم لي في الجيش، فوقف وأخذ بيدي وقادني إلى غرفة جلوس مجاورة، وأغلق الباب خلفه وجلس وأجلسني بجانبه وقال لي بالحرف: ما رأيك في أن نبني ساحتين (للبولو) إحداهما للعرب والأخرى للإنكليز؟ ـ وكنت ألعب البولو ـ فأجبته بالحرف: يا باشا البولو ما فيها إنكليز وعرب، وهذه رياضة. فنهض وخرج وخرجت خلفه. وقد عرفت فوراً هدف هذه العملية. لقد قصد أن يخلق شكاً بي لدى أقراني من الضباط وقد حدث ذلك بالفعل. فالضباط الإنكليز تساءلوا حول الواقعة، والعرب داخلهم الشك. ولما توجهت أنا وشاهر ومحمود إلى منازلنا القريبة مشياً على الأقدام، شعرت أن شاهر من أولئك الذين داخلهم الشك، كما أظن أن الباشا كان يريد أن يعرف هل أنا متعصب ضد الإنكليز، مع أنني أنا لست كذلك.

## تتويج الملك حسين

توج الملك حسين ملكاً على الأردن، وعمره آنذاك أقل من ثمانية عشر عاماً، بعد أن نفذ توفيق أبو الهدى عملية تتويج الملك طلال، وكذلك عملية إنزاله. وقد جاءت عملية التتويج بنفس التوقيت الذي توج فيه الملك فيصل الثاني ملك العراق، ولم يكن ذلك مصادفة بل مقصوداً لتحاشي حالة ربما تنتج من تتويج ملك العراق وهناك فراغ في العرش الأردني، وكان الساسة في العراق وعلى رأسهم نوري السعيد، ينادون بتوحيد الكويت والعراق والأردن.



بعد تتويج الملك حسين استقالت حكومة السيد توفيق أبو الهدى حسب العرف الدستوري، وكلف بتشكيل أول حكومة في العهد الجديد السيد فوزي الملقي الذي كان وزيراً لأكثر من مرة، وآخر منصب له، كان سفير المملكة الأردنية الهاشمية في لندن. في هذه المرحلة أصبحت الملكة الوالدة صاحبة الرأي الأول وكأنها وصية على العرش. كانت الملكة (زين الشرف) سيدة ذات شخصية قوية وهي ابنة للشريف ناصر أخ الشريف الحسين بن علي، كانت سيدة جميلة وذات شخصية قوية لكنها لم تكن سعيدة في حياتها الزوجية، وعانت عائلة الأمير طلال في حينه (من ضيق ذات اليد)، والحقيقة أن كل العائلة المالكة في الأردن قد عانت من ذلك، فالأردن بلد فقير، ومخصصات الدولة المنتدبة كانت شحيحة في ذلك الحين. وكان لهذا الواقع تأثير كبير على مسارهم السياسي في الآتي من السنين.

## حكومة الدكتور فوزي الملقي

دامت حكومة الدكتور فوزي الملقي قرابة العام، وهي في حقيقتها حكومة انتقالية حتى يستقر العهد الجديد، ويصبح أكثر قدرة على فن إدارة السياسات الداخلية، ثم عاد بعدها السيد توفيق أبو الهدى رئيساً للوزراء.

### تدمير قرية قبيه

وفي خريف عام ١٩٥٤ قام الإسرائيليون بعمل عدواني شديد الوحشية، فقد دمرت قرية قبيه، الواقعة على الحدود مع فلسطين المحتلة في منطقة رام الله تدميراً شاملاً. قامت بهذه العملية وحدة مغاوير قيل أنه قادها في حينه (شارون) ولم يكن في هذه القرية أو قريباً منها أية قوات عسكرية. ولذلك كان اليهود يهدمون ويفجرون منازل سكانها (على كيفهم) وبطريقة انتقائية همجية، وكان لا بد أن تقوم (دولة الأردن) برد فعل مناسب، فاستنفر الجيش ودخلت قوات الفرقة بكاملها إلى الضفة الغربية، وانتقلت قيادة الفرقة إلى (شونة بن عدوان). والتحقت كتيبة مدفعية الميدان الأولى التي كنت أقود البطارية الثالثة فيها باللواء الأول لإسناده حيث انتشرت بعض كتائبه على خطوط الجبهة. وكانت البطارية الثالثة التي كنت أقودها بإسناد كتيبة المشاة الخامسة التي كانت قيادتها في (دير قديس)، وأخذت قيادة البطارية والفئة الأولى منها

مواقع لها في بساتين قرية (خربتا) إلى الشمال من القرية، ويبعد هذا الموقع عن قرية (قبيه) التي دمرت حوالي أربعة كيلومترات (خط نظر)، واحتلت الفئة الثانية من البطارية موقعاً لها في قرية (بيت عور التحتا) وكان على البطارية في حينه أن تغطي (قوس رمي من اللطرون جنوباً حتى شمال قرية قبيه)، وقد أمضينا في مواقعنا هذه حوالى ثلاثين يوماً دون أن نأتي بأي عمل ثأري. وبعد هدوء الخواطر، كما كان يظن المسؤولون في الجيش والحكومة، تقررت عودة القوات إلى مواقعها في الضفة الشرقية.

ثمة واقعتان لهما دلالات عميقة تثبتان نظرة الجندي العربي الأردني العادي إلى هذه السياسة ومعرفته المسبقة بها. فبعد أن اتضح الأمر للجنود وضباط الصف بأننا لن نرد على تدمير قرية قبيه، وانتشرت الأخبار بأننا في طريقنا إلى العودة إلى مواقعنا الثابتة في الضفة الشرقية، أصاب الجنود وضباط الصف إحباط شديد ويأس، وفي صباح أحد الأيام وحوالي الساعة السادسة والنصف صباحاً حينما كنت أغسل وجهي ويدي أمام خيمتي المحفور لها في الأرض، سمعت دوي انفجار، فرفعت رأسي وأنصتّ، لأرى أو أحدد مكان الانفجار حيث أيقنت في حينه أنها قنبلة قد تكون رميت علينا. ولما لم أسمع أو أر انفجاراً نظرت أمامي، فرأيت ضابط الصف المسؤول عن أحد المدافع يحاول وضع القنبلة الثانية، وكان ضابط صف آخر يحاول منعه من ذلك، فركضت إليه وأمرته أن يتوقف فأطاع. وهو ضابط صف برتبة (رقيب أول) من بني حسن واسمه (حتمل) وكان جندياً ممتازاً، وكان واضحاً عليه الإعياء، وكأنه لم ينم لعدد من الليالي. فقلت له ماذا تفعل؟ فرد علي قائلاً: تكذبون علينا كل مرة يدمر اليهود بيوتنا ويقتلون نساءنا وأطفالنا وأنتم فقط (إتجيبونا واتردونا) دون أن نفعل شيئاً فأبلغت قيادة الكتيبة بالحادث، ووصل فوراً قائد الكتيبة المقدم (TARR)، وكان ضابطاً كفوءاً ذا طبيعة إنكليزية هادئة، قال: اسألوا (ضابط الملاحظة)، أين وقعت القذيفة، فسألناه وجاء الرد أن القذيفة سقطت على الهدف. فسر قائد الكتيبة، وقال: هذه نتيجة حسنة لهذا الخطأ. فسألته في حينها. ماذا نفعل (بضابط الصف)، فقال لي: عليك أن تختار، أنا الآن قائد للواء الأول مشاة بالوكالة ولدي صلاحيات محاكمته، أو أن أطلب تشكيل هيئة تحقيق يحال بعدها إلى مجلس عسكري. وكنت أعرف أن إحالته إلى مجلس عسكري تعني تنزيل رتبته وسجنه وطرده من الجيش. فقلت له: طبعاً أنا أرغب في أن تحاكمه أنت، ولكن ما هو حكمك عليه؟ أجابني قائلاً سأنزله إلى رتبة جندي، فهالني الأمر، ولما رأى القنوط على وجهي، قال



إسمع إنني سأنزل رتبته إلى جندي ولكنني أعدك أنني سأعيد رتبته إليه خلال عام (وقد بر بوعده).

أما حيثيات الواقعة الثانية فهي كالتالي: كان اليهود يتدربون على قتلنا، بقتلنا فعلياً، ويصفعوننا على وجوهنا دون السماح لنا برفع أيدينا إلى وجوهنا لاتقاء هذه الضربات. كان الإسرائيليون يدربون مقاتليهم تدريبات ليلية (تكتيكية) ولم يكونوا بحاجة أن يفترضوا هذا العدو، فهو أمامهم على الحدود، كانوا يقومون بإرسال دوريات ليلية لجلب الأسرى، أو دوريات قتل قادة في الخط الأمامي، أو دوريات إزعاج ليلية. وكان أسلوبهم هو التالي: بعد تحديد الهدف ونوع المهمة ينفذون الخطة الموضوعة لذلك، وهي على الأعم، إرسال دوريات (لتلغيم) طرق النجدات وكمين للتغطية، وبعد أن يقوموا بذلك على جميع الطرق التي يمكن لقوى الإسناد أن تأتي منها يقومون بالهجوم على الموقع (الهدف) بالرمي من الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، وفور سماع الضابط المسؤول (وهو عادة بمستوى قائد سرية) بأن المواقع التي تهاجم بالنيران هي عادة (نقاط مراقبة) (أو نقاط ستر)، يقوم بإرسال نجدة للموقع المهاجم فتقع النجدة بالمصيدة المعدة، فيجرح جنود ويؤسر في بعض الحالات آخرون. بعدها ينسحب الإسرائيليون وقد حققوا هدفهم. وفي أحد تدريبات الإسرائيليين هذه، قاموا في إحدى الليالي بالهجوم على موقع مراقبة تابع لإحدى سرايا كتيبة المشاة الخامسة التي كانت تقوم بإسنادها إحدى فئتي بطارية الميدان الثالثة التي أقودها، وكانت قيادة السرية في منطقة (بيت عور التحتا). هاجم الإسرائيليون نقطة المراقبة التي تقع على الحد الجنوبي لواجهة السرية، وما إن أبلغ قائد السرية بالأمر حتى اتبع الأسلوب الحربي المعمول به. أرسل فئة مشاة للإسناد تتقدمها مدرعة (مقصوصة). سارت هذه الفئة على طريق يمر بمحاذاة موقع فئة المدفعية، وما إن تقدمت إلى مسافة مائتي متر على هذا الطريق الذي ينحدر إلى الوادي حتى اصطدمت باللغم المزروع لهذه الغاية فأوقفها، فما كان من الكمين الإسرائيلي الذي كانت مهمته حسب ما ظهر هي (جلب أسير)، إلّا أن رمى بشبكة على من كان على ظهر المدرعة فاصطادهم، وهما رقيب وجندي، ثم انسحب. أحدثت هذه الواقعة ضجة في الجيش، وأسى وغضباً في نفوس كتيبة المشاة الخامسة، حتى أن الفريق (كلوب) زار الموقع بنفسه وكنت بين مرافقيه، وشعرت حينها أنه غير مرتاح لدور المدفعيين في هذه الحادثة وفي ذهنه أننا أكثر معرفة من قائد السرية وضباطه، وكان يجب أن نعينهم على تفادي هذا المطب. وهذا الأمر في حدود ما

صحيح لو كان هناك تعاون وتفاعل بين المدفعيين والمشاة على جميع المستويات جنوداً وضباطاً، ولكن هذا التفاعل والتعاون كانا مفقودين. فهذا الأمر كان سياسة مقررة في الجيش، فمن هو الضابط الصغير ـ بمستوى قائد سرية أو حتى قائد كتيبة ـ القادر على القفز فوق سياسة (فرق تسد) (وبدو وحضر) المعمول بها في حينه. قلت لقد ترك أسر الرقيب والجندي أثراً غاضباً في نفوس جنود كتيبة المشاة الخامسة (البدو) وصمموا على أخذ الثأر، ومشروعية الثأر هنا مطلقة، فأخذ أحدهم بندقية وقنبلتين يدويتين وسار إلى موقع يعرفه تمام المعرفة. كان لجيش العدو نقطة مراقبة في السفح الشرقي لمنطقة البرج، يشرف على الطريق الموصلة بين بيت سيرا اللطرون، يأتون لنقطة المراقبة هذه صباحاً مع الفجر ويخلونها قبل حلول الظلام، فكمن هذا (الذيب) في سفح نقطة المراقبة في الهزيع الأخير من الليل، وعند طلوع الفجر رأى جنديين يتقدمان أحدهما يسير مسافة والآخر يكمن ليحميه، وهكذا إلى أن وصلا الموقع واستقرا به، فزحف إليهما ورمى قنبلته الأولى وأتبعها بالثانية. وتقدم بعد ذلك وأجهز عليهما وأخذ سلاحهما وعاد إلى وحدته. وما إن عُلم بالحادث حتى أعلن ناطق باسم الجيش أن هذا الجندي تصرف من ذاته، وتبين أنه (مختل عقلياً).

هاتان الواقعتان ومثلهما الكثير الذي لم يدون، تعطيان صورة حقيقية عن جنودنا ونظرتهم وفهمهم وإدراكهم للأمور في تلك المرحلة.

## الأردن وحلف بغداد

في تلك المرحلة من مراحل الصراع الخفي بين الاستعمارين القديم والجديد، بدأت بريطانيا بتنفيذ استراتيجية مستقلة خاصة بها في مناطق نفوذها آنذاك، أساسها الحفاظ على نفوذها ومصالحها المهددة في المواقع التي كانت فيها قبل الحرب العالمية الثانية. وبهذا بدأت بالعمل على خلق تجمع إقليمي في منطقة ما يسمى بالشرق الأوسط يضم دولاً عربية وغير عربية، هدفه المعلن مواجهة الاتحاد السوفياتي، والحقيقي حماية المصالح البريطانية من الغول الأميركي الزاحف على مناطق النفوذ هذه. وقد شكلت نواة هذا الحلف من تركيا والعراق وإيران وسمي في حينه حلف (بغداد)، وكان البلد العربي الثاني المرشح للدخول في هذا الحلف هو الأردن، نظراً لما كان يتمتع به النفوذ البريطاني من موقع قوي في هذا البلد في ذلك الحين.



وبدأت الإدارة البريطانية بإعداد المسرح السياسي والعسكري لقبول هذا الأمر، فعلى الصعيد السياسي عاد توفيق أبو الهدى إلى رئاسة الحكومة، وكان الهدف من عودته هو تهيئة الواقع السياسي لقبول هذه الاستراتيجية، فأجرى انتخابات نيابية في خريف عام ١٩٥٤ وسمح لأفراد الجيش والأمن العام بالانتخاب، كل من موقعه، الأمر الذي يحدث لأول مرة في تاريخ الأردن، وتفاءل منتسبو الجيش والأمن العام وخاصة ذوي التوجه الوطني الذين اعتبروا هذا الأمر مؤشراً إيجابياً باتجاه الديموقراطية.

وكنت وطاقم البطارية التي أقودها لا نزال في مواقعنا في الخط الأمامي في منطقة رام الله. وأذكر أنني تحدثت إلى جنودي حول هذه الانتخابات، وحقهم في الانتخاب. وأشرت عليهم بطريقة ما انتخاب المرشحين الوطنيين، ومن بين الأسماء التي ذكرت كان السادة عبد الله الريماوي وإبراهيم بكر، وكمال ناصر (يرحمهم الله). وتبين بعد أن أجريت الانتخابات أن وهمنا حول الإيجابية في عملية الانتخاب هذه كان كبيراً، فقد جرت أكبر وأوقح عملية تزوير في تاريخ الأردن، خاصة في صناديق الاقتراع الخاصة بالجيش. فقد رميت الصناديق التي وضع الجنود أصواتهم بها جانباً، وجيء بصناديق مملوءة سلفاً بالأصوات لمصلحة مرشحي الحكومة والجيش. ومن أجل فسح المجال واسعاً أمام هذا التزوير سمحت الحكومة للجيش والأمن العام بالتصويت كل من موقعه، وقد جرت احتجاجات دامية على نتائج هذه الانتخابات خاصة في الضفة الغربية وإربد وعمان، وسقط خلال المظاهرات عشرات القتلى والكثير من الجرحى. لم يجر أبو الهدى عملية التزوير هذه إلّا بسبب التوجه السياسي الإنكليزي حول مستقبل الأردن السياسي ودوره المقبل في (حلف بغداد). قدم توفيق أبو الهدى استقالة حكومته بعد افتتاح مجلس النواب الجديد كما يقضي العرف الدستوري. إلّا أنه كلف ثانية بإعادة تشكيل الحكومة، وأول ما قام به توفيق أبو الهدى بعد تشكيله الوزارة هو الطلب إلى الحكومة البريطانية التفاوض حول تعديلات محددة في بنود المعاهدة البريطانية ـ الأردنية، ظاناً أنه مقابل هذه الخدمة (حسب فهمي) ستمنحه الحكومة البريطانية مقابلاً معنوياً بمحو فعلته. وقد قبلت الحكومة البريطانية مبدأ التفاوض. بعدها غادر رئيس الوزراء ووفده المفاوض إلى لندن. بدأت المفاوضات وكان يرأس الجانب البريطاني السيد أنتوني إيدن وزير الخارجية. وفي أول اجتماع للوفدين أوضح رئيس وزراء الأردن الهدف الرئيسي الذي

كان يسعى إليه من هذه المفاوضات، وهو تعديل بند في المعاهدة الأردنية – البريطانية، خاص بالمعونة المالية التي تدفعها الحكومة البريطانية للجيش الأردني مباشرة إلى قيادة الجيش (أي إلى كلوب باشا)، أن تتحول إلى معونة للأردن وتدفع إلى خزينة الدولة الأردنية، وبذلك تصبح الحكومة الأردنية مسؤولة عن صرف هذه المعونة (وللجيش) ولكن بالطريقة التي تراها الحكومة الأردنية مناسبة. فرفض الجانب البريطاني هذا الطلب، ولما أصر توفيق أبو الهدى على موقفه، قال له رئيس الوفد البريطاني المفاوض: إن حكومتك لا تستند إلى (شرعية ديموقراطية) بل إلى برلمان مزور (الأمر الذي يعني أن بريطانيا لم تعد بحاجة إلى خدمات أبو الهدى) الذي عاد (بخفي حنين) وكانت آخر مرة يترأس فيها الحكومة. وتوفيق أبو الهدى من فلسطين وله قربى بعائلة التاجي الفاروقي وكان أقوى رؤساء الوزارات الأردنية منذ تأسيس الإمارة حتى مغادرته الحكم. يحترم نفسه ونظيف اليد. وكان من أكثر رؤساء الوزارات علاقة ومعرفة برؤيا الإنكليز لمستقبل شرق الأردن. وكان هناك تناقض غير بيّن لا يعرفه الكثيرون، بين سياسة توفيق أبو الهدى والأمير عبد الله (قبل أن يصبح ملكاً) بشأن العلاقة مع اليهود، إن الامير عبدالله في حينه هو الذي وضع حجر الأساس للجامعة العبرية في القدس، وهو أول سياسي نصح الفلسطينيين بقبول التقسيم فلم يكن الملك عبد الله يناهض ويناصب الوكالة اليهودية العداء بل حاول الاستعانة ببعض شخصياتها وبها لتخفيف ضغط الإنكليز عليه في كثير من الحالات. أصيب أبو الهدى بسرطان المثانة، وقيل أنه شنق نفسه في منزله ولكن الحقيقة، أن أحداً قام بشنقه واستولى على مذكراته ذات الأهمية الخاصة. وهذه الحقيقة يعرفها اللواء محمد رسول الكيلاني.

## بريطانيا تضغط بقوة على الأردن

استقال توفيق أبو الهدى بعد فشل المفاوضات التي قادها مع بريطانيا، وشكل الحكومة بعده السيد سعيد المفتي. وكان (حلف بغداد) قد أصبح في ذلك الحين حقيقة واقعة، ولم تنفع محاولات عبد الناصر مع نوري السعيد لثنيه عن هذا الاتجاه، الذي كان من المؤكد أنه سيضعف وحدة الموقف العربي، وقد تسارعت مطالب الحكومة البريطانية وتكثفت من أجل دفع المسؤولين في الأردن، وعلى رأسهم الملك، من أجل اتخاذ الخطوة الواجبة للدخول في حلف بغداد. إلّا أن



حكومة السيد سعيد المفتي لأسباب تبدو مجهولة لم تكن قادرة على الإقدام على مثل هذه الخطوة. وفي بداية عام ١٩٥٦ حينما رأت الحكومة البريطانية أن الأساليب الدبلوماسية والإلحاح والضغوط التقليدية لم تأت بنتيجة، قامت بالضغط غير التقليدي، فأرسلت رئيس أركان حرب الإمبراطورية (الجنرال تمبلر) كمبعوث خاص إلى الملك حسين من أجل تقديم طلب الانضمام هذا، وكان الأردن في مهب تيارين عاصفين، الحكومة البريطانية وما تمثله من نفوذ مادي وسياسي، يضاف إليه العراق الذي تحكمه العائلة نفسها، وتيار عبد الناصر والقومية العربية والشعب العربي في الأردن وفلسطين المعادي بالفطرة لكل ما هو إنكليزي. يضاف إلى ذلك الموقف السعودي والموقف الأميركي غير الملتزم بالمشاريع البريطانية. لكن تردد الملك حسين بعد مقابلته للجنرال (تمبلر) التي قال فيها الأخير للملك (إن عرش جلالتكم مهدد إذا لم ينضم الأردن إلى حلف بغداد). بعد هذه المقابلة استقال السيد سعيد المفتي وحكومته، وكلف السيد هزاع المجالي برئاسة الحكومة. وكان تعيين السيد هزاع المجالي في هذا المنصب بذاته إعلان قبول الأردن الدخول في (حلف بغداد) والسيد هزاع المجالي هو أول أردني غير متجنس يصبح رئيساً للوزراء، إن كان في زمن الإمارة أو المملكة. هذا الإعلان عن تشكيل حكومة السيد المجالي أشعل النار في الهشيم، فقد قامت في الأردن بضفتيه مظاهرات عارمة ضد الحلف وحكومة السيد المجالي وكانت مظاهرات دامية، لأن السلطة بجهازيها الأمني والجيش اللذين كانا تحت قيادة الفريق كلوب قد أُعدّا لمثل هذا، وخاصة الجيش الذي لم يكن قد زج من قبل وفي مثل هذا المستوى لمواجهة اضطرابات شعبية. وقد أعدت قيادة الجيش وحداتها إعداداً مسبقاً لذلك اليوم، فقد تدربت كل وحدات الجيش – بما فيها أسلحته المساندة – لأول مرة في تاريخه على أسلوب كيفية تفريق المظاهرات ومن ثم قمعها. وأذكر مثلاً أننا في كتيبة مدفعية الميدان الأولى، جاءنا فريق تدريب بقيادة الرائد عكاش الزبن ليدرب الكتيبة على كيفية مواجهة المظاهرات وأعمال الشغب وقمعها وتفريقها. وانتقل فريق التدريب هذا ليقوم بنفس المهمة في كل كتائب سلاح المدفعية. وحين قامت المظاهرات كان لسلاح المدفعية باع طويل للتصدي لها. فكتيبة الميدان الثالثة التي كان شاهر مساعداً لقائدها كانت مسؤولة عن هذا الأمر في أريحا ومنطقتها، وكتيبتا مدفعية الميدان الأولى والثانية كانتا ضمن القوات المخصصة لعمّان، واستخدام الأسلحة المساندة

من مدفعية ودروع يدل على أن كل القوى العاملة في الجيش كانت في مهمة التصدي لهذه المظاهرات إضافة إلى قوى الأمن العام.

## الشعور العام في الجيش تجاه هذه الأحداث

كانت هناك ظاهرة أقلقت القادة البريطانيين، وهي أن الجنود في أكثريتهم الساحقة كانوا يخطئون الأهداف التي تعين لهم من بين المتظاهرين. لقد ذكر لي شاهر أنه في إحدى هذه الحالات كان واقفاً وقائد الكتيبة البريطاني على حاجز على طريق القدس ـ أريحا، ويقع هذا الحاجز في منتصف الطريق بين مخيم (عقبة جبر) ومدينة أريحا، وأمام هذا الحاجز ثلاثة جنود منتقين يأخذون (وضع الرمي)، فأقبلت باتجاه الحاجز مظاهرة حاشدة تستهدف الوصول إلى المدينة، فلما أصبحت على مسافة مائتي متر من الحاجز أبلغناهم (والكلام لشاهر) بمكبرات الصوت أن لا يتقدموا، وأن عليهم أن يتفرقوا وإلّا أطلقت عليهم النار. إلّا أن المظاهرة لم تتوقف واستمرت بالتقدم نحونا، وإن بخطى أبطأ، حينها أمر قائد الكتيبة (البريطاني) أحد الرماة أن يرمي شخصاً حدده له، وكان شاباً يعتلي أكتاف المتظاهرين، فرماه الجندي ولكنه أخطأ، فأمر الجندي الثاني فأطلق وأخطأ وكذلك كانت نتيجة الرامي الثالث. فما كان من قائد الكتيبة إلّا أن أخذ بندقية أحدهم فأطلق وأصاب الشاب. وحدث في عمان أن كانت فئة من مدفعية الميدان الثانية تحرس حاجزاً أمام أمانة عمان القديمة، هدفه منع المتظاهرين من السير باتجاه القصور الملكية. وكان مسؤولاً عن هذا الحاجز أحد مرشحي الضباط، فلما أقبلت جموع المتظاهرين أمرهم بمكبرات الصوت أن لا تتقدم المظاهرة، إلّا أنهم استمروا في تقدمهم، فلما رأى المرشح هذا الجمع الغفير يتقدم باتجاهه سيطر عليه الخوف فأمر بإطلاق النار، فجرح العديد من المتظاهرين، وفي الصف الأمامي، ولكن لم يقتل أحد. هكذا كان الأسلوب العام في مواجهة المتظاهرين، وكان هناك تجاوزات كثيرة لهذا الأسلوب وفي مواقع كثيرة في فلسطين وعمان وإربد، وكذلك في المخيمات، فحينما ينفرد الجيش والأمن بمجموعات صغيرة من المتظاهرين يضربونهم ويعتقلونهم.

في تلك الفترة الصعبة، كنت ملتحقاً بدورة تدريب عنوانها (قادة السرايا) في مركز تدريب العبدلي، ولذلك لم أشارك في مسؤولية مقاومة المظاهرات، وكانت فئة من



البطارية التي أقودها تقوم بحراسة قيادة الجيش، وفي أحد الأيام وكانت الاضطرابات على أشدها، الأمر الذي جعل المدربين وبعض المتدربين يغيبون ليقوموا بمهام أوكلت لبعضهم، ذهبت لأتفقد جنودي الذين كانوا يحرسون القيادة العامة للجيش. وبعد أن أمضيت معهم فترة تفقدت خلالها أوضاعهم، غادرت ماشياً في الشارع الذي يمر أمام القيادة باتجاه بيت رئيس الوزراء الأسبق السيد توفيق أبو الهدى، وعلى رأس الشارع حين يتفرع قبل الوصول إلى بيت رئيس الوزراء، كانت تقف مدرعة وبجانبها يقف طاقمها وبينهم ملازم من سلاح الدروع، وحال وصولي إليهم أقبلت مجموعة من طالبات المدارس الثانوية، وكان واضحاً أنهن شاركن في المظاهرات، وحين أصبحن في محاذاتنا رأينا إحداهن تبكي، الأمر الذي يعني أنها ضربت، فقال الملازم بعطف: لماذا تبكين؟ فالتفتت إلينا وقالت: إنني أبكي عليكم وعلى من هم مثلكم، لأنهم سيرسلونكم إلى حدود إيران. فأصبنا بتأثر بالغ لهذا القول الوطني الواعي.

## سقوط حكومة السيد هزاع المجالي

استمرت المظاهرات عنيفة حتى استقالت حكومة السيد هزاع المجالي. وهكذا منعت هذه المظاهرات العنيفة والتي عبرت بصدق عن العمق الحقيقي للكراهية التي يكنها الشعب العربي في الأردن وفلسطين لبريطانيا ومشاريعها في تلك المرحلة، والنابعة من الإيمان الثابت أن الاستعمار البريطاني وراء الواقع السيئ الذي كانت تعيشه الأمة العربية في تلك المرحلة. وللحقيقة فإن المظاهرات لم تكن العامل الوحيد في منع الأردن من الانضمام إلى حلف بغداد، وإنما كان لمصر بقيادة عبد الناصر تأثيرها البالغ في تلك المرحلة على الشعب الأردني وخاصة العربي الفلسطيني منه، إضافة إلى السعودية، وأميركا التي كانت تقف خلف السعودية والتي أيضاً كانت تأمل بعبد الناصر خيراً. والأهم أنها كرهت أن يستعيد النفوذ البريطاني في المنطقة قواه. وكان النفوذ الأميركي المتقدم والذي أصبح يطأ أصابع قدم النفوذ البريطاني المتراجع، كان هذا النفوذ على استعداد كامل لمساعدة الأردن، إذا ما سحبت بريطانيا دعمها المادي للأردن، ومن هنا كان البديل للسيد هزاع المجالي المؤيد للسياسة البريطانية هو السيد سمير الرفاعي رجل أميركا في تلك المرحلة.

والأردن من أكثر الأقطار العربية تجانساً سكانياً، فليس هناك أقليات عرقية ولا طائفية. صحيح أن هناك نصارى ولكنهم عرب وهذه بلادهم قبل الإسلام، ويتمتعون بعادات

عربية أصيلة ولا يشعرون شعور الأقلية. مع أن الاستعمار البريطاني الشهير والقدير على التفرقة حاول ذلك. إلّا أن تأثيره كان ضعيفاً. أما معضلة الأردن فهي أنه لم يشكل في تاريخه ذاتاً مستقلة، واقتطع من جزء يشكل وإياه وحدة واحدة من أجل أهداف المستعمرين الإنكليز والفرنسيين التي تحققت في اتفاقية (سايكس بيكو) (ووعد بلفور) الذي قال بإقامة وطن لليهود في فلسطين، الأمر الذي يتطلب مكاناً ينزح إليه المشردون من أهل فلسطين. وهذا الأمر كان واضحاً في ذهني حتى في ذلك الوقت، حينما طرحت على قيادة تنظيم الضباط (في اجتماع السخنه) أن هدف التنظيم لم يكن طرد الإنكليز من الجيش ولكن إلغاء النظام ومن ثم الكيان، والضباط والنفوذ الإنكليزي هما جزء من محصلة التغيير. وعندما لم أجد استجابة حتى من رفاقي البعثيين لم أعد إلى طرح هذا الأمر مرة أخرى. ليس لأنني تجاوزت هذا الفهم، كلا ولكن لأنه لم يتسنَّ لي ذلك، إذ إن قيادة تنظيم الضباط لم تجتمع اجتماعاً آخر بعد اجتماع السخنه إلّا بعد إقالة (الفريق كلوب) ولم يكن انعدام الاجتماعات هذه مصادفة أو أنه لم يكن هنالك واقع يستدعي ذلك بل العكس هو الصحيح. ومع ذلك فقد قلت رأيي الذي أومن به إلى اللواء علي أبو نوار مباشرة ـ بعد تسلمه لمنصب رئيس الأركان، لظرف استلزم ذلك. وسآتي على ذكر هذه الواقعة في القادم من هذه المذكرات.

لقد لعب الإنكليز ومن بعدهم النظام في الأردن على حبال (بدو، حضر ـ وشمال ـ وجنوب) وأخيراً وليس آخراً (أردني فلسطيني) ولكن قضية الأردن لا يتيه عنها بدوي ولا حضري ـ لا فلسطيني ولا أردني ـ إذا ما قيلت لهم بصدق. فهي قضية مستقبلهم وأمنهم ومستقبل وأمن أطفالهم الذي له علاقة صميمية بقضية فلسطين والغزو البربري الزاحف علينا من الغرب عبر المتوسط والأطلسي ـ والسلطة التي تسيد مفاهيمها وقيمها بالقمع والإرهاب والتضليل والتحايل لمصلحة وقيم أسيادها المضادة تماماً لمصلحة الوطن ومواطنيه. ولو انتزعت السلطة من يد هؤلاء المحتالين، لما بقي من مفاهيمهم وقيمهم المزورة أثر ولسادت مفاهيم وقيم أصيلة، أصالة حضارة وتراث شعب هذه الديار، دون عناء، بأساليب ووسائل بسيطة لكنها صادقة متوافقة والواقع موضوعياً.

## قيادة تنظيم الضباط وأحداث حلف بغداد

لم يتوسع تنظيم الضباط ولم ينضم إلى قيادته أحد منذ المحاولة التي جرت مع



المقدم علي الحياري. والحقيقة أن تنظيم الضباط الأحرار لم يكن بحاجة إلى أن يكون أوسع مما كان عليه في تلك المرحلة (إذا ما بقي الهدف الأساسي للتنظيم ـ وهو تغيير النظام ـ ملتزماً به) لا في القاعدة ولا في القمة، فالجيش الأردني جيش صغير والضباط المتنورون وذوو الاتجاهات الوطنية يمكن الاستدلال عليهم، وقاعدة التنظيم كانت قادرة على الفعل الذي تقرره القيادة. فسلاح المدفعية المكون من ثلاث كتائب مدفعية ميدان وكتيبة دفاع جو، والقيادة، وكتيبة هندسة الميدان الأولى، والسلاح المدرع مكون من كتيبتي مدرعات خفيفة. كان المسؤول في كتيبة المدرعات الملازم الأول نذير رشيد عضو قيادة التنظيم، ومسؤول كتيبة المدرعات الثانية الملازم الأول عبد الله قاعد عضو قيادة التنظيم، وكتيبة دبابات كانت تحت التشكيل يقودها النقيب تركي الهنداوي، وبعض ضباط وقياديي التنظيم المنتشرين في مواقع متعددة، والذين إن لم يكونوا قادرين على الفعل فهم قادرون على التحييد.

لم تجتمع قيادة تنظيم الضباط الأحرار أثناء أحداث حلف بغداد لتقرر رأياً حول الأحداث. ومن الممكن أن الظروف والواقع في حينه كانا يبرران ذلك، ولكن بعد أن هدأت الحال وتغير الاتجاه السياسي، بعد سقوط حكومة هزاع المجالي، كان على قيادة التنظيم أن تجتمع للتحدث ومناقشة الأحداث التي مر بها القطر، والتداول في دور جماهير الشعب والتضحيات التي قدمها من أجل إسقاط هذا الاتجاه السياسي. كان على تلك القيادة أن ترى في دور الجماهير والنهوض والوعي الذي أظهرته دلالة على نضوج وعيها، وأن تستمد منه دافعاً حقيقياً للسير إلى الأمام نحو تحقيق الهدف الذي وضعه التنظيم لنفسه. لكن الأمور على ما يبدو كان لها ميدان آخر تتفاعل فيه خارج إطار مؤسسة القيادة لتنظيم الضباط، وفي الآتي من السطور الدليل على ما أقول.

دعيت إلى اجتماع في منزل الملازم الأول مازن العجلوني أحد مرافقي الملك وعضو قيادة تنظيم الضباط (طبعاً كان عضواً في قيادة التنظيم قبل أن يصبح مرافقاً للملك) وكان منزله يقع في أول جبل (اللويبدة)، ولقد حاولت الوصول إلى مكان الاجتماع ولكن محاولاتي فشلت بعد وصولي إلى (المحطة) لأن الاضطرابات كانت على أشدها. فجميع الطرق كانت مغلقة إما بواسطة الجيش أو بواسطة المتظاهرين. فعدت من هناك دون أن احضر الاجتماع. لم أعرف من حضر هذا الاجتماع ولا ما دار فيه من حديث. وأنا لا أسأل إذا لم يكن أحد من الذين حضروا لديه الاستعداد أن يبلغني

ذلك، لكنني علمت فيما بعد أنه إضافة إلى بعض قياديي تنظيم الضباط كان هناك ضباط آخرون دعوا من خارج تنظيم الضباط. وأنا لا أعرف الأسباب التي استدعت عقد هذا الاجتماع في حينه (أما الآن فأنا أعرف) الأمر الواضح أنه حينما يجري اجتماع للعديد من الضباط بينهم من هو قيادي في تنظيم الضباط وبينهم من هو غير ذلك وفي الظروف الشديدة الاضطراب التي وصفت، ستكون حينها مناقشة الواقع على أسس مختلفة ومتباينة، ولهذا سيكون تصور العلاج مختلفاً عما سيكون عليه الأمر في اجتماع لقيادة تنظيم الضباط.

كما وزع منشور باسم الضباط الأحرار لم أقرأ نصه، ولم يصدر عن تنظيم الضباط ولكن من المؤكد أنه صيغ وطبع في الملحقية العسكرية (لجمهورية مصر العربية). لأن الملحقية العسكرية المصرية كانت على معرفة تامة بهذا التنظيم، من خلال علاقة كانت قد قامت بين أحد أعضاء قيادة التنظيم وبعض الضباط المصريين الذين كان بعضهم أعضاء في مجلس قيادة الثورة والذين قاتلوا وتواجدوا في منطقة الخليل أثناء الحرب في عام ١٩٤٨.

## المقدم علي أبو نوار

كان علي أبو نوار ضابطاً معروفاً في الجيش الأردني. دخل الجيش بعد أن أكمل دراسته الثانوية في مدينة السلط. عمل في فلسطين مع وحدات الجيش التي كانت تعمل تحت إمرة الانتداب البريطاني في فلسطين. عمل أيضاً ضابط ركن في أحد ألوية المشاة أثناء حرب عام ١٩٤٨. وقد تطوع أن يقود إحدى الكتائب حينما أخلي قائدها بسبب جراحه إلّا أن تطوعه لم يقبل. كان من بين ضباط وفد المفاوضات المهمين إلى محادثات رودس الذي كان يرأسه (رياض المفلح) وكيل وزارة الداخلية في حينه ويرأس الجانب العسكري فيه اللواء أحمد صدقي الجندي. رأيته مرة واحدة قبل أن يصبح رئيساً للأركان، وهو يخرج من مكتب قائد كتيبة مدفعية الميدان الأولى وكان في حينه برتبة نقيب. ضابط أنيق، وسيم، متناسق التكوين. وكان قبل أن يستدعيه الملك حسين ليعينه كبيراً لمرافقيه ويرفعه إلى رتبة مقدم، ملحقاً عسكرياً في سفارة الأردن في باريس. وقد أبعد الرائد علي أبو نوار عن الجيش كملحق عسكري دون أن تعرف الأسباب الحقيقية لإبعاده، فالسبب المعلن أو الذي سرب إلى أفواه الدعاة قد لا يكون السبب الصحيح، وفي الوقت الذي أبعد فيه الرائد علي أبو نوار



أبعد كذلك الرائد محمود الروسان كملحق عسكري إلى واشنطن، وفي باريس تعرف الملك حسين إلى الرائد علي أبو نوار الملحق العسكري في السفارة الأردنية. كان الملك حينها يدرس في الكلية العسكرية البريطانية في (ساند هرست) ويقضي إجازته بين باريس ولندن. لم يكن المقدم علي أبو نوار من بين تنظيم الضباط الأحرار، ومع ذلك فإن عوامل عدة جعلته على علاقة وثيقة ببعض قادة تنظيم الضباط، منهم الملازم الأول مازن العجلوني الذي عمل في إمرته بعيد حرب عام ١٩٤٨ في منطقة رام الله وكذلك بعد تعيينه كبير مرافقي الملك حسين. وكان على علاقة بمحمود المعايطة وشاهر اليوسف وعلى علاقة وثيقة مع الرائد قاسم الناصر آنذاك وكلهم عايشوا الكارثة في فلسطين، مع أنني حقيقة لا أعرف مدى تأثره هو بهذه الكارثة. كان ضباط مدينة السلط خمسة من أصل ثلاثة عشر عضواً هم قيادة تنظيم الضباط. والعشائرية لم تغادر واقعنا حتى بعد أن لحقها التطور من عشيرة إلى قرية إلى بلدة. يصبح من هو من هذه القرية ينتسب إليها وكذلك البلدة فكل من هو من مدينة السلط هو (سلطي)، وهكذا فإنني أكاد أكون الوحيد في قيادة التنظيم من لا يعرف المقدم علي في حينه. كما أنني الوحيد الذي لم يكن متأثراً بأي من العوامل التي أشرت إليها خاصة، وأنا تقريباً أصغر المؤسسين سناً ورتبة. جرى بيني وبينه اتصال هاتفي قبل أن ألقاه وأتعرف إليه. وقد جرى الاتصال (بالصدفة المرتبة)، فقد اتصل بقيادة بطارية المدفعية التي أقودها يسأل عن الملازم فوزي أبو نوار، وهو ابن عمه وكان يعمل في إمرتي في حينه. سلم علي بحرارة وسألني عن حالي بمودة مما أقنعني أن الهدف هو التحدث إليّ.

## الاتجاه السياسي لقادة تنظيم الضباط الأحرار

إنني أكتب الآن بعد خبرة طويلة، ونمو في الوعي فكرياً وسياسياً وممارسة عملية، إلّا أنني لن أدخل هذه الخبرة بتقييمي هذا، بعد أن نخل الطريق الطويل والصعب صفات هؤلاء الرفاق على جميع الصعد خلال الواقع الذي فرضته قوى عاتية علينا. وسأقتصر في تقيمي للمرحلة التي تعاونّا فيها وضمن معرفتي الذاتية للرفاق في تلك المرحلة. لقد كانت اتجاهات هؤلاء السادة وطنية، والأشمل عروبية، وقد انقسموا في التزامهم السياسي والعقائدي إلى نوعين، ملتزم بحزب سياسي أو غير ملتزم إلّا بتنظيم الضباط الأحرار، وشكّل غير الملتزمين أكثرية. وفي واقع كواقع تكويننا الفكري والثقافي والسياسي آنذاك، كانت العلاقات الشخصية هي الأكثر تأثيراً، وكانت الكتلة الأساسية

البارزة هي كتلة الضباط البعثيين وهم شاهر اليوسف ومحمود المعايطة وضافي الجمعاني، كأساس. فهؤلاء الثلاثة كانوا متقاربين التزاماً ورفقة سلاح وعلاقات شخصية. ومن ثم يدخل معهم في الالتزام الحزبي ولو شكلاً، قاسم الناصر وتركي الهنداوي، وكان المهندس شوكت الشبول أقرب إلى الشيوعيين وكان المهندس جعفر الشامي قومياً عربياً. أما الذين لم يكن لهم التزام سياسي حزبي فهم: الرائد محمود الروسان، النقيب أحمد زعرور، الملازم أول غازي العربيات، الملازم أول نذير رشيد، والملازم أول عبد الله قاعد والملازم أول مازن العجلوني.

وقبل أن أدخل في صلب الذكريات السياسية على القارئ أن يعرف أنني لا أستهدف الإساءة إلى أحد أو المساس به. وحينما أتحدث عن الأردن ككيان ودوره غير الإيجابي بل السلبي في مقاومة ضياع فلسطين، وحركة نهوض العرب من خلال واقعه وموقعه، والقوى التي تفرض عليه هذا الواقع ومن خلاله، فأنا لا أستهدف الإساءة إلى الملك حسين كذات وكإنسان. ولكن بما أن الملك حسين كان ملكاً على الأردن وعلى رأس قيادته في كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فدوره أساس في هذه الذكريات. ولا بد أن يكون في العديد من مواقعها محورياً، سلباً، أو إيجاباً، فالهاشميون عترة (رسول الله) كانوا أكبر المضحين وآثارهم شاهد على ذلك (بغض النظر عن دوافع هذه التضحيات). وفي تاريخ العرب الحديث ثورة (الحسين بن علي) أبرز الشواهد على أن العرب لم يموتوا. ويكفي فيصل فخراً إضافة إلى انتمائه العروبي قبل الثورة ودوره البارز فيها، أنه أسس العراق الحديث وحقق له الشرعية. ومع كل هذا الإرث العظيم فلا يحق لأي هاشمي أن يدعي حق الوراثة السياسية بعد هذا التطور في الزمن والواقع في كل ميادين الحياة وأبعادها، فلكل إنسان في هذه الأمة حق القيادة من خلال الفعل المتميز، والإيمان والقدرة على القيادة ودفعها باتجاه هدفها المنشود في التحرر والتوحد والعدالة.

## الوضع السياسي في الأردن بعد هزيمة انضمامه إلى حلف بغداد

يتأثر الأردن تأثراً بالواقع السياسي السليم وطنياً وقومياً إن كان في مصر أو سورية. وفي تلك الظروف كانت (ثورة يوليو) في أوج تحديها للاستعماريين القديمين الإنكليزي والفرنسي. هذا الفعل المتحدي جعل من عبد الناصر بطلاً قومياً ومن



(صوت العرب) الذي كان يدعوه الإنكليز (The Voice of Venom) صوت الجائعين للكرامة. وأثناء اضطرابات حلف بغداد، قال أحد قادة كتائب المشاة الإنكليز (الكتيبة السابعة/بادية). ماذا أستطيع أن أفرض بواسطة هؤلاء الجنود الذين يتحلقون حول الراديو لسماع (صوت العرب) وأحمد سعيد؟ وكانت واجبات هذه الكتيبة فرض منع التجول على مدينة الزرقاء. ويجب أن أنبه هنا أنه خلال مسار (ثورة يوليو) والتناقض في قمة السلطة بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر كانت قيادة تنظيم الضباط إلى جانب محمد نجيب، وبقيت غير واثقة من عبد الناصر لفترة. لقد كانت شخصية جمال عبد الناصر في تلك المرحلة غير واضحة ودوره في الثورة غير معروف وكان تقييمنا له أنه ضابط متطلع إلى السلطة، يستهدف فرض دكتاتورية عسكرية. وهذا لم ينتج في جانبه الأهم من تقييم شخصيتي جمال عبد الناصر ومحمد نجيب، بل بسبب الأسلوب الذي تعامل به عبد الناصر مع الأحزاب بعد ذلك ولا سيما (حزب الوفد) وعلى الأخص مع (النحاس باشا)، هذه الشخصية التي كانت تحظى بالاحترام والمحبة في أوساط الشعب العربي وفي كل أقطاره.

إلا أن المسار الصحيح للثورة وعلى الأخص مع أعداء العرب التقليديين الاستعماريين الإنكليزي والفرنسي، وبسبب التواجد البريطاني على أرض مصر وتراثه الاستعماري البغيض في مصر والوطن العربي ومحاولاته ترسيخ هذا التراث من خلال شق العرب بين مؤيد لحلف بغداد ومعارض له، وتأييده المطلق للثورة الجزائرية ودعمها مادياً ومعنوياً، وتبني (ثورة يوليو) سياسياً وإعلامياً طموحات الإنسان العربي، سواء في فلسطين أو على ساحة الوطن العربي. هذا الواقع الذي بيّنته (ثورة يوليو)، جعل من عبد الناصر قائداً تتطلع إليه جماهير العرب في كل أقطارها، بآمال وأمان عريضة. هذه الحقيقة جعلت المستعمرين الإنكليز يصفنون ويعيدون حساباتهم، خصوصاً بعدما أصبح واضحاً أن الأردن لن يكون عضواً في حلف بغداد. ومن هنا أعادت الحكومة البريطانية تقييم سياستها تجاه الأردن. وأصبح الأساس في هذه السياسة هو الحفاظ على الأردن ككيان مستقل، والتخلص من العبء المادي الذي تتحمله الخزينة البريطانية المثقلة في إطار الاستراتيجية التي وجد من أجلها ومحورها قضية فلسطين وتكريس التجزئة. والأمر الآخر المهم هو استمرار الوجود البريطاني على أراض ثابتة في هذه المنطقة المهمة، والتأكد من الحضور الدائم في قضايا الإقليم المعقدة،

والدخول في المساومات والمناورات وعمليات الأخذ والعطاء في السياسة الدولية.

وكان هناك فراغ قيادي في السلطة في الأردن بعد اغتيال الملك عبد الله، وهذا الفراغ لا يمكن أن يملأ بدون مخاطر إلّا بالملك لضمان الخلود للنفوذ الإنكليزي والغربي في الإقليم. إذاً كان لا بد من خلق واقع يثبت من خلاله الملك حسين أنه قادر على ملء هذا الفراغ، ولديه الكفاءة والقدرة الوطنية على ذلك ليقنع على الأقل جزءاً مهماً من مواطنيه بهذه الحقيقة. ومن هذه الضرورات جاءت قضية طرد (الجنرال كلوب)، والمسرحيات التي تتابعت بعد ذلك في ميدان الديموقراطية والانفتاح الداخلي السياسي. وكانت عملية البناء ماسة وضرورية أمام المد الشعبي المعادي للاستعمار البريطاني، والذي كانت تدفعه بقوة ثورة ٢٣ يوليو في مصر وتستقطبه شخصية جمال عبد الناصر.

وقد بدأ الملك حسين أولى خطواته لتنفيذ المخطط حينما عين الرائد علي أبو نوار (الملحق العسكري في باريس) كبيراً لمرافقيه العسكريين ورفّعه إلى رتبة مقدم. بدأ كبير مرافقي الملك اتصالاته بمن يعرفهم من الضباط وأنا لا أعرف من اتصل بمن، ولم يكن لدي اطلاع على أي من هذه الاتصالات. فأنا لا أسأل عن أمر لا يقال لي وليس مقصوداً أن أعلمه. ومن نافلة القول أن هذه الاتصالات التي أجراها كبير مرافقي الملك قد أخفيت على القيادة العامة للجيش التي كان على رأسها (كلوب باشا) وهو من هو. وهكذا رفعت القيادة العامة للجيش قائمة بأسماء العديد من الضباط إلى رئاسة الوزراء طالبة الموافقة على إخراجهم من الجيش، ومن بين الأسماء عدد من قياديي (تنظيم الضباط)، فرفض الملك الموافقة على تسريح أي من هؤلاء الضباط، وطبيعي أن تكون هذه العملية من ضمن السيناريو المعد لكسب تأييد الضباط للملك. وكان لدخول كبير مرافقي الملك على الخط السياسي لتنظيم الضباط الدور الحاسم في تغيير الهدف الأساسي للتنظيم، الذي يستهدف النظام كأساس والإنكليز كحصيلة.

طبعاً أصبح الهدف واضحاً لي وإن لم يبحث في أي اجتماع لقيادة التنظيم. فقد توقفت اجتماعات قيادة التنظيم منذ اجتماع (السخنة) والذي تحول بعده التنظيم عن هدفه الأساس إلى هدف فرعي أي (من هدف أساسي إلى هدف مرحلي) كما قال شاهر. ففي حديث مع شاهر ومحمود حاولا إقناعي أن هدف التنظيم لا يزال قائماً



(أي التخلص من النظام) وأن طرد الإنكليز من الجيش يسهّل علينا الأمر، وكنت حتى في ذلك الحين مقتنعاً بعدم صحة هذا الرأي. فأنت حينما تكشف نفسك كتنظيم عسكري لصاحب السلطان فأنت على الأقل لا تستطيع بعد ذلك ستره. ومن هنا لم يعد لدي أي نوع من الاهتمام بالواقع إلّا متى سيكون هذا الأمر. وفي يوم الخميس الذي سبق يوم السبت الذي تم فيه قرار الحكومة بإنهاء خدمات (الفريق كلوب)، أخذت إجازة مدتها ٤٨ ساعة وأخذت أطفالي إلى مأدبا قاصداً أن أمضي وإياهم يوماً على (سيل الواله)، وبعد ساعتين من وصولي، وصلني إخطار من قائد مقاطعة مأدبا بأن علي أن أكون في الزرقاء بأسرع وقت. فعرفت الأمر ولكنني استغربت هذه (الشيفرة) المفضوحة، فركبت سيارتي العسكرية وعدت إلى الزرقاء، وتركت عائلتي عند أهلنا تحسباً، وفور وصولي (التقيت إما الملازم أول عزمي مهيار أو محمود المعايطة) إذ لم أعد أذكر الذي أبلغني الأمر والواجب الذي علي أن أقوم به، وهو احتلال معسكر الزرقاء ومنع الخروج والدخول إليه، وتأمين أمن الضباط الإنكليز وعائلاتهم، وكان على محمود أن يحتلّ مطار عمان العسكري بكتيبة مدفعية الميدان الثانية، أي أن يقودها من الزرقاء إلى عمان لتحقيق هذا الهدف، وهي مهمة لم تكن سهلة، فكلانا محمود وأنا يقود بطارية من أصل ست بطاريات في الكتيبتين الأولى والثانية. فلم يكن أي منا قائد كتيبة ولا حتى مساعد قائد كتيبة وكان محمود برتبة نقيب وهو أقدم ضابط في الكتيبة بعد قائد الكتيبة ومساعده الرائد إميل جميعان. أما أنا فقد كنت برتبة ملازم أول، وكانت مهمة محمود أسهل لأنه أعلى رتبة، وله تجربة طويلة، وكان له معرفة مسبقة بالمهمة وهذا هو الأهم. ومع ذلك لا بد من تنفيذ الأمر. وكان تحركنا لاحتلال أهدافنا هو الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة.

استطاع محمود أن يقود بطاريتين من كتيبة مدفعية الميدان الثانية وينتقل بهما إلى مطار عمان العسكري. واستطعت أنا أن أقود كامل كتيبة مدفعية الميدان الأولى إلى هدفها (معسكر الزرقاء)، هاتان الوحدتان هما الوحيدتان اللتان تحركتا لاحتلال مواقع خارج معسكراتها كوحدات.

حدثت واقعة وحالة انفعال لا بد من ذكرها هنا. أثناء عملية جمع جنود الكتيبة وتوزيع السلاح يساعد في ذلك الكثير من الضباط الشجعان أذكر منهم الملازم الأول عزمي مهيار، فوزي أبو نوار، وخالد أبو فرحة وغيرهم. وصل إلى الكتيبة مساعد قائد الكتيبة

الرائد مصطفى الخصاونة فقال لي أحد الضباط إن مساعد قائد الكتيبة قد وصل، هل نعتقله؟ فقلت لا، ولكن دعني ألتقيه، فجاءوا به إليّ، فحييته فقال لي بالحرف الواحد (ماذا تفعل يا عم؟) فقلت له (هللي إتشوفه)، فرد علي قائلاً: (هل تعرف عواقب ما تقوم به؟) فقلت له: (يا أبو زياد ماودها نصايح) إختار أحد أمرين: إما قيادة الكتيبة إلى واجبها أو الذهاب إلى بيتك، فرد قائلاً: لا يا عم أنا ذاهب إلى بيتي، فقلت (الله أيسهل عليك).

أما الأمر الآخر الذي لا بدّ من ذكره، فهو أن أكثر من شخص قال لي فيما بعد بقصد النيل مني أن وجهي كان أصفر خلال عملية السيطرة على الكتيبة. طبعاً مهما كانت إرادة الإنسان قوية ومؤمنة بالفعل الذي يقوم به فهو غير قادر على السيطرة على آلية جسمه التي تجعل الوجه أصفر أو أحمر. فهذا خارج عن الإرادة خاصة إذا كان ما يقوم به هي تجربته الأولى في عمل خطر.. وما كان يقلقني أكثر هو هل أستطيع تنفيذ المهمة بالكتيبة كاملة أم لا!

## ما بعد كلوب

كان الفريق (كلوب) يعني ببساطة المعونة البريطانية للجيش في الأردن، وكان مقدارها في ذلك الحين كما يقال إثني عشر مليون جنيه إسترليني، وذهاب الجنرال كلوب المظهري الذي جرى يعني ذهابها. والذين قرروا إعفاء كلوب يعرفون هذه الحقيقة، كما أنهم أيضاً يعرفون من أين يأتي البديل. أما الذين سقطوا في الفخ فهم بعض الضباط والسياسيين، وأهم من الجانبين الوطن. لقد بدأت أميركا تهيئة موضع قدم لها في الأردن في زمن الملك عبد الله حينما شملته بمعونات النقطة الرابعة التي أنشأت بعض السدود السطحية لجمع المياه في البادية ورش بذور نباتات الرعي في هذه المناطق. وكان (كلوب) يحذر شيوخ العشائر الذين يزورونه أو الذين يزورهم في مضاربهم، قائلاً لهم يا (حبيبي) (هذه البذور اللي يرموها الأميركان في البادية تطلع عشب يسم الطرش) والذين كانوا يعرفون من البديل للبريطانيين وهم السلطة ومن يلوذ بها، تجاهلوا أنهم يعرفون ذلك، ليضعوا المشكل أمام الناس ويخلقوا واقعاً صعباً من أجل القبول بالحلول المعدة.

## الوضع في الجيش بعد الفريق كلوب

إنني أكتب من الذاكرة بعد فترة طويلة من الحدث، وفي واقع لا تتوفر فيه المصادر،



ولهذا فأنا غير دقيق في تاريخ الحدث ذاته، لكن مضمونه واضح في ذهني بل هو أكثر وضوحاً. عين اللواء راضي عناب رئيساً لأركان الجيش، واللواء راضي كان مساعداً لرئيس أركان الجيش للإدارة وكان قبل ذلك في الأمن العام، أحيل على التقاعد برتبة عقيد ثم أعيد للخدمة وعمل في رئاسة أركان الجيش، وحين أنهيت خدمات الضباط استلم بعض الضباط العرب مواقعهم ومن هؤلاء الضباط استلم المقدم علي أبو نوار، كبير مرافقي الملك في حينه، منصبه مديراً للعمليات في رئاسة الأركان خطوة على الطريق، وعين العقيد علي الحياري قائداً للفرقة والعقيد محمد المعايطة قائداً لسلاح المدفعية والمقدم محمود الروسان قائداً لسلاح الدروع والرائد أحمد زعرور قائداً لسلاح الهندسة والرائد شوكت السبول مديراً لمشاغل الجيش. وهكذا يكون تنظيم الضباط قد سيطر على أهم أسلحة الجيش. بقي اللواء راضي عناب رئيساً للأركان لفترة لا تتجاوز الثمانية أشهر، عيّن بعدها المقدم علي أبو نوار رئيساً لأركان الجيش، بعد أن رفّع إلى رتبة لواء، وفي معيته رفع كل الضباط الكبار في الجيش الذين كنا نطلق عليهم (ضباط كلوب) وكانوا جميعهم أعلى منه رتبة، رفعوا إلى رتبة أعلى وبأقدمية أدنى. وبهذه المناسبة لم يسرح من الجيش الأردني في حينه إلّا عدد قليل جداً من الضباط لا يتجاوز أصابع اليدين، لم يكن الفساد هو سبب تسريحهم ولكن ولاؤهم المفضوح. أما أبناء (الصحن) والذين تدل كنيتهم على منبت طيب ـ فقد جاء عمهم عبد الرحمن الصحن مع كلوب من العراق ـ فسرحوا جميعهم لقربهم منه (وقد أعيد كل من سرح من الخدمة إلى الجيش بعد أحداث نيسان عام ١٩٥٧) خلال هذه المدة، أي منذ تسلم اللواء راضي عناب رئاسة الأركان حتى تسلم اللواء علي أبو نوار ذلك المنصب.

وما تم خلال هذه المدة من إجراءات سلسة لم يظهر منها ما يقلق من كان متخوفاً، كانت هذه المدة كافية لتهدئة الخواطر، فبدأ رجال المرحلة الماضية إن كان في الجيش أو في الدولة يطلون برؤوسهم أولاً، ثم الحديث همساً بعد ذلك. وحين تولى اللواء علي أبو نوار رئاسة الأركان وبدا لهم أن لا جديد في نهجه، بدأ الحديث بصوت عال، أن لا أحد يحق له الادعاء بأي دور في عملية عزل الفريق كلوب سوى جلالة الملك. فلو أعطى جلالته أوامره إلى أي قائد وحدة في الجيش لنفذت أوامر جلالته. طبعاً هذا افتراء على الحقيقة وواقع الأمر، وهو كذلك قول غير صحيح

بالمطلق. يستطيع جلالته بموجب صلاحياته الدستورية ومن خلال مجلس وزرائه كما حدث بالضبط، أن يعفي الفريق (كلوب) من الخدمة. أما أن يأمر وحدات عسكرية بالتحرك لتنفيذ واجبات محددة، احتياطاً لعملية الإقالة (حتى وإن كانت عملية مظهرية قد يكون لها أهداف أخرى خارج الإسلوب الذي اتبع) فهو محض افتراء. ولا يمكن أن يقوم بهذا الأمر إلّا الملتزمون ـ هذا عدا عن أن (جلالة سيدنا) في تلك الفترة كان صغير السن قليل الخبرة والمعرفة في الجيش، ولم يكن في ذهن الضباط وخاصة الوطنيين (لأن بقية الضباط هم ضباط كلوب)، إلّا صورة جلالته وكلوب ـ يتقدمه ليلقي كلمات في تجمعات للضباط أقيمت لهذه الغاية في حينه، من أجل أن يتحدث جلالته عن مميزات ومكاسب الدخول (في حلف بغداد).

## المردود الإيجابي الذي تلقاه الملك حسين على هذه الخطوة

فعلى الصعيد الداخلي ارتاحت الأوساط السياسية والشعبية ومن بينها الأحزاب التي كانت تمارس نشاطاتها السياسية سراً بدون مشروعية. ففي ذلك الحين لم يكن تشكيل الأحزاب السياسية مسموحاً به، واعتبرت هذه الأوساط أن عزل الفريق كلوب وتعريب الجيش هو خطوة مهمة تدعم الاستقلال الوطني للأردن. وتلقى الملك حسين مردوداً إيجابياً أكبر مما كان متوقعاً على الصعيد العربي، فلقد أشادت الصحف والإذاعات العربية بهذه (الخطوة الجريئة)، وكان الإعلام المصري أطولها باعاً، فهو في تلك المرحلة إعلام مسموع ومقروء على كل المستويات الشعبية في الوطن العربي. ومع إن قيادة الثورة في مصر كانت تعرف المرامي والأهداف الحقيقية لهذه المسرحية، كان في تقييمهم أن ذهاب (كلوب) والضباط الإنكليز من الجيش في الأردن مهم ومفيد لسياسة مصر العربية.

وبعد هذه الخطوة الهامة وطنياً، خطا العهد الجديد خطوة مهمة باتجاه بناء واقع سياسي جديد في الحياة السياسية الأردنية، تتوافق وتفكيره السياسي ونهجه الوطني (وذلك ضمن الصورة المراد تعميقها في أذهان الناس)، فلقد تقرر السماح بتشكيل الأحزاب السياسية تمهيداً لإجراء انتخابات جديدة لمجلس النواب، بعد أن حل مجلس نواب عام ١٩٥٤، ولكي يعطى الناس، عامتها وخاصتها، سياسييها ومثقفيها تصوراً مسبقاً عن نوعية هذه الانتخابات. فقد كلف السيد علي مسمار (رئيس



محكمة التمييز)، وهو قاض مشهور بنزاهته، تشكيل حكومة الانتخابات هذه.

## الانتخابات

جرت الانتخابات بعد أن تشكلت الأحزاب، وأعطيت المهلة اللازمة والحق القانوني في الدعاية الانتخابية، بهدوء وبدون أحداث. وكان وزير داخلية حكومة الانتخابات هو السيد (عمر مطر)، وهو إداري قديم ووزير سابق لعدد من المرات. ولم يكن تعيينه وزيراً للداخلية في حكومة الانتخابات دون هدف، بل من أجل ضبط نتائجها بأسلوب فني يتوافق ورؤية (صانع القرار السياسي). ففي تلك الانتخابات لم يسمح للجيش والأمن العام بالاشتراك فيها. وكان عدد أعضاء مجلس النواب في حينه أربعين نائباً موزعين بالتساوي بين فلسطين وشرقي الأردن. وكانت نتائج الانتخابات على النحو التالي:

| | |
|---|---|
| أ ـ الحزب الوطني الاشتراكي | ١٦ نائباً |
| ب ـ الحزب الشيوعي الأردني | نائبان |
| ج ـ حزب البعث العربي الاشتراكي | نائبان |
| د ـ الجبهة الوطنية | نائبان |
| هـ ـ حزب التحرير الإسلامي | نائب واحد |

وكانت بقية الشخصيات مستقلة بينهم الأستاذ هزاع المجالي، ومن بين شخصيات الحزب الوطني الاشتراكي التي فازت كان الأستاذ عبد الحليم النمر الحمود العربيات نائب رئيس الحزب، وحكمت المصري والأستاذ شفيق الرشيدات، أما رئيس الحزب الأستاذ سليمان النابلسي فقد أخفق في الحصول على مقعد في مجلس النواب عن مدينة عمان. ومثل حزب البعث العربي الاشتراكي الأستاذان عبد الله الريماوي وكمال ناصر وكلاهما عن منطقة رام الله. وفاز الأستاذ فائق وراد والدكتور يعقوب زيادين عن الحزب الشيوعي الأردني. الأول عن منطقة رام الله والثاني عن مدينة القدس، وقد نجح الدكتور يعقوب زيادين الذي كان له عيادة طبية في المدينة وهو من بلدة السماكية في محافظة الكرك، من خلال تحالف قوي بين الأقلية الأرمنية وآل «نسيبه» إضافة إلى

التأييد الكامل من الحزب الشيوعي. وقد مثل الجبهة الوطنية الأستاذ عبد القادر الصالح عن محافظة نابلس والأستاذ جودت المحيسن عن مدينة الطفيلة. أما ممثل حزب التحرير الإسلامي فقد كان الشيخ المجاهد (أحمد الداعوق) عن مدينة قلقيلية.

قياساً إلى انتخابات عام ١٩٥٤ وكل ما سبقها من انتخابات جرت في الأردن، يمكن اعتبار تلك الانتخابات نزيهة إلى حد كبير وتمثل الواقع في حينه. حدث التزوير في مواقع محددة ولكن كان فنياً وغير واضح. أما الديموقراطية بمعناها العملي والتي تعني حكم الشعب بواسطة ممثليه (أو منتخبيه دون تزييف أو تزوير أو تدخل) والتي تجعل من مجلس النواب مصدراً لكل السلطات.. فأين نحن من ذلك، الجداول الانتخابية تملأ بالأموات، والدوائر الانتخابية تقسم حسب رؤية السلطة لمصلحتها: إلى بدو شمال وبدو وسط وبدو جنوب، مدن المملكة الكبرى مثل عمان والزرقاء وفيهما أكثر من ثلث سكان المملكة تتساوى في التمثيل مع مدن ومناطق المملكة الأخرى. وحتى تصبح نوايا العهد الجديد (الديموقراطية) جلية وواضحة للإنسان المسيس والعادي، استدعى الملك حسين الأستاذ سليمان النابلسي رئيس حزب الأكثرية وكلفه بتشكيل حكومته الديموقراطية، والأستاذ سليمان متخرج من الجامعة الأميركية في بيروت. سياسي وطني بارز عُين وزيراً أكثر من مرة، شكل في فترة حكم الملك عبد الله نقطة التقاء لبعض المثقفين في الأردن كان لها نشاط سياسي محدود يمكن اعتباره معارضاً في مرحلة ومهادناً في أخرى، ليس له عقيدة سياسية محددة وهو في حقيقته ابن الواقع غير القادر على تطويره وإنهاضه. ولا يمكنني أن أنسى أن هذا السياسي البارز الكريم جاهد جهاداً حقيقياً من أجل إطلاق سراحنا نحن البعثيين الأردنيين المسجونين في سورية (دون محاكمة) بعد تولي الفريق حافظ الأسد السلطة، وسأذكر باحترام دائم أنه أمضى ليلة كاملة وهو مريض بالمرض الذي قضى به ينتظر مقابلة الرئيس السوري الذي كان يزور عمان، ليطلب منه إطلاق سراحنا، ولكن الرئيس السوري لم يستقبله. هكذا تجري الأمور في هذا الوطن (تهزل فيسومها كل مفلس).

## اللواء علي أبو نوار رئيساً للأركان

تقاطر المهنئون من الضباط على معسكر العبدلي حيث كان يسكن اللواء علي،





فاصطحبني شاهر ومحمود إلى عمان لتهنئة اللواء علي أبو نوار بالمنصب الجديد، وحين وصلنا إلى المنزل أدخلونا إلى غرفة الضيوف، فوجدناه ومجموعة من الضباط بينهم العقيد محمود الموسى مدير الاستخبارات العسكرية. سلمنا وباركنا للواء علي بالمنصب الجديد وجلسنا، وبدأ الجالسون يتحدثون إليه ويخاطبونه بقول (يا باشا)، وفجأة وبدون مقدمات سيطر عليّ غضب شديد، وأنا حينما تتملكني هذه الحالة، أقول ما يدور في نفسي دون تردد مهما كانت مخاطر هذا القول شديدة، والذي أثار هذا الغضب في نفسي هو السؤال الذي أثقل عليّ من وحي الواقع، وهو: هل تقزمت قضيتنا التي كانت كبيرة في وعينا إلى هذه الحصيلة الرخيصة! استبدال (كلوب) بعلي أبو نوار، لقد كشفنا حقيقتنا لمخاطر مقبلة ليس أشخاصنا بل قضيتنا التي من أجلها عرضنا أنفسنا لمخاطر التنظيم في الجيش. فقلت مخاطباً رئيس الأركان وكنت حينها برتبة (نقيب). قلت: لقد كلفنا ترفيعك إلى رتبة لواء ومن ثم رئيساً للأركان، كلفنا الكثير، فجميع الضباط الكبار في الجيش ضباط العهد السابق ترفعوا في معيتك وهم قبلوا أقدميتك وموقعك على أن يبقى كل منهم في موقعه في الجيش. فوجم الحضور وأطبق الصمت. فبادر هو وقال: دعونا ننتقل إلى نادي الضباط (وقد تخلص من الإحراج بأسلوب ذكي، واللواء علي لا ينقصه الذكاء). وحين خروجنا نادى عليّ وقال: تعال، اركب معي. ركبت إلى جانبه وقاد هو السيارة ولم يركب معنا أحد. بقي صامتاً حتى خرجنا من المدينة، وحينها التفت إليّ وسأل ما معناه: ماذا تريد؟ فأجبته دونما تردد أو تحسب ـ لأنك حينما تواجهه بحقيقة فهمك وتقول له ما قلته، عليك أن تكون واضحاً وصادقاً في ردك على سؤاله الذي نتج عن واقع أنت أثرته ـ فقلت له: هل تظن أننا أوجدنا تنظيماً في الجيش الذي يقوده ويموله الإنكليز من أجل عزل (كلوب والضباط الإنكليز)؟ إننا قمنا بذلك من أجل إلغاء هذا الكيان المصطنع والخطر. ولم يجبني حينها بحرف، ولكنه أجابني على هذا السؤال بعد أربعة عشر عاماً من هذا التاريخ. وكان الواقع ومعطياته قد تغيرا كثيراً، وقد استقرت طموحاته. جاء هذا الرد على مائدة غداء ولي العهد الأمير حسن بعد خروج المقاومة من الأردن إثر الصراع المسلح الذي قام بين النظام والمقاومة في أيلول وخروج المقاومة إثر ذلك من مدينة عمان. عدنا إلى عمان تحت علم بعثة الجامعة العربية برئاسة الباهي الأدغم للتفاوض. وبعد جلسة المفاوضات الأولى مع رئيس الوزراء في حينه السيد وصفي التل ووفده، قال لنا: إننا وإياكم مدعوون للغداء على مائدة ولي العهد ـ نائب الملك

في حينه، في قصره الذي يجاور قصر بسمان، وحينما حان الوقت ذهبنا (الوفدان) معاً في رتل واحد. وأذكر من المدعوين في حينه السيد سعيد المفتي الذي أقبل عليّ يتحدث معي، وكنت التقيته في القاهرة في إحدى دورات المجلس الوطني، وقد كان مدعواً لحضوره، وكذلك اللواء علي الذي فارقته مديراً لشركة الفوسفات. وأثناء تناولنا الطعام وكنت أقف ورئيس الوزراء على (منسف واحد) رأيت اللواء علي يقف بجانبي ويقول لي بصوت عال (إمغلب حالك ودّك وحدة عربية، ما في وحدة عربية)، فاستهجنت الأمر ولم أجبه بحرف، لأنه بعد أن قال كلمته مشى ولم ينتظر ردي. لماذا لم يقل لي اللواء علي هذا الكلام حين سألني ذلك السؤال قبل أربعة عشر عاماً وكنت حينها في متناول يده؟ لأنه ببساطة كان (اللواء علي) حينها يطمح أن يلعب دوراً سياسياً قيادياً على الساحة الأردنية، بوجود الملك وبإرادته أو بغير إرادته، أو حتى بدون وجوده، ولذلك صمت عن إجابتي على تساؤلي في ذلك الحين، منتظراً أن تتاح له الفرصة المناسبة للاستعانة بهذا المتطرف! طبعاً هذا اجتهاد يخضع للنقد وللنقض، فاللواء علي لعب دوراً شديد الغموض. هل كان دوراً مرسوماً أم دوراً فرضه الواقع؟ لا أحد يستطيع أن يجلو الحقيقة إلّا اللواء علي – رحمه الله – والملك حسين يرحمه الله.

## المقدم محمود الروسان

لم أتعرف إلى المقدم محمود الروسان إلّا بعد أن تسلم قيادة اللواء المدرع بعد إقالة (الفريق كلوب)، إلّا أنه كان ضابطاً معروفاً في الجيش الأردني وعمل في حرب عام ١٩٤٨ أركان حرب الكتيبة الرابعة مشاة المشهورة في باب الواد، تحت قيادة المقدم حابس المجالي وكان برتبة ملازم أول آنذاك. التقاه شاهر وهو برتبة رائد ويشغل وظيفة ركن أول للواء المشاة الثاني ودعاه إلى التنظيم، فلبى الدعوة بلا تردد وجاء بقلم وورق وبدأ يرسم خطة الإطاحة بالنظام، هذا الاندفاع حد التهور أخاف قيادة التنظيم وخاصة المتنفذين فيه آنذاك، فقطع الاتصال معه منذ ذلك الحين. وقد أرسل إلى واشنطن ملحقاً عسكرياً في السفارة الأردنية هناك في نفس التاريخ الذي أرسل فيه الرائد علي أبو نوار إلى باريس. لقد أصاب المقدم محمود الروسان هياج غاضب لتعيين المقدم علي أبو نوار رئيساً للأركان بعد ترقيته إلى رتبة لواء، وقد اعتبر نفسه أحق بهذا الموقع من المقدم علي أبو نوار، فهو أقدم منه ويتميز عنه أنه من قيادة تنظيم الضباط. وكان لقيادة التنظيم دور في تسلم المقدم محمود الروسان قيادة





السلاح المدرع أقوى أسلحة الجيش، ظانّة أنها بذلك ستصبح في المركز الأقوى تماماً. حاولنا جاهدين أن نقنعه أن قيادة التنظيم ليس لها علاقة إطلاقاً بتعيين اللواء علي رئيساً للأركان، فالذي عينه هو الملك، ولو كان اللواء علي عضواً في قيادة التنظيم لكان في وجهة نظره بعض الحق. وقد قلت له هذا القول شخصياً حين التقيته في قيادة السلاح المدرع، إلّا أن أبو زياد – رحمه الله – كان على ما يظهر يستعجل الأمور، تدفعه قوى كان لها أهداف في خلق انقسامات في صفوف تنظيم الضباط وفي الجيش. ولذلك قام بعملية حمقاء هدفها ما ذكرت. ففي إحدى الأمسيات كنت أقف مع محمود المعايطة في الشارع الذي تقع على جانبيه بيوت سكن ضباط سلاح المدفعية أقرب إلى منزله من منزلي وكانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً، وكنا نتحدث قبل أن نفترق، وأثناء وقوفنا تقدم منا شخص، وحين أصبح بيننا رفع يده إلى الأعلى وأطلق طلقة واحدة من مسدس يحمله وانحرف هارباً، ولم تترك السرعة التي حدثت بها الواقعة وكيفية حدوثها مجالاً لا للرعب ولا للمبادرة من أي نوع. وقدرت أن المقصود بعملية الإرهاب هذه هو محمود. لم نقل كلمة واحدة حول هذا الأمر بعد أن عرفنا صاحب هذا الفعل. وكان الوكيل في الجيش ماجد الروسان شقيق المقدم محمود الروسان.

بعد الإفراج عني من سجن المزة في دمشق في ٣٠ - ١٠ - ١٩٩٤، وبعد سنتين من هذا التاريخ، التقيت محمود أكثر من مرة. وفي إحدى هذه المرات كنا مدعوين على الغداء، وكان الداعي، هو رفيقنا عزمي مهيار، روى محمود الواقعة بشكل مختلف مكاناً وقال أنها حدثت قرب منزل عزمي تخللها بعض العراك وانتزاع المسدس: وأيده عزمي في ذلك. وروايتي هي الأصح. هذا الاتجاه الذي سار عليه المقدم محمود الروسان في التفكير والفعل قاده إلى التآمر مع مجموعة من الضباط المسرّحين من الخدمة، وحين اكتشاف (التآمر) اعتقل المقدم محمود الروسان هو وكل من معه، وشكلت هيئة تحقيق من أجل تقديمهم للمحاكمة، وقبل أن تنتهي هيئة التحقيق من تحقيقاتها أفرج عن المقدم محمود الروسان ومن معه وأرسل إلى واشنطن ليعمل في سفارة الأردن هناك.

## حكومة سليمان النابلسي

شكل الأستاذ سليمان النابلسي أول حكومة في تاريخ الأردن السياسي بصفته رئيساً

لحزب الأغلبية في مجلس النواب. وكانت حكومة ائتلاف وطني ضمت بالإضافة إلى الحزب الوطني الاشتراكي، البعثيين والجبهة الوطنية. وكانت حكومته تستند إلى تأييد اثنين وعشرين نائباً عدا عن بعض النواب المستقلين. وكان أبرز وزراء هذه الحكومة:

* عبد الحليم النمر الحمود نائب رئيس الوزراء.
* وشفيق الرشيدات.
* وعبد الله الريماوي.
* وعبد القادر الصالح.

وتولى السيد حكمت المصري رئاسة مجلس النواب. والحزب الوطني الاشتراكي الذي كان يرأسه الأستاذ سليمان النابلسي، تشكل من أعيان الضفتين، ويمكن تصنيفه (ماركسياً بالبرجوازية الوطنية). وهؤلاء السادة الذين ذكرتهم وغيرهم في الحكومة، يعتبرون في حينه أبرز الوجوه الوطنية سياسياً في الأردن.

وحينما باشرت حكومة السيد سليمان النابلسي مسؤولياتها كانت المهام الصعبة التالية في مواجهتها: ـ

أ ـ تراث النفوذ البريطاني المتمثل بالمعاهدة البريطانية ـ الأردنية، والمعونة المالية للجيش الأردني.

ب ـ الواقع العربي المجزأ والوضع الإقليمي المضطرب.

ج ـ الوضع الداخلي.

### المعونة البريطانية

هل كان بإمكان الأردن الاستغناء عن المعونة المالية البريطانية وكذلك البديل عنها (أي المعونة الأميركية)؟ أقول نعم. ولكن ليس بواقعه الذي كان عليه أو أسلوبه الذي سار إليه ـ وكنت أعي هذه الحقيقة حتى في ذلك الحين. كانت معونة بريطانيا اسماً إثني





عشر مليون جنيه إسترليني بدفع جزء بسيط لوزارة المالية والباقي يدفع للفريق كلوب، لا يتدخل في كيفية صرفها أحد لا حكومة الأردن ولا أية شخصية فيها. فمن المؤكد أن الذي يُصرف من هذه المعونة في الأردن، هي رواتب أفراد الجيش والأمن العام. ولأن منتسبي الجيش والأمن العام في ذلك الحين، كانوا ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً في أعلى تقدير، وسأحدد من خلال الهيكل التنظيمي للجيش عدد أفراد الجيش إلى أقرب ما يمكن من الدقة. يتكون الجيش الأردني في ذلك الحين من فرقة مشاة وأسلحتها المساندة، ثلاثة ألوية مشاة ولواء مدفعية، مؤلف من ثلاث كتائب ميدان وكتيبة (بوفر ضد الجو)، وسلاح مدرع يتكون من كتيبتي مدرعات حقيقية وكتيبة هندسة ميدان وكتيبة اتصالات، وسرية نقليات الفرقة. ومجموع هذه الوحدات هو سبع عشرة كتيبة، إضافة إلى كتيبة دبابات لم يكن بدأ تشكيلها بعد. ولما كان معدل موجود الكتيبة، هو دوماً بين الثلاثمائة وخمسة وسبعون عنصراً، وجميعها ـ أي الكتائب ـ كان تعداد أفرادها دون المستوى المقرر أيام الحرب، ورقم ٣٧٥ هو رقم مقبول جداً، وبذلك يكون موجود عناصر الفرقة المسلحين هو ستة آلاف وثلاثمائة وخمسة وسبعون عنصراً. ويضاف إلى هذا الرقم العناصر التالية:

١ ـ قيادة الجيش ٢ ـ الانضباط العسكري ٣ ـ الطبابة ٤ ـ مشاغل الجيش ٥ ـ المستودعات ٦ ـ مركز تدريب العبدلي ٧ ـ قيادة الفرقة ٨ ـ قيادات الألوية والأسلحة المساندة.

وهذه الفئات لا يتجاوز تعداد منتسبيها ألفاً ومائتي عنصر، وبهذا يصبح تعداد الجيش الأردني في ذلك الوقت سبعة آلاف وسبعمائة وخمسة وسبعين عنصراً، وحتى نجعل الرقم بالآلاف نقول ثمانية آلاف عنصر، يضاف إلى هذا الرقم ثلاثة آلاف فرد هم منتسبو قوى الأمن، ليصبح حينها الرقم أحد عشر ألف عنصراً منتسباً للجيش والأمن العام الذين يتسلمون رواتبهم من المعونة البريطانية. وإذا ما أخذنا معدل الرواتب الذي لا يمكن أن يتجاوز خمسة وعشرين ديناراً، لأن الملازم الأول والذي يعيل زوجة وطفلين ويضاف إلى راتبه بدل إطعام، لم يكن راتبه يتجاوز اثنين وعشرين ديناراً، وكان هذا راتبي في ذلك الحين. فتكون رواتب منتسبي الجيش والأمن العام في حينه ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف دينار. يضاف إلى هذا الرقم ثمن الملابس، لأن الإطعام يدخل ضمن الراتب. أضف إلى هذا الرقم ٣٠٠,٠٠٠ ألف دينار (ثلاثمائة ألف

دينار) هي اللباس والصيانة والمحروقات ليصبح المبلغ الإجمالي ثلاثة ملايين وستمائة ألف دينار أردني، وحتى لا يقول أحدهم أن هناك محاولة تهزيل للأمر، نقول إن ما كان يصرف من المعونة البريطانية في الأردن هو أربعة ملايين جنيه إسترليني، وهذا يجعل المصروف في الأردن بالدينار الأردني أعلى من الرقم المذكور.

أما المساعدات أو الرشاوى التي كان يمنحها الفريق (كلوب) لشيوخ العشائر، فكانت تأتي من الاقتطاعات من الراتب التي تأتي بسبب العقوبات المقتطعة من رواتب العناصر المعاقبة. أما الأسلحة التي كان يتم توريدها للجيش الأردني فكانت من مخلفات الحرب العالمية الثانية المكدسة. فهم إن لم يبيعوه لمن هم مثلنا ويأخذوا ثمنه وتنقله بواخرهم بأجر، فلا بد أن يرموه في البحر ويدفعوا تكاليف ذلك.

هل كان يمكن تدبير هذا المبلغ من مصادر أخرى غير أميركا؟ أقول نعم إن اتجاهاً وطنياً معززاً بالديموقراطية كان بالتأكيد قادراً على ذلك، وهناك مصدر أردني ثابت. شركة (التاب لاين T.A.P Line)، والتي لا أعرف كم كانت تدفع للخزينة الأردنية، ولكنني أعرف واقعة وهي أن السيد سمير الرفاعي الذي كان في حين توقيع الاتفاقية رئيساً للوزراء قبل برقم معين عن مرور كل برميل للنفط، بينما طلب السيد (Living - stone) (ليفنغستون) مدير الأراضي والمساحة في الأردن في ذلك الحين والذي كان عضواً في وفد المفاوضات مع شركة (التاب لاين) الأميركية، طلب من الشركة ثلاثة أضعاف الرقم الذي قرره رئيس الوزراء، طبعاً لم يكن موقف السيد (Lvining - stone) نابعاً من حبه للأردن، ولكنه نابع من كرهه للنفوذ الأميركي، ومع ذلك فإذا كان الرقم الذي طلبه السيد ( ليفنغستون) عالياً، فإن الرقم الذي وافق عليه رئيس الوزراء متدنٍّ جداً. وكان السيد سمير الرفاعي يأخذ من الشركة مبلغاً قدره خمسة آلاف دينار سنوياً، لا أعرف بأية صفة.

والعرب قادرون على مساعدة الأردن إذا ما أحسن هو القيام بسياسة ثابتة تستند إلى عدم الدخول أو خلق محاور ضارة في الواقع السياسي العربي، وأن لا يكون ممراً ولا مستقراً للنفوذ الصهيوني والاستعماري، والاستناد إلى واقع داخلي (أساسه حرية المواطن وديموقراطية المجتمع)، إلّا أن هذا الواقع يحتاج إلى نظام قادر على تحمل مسؤولية هذه السياسة واتجاهاتها.



## تأميم قناة السويس

في الذكرى الثالثة للثورة وفي الخطاب التقليدي الذي اعتاد أن يلقيه الرئيس عبد الناصر في الإسكندرية، فاجأ العالم (خصوصاً دولتي الاستعمار القديم بريطانيا وفرنسا)، بإعلانه تأميم (قناة السويس) رداً على سحب بريطانيا وأميركا موافقتهما على أن يقوم البنك الدولي بتقديم قرض لمصر للمساعدة على بناء سد أسوان. وهذا الإجراء كان تبريراً موضوعياً في ظرفه، لأن إعادة القناة إلى أهلها لا بد أن تكون على رأس أولويات عبد الناصر الوطنية. وقد وقع هذا النبأ وقوع الصاعقة على قادة بريطانيا أولاً، وعلى فرنسا ثانياً، ووقع على نفس الإنسان في الوطن العربي المقهور في حينه من هذين المستعمرين برداً وسلاماً.



اضطرب جو السياسة الدولية اضطراباً شديداً، وصمم البريطانيون ومعهم الفرنسيون (الذين كانت دوافعهم لعداء مصر مختلفة)، فصمموا على عدم تمكين مصر وعبد الناصر من الفوز، وظنوها فرصة لا بد من اغتنامها لإعادة التاريخ إلى الوراء، فنسقوا جهودهم السياسية في المراحل الأولى من الأزمة ومن بعد جهودهم العسكرية. وقد حاول (دالاس) وزير خارجية أميركا تهدئة حلفائه بطرح مشاريع تسوية، تمتص الاندفاع البريطاني والفرنسي، إلّا أنها فشلت جميعاً لأن الأمر بالنسبة إلى بريطانيا وفرنسا (خطّ أحمر)، ولا بد من الوقوف والقتال للدفاع عن واقعهم القديم كدولتين عظميين. وهكذا بدأتا بتخطيط عسكري مشترك، هدفه احتلال قناة السويس وإسقاط عبد الناصر، وكان رأس الحربة في هذا المشروع العسكري والسياسي هو الكيان الصهيوني الذي أوجدوه لمثل هذه المهمات.

لقد كان واضحاً تصميم بريطانيا على قتال عبد الناصر واستعادة نفوذها في قناة السويس وفي مصر. ففي عشاء أقامه مدير كلية الأركان في الجيش الأردني (وهو بريطاني)، وكنت أحد المدعوين إلى هذا العشاء، أقف بعيداً وأحد رفاقي الضباط، تقدم نحوي القائم بالأعمال البريطاني الذي كان مدعواً، أيضاً، تقدم قاصداً بالتأكيد أن يُسمعني ما يريد قوله، قال بوضوح وبدون دبلوماسية، أن بريطانيا العظمى ستقاتل من أجل حقوقها في قناة السويس إذا أصر الرئيس عبد الناصر على قرار التأميم.

واجه هذا التطور، حكومة الأستاذ سليمان النابلسي في بداية تسلمها مسؤولياتها. وبناءً على الاتفاقيات السياسية والعسكرية المعقودة بين مصر والأردن، والمعلومات الواردة إلى المخابرات العسكرية، بأن إسرائيل قد استدعت الاحتياط، استنفر الجيش الأردني وتوجهت معظم وحداته إلى الضفة الغربية في فلسطين. واحتلت رئاسة الأركان موقعاً متقدماً لها في منطقة (صويلح)، أما قيادة الفرقة فقد احتلت مواقع لها في (طيبة رام الله)، وكان اللواء الثاني (مشاة) الذي كان يقوده في حينه العقيد راضي الهنداوي، ويرأس أركانه الرائد عبد الرحمن العرموطي، تأخذ قيادته موقعاً لها في (عين سينا) وتحتل بعض كتائبه مواقع لها في سلسلة هضاب (النبي صموئيل) التي تشرف على القدس من الشمال الغربي، يساند هذا اللواء كتيبة مدفعية الميدان الثانية يقودها الرائد محمود المعايطة ويساعده النقيب ضافي الجمعاني، وكانت الكتيبة تعسكر في آخر الوادي حيث يتسع المنحدر (من بيرزيت ـ عين سينا)، ولم تكن الكتيبة في حينه لا في واقع الاستعداد ولا حتى الانتشار. كم بقينا هكذا لم أعد أذكر، ولكنها الفترة التي سبقت الهجوم على مصر، وكنا نمضي الليالي نلعب الورق عند عبد الرحمن في قيادة اللواء، إلى أن بدأ الهجوم الإسرائيلي على مصر حين أعلنت «إسرائيل» أن قواتها تقاتل على ضفاف قناة السويس، والحقيقة أنها أنزلت مظليين قرب القناة من أجل إعطاء المبرر لدول العدوان لتوجيه الإنذار سيئ الصيت للمتحاربين لوقف القتال وسحب قواتهم مسافة حددها الإنذار، أي أن تسحب مصر قواتها من أراضيها إلى أراضيها وتسحب «إسرائيل» قواتها من أرض مصرية إلى أرض مصرية. (هكذا هم المستعمرون يخلقون الواقع بالقسر ويعتبرونه حقيقة تخدم أهدافهم). وطبعاً رفضت مصر الإنذار، وحينها بدأ الهجوم البريطاني ـ الفرنسي، الذي كانت إسرائيل طليعته وانتظرت أن يقوم الجيش الأردني بفتح جبهة ضمن إمكاناته، لكن ذلك لم يحدث ولم يكن هناك ما يدل على وجود هذه النية.

تذكرت حينها حرب عام ١٩٤٨ حينما كان الحكام العرب يتآمرون على بعضهم البعض وعلى القضية الفلسطينية مع الإنكليز وبعضهم مع اليهود، وتذكرت كذلك حصار (الفالوجة) المشهور، حينما كان الجيش المصري محاصراً والجيش الأردني قريب منه في منطقة الخليل، ولم يقدم له أي عون سوى إرسال ضابط بريطاني ليقدم لهم عرضاً، وهو أن ينسحبوا عبر الأراضي الفلسطينية التي يسيطر عليها الجيش



الأردني، ويتركوا أسلحتهم الثقيلة غنيمة للجيش العربي. ومثل هذا العرض قدمه اليهود لانسحاب الجيش المصري، إلّا أنه رفض مع أن الطريق إلى سيناء ومن ثم مصر كان أسهل وأقرب.



تحدثت إلى محمود المعايطة في هذا الأمر وذكرته بهذه الحقائق والتي تكررت الآن، وكان رأيانا متماثلين، فاتفقنا أن نذهب للقاء قائد الفرقة اللواء علي الحياري، فذهبنا سوية إلى قرية الطيبة وفور وصولنا طلبنا مقابلته، خرج إلينا من (الكرفان) الذي يقود منه وحداته، وفور وصوله إلينا واجهته دون مقدمات، قائلاً: إننا نترك مصر تقاتل وحدها وكأنها ليست جزءاً منا، وكأنه لا يوجد بيننا وبينها مواثيق. إنني سأطلق نيران كتيبة مدفعية الميدان الثانية على القدس وأجبركم على دخول الحرب. فانزعج جداً وقال لي: انتظر، ودخل مقر قيادته، وعاد وفي يده ورقة ومدها إلي وقال: اقرأها إنها برقية من عبد الحكيم عامر يطلب إلينا فيها عدم التدخل بالقتال الدائر لأن هذا التدخل سيضر بقضية مصر. هم يطلبون منا ذلك وهم القيادة العليا. لم أتناول البرقية لأقرأها لأن الصدق كان واضحاً على وجه اللواء علي (وأبو صخر لا يكذب).

عدت ومحمود المعايطة وجلسنا على صخرة نبكي، وفي المساء سمعنا الإنذار السوفياتي الشهير، فوقفت قائلاً (عاش الاتحاد السوفياتي صديق الشعوب الضعيفة). وما إن أعلن عن قبول وقف إطلاق النار وبدأت الجيوش الغازية بالانسحاب من أراضي مصر، حتى انسحب الجيش الأردني إلى معسكراته التي تقع في الضفة الشرقية ما عدا الوحدات التي عليها مهمات في الضفة الغربية.

## عبد الناصر وتأميم قناة السويس

لا شك أن الرئيس عبد الناصر قام بعمل عظيم حيث أعاد لمصر رمزاً من رموز تضحياتها، فالأهرام والقناة يشكلان الشاهد الحي على التضحيات الجسيمة التي بذلها إنسان مصر على مدى تاريخه العريق. لقد حقق عبد الناصر إنجازين كانا يمثلان كل التراث الاستعماري على مدى قرن كامل وهما إجلاء القوات البريطانية عن أرض مصر وثانيهما استعادة حق مصر الكامل في قناتها. ولسوء حظ مصر أنها لم تستطع الحفاظ على ما حققه عبد الناصر، لماذا؟ لأن الرئيس الراحل لم يهيئ الأداة التي

تتصدى وتتحمل معه هموم مصر وحملها الثقيل والحفاظ على ما أنجزه، والأداة الوحيدة القادرة على ذلك هي الشعب المنظم الواعي والمؤمن بما يقوم به، تقوده طليعة متحررة واعية لمهماتها المرحلية والاستراتيجية. والرئيس الراحل لم يكن قادراً على فعل ذلك في تلك المرحلة لا من حيث وسطه الذي تكوّن فيه ولا من حيث أداته التي قامت بالثورة. ولقد وعى هذه الحقيقة خلال مساره الطويل التجريبي، ولكن بعد أن أنهكته الأحداث. والرئيس الراحل لم يكن الوحيد من قادة العالم الثالث في مرحلة التحرر الوطني الذي آل ما بناه إلى انتكاس (مع الفارق الجدي بين مهمة عبد الناصر ومهام الآخرين وبين ما تعرض له عبد الناصر وما تعرض له الآخرون)، لقد كانت معركة مصر بقيادة عبد الناصر، هي معركة الأمة العربية وهي معركة مصير بالنسبة للاستعمارين القديم والجديد وحليفتهما الصهيونية العالمية، ولهذا يستحيل إنجاز مرحلة تحرير الأمة العربية خلال مسيرة بطل واحد من أبطالها ضمن الواقع الدولي والعربي الآن وحين ذاك.

إن الرئيس الراحل هو بطل مرحلة من مراحل نضال هذه الأمة على طريق تحررها، ولا يمكن لأية أمة مثل الأمة العربية لها من الأعداء مثل هؤلاء الأعداء الذين يسيطرون على العالم، وفي واقع مثل واقعها في حينه وحتى الآن أن تحقق أهدافها في التحرير والوحدة إلّا بتكاثر أبطالها وتضحياتها جيلاً بعد جيل، ومرحلة إثر مرحلة ليتراكم تراثها النضالي فكراً وفهماً وممارسة ويصبح مناراً واضحاً يهدي الأجيال المتعاقبة إلى الطريق الذي سيقودها إلى أهدافها.

التقيته (يرحمه الله) قبل رحيله عن هذه الدنيا بأشهر في معية الأخ (أبو عمار) ياسر عرفات إثر التظاهرات التي جرت في عمان ضد قبوله مبادرة (روجرز)، وقد أساءت إليه بعض التنظيمات الفلسطينية، وما أكثر المشبوهين في فصائل الثورة الفلسطينية. التقيناه في استراحة المعمورة في الإسكندرية. هذه الاستراحة الصغيرة والبسيطة على شاطئ المتوسط إلى الشرق من (قصر رأس التين). وكنا، أبو عمار والمرحومان أبو أياد وأبو الهول والمرحوم الأستاذ إبراهيم بكر وأبو اللطف وأنا. وقد قادنا ورافقنا بهذه الزيارة الأستاذ محمد حسنين هيكل. وصلنا إلى الاستراحة عصر أحد الأيام ودخلنا غرفة جلوس صغيرة في الطابق الأرضي لا تتسع لأكثر من عددنا، بها أثاث بسيط، (صوفا في الصدر وعلى جانبيها ثلاثة مقاعد). جلس أبو عمار والأستاذ محمد حسنين





هيكل على الصوفا وصلاح خلف (أبو أياد) والأستاذ إبراهيم بكر إلى اليمين، وهايل عبد الحميد (أبو الهول) (وأبو اللطف) فاروق القدومي وضافي الجمعاني إلى اليسار. انتظرنا أقل من عشر دقائق قبل أن يصل الرئيس، ولما دخل علينا قال باسماً: (كنت أمرن نفسي) وكان يعني أنه كان يمرن نفسه على ضبط الأعصاب. وهو معروف بحساسيته تجاه الرأي العام العربي وخاصة الفلسطيني. كان يلبس قميص (نص كم). وضع كرسيه في الوسط بمواجهة أبو عمار والأستاذ محمد حسنين هيكل، وكان لا يمكن أن يراني دون أن يلتفت. تحدث إليه في هذه الجلسة أبو عمار ومن بعده أبو أياد وتحدث بعد ذلك الأستاذ إبراهيم (لا أذكر حقيقة ما قالوه، لأن الأحاديث العادية لا تعلق في الذهن، إلّا أنه كان حديثاً يدور حول الثورة الفلسطينية وظروفها الصعبة). وبعد أن أنهوا حديثهم تحدث هو قائلاً: أنا قبلت مبادرة (روجرز)، وقبولي لها ليس (تكتيكاً سياسياً) لأن نسبة فشل هذه المبادرة وحل المشكلة سلمياً هو ٩٩٪، وقبولي بها لا يلزم المقاومة الفلسطينية ولا يضر بأهداف نضالها، وموقف مصر من المقاومة الفلسطينية هو التأييد المطلق لها، وأقول لكم صادقاً أنني مؤمن بأن ما أخذ بالقوة لا يستعاد إلّا بالقوة، ولذلك ليس هناك ما نختلف عليه. هذا أهم ما قاله. وبعد أن أنهى حديثه، طلبت الحديث قائلاً: تسمح لي سيادة الرئيس؟ فاستدار باتجاهي.. فقلت: أنا سعيد أنني في مصر (وكنت صادقاً في ذلك) فارتاح لهذا القول، قلت: إن في مصر نظاماً وطنياً لا بد له أن يستعيد أرض مصر ولو بالقوة، وكذلك يتعلق الأمر بسورية (وكنت هنا مخطئاً) أما نحن في الأردن فاستعادة الأرض بالقوة تعني انتصارنا، وهذا النصر ليس من مصلحة النظام السياسي الأردني. فالتفت إلى الأستاذ هيكل وقال له: (جاوب يا هيكل) وعاد وتوجه إليّ ثانية قائلاً: خذوا النظام. تناولنا العشاء معه وكان قد شكا أكثر من مرة أثناء عشائنا وجلوسنا معه. بعد خروجنا التفت أبو عمار إلى الأستاذ هيكل قائلاً له: إن الزيارة لم تكتمل ولم أفهم أنا لماذا لم تكتمل الزيارة. وفي صباح اليوم التالي زارنا الأستاذ هيكل في مقر إقامتنا بالإسكندرية وتحادث مع بعض الأخوان وقال لي، إن الرئيس استغرب أن تكون بعثياً، فأجبته قائلاً: أنا بعثي أصيل. بعدها قال إن الرئيس ينتظرنا فلنذهب. ذهبنا والأستاذ هيكل، ولما وصلنا الاستراحة وجدنا الرئيس بالفعل بانتظارنا، فجلسنا معه ومن بعض ما قاله، إن مهمتي تنتهي حينما أستعيد لمصر أرضها. فسألته بعد هذا الذي قاله: وماذا ستفعل؟ قال بتصميم (حسيب، حامشي)، التقطنا صوراً معه. وعند

ذاك عرفت معنى قول أبو عمار (أن الزيارة لم تكتمل) رحمه الله وعوضنا بمثله.

## حكومة الديموقراطية منذ السويس حتى استقالتها

لقد كانت حكومة الأستاذ سليمان النابلسي في سباق مع الزمن فيما يتعلق بالمعونة البديلة عن المعونة البريطانية، فهي لم يكن باستطاعتها أن تذهب إلى المكان الوحيد بل والمصمم أن يكون الوحيد القادر أن يكون بديلاً عن بريطانيا وهي أميركا، حينها لم يكن ممكناً أن تسمى وطنية. لذلك ذهبت إلى المكان الوحيد الذي يعطيها هذه الهوية وهم العرب. ولهذا أرسلت وفداً إلى القاهرة من الأستاذين شفيق الرشيدات وعبد الله الريماوي، لبحث هذا الموضوع مع الرئيس عبد الناصر. وطبعاً أنا غير مطلع على ما طرح في المحادثات ولا على النتائج، إلّا أنه قيل أن الوفد طالب بمعونة عربية قيمتها خمسة عشر مليون دينار، وأن مصر أبدت من طرفها استعداداً طيباً للمساهمة ضمن إمكاناتها في ذلك الحين، والصحيح أنه لم يكن هناك معضلة فيما يتعلق بالمصادر التي ستجمع منها المعونة العربية في ذلك الحين. إنما المعضلة في طبيعة السلطة القائمة في الأردن. في مكان سابق من هذه الذكريات قلت أن ما كان يصرف من المعونة المالية البريطانية للجيش الأردني كان خمسة ملايين دينار في الحد الأعلى، وأن وضعاً سياسياً وطنياً ثابت الأركان قادر أن يفرض على فقراء العرب حداً من العون، فكيف بأغنيائهم! هذا عدا عن أن نظاماً يحمل المواصفات التي ذكرت قادر على أن (يدبر) الجزء الأهم من موارده الذاتية. أما في ظل نظام يسكن سياسياً وواقعياً في حضن الأميركان والإنكليز ولا يزال الملك فيه مصدر السلطات، فمن هو الحاكم العربي الأبله الذي سيساعد حكومة الأستاذ سليمان النابلسي، رغم لونها الوطني، ضد إرادة الملك حسين والقوى الدولية والإقليمية التي تسنده بمن فيهم الرئيس عبد الناصر والحكم الوطني في سورية آنذاك؟ ومع ذلك ففي تقديري أن هذا الوفد ومباحثاته في القاهرة قد سرّعا من خطوات الملك حسين ومن يشيرون عليه باتجاه (كنس المرحلة)، خصوصاً أنها أعطت المردود المتوخى بالنسبة لشخص الملك، واستنفدت أغراضها حسب المخطط المعد مسبقاً، لأنه كان يستحيل على الملك حسين قبول مساعدة عربية بديلاً عن المعونات الأميركية والبريطانية لحكومة وطنية تستند إلى برلمان وطني، الأمر الذي كان يمكن أن يعمق الالتزام العربي ويقويه، ويجعل بالتالي إمكانية سيطرة الملك حسين على مسار السياسة الأردنية داخلياً



وخارجياً مع الزمن والتطور الإيجابي معدومة. هذا الأمر لا يمكن أن يحدث بالنسبة للملك حسين ولا بالنسبة لمن هم خلفه وفي معيته.

ومن هنا بدأت إذاعة الـ (B.B.C) والنابحون بالعربية فيها، بالتهويل بالخطر الشيوعي الذي كان يتهدد الأردن، فبعد وصول الشيوعيين إلى مجلس النواب أصبح اليساريون يهددون عرش الملك حسين. فالتحالف الذي أوصل الدكتور يعقوب زيادين، ابن محافظة الكرك إلى مجلس النواب عن مدينة القدس معروف، مما يدل على الإعداد المسبق للمرحلة (وأنا هنا لا أستهدف النيل من الدكتور زيادين). وانطلاقة هذا النباح كانت إشارة البدء للعمل على تغيير الواقع السياسي في الأردن، وكان ما سمي (برسالة الثلج) في حينه هي الإطلاقة الأولى في هذا الاتجاه، سميت كذلك لأنها جاءت أثناء حملة قادها الملك حسين لفتح طريق عمان ــ صويلح الذي أغلقته الثلوج. وأنت حينما تقدر أن الوقت أصبح مناسباً وأن الظروف مهيأة لتحقيق أهدافك، فلا أسهل من اختلاق المناسبات وتدبير الأعذار من أجل ذلك. ولعل (رسالة الثلج) هذه كانت باكورة الرسائل التي استمر جلالته بإرسالها إلى رؤساء وزرائه كلما أراد أن يتنصل من أمر أو يشير إلى آخر. ولم أعد أتذكر مضمون هذه الرسالة ولكنها رغم الطقس البارد خلقت واقعاً حاراً في الجو السياسي في البلد، وخلال هذا الجو الحار التقيت الأستاذين شفيق الرشيدات وعبد الله الريماوي في فندق قصر الشتاء في أريحا، فقد اصطحبني محمود المعايطة ــ وكان في حينها قد أصبح قائداً لسلاح المدفعية ــ في رحلة تفقدية لكتيبة المدفعية الأولى التي كانت تعسكر على الجانب الغربي لالتقاء نهر الأردن بالبحر الميت، وبعد أن التقينا قائد الكتيبة الرائد في حينه منذر عناب وضباطه وتناولنا طعام الغذاء وإياهم، غادرنا إلى مدينة أريحا، وفي الفندق الذي ذكرت، التقينا الأستاذين. وتحدثنا في الوضع السياسي بعد رسالة الملك حسين إلى رئيس وزرائه، والحقيقة أنه لم يجر نقاش يعلق في الذهن، فهؤلاء السادة السياسيون يهتمون بالاستماع أكثر من أن يتحدثوا وهم لا يقولون كلاماً (يفش الغل) ويضع الإصبع على الجرح.

توجهت بالحديث إلى الأستاذ شفيق. وقلت له بالحرف: يا أبو صالح، إنكم تتركون الساحة مفتوحة لأعدائكم وأعداء الحرية والوطن وهم أقدر ــ بمن وراءهم ــ على الفعل، وأنت تعرف ذلك، لأنك من أكثر الذين عانوا طغيانهم، لقد زوروا الانتخابات

ضدك أكثر من مرة، وليس هذا فقط بل كانوا يجرونك إلى سجن الجفر بعد ذلك. لماذا تمنحونهم الفرصة لاستلاب هذه الحرية التي ناضل إنسان هذا الوطن طويلاً للوصول إليها وهم الآن يسعون لتحقيق ذلك؟ حينها قال الأستاذ شفيق: إن ما تقوله صحيح، وأنا سأعرض الأمر على رئيس مجلس الوزراء، وبعدما عرض الأمر على رئيس الوزراء، رفض هذا اتخاذ أية إجراءات ضد القوى المناهضة والمتآمرة على الحكم الديموقراطي.

وكونها التجربة الأولى في تاريخ الأردن السياسي، كان لا بد لحكومة السيد سليمان النابلسي أن تكون خطواتها مرتبكة. وأقول (لا بد) لأنها لم تكن تملك برنامج عمل سياسي مسبق تنفذه حين وصولها للسلطة، بل إنها لم يكن لديها رؤيا موحدة تجاه الواقع المتناقض في السلطة. وأنا لا أعي إنجازاً وطنياً متميزاً واحداً لهذه الحكومة الوطنية. إلّا إذا اعتبر البعض إلغاء المعاهدة الأردنية ـ البريطانية إنجازاً والحقيقة أنه لم يكن كذلك.

في فترة المفاوضات بين وفد الحكومة الأردنية ووفد بريطاني وصل لهذه الغاية اصطحبني (أبو ساهر) محمود المعايطة، إلى فندق فيلادلفيا، وهناك التقينا بالأستاذ هزاع المجالي ـ رحمه الله ـ وكان يجلس وبصحبته اللواء محمد المعايطة، ومن جملة حديث الأستاذ هزاع، بل هي زبدة حديثه، قال: باستطاعتي أن أنهي المعاهدة الأردنية ـ البريطانية دون عائق (ولعل هذا القول هو سبب اصطحاب محمود لي إلى ذلك اللقاء). وما قاله الأستاذ هزاع حول إلغاء المعاهدة هو الصحيح وكان صادقاً فيما قاله. لقد ماتت المعاهدة الأردنية ـ البريطانية لا أقول بعد عزل الفريق (كلوب) ولكن بعد (معركة السويس) وقد شيعها أهلها، وباتوا بانتظار المولود الجديد. فلم يعد لبريطانيا بعد (إذلال السويس) نفوذ مستقلٌّ عن النفوذ الأميركي في هذه المنطقة بل في العالم. وأنا في قولي هذا عن إنجازات الحكومة الوطنية، لا أقصد النيل منها كحكومة ولا من رئيسها ولا من أعضائها كشخصيات وطنية محترمة، وبعضهم مناضلون وأخص بالذكر المرحوم شفيق الرشيدات، ولكن ماذا تستطيع أية حكومة مهما كانت صفاتها الوطنية عالية أن تفعل في واقع متعارض ومتناقض مع رؤاها السياسية والاجتماعية وهي لا تملك القدرة على تصحيحه لأن مراكز القوى ليست تحت سيطرتها، ومنها القصر والجيش؟ صحيح أنها كانت تمتلك الشارع السياسي





الوطني، وخاصة في الضفة الغربية. فمناخ الحرية الذي ساد قبل الانتخابات وما بعدها، وتوج بحكومة الديموقراطية، هذا الواقع الذي تطلع إليه الناس طويلاً وفي ذهنهم واقع سياسي وحياتي أفضل يخلو من القهر والفقر، عبروا عنه بالمسيرات والمظاهرات والمهرجانات والندوات السياسية. نعم يمكن للإنسان العادي وحتى للسياسي العادي، أن يقول، وقد قيل: إن هذه الجماهير هي مصدر قوة حقيقي للحكم الوطني الديموقراطي، سند لا بد لأعداء الحرية أن يهابوه. إن هذا القول صحيح وسليم، لو أن هذا الكم الهائل لجماهير الديموقراطية، تحول إلى كيف؟ أي إلى فعل سياسي ملموس، أي أن تمتلك هذه الجماهير رؤية موحدة للحاضر وللمستقبل من خلال برنامج عمل وطني سياسي اجتماعي، محدد الأهداف، ممرحل حتى المدى الأبعد، أساسه الحفاظ على الديموقراطية ولها قيادة موحدة ملتزمة بجماهيرها الموحدة التي ستكون أداتها ضد أعداء الحرية وأعداء الوطن للدفاع عن هذا البرنامج بالعمل على تحقيقه. إلّا أنه بدلاً من ذلك ولسوء الحظ، ملأت هذه القوى والأحزاب، الساحة السياسية، بالتنافس والتمظهر بالقوة تجاه بعضها البعض، خالقة وضعاً سياسياً عكراً، يمكن لأعداء الديموقراطية والوطنية المتخندقين بخندق الاستعماريين القديم والجديد أن يستغلوه وقد فعلوا ذلك.

## الجيش والدور غير الواضح لرئيس الأركان

إن الجيش هو من مراكز القوى الأساسية بل لعله أهمها في كل بلدان العالم الثالث، وفي كل البلدان التي تنمو بها الديموقراطية نمواً تاريخياً، أي أن تصل إلى ما وصلت إليه (كما في بعض المجتمعات)، من خلال تطور تاريخي خلقته قوىً اجتماعية في كل مرحلة من مراحل هذا التطور. ولهذا فإن من يقود السلطة في أي بلد من بلدان العالم الثالث، سواء كان حزباً أو ملكاً، أو فرداً قائداً، لا بد له أن يتأكد أن الجيش يقف إلى جانبه، وأن ولاءه مضمون. ولهذا فحينما أسند الملك حسين رئاسة الأركان إلى كبير مرافقيه، المقدم علي أبو نوار، كانا صديقين وحليفين، ورؤاهما للمستقبل فيما يتعلق بالسياسة والحكم متفقة. لكن الصداقات بين الناس العاديين تموت في أغلب حالاتها، فكيف بالصداقة بين ملك يسعى أن تكون سلطاته مطلقة وبين من يمتلك من معاونيه سلطة وطموحاً. والسلطة مغرية ولا حدود لإغرائها، إن لم يكبح جماحها، إيمان مبدئي يستند إلى فهم عميق وصحيح وطني إنساني، أو واقع ديموقراطي ثابت الأركان، حددت المسؤوليات فيه، من

خلال ممارسة تاريخية أصبحت تراثاً، وأكبر ميادين الفساد مساحةً، هو ميدان السلطة المطلقة التي لا تستند إلى القيم التي ذكرت.

إن الأمر المؤكد أن رئيس الأركان كان ضابطاً طموحاً. لكن ما هي حدود طموحاته؟ فأنا مثلاً أستطيع أن أتبين بعض حدود وطموحات بعض القادة العسكريين في الجيش الأردني حينذاك، كالمشير حابس المجالي أو الفريق علي الحياري، أو اللواء صادق الشرع الذي حكم عليه بالإعدام. فقد التقيت هؤلاء السادة بعضهم مرة واحدة وبعضهم أكثر من مرة، وهي كافية إذا ما أضيفت إليها بعض المعلومات عن تاريخ كل منهم العسكري، أو بعض كفاءاتهم. ولكنني لم أستطع تحديد ماذا كان يستهدف اللواء علي أبو نوار؟ هل كان يستهدف السلطة؟ أم كان يلعب دوراً لحساب جهة ما؟ ضمن المخطط الذي كان قد أعد مسبقاً، وأولى صفحاته المعلنة إعفاء (الفريق كلوب) من منصبه؟ وأنا هنا سأوضح قدر استطاعتي لماذا لم أتمكن من معرفة نوايا اللواء علي!

بعد استلامه منصبه رئيساً للأركان، اتضح من الأسابيع الأولى أن خطواته مرتبكة، وليس لديه سلم أولويات للمهام التي يجب أن ينجزها تباعاً. وفي كثير من الأحيان كانت قراراته متعجلة، ولم يكن يتروى ويدرس ما يقدم إليه من آراء ومقترحات في شؤون الجيش، خاصة وهو يجلس على هرم من مخلفات سياسة (كلوب)، ومن ذوي العلاقات المشبوهة الذين لم يكونوا فقط يتصيدون الفرص، بل يخلقونها. وأول ما قام به بعد أن تسلم منصبه هو شراء سيارة (كاديلاك) سوداء، وكانت المفارقة محزنة بين هذه السيارة، وسيارة الفريق كلوب (الفورد القديمة)، الذي كان يملك معونة بريطانيا للأردن، وبين سيارة اللواء علي الذي اضطر إلى تخفيض علاوات بعض الفنيين من كادر الجيش. هذا السلوك يدل على أنه ليس هناك لدى اللواء علي تصور مسبق لأي نوع من الطموح الذاتي خارج ما يوفره له هذا الموقع من جاه ونفوذ. لم يقم بأي جهد لتقويم واقع الجيش الموروث، الذي كان به من العيوب ما لا يمكن أن نجعل منه جيشاً وطنياً مؤهلاً للقيام بواجباته. فالعمل الجاد لبناء جيش وطني هو وحده الذي سيغلق كل النوافذ التي تأتي منها رياح السموم التي تخدم أغراض القوى المعادية التي تستهدف خلخلة الواقع في الجيش، وفي الساحة السياسية. من الشائعات التي سرت في حينه أن رواتب الجيش ستخفض. وكلنا نعرف المدى الخطر الذي تتركه مثل





هذه الإشاعة في وسط الجيش، خصوصاً أنها تتعلق بموضوع مهم وهو تخفيض علاوات بعض الفنيين بالجيش. وطبيعي أن يربط هذا الأمر ويُبرَّر بإلغاء المعونة البريطانية. ومعروف من هي الجهات التي تخدمها هذه الإشاعة، هذا أولاً، وثانياً إن العناصر البدوية في الجيش من خارج الديرة سيستغنى عن خدماتهم وسيتم تسريحهم. وهذه الإشاعة لا تستهدف إشاعة حالة القلق في نفوس عناصر العشائر من خارج الأردن وهم نسبة مؤثرة في الجيش، بل تستهدف بث القلق في نفوس الأفراد من عشائر الأردن، لأن كلمة (بدو) تشمل الطرفين، ثم إن رئيس الأركان حجز الجيش في معسكراته لمدة ٤٨ ساعة، لأن أحد الجنود على طريق عمان ـ الزرقاء لم يؤد له التحية، وهو يمر وعلم رئيس الأركان يرفرف على مقدمة السيارة. هذا غيض من فيض لذلك الواقع في حينه. زرناه، محمود المعايطة ونذير رشيد وأنا في منزله في معسكر العبدلي، بعد عودته من رحلة إلى المملكة العربية السعودية. وبعد أن تحدث إلينا عن نتائج رحلته تلك، التفت إلى نذير قائلاً دون مقدمات (لم أعد أذكر صيغة القول، هل كان أمراً أم لا) ما رأيك؟ وكان ما قاله لنذير يستهدف الإغارة على معسكر للقوات السعودية في منطقة (تبوك) على الحدود الأردنية السعودية. وكان نذير حينها يقود كتيبة المدرعات الأولى، فاستغربت الأمر واستهجنته، فقلت له لماذا السعودية؟ إن مشاكلنا ليست مع السعودية، فانتهى الأمر هنا. لا أعرف هل كان الأمر جدياً، أم كلمة للتصيد. وبعد أن خرجنا، (صفنت) طويلاً في ذلك الواقع. وأقول صادقاً أنني شعرت بالإحباط بعد هذه المقابلة، وبالنفق المسدود الذي دخلناه. وحاولت أن أبتعد بشكل مشروع، فلقد شعرت بالخطر ليس من مواجهة واقع مشخص، أو ذات مشخصة، ولكن من خلال واقع أحسسته، وهو أن علي أبو نوار يمثل أكبر خطر علينا نحن الضباط، كتنظيم وعلى اتجاهنا الوطني الذي كنا نتبناه ونؤمن به. وكذلك على الاتجاه الوطني في البلد، من حيث إنه أخذ موقعاً وواقعاً يجعل الرؤيا بيننا نحن الضباط غير موحدة. فحاولت جاهداً أن يرسلوني إلى كلية الأركان في بريطانيا، وقد فشلت في ذلك لأن الاثنين الذين أرسلا كانا، مرشح الملك زهير عمر مطر ومرشح رئيس الأركان قريبه أديب أبو نوار.

## مرحلة ما بعد الديموقراطية

في المجتمعات التي وصلت إلى الديموقراطية خلال صراع طويل مع الواقع التاريخي

لهذه المجتمعات، وشيد بناؤه لبنة على لبنة، ورسخت قيمه قيمة إثر قيمة، وخلقت حقائق في وعي الإنسان في هذه المجتمعات، حاكمين ومحكومين، وكونت وعياً يعطي دلالات بديهية (كدلالة القمرا على القمر) على المعنى الصحيح للديموقراطية فهماً وممارسةً. في هذه المجتمعات لا يوجد بعد الديموقراطية، إلّا الديموقراطية التي تمثل الواقع الموضوعي لقوى المجتمع الديموقراطي. (مع التنويه بالمحدودية التاريخية لكل الإيديولوجيات). أما في بلد مثل الأردن فُرض عليه كيانه فرضاً، وأسياده كذلك وتمنح فيه الديموقراطية كما يمنح أحد ملوك الإقطاع إحدى محظياته ضيعة ما. فليس بعد الديموقراطية هذه إلّا عبادة الأشخاص.

أنا لا أضع تاريخاً ولكنني أضع تجربة ذاتية، فأنا لا أعرف علاقات مراكز القوى بعضها ببعض مع أنني أعرف هذه المراكز. ولا أعرف الأفعال التي قامت بها أو افتعلتها، أو علاقات الأشخاص الرئيسة فيها، كيف بدأت وكيف تطورت أو بالقوى الداخلية والخارجية. ولا أعرف هذه القوى خارج نطاق المعلن منها، بما فيها حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كنت أنتمي إليه، وعضواً في لجنته العسكرية. أما مركز القوة الوحيد الذي أعرف الهدف الذي كان يسعى إليه، فهو الملك وأسرته، فهدفهم كان واضحاً، وهو المحافظة على ملكهم بأية وسيلة.

لقد ذكرت فيما سبق من هذه الذكريات، أن إنهاء خدمات (الفريق كلوب) وكل الضباط الإنكليز كان عملية (سياسية سايكولوجية) هادفة. هدفها بناء شخصية الملك حسين وطنياً لمواجهة المد القومي الذي كانت تدفعه بقوة ثورة ٢٣ يوليو في مصر، وتستقطبه شخصية الرئيس عبد الناصر. وحتى تكتمل عملية بناء شخصية الملك حسين داخلياً، كان لا بد من دعمها بفعل داخلي، يكون الأول من نوعه في تاريخ الأردن السياسي، وهو إعطاء الشرعية للأحزاب السياسية بما فيها حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي اللذين كان لهما امتدادات خارج حدود الأردن. هذا الأمر الذي شكل على الدوام هدفاً للنخب، وللأحزاب السرية في الأردن. ومن بعد ذلك إجراء انتخابات هي الأفضل نسبياً في تاريخ الأردن، وتتويج هذا المسار بتكليف رئيس أكبر الأحزاب عدداً في مجلس النواب بتشكيل حكومة الديموقراطية.

هذه الحقائق المستجدة على التاريخ السياسي في الأردن، كان لا بد من أن يرتد



مردودها الإيجابي على صاحب العهد الجديد، أي الملك حسين، وبالتالي تعطيه صورة وواقعاً بين مواطنيه لم تكن قبل ذلك موجودة في أذهانهم. هذه العملية، أي إبراز (صاحب العهد) من خلال أفعال وطنية وديموقراطية، كانت مطلباً حقيقياً للنخب المثقفة والقوى السياسية في حينه، وقبل ذلك الحين. إن تحقيق هذا لا بد أن يطبع في أذهان الناس ونفوسهم صورة إيجابية عن صاحب هذه الإنجازات حتى إذا ما جاء ظرف الارتداد عليها، المعد والمتصور مسبقاً والذي مهدت له إعلامياً وسياسياً ومخابراتياً قوى السيطرة الخارجية والداخلية المرتبطة بها، مستهدفة رمي مرحلة الديموقراطية ومن مثلها بكل القذارات التي يملكها عقل الاستعماريين ومنطقهم القديم والجديد. ويكون صاحب العهد حتى حينه قد كسب نوعين من الناس المهمين:

١. الذين ليس لديهم اطلاع على الواقع ويجهلون حقيقته، ولديهم صورة جديدة لا تزال حية في أذهانهم عن صاحب هذا العهد، وهم الأكثرية.

٢. الذين تختلط عليهم الأمور ولا يتبينونها، إلّا بعد أن يفقدوا وعيهم.

وكانت خطة الارتداد هذه تستهدف القوى الوطنية في الساحة السياسية وفي الساحة العسكرية وهي الأهم، خاصة تنظيم الضباط الأحرار. وكان لا يمكن للأردن أن يقوم بالدور المطلوب منه من قوى الاستعمار والصهيونية إلّا بقائد يكون مصدر القرار. ولم يكن ممكناً أن يكون هذا القائد إلّا الملك في حينه، لأن الواقع في الأردن حسب الرؤيا الإنكليزية (وهي رؤيا صحيحة في حينه)، لا يستقر بالتغير. فالأردن بلد لا يملك قدرة على الاستقرار بذاته، فلا بد له أن يكون في حضن أحد الاتجاهين، إما الإمبريالية والقوى المعادية للأمة العربية، أو القومية العربية. ولن يبقى الأردن في واقعه الذي وُجد، إلّا نظاماً موروثاً ترسخ أسسه ويحافظ عليه إلى أن يكمل مهمته التي من أجلها وجد، وهي العون في تحقيق أهداف القوى المعادية في فلسطين والحفاظ على التجزئة، والحقيقة أن هذا الأمر لا ينطبق على الأردن وحده بل على كل كيانات التجزئة في الوطن العربي.

والارتداد هنا لم يستهدف عام الديموقراطية ومضمونه، وإنما استهدف ما قبل ذلك. استهدف مرحلة حكم الملك عبد الله. ففي زمن الملك عبد الله كانت السلطة ثنائية

التركيب (الملك عبد الله ـ الإنكليز) وسلطة من هذا النوع لا يمكن أن تكون سلطة طغيان وقهر، فهي بطبيعتها سلطة تسويات، يشعر الناس خلالها براحة أكثر وانسجام أكبر مع واقع الحياة. وهي بالتأكيد وإن كانت ذات طبيعة مرحلية، أفضل من سلطة القهر وعبادة الأصنام. والأخطر هو القفز من المرحلة التي ذكرت إلى مرحلة شديدة التعقيد تقودها الإمبريالية. قهر، غسل دماغ، تضليل سياسي وفكري، وعبادة أصنام. هذا مع الفارق الجوهري بين شخصية الملك عبد الله وشخصية الملك حسين. فالملك عبد الله رغم مطواعيته والواقع المفروض عليه (رغم أنفه) كما كان يقول، إلّا أنه كان استمرارية طبيعية لما بعد الثورة العربية وإنكفاء الخلافة. والملك عبد الله على ما كان عليه (من هوان) إلّا أنه كان فخوراً بانتمائه، فخوراً بتراث العرب وحضارتهم، فخوراً بإسلامه، أديباً وفقيهاً. كان استمرارية لمطالبته العرب بالوحدة وسعى إلى ذلك ضمن منهجه وإمكاناته. أما الملك حسين فكان على نقيض ذلك، انقطاعاً للاستمرارية، متطابقاً مع ما يطلبه الاستعمار الحديث من قائد مثل الملك حسين، فخوراً بدوره الذي كان يسميه «الدفاع عن العالم الحر». صحيح أنه كان يتحدث دوماً وباستمرار عن أجداده ودورهم في تاريخ الأمة، وعن الأمة والإسلام وعن جده (رسول الله). ولكن كل ذلك من أجل توظيفه كعوامل هامة لخدمة ذاته، وبالتالي المخطط السياسي الذي كان يرى بأنه يحقق أهدافه ومصالحه ويحافظ على كيانه وعرشه. وأريد أن أؤكد حقيقة أن كل القادة العرب مؤمنون بالتجزئة وأنه ليس هنالك مصلحة عامة للعرب يعملون على تحقيقها، إنما يحرص كل منهم على الحفاظ على واقعه وسلطته بكل الوسائل المشروعه وغير المشروعة.

## الواقع المغشوش على الساحة الأردنية

مما لا شك فيه أن أصحاب المخطط كان لديهم خطط مسبقة ووسائل لاستغلال تلك المرحلة، والتي صُممت بشكل يمكن الدخول إليها والعبث بها من جميع ثقوبها الواسعة العديدة، ومن المعروف بداهة أن أي مخطط يجري تطبيقه على الواقع، يخلق عوامل جديدة في جوانب متعددة من مكوناته، سلبية وإيجابية. ومن ينجح من طرفي المعادلة (القوى الديموقراطية ـ والقوى المضادة للديموقراطية) ويستطيع فرض رؤياه، هو الذي ينجح أخيراً. ولسوء الحظ أن السلطان ومن والاه خارجياً وداخلياً كانوا في الموقع الأكثر فعلاً لأنهم كانوا موحدي الصفوف، موحدي الرؤيا، لهم القيادة وحق





استخدام السلطة. فالذي حدث في عام الديموقراطية ذاك، أن المستور قد انكشف! خصوصاً في ما يتعلق بالقوى السياسية التي كانت تعمل (تحت الأرض) في الحالتين المدنية والعسكرية، فهذه الأحزاب قد أعلنت عن نفسها ومنتسبيها وأنصارها وتناقضاتها والتقارب والتباعد بين شخصياتها، ونقاط ضعف وقوة قادتها، والتعارضات والتناقضات فيما بينها، وهذا ما حدث على الساحة العسكرية. فالضباط الأحرار انكشف سرهم لصاحب السلطان ومن والاه. وبانت عوراتهم إن كان على مستوى الطموح الذاتي أو على مستوى الطموح الشخصي، وبانت ضحالة وعيهم السياسي والفكري، وضعف التزاماتهم المبدئية. فبدلاً من تمسكهم بتنظيمهم والالتزام التام بالنهج الذي قام عليه التنظيم، والمبادئ التي من أجلها وُجد، أصبحوا جزءاً من هذا الواقع المغشوش تتوزعهم مراكز القوى، وأهمها القصر ورئاسة الأركان.

فخلال هذا العام من عمر المرحلة، استخدمت القوى المعادية للحرية كل معاول الهدم من الدعاية المضللة والإشاعات الهدامة، ومحاولات خلق الفتن الطائفية. وهم الذين لا تنقصهم المعرفة ولا الخبرة، فمستودعات الإمبريالية مليئة بهذه البضاعة المسمومة. وسأعطي مثالين على نوعية هذه البضاعة التي يبيعها أعداء الحرية في السوق السياسي.

ففي مدينة مأدبا والتي كانت مدينة مسيحية في وسط ريف مسلم، جرت محاولة مشينة كان هدفها إثارة فتنة طائفية أثارها عملاء الإنكليز من كلا الجانبين (وأنا لا أرغب في تسمية الأشخاص الذين كانوا على رأس فريقي الفتنة). إلّا أن المحاولة لم تنجح في أن تصبح فتنة طائفية. وبقيت في إطار العداء التقليدي بين الطرفين، لأن الناس العاديين في المدينة مسلمين ومسيحيين بعيدون كل البعد عن العداء الطائفي. وكان الهدف من هذه المحاولة هي أن تستغل إعلامياً على أوسع مدى وخاصة من نتاجي إذاعة (لندن) ومن هم على شاكلتها من الإذاعات الغربية، المتخصصة بالتزوير والتزييف ـ ضد الواقع السياسي على ساحة الأردن.

أما الواقعة الثانية، فكانت دسيسة فظيعة، استهدفت التجريح والتحريض، ذات دلالة على المستوى الذي يمكن أن تذهب إليه بعض شخصيات بارزة في الدولة من أجل تحقيق ما تسعى إليه. روى لي هذه الواقعة النقيب عبد الله قاعد عضو قيادة تنظيم الضباط، الذي كان أحد المرافقين العسكريين للملك حسين. قال: كنا على مائدة العشاء في

معية الملك، وكان من الموجودين، رئيس الديوان الملكي السيد بهجت التلهوني والمرافقون العسكريون وبعض موظفي الديوان. فنادى عليّ السيد بهجت التلهوني، قائلاً يا عبد الله بك، فلما وجهت نظري إليه، سأل قائلاً: هل لك معرفة يا عبد الله بك، أو عندك معلومات عن شخصية تاريخية تدعى (راسبوتين). قال: فصفنت، ثم قلت: والله يا باشا أنني لست متأكداً، ولكنني أعتقد أنه كان رئيساً لديوان القيصر. فضحك الملك حسين ومن في معيته ضحكاً من القلب - إلّا بهجت باشا طبعاً. هذه الدسيسة استهدفت رمي أكثر من طرف بهذا الحجر. منهم رئيس الأركان صديق الملك آنذاك وكذلك الملكة دينا زوجة الملك. وكانت الملكة الوالدة قد شنّت حملة شعواء على الملكة دينا حتى أقصتها عن العائلة، كما كانت تشن حملة على رئيس الأركان والضباط الذين كان دورهم واضحاً خلال إعفاء الفريق (كلوب) من مهامه.

## بوادر الافتراق بين الملك ورئيس أركانه

إن على القارئ أن يعلم أن ما أذكره هنا يمثل قناعاتي حتى دخولي لسجن المزة عام ١٩٧١ في شهر حزيران. وهذه القناعات قد لا تمثل الحقيقة، لأن اللعبة السياسية التي جرت على ساحة الأردن في حينه كانت شديدة التعقيد، أُعدّت في مطابخ المخابرات الغربية وخاصة الإنكليزية، وفيها خلط أوراق وتشويه وتزيين صور اللاعبين الأساسيين على الساحتين السياسية والعسكرية التي قد لا تمثل أدوارهم الحقيقية. لقد أثمر جو الدسائس والمؤامرات الهادف والمستند إلى تحقيق مخطط، بأن بدأ الخلاف بين الملك حسين وبين رئيس أركانه يتسع، وأصبح الملك يحتاط للأمر، وكون رئيس الأركان في تلك الفترة في المركز الأقوى، فهو في حينه لم يكن بحاجة إلى أخذ الحذر والحيطة.

## مناورة هاشم

في تلك الأجواء المشحونة بسوء الظن، جرت مناورة كتيبة المدرعات الأولى، والتي كان اسمها الرمزي (مناورة هاشم)، والتي لا أعرف من هي الجهة التي أمرت بها ووافقت على إجرائها، وهي حسب تقييمي كانت القشة التي قصمت ظهر الثقة بين الملك حسين ورئيس أركانه. أجرت كتيبة المدرعات الأولى التي كان يقودها النقيب





نذير رشيد عضو قيادة تنظيم الضباط الأحرار تدريباً عملياً هدفه وضع مفارز مدرعات على الطرق المؤدية إلى مدينة عمان، وكذلك الخارجة منها. لقد قيل حول هذه المناورة الكثير، لكن التفسير الرسمي الذي أعطته الجهات المسؤولة عسكرياً، هو أن هدف هذه المناورة هو معرفة كثافة السير على الطرق المؤدية إلى العاصمة والطرق الخارجة منها، لتتمكن القيادات العسكرية المسؤولة، أي قيادة الجيش وقيادة الفرقة في حينه، في ظرف طارئ مع العدو، من توجيه القطعات العسكرية إلى فلسطين من خلال الطرق الأقل كثافة بداية. (الأمر الذي يمكن لدائرة السير أن تقوم به على وجه أكمل). قامت الكتيبة بهذا التمرين في شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٦. وفي طريقها إلى أهدافها التقت طلائعها الملك حسين على (دوار - ماركا) أمام المستشفى العسكري آنذاك. (هل كان اللقاء بالمصادفة؟) وما إن رآها الملك مقبلة حتى أدار سيارته عائداً إلى القصر، وفوراً اتصل برئيس الأركان. لا أعرف ما الذي دار بينهما. ولكن كان لا بد لرئيس الأركان أن يعطي سبباً لسير المدرعات باتجاه العاصمة، وطبعاً إذا كان الملك حسين خالي الذهن من أهداف العملية بالمطلق، فجواب رئيس الأركان لن يقنعه، وسيعرف المغزى الحقيقي لهذا التمظهر بالقوة.

## تقييمي الذاتي لـ(مناورة - هاشم)

إنني لم أتحدث عن هذه المناورة خارج إطار أنني علمت بها. وأنني لم أدخل في تقييم معانيها مع أحد حتى مع رفيقيّ شاهر ومحمود. لماذا لم أفعل؟ الحقيقة أنني لم أعرف في حينه لماذا؟ لكني الآن أقول أن السبب الأساس (لعدم مناقشتي لأي وضع أو حدث مثل هذا الحدث وغيره، مع رفيقيّ وصديقيّ، هو الاتجاه الذي اتخذه وقاد إلى الانحراف عن الهدف الأساس لتنظيم الضباط) ومن ثم الانفلات في واقع هذه القيادة الذي قاد إلى تشتتها. فلقد تيقنت بعد إقالة الفريق كلوب، أننا خسرنا المعركة، وأننا بتنا ننتظر مصيرنا. ومن هنا فقد كنت عديم الاهتمام بالأحداث وأشعر بأنها أحداث مطبوخة. وكان شاهر ومحمود يعرفان شعوري هذا ولا سيما بعد واقعة زيارة المباركة لرئيس الأركان.

لقد قلت إنني لم أعلم عن هذه المناورة إلّا بعد حدوثها، وبطريقة (غير شرعية)، أي ليست عن طريق أي من رفيقيّ أو أي من الرفاق أعضاء قيادة التنظيم. وهل من

المفترض أن أعلم بها؟ أقول نعم، لأن مناورة الوحدة العسكرية التي قادها أحد الأعضاء المؤسسين والقياديين في (تنظيم الضباط)، لم تكن مناورة عسكرية على الإطلاق، مناورة سياسية كان الهدف منها إظهار القوة لمصلحة جهة ما! أياً كانت هذه الجهة التي ليس من أهداف التنظيم (أي تنظيم الضباط) دعمها. والأمر الأهم هو تنبيه الأذهان إلى أمر، كنا شديدي الحرص على أن لا يطرح لا من حيث النية ولا من حيث المظهر. وهنا بتقديري تكمن اللعبة، هل كان شاهر ومحمود يعرفان؟ (كنت أظنهما لا يعرفان، حتى قرأت مذكرات الرفيق شاهر الذي يذكر أنه ومحمود كانا يعرفان، وحاولا ثني نذير عن القيام بها إلّا أنهما لم يفلحا). وقد سألت محمود في شهر أيار عام ١٩٩٨ على مائدة غداء، كان طاقمها محمود المعايطة وعزمي مهيار وأنا، سألته إن كان يعلم بهذه المناورة فنفى علمه بها في حينه. فلعبة المناورة هذه لا تستهدف فقط التمظهر بالقوة على الملك حسين، إذا كان هذا الأمر صحيحاً، ولكن مظهر القوة هذا يستهدف إشعار أطراف أخرى في قيادة تنظيم (الضباط الأحرار) وهم الضباط (البعثيون) وخاصة ضباط المدفعية. ففي واقعة إقالة الفريق (كلوب)، كانت الوحدتان اللتان تحركتا حسب الأوامر في حينه هما كتيبتين في سلاح المدفعية يقودهما ضباط بعثيون، ومن هنا راجت دعايات مفبركة في مصانع المخابرات الأجنبية وخاصة الإنكليزية، أن هذا الجيش هو جيش البعثيين، بل قالها أحدهم (أي أحد الضباط) قاصداً إسماعي إياها، أن هذا الجيش هو جيش عبد الله الريماوي، وقد أثبت بالفعل أنه كذلك، حينما لم يستطع البعثيون الدفاع عن مبادئهم ومستقبل وطنهم، من الناحية الشكلية.

لم يكن ممكناً لهذه المناورة أن تقوم إلّا بموافقة رئيس أركان الجيش، وقائد كتيبة المدرعات. وإذا كان هنالك أطراف أخرى فلا يمكن أن يعرفها إلّا الاثنان، من هي هذه الأطراف، وفي أي واد تصب هذه العملية المرتبة؟ وأنا لا أتهم أحداً إلّا من كانت له مقاصد واضحة وليس هناك حاجة لتحليل موقفه. أما من ينطبق عليهم القول المعروف (إن في جهنم الكثير من النوايا الحسنة) فهم معذورون. لقد كان رئيس أركان الجيش اللواء علي أبو نوار يتمتع بالمركز الأقوى في الدولة. إلّا أن مقاصده لم تكن واضحة على الإطلاق. كان صديقاً لرأس الدولة وحليفاً له، وفي الوقت عينه يعادي أكبر معاونيه، وكذلك يعادي الأقوياء في العائلة المالكة، وأخص بالذكر الملكة



الوالدة. ولم يكن صديقاً للحكومة وإنما لبعض أعضائها، وأخص بالذكر الأستاذ عبد الله الريماوي. وكان على علاقة وثيقة ببعض قادة تنظيم الضباط وأخص بالذكر المقدم محمود المعايطة والنقيب نذير رشيد في حينه، ومع ذلك كان يعمل على تكتل خاص بالجيش. هذا الواقع المتعارض الذي أوجده اللواء علي في البناء الفوقي للدولة، يجعل الإنسان يصفن طويلاً ويتساءل عن الأهداف الخفية لهذا السلوك. إنني لم أكن أعرف اللواء علي في حينه معرفة تجعلني قادراً أن أعطي حكماً سليماً حول سلوكه هذا. نعم أعرف المحطات البارزة في تاريخه العسكري. فقد كان عضواً في الوفد العسكري في مفاوضات (رودس) المتهاونة ودوره في الوفد لم يكن ثانوياً. وأعرف أنه كان ملحقاً عسكرياً في السفارة الأردنية في باريس. وهذه المواقع الدبلوماسية تعطي الإنسان ميداناً واسعاً للتعاطي مع السياسة وخصوصاً الدولية منها. وفي تقييمي الذاتي أن سلوكه ذاك أثناء تسلمه قيادة الجيش، كان يستهدف تشتيت القوى والرؤى وخاصة في تنظيم الضباط. والسؤال الذي يطرح نفسه، هل كان يقوم بهذا الدور لمصلحته أم لمصلحة جهات أخرى؟



## الأزمة

لقد بات واضحاً أن الملك حسين منذ (رسالة الثلج)، قد بيّت النية على إقالة حكومة الأستاذ سليمان النابلسي. وأن البلاد مقبلة على أزمة سياسية ودستورية حقيقية. فإقالة حكومة النابلسي لم تكن تعني العودة إلى أسلوب الحكم في زمن الملك عبد الله، فالواقع قد تغير كثيراً. لقد عنت أسوأ من ذلك بكثير. إن إقالة حكومة الديموقراطية في أضيق نتائجه عنت سلب الحريات القليلة التي تحققت، وتجميع السلطات كلها بيد الملك حسين، كقائد ورمز، ولا أقصد الملك حسين كذات، ولكن أقصد أي ملك أو رئيس يتمتع بنفس الصلاحيات ويقود واقعاً مثل واقع الأردن في كل أبعاده في حينه. وقد ثبت بالخبرة والمعرفة خلال هذا المسار السياسي الطويل، أن الاستعمار المباشر هو على كل المستويات أوضح من الاستعمار غير المباشر، من حيث إن الناس عامتهم وخاصتهم يعرفون من يحكمهم، ومن هو المسؤول عن واقعهم المتردي. ويعرفون أن كرامتهم الوطنية مهانة. أما الاستعمار غير المباشر ( وهو الاستعمار الجديد) فهو حالة شديدة التعقيد حتى للإنسان الواعي، فكيف يمكن أن يميزه الإنسان العادي ولا سيما بعد السقوط في مصيدته. ويصبح

بعدها كل وعي على الحقيقة غير ممكن، إلّا بعد مرحلة طويلة (تتسم بالتاريخية)، حينها تكون أدوات القمع والإرهاب كفيلة بالسيطرة على هذا الوعي ويسود بعدها في الواقع السياسي والاجتماعي الإفساد والفساد والتزوير وتزييف المعاني والقيم، وقلب مفاهيمها، ويصبح الدعاة قادرين على أن يجعلوا من الأرانب أسوداً، ومن الاستبداد تقدماً ومن النهب والسلب ضريبة المعركة. هذا الخوف من الردة كان يسيطر على عقول الناس خاصة الجماهير الواعية في الأردن، وهم أكثر أناس الوطن العربي وعياً سياسياً من خلال تماسهم المباشر وعلاقتهم الصميمية بالمشكلة الفلسطينية، وكان التخلي عن حكومة الديموقراطية يعني التخلي عن الديموقراطية، وإدخال الأردن والقضية الفلسطينية ذات العلاقة المباشرة والمتفاعلة معه، إلى واقع أسوأ وأخطر. وكانت تجربة (مصدق في إيران) وانقلاب المخابرات المركزية عليه ما تزال حية في أذهان الناس.

## تغيير في مسؤوليات بعض قادة تنظيم الضباط

في أواخر عام ١٩٥٦ تم تشكيل اللواء رابع مشاة وأسلحته المساندة. وطبقاً لذلك تم تشكيل كتيبة مدفعية الميدان الخامسة وتعييني قائداً لها، بتنسيب من شاهر الذي كان في حينه قائداً لسلاح المدفعية. كنت برتبة نقيب. وكانت مهمتي إعداد الكتيبة تجهيزاً وتدريباً، كي تصبح وحدة مقاتلة في أسرع وقت ممكن. ولأن الجيش لم يكن يملك من مدافع الميدان سوى إثني عشر مدفعاً هي قوام بطاريتي ميدان، أضيف للكتيبة ٢,٤ مورتر كانت وحدة مستقلة من ملاك قيادة الفرقة. عناصر هذه البطارية كانت خليطاً من (البدو والحضر)، والغريب في الأمر أنه تمت إضافة هذا التشكيل لملاك الجيش في الوقت الذي كانت حكومة الأردن تبحث عن مصادر مالية من العرب بديلاً عن المعونة البريطانية.

بعد هذه الفترة بوقت قصير، جرى تغيير جدي في مواقع بعض قادة التنظيم المهمين. فقد تم نقل المقدم أحمد زعرور إلى رئاسة الأركان، ونقل المقدم قاسم الناصر من قائد لإحدى كتائب المشاة إلى مساعد رئيس الاستخبارات العسكرية. وتم نقل المقدم شاهر اليوسف من قائد لسلاح المدفعية إلى قائد اللواء الأول مشاة، وتعيين المقدم محمود موسى المعايطة قائداً لسلاح المدفعية. والأهم من هذه التنقلات، هو





نقل شاهر من سلاح المدفعية إلى اللواء الأول مشاة، لماذا هذا النقل؟ لم أطرح هذا السؤال على نفسي في حينه. بل سرني أن يقود كل من شاهر ومحمود لواءً للمشاة وسلاح المدفعية الأقوى فعلاً ووطنية في الجيش. بل إن محمود كان يقود أربع كتائب مدفعية ميدان مضمونة القاعدة والقيادة. وكتيبة مدفعية (بوفر ٤٠ ملم) ضد الجو. وكان في ذهني أن هذا النقل يجعلنا أكثر قوة، بل جدياً في الموقع الأقوى. ولكن عند تفحص الأمور بعد التطورات التي حدثت، تبين لي أن هذا النقل لم يدخل ضمن مسبباته، عامل تقوية إمكانات (قيادة تنظيم الضباط)، فسلاح المدفعية سلاح مهم، بل كان أقوى معاقل الضباط الأحرار، وخصوصاً البعثيين منهم، وهو كان يتواجد في الساحة الأهم. وكان شاهر هو قائد هذا التنظيم، والأكثرية الهامة من قادة التنظيم كانت تتواجد في معسكر الزرقاء. والأمر المؤكد أن أحداً لم يكن يستطيع أن يفرض على شاهر هذا النقل، إن لم يكن متوافقاً مع رغبته. ومحمود كان أقدر من شاهر على قيادة لواء المشاة، لأنه كان مدرباً في الجناح الحربي لتدريب ضباط المشاة. إن شاهر ومحمود وأنا أصدقاء حقيقيون إضافة إلى التزامنا السياسي والعقائدي وكوننا رفاق سلاح. وطبعاً كما هو منهج الطبيعة، هناك فروق بين البشر، لقد كان محمود أشجعنا وأقلنا التزاماً. بل ربما لم يكن في تلك المرحلة يعير الفكر والمضمون الحقيقي للبعث اهتماماً بقدر ما يعير السياسة بشكل عام. وكان شاهر يقف في الوسط، وهو حريص على التزامه العقائدي. ولكن حينما كان يفرض عليه الواقع موقفاً متعارضاً مع فكر البعث متوافقاً مع مواقف قيادته، فهو مع القيادة. أما أنا فالتزامي بأهداف البعث مطلق. قد لا أكون في تلك المرحلة على معرفة بينة بهذا الفكر، ولكن شعار البعث الشهير في (الوحدة والحرية والاشتراكية) كان كافياً ليهبني الموقف السليم. وأنا أقل رفاقي التزاماً بشخصيات البعث. لقد أوصيت جنودي عام ١٩٥٤ أن ينتخبوا الأستاذ عبد الله الريماوي حين لم أكن بعثياً ملتزماً، لأنني كنت أقدر مواقفه السياسية قبل أن أتعرف إليه. ولما أصبحت عضواً في حزب البعث وتعرفت إليه ضعف تقديري له. وكنت أقدر الأستاذ ميشيل عفلق تقديراً كبيراً للطريق الذي شقه في واقع صلد، فكراً ونهجاً للإنسان العربي من أجل الوحدة والتحرر. لكن لأسباب عديدة عبر هذا المسار الطويل سآتي على ذكرها في سياق هذه الذكريات، اعتبرت قول ماركس عن نفسه لبعض مريديه (أنني لست ماركسياً)، ينطبق على الأستاذ ميشيل عفلق). لقد كان شاهر ومحمود متوافقين في الرأي في تلك المرحلة

أي (منذ تغيير الهدف الرئيس لتنظيم الضباط إلى هدف فرعي وحتى اعتقالنا) ولعل هذه الواقعة المهمة لها دلالتها التي تؤكد الحقائق تلك وهي: بعد مناورة كتيبة المدرعات الأولى سابقة الذكر، سيئة السمعة، وبعد سلسلة من التعارضات في الرأي والمواقف، قرر الملك حسين على ما يبدو، التخلص من رئيس أركانه اللواء علي أبو نوار. وضمن واقع الجيش في حينه ومراكز القوى فيه، كان يصعب عليه تقدير النتائج. وما كان يستطيع ذلك، إلّا إذا اختار شخصية عسكرية معروفة ومدعومة من موقع قوة في الجيش. واستقر رأيه على اللواء محمد المعايطة. القائد السابق لسلاح المدفعية وكبير مرافقي الملك (على ما أعتقد في حينه). وكان خياره هذا صحيحاً. فهو يستطيع إصابة هدفين بهذا الاختيار، أولهما إمكانية إقصاء اللواء علي أبو نوار من رئاسة الأركان دون مضاعفات خطرة وثانيهما تقسيم الصف الوطني في الجيش وهو هدف مهم بحد ذاته للملك حسين. وحسب الرواية التي نقلت لي، فقد استدعى الملك حسين اللواء محمد المعايطة إلى مكتبه واستقبله وهو يحمل قرآنا كريماً، وبادره بالقول: أقسمْ على هذا القرآن أنك لن تقول أو تذكر لأحد ما سأطلبه منك. فأقسم اللواء محمد على القرآن، فأبلغه الملك قائلاً له، إنني أنوي أن أعينك رئيساً للأركان، ولكن قبل أن تجيبني على طلبي هذا، إذهب وشاور (هذه الإذهب وشاور تجلب الشبهة) في مدى جدية العرض. وكان المقصود هو إشاعة العرض لا تنفيذه. وطبعاً لا أحد يعرف مصداقية العرض إلّا صاحبه. ومعروف من هي الجهة التي أشار إليها الملك حسين في قوله (اذهب وشاور). وكان المقصود في المشورة شقيقه المقدم محمود المعايطة قائد سلاح المدفعية. وقد فعل اللواء محمد ذلك واستشار شقيقه بهذا الأمر. كيف تم الأمر وما هي نتيجة التشاور؟ أمر لا أعرفه. لكن الذي حدث بعد هذا التشاور، هو أن محمود ذهب لشاهر، وأبلغه الواقعة، فما كان من شاهر إلّا أن نقل الواقعة فوراً إلى اللواء رئيس الأركان، الذي ما إن سمع ما قاله شاهر حتى طلب مقابلة الملك بصفة عاجلة، وحين التقاه بادره بالقول، إنك تتآمر علي. هكذا نقلت لي الرواية ولما سمعتها (طار صوابي كما يقال عندنا). قد يستغرب القارئ أنني أمضيت سنين في السجن مع محمود وشاهر لم أسألهما حقيقة هذه الواقعة، والسبب في ذلك أنه كان لدي تصور أخاف حقيقته في واقع مثل واقعنا في السجن آنذاك. هذه الحادثة لو تم التعامل معها بأسلوب التحليل والتشاور وتم قبولها، ومن ثم تنفيذها لوفرت علينا الكثير من المتاعب. وبتقديري الشخصي أن الأحداث لن تجري حسب المسار التي سارت فيه. لماذا؟ تصرف



محمود هذا التصرف؟ هل يكره أن يعين اللواء محمد المعايطة رئيساً للأركان؟ إنني أعرف أنه لم يكن يكره ذلك. وأعرف موقع اللواء محمد في نفس محمود. إذاً لماذا رفض محمود الفكرة، وهو قد رفضها بمجرد أن أبلغها لشاهر، ولم يضعها في إطارها السليم الذي سيعطيها أهميتها وبالتالي يكشف هويتها. أي في إطار قيادة تنظيم الضباط، أو اللجنة العسكرية في قيادة حزب البعث التي ستقرر أي المسارات تأخذ. وأنا حين أطلع على الواقعة فإنني لن أتردد في قبول الفكرة، ليس قبولها فقط بل الذهاب بها إلى أحد موقعين أو الموقعين معاً (اللجنة العسكرية وأمين سر القطر) وقيادة تنظيم الضباط. وكنا حينها قد تفحصنا الواقع برمته ووصلنا إلى تقدير حقيقته، والفروق أساسية بالنسبة للوطن ولنا – بين اللواء علي أبو نوار واللواء محمد المعايطة – فاللواء محمد المعايطة هادئ الطبع رتبته تتوافق مع عمره. لا (يلوص) ولا يناور ولا يفرق ولا يساعد في زيادة الطين بله. ولن يسهم في مسرح العرائس القائم في البلد، والذي لم نكن نعرف من يشد خيوطه. وكان سيجعل العدد ينقص (ممثلاً) هاماً على هذا المسرح. هل كان محمود يخاف أن يتهم أخاه بأنه إنسان غير وطني، كونه جاء بديلاً لشخص ظاهر الأمر يدل على وطنيته؟ لقد صدّقت هذه المقولة في بادئ الأمر، لكن حينما تمعن النظر في الأمر تختلف معك المعطيات. فمحمود إنسان ملتزم بأكثر من جهة وطنية، فهو أولاً كان عضواً هاماً في حزب البعث العربي الاشتراكي وأساسياً في اللجنة العسكرية لهذا الحزب، وكان، ثانياً، عضواً هاماً في قيادة تنظيم الضباط. وواقعة مثل هذه الواقعة، لا يمكن التعامل معها باستخفاف. فعلى الصعيد الشخصي لم يكن ممكناً لمحمود أن يعرّض اللواء محمد، وقد فعل، لواقع مسيء وفيه حرج كبير بدون رابط مكين يجعله غير قادر على قبول هذه الفكرة. ليس هناك ما يؤخذ على محمود من أنه أبلغ شاهر. فشاهر كان رئيس اللجنة العسكرية للحزب كان أيضاً رئيس قيادة تنظيم الضباط في الجيش. المأخذ يأتي من تجاوز المراكز التنظيمية المسؤولة عن بحث أمر هام مثل هذا. وفي تقديري الشخصي أن شاهر ما كان ليبلغ اللواء علي، لو لم يكن على بيّنة من موقف قيادة الحزب، أو على الأقل موقف أمين سر القيادة الأستاذ عبد الله الريماوي في حينه.

في هذا الجو السياسي الشديد التعقيد راجت شائعات لم يكن معروفاً مصدرها ولا مدى جديتها، منها أن الجيش بقيادة رئيس الأركان سيقوم بانقلاب عسكري، يلغي

من خلاله مرحلة الديموقراطية بشكل تام. هذا الاتجاه كان يتوافق مع توجيهات الملك حسين. لكن الأكيد أن الكثيرين من مستشاريه الداخليين والخارجيين وأهمهم الملكة الوالدة منعوه من الموافقة على هذه الخطوة التي ستجعل من رئيس الأركان صاحب الموقع الأقوى في حال تنفيذها.

أما الشائعة الثانية التي راجت بعد أن يئس رئيس الأركان من موافقة الملك حسين على الخطوة الأولى، فهي قيام رئيس الأركان بانقلاب عسكري بالاتفاق مع قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي الذي سيشكل الواجهة السياسية لهذا الانقلاب. وكان هذا الاتجاه بالنسبة إليّ شديد الخطورة ومتناقضاً تماماً مع فهمي لمعنى البعث. وأنا متأكد أن هذه الفكرة قد طرحت عليّ، ولكن ليس مباشرة ومن بعد مناقشتها. بل بأسلوب غير مباشر يعتمد تصيّد الأفكار والمواقف، فرفضت هذه الفكرة رفضاً قاطعاً. ما مدى جدية هذه الشائعات؟ لا أعلم. ولكن من خلال العلاقة الطيبة بين الأستاذ عبد الله الريماوي أمين سر القيادة القطرية للحزب، والتي بقيت طيبة مع اللواء علي أبو نوار رئيس الأركان، لا أستغرب أن تطرح فكرة مثل هذه من بين الأطروحات المتداولة في حينه.

في هذا الجو المشحون بالمؤامرات والدسائس والطروحات غير الوطنية، عقدت قيادة تنظيم الضباط اجتماعها السياسي الثاني بعد اجتماع (السخنة)، ناقشت فيه الوضع الخطير الذي يحيط بالبلد. وكان الهدف الأساسي والمتفق عليه (ظاهرياً) من قادة التنظيم، هو حماية الديموقراطية، وهذا الموقف شكّل عقبة جدية أمام محاولات إلغائها. وكان الرفض لكل هذه المحاولات جماعياً (وهذا ما جعل التآمر هو الوسيلة الوحيدة من قبل القوى المضادة للديموقراطية للوصول إلى أهدافها). وحتى توضع الأمور في موقع التوثيق وتكون بينة، طلبت قيادة التنظيم الاجتماع برئيس الأركان، وقدمت له مذكرة تتضمن وجهة النظر التي اتفق عليها. واجتمعنا في بيت الرائد أديب أبو نوار رئيس أركان اللواء المدرع في معسكر الزرقاء. فقال حين سلمناه المذكرة، إن تنظيم الضباط لم يعد قائماً بعد أن أدى واجبه في عملية إعفاء (الفريق كلوب) من مسؤولياته. لم يدم الاجتماع طويلاً. ما مضمون هذه المذكرة؟ إن الواقعة قد بعدت ولم أعد أتذكر هذا المضمون، لكنها بالتأكيد أبدت وجهة نظرها حول خطورة الارتداد على الديموقراطية. قد يسأل أحدهم، هل كان رئيس الأركان سيحظى بدعم





دولي لو قام بانقلاب عسكري وتسلم السلطة؟ وأقول أن الملكية في الأردن كانت في أضعف حالاتها في حينه، ولم تشكّل عقبة يصعب تجاوزها. وقد حدثت انقلابات عسكرية في العراق وسورية ومصر. فثورة يوليو كانت انقلاباً عسكرياً وأداتها هذه هي التي منعت تجذرها. والذين كانوا يدفعون المساعدات هم الأميركان، ولم يكن يهم أميركا في حينه كثيراً وجود الملكية في الأردن. وحتى بعد اثني عشر عاماً من ذلك التاريخ كان الأميركان يظنون أن زوال الملكية في الأردن يسهل عملية التسوية في الإقليم، في حين كانت بريطانيا حريصة على الملكية في الأردن. أما الحاجز الذي كان ينتصب أمام رئيس الأركان في حينه لو كانت له نية حقيقية للوصول إلى كامل السلطة فهي العوامل التالية:

* تنظيم الضباط حتى وهو في أضعف مراحله ـ كان يعني وحدة الجيش.
* الشارع الوطني وقواه السياسية.
* النفوذ الإنكليزي المستتر والقوي في تلك المرحلة (وهو الأهم).

في ذلك الحين، احتدمت التعارضات والتناقضات على الساحة السياسية والعسكرية بين مراكز القوى، بشكل جعل المبادرة ضد النظام، إن باتجاه تغييره، أو باتجاه الحفاظ على الديموقراطية وجعْلها خياراً دائماً، أمراً بالغ الصعوبة.

## إقالة حكومة الديموقراطية وهزيمة المرحلة

في الأسبوع الأول من شهر نيسان على ما أذكر، أرسل الملك حسين رئيس ديوانه السيد بهجت التلهوني إلى رئيس الوزراء السيد سليمان النابلسي ـ رحمه الله ـ ليطلب منه تقديم استقالة حكومته. فقام رئيس الوزراء بتقديم استقالة حكومته إلى الملك، الذي قبلها، وطلب الاستمرار في الحكم إلى أن يتم تشكيل الحكومة الجديدة. والأمر الأكيد أن القوى المضادة للديموقراطية المتخندقة في خندق الملك، قررت أنه حان الوقت لكنس هذه المرحلة وأنهم قد أكملوا استعداداتهم. وأن ما استهدفوه من مرحلة الديموقراطية قد أعطى مردوده المتوخى. على ماذا اعتمدوا في هذا التصور؟ اعتمدوا على العوامل التالية:

أ. حقوق الملك المنصوص عليها في الدستور.

ب. الضباط المنظمين لمصلحة الملك وهم كثيرون في الجيش الذي بقيت بنيته الموروثة من عهد (كلوب) سليمة.

ج. موقف رئيس الوزراء الذي يقر بحقوق الملك الدستورية، والتناقض الموجود داخل الحكومة.

د. عدم وحدة القوى السياسية المستهدفة.

هـ. الدور الذي قام به رئيس الأركان بعزل القوى الفاعلة بالجيش عن بعضها البعض ومن بينها تنظيم الضباط.

والأهم هو انحراف قيادة تنظيم الضباط عن هدف التنظيم الأساسي، وهو تغيير النظام، إلى هدف فرعي هو تعريب الجيش. الأمر الذي قاد إلى تشتيت وحدة الرؤيا والالتزام. وإلى الاجتهاد ومن ثم التشتت بين مراكز القوى، وأهمها القصر ورئاسة الأركان. وأخيراً وقوف بعضهم في صف القوى المناهضة للديموقراطية، بل والدخول في صلب المؤامرة واقعياً، أما مظهرياً فكانوا في صف الحركة الوطنية.

## الحكومة تقدم استقالتها

فور الإعلان عن تقديم حكومة الأستاذ سليمان النابلسي استقالتها وقبول الملك هذه الاستقالة، التقى بعض قادة تنظيم الضباط في غرفة منعزلة في نادي ضباط الجيش في الزرقاء، ولم يكن النصاب مكتملاً، وقد تحادث المجتمعون في الوضع السياسي بعد استقالة الحكومة وكيفية مواجهة هذه الحالة. وتقرر في حينه أنه لا بد من اجتماع يكتمل فيه النصاب في أقرب وقت ممكن. وتقرر أن يعقد الاجتماع المقبل للقيادة في منزلي بمساكن الضباط في معسكر الزرقاء. وفي أحد الأيام الثلاثة التي تلت اجتماع نادي الضباط، عقد الاجتماع في منزلي. وكان النصاب مكتملاً والحضور هم:

١) المقدم شاهر اليوسف ٢) المقدم أحمد زعرور ٣) المقدم محمود المعايطة



٤) الرائد تركي الهنداوي ٥) الرائد شوكت الشبول ٦) النقيب نذير رشيد
٧) النقيب جعفر الشامي ٨) النقيب ضافي الجمعاني.

**وكان الغياب هم:**

١) المقدم قاسم الناصر معاون المخابرات العسكرية.

٢) النقيب غازي العربيات الذي كان في دورة في بريطانيا.

٣) النقيب عبد الله قاعد والنقيب مازن العجلوني (مرافقاً للملك).



وكان المجتمعون يمتلكون القوة الكافية لمواجهة أي تحد لرؤياهم الوطنية، لو كان الالتزام بهذه الرؤيا صادقاً. وكان سلاح المدفعية الذي يقوده محمود، كافياً وحده أن يفرض القرار الذي يتخذه هؤلاء القادة، وهو معد لهذه المهمة قاعدة وقيادة. وقد نوقش الوضع مناقشة حادة انحصر على ضوئها النقاش في موضوعين كانا حصيلة هذا النقاش الطويل، وهما:

أ) أخذ زمام المبادرة والعمل على تغيير النظام، أي العودة إلى المنطلق.

ب) إجبار الملك حسين على احترام إرادة الشعب وخياراته وإعادة الحكومة الوطنية إلى وضعها الطبيعي لتمارس مسؤولياتها.

وعند بحث الخيار الأول وهو الإطاحة بالنظام، انتصبت أمامنا المخاطر ـ وأهمها: دولة إسرائيل، وكان هذا الخطر هو العامل الحاسم الذي منعنا من الإقدام على الإطاحة بالنظام، خوفاً من استغلالها للواقع والاستيلاء على ما تبقى من فلسطين في يد الأردن (أي الضفة)، وحينها لن يوجد في هذا العالم وخاصة في الوطن العربي وشعب فلسطين الذي هو قاعدة الحركة الوطنية في الأردن في حينه، من لا يقول عنا أننا خونة مغامرون باعوا أنفسهم للصهيونية. هذا العامل الحاسم جعلنا نختار الطريق الأصعب، لأنك حينما تقرر الإطاحة بالنظام ووسيلتك لهذا الفعل تمسكها بيدك، كما تمسك عصاك، فما عليك بعد القرار إلّا المبادرة، خاصةً وقد أعطاك صاحب السلطان

المبرر، وأنت مجتمع لتقرير كيفية مواجهة هذا الأمر، وهو إقالة حكومة وطنية تستند إلى شرعية ديموقراطية.

والعامل الثاني الذي ورد خلال مناقشة موضوع الإطاحة بالنظام كان وجود العائلة الهاشمية في العراق، وعلى رأس السلطة في حينه السيد نوري السعيد، وكان الجيش العراقي متواجداً على الحدود الأردنية ـ العراقية، وهناك سابقة قد يأخذ نوري السعيد منها مبرراً لتدخله، وهي أن الجيش الأردني بقيادة (كلوب) قد تدخل ضد ثورة مايس ١٩٤١ التي أطاحت بعبد الإله ونوري السعيد إلى حين تدخل الإنكليز ضدها.

وهكذا فقد فرض علينا العامل الإسرائيلي الخيار الأصعب، لأنها حالة تفرض الانتظار. فالملك كان يعلن ويقول أنه لا يستهدف الديموقراطية. ويقول أيضاً أنه لا يستهدف حتى أعضاء الحكومة، ولكنه يستهدف رئيسها، لأنه غير منسجم في العمل معه. وحتى يسند القول بالفعل، كلف الأستاذ عبد الحليم النمر الحمود نائب رئيس الوزراء، نائب الحزب الوطني الاشتراكي بتشكيل الحكومة. وكنا نعي هذا الأسلوب الباطني (تعلن خلاف ما تنوي) في العمل السياسي، خاصة لدى الحكام الذين يسعون لتحقيق رغباتهم المتعارضة مع إرادة الناس.

وكانت مناورة الملك تهدف إلى إفراغ الشحنات في الواقع السياسي وإطالة أمد المناورة لخلق الثغرات في واقع متراخ. وهكذا لم يبق أمامنا إلّا الخيار الثاني، وهو فرض إعادة الحكومة لتمارس مسؤولياتها. وعند مناقشة الأمر وكيفية تحقيق هذا الهدف وجدنا أن لا مجال إلّا باستعمال القوة أو على الأقل التهديد بها من واقع واضح. ولهذا تقرر أسلوب العمل التالي: تطويق القصر الملكي، وتوجيه إنذار إلى الملك يقضي بإعادة الحكومة كي تمارس مسؤولياتها في الحكم. وكان لدينا خارطة لمدينة عمان، درسنا خلالها الطرق التي تقود إلى محيط القصر، وكلف النقيب نذير رشيد قائد كتيبة المدرعات الأولى والنقيب ضافي الجمعاني قائد كتيبة مدفعية الميدان الخامسة، بوضع الترتيبات اللازمة وإعداد القوات التي ستنفذ هذه المهمة حين صدور الأمر. وقد قدمت اقتراحاً يقضي بحبس رئيس الأركان ضمن المهمات المعطاة لنذير ولي. ولم يكن هناك حماسة لهذا الاقتراح، ولكن إصراري جعل



المجتمعين يكلفون نذير بالمهمة، وكان نذير واضح الحرج.

هذا ما قررته (قيادة تنظيم الضباط الأحرار). هذا هو الموقف الظاهري على الأقل، أما المواقف المستورة التي قادت إلى فشل تطبيق هذا القرار فعلمها عند أصحابها. وفي الدوائر المعادية للديموقراطية.

كان المجتمعون ضباطاً شباباً قليلي الخبرة السياسية، ولو أن تجارب بعضنا مع القضية الفلسطينية مباشرة وعميقة، وكان أكبرنا سناً المقدم محمود المعايطة. أما الباقون فكان أغلبهم لا يتجاوز الثلاثين عاماً، خبرتنا السياسية قليلة وحديثة. نحتاج إلى ناصحين وخبراء مخلصين عارفين. وفي كل ساحات العالم الثالث كانت الأحزاب السياسية ورجال السياسة دوماً يبحثون عن سند وحلفاء لهم في جيوش هذا العالم، إلّا في تنظيم الضباط في الجيش الأردني، كان السياسيون يبتعدون عنا، حتى والأزمة على أشدها.

بعد أن انتهى اجتماعنا طلب شاهر مني أن أذهب معه إلى عمان. فركبت وإياه بسيارته التي قادها بنفسه واتجهنا إلى نادي عمان، وهو نزل كبير كان يملكه أحد أعضاء الحزب الوطني الاشتراكي من (آل المعشر). وهناك التقينا الأستاذ عبد الحليم النمر الحمود نائب رئيس الوزراء، نائب رئيس الحزب الوطني الاشتراكي، التقيناه في صالة الجلوس التي لم يكن بها أحد سوانا. وبعد أن شربنا القهوة بمعيته، تحدث إلينا عن المحاولات الجارية لتفريق الصف الوطني آنذاك. وقال ما معناه أننا في الحكومة متماسكون: إما الحكومة وعودتها برئيسها وممارسة مسؤولياتها وإما.. وأشار بيديه الاثنتين إلى الأمام ودفعهما باتجاه الطاولة. الأمر الذي يعني وإما الطاولة وما عليها. بعد الحديث الجدي والواضح والواثق، ودعنا الأستاذ عبد الحليم ـ يرحمه الله ـ وخرجنا. والغريب أنني لم أناقش مع شاهر هذه الإشارة الواضحة التي صدرت عن الأستاذ عبد الحليم، لماذا؟ لأن شاهر لم يصطحبني في هذا الوقت المتأخر من الليل للمقابلة هذه، إلّا من أجل أن أسمع وأرى ما قاله، وما أشار إليه الأستاذ عبد الحليم. لماذا لم أناقش شاهر في هذا الأمر؟ لأنني كنت أعلم أن الأمور تقرر خارج أطرها المسؤولة. وحديث الأستاذ عبد الحليم وإشارته يدلان دلالة بينة أن هناك جهة ما في الجيش، أقنعت هذا الرجل الوطني الطيب أنها (ستقوم بقلب الطاولة وما عليها)، إذا لم يعد الملك الحكومة لممارسة مسؤولياتها. من هي هذه الجهة؟ لا أدري، لكن

كان هناك موقعان في الجيش يمكنهما تقرير موقف كالموقف الذي أبلغ للأستاذ عبد الحليم، وربما إلى رئيس الحكومة، والدفاع عنه، وهذان الموقعان هما (قيادة تنظيم الضباط) واللجنة العسكرية لحزب البعث العربي الاشتراكي. ولم يكن أي منهما قد قرر موقفاً قبل اجتماع ( قيادة تنظيم الضباط) الذي غادرناه شاهر وأنا مباشرة لمقابلة الأستاذ عبد الحليم الذي استمعنا إليه، ولم نسمعه أية كلمة حول ما قررناه. والسؤال حينها كان: هل هناك حديث مسبق بين بعض الأعضاء البارزين في الحكومة، وبين بعض قيادتي تنظيم الضباط حول ما قررناه؟ لا أعرف، ولكن حدوث إمكانية مثل هذه ممكن. هل كان شاهر بين القادة الذين أعطوا الأستاذ عبد الحليم الانطباع الذي بيّنه بإشارته الواضحة، خصوصاً أن ما قاله وأشار إليه الأستاذ عبد الحليم يتوافق تماماً مع قرار قيادة تنظيم الضباط؟ وجاء بي معه لمقابلة الأستاذ عبد الحليم ليقول له إننا اتخذنا قرارنا. هذا ممكن. أما اللجنة العسكرية للقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، فإنها حتى حينه لم تجتمع رسمياً لا بالقيادة القطرية ولا بالأمين القطري لتقييم الواقع وتقرير الموقف منه، أو على الأقل، فإنني شخصياً لم أدعَ إلى مثل هذه الاجتماعات حتى ذاك الحين كما ذكرت.

## المهمة الحاسمة

بعد يومين أو ثلاثة أيام من اجتماع قيادة تنظيم الضباط، واتخاذ هذه القيادة قراراً بالتصدي لقرار الملك حسين بعزل الحكومة وكذلك بعد مقابلتنا شاهر وأنا للأستاذ عبد الحليم النمر، جرى لقاء آخر هام جداً. فمنذ التزامي رسمياً بحزب البعث العربي الاشتراكي في منتصف عام ١٩٥٦ بعد إقالة الفريق (كلوب) وقسَمي اليمين الحزبي أمام الأمين القطري الأستاذ عبد الله الريماوي في منزل الرفيق شاهر ـ يرحمه الله ـ وبعدها تعييني عضواً في اللجنة العسكرية للقيادة القطرية لم تدعُ هذه اللجنة للاجتماع كما ذكرت. في ذلك اليوم أبلغني شاهر، قائلاً لي: إننا مدعوون أنا وأنت ومحمود للاجتماع بالقيادة القطرية في عمان، فهناك وفد من القيادة القومية، موفد لإطلاعنا على رأيها فيما يخص الواقع بالأردن. سألت شاهر حينها، هل لديك اطلاع على مضمون هذا الرأي؟ فقال لي أنهم ينصحوننا بعدم التعرض لنظام الملك حسين. فدهشت ولكني لم أعلق. سافرنا إلى عمان. وواضح أن شاهر كان لديه اطلاع مسبق على مهمة الوفد قبل اجتماعنا رسمياً به. فقد اصطحبني إلى فندق





(فيلادلفيا)، وهناك التقينا الأستاذ عبد الفتاح الزلط أحد شخصيات الحزب، والعضو البارز في جناح الأستاذ أكرم الحوراني، والمقدم مصطفى حمدون الضابط المعروف في الجيش السوري، الذي قاد تمرده واستيلاءه على إذاعة حلب، إلى سقوط نظام أديب الشيشكلي. وكان بصحبتهم الأستاذ أمين شقير عضو قيادة قطر الأردن. وكان واضحاً أن الهدف من هذه الزيارة هو ما قاله شاهر (فؤسومها على إخشومها)، أي أن الوشم على الخشم. فشخصيتان مثل شخصيتي المقدم حمدون، وبلباسه العسكري، والأستاذ عبد الفتاح الزلط، يظهران علناً وفي ظرف مثل الظرف القائم آنذاك في الأردن، وينزلان فندق (فيلادلفيا)، مقصد علية القوم وكبار رجال الدولة وأجهزتها وأجهزة من هم خلفها.. لا بد من أن تكون مهمتهما معلومة ومعروفة وأنها تجري لمصلحة الملك ونهجه السياسي. من فندق (فيلادلفيا) انتقلنا فور وصولنا إلى منزل السيد أمين شقير، ووجدنا هناك الأستاذ عبد الله الريماوي أمين سر الحزب في الأردن، والأستاذين عبد الله نعواس وسليمان الحديدي، عضوي القيادة القطرية، والمقدم محمود المعايطة. وبعد أن أخذ كل مكانه في الجلسة، بدأ الاستاذ عبد الفتاح الزلط حديثه المطول، ولم يتحدث في هذه الجلسة غيره. وكان حديثه منصباً في معظمه عن البعث وأهدافه، وشعاره في الوحدة والحرية والاشتراكية، مستهدفاً تبرير أهداف مهمته بفكر البعث وعقيدته. ولم أنتبه كثيراً لهذه التبريرات. فأنا منذ عرفت مضمون مهمة الوفد من شاهر أصابني امتعاض شديد. وكرهت الاستماع لما كان يقوله. ولكنه وهو يتحدث عن مضمون شعار البعث تجاوز الحرية في الشعار قافزاً من الوحدة إلى الاشتراكية. فقاطعته متسائلاً: والحرية؟ فأجابني (بقفا يده) كما يقولون عندنا، ولم يعر مداخلتي أي اهتمام. وبعد أن أنهى الأستاذ الزلط حديثه انتهى اللقاء. ولم تجر مناقشة أو سؤال أو تساؤل من أي نوع. مما يعني أن المهمة معروفة لأعضاء قيادة قطر الأردن ولأعضاء اللجنة العسكرية ما عداي. وأن الاجتماع تبريري أمام الصقور (كما يقولون) من كوادر الحزب المدنية والعسكرية. والفارق بين موقف قيادة تنظيم الضباط (بغض النظر عما كان يضمره بعض القياديين) وموقف قيادتي حزب البعث العربي الاشتراكي، القطرية والقومية هو أن قيادة تنظيم الضباط تجنبت الإطاحة بالنظام للمخاطر التي ذكرت. لكنها قررت التصدي لمحاولة الملك حسين إلغاء النهج الديموقراطي لأنها تعلم علم اليقين معنى هذا الإلغاء وقد أدركت المخاطر التي تترتب عليه وطنياً وذاتياً. أما قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، فإنها لم تعط البديل

لكوادر الحزب السياسية والعسكرية عن الاستسلام لسلطة لا أقول عنها، سوى أنها غير ديموقراطية. هل كانت قيادة تنظيم الضباط أكثر وعياً من قيادتي حزب البعث؟ أقول (طبعاً لا). لقد حرض حزب البعث العربي الاشتراكي (في سورية) (وأقصد قيادته)، على العديد من الانقلابات العسكرية فيها. وشارك في سلطة أول انقلابين عسكريين بعد الاستقلال. صحيح أنه اختلف معهما بعد ذلك، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن قام الانقلابيون بالمهمات التي من أجلها جاءوا. وكلنا يعرف الآن أن الانقلابات العسكرية في ذلك الحين وبعده، وفي العالم الثالث خاصة، تأتي لتقوم بدور مرحلي على الصعد الداخلية والخارجية والاقتصادية. وها هو الطرف من الحزب الذي كان موغلاً في العمليات الانقلابية تلك يتقدم إلينا بنصائحه (بل أوامره) أن لا نتعرض لنظام الملك حسين. ونحن لم نكن في واقع التعرض للنظام، بل كنا في حالة دفاع عن أنفسنا وعن وطننا وتطلعاتنا المشروعة. ألا يجعل هذا الواقع الإنسان يفكر طويلاً ويتساءل، إلى أين كانت تصل امتدادات بعض القادة الذين كانوا رموزاً كبيرة يتمثلها المناضلون المؤمنون؟!

هناك مفارقة لا بد للقارئ المهتم أن يتوقف عندها أو (يصفن) بها تتعلق بالرفيق شاهر. فالرفيق شاهر الذي كان في حينه رئيساً (لتنظيم الضباط) ومن موقعه هذا ترأس الاجتماع الذي تقرر فيه التصدي لمحاولة الملك حسين في الارتداد عن الديموقراطية. وهو الذي اصطحبني بعد هذا الاجتماع لسماع رأي شخصية بارزة في الحكومة، هذا الرأي الذي توافق ومنطلق الضباط وقرارهم. ها هو نفسه وكل أعضاء اللجنة العسكرية التي هو رئيسها ومعهم أمين سر قيادة الحزب يستمعون لوفد قيادة الحزب العليا الذي يحرم على الحزب، بكادره المدني والعسكري الدفاع عن وطنه وذاته، أمام هجوم الملك حسين على الوطن وناسه. ويتساءل المرء عن المعنى الحقيقي لهذا الأمر، فالحزب جزء من واقع وطني، يشارك في مسؤولية الدفاع عنه، ودوره أساسي في هذه المسؤولية. كيف يمكن أن يتخلى عن مبادئه وشركائه وناسه بهذه البساطة؟ وما هي الكلمة الصحيحة والدقيقة التي يمكن أن تعبر عن المعنى الشامل لهذا الموقف. وهنا سيسأل أحد القراء، طالما أنك كنت معارضاً ومتناقضاً تماماً مع كل هذا، لماذا لم تبادر إلى معارضة أو على الأقل كشفه؟! وهذا سؤال مشروع، فأقول: معارضة من، ومع من؟ وكشفه لمن؟ فالواقع تآمري، شللي، وقد عرفته منذ أن تغير الهدف





الأساسي لتنظيم الضباط، خاصة بعد أن كشفنا أنفسنا كتنظيم في عملية إقالة الفريق (كلوب). فقد شعرت حينها أننا خسرنا المعركة، وأننا فقط ننتظر مصيرنا. وسأورد واقعة هي شاهد موثوق على قناعتي هذه. زرت والمقدم محمود المعايطة القيادة العامة لجيش. والتقينا بعضو قيادة التنظيم النقيب غازي العربيات الذي كان في حينه يحتل موقعاً مهماً في الاستخبارات العسكرية (بعد خروجنا من السجن انتسب للمخابرات برتبة برتبة رائد، أصبح في أواخر السبعينيات مديراً للمخابرات العسكرية، ومن ثم مديراً للأمن العام)، وكانت فترة أعياد الميلاد (١٩٥٦ ــ ١٩٥٧). لم نجلس بل وقفنا نتحدث، وخلال ذاك الحديث، قال غازي لنا: إن بين الزائرين لعوائلهم في الأردن من الأرض المحتلة بمناسبة الأعياد شخصاً يعمل لحسابنا. ولقد اجتمعت به، فأخبرني أن الإسرائيليين اتصلوا به قبل قدومه إلى هنا (أي إلى الضفة الشرقية)، وطلبوا منه، قائلين له: إذا تعرفت إلى ضباط في الجيش الأردني، أو تعرف ضباطاً هناك اعرض على من تلقاهم إقامة تنظيم عسكري من أجل القيام بانقلاب، وهم يوصون بالاهتمام بالضباط البارزين. وأكمل غازي أقصوصته هذه، بأن عرض على المقدم محمود القيام بهذا الدور. فراعني هذا العرض، ولكن كان ذهولي كاملاً عندما قبل محمود هذا العرض. فقلت له بالحرف الواحد: (أما أنك واحد أبله حقيقي) بدلاً من أن تحاكم بتهمة الوطنية، تحاكم بتهمة العمل لصالح إسرائيل؟ وهذه كانت قناعتي لأنه لا مفر من ذلك، فجميع الطرق في حينه كانت مغلقة طبعاً. تبين لي من خلال تذكري الدائم لهذه الواقعة أن (الحدوثة) هذه مختلقة. وهدف خلقها وطرحها بهذا الأسلوب المشترك بين (محمود وغازي)، كان إقناعي أن أي انقلاب ضد نظام الملك حسين، يصب بالتالي في طاحونة إسرائيل.

إن الموقف الذي وقفته قيادة الحزب القومية (إن كان متوافقاً أو متعارضاً مع موقف قيادة قطر الأردن) تجاه الواقع السياسي في الأردن حينه، وما سبقه من مواقف سياسية لها في سورية، وتجاه الواقع العربي وما تلاه بعد ذلك من مواقف، وصولاً إلى قيادة (صدام حسين)، كل ذلك يدل دلالة لا لبس فيها ولا غموض، أن قيادة الحزب التاريخية لا تعلم كيف تطبق فكر البعث على الواقع. وكيف يمكن أن تحقق هدف البعث (في الوحدة والحرية والاشتراكية) بالممارسة. وكانت ممارستها متعارضة في كثير من المواقف الحاسمة مع فكر الحزب. إن الفكر وحده لا يوصل إلى الهدف،

بل إنه قد يشكل مصيدة لكثير من المناضلين المؤمنين من كوادر الأداة وجماهير الناس، إذا تولته قيادة ليس لها علاقة بهذا الفكر. بل قد تكون عبئاً عليه. ولدينا أمثلة حية في هذا الميدان من هنا، من موقف قيادة الحزب هذا، والذي بالتأكيد كان معروفاً للملك حسين ومعاونيه. الأمر الذي جعله شديد الاطمئنان لأن البعثيين هم العقبة التي لا يمكن تجاوزها باتجاه لا وطني في الجيش في حينه، هو الذي جعله بموكبه غير المسلح إلّا بصفته الملكية، يقتحم معسكرات الزرقاء، معقل تنظيم الضباط، والبعثيين خاصة الذين كانوا يسيطرون على أقوى أسلحة الجيش.

## انفجار الأزمة

إن الأحداث التي وقعت ليلة ١٢ ـ ١٩٥٧/٤/١٣ تدل أن الملك حسين ومن كان يعاونه ويؤيد اتجاهه السائر فيه من القوى الخارجية، وخاصة الإنكليز، منذ مسرحية إعفاء الفريق كلوب، كانوا ينفذون برنامجاً معدة مراحله. يساعدهم في ذلك بنية الجيش التي لم يجر عليها أي تعديل جدي.

جاء في شهادة رئيس الوزراء الأسبق السيد سعيد المفتي، التي أدلى بها أمام المحكمة المنعقدة لمحاكمتنا. قال: اتصل بي اللواء رئيس الأركان وقال لي: إن ضباطاً عندي يرغبون في مقابلتك. فتوجهت إلى منزله، ولما وصلت لم أجد ضباطاً. فسألته أين هم الضباط؟ فقال: لم يأتوا، ولكنهم طلبوا إليّ أن ألقاك. وأطلب منك مقابلة الملك حسين لتنصحه بإعادة الحكومة لممارسة مسؤولياتها. وأنا أورد الجزء الأهم من هذه الشهادة لأبين للقارئ نموذجاً من أساليب الفعل الذي كان يواجه به رئيس الأركان الأزمة. أما الواقعة الأهم فهي أن رئيس الأركان طلب مقابلة الملك، وحينما التقاه قال له: إنني أنصح جلالتكم بإعادة الحكومة وتمكينها من ممارسة مسؤولياتها. فرد الملك حسين بالإنكليزية متسائلاً: (Is this an aultimatuem) (هل هذا إنذار)؟ فأجاب اللواء علي بالإنكليزية أيضاً (I am afraid it is so)، وبعد أن انتهى اجتماع الملك ورئيس الأركان، بادر الملك حسين لتنفيذ ما أعده ليوم مثل ذلك اليوم. فأرسل رسله إلى الوحدات العسكرية في معسكرات الزرقاء التي كانت ميداناً لنشاط دعاته، وأهمها لواء المشاة الأول (لواء الأميرة عالية) الذي كان يقوده المقدم معن أبو نوار، وكتيبة المدرعات الأولى التي كان يقودها النقيب نذير رشيد، عضو قيادة تنظيم الضباط الأحرار.



إذا كان الملك حسين وصفّه قد استعدوا ليوم مثل هذا، فما هي الاستعدادات التي قام بها رئيس الأركان لموقف هو اختاره سوى (التبجح والصلف)، أما كان الأجدى باللواء علي إن كان موقفه هذا صادقاً أن يلتقي الضباط القادرين في الجيش الذين يعرفهم جيداً، ويطلعهم على نواياه وخطواته باتجاه إعادة الحكومة والحفاظ على الديموقراطية، خصوصاً أن هذا الموقف يتطابق تماماً وقرارات قيادة تنظيم الضباط، وهو حينها لن يجد صعوبة إطلاقاً في تحقيق ما يطلبه. إلّا أن اللواء رئيس الأركان، بعد أن ساهم هو رئيسياً في تشتيت الرؤيا الموحدة لتنظيم الضباط، وسيدّ روح الشك واعتمد بعضهم لتنفيذ غاياته، كارهاً أن يربط نفسه بموقف جدي ويلزم نفسه بنهج وفهم صحيح وواضح. كان يريد أن يلعب من خلال علاقات فردية وشخصية على حبال كل مراكز القوى. وحينما جد الجد لم يجد حبلاً يتعلق به. ففي (لواء الأميرة عالية) حرض بعض الضباط جنودهم، وأشاعوا بينهم أن هناك انقلاباً عسكرياً على الملك يقوده علي أبو نوار. وأبرز هؤلاء الضباط اثنان من بني صخر أحدهما من اخضير وهو الملازم الثاني بادي عواد، والآخر هو الملازم فهد مقبول. وقاد هؤلاء الضباط جنودهم إلى مستودعات السلاح للاستيلاء عليها. إلّا أن بعض الضباط ومن بينهم ضباط موالون للملك، وأذكر منهم في حينه النقيب عواد الخالدي، وقفوا حائلاً بينهم وبين ذلك. وبعد أن لم يستطيعوا الاستيلاء على السلاح، ساروا مشاة يحملون في أيديهم أية أداة يعثرون عليها متظاهرين من منطقة (خو) باتجاه مدينة الزرقاء. وكان تعداد هؤلاء الجنود يراوح بين (٣٠٠ ـ ٤٠٠). وكانت الحالة الأخطر والأكثر استدعاء للتساؤل هي حالة كتيبة المدرعات الأولى التي أعطيت الواجب الأهم في حالة تنفيذ قرار قيادة تنظيم الضباط، إجبار الملك حسين على إعادة الحكومة لممارسة مسؤولياتها.

بعد رحيل الضباط الإنكليز مباشرة، تسلم الشريف ناصر بن جميل، شقيق الملكة الوالدة، قيادة كتيبة المدرعات الأولى، وكان حينها برتبة رائد. وكان النقيب نذير رشيد مساعداً له. والشريف ناصر والنقيب نذير هما خريجا الكلية العسكرية في بغداد، ولا أعرف إن كانا قد التقيا هناك. وبعد عدة أشهر من قيادته للكتيبة ترك الشريف ناصر الكتيبة لواجبات أهم. فتسلم قيادة الكتيبة منه مساعده النقيب نذير رشيد (عضو قيادة تنظيم الضباط الأحرار). كان الشريف ناصر قديراً على استمالة من

هم في معيته، وخاصة إن كانوا غير محصنيين ضد الإغراءات، كان بمقدوره بناء علاقات مع مختلف المستويات ضباطاً، وضباط صف، وجنوداً، فهو يغدق ويهدي من في معيته، ويتعامل مع جنوده بأسلوب متواضع ومتهاون. ووحدة المدرعات الأولى، جميع منتسبيها كانوا من البدو ـ فلسطينيين وأردنيين ـ وبعضهم بدو من خارج الديرة. وكان ضباطها من صغار السن والرتبة. فأعلى رتبة في الكتيبة في حينه كانت رتبة نقيب، يساعده ملازم أول. وقد ظهر فيما بعد أن الشريف ناصر، لم يترك كتيبة المدرعات الأولى، إلّا بعد أن تأكد أنها باقية في أمرته. هذه الحقيقة تدل على التقدير الذي يقول أن الملك حسين ومن يشيرون عليه، بدأوا العمل مباشرة بعد (إقالة الفريق كلوب) من أجل الاستئثار بالسلطة كان صحيحاً. ولا بد من التذكير هنا أن هذه الكتيبة (أي كتيبة المدرعات الأولى)، هي صاحبة المناورة الشهيرة بـ(مناورة هاشم) سيئة الصيت، ذات الأهداف المتعددة الشبهة. ومع كل هذه المواصفات التي ذكرت، قام النقيب نذير رشيد قائد الكتيبة بعمل لا يمكن أن يقدم عليه ضابط متآمر، بغض النظر عن موقع هذا الضابط، إن كان مع الوطنية والديموقراطية أو مع الاستعمار والملكية المطلقة. فالمتآمرون حذرون إن كان في ما يتعلق بأهدافهم، أو وسيلة وأسلوب تحقيق هذه الأهداف. فهم لا يعلنونها ولا يصدرونها كأوامر. فأنت كقائد وحدة لها مهمة تتعلق بواجبات غير مشروعة أو حتى ضابط في وحدة كما حدث مع محمود ومعي قبيل إعفاء الفريق (كلوب)، تبادر فوراً إلى جمع جنودك وتركبهم سياراتهم وتجعل ضباطك المؤيدين لخطك يقودونهم إلى هدفهم. إلّا أن ما قام به النقيب (نذير رشيد) عضو قيادة تنظيم الضباط الأحرار كان أمراً شديد الغرابة، شديد الشذوذ عن منهج المتآمرين. بعد أن اتخذت قيادة تنظيم الضباط قرارها، وكلف النقيب نذير رشيد والنقيب ضافي الجمعاني، قائدا كتيبتي المدرعات الأولى وكتيبة مدفعية الميدان الخامسة، بالإعداد الواجب لتنفيذ هذا القرار، توجّب علينا نحن الاثنين (أي نذير وضافي) مسؤولية تنفيذ القرار. حينما لم يعد هناك لبس في موقف الملك حسين تجاه الحكومة الوطنية، كان من الطبيعي أن نجتمع نحن الاثنين، ونقرر كيفية العمل لتنفيذ هذا القرار، والذي أجريته أنا من استعداد لهذه المهمة، هو أنني كلفت أحد ضباطي الموثوقين وهو الملازم خالد أبو فرجه باستطلاع الطريق من جسر محطة عمان وحتى دارة السفير البريطاني القديمة والتي تقع إلى الشمال وقليلاً إلى الشرق من قصر بسمان، وهل هي صالحة لسير السيارات التي تجر المدافع.



فأبلغني أنها صالحة، ولقد قررت بناءً على معرفة سابقة أين الموقع الذي ستحتله الكتيبة وأية قوة مضافة تستدعي الظروف إشراكها. ومن المفترض أن يكون نذير قد فعل الشيء نفسه قبل اجتماعنا المرتقب لنضع الخطة اللازمة لقواتنا المشتركة. إلّا أن نذير قام بفعل شيء مختلف تماماً مع أنه في حقيقته مكمّل لـ(مناورة هاشم). فقد أقدم على أمر لا يمكن قبوله على أساس حسن نية من رفاقه في قيادة التنظيم إلّا (من كان على بينة من هذا الأمر). جمع قسم آمر الكتيبة، مساعد الكتيبة وركن الكتيبة وقادة السرايا وأعطاهم أمراً كامل الوضوح حول المهمة التي ستقوم الكتيبة بتنفيذها. وقد جاء في أقوال الملازمين قادة السرايا الذين شهدوا في محاكمتنا، أن الأمر الذي أعطاهم إياه قائد الكتيبة يقضي بتطويق القصر الملكي، وأنه كان عليهم وهم في طريقهم إلى تنفيذ هذا الواجب الرد على أية طلقة ترمى باتجاههم بقذيفة (٦ باوند)، عيار قذيفة مدفع المدرعة. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هناك علاقة بين ما قام به النقيب نذير رشيد والإنذار الذي وجهه اللواء علي إلى الملك حسين؟ وهناك معلومة، استدعت مني (صفنة طويلة) عرفتها بعد خروجي من سجن المزة في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٩٤. عرفتها من صديقي عزمي مهيار، قال: لقد أعطيت أمراً أن أحضر مجلس الحرب هذا، ممثلاً لسلاح المدفعية، وبرفقتي النقيب موسى محمود جنكات ممثلاً لسلاح الهندسة. ولما سألته: من أعطاك هذا التوجيه قال، أبو ساهر ـ أي المقدم محمود المعايطة ـ وطبعاً الذي أعطى موسى محمود الأمر هو المقدم أحمد زعرور (مباشرة، أو من خلال قائد سلاحه). هذه الواقعة لها دلالات خطيرة. إن المعضلة التي واجهها الوطنيون الصادقون في تلك المرحلة هي الأفعال والتحركات مقطوعة الصلة ببعضها ببعض (زمر تأمر تثير الشكوك). فلا أحد يعرف من ينسق مع من؟ ومن هو متفق أو مختلف مع من؟ والمفارقة الغريبة أن الأحزاب الوطنية المؤتلفة في الحكومة والمؤيدة لها، لم تستطع شق مجرى وطني، شعاره مثلاً (الموت أو الديموقراطية). لقد كان الحزب الوطني الاشتراكي وحزب البعث العربي الاشتراكي، والجبهة الوطنية القريبة من الحزب الشيوعي، وكذلك الحزب الشيوعي المؤيد بقوة لرئيس الوزراء وحكومته، قادرين على خلق هذا المجرى، الذي لو تحقق لما كان أحد يقدر على تجاوزه، لا رئيس الأركان، ولا الملك، ولا أية قوة أخرى، بما فيها قيادة تنظيم الضباط. وحينما لا يكون هناك طريق عام مشترك، وشعار المرحلة مشترك، تسير عليه وتحته الجماهير يصبح لكل طريقه، وشعاره الذي لا يوصل إلّا إلى الديكتاتورية.

## كتيبة المدرعات الأولى تحمي القصر الملكي

وهكذا ما إن جاء (الصايح[٥]) للكتيبة ضمن رسل الملك لبعض الوحدات في الزرقاء، حتى ركب ضباط وجنود الكتيبة مدرعاتهم متجهين إلى عمان، عبر معسكرات سلاح المدفعية. الأمر الذي بدا أن مرورهم كان قبل أن يستنفر السلاح لمواجهة التمرد. وما إن وصلت الأخبار السارة إلى الملك حسين، وهي أن المدرعات الأولى قد وصلت، وأن لواء الأميرة عالية قد تمرد جنوده على ضباطهم، وأن سرية نقليات الفرقة، على طريق (الزرقاء ـ خو) قد وقفت إلى جانب الملك ضد علي أبو نوار، حينها استدعى الملك حسين رئيس أركانه، الذي كانت الأخبار قد وصلته أيضاً. وعند وصول رئيس الأركان إلى القصر الملكي، أمره الملك أن يركب معه متجهين إلى معسكرات الجيش في الزرقاء. وما إن وصل هذا الموكب الملكي إلى مشارف بلدة الرصيفة، التي تبعد عن عمان أقل من عشرين كيلومتراً، حتى التقى بطلائع الجنود المتظاهرين، الذين ما إن رأوا الموكب الملكي حتى بدأوا بالهتاف، (يعيش الملك حسين)، يسقط علي أبو نوار، وفي هذه اللحظة المناسبة (فش الملك حسين غله برئيس أركانه)، قائلاً له: أنزل واخرج من البلد فإنني لا أستطيع أن أحميك. والمخرج هذا يدل على أن علي أبو نوار لم يكن متآمراً على النظام. ومنذ وصول المعلومات الأولية عن التمرد حتى وصول الملك إلى بلدة الرصيفة، كان تمرد الجنود المتظاهرين قد انتهى. فقد استلم قائد سلاح المدفعية أمراً من قائد الفرقة اللواء علي الحياري، بإخماد التمرد وحماية معسكرات الجيش، ومقر قيادة الفرقة في خو. فأعطى قائد سلاح المدفعية أوامره لقائد كتيبة مدفعية الميدان الثالثة، الرائد في حينه إحسان الحلواني بقطع طريق الزرقاء ـ خو ـ من نقطة اتصال طريق معسكرات سلاح المدفعية بالطريق العام الزرقاء ـ خو. فأمر قائد كتيبة مدفعية الميدان الأولى بحماية معسكر الزرقاء وساكنيه من عوائل العسكريين. وقطع طريق الزرقاء ـ خو من نقطة التقاء طريق معسكر الزرقاء بالطريق العام. وأرسل سرية من الجنود من كتيبة مدفعية الميدان الخامسة لحماية مقر قيادة الفرقة في خو، فقام قائد كتيبة مدفعية الميدان الثالثة بقطع طريق خو ـ الزرقاء، من نقطة التقاء طريق معسكر سلاح المدفعية بهذه

(٥) الصايح عند البدو الرحل هو الخيال الذي يبلغ أفخاذ القبيلة أن قبيلة ما قد غزتهم.



الطريق. وأمر الجنود المتظاهرين أن يتفرقوا بمكبرات الصوت، وطالبهم بالعودة إلى معسكراتهم فوراً وإلا فإن النار ستطلق عليهم. ولما لم يستجب الجنود المتمردون لهذا النداء واستمروا بالسير والهتاف، أطلق جنود المدفعية الثالثة النار عليهم، فقتل في هذه الواقعة اثنا عشر جندياً وجرح الكثيرون، ولما رأى الجنود المتظاهرون جدية المواجهة، راحوا يصيحون: إحنا ذبحنا بعضنا بعض (يلعن أبو فلان على أبو فلان). وحينما وصل جلالته وموكبه إلى منعطف الطريق باتجاه خو والمفرق، وأمام سينما النصر، واثقاً من موقفه، التقاه حاجز كتيبة مدفعية الميدان الأولى (يقف على هذا الحاجز النقيب عزمي مهيار)، ولما لم ينفتح الحاجز تلقائياً أمام موكب جلالته، ترجل أحد مرافقيه وتقدم من ضابط المدفعية قائلاً: إن هذا موكب جلالة سيدنا، افتحوا الطريق، فقال له الضابط: انتظر حتى أتصل. فأجابه المرافق الذي استهجن التصرف: إن جلالته موجود في السيارة. فرد قائلاً: قلت لك انتظر حتى أتصل وآخذ أمراً بالسماح للموكب بالمرور. فما كان من موكب جلالته إلّا أن انتظر مجبراً. وبعد أخذ الإذن، تابع الموكب السير متوجهاً إلى معسكرات سلاح المدفعية، وعلى بعد حوالي النصف كيلومتر من الحاجز الأول، اضطر موكب جلالته للوقوف على مدخل معسكرات سلاح المدفعية. وعلى هذا الحاجز، رأى وجوهاً غاضبة ودامية. فمنذ أقل من نصف ساعة كانوا قد أطلقوا النار على رفاق لهم، وقتلوا منهم أعداداً وجرحوا الكثيرين. وهم بلا شك كانوا في وضع جعلهم لا يترددون في القيام بأي فعل مهما عظم شأنه. والذي لا شك فيه أن الملك حسين كان ذا حظ كبير في تلك الليلة. وأمام قيادة مدفعية الميدان الثالثة التقى على الطريق اللواء علي الحياري قائد الفرقة والمقدم محمود المعايطة قائد سلاح المدفعية، والمقدم أحمد زعرور. لم ينتظر موكب الملك طويلاً، وغادر المكان بعد أن طلب الملك من المقدم أحمد زعرور أن يركب معه في الكرسي الخلفي، الأمر الذي جعل الملك حسين يجلس في الوسط بين اثنين يركبان معه، وأنا مقتنع أن جلالته وضع نفسه في الوسط، خوفاً واحتياطاً من رصاص قد يطلق من خارج السيارة، لأنه بعد وصوله إلى الطريق العام الزرقاء ـ عمان وخروجه من فم هذا الذئب، أمر جلالته المقدم أحمد زعرور بالنزول، ولم يكن لديه واسطة نقل تعيده إلى منزله في معسكر الزرقاء. قال لي المقدم أحمد: ركبنا ثلاثة في المقعد الخلفي. وكان جلالته يجلس في الوسط، وقد شعرت حينها أن قدميه أصبحتا في حالة غير طبيعية وحركة لا إرادية، ولما

أنزلني على الطريق العام الذي كانت تقف عليه إحدى المدرعات، جاء دوري حينها لتصطك ركبتاي، وضحك لأن أحد أفراد طاقم المدرعة قد أشار إلي قائلاً (هذا واحد منهم). الذي لا شك فيه أن الملك حسين كان ذا حظ كبير. فالثقة الزائدة في النفس حد التهور، بدافع إثبات الذات، وضعف خبرته دفعاه إلى ذلك التصرف. ومع ذلك، أمنت له القوى التي تسنده دولياً وعربياً الساحة الأردنية تماماً. فرئيس الوزراء كان يقر بحق الملك الدستوري، وكان يرفض اتخاذ أية إجراءات أو قرارات تتعارض وهذا الحق. وقيادة تنظيم الضباط بعثياً وناصرياً وأطراف مستقلة، دخلت في دوامة الواقع المصمم، وفقدت هدفها بعد أن غيرت اتجاهها، وأصبحت (شللية) بعد أن كانت مؤسسية، وفقد أعضاؤها المصداقية تجاه بعضهم بعضاً، وتجاه مؤسستهم. وحتى الاجتماع الأخير الذي انعقد في ظل الأزمة، والذي تقرر فيه مواجهة الأزمة وفرض حل لها، تبين من خلال النتائج أن بعض القادة الأساسيين لم يكونوا صادقين بالتزامهم تجاه القرار الذي اتخذوه. وهكذا فتصرف الملك المتهور كان سيقود إلى نتائج عكسية تماماً، من خلال وضع قادة أساسيين يملكون القدرة على الفعل، في موقع الدفاع عن النفس، الذي سيفرض عليهم (رد الفعل). في ليلة الأحداث هذه، كان في برنامج إحدى بطاريات الكتيبة التي أقودها مشروع (تدريب ليلي). سارت البطارية بعد حلول الظلام إلى ميدان التدريب إلى الشرق من معسكر المدفعية. وبعد نصف ساعة من مسير البطارية تبعتها بلباسي المدني، سرت مع التدريب حتى انتهى البرنامج المقرر، وبعدها عدت إلى الزرقاء، قاصداً نادي الضباط، ماراً بمعسكر الزرقاء، وكان المعسكر كامل الهدوء. خرجت من بوابة المعسكر الذي يقوم على حراسته الانضباط العسكري، وحينما وصلت إلى أول المنحدر باتجاه النادي على طريق الزرقاء ـ عمان، لحقت بمجموعة من البشر لا يمكن تصنيفهم. كانوا يسيرون بهدوء تام. حاولت المرور من بينهم، ولما أصبحت سيارتي في وسطهم وتبيّن لهم أنها سيارة (قائد كتيبة)، أحاطوا بها. فتوقف السائق، وهبطت أنا حينها من السيارة، فتجمعوا حولي ولم أكن مسلحاً، وبدأوا بالهتاف (يعيش الملك حسين، يسقط علي أبو نوار)، محاولين إجباري على ترديد هذا الهتاف. ولكن قبل أن يتطور الموقف إلى القبول أو الرفض، تقدم من بين الذين يحيطون بي، شاب أسمر، فعرفته، فأبعدهم عني وقادهم باتجاه هدفهم وهو عمان، هذا الشاب من عشيرتنا، اسمه (بركان سليمان العمارين)، وهكذا استفدت من إحدى مميزات العشائرية. وتبين أنهم من الجنود الذين



تفرقوا حين إطلاق النار، ثم عادوا وتجمعوا وقرروا متابعة سيرهم إلى القصر الملكي. بعدها عدت بسرعة إلى المعسكر ومررت ببيت محمود، وهو جار لي، فلم أجده. ومررت ببيت المقدم أحمد زعرور ولم أجده. وسرت بعدها إلى نادي ضباط كتيبة المدرعات الأولى، وإلى غرفة نذير التي أعرفها، فوجدت النادي والغرفة في عتمة تامة. حينها اتجهت إلى مقر قيادة الكتيبة التي أقودها، ولما وصلت وجدت جميع ضباط الكتيبة موجودين هناك. فسألتهم هل هناك شيء؟ فقالوا لي ما حدث. اتصلت فوراً، أسأل عن محمود، فقالوا لي إنه استدعي إلى القصر.

هذا هو سلاح المدفعية في ليلة الثاني عشر على الثالث عشر من نيسان ١٩٥٧: ثلاث كتائب مدفعية ميدان وكل بطارية مزودة بـ (٢٠ ملم، أورلكان) تستطيع بهذه القوة المضمونة قيادة وقاعدةً تدمير المدرعات الأولى والثانية وأية قوة أخرى في طريقك، خصوصاً أن الملك حسين قد هيأ الفرصة، فالجنود الذين قادهم ضباطهم إلى قتل رفاق لهم خارجون على الانضباط والتقاليد العسكرية. فبالرغم من الهتافات العالية (عاش الملك حسين، يسقط علي أبو نوار) التي كانت تدوي في مسامعهم، لم يترددوا في إطلاق النار عليهم رشاً. إنهم مستعدون أن يتبعوك إلى حيث تقودهم، وضد من تقودهم، وهم قد خطوا الخطوة الأولى ولن تجد حينها من يتردد بالسير خلفك منهم. والسؤال المشروع الذي طرحته على نفسي: هل كان سيتغير مسار الأحداث، لو كنت موجوداً على رأس وحدتي في تلك الليلة؟ هو سؤال افتراضي، غير مقبولة استنتاجاته. لكن لا بد من التذكير أنني الوحيد في قيادة تنظيم الضباط، الذي كان يقول بتغيير النظام، الهدف الأساسي لتنظيم الضباط. وكل زملائي في قيادة التنظيم يعرفون ذلك. وقد قلت ذلك لعلي أبو نوار شخصياً حينما زرناه للمباركة بمنصب رئاسة الأركان. هذا الوضوح في الموقف، جعل رفاقي في الحزب والسلاح أولاً، وزملائي في قيادة التنظيم ثانياً، يحاولون إبعادي عن أي واقع يتوافق وفهمي هذا الذي يعرفون. والشواهد التالية تشير إلى ذلك:

**أولاً:** إن موقفي المنفرد هذا في قيادة التنظيم، جعل أصحاب الرؤيا المغايرة يضعونني خارج إطار القرارات والأفعال الصميمية. إن شواهد عديدة بينت أن الرفيق محمود المعايطة قد أبعدني بتصميم عن التقرير في قضايا مصيرية أهمها، عرض الملك حسين على اللواء محمد المعايطة منصب رئيس الأركان، وكنت سأقبل

وأدافع بقوة عن هذا العرض حتى ضمن الشروط التي وضعها الملك حسين، والتي أشك في صحتها، لأنني كنت مع أي بديل لعلي أبو نوار.

**ثانياً:** إن الرفيق أبو ساهر تجاوزني إلى من هم أدنى مني موقعاً تنظيمياً (عسكرياً أو حزبياً). فحينما تقرر إقالة الفريق كلوب، كان محمود على معرفة كاملة في كيفية تنفيذ العملية عسكرياً. وهو الذي أشرف على تنفيذها (أي أنه شكل القائد الميداني للعملية تحت إشراف الملك حسين) كما جاء في مداخلته الهامة في الندوة التي أقيمت حول سليمان النابلسي في منتصف عام ١٩٩٨ والتي بين من خلالها شكلاً ومضموناً جديدين لتنظيم الضباط الأحرار، يتوافق تماماً والذي أورده علي أبو نوار في كتابه الرديء (حين تلاشت العرب).

**ثالثاً:** لقد أعطى محمود المعايطة مهمة السيطرة على كتيبة مدفعية الميدان الأولى لتنفيذ الواجب المسند إليها حسب الخطة، بما فيها بطارية الميدان الثالثة التي كنت أقودها إلى الرفيق النقيب عزمي مهيار. الأمر الذي يعني أنه تجاهل موقعي القيادي في تنظيم الضباط، وحزب البعث العربي الاشتراكي. لماذا؟ لرؤيتي المختلفة معه. وكأنه أيضاً لا يريد أن يعطيني شرف المشاركة. هذه الحقائق استنتجتها بعد خروجي من سجن المزة في شهر تشرين الأول عام ١٩٩٤. (خلال لقائي بمحمود وعزمي). ولكن حينما وجد الرفيق عزمي مهيار أن تنفيذ الواجب المعطى للكتيبة يحتاج إلى وجودي، استدعاني من إجازتي يوم الخميس الذي سبق تنفيذ الخطة العسكرية.

**رابعاً:** وهو الأخطر، إن الرفيق (أبو ساهر) قائد سلاح المدفعية، قد شارك في صنع القرار الذي اتخذته قيادة تنظيم الضباط في اجتماعها الذي انعقد في منزلي في معسكر الزرقاء، والذي يقضي بالتصدي لقرار الملك حسين تغيير الحكومة ومنعه من ذلك. وكان يعرف أن مهمة تنفيذ القرار قد أوكلت إليّ وإلى نذير، وكان يعرف هذا الأمر كذلك المقدم أحمد زعرور الذي شارك في صنع القرار. فما معنى أن يرسل المقدم محمود النقيب عزمي مهيار ممثلاً لسلاح المدفعية، وكذلك يرسل المقدم أحمد زعرور النقيب موسى جنكان ممثلاً لسلاح الهندسة، لحضور مجلس الحرب؟ الأمر الذي يدل على أنهما كانا على معرفة



مسبقة بانعقاد مجلس الحرب هذا، مما يثير أخطر التساؤلات والدلالة على الشبهة الشديدة التي أحاطت بهذا المجلس. إن النقيب عزمي والنقيب موسى عندما رأيا هذه الحالة انسحبا قبل أن يشعر بهما أحد. ما هو المعنى الحقيقي لهذه الواقعة؟ إن على القارئ أن يستنتجه. ومع ذلك يظل التساؤل مطروحاً، هل وجودي كان سيغير مسار الأحداث؟ فأقول مختصراً شواهد عديدة، إن قائد سلاح المدفعية (المقدم محمود المعايطة) هو قائد سياسي وأساسي في قيادة تنظيم الضباط، ويعرف تماماً قرار هذه القيادة. ومع ذلك لم يستثمر فرصة العمر التي سنحت له. هي الحالة التي كان عليها سلاح المدفعية في تلك الليلة، لأنه كان جزءاً من عملية التغيير المخططة التي جرت في الأردن. ومع ذلك وبالتأكيد، فإنني لو كنت موجوداً لقلت بوضوح أننا ندافع عن أرواحنا. وأنا لست على استعداد أن أسلم رأسي دون مقابل. إن الشاهد الأقوى على أن المقدم محمود المعايطة كان شخصية رئيسية في عملية التغيير التي جرت في الأردن، هو نقل المقدم شاهر اليوسف إلى قيادة لواء المشاة الأول بعيداً إلى منطقة نابلس، وهو موقع أقل شأناً من قيادة سلاح المدفعية، وتسليم قيادة هذا السلاح المضمون وطنياً قاعدة وقيادة إلى المقدم محمود المعايطة.

### المقدم شاهر اليوسف

كان أبو جبار رفيقاً عزيزاً ـ يرحمه الله ـ. ومن المؤكد أنه صادق الوطنية حينما التزم بحزب البعث العربي الاشتراكي. وبعد ذلك عمل على خلق تنظيم الضباط الأحرار. ولكنه وجد نفسه في الثلث الأول من عقد الستينيات (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) في واقع فرض عليه الانحراف عن الهدف الأساس لتنظيم الضباط، إلى هدف فرعي هو (تعريب الجيش)، بتأثير كل عوامل الواقع العربية والدولية. ومن بينها المقابلة التي جرت بينه وبين الفريق (كلوب) في منزل الأخير، والتي على أثرها نقله مرافقاً له لفترة زمنية محددة، والتي قال له خلالها (الفريق كلوب)، أن الأردن يستند إلى ركيزتين: أولاهما الملكية وثانيهما المعاهدة البريطانية، كما ورد في مذكرات شاهر ـ وكان شاهر صادق الرواية. قاده هذا الالتزام بمقولة (كلوب) إلى الوقوع بشبكة المخطط. بدأ بلقائه بعلي أبو نوار، ثم بعد ذلك بالملك حسين في لندن، وحتى دخولنا سجن المحطة. والسؤال هو: هل كان بإمكان شاهر أن يفلت من شبكة المخطط، وإن

كانت لديه النية؟ فأقول لا. إلّا في حالة الصدفة التي تتقاطع بها تحركات قوى متعارضة، تفرض عليه واقعاً ليس في باله. وأقصد بذلك حالة سلاح المدفعية ليلة التمرد. والمخططون لا يتركون هكذا قضايا للصدف، ولذلك نقل من قيادة سلاح المدفعية بعيداً إلى منطقة نابلس.

## محمود المعايطة يعود من القصر

في الفترة التي انتظرت فيها عودة محمود، (صفنت) طويلاً وعرفت حينها (أن الفيلة لمن فالها) (وأن الطيور طارت بأرزاقها) كما يقال. ففي واقع غير مستقر كالواقع الذي كان عليه الأردن في حينه، سنحت لك فرصة العمر للتخلص من آثام هذا الواقع، فإن لم تستغلها ذهبت على الأقل إلى ما بعد ذهاب العمر. وما علينا الآن إلّا مواجهة مصيرنا الذي تقرر بشجاعة وكبرياء.

التقيت المقدم محمود بعد عودته، فقص علي ما حدث معه. قال: حين وصولي إلى القصر، أدخلوني فوراً إلى مكتب الملك فحييته، فدعاني إلى الجلوس. واستدعى أحد الحجّاب، وقال له: ادعوا الملازم (فلان). ودخل علينا ملازم ثانٍ على زيّه شارة المدرعات الأولى، وطلب منه الملك أن: اذكر إلى المقدم محمود الأوامر التي أعطاكم إياها قائد الكتيبة في الاجتماع الذي عقده معكم. فسرد الملازم الأوامر التي أعطاها إليهم نذير. وجاءوا بالثاني والثالث وكرروا نفس الرواية، فقلت بانفعال: إن هذه الأقوال هي من تدبير الشريف ناصر، فصاح الشريف ناصر وقد فوجىء بهذا الاتهام. فقال: أقسم بالله أن لا علاقة لي بهذا الأمر، وبعدها خرجت من القصر عائداً مباشرة إلى الزرقاء، وكان الوقت قد صار بعد منتصف الليل، وتوجهت إلى قيادة كتيبة مدفعية الميدان الثالثة، وهناك وجدت نذير، فسألته عما قاله لي ضباط كتيبة المدرعات الأولى، فقال لي أنه صحيح، وطلبت من سائقي أن يوصل النقيب نذير إلى مقر قيادة القوات السورية في المفرق وهم هناك يؤمنون وصوله إلى دمشق. وكان أول ما قاله نذير للصحافيين حين وصوله إلى دمشق، هو الهجوم على الضباط البعثيين في الجيش الأردني. لماذا البعثيون والصراع في الأردن لم يكن بين البعثيين والناصريين في حينه، بل بين الوطنية والديموقراطية من جهة، وبين الملكية المطلقة والتدخل الأجنبي وسيطرته على الإرادة السياسية، الأداة المخلصة لأهداف القوى المعادية من جهة





أخرى؟ إن هذا التصريح يدلك على الحقيقة التي كان غاطسها عميقاً! لم يظهر إلّا بعد قرابة النصف قرن.

في صباح اليوم الثاني زارني محمود (وأبو سامي) المقدم أحمد زعرور في كتيبة مدفعية الميدان الخامسة التي كنت أقودها، التقيا بي في نادي ضباط الكتيبة وكان هناك عدد من ضباط الكتيبة متواجدين. جرى الحديث عن أحداث الليلة الماضية. وكان تركيز محمود وأحمد على الدور الأميركي وأنه كان الأساس في انقلاب الملك حسين على الديموقراطية. ولا سيما دور الملحق العسكري الأميركي. نعم كان للأميركان دور بارز في الأحداث، وخاصة دور ضابطين صغيرين من الصخور في لواء الأميرة عالية الذي حدث به التمرد. وكانا ملتزمين بالسيد عاكف الفايز. ومع ذلك فإن دور الأميركان كان على السطح، ولم يكن هو الأساس في توجيه الأحداث. لقد كان الدور (الإنكليزي) هو الأهم والأكثر فعلاً. المستور والقوي في مفاصل ومراكز القرار، إن كان في القوى السياسية أو العسكرية. وبعدها قلت لمحمود وأحمد (وبعدين) أي ماذا بعد، هل نستسلم بهذه السهولة. لا بد من عمل ندافع به على الأقل عن أنفسنا. وبالرغم من يقيني الذي ذكرت (بأن الطيور طارت بأرزاقها) وأن علينا أن نواجه مصيرنا بشجاعة. إلّا أنني تناسيت كل ذلك في هذا اللقاء مع (أحمد ومحمود)، وبدافع المكابرة قلت لهما، إنني سأبادر ولو بكتيبتي وحدها بالعمل. فقال أحمد: إن كنت تستطيع ذلك فافعل. ولم يقل محمود أي شيء لأنه كان يدرك الواقع. وحاولت أن أنفذ ما قلته. فجمعت الكتيبة وتحدثت إليهم عن أحداث الليلة الماضية. وعن الإشاعات التي كان يطلقها عملاء الاستعمار الذين يستهدفون خراب وطننا بأن هناك انقلاباً ضد الملك حسين وهذا ليس صحيحاً على الإطلاق... ولكنني أقول لكم أننا لا نعبد أصناماً. ولما أنهيت حديثي، قلت للضابط المسؤول: كل بطارية إلى موقعها. وقبل أن يأمرهم الضابط المسؤول بالمسير، خرج من الصفوف صوت عال يهتف، (عاش الملك حسين). صحيح أنه لم يكن هناك استجابه ولا من صوت ثان ـ لغرابة الواقعة في (طابور) رسمي، وشذوذها عن الانضباط، لكنها كانت كافية للإشارة إلى طبيعة أحداث الليلة الماضية والتذكير بها. وقد عرفت من هو صاحب هذا الهتاف. وهو جندي سائق من الأزرق ومن مهاجري جبل حوران. ومع ذلك فقد أعطيت الأوامر أن تستعد الكتيبة للخروج إلى المناورة.

فاعترض أحد الضباط، فقلت: إن الكتيبة ستخرج وأنا قائد هذه الكتيبة. وأعطيت الأوامر لقادة البطاريات للاستعداد. وحين خروجي تبعني مساعد قائد الكتيبة، وكان أحد الحضور حين لقائي بالرفيقين المقدم محمود والمقدم أحمد، وسمع الحديث الذي قلته. فقال لي: أرجو أن تفهمني، إن القيام بأي عمل من هذا النوع الذي في ذهنك مستحيل. وحينها أصبح واجبي وواجب محمود هو المحافظة على ماء الوجه كقادة لهذه الوحدات إلى أن يتقرر مصيرنا، الذي لم يعد بعيداً، وهو المحافظة عليها كوحدات عسكرية منضبطة، لأن كل وحدات الجيش في معسكرات (خو ـ الزرقاء)، فقدت كل ما يمت إلى الانضباط العسكري بصلة. فلم يعد هناك لا قادة ولا ضباط لهذه الوحدات، وبات الجنود دائمي التظاهر والهتاف للملك حسين، ووفود ذاهبة ووفود راجعة منهم إلى القصر الملكي. وكان الملك يلتقيهم ويرحب بهم وأحياناً يطعمهم. وانهيار الانضباط العسكري هو ربيع النفس عند الجندي. والسلاح الوحيد الذي استمرت الأمور به طبيعية، لكنها متوترة هو سلاح المدفعية، إلى ما قبل ليلة واحدة من اعتقالنا. وكانت تتوافد على السلاح وفود من جنود الوحدات الأخرى. يقولون: لماذا لا تتظاهرون تأييداً لجلالة سيدنا. إنكم لستم موالين لجلالة الملك، وضباطكم خونة، لماذا لا تتظاهرون تأييداً للملك؟! هذا التوافد والتحريض المستمر أثمرا في الليلة الأخيرة قبل اعتقالنا. ففي حوالي الساعة الثامنة مساءً كنا، محمود وأنا، في نادي ضباط كتيبة المدفعية الأولى. هذه الكتيبة الأصيلة في وطنيتها والوحيدة في السلاح التي كان لها شرف القتال في فلسطين، مشرفين على معسكرات السلاح. وكما ذكرت، جرت أولى المحاولات في كتيبة مدفعية الميدان الثالثة التي تصدت للتمرد بقيادة الرائد إحسان الحلواني قائد الكتيبة. وقد خرج من البلاد هو والعديد من ضباطه في نفس ليلة الأحداث بعد أن انتهت. وكذلك في كتيبة مدفعية الميدان الخامسة التي أقودها. وما سمعنا الهتافات ورأينا التظاهر، قمت أنا ومحمود. اتجه هو إلى كتيبة مدفعية الميدان الثالثة. وأنا إلى كتيبة مدفعية الميدان الخامسة التي أقودها. إنك تحتاج إلى إرادة وشجاعة نفس لتواجه جنوداً فقدوا الانضباط والاحترام. يتظاهرون ويهتفون للملك قاصدين إسماع قادتهم (الخونة) ذلك. ومع ذلك فإن الانضباط العسكري في نفس الجندي، هو أرسخ العوامل التي تقوم عليها الجندية. وحالما تمسه بإرادة غير مترددة يستيقظ فوراً. وهكذا عادت الأمور في سلاح المدفعية طبيعية قبل أن نغادره نهائياً إلى موقع العقاب.



## الملك حسين يستثمر انتصاره

قام الملك حسين في الأيام التالية للأحداث بزيارات ومقابلات في الوحدات العسكرية، كان هدفها إثبات الوجود وتطمين الخواطر قبل أن يقوم بالخطوة التالية، وهي اعتقال قادة تنظيم الضباط. فقد عقد اجتماعاً لقادة الوحدات المتمركزة في الضفة الغربية، في قيادة لواء المشاة الرابع في غور الأردن الغربي. ولم يحضره الرفيق شاهر، مع أنه قائد لأحد الألوية. ولكنه عرف ما دار في الاجتماع، وما قاله الملك حسين في هذا الاجتماع، كان عبارةً عن تطمينات ووعود. فالتحول الذي طرأ على الواقع السياسي في الأردن، لم يكن ليسمح، حتى للملك أن يقرر الطريقة التي ستسير عليها الأمور في البلاد.

استدعى الملك حسين اللواء علي الحياري في اليوم التالي لخروج اللواء علي أبو نوار من البلاد، وعينه رئيساً للأركان وهي مفارقة تجلب الانتباه. فاللواء علي الحياري هو الذي أمر بالتصدي للتمرد المؤيد للملك حسين، وهو بالتأكيد لم يكن يصلح أن يقود جيشاً، حددت عوامل تكوينه ومهماته المستقبلية وهي بالتأكيد ليس لها علاقة بالمهمات التقليدية للجيوش الوطنية. فكيف يمكن تكليف اللواء علي بهذه المسؤولية؟ إنه أسلوب الاستعمار الجديد، الخداع والتضليل. المظهر يناقض الحقيقة. وهكذا ما إن أمضى اللواء علي الحياري بقية يومه رئيساً للأركان وتوجه قاصداً مقر سكناه، في معسكر الزرقاء، ورغم العلم الذي يرفرف على مقدمة سيارته، أوقفته مفرزة مدرعات. ولما سأل اللواء علي: لماذا توقفوني؟ أجاب قائد المفرزة: إن لدينا أوامر بإيقاف جميع السيارات وتفتيشها. وبعد ذلك استمر في سيره حتى الحدود السورية، دون أن يمر على أهله (كما قيل). فكيف يمكن لضابط شريف أن يقود جيشاً مهماته قطع الطريق؟ وبتقديري أن العملية أوحي بها من أعلى المستويات وذلك لإجبار اللواء علي أن يختار الخروج من البلد، لأن مهمات الجيش المقبلة لا يمكن أن يكون لها علاقة بالوطنية.

## الفرار الكثيف

في الليلة نفسها التي خرج فيها اللواء علي أبو نوار إلى دمشق، خرج كذلك الأستاذ

عبد الله الريماوي أمين سر قيادة قطر الأردن لحزب البعث العربي الاشتراكي وبعض أعضاء القيادة، منهم الأستاذ عبد الله نعواس والأستاذ سليمان الحديدي والأستاذ كمال ناصر، وأعداد من الكادر المتقدم للحزب. وكذلك بعض قادة وكوادر الحزب الشيوعي. وخرج من الحزب الوطني إلى دمشق الأستاذ شفيق الرشيدات. أما على الصعيد العسكري، قد خرج إلى دمشق اللواء علي الحياري رئيس الأركان، وفر جهاز المخابرات العسكرية بأكثريته: العقيد محمود الموسى مدير الجهاز، والمقدم قاسم الناصر معاون مدير الجهاز، والكثير من ضباطه الصغار وبعض ضباط الصف. وخرج من البلاد الرائد إحسان حلواني وعدد كبير من ضباطه وكانوا على حق في هذا الخروج. فهم قد تصدوا للمتمردين، وقتلوا وجرحوا العديد منهم. فمن يحميهم وقد تعرضوا لأنصار الملك. فما كان يحميهم إلّا وضع لا يكون للملك حسين الباع الأطول فيه.

## الاعتقال

في اليوم الثالث أو الرابع للأحداث، استدعينا نحن التالية أسماؤهم لمقابلة قائد الفرقة العميد راضي الهنداوي، الذي تسلم هذا الموقع بعد اللواء علي الحياري:
١ ـ المقدم شاهر اليوسف ٢ ـ المقدم أحمد زعرور ٣ ـ المقدم محمود المعايطة
٤ ـ المقدم نايف الحديد ٥ ـ الرائد تركي الهنداوي ٦ ـ الرائد شوكت الشبول
٧ ـ النقيب جعفر الشامي ٨ ـ النقيب عبد الله قاعد ٩ ـ النقيب توفيق الحياري
١٠ ـ النقيب ضافي الجمعاني. وقد التقانا العميد راضي في نادي ضباط الفرقة. وكان تعاطفه معنا واضحاً. وتحدث إلينا حديثاً فيه تشجيع وليس فيه لوم. وذكّرنا بما جرى في إيران. وأبلغنا الأوامر التي أعطيت إليه لتنفيذها. وهي أنه علينا التزام منازلنا. ولما عدنا إلى هذه المنازل، وجدنا أن تلفوناتنا قد قطعت. هذا الأسلوب الناعم السلس، والمتدرّج للسيطرة على الوضع، يدلك على اليد الخبيرة التي تسيطر على الأمور في هذا البلد. حاول محمود إقناعي بالخروج من البلد. وكان شاهر متفقاً معه في هذا التوجه. ولكنني رفضت بإصرار. وذلك قبل وبعد لقائنا بقائد الفرقة. وقد سهلت السلطة لنا ذلك ولكل من يريد الخروج من البلد، فهو أمر يعفيها من الكثير من الإحراجات.



وإلى القارئ الواقعة الطريفة التالية التي تدل على هذا التوجه: عينت الجهات المسؤولة قادة للوحدات التي كنا نقودها. ومنهم الرائد عامر خماش، قائداً لسلاح المدفعية. وما إن وصل الرائد خماش إلى قيادة السلاح، حتى امتطى سيارة قائد السلاح (الفورد البيضاء) متوجهاً إلى عمان وعلم قائد سلاح المدفعية يرفرف على مقدمة السيارة، ماراً من باب المعسكر الذي كان يحرسه الانضباط العسكري. وكان يقف هناك المقدم كامل عبد القادر قائد الانضباط العسكري. فلما رأى السيارة مقبلة وعلم قائد السلاح على مقدمتها، فتح الطريق ولم يعترضها. وما إن خرجت السيارة من باب المعسكر حتى أمسك بالهاتف فرحاً، طالباً شخصاً معيناً في القيادة العامة. ولما أجابه المطلوب، قال بأعلى صوته (محمود الموسى فتشح) أي أن محمود الموسى هرب. فرد عليه الصوت من الطرف الأخر أن محمود الموسى هرب من أمس. فقال كامل عبد القادر: لا، (محمود الموسى المعايطة).

لقد كان محمود شديد الرغبة في الخروج من الأردن، ولكن عنادي الشديد حول هذا الأمر فوت عليه الفرصة. وإلى القارئ الواقعتين التاليتين اللتين تدلان على جانب هام من شخصيته. في اليوم التالي لالتزامنا بيوتنا، جاء المقدم كامل عبد القادر قائد الانضباط العسكري، إلى بيتي وطلب مني أن أصطحبه. ولما صعدت إلى سيارة (اللاندروفر) وجدت محمود يجلس على الكرسي الخلفي. فجلست بجانبه، ولما خرجنا من بوابة المعسكر التفت إلي وقال همساً، إن مسدسي في يدي، سأضعه في عنق كامل عبد القادر وأجعله يتجه بالسيارة إلى المفرق، ولم يكن مع قائد الانضباط العسكري إلّا السائق. فأجبته: لقد قلت أكثر من مرة إنني لن أخرج. وبعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ، وقد جمعنا في بناية في المطار العسكري مخصصة كمهاجع للجنود البريطانيين، وكنا جميعاً نسير على الممر الممتد امتداد العمارة، وكنت أسير وإياه، قال لي: اسمع، قلت ها، قال (إتشوف الخفير هذآك) قلت نعم، قال: أنا سأطلق النار على الخفير وعليك فوراً التقاط بندقيته. وكان الخفير يقف على رأس الدرج الذي يوصل إلينا وهو في متناول اليد دون إطلاق نار. وأضاف قائلاً: بعد ذلك سأطلق النار على الخفير الذي يقف على أسفل الدرج، وأستولي أنا على بندقيته. (وكان الجد والعزم واضحين على وجهه). وبعدها نهرب. وكانت العملية مستحيلة النجاح حتى لو كانت رغبتي في الهرب تساوي رغبته. فقلت: لو افترضنا أننا نجحنا بقتل الخفيرين وأخذ سلاحهما، كيف سنواجه السرية التي تطوق مقرنا، وهي في اللحظة التي تسمع

أول إطلاقة لن نصل إلى الخفير الذي في آخر الدرج، إلّا وكل البنادق مصوبة نحونا. ولو افترضنا أننا تمكنّا من الإفلات من طوق السرية واستطعنا الخروج من محيطها، فكيف سنواجه هذا الحشد، كتيبة المشاة الثالثة وإحدى سرايا كتيبة المدرعات الأولى، وعندها إن بقينا أحياء سنحاكم بتهمة القتل العمد لجنود ليس لهم ذنب سوى أنهم يؤدون واجباً أسند لهم.

لقد تبين لي بعد عام من هذا التاريخ أن رغبة محمود الشديدة في الخروج من الأردن كانت لها مبرراتها الصحيحة. لقد كان محمود يخاف واقعة إطلاق النار على المتمردين ومسؤوليته المباشرة بإعطاء الأوامر التي تسببت بقتل أعداد وجرح أعداد أخرى. وفي مجتمع مثل مجتمع الأردن في حينه، لا تزال التقاليد العشائرية بأعرافها وتقاليدها مكينة، يمكن للسلطة أن تحرض أهالي القتلى والجرحى وتضع المسؤولية على محمود، لتمتد المسؤولية بعد ذلك إلى عشيرته. وكان محقاً في هذا التخوف. ولو ذكّرني بهذا الأمر لتغير موقفي تماماً من الخروج من البلاد.

## الانتقال إلى مقر اعتقال جديد

وبعد يومين نقلونا إلى مقر جديد يقع إلى الغرب من طريق (المحطة ـ ماركا) (عمان ـ الزرقاء). وكانت عمارات ذات طابقين. وكانت كل عمارة تحتوي على شقتين، بنيت لسكن عوائل ضباط الصف البريطانيين. وكان وضع البنايات على شكل مستطيل.

وضعوا كل واحد منا في الطابق العلوي من الشقة، وفي الطابق الأرضي كان يسكن جنود الحراسة. وكان هناك ثماني بنايات تتكون من ست عشرة شقة، يسكنها في داخل السلك الشائك كل من: ضافي الجمعاني، وشاهر اليوسف، في الشقة التي إلى اليسار. محمود المعايطة ونايف الحديد في الشقة التي في الصدر أمام المدخل. وجعفر الشامي وأحمد زعرور في الشقة التي إلى اليمين. وبقية المعتقلين كانوا في البنايات مع امتداد الشارع، وشغل اللواء محمد المعايطة في الشقة التي كانت خارج المربع.





هذه العمارات كان لها مدخل واحد، وعلى امتداد المدخل وضعوا سلكاً شائكاً له فتحة، تفتح وتغلق بحاجز يقف عليه جندي مسلح. والبناية الوحيدة التي كانت خارج هذا السلك الشائك هي البناية المحتجز بها اللواء محمد المعايطة. وهناك واقعة تدل على جزء هام من شخصية محمود لا بد من ذكرها هنا. كان الوحيد منا نحن الضباط المحتجزين الذي يحرسه حارسان مسلحان هو محمود. أحدهما يقف على رأس الدرج أي أمام غرفته والآخر في آخر السلم. وفي أحد الأيام جاءت عائلة اللواء محمد وعائلة محمود، وهما أختان من أم واحدة، للزيارة. توقفتا على باب المدخل ليؤذن لهما، وكان باب المدخل يواجه تماماً المكان الذي يعتقل فيه محمود. وكان ينظر إليهما من الشباك، ويظهر أن (نهى) وهي ابنته الكبرى، رأته وهو ينظر إليهن، وكان عمرها لا يتجاوز الخمسة أعوام. فانفلتت من يد أمها، وركضت مسرعة متجهة نحوه، فلحق بها الحارس في منتصف الساحة، وأمسك بها، مانعاً إياها من الاستمرار. كل ذلك رآه محمود من شباك غرفته، فخرج عن طوره، ففتح باب الغرفة ودفع الحارس الذي على رأس سلم الدرج، ونزل مسرعاً، ولما رآه الحارس الذي في آخر درج السلم على هذا الشكل الهائج، أخلى له الطريق. ورأيته حينها من شباك غرفتي المطل على الساحة، يسير مسرعاً، حاسر الرأس، يلبس بيجامه لها (دكة) تتدلى و(روب) تملؤه الريح كأنه مظلة. فلما رآه الجندي الذي يمسك بالطفلة قادماً بسرعة على هذا الشكل ترك (نهى) وفر هارباً. أمسك بابنته إلى أن هدأ. بعد ذلك قادها بيدها إلى غرفته. هذا جانب مهم في شخصية محمود. ولا بد أن أتحدث عن الجوانب الأخرى في شخصيته، لأن محمود كان الشخص الوحيد القادر في ذلك الحين على تغيير اتجاه الأحداث لمصلحة الوطن، ومع ذلك لم يفعل، وقد قلت لماذا؟ إن محمود من عشيرة المعايطة في الكرك. والمعايطة والمجالي ينتمون إلى أصل واحد. جده ساهر المعايطة، أعدم بثورة الكرك التي لم يعدم من أجلها زعيمها (قدر المجالي) وسجن فيها جدي مبارك الجمعاني في دمشق. ولكنه لم يبق طويلاً في السجن. لم تكن طفولة محمود مثل طفولتي أو طفولة شاهر. فوالدته توفيت وهو صغير. وحينما أنهى دراسته في مدينة الكرك لم يستطع الذهاب إلى مدينة السلط لعام واحد، ليكمل الثالث الثانوي الذي كان في حينها نهاية الثانوية في الأردن. دخل الجيش كجندي لاسلكي وترك بعد فترة. وعمل في قسم المساحة في دائرة الأراضي، وترك دائرة الأراضي ليعمل موظفاً في أحد البنوك. ثم ترك هذه الوظيفة وعاد إلى

الجيش كمرشح ضابط. ساعده في ذلك شقيقه محمد الذي كان ضابطاً في الجيش في ذلك الحين. والعودة هذه بتقديري لم تكن بدون ثمن. إن محمود ذكي وشهم شديد الاعتزاز بنفسه. ثقافته الفكرية والسياسية في تلك الفترة غير بينة. العشائرية لها أساس في تكوينه. قادر على بناء علاقات مع شخصيات متعارضة وحتى متناقضة في الفكر والمواقف السياسية. عداوته متطرفة وصداقته حميمة، بسيط حتى التساهل في بعض الأحيان. إذا طار مع غير سربه يسهل اصطياده. إن أبو ساهر رفيق عزيز، والحقيقة أنه رفيق عمر. فمرحلتنا المشتركة منذ عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٧١ حين اعتقالي، وما تخلل هذه المدة من أحداث ومواقف صعبة، لم يجر بيني وبينه أي خلاف يؤدي إلى القطيعة. حتى ونحن على طريق الافتراق في منتصف عام ١٩٧١، لم يفرق رفعت الأسد بين موقفينا في ذلك الحين. فأرسل ناقلة جنود من سرايا الدفاع التي كان يقودها، وحال خروجنا نحن الاثنين من قيادة الصاعقة إلى (أوتوستراد المزة) تبعتنا سيارة. وحين وصلنا إلى نهاية الطريق، أدار محمود السيارة قاصداً العودة. وفي لحظة دورانه بالسيارة إلى اليسار، صدمت السيارة صدمة قوية في جانبها الأيسر الخلفي. فدارت السيارة على نفسها أكثر من مرة وحطت واقفة. لم أصب أنا وجرح محمود في وجهه. إن افتراقنا عام ١٩٧٠ تم بعد حركة تشرين التي تسلم خلالها الرئيس الأسد السلطة في سورية. كان هذا الافتراق طبيعياً. فلقد كنا مختلفين فكرياً وسياسياً منذ أن تحول تنظيم الضباط عن الهدف الأساس الذي من أجله أقيم هذا التنظيم، إلى هدف فرعي هو (تعريب الجيش). ولكن ظروف المرحلة وطبيعة القوى الفاعلة فيها عربياً ودولياً، وكذلك العلاقات التاريخية بيننا جعلتنا قادرين على السير معاً حتى منتصف عام ١٩٧١ حين دخولي سجن المزة.

والصحيح أن الافتراق حدث بعد انقلاب الرئيس الأسد في ١٦ تشرين عام ١٩٧٠. فقد وقف محمود إلى جانب الانقلابيين، ولم يكن بعيداً عن الحقيقة حينما قال لي محاولاً تفسير موقفه، إنهم كلهم مثل بعضهم. الذين ذهبوا إلى السجن أو الذين تولوا السلطة. وهذا تعميم تبريري وفيه الكثير من التجني. لأنه لا يمكن أن يكون كل الذين ذهبوا إلى السجن مثل الذين تولوا السلطة. وإلا لما كان هناك مبرر للانقسام. نعم كان هناك بين الذين ذهبوا إلى السجن من ساهم بفعل جاد وعامد بإيصال السياسة السورية إلى نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة. ولكن كان بينهم قوميون



شرفاء شكلوا عائقاً جدياً أمام هذا الهدف المقصود وأخص بالذكر (محمد عيد عشاوي ويوسف زعين وفوزي رضا).

إن الذين تولوا السلطة هم أدوات التصفية لمرحلة آذار وحتى «الحركة التصحيحية». فتسلم الفريق الأسد السلطة هو نهاية مرحلة تاريخية في سورية والإقليم وبداية مرحلة جديدة تتوافق تماماً وسياسة المعسكرين. وهي من أهم الصفقات التي جرت في تلك المرحلة بين الـ (K.G.B) وال (C.I.A).

لقد قال بعضهم إن محمود استغلني، وهذا قول مردود. إن محمود لا يستطيع أن يستغل أحداً، بل كان موضع الاستغلال بشع وحقير، من أقرب الناس ومن أبعدهم. من عمران المعايطة وحتى الملك حسين وما بينهما. أما أنا فموقفي منذ التزامي واضح. صحيح أنني لم استطع إقناع رفاقي، بمن فيهم محمود وشاهر، ولكن لا شاهر ولا محمود كانا سبب ذلك.

في إحدى دورات المجلس الوطني الفلسطيني التي كانت تعقد في القاهرة، دعانا الأستاذ عبد الله الريماوي إلى الغداء أنا ورفاقي ممثلي منظمة الصاعقة في المجلس الوطني، ودعوناه نحن بعد ذلك إلى الغداء في فندق سميرا ميس، حيث كنت أسكن. وفي المرتين سأله الرفيق حسن الخطيب عن أحداث عام ١٩٥٧ في الأردن. وفي المرتين كان جواب الأستاذ عبد الله واحداً (اسأل محمود) لماذا محمود ـ وهو لم يكن أميناً لقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في الأردن، ولا رئيساً للجنة العسكرية؟ لماذا لم يقل الأستاذ عبد الله: اسأل قيادة الحزب القومية؟ وقد افترق عنها منذ زمن، لماذا لم يقل إن موقف قيادة قطر الأردن للحزب كان (كذا وكذا)؟ لماذا لا يوضح أحداثاً مصيرية جرت على ساحة الأردن في مرحلة ـ نضالية سابقة؟ وكان دوره رئيسياً فيها، لرفيق مناضل يخوض تجربة جديدة. لماذا يختزل كل قول حول هذه التجربة، وهو قول كثير، بكلمتين (اسأل محمود)؟ (لأنه دين مستور). إن الجهة الوحيدة المسؤولة عن تقييم الواقع السياسي في كل مناحيه ومن ثم تقدير الموقف في حينه (هي قيادة قطر الأردن). لتأتي بعد ذلك كيفية مواجهة هذا الموقف. لنحدد بعد ذلك واجبات الجهاز الحزبي ومسؤوليات الأشخاص المسؤولين عن تنفيذ هذه الواجبات. ومن الجهاز الحزبي بالطبع اللجنة العسكرية التابعة لقيادة القطر، والتي كان على القيادة القطرية

مجتمعة أو بواسطة أمين سرها الأستاذ عبد الله، إعطاؤها واجباتها ومسؤولياتها المحددة والمبنية على قرارات القيادة، لأنها الأداة الأساسية في حينه لمواجهة الواقع المضاد للديموقراطية المتجه للسيطرة على الأردن آنذاك. وحينها لن يكون أمام شاهر ولا محمود ولا ضافي إلّا واحد من اثنين، إما الالتزام أو عدمه، ويتحمل المسؤولية حينها كما يحملها إياه الأستاذ عبد الله عسفاً. إنني لا أدافع عن محمود، فلمحمود زلاته الكبيرة، ولكن ما كان لمحمود أو شاهر أو لغيرهما من أعضاء اللجنة العسكرية أن يتعاملوا مع الواقع الخطر بهذا الأسلوب التآمري، الذي قاد إلى التعارض بين مراكز القوى الوطنية، لو كان هناك قرار واضح في قيادة الحزب، بغض النظر عن مضمون هذا القرار، إن كان بالتصدي أو الاستسلام، يكون في ذلك شاهد للتاريخ على مدى الالتزام أو عكس ذلك. أما حينما تترك الأمور في واقع مثل واقع الأردن السياسي في ذلك الحين دون وضوح ودون تقدير للواجبات والمسؤوليات، تصبح الساحة ميداناً لكل ذي حيلة مضادة للوطن. حينها لا يجوز القول (اسأل فلان واسأل علان). والحقيقة الموضوعية أنك لا تستطيع توجيه اللوم إلى أحد. فنحن أمة انفصلت عن حقيقتها منذ قرون عديدة، وأصبحنا مطمحاً ومطمعاً لكل طامع في هذا العالم، شرقه وغربه. فمنذ سقوط بغداد ــ حتى سقوط خلافة بني عثمان صرنا وما زلنا (تركة رجل أوروبا المريض)، الذي ما إن مات حتى تقاسمَنا الذين ورثوه (الإنكليز والفرنسيون). فجزّأوا بلادنا إلى دويلات، واقتطعوا جزءاً حياً من جسمنا، من لحمنا ودمنا، وجثموا من خلاله على صدورنا، ونصّبوا مواليهم علينا قادة، وزرعوا في واقعنا تحت كل حجر صغير (عقرباً) (وفي كل حجر كبير أفعى)، وصاروا يخلقون لنا من الشبه أربعين. هكذا كان واقعنا كعرب في تلك المرحلة. لقد قال صدام حسين وهو لم يكن في قمة السلطة: إن على ظهر العراق من الجواسيس والمشبوهين، بقدر ما على سطحه وجوفه من خيرات. فإذا كان هذا هو واقع العراق، الباني للحضارات والقادر على بناء القوة من ذاته، فكيف ببلد صغير فقير كالأردن، غير مؤهل أصلاً أن يكون قوة من ذاته. ومن هنا فإن اللوم باطل، وإن هي إلّا مرحلة لا بد من السير خلالها إلى مراحل أخرى، تتراكم خلالها الخبرات والمعارف ثمناً للتضحيات التي سيقدمها شعب هذه الأمة.

## هيئة التحقيق

بعد إيداعنا المعتقل، تشكلت هيئة تحقيق عسكرية برئاسة العميد عزت حسن غندور،





وعضوية عقيدين أحدهما كان العقيد محمد توفيق الروسان الشهير بـ(أبي الحكم). وقد زاد في تعقيد القضية خروج نذير إلى دمشق. هذا الخروج قطع الخيط الذي كان يربط السلسلة حتى نهايتها. ومن هنا كانت مهمة هيئة التحقيق العسكرية صعبة وشديدة التعقيد. فهم كانوا يريدون أن يثبتوا أنه كان هناك مؤامرة على النظام، والنظام ومن وراءه، هو الذي حرك الأحداث في كل اتجاهاتها المتناسقة والمتعارضة. فهو الذي أخرج رئيس الأركان اللواء علي أبو نوار من البلاد. ودوره أساسي في خلق الحالة التي كانت عليها البلاد. وبالتأكيد أنه هو الذي أخرج النقيب نذير رشيد قائد المدرعات الأولى من البلاد، (فالنظام لا تنقصه الحيلة وفي صفّه كل هذه القوى القادرة). ودور النقيب نذير رشيد، هو الأساس الذي ستبنى عليه المؤامرة منطقياً وقانونياً. ولكن النظام كان معنياً أولاً بنتيجة الصراع. وحينما ينتهي الصراع لصالحه، حينها يستطيع أن يخلق المؤامرة التي يريد ويضع أركانها، بل وأشخاصها على هواه وقد فعل.

ولما لم تستطع هيئة التحقيق العسكرية ترتيب قضية المؤامرة هذه ووضعها في قالب منطقي وقانوني، دعموها بشخصيتين قانونيتين، أحدهما قاض في إحدى محاكم البداية، اختاره الأستاذ بهجت التلهوني لهذه المهمة، والثاني كان مدعياً عاماً في مدينة القدس، لم أعد أذكر اسمه.

استدعيت إلى التحقيق والمقدم معن أبو نوار (قائد لواء الأميرة عالية) الذي جرت فيه حالة الشغب والتمرد. وكانت هيئة التحقيق تنعقد في مركز تدريب العبدلي في غرفتين على صف واحد وأمامهما ممر. فور وصولنا استدعي المقدم معن أبو نوار إلى التحقيق وانتظرت في الغرفة المجاورة. وبعد أقل من عشر دقائق، سمعت المقدم معن يصيح بصوت عال، (الله أكبر، الله أكبر) وهو يقف في الممر مباشرة. بعد هذه التكبيرة استدعوني إلى غرفة التحقيق واستقبلوني بوجوه باسمة، وأخص بذلك العميد عزت، وعندما أصبحت في مواجهتهم قال العميد عزت بالحرف قاصداً إسماعي هذا القول: إنني أعرف أن هذا (الجبان)، لا علاقة له بالمؤامرة، وإنما قصدي أن أخيفه. ثم قام بتوجيه الأسئلة إليّ وإفادتي موثقة. وكان السؤال الأول هو: ماذا تعرف عن المؤامرة، أو ما هي معلوماتك عن المؤامرة؟ فكان جوابي، إنني لا أعلم إن كان هنالك مؤامرة. وذكرت لهم أين كنت في ليلة الأحداث. وقلت لهم، إن إنساناً مشتركاً في مؤامرة أو على اطلاع إن كان هناك مؤامرة يجري تنفيذها، لا يمكن أن يكون في المكان الذي

كنت فيه أثناء تنفيذ المؤامرة، فسألني العقيد محمد توفيق الروسان السؤال التالي: ما هي معرفتك بتنظيم الضباط الأحرار، وهل هناك تنظيم بهذا الاسم؟ قلت نعم، هناك تنظيم باسم تنظيم الضباط الأحرار في الجيش كان قائماً قبل إقالة الفريق كلوب، واستمر قائماً بعد ذلك. ثم سألني عن قولي أمام الكتيبة (نحن لا نعبد أصناماً) فارتبكت. ثم سألني عن واقعة رفض أحد الضباط للأمر الذي أعطيته بخروج الكتيبة (لمشروع تدريبي) وردي عليه. فأجبته بأنها صحيحة. وسألني السلوادي مدعي عام القدس وعضو هيئة التحقيق، سؤالاً تبين لي فيما بعد أنه سؤال خبيث وخطير، قال: هل تحسبتم واستعديتم للدفاع عن أنفسكم؟ وكوننا لم نفعل ذلك، أجبته بالنفي. هذه الأسئلة، تدل على أنهم كانوا على معرفة دقيقة بالذي جرى في اليوم التالي، حين التقيت بمحمود وأحمد بكتيبة مدفعية الميدان الخامسة. وبعد أن انتهى التحقيق: دعونا لتناول الشاي معهم، وعلى وجبة الشاي هذه، قال العميد عزت رئيس هيئة التحقيق: إنكم لستم أنتم المتآمرين، المتآمرون هم الذين فروا. فارتاحت نفسي بهذا القول. هذا هو الذي أتذكره من ذلك التحقيق. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بالنسبة إليّ، فهناك واقعة غريبة لا بد من ذكرها، لا أعرف ما هي الأسباب والمعطيات التي كانت لدى اللواء (في حينه) حابس المجالي رئيس الأركان، لكي يستدعي بعض شيوخ بني حميدة، العشيرة التي أنتمي إليها، إلى القيادة العامة للجيش؟ ومن ثم يأتوا بي من مكان الاعتقال ويجمعوني بهم في مكتب رئيس الأركان وبحضوره، وهم الشيخ الشراري الرواحنه، النائب في البرلمان في ذلك الحين، والشيخ كساب الشخابنة الذي أنتمي وإياه إلى فرع عشائري واحد، والشيخ مسلم أبو قعود. ولما جلست دون أن أصافحهم، خاطبني (أخو خضرا) اللواء حابس، قائلاً: يا ضافي هؤلاء شيوخ بني حميده، طلبت حضورهم حتى يكونوا شهوداً على ما سأقوله لك، وأيضاً (اكفلا وضامنين لما سأعرضه عليك)، والعرض هو أن تكون شاهد ملك على المؤامرة والمتآمرين. ولن يجري عليك أي أمر، وتعود للجيش مكرماً. فنظرت إلى الرجال الجالسين أمامي واحداً واحداً (نظرة عتب) ولما وصلت بنظري إلى كساب الشخابنة، رفع حاجبيه إلى الأعلى، الإشارة التي تعني: إياك. فأكبرت ذلك فيه. طبعاً كان تحقيق ما طلبه حابس أمراً مستحيلاً بالنسبة إليّ قبل التحقيق، فكيف والتحقيق قد انتهى. فأجبته أنني لا أعرف إن كان هناك مؤامرة، ولذلك لا أعرف المتآمرين، ولا بد أنك تعرف أين كنت في ليلة الأحداث، ولا يعقل لرجل يعلم عن مؤامرة ومشترك فيها، أن





يكون في الوضع الذي كنت عليه تلك الليلة. وبعد هذا القول خرجت من اللقاء.

## الاتهام

سلّمنا الادعاء العام لائحة الاتهام، والتي نصت في فقرتها الأولى على الشروع في قلب نظام الحكم، وعقوبتها الإعدام. وكان بين المعتقلين الرائد عبد الله الصعوب، المستشار القانوني في رئاسة الأركان سابقاً. فسألناه رأيه في لائحة الاتهام تلك، وكان رأيه طريفاً، ولهذا أذكره هنا. قال: إن لائحة الاتهام هذه لا تصلح أساساً لواقعة سطو على (مقثاه). وكان المعتقلون هم السادة:

١ ـ اللواء محمد المعايطة ٢ ـ المقدم شاهر اليوسف ٣ ـ المقدم أحمد زعرور ٤ ـ المقدم محمود المعايطة ٥ ـ المقدم نايف الحديد ٦ ـ الرائد تركي الهنداوي ٧ ـ الرائد شوكت الشبول ٨ ـ الرائد عصمت رمزي ٩ ـ الرائد عبد الله الصعوب ١٠ ـ النقيب ضافي الجمعاني ١١ ـ النقيب توفيق الحياري ١٢ ـ النقيب عبد الله قاعد ١٣ ـ النقيب جعفر الشامي ١٤ ـ الملازم الأول كريم عقله ١٥ ـ المقدم معن أبو نوار.

لم يقدم إلى هذه المحكمة كل من: (الرائد عصمت رمزي والرائد عبد الله الصعوب وكذلك المقدم معن أبو نوار).

## المحكمة والمحاكمة

تشكّلت المحكمة برئاسة العقيد عكاش الزبن وعضوية ثلاثة عقداء. أحدهم العقيد عبد الكريم البرغوثي (مدير الأمن العام فيما بعد)، وهو حقوقي، وعقيد من العريقات، أما الثالث فلا أذكره. وكان (الجهات العليا) كلفت العميد فواز ماهر برئاسة هذه المحكمة، ولكنه رفض تحمل تبعات هذه المحاكمة. وتحملها العقيد عكاش الزبن. إن الذين اختاروا العقيد (عكاش) لهذه المهمة، اختاروه لسببين، الأول أنه مطواع لآمريه والثاني لأنه من عشيرة قوية في الأردن، وهي عشيرة بني صخر، (وتنقصه صلابة أهله). نقول عندنا (ثلثين الولد لخاله). إن والد عكاش هو حتمل ابن زبن، من

أبرز وجوه بني صخر، وأبرز شخصية في حينه، في فرع الزبن من الصخور. وكان قاضياً عشائرياً ومتمكناً. أما والدته فأصلها غير معروف. جاء بها حتمل ابن زبن في إحدى غزواته، اسمها (بدرا). ويطلق الصخور عادة والزبن خاصة عليه وعلى أخيه (هويمل) وهو اسم على مسمى. (اعيال بدرا) هذا هو رئيس المحكمة. ولذلك فلا المحكمة ولا المحاكمة كانتا ذواتي قيمة تراثية. ولكنهما كانتا ذواتي دلالة على طبيعة الأمور ونوعية القائمين عليها. إن أسماء أعضاء المحكمة والادعاء العام والمحامين والشهود ووثائق المحكمة كلها موجودة في القيادة العامة للقوات المسلحة. وأنا في وضعي الحالي (في سجن المزة)، لا أستطيع أن أتذكر إلّا جزءاً يسيراً. ومن هنا لا بد من الرجوع إلى هذه الوثائق، حتى تكتمل الصورة من القضاة والادعاء العام والمحامين والشهود، وهذه الصورة تعطيك دلالات واضحة على النهج الجديد للسلطة. إرهاب، تزوير، إفساد لمصلحة الرؤية المستقبلية للواقع كما ينوون خلقه.

وهناك مفارقتان لا بد أن أذكرهما هنا، أولاهما أن جميع الضباط الذين قدموا إلى المحاكمة هم من شرقي الأردن. والثانية أن جميع المحامين الذين تطوعوا للدفاع عنهم هم من فلسطين. ولم يكن بينهم محام واحد من شرقي الأردن. أما المفارقة الأولى فأسبابها معروفة وهي أن العنصر الفلسطيني بين رتبة نقيب إلى رتبة مقدم كانت تقريباً غير موجودة في القوات المسلحة. فأكثرهم في الرتب العليا التي التحقت بالجيش بعد حل قوة حدود شرقي الأردن والبوليس الفلسطيني. ولم يكن المدى الزمني كافياً لمن التحق بالجيش من الفلسطينيين بعد وحدة الضفتين الوصول إلى أعلى من رتبة ملازم أول. أما المفارقة الثانية فهي أنه لم يكن بين المحامين الذين تطوعوا عنا ولا محام من أصل شرق أردني فهي غير مفهومة (إلا إذا اعتبرنا أهل شرقي الأردن هم (رعية سيدنا) في حينه، فمن غضب عليه، غضبوا عليه). وقد تطوع للدفاع عنا أربعة محامين، هم: الأستاذ أنور نسيبة وزير الدفاع الأسبق والوزير لأكثر من مرة، والأستاذ عزيز شجاوه والأستاذ حوا. وكان أبرزهم الأستاذ نسيبة. كان دفاعه قوياً ويتمتع بكفاءة عالية في مناقشة الشهود، من خلال فضح النوايا المبيتة التي لا تستند إلى القانون. وأجبرتهم أجهزة أمن الدولة على التخلي عن الدفاع عن المتهمين، بعد أن أيقنوا أن لا جدوى من الدفاع أمام هكذا محكمة، إذا كانوا يريدون أن يبقوا أمناء على شرف المهنة. ولهذا أعلنوا انسحابهم.





## الشاهد الذي أسقط تهمة الشروع في قلب نظام الحكم

لقد وجه الادعاء العام تهمة الشروع في قلب نظام الحكم إلى المتهمين، وعقوبتها الإعدام. وفي أول شهادة أدلى بها أحد قادة سرايا كتيبة المدرعات الأولى، وهو شاب برتبة ملازم ثانٍ من بني خالد في شمال الأردن، انصبت شهادته على الأوامر الصريحة التي أعطاها إياهم قائد كتيبة المدرعات الأولى النقيب نذير رشيد، حول تطويق القصر الملكي. وبعد أن أنهى شهادته، وجه إليه عضو المحكمة العقيد عبد الكريم البرغوثي سؤالاً، مضمونه من هي الجهة التي أعطتكم الأمر بالتحرك إلى القصر الملكي ليلة ١٣ ــ ١٩٥٧/٤/١٤، ولماذا كان هذا التحرك؟ فأجاب الشاهد بزهو: تحركنا نحن من أنفسنا لحماية الملك من المؤامرة. وهو صادق في الجانب الأهم بالنسبة لنا (أي أنه لم يتحرك بناء على أوامر قائد الكتيبة). إلّا أنه كان كاذباً في الجانب الثاني من الإجابة، لأنه لم يتحرك من ذاته ولكن بناءً على إيعاز. وعلى هذه الشهادة كانت كل شهادات ضباط وقادة وسرايا المدرعات الأولى.

وكان أبرز الشهود المدنيين رئيس الوزراء الأسبق السيد سعيد المفتي، والذي ذكرت مبرر شهادته، والسيد عاكف الفايز الذي لا أتذكر سبب شهادته ولا مضمونها. ولكني أعرف أن أبرز ضابطين حرصا على التمرد في لواء الأميرة عالية، كانوا من بني صخر. أما الشاهد المدني الثالث فكان الأستاذ مدحت جمعة، مدير الإذاعة الأردنية، وشهادته كانت كلها ضد الأستاذ عبد الله الريماوي، وحزب البعث العربي الاشتراكي. أما أبرز الشهود العسكريين، فكانا العميد صادق الشرع مدير هيئة الأركان سابقاً في حينه والنقيب بطرس حمارنة. وأهم ما ورد في شهادة العميد، هو أن اللواء علي أبو نوار رئيس الأركان السابق، حاول القيام بانقلاب عسكري، «والإثبات الأهم هو العلم الموجود أمامكم على الطاولة، كدليل مادي على ذلك».

حينما سأله العقيد عبد الكريم البرغوثي عضو المحكمة: أليس هذا العلم هو علم المملكة الأردنية الهاشمية؟ أجاب العميد صادق بصلافة بـ «لا»، ولما أصر عضو المحكمة على سؤاله قائلاً: أليس هذا التاج الذي في رأس العلم هو التاج الملكي؟ ردّ العميد صادق بصيغة يكفيك أسئلة، قائلاً: لا، إن علم المملكة الأردنية الهاشمية لا يحيط به هدب مذهب. أما شهادة النقيب بطرس حمارنة، فقد انصبّت ضد حزب

البعث العربي الاشتراكي والنشاط البعثي في الجيش. وبعد أن انتهى الشهود من الادلاء بشهاداتهم سأل رئيس المحكمة من المتهمين إن كان هناك ما يريدون قوله، ومع أننا كنا قد قررنا الامتناع عن الدفاع عن أنفسنا، إلّا أن محمود قال كلمته. ومن بعده قال الكثير من المتهمين كلماتهم ومنهم أنا.

وكان دفاع محمود هو الأهم. وملخص ما قاله أن إفادات الشهود ملفقة. وانصب هذا النقد على شهادة جندي من مدينة المزار في محافظة الكرك. هذا الجندي كان من ملاك الكتيبة التي كنت أقودها، حكمته بالسجن أربعين يوماً قبل اعتقالي بيومين، لأنه كان يتجول في الكتيبة محتزماً (شبرية)، يحرض الجنود على التظاهر تأييداً للملك. وكانت شهادة هذا الجندي، هي الوحيدة التي تضمنت إشارة إلى الحقيقة. ومضمون الشهادة أنه من على شجرة عالية، تطل على منزلي الذي جرى فيه الاجتماع، رأى المتهمين وهم مجتمعون. لكنه نسج حول هذه الدلالة نسيجاً خيالياً حول المؤامرة والمتآمرين. وروايته يستحيل إثباتها. من أين جاء بها لا أعرف، ولكن الأمر الأكيد أنه كانت هناك جهة معينة في السلطة تعرف الحقيقة ولا تريد أن تكشف مصدرها. فالاجتماع بحد ذاته لا يشكل إثباتاً على المؤامرة، أما الأمر الأهم فهو استحالة رؤية المجتمعين وهم مجتمعون أو سماع ما يقولون من الجهات الأربع، حتى لو تواجد هذا الجندي في ساحة منزلي وارتقى أعلى الأشجار. فالاجتماع في صالون منزلي ومكان الاجتماع هذا يفصله عن باقي المنزل ممر عرضه متران – يحيط بالصالون من الجهات الثلاث (الشرق والشمال والغرب). أما من الجنوب فلا بد لك أن تدخل إلى باب الحديقة الذي يبعد أكثر من عشرة أمتار إلى درج يوصل إلى (برندا) عرضها ثلاثة أمتار، تغطي ثلاثة أرباع واجهة البيت مغطاة كاملاً بنبات المديدة، وهو حتى لو وجد في أي موقع إن كان على أسوار أو أشجار جيراني كما قال، أو حتى في ساحة منزلي فهو لا يستطيع أن يرى المجتمعين أو يسمعهم. من هنا جاء قول محمود: لو أن هذا الشاهد كان لديه منظار (جاليلو) لما استطاع أن يكشف ما قاله.

والعجيب في الأمر، أنه حينما جاء دوري في الكلام لم يرد في ذهني أنني يجب أن أرد على شهادة هذا الجندي، فأنا لم أعر شهادته ومضمونها أي اهتمام. بل نسيتها كلياً. لماذا؟ لا أعرف. ولو مرت ببالي واستنتجت بأنني يجب أن أرد عليها، لالتزمت بقرار (عدم الدفاع). فأنا ذو طبيعة ضعيفة أمام الحقيقة. وبهذا بعد أن جلست بعد





كلمتي التي لم يكن فيها ما يفيد، بل على العكس، نظر محمود إلى الخلف، إليّ مباشرة، نظرة استهجان ولوم، وفي ذهنه أن عدم تكذيبي لشهادة الشاهد، تعني أنني أعترف أن شهادته صحيحة. ولكن تبين له فيما بعد أن لا هذا الشاهد ولا غيره من الشهود،كانوا سبب سبب الحكم الجائر. إنها السياسة المستقبلية للأردن.

## الحكم

إن الحكم الذي صدر علينا لم يكن حكم محكمة تعتمد القانون أساساً للأحكام. بل هو حكم سياسي مبني على معرفة ذاتية للسلطان وأسياده ومن يلوذ بهم خلال مرحلة طويلة من التعامل والتعارف، استمرت منذ تعيين المقدم علي أبو نوار كبيراً لمرافقي الملك، حتى ليلة ١٢ – ١٩٥٧/٤/١٣ وما بينهما. وكان على محمود وغيره أن يعوا هذه الحقيقة. حقيقة الواقع ومسار الأحداث. لا يكفي أن تقطع أحد الخيوط لطمس الحقيقة. فالملك وعلي أبو نوار وغيرهم يعرفون أن نذير هو جزء من قيادة معروفة بالجيش. وما قام به، بغض النظر لمصلحة من، لا بد أن يكون له صلة بهذه القيادة، وخط هذه القيادة السياسي واضح، وهو مضاد لتوجه الملك حسين في الحكم. ولهذا جاء حكم المحكمة ذا شقين. الحكم بالمؤبد على المتآمرين الذين هم خارج البلاد، اللواء علي أبو نوار والأستاذ عبد الله الريماوي والنقيب نذير رشيد. أما الشق الثاني وهو الحكم المصمم الذي استهدف قياديي تنظيم الضباط الأحرار، ولا أحد غيرهم. وأقول لا أحد غيرهم، لأن المقدم نايف الحديد قائد السلاح المدرع الذي كان له موقف متميز أثناء الأزمة بوقوفه إلى جانب حكومة الديموقراطية، برّأته المحكمة لكونه لم يكن عضواً في قيادة تنظيم الضباط. وللسبب نفسه برأت المحكمة النقيب توفيق الحياري قائد إحدى كتائب الدبابات، وكان من المقربين للواء علي أبو نوار. والضابط الوحيد الذي حكمته المحكمة مع قياديي تنظيم الضباط هو الملازم الأول (كريم عقله) مساعد قائد كتيبة المدرعات الأولى، وهو من عرب السردية، شجاع وشهم. رفض الشهادة ضد قائد وحدته. لقد قررت المحكمة استناداً إلى مادة في قانون العقوبات، اعتبرتها تنطبق علينا، أن وجودنا على رأس وحداتنا قد شجع المتآمرين على التآمر، عقوبة هذه المادة هي من (٣ – ١٠) سنوات اعتقال. فوضعتنا محكمة (ولد بدرا) في كيس واحد وأعطتنا أقصى العقوبة، عشر سنوات اعتقال. وقد برأت المحكمة اللواء محمد المعايطة والذي لم يكن له ذنب سوى أن

أطراف اللعبة السياسية قرروا استغلاله. وهكذا أسدل ستار الزمن على مرحلة طلاؤها وطني ديموقراطي، كان يمكن أن تكون ذات مضمون وطني ديموقراطي، لنبدأ مرحلة قمع وإرهاب، فساد وإفساد وعبادة أصنام قادت إلى هزيمة عام ١٩٦٧.

في منفردات سجن المزة بدمشق، كانت مرحلة ما بعد عزل الفريق (كلوب) وحتى انقلاب الملك حسين على الديموقراطية، من أكثر المراحل السياسية وروداً على ذهني. وأنت حينما تكون منفرداً وتستعيد الأحداث، يرد على ذهنك أدق التفاصيل، وأكثرها وضوحاً. وقد ورد على ذهني سؤال طرحته على نفسي (وهو طبعاً: سؤال افتراضي)، لا يجوز أن تؤخذ نتائجه التحليلية موضوعياً، لكن معطيات الواقع العربي منذ عام (١٩٥٧ ـ ١٩٩٣)، تغري إنساناً مثلي كان أحد ضحايا معايشتها أن يقول: لو افترضنا أن النظام في الأردن قد أطيح به عام ١٩٥٧، فما هي النتائج التي ستترتب على هذا الحدث، ومردوده على الواقع العربي سلباً وإيجاباً؟ وأعود وأكرر أنني لست عدواً للملك حسين كإنسان بغض النظر عن أسلوب حكمه، والخط السياسي الذي انتهجه عربياً ـ ودولياً. لأنه ماذا يستطيع من يحكم الأردن، إن كان الملك حسين أو غيره، يؤمن بالأردن ككيان مستقل ويؤمن لذلك بأنه جزء من العالم الحر، كما يعلن الملك دوماً ويعمل من أجله، سوى أن يكون أسيراً لهذه الاستراتيجية المعادية لطموح العرب؟ أنا عدو للكيان الأردني ككيان مستقل، فالأردن جزء من نسيج واقع جغرافي وديموغرافي أريد له أن يتشظى، وتطمس حقيقته، ويستحيل عليه أن يكون وطناً مستقلاً خارج هذا النسيج، وخير من عبر عن هذه الحقيقة شاعر الأردن الكبير مصطفى وهبي التل (عرار) الذي قال:

يا هبر استقلالنا الكرتوني ... وربك أخرجني من ديني
فرحت بين الناس كالمجنون ... أسألهم عنهم فما دلوني
إلا على قعوار والخمار

(أي على اليأس في خمارة السيد قعوار)

أ ـ إن الأردن عقدة جغرافية في المشرق العربي بدون حلها أو قطعها، لا يمكن أن يأخذ هذا الواقع امتداده الطبيعي. فهذا الكيان اقتطع من سورية الطبيعية (كما





اقتطع غيره، ولكنه أكبرها خطراً). فهو يمنع سورية من الوصول إلى البحر الأحمر. ويفصل الجزيرة العربية والعراق عن فلسطين. ويفصل سورية عن الجزيرة العربية. وهذا الكيان الذي هو وفلسطين جزء من حقيقة جغرافية أكبر يفصل الأردن عن فلسطين.

ب ـ إن الأردن ككيان صغير وفقير ليس لديه مقومات الدولة وليس كالكيانات الصغيرة الموجودة في الوطن العربي، كلبنان والبحرين وقطر وغيرها، فهذه جميعها على الأطراف. أما هو، فهو في الصدر المواجه لأكبر الأخطار على الإنسان العربي ووطنه. وكونه لا يملك مادياً مقومات الدولة، فهو دوماً في حضن أخطر أعداء الأمة العربية مقاومة لنهوضها من عرب وغير عرب. ولا يلغي هذه الحقيقة آنذاك نداءات (جلالة سيدنا) المتكررة طلباً للعون المادي، لأنه يقف على أطول وأخطر الخطوط في مواجهة أعداء العرب. هذه المناداة اللحوح والمتكررة لا تلغي حقيقة الأردن الجغرافية (الجيوبوليتيكية) والمهمة الاستراتيجية للكيان الأردني. فمهما قُدِّم له من عون مادي وسياسي، فهو لن يستخدم إطلاقاً من أجل تقوية واقع الأردن، وجعْله يمتلك القوة من ذاته. خصوصاً إذا أتت من الجهات الأجنبية والعربية التي تعرف الأسباب الاستراتيجية لخلق واستمرار وجود هذا الكيان. كما أن هذه النداءات المستندة إلى نشاط سياسي واسع كان يقوم به الملك حسين ومن يعينه على ذلك يستهدف طمس حقيقة أهم، وهي أن الأردن، إنساناً وأرضاً جزء من حقيقة أكبر. إن إزالة النظام في الأردن، تعني ببساطة إزالة الهدف الاستراتيجي الذي من أجله وجد الكيان في شرقي الأردن، وتعني إزالة حاجز سياسي وأمني مدعوم بقوة من كل أعداء العرب ونهوضهم. ومن أهم هؤلاء الأعداء أو أهمهم الصهيونية العالمية، والبديل الوحيد لإزالة هذا الكيان هو أن يمتلك الأردنيون إرادتهم الحرة ليقرروا مصيرهم ومصير الأجيال القادمة من أبنائهم.

ومن هنا، من هذه النقطة المركزية جرى الصراع بين قوى الحرية وبين أعدائها في تلك المرحلة. ونكون بذلك قد هدمنا سداً مهماً من السدود الموجودة التي تمنع حركة انسياب التواصل العربي. إن إزالة النظام ستسقط أكثر من عامل مهم ومؤثر في لعبه الأردن ككيان، من خلال موقعه وواقعه ضد طموح شعب فلسطين في

استعادة حقه في أرضه وعليها، وسيفرض هذا الأمر سياسات دولية وعربية أكثر قبولاً ودعماً لحقوق شعب فلسطين. إن تغيير النظام في الأردن سيعطي دعماً أعمق وليس سطحياً لتوجيهات ثورة يوليو العروبية في مصر. ولن تكون الوحدة التي قامت بين مصر وسورية على نفس الأسس التي قادت إلى الانفصال، لأن الديموقراطية التي ستكون بديلاً عن الملكية المطلقة في الأردن ستتعزز، وستجد الديموقراطية التي كانت قائمة آنذاك في سورية، سنداً قوياً لمعارضة فهم الرئيس عبد الناصر لبناء الوحدة، والأهم أن حركة (فتح) التي لم تكن وجدت بعد في حينه، لا يمكن أن تتواجد في الأردن، لأنها لن تجد ساحة خالية من الفعل الوطني باتجاه فلسطين، ولا آذاناً صاغية لمقولات تقسيمية، ولا نظاماً كان من العوامل الاساسية للهزائم المتكررة أمام الصهيونية، وسيكون الطريق قد سد نهائياً في وجه الأنظمة والمنظمات التي قامت وقادت بتخطيط إلى هزيمة عام ١٩٦٧. وهذا الواقع لو كان قائماً، لقاد إلى تضامن عربي أكثر جدية، ولكان الواقع المحيط «بإسرائيل» متصل الحلقات، متوافق الدوافع. أما السلبيات التي يخافها الإنسان خارج الصورة (أي خارج الواقع)، فهي أن تجري تدخلات أجنبية دولية وإقليمية، تحاول إثارة الفوضى والاضطراب لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه. هذا الأمر تقف ضد وقوعه عوامل عديدة هي:

١) إن التغيير لم يأتِ نتيجة انقلاب عسكري قام به عسكريون لهم أهداف سياسية لا يعلم امتداداتها إلّا الله، والجهة الدولية صاحبة العلاقة. ولكنه نجم عن الصراع بين ملك يريد أن يكون سلطانه مطلقاً، وبين حكومة ديموقراطية تستند إلى أغلبية شرعية في مجلس نواب يمثل إرادة الناخبين وحقوق الملك الدستورية، في دستور المملكة الأردنية الهاشمية، (المفصل على المقاس) لن يكون لها قيمة في الصراع بين السلطة المطلقة والديموقراطية، حتى لو (وقفت) مع الملك كل إذاعات المستعمرين والصهاينة في حينه.

٢) إن أغلبية الشعب مع الديموقراطية، إن كان في فلسطين (الضفة الغربية) أو شرقي الأردن، والأغلبية الساحقة من الفلسطينيين، إن كانوا في فلسطين أو شرقي الأردن هم مع التغيير. وإذا ما استمرت الحكومة بإدارة شؤون البلاد مستندة إلى الأغلبية في مجلس النواب، فلن يكون هناك مشكلة داخلية يمكن





أن تستغلها القوى المعادية. وإذا ما أراد أحد ما الدخول في مغامرة (لعل وعسى)، فسيجد شعباً موحداً عركته المحن مستعداً لملاقاته.

٣) إن العامل الأخطر الذي كانت تخافه قيادة (تنظيم الضباط)، هو أن تستولي «إسرائيل» على ما تبقى من فلسطين، هذا الاستيلاء لو تم في ذلك الحين، سيخلق واقعاً في الساحة العربية يلغي كل المسار الذي قاد إلى هزيمة عام ١٩٦٧، وفي عام ١٩٥٧ لم تكن «إسرائيل» بقوة عام ١٩٦٧ - ولا مصر بضعف عام ١٩٦٧، وكانت قد خرجت من حرب السويس شاعرة بشعور المنتصر. ولم تكن أميركا في حينه تقف بالقوة نفسها خلف «إسرائيل». وموقف الاتحاد السوفياتي من العرب سيكون أقرب إلى موقعه القوي عام ١٩٥٧ في حرب السويس، من موقفه الضعيف عام ١٩٦٧، عام هزيمة حزيران. أما الخوف من تدخل العراق في ظل حكم نوري السعيد، فقد تبين بعد عام أن لا أحد يستطيع استخدام جيش العراق ضد الطموحات الوطنية لأي شعب عربي.

## إلى سجن عمان المركزي

بعد صدور الحكم مباشرة، أعادونا إلى مكان اعتقالنا. وفوجئنا أن جميع شبابيك الغرف التي كنا نسكنها قد وضع عليها شبك حديد مطرز بأسلاك شائكة، مع أننا لم نمكث بها بعد صدور الحكم إلّا الوقت الذي تمكنا خلاله من لملمة متاعنا، لننقل من هناك إلى سجن عمان المركزي، (وهنا تفارق محمود مع مسدسه) وسلمه إلى رقيب أول من عشيرة الحجايا كان رئيس فريق الحراسة عليه. وكون المحكمة كانت على عجلة من أمرها، وغير قادرة على التصرف خارج الأوامر المعطاة لها، فإنها لم تخبرنا كيف نتصرف تجاه الرتب العسكرية التي كنا نحملها. ولهذا أنزلناها نحن من على أكتافنا أمام باب سجن عمان المركزي دون أن يشير علينا أحد بذلك. إنني واقعاً لا أستطيع وصف الحالة النفسية والشعور العام الذي كان عليه المحكومون حينما أعلن رئيس المحكمة الحكم ونحن وقوف، ولكنه بالتأكيد لم يكن شعور جزع أو اهتزاز. وسأكتفي بالتعليق الذي قاله الملك حسين، وهو ينظر إلى الصور المنتقاة خصيصاً من بين عشرات الصور التي التقطت لنا ونحن وقوف نستمع إلى قرار المحكمة. هذه الصور المنتقاة لم تدخل السرور إلى نفس جلالته حينما لم ير في

صور هؤلاء الرجال جزعاً ولا ما شابه، بل رجالاً شديدي التماسك. قال قولته (على من يعتمد هؤلاء الناس). طبعاً لم يدخل في ذهن الملك حسين وهو بعد صغير السن، قليل الخبرة، أن هؤلاء الرجال الذين وقّروه، ليغدر بهم، كانوا معدين نفسياً ومعنوياً لما هو أسوأ من ذلك، ومن هذا فإن دخولهم السجن كان أهون الشرور.

## العيش في غرفة انتظار الإعدام

بعد الإجراءات العادية التي يجرونها مع كل سجين يدخل السجن، قادونا إلى غرفة هي الخامسة في هذا الصف الطويل، الواقع إلى يمينك وأنت تدخل من بوابة السجن الرئيسية. فكانت هذه الغرفة التي سكناها أسبوعاً، هي غرفة انتظار للذين سينفذ بهم حكم الإعدام شنقاً، فلها باب يفتح على غرفة المشنقة، وكانت ألواح هذا الباب الخشبية التي لم يبق منها الكثير ترينا المشنقة، وخندقها تحتها بوضوح.

طبعاً هذا الوضع السخيف كان مقصوداً به إرهابنا، وبهذا يكون قد انتهى واقع أمني ونفسي، عانيناه منذ أحداث ١٢ - ١٣ - ١٩٥٧.

هذا الواقع الجديد هو نهاية مرحلة عاصفة، استقرت في نهايته الأمور بالنسبة لنا. في اليوم التالي زارتني (أم موسى) أم أبنائي، وكانت في شهر حملها الأخير بابنتنا (كفاح)، وقد هالني الأسى البيّن على وجهها، فقد كان وجهها الأبيض شديد القتامة، مغطى بكثافة بالكلف الأسود الناتج من الحزن الشديد والخوف من المستقبل.

وقفت وإياها متقابلين في المكان المخصص للزيارات العامة، يفصل بيني وبينها حائط يرتفع حتى أدنى الصدر، يعلوه فاصل من الحديد المبروم أفقياً وعمودياً، يمتد على امتداد المكان، يفصل أفقياً بين القضيب والآخر مسافة (عشر سنتم)، ولهذا فالرؤيا بين السجين وزائره كانت واضحة، والمسافة قريبة والحديث مسموعاً ومنغصات الزيارة معدومة، (هذا قبل أن تزحف علينا حقوق الإنسان الأميركية). لم نتبادل الكثير من الحديث إذ لم يكن لدى أي منا ما يقوله للآخر، والزيارة فقط للاطمئنان.



## الانتقال إلى مكان سكن جديد

بعد أسبوع من دخولنا السجن نقلنا إلى مكان أفضل، إلى غرفة من أصل ثلاث غرف مستقلّة تقع إلى يسار بوابة السجن الرئيسية مباشرة، مسوَّرة بسور خاص. أنزلونا في الغرفة الأبعد وهي بمساحة الغرفة التي كنا نسكنها، بجانبها غرفة صغيره كان بها ثلاثة أشخاص، منهم الأستاذ حسن النابلسي، وهم متهمون بالشيوعية، وظهر أنه كان هناك نية في إخلاء سبيلهم مستقبلاً حينما تتهيأ الظروف. ولهذا لم يرسلوا إلى الجفر. والغرفة الأقرب إلى بوابة السجن، كان سكانها خمسة معتقلين بينهم الدكتور (منيف الرزاز)، والصيدلي (نزار جردانه). لقد حاولت القيادة العامة للجيش أن تفرض علينا أن نلبس لباس السجناء، إلّا أن مدير السجن في حينه النقيب محمد العمري، رفض ذلك الأمر وتحجج بحجة قانونية، قائلاً: إنني لا أستطيع أن أفرض عليهم ذلك، فالحكم الصادر بحقهم هو (الاعتقال) وهذا الحكم يمنحهم إمتياز اللباس والمعاملة، وقيل حينها أن الذي طلب ذلك، هو مدير هيئة الأركان، اللواء صادق الشرع، فاستغرب الكثير منا ذلك، لأنه لم يكن بين أي منا وبين اللواء صادق، لا عداء ولا احتكاك إساءة.

منذ اجتماعنا في سجن المحطة لم نتحدث حول ما جرى من أحداث قادت إلى ما صرنا إليه، لأن هذا الموضوع حساس جداً وسيقود إلى خلافات حادة وحتى إلى عداوات، ولذلك اكتفينا بمناقشة مستقبل الضباط. لقد كنا قادة هذا التنظيم، وهناك ضباط في الجيش لا زالوا ملتزمين به، فهل لا نزال نعتبر أنفسنا قادة له؟ قال شاهر: أنا أعتبر تنظيم الضباط منتهياً ومستقيلاً. نشاطي السياسي سيكون في صفوف حزب البعث، فقلت أنا: إن تنظيم الضباط، يجب أن يبقى قائماً، وهو لا يمنع الحزبيين من البقاء في صفوف أحزابهم، خاصة وأن هذا الأمر كان معمولاً به منذ ولادة (تنظيم الضباط). وتبين فيما بعد، أن رأي شاهر كان الأصح، لأنه لم يبق في صفوف جيش الملك حسين أي هامش، مهما كان ضيقاً للعمل الوطني، وأن التصفيات المتلاحقة التي جرت ووصلت في نهايتها إلى رأس اللواء صادق الشرع، أفرغت الجيش ليس فقط من أي عمل وطني، بل من أي فهم وطني.

لقد كان مكان سكنانا الجديد أكثر راحة، فهذا المكان كان منعزلاً عن بقية السجن،

وسكانه قليلي العدد وبيننا وبينهم معرفة. والأهم أن الممر الذي كان يمتد أمام الغرف وبعرض ثلاثة أمتار، كان مكاناً صالحاً للتنفس والمسير، وخلف هذا الممر كان هناك ممر آخر يقف فيه السجناء للقاء زوارهم، وكنا نحن نلتقي زوارنا في هذا المكان لفترة قصيرة قبل أن يسمحوا لنا بلقاء أهلنا في أحد مكاتب إدارة السجن.

وهنا لا بد أن أشير إلى واقعة كان يمكن تجاوزها لولا أنها ذات دلالة. زارتني والدتي مع (أم موسى) وكانت والدتي تلبس اللباس التقليدي للنساء عندنا في ذلك الحين، وتضع فوقه عباءة سوداء. ولما وقفت أمامي لم تصمد وانهارت على الأرض خلف الحاجز. حينها سمعت ضحكة من داخل الغرفة، فالتفتّ فرأيت الدكتور منيف الذي كان صاحب هذه الضحكة! فحزنت.

في سجن عمان المركزي كان يسمح في ذلك الحين بزيارة السجين من قبل أهله ومعارفه وأصدقائه، ولهذا زارني الشيخ (مسلم أبو قعود) بعد أقل من شهر من دخولنا هذا السجن. كانت هذه الزيارة التي استغربتها قصيرة جداً. صافحني.. وبعد أن جلسنا سألني عن أحوالي فقلت له: لا بأس، ثم قال قولاً مدح فيه (جلالة سيدنا). فأجبته إجابة نهض بعدها واقفاً ثم ولّى خارجاً، لأنه سمع ما جاء من أجله.

سارت بنا الحياة في وقعها الجديد بعد أن رتبنا كيفية سيرها، وصرنا نطبخ طعامنا بأنفسنا فالذين لا يعرفون الطبخ تعلموا والذين لم يكن لديهم قابلية التعلم (مثلي) استمروا (يجلون الصحون)، وكانت إدارة السجن تعطينا مخصصاتنا التموينية ونشتري ما نحتاج إليه إضافة إلى هذه المخصصات، وكان برنامجنا اليومي الذي لم يتغير منذ دخولنا السجن حتى خروجنا إلى معتقل الجفر هو التالي: تفتح علينا الأبواب الساعة السابعة صباحاً، لنخرج إلى المكان العام الذي يقضي به الإنسان إحدى حاجاته الطبيعية ـ ويسمونها (فوره)، وكنا نزور هذا المكان مرتين في اليوم صباحاً ومساء. وبعد أن نعود إلى غرفنا نحلق لحانا ونغسل وجوهنا. ومن ثم نفطر، وبعد الإفطار نخرج لـ (التنفس) في الممر الذي هو أمام غرفنا لمدة ساعة صباحاً ومساءً. وبعد هذا التنفس نعود إلى غرفنا، حيث وكان البعض منا يطالع والبعض يلعب الورق والبعض يتحادث مع رفيقة همساً. والمسؤولون عن إعداد الطعام في ذلك اليوم يقومون بذلك.





وكنا محمود وأنا نقضي وقتنا حينما لا تكون علينا مسؤوليات الإطعام، في غرفة الدكتور منيف ـ رحمه الله ـ نلعب (لعبة البريدج) وكنت ألعب شريكاً (لأبي مؤنس) ويلعب الأستاذ نزار مع شريك آخر ـ وكنت مبتدئاً في هذه اللعبة التي علمني إياها الدكتور منيف. وأن تكون شريكاً للدكتور منيف في لعبة (بريدج) لهي مهمة صعبة. فهو لا يغفر لك حتى وهو يعرف أنك مبتدئ في لعبة ورق صعبة، تحتاج إلى ممارسة طويلة وتفاهم مشترك مع شريكك في اللعبة، وطبعاً لم تكن هذه الشروط قد توفرّت بعد لدي. ولذلك كان صوته دائم الارتفاع (يا أخي). في هذه الفترة استطاع أبو نبيل (جعفر الشامي) أن يُدخل راديو صغيراً في إحدى زياراته، كان صلتنا الوحيدة مع عالم السياسة. في ذلك الحين تعرضنا إلى حملة تفتيش مفاجئة، قادها العقيد في حينه (محمد هاشم أبو هاشم) قائد منطقة البادية وفي معيته العقيد محمد السحيمات مدير المخابرات العسكرية، وكان من حسن حظنا أن أبو هاشم كان قائد الحملة (لواء فيما بعد ومدير للأمن العام) وهو رجل بسيط وعاطفي ويعرف الكثير منا معرفة جيدة. وحين دخل غرفتنا (بكى) وأدار وجهة إلى أن سيطر على مشاعره، ولهذا كان التفتيش عجولاً، فلم يكتشف أمر الراديو.

## الآمال والأوهام بعد دخولنا السجن

لم يكن لدينا أوهام حول قدرة الحركة الشعبية والوطنية في الجيش على تغيير الواقع في الأردن، فلم يعد الجيش في الأردن يشكل تهديداً من أي نوع لأمن النظام، ليس لأنه لم يكن في الجيش ضباط وطنيون. فقد بقي الكثير من الضباط الوطنيين في الجيش، ولكن الظرف لم يعد يسمح بالعمل التنظيمي، لأن هجوم السلطة الأمني ظل مستمراً وبقوة على أي نفس وطني في الجيش. والمعروف أن الجيش الأردني كما ذكرت في سياق هذه الذكريات، مكون تكويناً متوافقاً تماماً والهدف الذي من أجله أنشيء، وهو خدمة أهداف بريطانيا في شرق الأردن وما يحيط به، وكان اسمه الحقيقي حتى عزل الفريق (غلوب) هو (Arab Liegon)، وهذه التسمية تساوي في معناها ومضمونها التسمية الفرنسية للفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي. ولكن فرقة الإنكليز هذه خصصت للعرب ولا سيما عرب المشرق والأخص البدو منهم عشائر العراق ـ وسورية، ونجد والحجاز والأردن طبعاً. وكانت هذه الفرقة تستخدم في مهمات أمنية إن كانت في فلسطين أو كما حدث حين التدخل ضد ثورة (مايس) في

العراق ١٩٤١، أو حين نفذ هذا الجيش الرؤية البريطانية حول ما يجب أن يكون عليه الواقع في فلسطين عام ١٩٤٨.

وجيشٌ هذه مهماته، لا بد أن يكون تشكيله ومضمونه المعرفي في حدود هذه المهمات، أما هذه الفئة من الضباط الوطنيين الواعين، فهي نتاج مرحلة طويلة من التطور بدأت أثناء الحرب العالمية الثانية. فأثناء هذه الحرب، خصوصاً وهي على أشدها في شمال أفريقيا، حينما كان الإنكليز يتراجعون بسرعة أمام الألمان، فكر (كلوب باشا) وبعض الإداريين البريطانيين بإشراك وحدات من (الجيش العربي)، بالقتال في شمال أفريقيا. ومن هنا بدأ بتكوين كتائب في الجيش الأردني. وحينما انتهت الحرب ومن خلال الرؤية البريطانية للحفاظ على مصالحها، قامت بريطانيا بتشكيل حلف في المنطقة يضم دولاً عربية وإسلامية. ومن هذه النظرة (ولد حلف بغداد) وكان الأردن مرشحاً بقوة للدخول فيه. ومن هنا بنى البريطانيون فرقة مقاتلة في الجيش الأردني لتكون جزءاً من قوة هذا الحلف. وهذا التطور في واقع المجتمع واكبه تطور في نوعية السلاح والتسليح. فالأسلحة المساندة كالمدفعية والهندسة والدروع والاتصالات كلها تحتاج إلى عقل وثقافة قادرين على المعرفة، ومن هنا كانت عملية إبقاء الواقع في الجيش على ما هو عليه مستحيلة، وكانت العوامل الأهم في تطور الوعي الوطني في الجيش هو وضوح دور الاستعمار البريطاني بالنسبة للجندي، بدوياً أو حضرياً، أمياً أو مثقفاً، من خلال الاحتكاك المباشر تعايشاً، ومن بعد قتالاً في فلسطين.

إن دور المستعمرين الإنكليز كان الأساس في إعطاء فلسطين لليهود. وإنه لولا الإنكليز في الجيش وإدارة الأردن لاحتل الجيش الأردني مدينة القدس كل مدينة القدس. أما العامل الثاني فكان دخول عرب فلسطين إلى الجيش بعد وحدة الأردن مع ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية)، ومن هنا كانت الأسلحة المساندة كالمدفعية والهندسة، تشكل قاعدة وطنية مضمونة. أما الحركة الشعبية الأردنية وقواها السياسية، عدا عن كونها لم تكن تستهدف النظام، فهي لم تكن موحدة الهدف في الحدود الدنيا للعمل السياسي. فهي لم تلتق على برنامج عمل نضالي يعمل بجدية للحفاظ على الديموقراطية، فلم يكن في برنامج أي حزب من الأحزاب الموجودة السرية والعلنية مهمة الإطاحة بالنظام. ومهمة الإطاحة بالنظام، أمر لا يستطيعه إلّا الجيش وتنظيم الضباط بالذات. ولكن بدلاً من أن يقود هذا التنظيم





القوى السياسية إلى موقفه الداعي للحفاظ على الديموقراطية قادته هي إلى (اللاموقف) الموقف التي كانت عليه. وبتقديري الشخصي، لو أن أحداً من قادة تنظيم الضباط لم يكن منتمياً إلى الأحزاب، لكانوا طليقي التقدير والمبادرة، وأخص بذلك البعثيين منهم ليس لأن مبادئ البعث كانت عقبة، ولكن لأن القوامين على البعث كانوا هم العقبة.

ومن هنا فإن أمانينا كانت معلقة في حينه على مصر وعلى الرئيس جمال عبد الناصر، خاصة بعد خروج مصر سالمة من العدوان (الثلاثي) والموقع البارز الذي أخذته ثورة (٢٣ يوليو) في ذلك الحين والشعارات التي رفعتها والأهداف التي سعت إليها، وقد أعطى الصراع الذي خاضته مصر في حينه ضد ممثلي الاستعمار القديم (البريطاني والفرنسي) وضد الصهيونية موقعاً متميزاً لمصر في علاقاتها مع المعسكر الاشتراكي وفي تأسيس حركة عدم الانحياز، وموقفاً قيادياً في حركة التحرر العالمي وكذلك على الحكم الوطني الديموقراطي في سورية آنذاك، كون سورية تقف إلى جانب مصر وتدعم خطها السياسي عربياً ودولياً.

ولم يخيّب سير الأحداث أمانينا، فبعد أقل من عام من الانقلاب على الديموقراطية في الأردن، قامت الجمهورية العربية المتحدة. وهذا الحدث كان الأهم والأبرز في تاريخ العرب الحديث. منذ ثورة الحسين بن علي في عام ١٩١٦، وكانت فرحتنا به لا تساويها فرحة. وكانت ردة فعل الملك حسين على قيام الجمهورية العربية المتحدة فورية، فقد أصر على وحدة الأردن والعراق تحت مسمى (الاتحاد الهاشمي) وقد اعتُبر الاتحاد مؤشراً على أن الأردن قد دخل حلف بغداد، مع أن الحلف لم يعد له قيمه بعد (إذلال السويس)، ولذلك سقط حين تحرش نوري السعيد بالكويت. فإصرار نوري السعيد على أن تصبح الكويت جزءاً من هذا الحلف أودى بنوري السعيد وبهذا الاتحاد وبحلف بغداد. لقد قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بعد عام وشهر من دخولنا سجن عمان، وأطاحت بالرموز وبالعهود التي ذكرت. ومعهم إبراهيم هاشم رئيس وزراء الأردن. هذا الهامة الذي تجاوز الثمانين عاماً والذي شاء سوء حظه أن يكون في بغداد يوم الثورة، فقضي عليه مع عبد الإله ورهطه ـ وهو يستحق ذلك، لأنه كان أحد الجناة الرئيسيين في تنفيذ الدور الذي رسمه الإنكليز لإمارة شرق الأردن. وكانت الضربة موجعة للنظام، إلّا أن استراتيجية المستعمرين كانت تقضي حتى ذلك الحين بقاء النظام في الأردن لأسباب تتعلق بمستقبل إسرائيل وفلسطين والتسوية.

فهب الأميركان والإنكليز لنجدته، فأنزل الأميركيون قواتهم في لبنان وأنزل الإنكليز قواتهم في الأردن مارة في الأجواء الإسرائيلية من قواعدها في قبرص، من أجل حماية نظام الملك حسين وغرسه. وهكذا يتضح أن الوحدة بين قطرين عربيين يحكمهما عملاء الاستعمار غير مسموح بها، وإن حدثت، فعليها أن تنتظر الفصل إن استطاعت الصهيونية والاستعمار إلى ذلك سبيلاً.

## إلى معتقل الجفر الصحراوي

بعد قرابة الأسبوع من ثورة ١٤ تموز في العراق وبعد أن دخل الاطمئنان إلى نفوس أهل النظام، التفتوا إلى داخل البيت لترتيب حاله، فصدرت التعليمات بنقل جميع المعتقلين السياسيين والمحكومين إلى سجن الجفر، وذلك لإيجاد أماكن للذين سيعتقلون إثر انهيار (الاتحاد الهاشمي).

يقع معتقل الجفر الصحراوي في جنوب الأردن على مسافة ثلاثمائة كيلومتر إلى الجنوب من عمان وعلى مسافة خمسين كيلومتراً إلى الشرق من مدينة معان، وهو معتقل أسسه كلوب، وقرر موقعه حينما كان قائداً لمنطقة البادية قبل أن يتولى قيادة الجيش العربي، وكلوب باشا هو أيضاً مؤسس معتقل (نقرة السلمان) الشهير جنوب العراق على الحدود العراقية ـ السعودية ـ الكويتية.

ففي مساء أحد الأيام حوالي الساعة الثامنة مساءً، أبلغت إدارة السجن جميع المعتقلين السياسيين والمحكومين الاستعداد للرحيل، وإثر ذلك علت ضجة شديدة في السجن، وكانت معنويات المعتقلين عالية ومعنويات أهل النظام في أدنى مستويات الانحطاط. بدأنا بترتيب وتوضيب متاعنا، وبعد أن هيأنا أنفسنا للرحيل واجهتنا مشكلة (الراديو) الذي ما كان يمكن تركه أو التهاون في الحفاظ عليه وإيصاله معنا إلى الجفر في هذه الظروف المهمة. اقترح أبو ساهر ونحن في جو من الحيرة، أن نضعه بين كتفيه فاعترضنا على ذلك لأننا كأشخاص سنتعرض للتفتيش الدقيق. واهتدينا أخيراً إلى حل مناسب: لقد كان لدينا علبة (TOFEE) طولها يساوي عشرين سنتمتراً وقاعدتها تتسع لحجم الراديو. فوضعنا الراديو في كيس ووضعناه في قاع العلبة وملأناها بالسكر. وبهذه الطريقة وصل الراديو إلى الجفر سالماً. أخرجوا متاعنا ووضعوه في السيارات.





ومن بعد أخذونا اثنين ـ اثنين، وكنت أنا ومحمود كالعادة، وحين أخرجونا أوقفونا خارج بوابة السجن وبدأوا بتقييدنا بقيود حديدية، اليد اليمنى باليد اليسرى للآخر والقدم اليمنى باليسرى كذلك. وفتشونا بعد ذلك تفتيشاً دقيقاً وأفرغوا جيوبنا من كل ما فيها (ومع كل هذا التفتيش ما كان للراديو أن يمر)، ثم أركبونا سيارات عسكرية لنقل الجنود. وبعد الساعة الحادية عشرة ليلاً سارت القافلة بحراسة عناصر من كتيبة المدرعات الأولى، سرنا طوال الليل على طريق صحراوي ترابي، وتوقفنا ربع ساعة قبيل الفجر لقضاء بعض حاجاتنا الطبيعية. ثم تابعنا مسيرنا ووصلنا الجفر حول الساعة الثامنة صباحاً، وبعد أن أنزلوا متاعنا أوقفونا في صف طويل على بوابة المعتقل تحرسنا (سرية مشاة) وأمرونا أن نجلس (القرفصاء)، فلما جلس جميع من كانوا أمامي جلست إلّا أن رفيقي (المحدد) معي وهو محمود لم يجلس، فمسكت يده وقلت له: لماذا لا تجلس؟ فرد علي بغضب (ما ودي أجلس). فمسكت يده وقلت له إجلس، هؤلاء الناس فقدو ملكاً وملكهم مهدد، أتظنهم يترددون في إهانة أي إنسان وحتى ذبحه إن هو تمرد على أوامرهم.

## معتقل الجفر الصحراوي

يقع المعتقل على أرض جرداء تعود إلى عشيرة (أبو تايه) من قبيلة الحويطات شيخها محمد أبو تايه ووالده الشيخ (عودة أبو تايه)، من أشهر شخصيات (أعمدة الحكمة السبعة) الذي ألفه (لورنس) عن الثورة العربية، وعشيرة الحويطات من أكبر عشائر الأردن، تقع ديارها بين جبال الشراه شمالاً وحتى العقبة جنوباً وتمتد شرقاً حتى الحدود السعودية، ولها امتدادات إلى نقب فلسطين وصحراء سيناء ومحافظة الشرقية في مصر. شيخها هو (حمد بن جازي).

أقيم المعتقل بالقرب من مخفر للبادية يقودة آنذاك النقيب (حماد القميزة)، والقميزة هو اسم أمه، وهو من بني صخر (الهقيش). يقع المخفر على رابية ليست مرتفعة تبعد عن المعتقل حوالى مائة وخمسين متراً وإلى الجنوب الغربي منه بئر ارتوازية تزود المخفر والمعتقل بالماء. وكان المعتقل يمتد طولياً من الغرب إلى الشرق حوالى مائتي متر ويقسم إلى قسمين، أصغرهما القسم الغربي، يفصل بينهما حائط عال علو السور المحيط بالمعتقل، وعلى التقاء كل ضلعين من أضلاع الصور يقوم برج للمراقبة

والحراسة. بعد التفتيش أنزلونا إلى الأماكن التي خصصوها لكل فئة من القوى السياسية، وقد أنزلونا القسم الشرقي من المعتقل، وكانت الأبنية الموجودة داخل هذا القسم من المعتقل أربع براكيات كبيرة وبراكيتين صغيرتين، وبناء للحمام وآخر للمراحيض والبراكيات كانت من النوع الذي يستخدمه الجيش البريطاني في معسكراته غير الدائمة، وهو على شكل الأقبية التراثية المعهودة تساوي مساحة الكبير منه (٧,٥ X ٤) متر والصغير (٥ X ٤) متر، وفرق المساحة لأن الكبير يحتوي مغسلة وحماماً ومرحاضاً هيكله العام مبني من ألواح (الزينكو) مغطى سطحه باللباد المنقوع بالقار يتماسك على ألواح الزينكو، قائم على أساس مبني من الأسمنت يعلو نصف متر عن سطح الأرض، وهو في الصيف حار وفي الشتاء قارس ليلاً كما هو حال مناخ منطقة صحراء الجفر. أسكنونا نحن الضباط التسعة في (براكية) صغيرة واحدة وأسكنوا الفئات السياسية الأخرى البراكيات الكبيرة. وكان يوجد في هذا المعتقل قبل وصولنا عدد قليل من المحكومين بالتجسس لحساب «إسرائيل». وبعد أن تعرفت إليهم وجدت أن الأكثرية أناس بسطاء فقراء وأميون، هم ضحية الاستغلال والعوز، كان أكثرهم يقوم بنشاط تهريب بين فلسطين المحتلة والضفة الغربية. وهم من الناس الذين يقعون بسهولة في مصيدة منظمة كجهاز المخابرات «الإسرائيلي». وبالتأكيد أن مساهماتهم في ضياع فلسطين ضئيلة جداً. فالجواسيس الذين قاموا بذلك معروفة مواقعهم.

## العيش في معتقل الجفر

إن الفارق بين العيش في معتقل الجفر وبين العيش في سجن المحطة أو أي سجن آخر (ليس بينهما بالتأكيد سجن المزة)، هو كالفارق بين العيش منفرداً (في منفردة) طولها متران وعرضها متر ونصف وما يترتب على هذا الواقع من عيش صعب ووضع غير إنساني، وبين مهجع به عشرون من رفاقك، وصور له ممرات عرضها متران على جهاته الثلاث وأمامه ساحة يمكن المسير بها والجلوس ولعب الورق مساحته الداخلية (١٥ X ٤) متر له منافع حديثة وحمام. هذه مواصفات (المهجع) الذي كنا نسكنه في الجفر. في معتقل الجفر تشعر أنك تملك هامشاً من الحرية تفتقده مجتمعاتنا في ظل الأحكام العرفية وأنظمة الطوارئ. فأنت تملك حريتك في مساحة كيلومترين مربعين، هذا المجتمع الصغير كأي مجتمع آخر، له واقع وبه مضمون حياتي يجب





أن ينظم وتتواجد فيه أنظمه وأساليب للعيش والمعايشة، ومن هنا كان علينا ونحن نعيش في هذا المجتمع (النخبة) الصغير، أن تخلق أنظمة وأساليب معايشة ولكن ليس قوانين تحكم علاقاتنا ببعضنا البعض، وهذا ما فعلناه فعلاً ومع ذلك بقي المجتمع النخبة كأي مجتمع آخر. الخروج فيه على الأنظمة وأعراف المعايشة وحتى الأخلاق أمر موضوعي وطبيعي. لقد كانت العلاقة مع إدارة المعتقل التي تمثل السلطة في حدودها الدنيا، وكان على المعتقلين أن يهتموا بإدارة شؤونهم بأنفسهم وكانت القضايا الأبرز هي:

أ – الأمن: إن كان بين المعتقلين أنفسهم على اختلاف انتماءاتهم السياسية وأخلاقهم وطباعهم الذاتية، أو بين المعتقلين وإدارة المعتقل. وهذه كانت مسؤولية إدارة المعتقل.

ب – إطعام المعتقلين وتأمين صلاتهم بأهلهم. وقد عهدت السلطة إلى متعهد يقوم بهاتين المهمتين مرتين في الأسبوع وكان لكل فئة من الفئات السياسية مندوب يستلم مخصصاتها من التموين ويأتي ببريد رفاقه، ويسلم رسائل رفاقه إلى ذويهم، إلى المتعهد الذي بدوره يضعها في بريد مدينة معان.

في هذا المعتقل ميزتان. الأولى أنك أرحت زوجتك وأطفالك من تكرار الزيارة أسبوعياً لسجن المحطة. وهذه الزيارة عدا عن كونها مرهقة ومكلفة لهم تضطرك بإرادتك أو بغيرها في أحيان كثيرة أن تبدي آراء وتعطي نصائح وأحياناً تنهي وتأمر زوجتك وأطفالك، وواقعك لا يؤهلك لفعل ذلك، فبعدك هذا عنهم ألزمهم أن يكونوا مسؤولين عن حياتهم وأسلوب عيشهم الذي عليهم أن يتدبروه. وأنقذ الإنسان من إعطاء صورة لأطفاله عن نفسه، وهي بالتأكيد ليست صحيحة. وهذا البعد فرض عليك الاتصال بهم كتابة، تكتب رسالة وتضع بها لكل منهم تحية ونصيحة أو لوماً على تقصير، وأنت حينما تكتب تُقلّ ولذلك تهتدي إلى القول السليم والنصيحة الصحيحة. أما الميزة الثانية فكما يقول (نهرو) إن السجن يمنحك فرصة الرفاه الفكري. وهذا صحيح تماماً لمن يهتمون بالتفكير، طبعاً مع الفارق النوعي بين واقع (نهرو) كزعيم سياسي في ظل الإدارة البريطانية وبيننا نحن في ظل إدارة المملكة الأردنية الهاشمية. ومع ذلك تبقى هذه المقولة صحيحة لمن لديه الاهتمام بذلك. ولو

أن المعرفة والفكر ضمن التطور اللاحق تخضعان لرؤية أجهزة الأمن التي تنفذ استراتيجية الاستعمار الجديد في الثقافة والفكر، هذه الرؤية الشاملة لمناحي الحياة. ففي الأردن مثلاً، لم يكن هناك سجون خاصة بالسياسيين ولم يكن هناك منفردات (CELLS) قبل الانقلاب على الديموقراطية عام ١٩٥٧ وما تلا ذلك. فالانقلاب الذي حدث بالأردن كان ذا أهداف بعيدة، لها علاقة برؤية المستعمرين والصهيونية لما يجب أن تكون عليه الحالة السياسية والاقتصادية مستقبلاً بين الأردن وفلسطين المحتلة. من هنا فقد بدأوا وبسرعة بعد سيطرة الملك حسين على السلطة في الأردن وبعد أن أصبحت المخابرات والأمن تابعة لمخابرات وأمن العالم (الحر) كما يسميه الملك حسين – تقوده طبعاً المخابرات المركزية الأميركية – باشرت إدارة الأمن والمخابرات تبني السجون حسب المواصفات التي أعدتها المخابرات المركزية الأميركية الخاصة بالسياسيين، والقسم الأعظم من هذه السجون هو زنزانات منفردة متنوعة متدرجة الحجم تبدأ من غرفة تتسع لأربعة أشخاص إلى منفردة تعيش بها واقفاً بها (كوة) صغيرة في السقف إذ يضيق صدرك نظراً لحاجتك الدائمة للتنفس والضوء. وجيء بخبراء أجانب مهمتهم الأساسية ليس الوصول إلى معلومات كاملة عن نشاطات هذا الإنسان كعضو في تنظيم سياسي أو عن التنظيم الذي هو فيه أو عن كل من يعرف من مسؤولي وقياديي منظمته، أو عن كل إنسان له صلة سياسية أو حتى غير سياسية به فقط، وإنما من أجل غسل عقل هذا الإنسان ومحاولة ترويضه وتدجينه وخلقه ذهنياً خلقاً جديداً بعد إفراغ ذاته من معاني الكرامة وطبعاً الوطنية، ومن بعد إيصاله إلى الهاوية بربطه بجهاز المخابرات. هذا هو الخط الأساسي للاستعمار الجديد.. الإمساك بالسلطة من خلال الإمساك بزمام من يقودونها كعملاء مباشرين أو المغفلين الطامعين في الحكم ومغرياته الذين لا يشعرون إلّا وهم في المصيدة. ومن بعد تفكيك هذا المجتمع وإفراغه من تقاليده وتراثه الموروث وإعادة صياغته وبنائه حسب المواصفات المطلوبة التي تخدم مصالح الإمبريالية وحلفائها، هذه هي استراتيجية الاستعمار الجديد.

في مرحلة هجوم الاستعمار الجديد هذه كان هناك عدد من الأقطار العربية لم تزل خارج هذه الشبكة، فالجمهورية العربية المتحدة في حينه، والجزائر في بداية الاستقلال وخاصة في عهد الرئيس (بن بيلا) القصير، وبعد ذلك في عهد الرئيس (بومدين) في بداية عهده، وكذلك العراق بعد الإطاحة (بحلف بغداد) والقائمين





عليه.. كانت هذه الدول لا تزال خارج نفوذ الاستعمار الجديد. أما جنوب اليمن فكان موقعه وواقعه في مكان آخر ومع هذا فقد أدى النهج الذي سارت عليه هاتان الدولتان – الجزائر والجمهورية العربية المتحدة – إن كان في البناء السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، إلى الوقوع في النهاية في هذه المصيدة. إن العراق هو البلد العربي الوحيد الذي لم يقع جدياً في مصيدة المستعمرين، مع أن الخط السياسي لعبد الكريم قاسم خدم استراتيجية الاستعماريين بتقسيمه للصف الوطني العربي. وكان الواقع السياسي والبناء الاقتصادي وكذلك التركيب الاجتماعي مختلفاً في كل قطر من هذه الأقطار عن القطر الآخر، وكذلك كان المسار الذي سار فيه كل منهم إلى مصيدة الاستعمار مختلفاً. ومع هذا فجميعها كانت تشترك في السمة الأساسية التي قادتها إلى مصيدة المستعمرين، وهي أنها جميعاً خلقت واقعاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً في أقطارها خارج إطار المسار الطبيعي الموضوعي الذي يقود إلى شاطىء السلامة. وشاطىء السلامة هذا هو الإنسان الحر الملتزم وعياً، المحددة أهدافه مرحلياً، الواعي للهدف الاستراتيجي، أي العمل العربي المشترك الملتزم بجدية بمصالح العرب وبمستقبل صيرورتهم ووحدة كيانهم السياسي والحضاري واستعادة مشروعهم القومي. ولن يقوم هذا البناء الا على الإنسان الحر والمجتمع الديموقراطي المتكافىء موضوعياً مع واقع المجتمع إجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

## التعايش في معتقل الجفر

في معتقل الجفر كان المجال مفتوحاً أمام كل القوى السياسية للاحتكاك والاختلاط وحتى التفاعل، وهو المكان الوحيد الذي توافرت فيه شروط لم تتوفر حتى في الحياة العامة خارج السجون للقاء مثل هذا اللقاء، وللتعايش مكاناً وزماناً مثل هذا التعايش. ومع ذلك فإن هذه القوى السياسية التي اشتركنا في مرحلة الاضطهاد ومن بعد في مرحلة النهوض الديموقراطي، ومن ثم في مرحلة هزيمة الديموقراطية، وبعد ذلك في ظل الأحكام العرفية والإرهاب، بقيت على حالها سلبية في مواقفها تجاه بعضها البعض عدائية النظرة إلى المضمون (الإيديولوجي) لكل منها. الأمر الذي يعني أن جميع هذه القوى السياسية لا تملك الحركة العضوية والإرادة الجماعية المستقلة عن ارتباطاتها وعلاقاتها الخارجية. كان أبرز تنظيمين سياسيين موجودين في معتقل الجفر آنذاك هما الحزب الشيوعي الأردني – وكان أعضاؤه الأكثر تعداداً في المعتقل – يليه

حزب البعث العربي الاشتراكي. ومن بعد تنظيم الضباط الأحرار. وكان من أبرز البعثيين المعتقلين هم الدكتور منيف الرزاز ـ والأستاذ أمين شقير ـ والدكتور حافظ عبد الهادي ـ والأستاذ علي الخصاونة ـ والأستاذ فايز مبيضين ـ والمحامي إسماعيل محادين. أما الشيوعيون فكان من أبرزهم الأستاذ فايق وراد عضو مجلس النواب في حينه والأستاذ عيسى مدانات وفايز الروسان وغيرهم من الشخصيات البارزة في الحزب الشيوعي وخاصة من الضفة الغربية. ولم يكن الدكتور يعقوب زيادين قد وصل بعد إلى معتقل الجفر.

كان الدكتور منيف الرزاز يقيم جلسات فكرية يجري فيها حوارات ونقاشات فكرية، وكان حضوري لهذه الجلسات دائماً. وكان يحضر هذه الجلسات معتقلون غير بعثيين. أذكر أحدهم وهو شاب من الناصرة في الأرض المحتلة، وهو شيوعي ملتزم. كيف اعتُقل ولماذا؟ لا أعرف. سأل هذا الشاب الدكتور منيف الرزاز سؤلاً لم أعد أذكر صيغته ومضمونه ولكنني أتذكر الإجابة. قال (أبو مؤنس): إن (نيرفانا)، ماركس مستحيلة، فالوصول إلى إلغاء الدولة ليعمل المجتمع بعد ذلك عملاً ذاتياً أي (بحركة ذاتية متطورة ومستديمة)، أمر لا يمكن تصديقه. ولم أكن أعرف معنى (نيرفانا)، فسألته عنها. ومن حضوري الدائم لهذه الجلسات تكوّن الأساس الفكري الذي التزمته ولم أزل. والدكتور منيف مثقف كبير ونهجه الفكري قريب من النهج (ألفابي) (F. A. B. I) وهو ينحو فكرياً منحى (هارولد لاسكي). ومن أبرز الشخصيات في الكادر المتقدم في الحزب الشيوعي الأستاذ (منير شفيق) المفكر والكاتب الماركسي المعروف الذي ترك صفوف الحزب الشيوعي الأردني وعمل في صفوف الثورة الفلسطينية (حركة فتح). قاده توجهه الفكري المتعرج إلى أن يصبح من أشد المؤيدين والمنظرين لثورة الخميني (أليس هذا غريباً؟). والحقيقه أن هذا لم يكن غريباً، فقد حوَت المرحلة ما هو أشد غرابة (لقد وقف حزب البعث العربي الاشتراكي وأمينة العام الفريق حافظ الأسد وبالتالي سورية ضد العراق وفي صف الخميني بكل ما استطاعت سورية أن تقدمه، وهو كثير. وكذلك وقف القذافي الذي ورث أمانة القومية العربية عن عبد الناصر مع الخميني بكل قواه وضد العراق. وكذلك جميع فصائل الثورة الفلسطينية)، هذه عجائب المرحلة التزام سياسي متناقض مع الأيديولوجيا. والأيديولوجيا للتمويه. لماذا؟ لأن كل هذه القوى مرتبطة (بوتد) لا يمكنها أن تفلت منه.





لم تستمر فترة (التعايش السلمي) بين هذه القوى السياسية فترة طويلة، وهذا أمر طبيعي، فالخلاف بين البعث والشيوعي خلاف جذري لا يمكن جسره في المرحلة الستالينية القائمة آنذاك. أيقظ سكون الخلاف هذا موقف الحزب الشيوعي (السليم آنذاك) من الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية محركاً للخلاف، وزاد في الخلاف الانقسام في قيادة ثورة تموز ١٩٥٨ في العراق ووقوف الشيوعيين وحلفائهم (الجادرجيين) بعزم وراء عبد الكريم قاسم. هذا الخلاف قاد إلى الاحتكاك، وأصبح الأمر يستوجب تدخل السلطة، بعد أن قام محمود رشيد القريوتي بضرب أحد الشيوعيين، فنقلت إدارة المعتقل أعضاء الحزب الشيوعي إلى القسم الغربي في المعتقل. وأعتقد أنه كان للسلطة يدٌ في هذا التفريق.

## مؤامرة محمود الروسان

هذه العناوين التي تضعها أجهزة الإعلام الغربية والدوائر الرسمية لتلك المحاولات الوطنية، عسكرية أو مدنية، وذلك للانفكاك من الاختناق القاتل في ظل دول البيادق. فمن مؤامرة (علي أبو نوار) إلى مؤامرة محمود الروسان وأخيراً مؤامرة صادق الشرع. والهدف من هذه العناوين هو إضفاء صفة الطموح الشخصي على هذه المحاولات. لقد كان المقدم محمود الروسان على علاقة واهية بتنظيم الضباط، انقطع خيطها الرفيع حينما انتقل إلى الملحقية العسكرية في (واشنطن). إنني شخصياً لا أعرف المقدم محمود الروسان معرفة جدية ولا أستطيع أن أقول بحقه رأياً إن كان سلبياً أم إيجابياً، إلّا أن أسلوبه في محاولة تحقيق طموحات شخصية بالسرعة القصوى بعد عزل (الفريق كلوب) مباشرة، لا يجعل من هو مثلي ينظر بارتياح إلى تلك المحاولات. من هي الجهة التي كانت تدفع به وتؤثر على رؤياه لا أعرفها. مع أنني أعرف منذ الأزمه الأولى مع قيادة تنظيم الضباط، أن الملحقية العسكرية المصرية كان لها باع طويل في هذه النشاطات. لقد كان المقدم محمود الروسان على اتصال بجهة ما في الجمهورية العربية المتحدة. وكانت طبعاً جميع اتصالاته موضوعة تحت المراقبة، وكان هذا التنظيم يضم بعض الضباط الوطنيين الأكفاء، منهم المقدم خالد الطراونة قائد سلاح الهندسة. وكان هناك عيوب كثيرة في هذا التنظيم أهمها الاختراقات.

لقد هيأ قيام الجمهورية العربية المتحدة ومن بعد قيام ثورة تموز في العراق ١٩٥٨، المناخ أمام القوى الوطنية في الجيش. لكن تبين فيما بعد أن أجهزة المخابرات الأميركية والمحلية الملحقة بها أدخلت الصف الوطني في صفوف جيوش العالم الثالث، إما لخلق بديل للنظام وإما لإجهاض حالة وطنية. وقضيتا محمود الروسان وصادق الشرع تدخلان ضمن حالة عملية الإجهاض في صفوف الجيش الأردني. فبعد أن استقر اتجاه ثورة ١٤تموز ١٩٥٨ وانفرد عبد الكريم قاسم في الحكم مدعوماً من الشيوعيين وأخذ اتجاهاً مناقضاً لاتجاه عبد الناصر، اطمأن النظام في الأردن إلى أن الأمور تسير لصالح استقراره. أفرج عن بعض السياسيين غير المحكومين فخرج من السجن أكثر قادة البعثيين والقوميين العرب والأشخاص غير المحكومين. ولم يستثن من ذلك إلّا الشيوعيين، حيث كان على كل إنسان يحاول الخروج من السجن الاستنكار والإدلاء بأدق التفاصيل عن كل ما يعرف عن الحزب الشيوعي. سارت بنا الحياة بعد ذلك سيراً عادياً ضمن طبيعة المعتقل والمعتقلين، إلى أن تقرر بناء (مهاجع) جديدة في المعتقل، الأمر الذي فرض حركة إنشاء واسعة في المعتقل ـ من عمال ـ وحفر ومواد بناء وكل مستلزمات بناء هذه المهاجع للمعتقلين والتي أصبحت بعد بنائها فعلاً مهاجع مريحة بها حمامات ماء بارد ودور مياه داخلية حديثة.

## الخندق

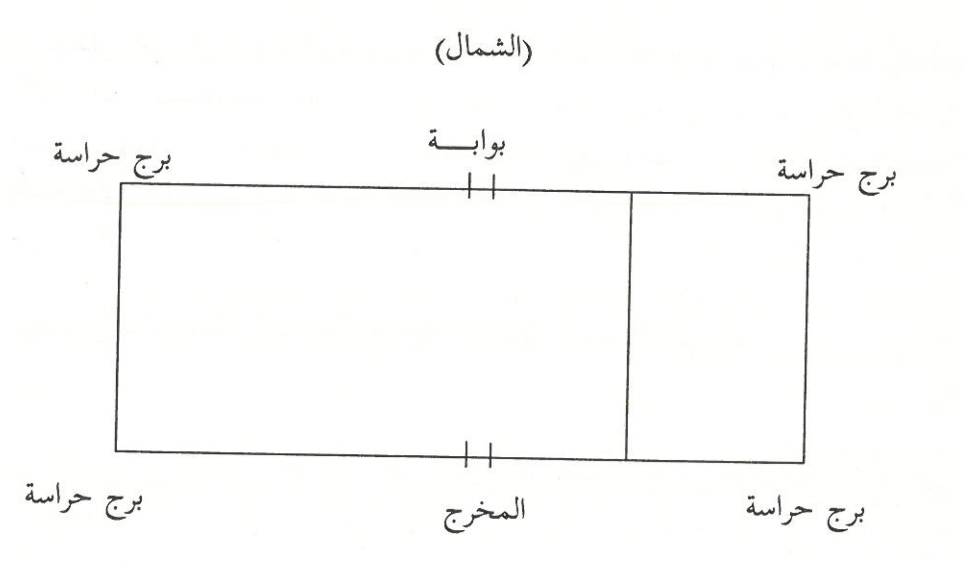
كان المعتقل يقوم في النصف الشرقي من البناء، وأما النصف الغربي فكانت ساحة خالية، وفي هذه الساحة نفذ بناء هذه المهاجع. هذه الورشة الكبيرة هي التي أوحت لنا فكرة حفر خندق من داخل المعتقل إلى خارج سوره لأنها سهلت علينا أموراً ما كان تدبيرها ممكناً لولا ورشة البناء هذه. وفكرة الهرب لم تكن جديدة على ذهن بعضنا. فقد مرت على ذهني شخصياً ونحن في سجن (محطة ـ عمان). كانت الغرفة التي نسكنها على الشارع وأي خرق للحائط (وهو سهل) يوصلك مباشرة إلى هذا الشارع. قد يتساءل القارئ بالنسبة إلى شخصي أنا: فقد كنت شديد الرفض لمبدأ الخروج من البلاد بعد الأحداث وقبل اعتقالنا ـ فكيف أنا الآن متشجع وأعمل لتسهيل الهروب من السجن. إن الأمر الخاص بي شخصياً يعود أساساً إلى الظروف التي أحاطت بطبيعة الصراع والأطراف المشاركة فيه. فحينما كانت السلطة تدفع بنا للهرب كانت



تستهدف تسهيل سبل الاتهام والراحة من الإحراجات التي تسببها المحاكمة، أما الآن، وأنت محكوم والحكم سياسي، فمحاولة الهروب هي استمرار في النضال السياسي ضد سلطة مطلقه. ثم إنها عند الذين لا يرقى وعيهم إلى مستوى ما ذكرت: إشباع لرغبة المغامرة.

## كيف أوحت ورشة البناء فكرة حفر الخندق كوسيلة للهرب

من الذي طرح الفكرة بداية؟ لم أعد أذكر، إنما استوحيت من قصة قرأناها هنا في الجفر عن ضابط بريطاني كان أسيراً في أحد معتقلات الأسر في الحرب العالمية الثانية، فر من معتقلة بواسطة حفر خندق أوصله إلى خارج سور المعتقل. ولما كنا ضباطاً لا نزال شباباً أعجبتنا واستهوتنا القصة، فكرة وأسلوباً. ما كان يمكن أن نقوم بحفر هذا الخندق كوسيلة للهرب لولا عملية البناء التي قامت في حينه لأن حفر خندق يراوح طوله بين سبعة عشر متراً وثمانية عشر وبقطر ٨٠ سنتم. تخرج منه كمية من التراب لا يمكن سترها لولا ورشة البناء الكبيرة هذه لأننا كنا ننقل كميات التراب الذي نستخرجه كل ليلة ونضعها فوق التراب المستخرج من أساس الأبنية المحفور أو فوق التراب الموضوع في المهاجع للتسوية، وما إن وجدنا حلاً لمشكلة التراب حتى واجهتنا مشكلة معدات الحفر والإضاءة والمستلزمات الضرورية الأخرى. كان الدكتور وديع حداد (يرحمة الله) هذا الشاب الوسيم الخلوق الهادئ الطباع والذي يمثل تكوينه الجسماني عود خيزران مرن ولكنه لا يكسر، يتميز بالود تجاه كل من يعرفه. إن كلمة (ياخوي) التي كان يقولها لكل من يخاطبه تمنحه ثقة كل من يتعرف إليه. كان الدكتور وديع يخرج يومياً تقريباً. يقوم بعيادة المرضى في مضارب التوايهة القريبة من مخفر البادية المجاور للمعتقل بصحبة أحد عناصر البادية. فطلبنا منه إن كان باستطاعته تأمين اللوازم التالية: أ ـ راس فأس صغير ب ـ منكاش ج ـ بربيش ماء (نصف إنش) د ـ ضوء وبطاريات للضوء. فأمن لنا جميع هذه اللوازم. وحين أصبحت لوازم الحفر متوفرة، بقي علينا أن نختار المكان الذي سنبدأ منه، والاتجاه، ونقطة النهاية. والرسم التالي يعطي صورة عن وضع المعتقل على الأرض.




والرسم يوضح أنه كان هناك جهتان يمكن للخندق أن يخترقهما، الجهة الشرقية والجهة الشمالية. وكانت نسبة مخاطر فضح أمر الخندق باتجاه الشرق عالية جداً لأنه كان هناك برجان للمراقبة يفصل بينهما مائة متر، والبراكيات التي قرب السور الشرقي يسكنها سجناء قضائيون لا يمكن ستر الأمر عنهم. وكان لا بد أن يجري استطلاع هاتين الجهتين من خارج سور المعتقل. فقام بهذه المهمة الدكتور وديع حداد (يرحمه الله). لا أحد يعرف ما هو المبرر الذي قدمه لإدارة المعتقل كي تسمح له باصطحاب (أبو صخر) شوكت الشبول في جولة حول المعتقل. ولما عاد شوكت قدم لنا مطالعاته، وبناءً على هذه المطالعات قررنا أن تكون الجهة الشمالية هي اتجاه الخندق. والمعلومات التي قدمها أبو صخر هي: خارج السور وعلى بعد أربعة أمتار منه هناك سلك شائك حول جهات المعتقل الثلاث ـ الشمال ـ والشرق ـ والغرب، وعرض هذا السلك بحدود المترين. وبعد السلك الشائك وبحدود الأربعة أمتار، هناك منخفض طبيعي بشكل (غدير ماء) جاف، عمقه بين الخمسين والسبعين سنتم. هذا المنخفض قادر على ستر مخرج الخندق والذين يخرجون منه ويقع تقريباً على حد أول الثلث الأخير من سور المعتقل قبل التقائه بالسور العازل بين المعتقلين الشرقي والغربي. ووجدنا بعد الاستطلاع الداخلي، أن هذا المنخفض يقع مباشرة باتجاه دورة المياه العامة. والميزة الأهم في هذا الاتجاه أن برجي الحراسة يبعدان عن بعضهما البعض مائتي متر، لأنه لا يوجد برج مراقبة على نقطة التقاء السور الفاصل بين





المعتقلين مع سور المعتقل الرئيسي. وبعد أن أخذنا نقطة البداية، عين آخر مرحاض إلى الغرب، وعطلناه ليعتبره الذين يستخدمون دورة المياه هذه (غير صالح للاستعمال) حسبنا حينها كم سيكون طول الخندق، وتبين أنه سيكون بطول سبعة عشر متراً. وكان على المهندسين أن يجيبوا على السؤال الفني الخاص بالعمق الذي سنحفره عمودياً، ثم نحفر بعد ذلك أفقياً ـ حتى لا ينهار علينا أثناء الحفر. قال المهندسون إن متراً واحداً يكفي، حينها شكلنا ورديتين تتوليان مسؤولية الحفر، وردية واحدة كل ليلة. وكنت مسؤولاً عن إحدى هاتين الورديتين. وكان في هذه الوردية (أبو ساهر) محمود وداوود عبد الهادي ومنذر عناب ومحمود القريوتي. وكنا نحفر قرابة الساعة من العاشرة ليلاً وحتى الحادية عشرة. وبعد أن ننهي العمل ننقل كل التراب المستخرج ونضعه في الأماكن المعينة، ثم نعيد موقع العمل إلى حالته الطبيعية. وكانت الأرض التي نحفر بها أرضاً رملية مضغوطة، بمجرد أن نضع عليها الماء رشاً تجرفها بسهولة متناهية. وأستطيع القول أنه كان بإمكان الحفارين في المراحل الأولى من العمل أن يحفروا في كل ساعة متراً إلّا أنه كلما تعمقت في الحفر وأصبحت المسافة أطول أصبح العمل أكثر مشقة وأكثر بطءاً بسبب إخراج التربة إلى خارج الخندق وبسبب رش الماء بأكثر مما يلزم، مما يجعل الممر في الخندق (مطينة)، وأنت مضطر أن ترش الماء بواقع أكبر كلما تعمقت وإلّا اختنق الحفارون من كثافة الغبار. كان بمقدورنا الانتهاء من حفر الخندق بعد الأمتار الأربعة الأولى، وهي المسافة حتى سور المعتقل، بعشرة أيام، إلّا أننا لأسباب تتعلق بالترتيبات المتعلقة بكيفية الهرب وإلى أين؟ تباطأنا وصرنا نحفر أقل من ساعة ليلياً.

## اكتشاف الخندق

في الأسبوع الأول من العمل خرجنا بالخندق من تحت سور المعتقل وأصبحنا على حدود السلك الشائك. ولم يبق علينا حينه إلّا المسافة من حد السلك وحتى المنخفض وتقدر بحدود ستة أمتار. وحين خرج الخندق خارج سور المعتقل، كان من يقوم بالحفر داخل الخندق يسمع خطوات الحارس الليلي وهي قادمة ثم وهي ذاهبة، فيتوقف عن الحفر حتى تغيب فيعاود عمله ثانية. وفي تلك الليلة التي أكتشف فيها أمرنا كانت الوردية التي تعمل هي ورديتي وكان من يقوم بالحفر هو داود عبد الهادي. وحينما سمع خطوات الحارس قادمة توقف عن الحفر إلى أن تخطاه ذهاباً.

ثم عاد وتخطاه إياباً وحين غاب صوت خطاه عاد داود إلى الحفر لكنه بعد فترة قصيرة عاد وسمع خطوات عديدة مسرعة فتوقف عن الحفر وانتظر إلى أن سمع الخطى تغادر ويغيب صداها فعاود الحفر وبعد ما يقارب ربع ساعة وفي غياب سماع أي صدى لأي خطوات، فاجأنا صوت على السور قائلاً (قفوا) ارفعوا أيديكم. فما كان منا إلّا أن تركنا كل شيء وهربنا، بعد ذلك دخلت قوة من سرية الحراسة إلى مكان الحفر فوجدوا الخندق وأدوات الحفر (الجريمة) ماثلة، فقاموا بتفتيشنا وأخذوا كل لباس عليه طين وتراب ومن ثم غادرونا. وبعد مغادرتهم قررنا نحن الضباط التسعة (قادة تنظيم الضباط الأحرار) تحمل المسؤولية الكاملة عن هذا العمل. ولا أحد غيرنا.

## كيف اكتشف الخفير الخندق

حينما لم يعد يسمع من يقوم بالحفر خطوات الخفير عاود الحفر، ولكن الخفير لم يكن قد سار بعيداً بل جلس وأركى ظهره إلى السور كي يستريح، حينها سمع صوت الحفر، وحين تأكد أن الحفر يأتي من تحت الأرض التي يجلس عليها، قام مسرعاً وأبلغ ضابط الصف المسؤول عن الحراسة عن الواقعة وجاء برفقته مسرعين إلى المكان الذي يسمع منه الصوت. طبعاً سمع الحفار في الخندق خطواتهما وهما قادمان مسرعين، فتوقف عن الحفر، وعندها لم يسمع ضابط الصف المسؤول أي شيء يدل على ما قاله الخفير له، وبالتأكيد أنه وجه للخفير نقداً لاذعاً ـ من مثل: يظهر أنك (خايف) وهكذا بعد أن غابت خطوات رئيس الحرس والحارس، عاد من في الخندق إلى الحفر وهذه المرة فرح الحارس الذي كان ينتظر بلهفة عودة هذا الصوت فخلع حذاءه وسار على رؤوس أصابعه ثم راكضاً بعد أن ابتعد.. وأبلغ ضابط الصف المسؤول الذي بدوره خلع حذاءه وسارا بحذر وهدوء وعلى رؤوس أصابع أقدامهما حتى وصلا المكان وسمعا الحفر فجاءا والضابط المسؤول ومعهم سلم وأطلوا علينا ليكتشفوا العملية.

## التحقيـق

شُكلت هيئة التحقيق برئاسة اللواء (محمد هاشم) قائد منطقة البادية آنذاك. استدعونا نحن الضباط التسعة المحكومين ووضعونا في أماكن متفرقة وبدأوا بالتحقيق معنا، كل



على حده، وكنا قد اتفقنا أن نعترف بأننا قمنا بهذا العمل من أجل الهروب من السجن، وحين استدعوني لم أنس ما اتفقنا عليه ولكن كوني لم أر أحداً من زملائي يدخل التحقيق قبلي أصبت بحالة ارتباك فقد كنت أكره أن أكون أول من يعترف، وهو سلوك تفرضه طبيعة الإنسان. وحينما تفرض عليك طبيعتك موقفاً فأنت غير مدَّع. ولذلك حينما بادرني أبو هاشم قائلاً: يا ضافي تحدث لنا عما تعرفه عن الخندق ومساهمتك في العمل فيه.. أجبت لا شعورياً: أي خندق؟ فبهت أبو هاشم واستشاط غضباً لكون كل من سبقوني قالوا ما اتفقنا عليه، ومنها مساهمتي في العمل، فارتفع صوت أبو هاشم عالياً (جاي تسويلي فتوه)، والله أضربك حتى أطلع الصحيح منك. فأجبته أنا بغضب أيضاً (والله بالضرب ما أتشوف صحيح) وفجأة وقف العقيد سليم كرادشة (أبو وليم) مدير السجون وعضو لجنة التحقيق قائلاً لأبي هاشم: يا سيدي يا سيدي أرجوك تسمح لي أتحدث مع ضافي على انفراد. فأخذني (أبو وليم) ـ رحمه الله ـ إلى خارج الغرفة وقال لي: يا عمي لماذا هذا الموقف، كل الذين حققنا معهم وأنت آخرهم قالوا واعترفوا بمسؤوليتهم عن العملية! فقلت له: طيب، وعدت إلى هيئة التحقيق واعترفت أمامهم عما أعرفه. لقد كنت ووليم ابن العقيد سليم كرادشة في صف واحد وأصدقاء. وكنت أزورهم باستمرار وأتناول الطعام في منزلهم، وكان منزلهم قريباً من منزل (الفريق كلوب) في ذلك الحين في جبل عمان وبعد أن انتهى التحقيق تحدث إلينا (أبو هاشم) وبطبيعته السمحة قال لنا: لكم الحق أن تحاولوا الهرب من السجن وعلينا نحن أن لا نسهل ذلك لكم. ولم يتخذوا ضدنا أي نوع من العقوبة. وهدموا الخندق وملأوه بالإسمنت.

## الأيديولوجية الماركسية والتوجه النضالي للأحزاب الشيوعية العربية

تتحمل الأحزاب الشيوعية العربية مسؤولية كبيرة عن الواقع المتردي الذي صارت إليه الأمة العربية، وخاصة مشرقها بعد هزيمة (الخلافة) في الحرب العالمية الأولى ووقوعها فريسة للاستعمارين الإنكليزي والفرنسي. لماذا؟ لأن الاحزاب الشيوعية العربية كانت من أقدم الأحزاب التي تكونت في الواقع العربي بعد الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر في روسيا. وفي واقع العرب المتخلف سياسياً واقتصادياً ومعرفياً، قادهم الجهل إلى الاستجارة من الرمضاء بالنار. فمن هي النخب السياسية التي تعرف معنى الاستعمار وحقيقة المستعمرين؟ إنها الأحزاب الشيوعية والماركسية. فهم يعرفون معنى

الاستعمار ومضمونه. وكذلك يعرفون معنى (وعد بلفور) وأهدافه وليس هناك مَن بيّن حقيقة الاستعمار والإمبريالية مثل (لينين). وكانت ثورة أكتوبر هي أول من نشر وفضح اتفاقية (سايكس ـ بيكو). وفضحت الإنكليز والفرنسيين والغدر الذي مارسوه ضد حلفائهم العرب. وهذا أمر له دلالات (إيديولوجية) عميقة وسليمة. كان يجب أن يتمسك بهذا النهج الشيوعيون العرب. لقد كان لينين يعي مصادر قوة المستعمرين الناتجة من نهب ثروات الشعوب واستغلالها، ولذلك كان يقول بدعم حركات التحرر من الاستعمار بغض النظر عن توجهاتها الإيديولوجية. ولكن بعد موت (لينين)، وتسلم ستالين السلطة وفراق النهج اللينيني إلى النهج الستاليني، صارت مهمات الأحزاب الشيوعية في العالم ومنه الوطن العربي مختلفة، مستندين إلى اعتماد نظرية (بناء الاشتراكية في بلد واحد). ومن هنا أصبحت مهماتهم مختلفة وهي:

أ ـ الدفاع والتأييد المطلق للاتحاد السوفياتي (قلعة الاشتراكية).

ب ـ الدعاية (لقلعة الاشتراكية) أمل الشعوب المستضعفة وتصوير واقعها بأنه هو الأفضل والأمثل.

جـ ـ اتهام القومية (بالمطلق) بالشوفينة والعنصرية ـ حسب المفهوم الستاليني للماركسية.وتبعاً لهذا المفهوم، اعتُبرت القومية العربية كالقومية الألمانية (أي النازية) والفاشية الإيطالية ولهذا فلا علاقة للأحزاب الشيوعية العربية بعضها ببعض إلّا كعلاقة الحزب الشيوعي البلغاري بالحزب الشيوعي في الإكوادور. وهكذا انقسم الشيوعي إلى حزبين لبناني وسوري. وكذلك الحزب الشيوعي الأردني إلى فلسطيني وأردني. ومن هنا فالأحزاب الشيوعية العربية ليست قطرية فحسب وإنما تعترف بالتقسيم السياسي القسري الذي فرضته قوى استعمارية ودولية حتى في البلاد التي كانت أصلاً موحدة في كل العصور التي سبقت سايكس ـ بيكو. ولم يجد أي من الأحزاب الشيوعية العربية، في أي من تجربتي الحزب الشيوعي الصيني والحزب الشيوعي الفيتنامي مثالاً يحتذى به مع أن الأمة العربية تمتلك كل عناصر مكوّنات الأمة جغرافياً وعنصراً ولغة وحضارة وتراثاً تاريخياً أكثر من أية أمة على هذه الأرض وأنا هنا لا بد أن أنوه أن الحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي) بقيادة المناضل رياض الترك قد أدرك هذه المفارقة ولو متأخراً.

د ـ إن تكتيك الأحزاب الشيوعية والذي كان مضمونه (الغاية تبرر الوسيلة) كان



أسلوباً مدمراً. وخاصة في استقطاب شخصيات لها وزن اجتماعي ولديها عدم اتزان في تكوينها الفكري والسياسي والاستراتيجي، وذلك لاستخدامهم كواجهات سياسية تخدم الأهداف المرحلية سياسياً.

هـ ـ إن تجربة عام ١٩٥٧م في الأردن تعطي مثالاً حياً على حقيقة ارتباط هذه القوى السياسية في تلك المرحلة ومنها الحزب الشيوعي الأردني. فالحزب الشيوعي الأردني، كأي حزب شيوعي آخر، يفترض أنه يملك رؤيا علمية وموضوعية ويناضل في واقع سياسي له تماس وتأثير مباشر على قضية عادلة هي قضية فلسطين وحقوق شعبها، والحزب الشيوعي الأردني لم يكن كغيره من الأحزاب الشيوعية العربية تتكون بنيته من الأقليات كالحزب الشيوعي المصري والعراقي والسوري في حينه. وهو الأكثر حاجة لأن يحتمي بتجميع القوى، ومع ذلك لم يحاول جمع هذه القوى لجعلها قاعدة للحكومة الوطنية على برنامج عمل مرحلي سياسي وطني شعاره (الموت أو الديموقراطية) وخلق تيار وطني مقاوم يصعب على أعداء الديموقراطية تجاوزه. لم يحذُ أي من الأحزاب الشيوعية العربية حذو الحزب الشيوعي الصيني أو الفيتنامي، وإنما حذوا جميعهم حذو الأحزاب الشيوعية الأوروبية. ولذلك فشلت جميعاً أوروبياً وعربياً. ولم نقدم عوناً صادقاً للاتحاد السوفياتي وللأمة العربية.

## الانفصال الذي قاد إلى عفو عام ١٩٦٢ في الأردن

بعد ثلاثة أشهر من انفصال الوحدة بين مصر وسورية أصدرت حكومة المملكة الأردنية الهاشمية التي يرأسها في حينه السيد وصفي التل عفواً عاماً عن السجناء السياسيين، باستثناء أعضاء الحزب الشيوعي المحكومين. لماذا تم ذلك بعد الانفصال؟

من المعروف بداهة وبالتجربة، أن أي تغيير جذري في أي قطر عربي سلباً أو إيجاباً، يكون له تأثير ويكون هذا التأثير بالغاً إن جرى في أحد الأقطار (الاستراتيجية)، أي الأقطار التي تملك القوة من ذاتها كمصر والعراق أو المملكة العربية السعودية، وهكذا تأثر الواقع العربي بانقلاب (٢٣) يوليو في مصر ولكنه بقى انقلاباً عسكرياً مثله في ذلك مثل الانقلابات العسكرية التي حصلت قبله في كل من العراق وسورية. أفرح

الجماهير كونه عاقب نظاماً فاسداً في مصر كان له دور أساسي في ما آلت إليه الحالة الكارثية في فلسطين، وحتى بعد أن استقر الحال في مصر لصالح زعيم الضباط الأحرار ورفاقه وباتت ملامح نظرته إلى الديموقراطية من خلال تعامله مع الأحزاب السياسية وخاصة (حزب الوفد) واضحة، بهذا الأسلوب غير الديموقراطي، مما جعل قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي تنتقد أسلوب التعامل هذا وموقفه العام من الديموقراطية، وتقول بالتوجه الدكتاتوري لجمال عبد الناصر.

لكن حينما حقق عبد الناصر اتفاقية الجلاء عن أرض مصر مع المستعمرين، وبعد ذلك قام بتأميم (قناة السويس) وخرج سالماً من صراع مسلح مع قوى الاستعمار القديم بريطانيا وفرنسا، ومخلوقته «إسرائيل»، برز من خلال هذا الصراع بطلاً قومياً (قولاً وفعلاً) من خلال هذا المنعطف الزمني والتاريخي، وهي المرة الأولى في تاريخ العرب الحديث التي يظهر فيها قائد عربي وفي أكبر دولة عربية، ويأخذ مدى زمنياً مقبولاً، ويحقق في هذا المدى إنجازين هامين لوطنه، يعنيان استقلالاً وطنياً ناجزاً. وهذان الإنجازان، هما جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر بعد قرابة الثمانية عقود من التواجد العسكري البريطاني على أرضها أولاً، وعودة السويس الهامة استراتيجياً والهامة اقتصادياً لأهلها ثانياً.

كان إعلام مصر الرسمي، وهو الإعلام المسموع عربياً، يشن حملة لا هوادة فيها فيها الاستعمار البريطاني وفضحه في موقعين من خلال تواجده على أرض مصر، ودوره التاريخي في القضية الفلسطينية، ومحاولة تقسيم العرب من خلال (حلف بغداد) وقد جعل هذا الإعلام من القضية الفلسطينية وحلف بغداد، نقطة مركزية لتضامن العرب والابتعاد عن النفوذ الأجنبي. وكذلك تصدّت مصر واقعياً وإعلامياً للاستعمار الفرنسي في الجزائر، من خلال دعمها لثورة الجزائر مادياً وسياسياً وإعلامياً، هذا الموقف المتصدي للاستعمارين الإنكليزي والفرنسي في تلك المرحلة قولاً وفعلاً استنهض الجماهير العربية، وانكسر الطوق الذي كان يحاصر هذا النهوض، ووصل النهوض ذروته بعد عملية تأميم قناة السويس، وخروج عبد الناصر ووطنه سالمين من الهجوم الثلاثي، وكان لا بد أن يحوّل هذا النهوض إلى واقع. ومن هذا المنطلق دفع التيار الوحدوي في الجيش والشعب في سورية وفي طليعتهم حزب البعث العربي الاشتراكي باتجاه مصر، قاصدين علاقة استراتيجية تهدم الركن الأخطر في الواقع العربي ألا وهو التجزئة.





إن مصر قضية مركزية في عقيدة البعث فكرياً وسياسياً ونضالياً. وبالنسبة إليه، مصر ـ أرضاً وتاريخاً ـ تتحمل مع أمتها الهموم الثقيلة، وهذا الالتزام من البعث تجاه مصر لا يساويه سوى الفعل المضاد الذي تقوم به القوى المضادة وعلى رأسها الصهيونية العالمية المعادية لنهوض العرب، التي تسعى سعياً جاداً لسلخها وتوجيهها الاتجاه المغاير لحقيقتها ومصلحة شعبها.

إلّا أن قيادة البعث ذهبت بعيداً في هذا الاندفاع، حتى وصلت إلى حد التناقض بالفعل مع فكر البعث وعقيدته، بتسليمها الكامل بالصيغة التي أصر عليها الرئيس عبد الناصر، متجاهلة المرتكزات الأساسية التي اشترطها فكر البعث ونهجه السياسي لأي حالة وحدوية، وأنا هنا أتساءل، هل كان اندفاع قيادة الحزب إلى هذه الحدود المتعارضة مع فكر البعث في سلوكها مع الوحدة، ومضافاً لذلك، هل كان هذا المد الجماهيري واندفاعه هو الذي دفع بقيادة الحزب أمامه وجعلها تتناسى نقدها السليم لموقف الرئيس عبد الناصر من الأحزاب والديموقراطية، مأخوذةً كما يؤخذ بسطاء الناس بالجموع التي أثارتها معركة السويس؟؟

حينما يفكر الإنسان في سلوك قيادة الحزب بجدية يجد أكثر من حالة مشابهة في مسارها السياسي قبل الوحدة وكذلك بعد الوحدة، يقول (طبعاً لا). لقد كان موقف قيادة الحزب موقفاً سياسياً وليس عقائدياً مبنياً على اعتبارات دولية تبين أنها مرحلية، وكانت الوحدة حلقة الوصل الأولى ثم تبعها عدد من الحلقات (كنهج حكم) قاد إلى هزيمة عام (١٩٦٧)، واستمر بعد ذلك وحتى يومنا هذا.

لقد كانت الوحدة بين مصر وسورية عملاً استراتيجياً لا سابق له منذ عهد صلاح الدين، وهي حدث إقليمي ودولي بالغ الأهمية والتأثير، وقد استنفر هذا العمل الهام أعداء نهوض العرب الداخليين والإقليميين والدوليين بما هم عليه من قوة وقدرة، وكان يجب أن تستنفر قيادة الوحدة همة شعبها وجماهير أمة العرب بالفعل لا بالإعلام، وتضع التصور المطلوب للحفاظ على هذا الإنجاز الكبير وتكبيره، هذا الإنجاز الذي لا مثيل له في تاريخ العرب الحديث، والذي لو دام، لشكّل الضمانة الأكيدة لمسيرتهم نحو النهوض، والذي لو تهيأ له التحصّن ذاتياً بصيغة وحدوية

تتناسب والواقع الموضوعي لكلا القطرين، وببناء داخلي حر يتناسب ويتوافق مع واقع التطور الاجتماعي والسياسي لكلا القطرين، وبتنمية اقتصادية تعي أهدافها وتساهم بها الأكثرية من مواطنيها، وبسياسة صد للأعداء وليس خلقهم وببناء سياسي واجتماعي واقتصادي، يستند إلى مؤسسات مضمونة الكفاءة، مضمونة الولاء الوطني، وتتمتع بحرية الرأي وبتنظيمات نقابية ومهنية أساس بنائها ديموقراطي، تعي دورها ومهامها في إيصال دولة الوحدة إلى (بر الأمان) في حينها... لانهارت قلاع أعدائها من العرب الذين كان لهم الباع الأطول في تدميرها، هؤلاء الأعداء الذين لا يعيشون إلّا على فشل مشروع نهوض العرب.

ما كان لهذا الأمر أن يتم إلّا بالتزاوج بين زعامة عبد الناصر وفكر البعث، وأعني فكر البعث الذي بني على (الحرية) (أي الديموقراطية)، لكن الشعوب كالإنسان، تتعلم من تجاربها وتضحياتها التي تقودها إلى الفهم الأصح والأسلوب الأمثل أيضاً، والتضحيات هي التي تنير طريق الفهم والأسلوب إلى الهدف.

لقد قامت الوحدة واستمرت ما يقارب ثلاث سنين ونصف، وكل من عمل في السياسة من الجيل الذي انتمى إليه يعرف الحدث، ولكن الاختلاف انصبّ على الأسباب التي قادت إليه، ويدلّك على هشاشة بناء الوحدة... أن لواء هجّانة مسلحاً بمدرعات خفيفة، هو الذي قام بهدم هذا البناء!! وبوجود عبد الحكيم عامر في دمشق، ولن أنسى قولاً للأستاذ بهجت أبو غربية وهو من قيادة حزب البعث في الأردن التي اتخذت اتجاهاً ناصرياً وانشقت عن الحزب في حينها، قال: لو كان في دمشق خمسمائة بعثي منظم لما نجح الانفصال، هذا القول الصحيح ذو الدلالة العميقة يثبت أنه ما كان للوحدة أن تنفصل لو استندت إلى فكر البعث وزعامة عبد الناصر.

وقد انصب غضب الناس على البعثيين حينما وقع الانفصال، بينما لا أحد كان يشعر في حينه بجدية الخطر المحدق بالوحدة إلّا أعداء الوحدة، ففي فلسطين ولا سيما في الضفة الغربية، تعرض البعثيون إلى إساءات بالغة، والفلسطينيون في حينها كانوا معذورين، لأن آمالهم كانت معقودة على عبد الناصر وعلى الوحدة، واعتبرت أكثريتهم أن البعثيين مسؤولون عن الانفصال بعد أن تخلّوا عن المسؤولية في دولة





الوحدة. وأوسع الإعلام المعادي للحقيقة (ومنه إعلام مصر) البعثيين اتهاماً وتجريحاً، وساهم بعض قادة الحزب التاريخيين كالأستاذين أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار ومريديهما بإعطاء المبررات من خلال توقيعهما على بيان يؤيد الانفصال. ولم يتحدث أحد عن الأسباب الموضوعية التي قادت إلى الانفصال. وهكذا عاد التيار القومي، الذي يشكل ركيزته حزب البعث العربي الاشتراكي إلى الانحسار مرة أخرى، وبقي الباكون والمتباكون وهم الناصريون (والمتلفعون لأهداف لئيمة بثياب الناصرية)، لأن التيار الناصري الذي انضم إليه الكثير من البعثيين قادة وقواعد، كان يمثل الأكثرية في صفوف الجماهير العربية.

لقد أرادت القوى المعادية لتقدم العرب خلق تناقض بين التيار الناصري وحزب البعث العربي الاشتراكي، وقد تحقق لها ذلك. ولعبت هذه القوى المعادية في صفوف التيار الناصري أدواراً شديدة التخريب، سواء أكانوا أفراداً بارزين في المجتمع أو تنظيمات، فهؤلاء هم المتباكون، أما الباكون فهم بسطاء الناس والوطنيون الشرفاء الذين آمنوا بعبد الناصر وبالوحدة ورأوا آمالهم وأمانيهم تنهار.

إن التيار الناصري لم يشكل حزباً منظماً ولا تياراً منظماً على الإطلاق لا قبل الوحدة ولا بعدها، مما يضع علامة استفهام كبيرة، لا تزال حتى الآن بدون إجابة. إلّا إذا كانت مقولة القذافي الشهيرة (من تحزب خان) هي الإجابة الفكرية على عدم وجود حزب ناصري في الماضي وفي الحاضر، وإذا صح ذلك فإنه لمدلول خطير.

لم يكن التيار الناصري على كثرة جماهيره، قادراً على حماية الوحدة، لأن الجماهير لا تقوم بدور بارز في حماية مصالحها إلّا حينما تقودها طليعة مكونة فكرياً ونضالياً تعرف مهماتها وواجباتها في كل مرحلة من مراحل برنامج عملها السياسي والاجتماعي المتوافق مع مصالح الجماهير وطموحاتها، وكان دور حركة القوميين العرب في شق وحدة القوى الداعمة للوحدة معروفاً، فهذه الحركة التي كانت لصيقة بعبد الحميد السراج ومن بعده بالرئيس الراحل عبد الناصر وبقيت لصيقة به حتى هزيمة عام ١٩٦٧ حينما غادرته وغادرت القومية غير آسفة إلى الماركسية اللينينية، بادئة بعد ذلك التنظير لأسباب الهزيمة ماركسياً، آخذة بالنظرية الماركسية اللينينية

حول البرجوازية الصغيرة، وهي تقصد (مصر وسورية)، قائلة بأن أنظمة البرجوازية الصغيرة هذه، لا يمكنها تفادي الهزيمة، وكأن الدولة التي هزمت العرب عام ١٩٦٧ دولة شيوعية يقودها حزب الطبقة العاملة.

بعد ذلك قامت بمسيرة إلى الجزائر لتعرض على الرئيس (بومدين) يرحمه الله قيادة حركة التحرر العربية. إنها محاولات خلق التنافس والعداوة بدلاً من التضامن. لماذا هذا الموقف للقوميين العرب؟

من المعروف أن المسار المتذبذب عقائدياً للحركات السياسية التي تلبس لكل مرحلة لباساً مصمماً لها، لا يمكن أن تكون صادقةً في سعيها للوصول للهدف المعلن (وهو الوحدة وتحرير فلسطين).

إن قفز حركة القوميين العرب من الأيديولوجية القومية اليمينية، أي من (دم حديد نار ووحدة تحرر ثأر)، إلى الماركسية اللينينية، أي (من القمّة إلى آذانها) كما يقال في المثل الشعبي، هو من أجل إخفاء الحقيقة الهامة، وهي لماذا كانت الهزيمة وما هي أسبابها الحقيقية؟ ويريد القوميونَ العرب أن يوهموا الناس، أن أسباب الهزيمة هو عدم (تبنّي الماركسية)، فحين يطرح السؤال هذا ويناقش بحرية على الساحة السياسية في كل قطر عربي سيصل الناس إلى الحقيقة، وهي أن الهزيمة محصلة واقع تغيب فيه الحرية ويحكم بالقمع والإرهاب، ويقاد إلى الهزيمة، أما القفز إلى الماركسية اللينينية، وإدخال المجتمع العربي في ثوبها البعيد عن مقاسها كما حدث في جنوب اليمن، فما هو إلّا تكريس للواقع الذي قاد إلى الهزائم المستمرة، وهكذا حدث فعلاً، لقد ملأ القوميون العرب الساحة السياسية التي تحيط بفلسطين، بالعديد من التنظيمات بعد أن تشظت، وأكثرها يقول بالماركسية. لماذا هذا التشظي؟ فإذا كانت الأداة أصلاً موحدة تنظيماً وأيديولوجياً، فلماذا هذه الانقسامات التي توالدت؟

من المعروف أن كثرة التنظيمات في ساحة ليس بها حرية تعبير ولا ديموقراطية سليمة، هي لأسباب عديدة مضادة لطموحات الجماهير، أهمها منع خلق تيار رئيس في هذه الساحة، يكون قادراً على فضح الواقع المريض ومسبّباته، وتوعية كافة الجماهير على حقيقته، ومن بعد قيادتها بنضال دؤوب من أجل تصحيحه تصحيحاً





يقود إلى الطريق الذي يوصلها إلى أهدافها المشروعة. وأصدق مثال على هذا الحقيقة، هي ديموقراطية الملك حسين، قبل أن تبدأ وتملأ الساحة السياسية في الأردن الصغير، التنظيمات السياسية التي تُسمى أحزاباً ويختمها بقانون انتخابي يسمى قانون (one man one vote) (لكل ناخب صوت واحد لمرشح واحد)، وهو قانون لا مثيل له في الديموقراطية، ولقد أوجدوه للتحايل على ذهن المواطن، والعودة به إلى ديموقراطية (توفيق أبو الهدى) من أحد شقوق هذا البنيان المتآكل.

وحتى يطال التساؤل كل القوى والشخصيات التي ساهمت في هذا المسار المتعثر، وساهمت في إيصاله إلى هذا الواقع المأساوي، لا بد أن أجيب على تساؤل مشروع حول قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في تلك المرحلة، أي منذ تأسيسه وحتى الانفصال، وما بعده، أي المحطات البارزة في هذا المسار الطويل.

## حزب البعث

تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي كحزب (البعث العربي) أولاً على يد الأستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، وعقد مؤتمره التأسيسي في السابع من نيسان عام ١٩٤٧، واكتمل اسمه (كحزب بعث عربي اشتراكي) بعد الاندماج بين حزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي، الذي أسسه الأستاذ أكرم الحوراني ويمكن اعتباره الوريث لكل الحركات والتيارات الفكرية التي سبقته منذ الكواكبي الذي قال بتميز العرب في خلافة بني عثمان ومروراً بالمنظمات العربية المدنية والعسكرية، والقوميين العرب اللبنانيين، وكل من دعا إلى وحدة العرب ونهوضهم حتى عصبة العمل القومي، وقد حقق الذين أسسوا الحزب للأجيال العربية المتطلعة إلى الوحدة والتحرر فكراً موضوعياً وأداة لتحقيق أهداف هذا الفكر الذي صمد في ساحة الصراع الجبار بين الأيديولوجيات الكبرى (الرأسمالية والماركسية) والقوتين العالميتين اللتين تقفان خلف هاتين الأيديولوجيتين وأدواتهما في هذه المنطقة الداخلية خاصة تلك التي تملك ربع النفط.

واعتبر البعث نفسه استمراراً وامتداداً لثورة العرب التي أعلنها وقادها الحسين بن علي شريف مكة آنذاك، واغتالها المستعمرون الإنكليز والفرنسيون، وتسلم رايتها واعتبرها

رايته، وقد صمد البعث أمام أكثر من هجوم شرس، قام به الأقربون والأبعدون، من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى أم المعارك الخالدة وما بينهما من أحداث جسام، وأمام عمليات الاختراق من داخله ومن أطرافه الخطيرة والقاتلة التي قامت بها القوى الدولية ومخابراتها مدعومة بأموال النفط وحراسه، محاولة أن تخلق له أكثر من شبيه، ولكن يكفي البعث إثباتاً على أصالته، أنه مثل بطولة القرن على امتداد أكثر من ربع قرن على ساحة العراق، أمام المؤامرات الداخلية والخارجية اللئيمة والخبيثة، من قوى قلما تخيب مخططاتها، وفي واقع متعدد الأعراق، متعدد الأديان والطوائف، وفي موقع جغرافي لا يماثله موقع محاط بالأعداء من جميع اتجاهاته، ويهزم دولة تقودها (ثورة)، في قمة هياجها واندفاعها، قيادة وجماهير، والأكثر تعقيداً أنها ترفع راية الإسلام (تراث العرب وسبب خلودهم) وتكبره بأربعة أضعاف مساحة وسكاناً واقتصاداً، وتمتلك جيشاً مسلحاً بأحدث الأسلحة وأوفرها، ومع ذلك قاتلها ثماني سنين ضواري حتى هزمها، ويتوج صراعه المشروع من أجل البقاء في واقعة ليس لها مثيل في التاريخ (أم المعارك الخالدة).

إن شعار البعث الذي يمثل عصارة فكره والمعبر بعلم وموضوعية عن الطريق الأسلم والأصح لتحقيق أهدافه، كان يجب عليه أن يكون العاصم من الانحراف، إن كان إلى اليمين أو إلى اليسار، لأن الحرية المتوسطة شعار البعث والتي تمسك الوحدة بيسارها، والعدالة بيمينها، هي التي تجعل من هذا الشعار مضموناً موحداً. يستند تحقيقه إلى النضال من أجل تحقيق حرية الإنسان العربي والتي إن تحققت، ستقود إلى الهدف الذي سعى ويسعى إليه هذا الإنسان، إلّا أن قيادة البعث إما لأنها لم تلتزم بهذا الفكر الذي قالت به لأسباب أهمها أنها قالت بفكر لم تستطع تحقيقه بأساليب عمل ترمي إلى مستوى تحقيق مضمون هذا الفكر، أو أنها قالت بفكر وخلقت أداة لتحقيق أهداف هذا الفكر، وهي لا تملك المقومات النضالية المعروفة لتحقيق أهداف هذا الفكر، مع أنها سلكت في البداية الطريق القويم حينما دعمت النهج الديموقراطي في سورية، وتضاعف عدد ممثلي الحزب في البرلمان السوري في الدورة التالية للانتخابات البرلمانية في الخمسينيات، وكانت كتلة الحزب والمتحالفين معها في مجلس النواب في سورية ذات تأثير كبير في توجهات البرلمان السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكان يجب الثبات على هذا النهج، ومقاومة كل انحراف والنضال ضده.





إلّا أنها بديلاً عن هذا الثبات الاستراتيجي المبدئي، استخدمت التكتيك السياسي ضد من اعتبرتهم خصوماً، وهم ليسوا كذلك، وتحالفت مع قوى عسكرية مشبوهة ضدهم، فقد شجعت قيادة الحزب التاريخية انقلاب حسني الزعيم وشاركت في أول حكومة شكلها، ثم اختلفت معه بعد أن ألغى الديموقراطية، وقام بالدور المطلوب والمرسوم له إقليمياً ودولياً، والذي كان في بنوده الأساسية الدخول في مفاوضات الهدنة التي كانت سورية في ذلك العهد ترفض الدخول فيها، وثانيها (مد خط أنبوب التاب لاين) عبر سورية إلى لبنان، والتي كانت مطالب للعهد السابق لانقلاب الزعيم سقفها عالياً، وشجعت بعد ذلك على انقلاب أديب الشيشكلي ضد النظام البرلماني القائم آنذاك، وكانت في ذلك الحين ديموقراطية مقبولة في حدود الواقع، والديموقراطية لا تولد راشدة، وذلك من أجل منع اتجاه حزب الشعب من بناء علاقة جوار حسنة مع العراق. وكذلك اختلفت مع نظام الشيشكلي بعد أن قام بدوره بإلغاء الديموقراطية ومنع أية علاقة طيبة مع العراق. وكان موقفها من أحداث الأردن عام ١٩٥٧ بعيداً جداً عن معنى البعث وأسباب وجوده. وكان موقفها من الملك حسين قد حسم الأمر لصالحه ضد الديموقراطية، ومن خلال هذا الموقف السياسي سلمت الحزب مدنياً وعسكرياً إلى سلطة الملك حسين الانقلابية المطلقة، التي قادت بعد عشر سنوات من هذا التاريخ إلى هزيمة عام ١٩٦٧، وإذا كان القول أن المؤمن لا يلدغ من الحجر الواحد مرتين صحيحاً، وأن الإنسان يتعلم من أخطائه صحيحاً أيضاً، يتضح حينها أنها هذين القولين لا ينطبقان على قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي التاريخية، لذلك فقد أدمنت على اللدغ من جحر اللاديموقراطية ولم تتعلم من هذه الأخطاء، مع أنه كان لديها عاصم من ذلك وهو فكر البعث وشعاره المعبر الذي صاغته في (وحدة، حرية، اشتراكية). وختمت مطافها كقيادة موحدة بلقائها السياسي بالرئيس عبد الناصر، والتسليم له بصيغته الوحدوية، التي ألغت الديموقراطية القائمة آنذاك في سورية لمصلحة وحدة (لا ديموقراطية) قادت إلى الانفصال فيما بعد.

## الأردن عام ١٩٦٢ وما بعده

بعد خروجي من السجن في عام ١٩٦٢، وبعد خمسة أشهر من ذلك التاريخ عينت في وظيفة مساعد للإدارة، في قسم المشاريع في مجلس الإعمار، عُدت للتنظيم في الحزب كعضو عادي في فرقة مأدبا الحزبية، وكان عدد أعضائها الأصليين لا يتجاوز

أصابع اليدين، يتولى أمانة سر الفرقة الرفيق وليد نويران وكانت جزءاً من تنظيم شعبة الأطراف، التي كانت تقود تنظيم الحزب في محافظة العاصمة (أي خارج العاصمة عمان)، لا أذكر أي نشاط حزبي يعلق في الذهن للفرقة في تلك المرحلة ولا حتى للحزب، فأنا لم أقرأ أي نشرة للحزب، سياسية أو تنظيمية أو فكرية، والظاهر أن الهدف الأساسي في تلك المرحلة كان الحفاظ على البنية التنظيمية للحزب كي تبقى قائمة.

بعد أشهر قليلة من إعادة تنظيمي في صفوف الحزب، جرت انتخابات في شعبة الأطراف فانتخبت عضواً في مؤتمر الشعبة، وفي مؤتمر الشعبة انتخبت عضواً في قيادة الشعبة، والغريب أنني لم أعرف ولم أسأل أيضاً إن كانت هذه الانتخابات خاصة فقط في شعبة الأطراف أم أنها تجري في صفوف الحزب عامة، وهذا السلوك ناتج من سلطان أجهزة الأمن الذي يبسط ظله على كل مواطن، حتى إذا اعتقلت وسئلت أقول صادقاً أنني لا أعرف. وكان لقاء قيادة الشعبة الأول في منزل الرفيق سامي بطشون، وفي هذا الاجتماع جرى توزيع مسؤوليات الرفاق أعضاء قيادة الشعبة، ولنفس الأسباب الأمنية لم أحاول التعرف على مسؤولية الرفيق سامي بطشون آنذاك.

لقد استمرت حكومة السيد وصفي التل في الحكم حتى نهاية الثلث الأول من عام ١٩٦٣، وكان أمن الأردن في ذلك الحين مستتباً داخلياً وخارجياً، إلّا أن هذا الواقع لم يستمر طويلاً، فلا يمكن ان يكون هناك استقرار دائم خارج النظرة الدولية (وخاصة الأطلسية) لمستقبل الإقليم، ففي العراق كان عبد الكريم قاسم يدفع بالعراق خارج سربه، مثله في ذلك مثل نوري السعيد، وإن باستراتيجية مختلفة، كانت أكثر صعوبة. صحيح أن سياسته كانت تحظى بدعم دولي في المرحلة الأولى من حكمه، ولكن هذا الدعم لسياسته انتهى بانتهاء الوحدة بين سورية ومصر، والمد الناصري، خاصة وقد فتح (طاقة الكويت)، التي تهب منها رياح السموم على العراق، كلما استدعت سياسة المستعمرين ذلك. وهذا النوع من الأنظمة هو مرحلي مهما طال به العمر، يأتي للسلطة من أجل تغييرات محددة داخلياً وخارجياً تخدم أهداف القوى الدولية، يذهب ويزول بعد تحقيقها، خاصة الأنظمة التي تصل إلى السلطة من خلال الانقلابات العسكرية التي ليس لديها برنامج إصلاح هدفها تحقيق ما يفتقده إنسان هذا الواقع، وبالتأكيد أن نظام عبد الكريم قاسم قام بمهمتين وطنيتين:



١ – إلغاء النظام الملكي التابع وإقامة الجمهورية.

٢ – المرسوم (٨١)، الذي سحب من الشركات النفطية أكثر من ٩٠٪ من الأراضي التي يشملها حق الامتياز في التنقيب عن النفط في العراق.

ومع ذلك فقد وصل النظام في العراق إلى سقفه، بعدما يقرب من خمسة أعوام في الحكم، وفي أواخر هذه السنين فقد تأييد شعب العراق له، فأنت لا تستطيع أن تلعب إلى الأبد على حبال السياسة الدولية، فأساس الحكم هو تأييد الشعب لك (أي للسياسة التي يسير عليها النظام)، وكل حاكم يفقد تأييد الشعب له، لن يبقى في الحكم إلّا بواسطة القمع والإرهاب، ودعم القوى الدولية ذات المصلحة، وأنا هنا أعني البلدان التي لديها القدرة على البناء الذاتي، ولا أعني شرقي الأردن والبحرين ومن هم على هذه الشاكلة بمن فيهم «إسرائيل».

## ثورة الرابع عشر من رمضان في العراق

في صبيحة الرابع عشر من رمضان، الثامن من شباط ١٩٦٣ قام حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تتوافق مبادئه تماماً مع طموحات عرب العراق، قام بثورة شعبية مسلحة مخططة ومنظمة، مدعومة بقوة من بعض قطاعات الجيش، وبعض الطيارين في القوة الجوية، ثورة لم يجر لها مثيل ضد أي نظام عربي منذ الاستقلال، دام الصراع حول وزارة الدفاع مقر عبد الكريم قاسم أكثر من ٢٤ ساعة، بعدها حسم الصراع لصالح الثوار.

تسلم حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة، وحوكم عبد الكريم قاسم والمهداوي محاكمة سريعة، أعدما بعدها، وجرت تصفيات دموية في صفوف مؤيدي عبد الكريم قاسم، وخاصة في صفوف الحزب الشيوعي، الذي كان يشكل هو ومؤيدوه القاعدة الشعبية لنظام عبد الكريم قاسم ويضم في صفوفه كل العناصر المناهضة لقومية العراق، وأنا طبعاً كنت وما أزال ضد ما جرى، ولكنني أتفهم ظروفه وأسبابه، وعلينا أن نعي أنه منذ حمورابي وشريعة موسى، وصولاً إلى الإسلام وشريعة القصاص قائمة (وإن تطورت في هذه الأيام بتطور الواقع) والبادئ دوماً هو الأظلم، وعلينا أن نتذكر

أن قاعدة عبد الكريم قاسم الشعبية التقدمية هذه هي أول من ابتدع أساليب للقتل لا سابق لها في الوطن العربي، فهم الذين كانوا يسحلون ضحاياهم حتى الموت، وهم الذين كانوا يعلقون جثث ضحاياهم على أعمدة الكهرباء، وهم الذين ابتدعوا أسلوباً للعدالة لا يشابهه أسلوب، في محكمة المهداوي ذائعة الصيت سيئة السمعة، وعلينا أن نكون عادلين من خلال تقييم الواقع تقييماً غير منحاز، أوله التعبئة النفسية في صفوف هؤلاء الشباب الذين قاموا بالثورة، والواقع الذي عايشوه قبل قيامها في ظل إرهاب تنظيمات الحزب الشيوعي، ويجب أن نتذكر أن كل العراقيين الذين كانوا في هذا الجانب السياسي يتذكرون بمرارة مذبحة (أم الطبول) السوداء، وعلينا أن لا نسقط من تقييمنا العناصر تحت لواء الثورة، إن كان لأغراض خاصة (ومنها الثأر الشخصي) أو لحساب أجهزة دولية، فكل من عمل بالسياسة وعايش الأحداث في هذه المنطقة المهمة عالمياً، يعلم أنه ومنذ انقلاب بكر صدقي في العراق وحتى ما سمي بـ«الحركة التصحيحية» في سورية، إلّا وبها امتدادات دولية.

## انقلاب ٨ آذار في سورية ١٩٦٣

بعد شهر واحد من ثورة الثامن من شباط في العراق، قام تحالف بين العسكريين السوريين، لحمته الأساسية الضباط البعثيون الصغار الذين لم يطلهم التسريح لا في زمن الوحدة ولا في زمن الانفصال، وقائد الجبهة السورية في حينه العميد زياد الحريري والضباط الموالون له، وأعلن الانقلابيون الجدد في بياناتهم أن مهمتهم الأساسية هي القضاء على الانفصال، وتبين فيما بعد، بعد أن (ذاب الثلج)، عمق زيف هذا القول، وأن الصفة باطلة، لأن كل من جاء بعد حكم الانفصال كان أبعد عن الوحدة من الذين قاموا بالانفصال، فهؤلاء الذين قلبوا نظام الانفصاليين لم يكونوا انفصاليين فقط، بل كانوا قطريين، وما الزيف الكثيف الذي كان يصاحب أقوالهم عن الانفصال والانفصاليين إلّا من أجل تغطية حقيقتهم، إن الذين قاموا بالانفصال أرادوا العودة بسورية إلى ما قبل الوحدة، أما القطْريون فهم حالة مختلفة تماماً، أساسها العداء للعروبة وبالتالي للوحدة، مهما قالوا ووضعت في أقوالهم مخابر الإمبريالية مقولات وأفكاراً مدعومة من قوى إعلامية عاتية، فحقيقتهم هي كذلك، لقد كان المخطط، أن يصبح الحكم في سورية قطرياً معادياً للعروبة ومعادياً بالتالي للوحدة وهو كذلك في نهاية القرن العشرين، هذا الواقع الجديد في العراق وسورية آنذاك، مع علاقات مأزومة





مع مصر، وضع الحكم في الأردن في وضع قلق، وقد أقدم الملك حسين على خطوة (وقائية)، فبالاتفاق مع مدير مخابراته آنذاك اللواء (محمد رسول) تم اعتقال البعثيين القياديين والكادر المتقدم في الحزب، وكذلك قادة تنظيم الضباط الذين أفرج عنهم قبل عام وشهرين من هذا التاريخ، وقد انقسم الحكم على نفسه حول تلك الاعتقالات، فرئيس الوزراء آنذاك السيد وصفي التل رفض الموافقة عليها، خصوصاً أنها تمت بدون موافقته واستشارته.

وقد تم اعتقالي من منزلي في مأدبا بواسطة (قائد درك) مأدبا، وكنت أعرف أن هذا الأمر سيتم، وقد أعددت لوازم هذا الأمر، ولم أنم أنا ولا زوجتي إلى أن قرع الباب في الساعة الثانية عشرة ليلاً، حينها أخذت حقيبتي وخرجت (فمن يقرع أبواب البيوت في مثل هذه الساعة إلّا هؤلاء....)، فلما رآني قائد الدرك أفتح الباب وحقيبتي في يدي، استهجن الأمر، وأوصلني إلى قيادة منطقة البادية أمام مخيم الوحدات في عمان، وهناك وجدت محمود المعايطة ينتظرني، وفي نفس الليلة نقلونا إلى الجفر، وكان قد سبقنا إلى هناك الكثير من المعتقلين، وبعد وصولنا إلى المعتقل عاد كل منا إلى مكان سكناه في المعتقل، حيث مكثنا تسعة وثلاثين يوماً، اضطر الملك الحسين ـ على ما يظهر ـ أن يأمر بإطلاق سراحنا، بعد أن أصر رئيس الوزراء السيد وصفي التل على موقفه بأنه لن يوافق على هذه الاعتقالات، ولهذا بعد أن أطلق سراحنا قدّم السيد وصفي التل استقالة حكومته، وكلف الملك حسين السيد سمير الرفاعي بتشكيل الحكومة الجديدة، وما أشبه اليوم بالبارحة، فبعد استقالة المرحوم هزاع المجالي إثر مظاهرات حلف بغداد، خلفه حينها السيد سمير الرفاعي برئاسة الوزراء، وأول فعل قام به رئيس الوزراء الجديد بعد تشكيل حكومته هو إعادة اعتقال من أفرج عنهم من المعتقلين وإضافة أعدادٍ جديدة من جميع الاتجاهات السياسية والعسكرية، وقد تبين فيما بعد أن الملك حسين بالرغم من إسناده رئاسة الوزراء إلى السيد سمير الرفاعي، إلّا أنه على ضوء الواقع المحيط بمملكته كان حريصاً على أن لا يقيد مبادراته الذاتية ورؤاه السياسية الخاصة برئيس وزراء مدعوم من دول كبرى، وقد قرر على ما يبدو أن يكون رئيس الوزراء في تلك المرحلة شخصية مطلقة الولاء له ولملكه، لأنه ما كان يعلم الغاطس من سياسات الدول الكبرى، التي لها تأثيرها في الواقع المحيط به، ومن هنا فإن رئيس الوزراء الخبير والمتمرس في شؤون الحكم والسياسة، ما كان ينوي أن

يتقدم بطلب الثقة لحكومته من مجلس نواب كان يسمى في حينه (مجلس نواب وصفي التل)، إلّا أن الملك حسين لم يكن ينوي أن يبقى السيد الرفاعي رئيساً للوزراء في الظرف المحيط بالأردن في حينه، ولذلك طلب إليه أن يأخذ ثقة مجلس النواب، وهو يعلم أن مجلس نواب (وصفي التل) لن يعطي الثقة لسمير الرفاعي.

وهكذا اضطر رئيس الوزراء أن يتقدم إلى مجلس النواب طالباً ثقته بالحكومة، وما إن فعل ذلك حتى ووجه بهجوم شرس من النواب، هجوم لا سابق له في تاريخ المجلس على رئيس وزراء، وفي أوساط الشعب في الأردن قول مشهور يقولونه (في سنة سمير لا قمح ولا شعير)، وقد قاله أحد النواب له في هذه الجلسة، وطبعاً كانت نتيجة الاقتراع حجب الثقة عن حكومة السيد سمير الرفاعي، وعلى ضوء هذه النتيجة طلب رئيس الوزراء من الملك حل مجلس النواب، فاستجاب الملك حسين لهذا الطلب ولكنه بعد ذلك طلب من رئيس الوزراء تقديم استقالة حكومته، وحينها تخلص الملك حسين من برلمان وصفي التل ومن حكومة السيد الرفاعي، وبهذا ودع السيد الرفاعي المسرح السياسي، كما ودعه قبل ذلك السيد توفيق أبو الهدى، كلف بعدها الملك الشريف حسين بن ناصر رئيس الديوان الملكي بتشكيل الحكومة الجديدة، والشريف حسين بن ناصر هو ابن الشريف ناصر شقيق الشريف الحسين بن علي شريف مكة وصاحب الثورة العربية، وهو عم الملكة الوالدة، ومتزوج من إحدى عمات الملك، ومن هنا لم يوجد من هو أوثق منه في الأردن لتولي رئاسة الوزراء في تلك المرحلة الدقيقة.

## واقع حزب البعث العربي الاشتراكي في الأردن ونشاطاته

في ذلك الحين، لم يكن في برنامج الحزب والذي هو جزء من الحزب في الوطن العربي وخاصة في سورية والعراق، أي مخطط أو برنامج عمل من أي نوع يستهدف زعزعة الأمن والاستقرار في الأردن، والحزب في تلك المرحلة لم يكن قادراً بعد انحسار مدهِ نتيجة الخلاف مع الرئيس عبد الناصر، وانقسام قيادته في الأردن، بعد الانشقاق الذي قاده الأستاذان عبد الله الريماوي وبهجت أبو غربية في صفوفه، لم يكن قادراً على تهديد أمن النظام في الأردن، ومن هنا لم تكن الاعتقالات التي تمت في صفوفه سوى مبادرة من الملك حسين الهدف منها إثبات وجود النظام، والتمظهر بالقوة.





والنشاط السياسي الوحيد الذي حضرته بعد الإفراج عنا بعد الاعتقال الذي حدث وحكومة السيد وصفي التل في الحكم، كان اجتماعاً برئاسة أمين سر قيادة القطر الدكتور منيف الرزاز في حينه، في منزل الرفيق شاهر أبو شاحوت في محطة عمان، وقد ضم هذا الاجتماع الذي ترأسه الرفيق الدكتور منيف الرزاز العسكريين القدامى ومنهم أعضاء اللجنة العسكرية السابقة في القيادة القطرية، والهدف من الاجتماع كان واضحاً وهو تأكيد حرص الحزب في الأردن على استقرار الأردن ومن هنا نوقشت في الاجتماع نوايا بعض القوى السياسية التي قد تستغل الظرف محاولة الاستيلاء على السلطة، أو تهديد الأمن في الأردن لمصلحة قوى دولية.

### مباحثات الوحدة:

أثناء وجودنا في معتقل الجفر، بعيد الاعتقالات التي جرت والسيد وصفي التل رئيساً للوزراء، جرت مباحثات الوحدة بين كل من مصر وسورية والعراق، وطبعاً فشلت هذه المفاوضات، وأنا أقول طبعاً بعد أن عرفت خلال هذا الزمن الطويل على المواقف الحقيقية لكل الأطراف: ـ

**أولاً:** لم يكن هناك أرضية مشتركة لا في الأيديولوجية ولا حتى في السياسة للوقوف عليها، فالرئيس عبد الناصر كان يريدها وحدة ثنائية كما كانت بين مصر وسورية، (أي إعادة الجمهورية العربية المتحدة أولاً)، ومن ثم يجري البحث في كيفية انضمام العراق إليها.

**ثانياً:** إن العراق لديه تحفظ شديد على ذلك، فالعراق تهمه علاقته بسورية أولاً وقبل كل شيء.

**ثالثاً:** إن الشكوك كانت عميقة بين الأطراف المتفاوضة، والتجربة السابقة لا تساعد في تجربة مماثلة.

**رابعاً:** كل الأطراف المتفاوضة كانت تخاف مخاطر الخطوات الجدية باتجاه التوحيد، إقليمياً ودولياً، فالأمر والواقع كانا مختلفين عن ظروف وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية.

**خامساً:** كل الأطراف في صفوفها قوى أساسية لها توجهات أثبتت الأيام سيرها.

وبعد أن فشلت المفاوضات وسار كل في طريقه الحقيقي، فتحت مصر كل ما تملك من فوهات إذاعية على البعث والبعثيين، وإعلام مصر في مرحلة عبد الناصر إعلام مسموع، ومكرر عربياً ودولياً، وخاصة حين يكون الهجوم من عبد الناصر على البعث، فكل الحكام العرب وأكثرية الناس يصبحون ناصريين، حتى الـ B.B.C تصبح ناصرية أما البعث فلا يستطيع إلّا أن يكون في موقف الدفاع غير المبادر، ليس لأنه ليس لديه ما يقوله، بل لأنه ملتزم بفهم وسلوك تجاه الرئيس عبد الناصر، بينما أجهزة الإعلام في مصر والقائمون عليها لا يوجد ما يمنعهم من الذهاب بعيداً حتى حدود التشهير (والردح)، فلا ضابط فكري ولا رادع أخلاقي، وفي أحد المقالات الشهيرة التي كان يكتبها كل يوم جمعة الأستاذ محمد حسنين هيكل، في جريدة الأهرام، والتي كان يعاد نشرها في الكثير من الصحف العربية، وتذيع أهم فقراتها إذاعة الـ B.B.C (العدو اللدود لعبد الناصر)، في هذه المقالة انصبّ الهجوم على البعث قيادة ونهجاً (وهيكل قدير على إدغام الحقائق الموضوعية بالأدب الرفيع)، وقد كانت هذه المقالة مغضبة للبعثيين، ومهيجة ضد البعث وكنا جميع البعثيين نستمع إليها، فأفرغ (محمود) غضبنا حين صاح بأعلى صوته (Escaleton) اشتراكية ـ أي (هيكل اشتراكية)، والكلمة تعبير عسكري إنكليزي يعني (مناورة تدريب بهيكل الوحدة).

## في سجن عمان المركزي؟

في الاعتقالات التي تمت في ظل حكومة السيد سمير الرفاعي، كنت الوحيد بين البعثيين الذي أودع سجن عمان المركزي، أما الباقون فأودعوا سجن الجفر، وقد سكنت وتعايشت مع الأخوة حمد الفرحان، جعفر الشامي، وتوفيق الحياري، وكلهم في تلك المرحلة الخلافية بين الرئيس عبد الناصر والبعث، كانوا ناصريين، ولذلك لم يكن هذا التعايش مريحاً بالنسبة لي، ولذلك كنت أمضي معظم أوقاتي مع بعض الرفاق البعثيين الذين تعرفت إليهم في السجن، ومع داود عبد الهادي الذي كان معتقلاً آنذاك في سجن عمان المركزي.

في أيلول ١٩٦٣ جرت محاولة انقلابية في دمشق، قام بها الناصريون بقيادة العقيد





المتقاعد جاسم علوان، هدفها الاستيلاء على السلطة. التقاني داود عبد الهادي في الصباح، قال لي إن انقلاباً عسكرياً حدث في دمشق، استولى فيه الناصريون على السلطة، وقد انقطع البث الإذاعي من إذاعة دمشق قبل دقائق، وكانت إجابتي على الخبر الذي لم يثرني: إذا كان البعثيون في دمشق لا يستطيعون الاحتفاظ بالسلطة، حق حينها أن يذهبوا، وفي لحظتها سمعت السيد توفيق الحياري (يقصد):

(والثأر ثار لنا ياثارنا بثأرين)، وهي قصيدة على الربابة للنوري الذي كان يعمل في الإذاعة الأردنية، ومطلعها:

حيهم جنود الوطن حيهم جنود حسين
ربع الكفاف الحمر والعقل ميالة

مثلت أدب مرحلة الانحطاط تلك، وهو قول لا ينطبق على فعل، وطبعاً كان المقصود إسماعي أنهم أخذوا بثأرهم، فحزنت وأسفت أسفاً بالغاً، واعتبرت ذلك دلالة على الضحالة في الفهم السياسي.

وقبل أن ينجلي الموقف في دمشق في ذلك اليوم، زارني في السجن الرفيق حاكم الفايز وأبلغني خبر الانقلاب، وحاكم في حينه كان مع الانقلابيين، لأنه ما زال في خط عبد الله الريماوي، فقلت له نفس القول الذي قلته لداود.

وبعد أن غادرني، التقى الرفيق منصور الجمعاني (أبو سليمان)، وقال له أنني كنت في زيارة أبو موسى، وأبلغته خبر الانقلاب في دمشق وقلت له أنه لم يبق مع هؤلاء الناس في دمشق أحد، ومع ذلك لم يغير رأيه.

## إلى منفردات المخابرات العامة المنفردة

بعد هذه الأحداث بفترة وجيزة، نقلوني إلى منفردات المخابرات العامة، ووضعوني منفرداً لمدة أسبوع، دون أن يتحدث إلي أحد. ولم أشعر حينها بأي توجس، أو تحسب، لم يكن هناك ما أخافه، يدلل على ذلك أنني نسيت نفسي وأين أنا. وبينما

أنا متمدد على فراشي بدأت (أقصد) بصوت خفيض لكنه بدا مسموعاً، دق الحارس على باب المنفردة (إنت أسكت) فسكتُّ، وفي المساء فتح باب المنفردة، ودخل علي (ضابط صف) قائلاً لي: تفضل. قادني إلى مكتب صغير، وهناك وجدت اللواء محمد رسول يجلس على مكتبة وأمامه يجلس على كرسي الرفيق عبد الرحمن العرموطي، وكانت أول مرة ألتقي فيها الرفيق عبد الرحمن منذ اعتقالنا، فسلمت عليه وجلست بجانبه. أيضاً كانت المرة الأولى التي ألتقي بها (أبو رسول) في حال تحقيق.

بقي أبو رسول صامتاً لفترة يشغل نفسه بحركات قاصداً التأثير من خلالها في الجالسين، وبعدها كسر الصمت موجهاً الحديث إلى عبد الرحمن قائلاً: لدي معلومات أنك المسؤول العسكري عن تنظيم حزب البعث العربي الاشتراكي في الجيش، وأن ضافي مساعدٌ لك في هذه المهمة، وأجبت أنا فوراً على هذا القول دون أن أعطي عبد الرحمن فرصة الرد، قلت: لا يمكن أن تكون هذه المعلومات صحيحة، لأن موقعي في الحزب أرفع من موقع عبد الرحمن الحزبي، ولهذا لا يمكن أن أكون مساعداً له. صمت (أبو رسول) فترة، وبعدها أنهى اللقاء، وأعادونا في اليوم التالي إلى سجن عمان المركزي. لم أتحدث مع عبد الرحمن في الموضوع فيما بعد، واعتبرت الموضوع كله اختلاقاً من مدير المخابرات العامة الهدف منه، التعرف إليّ وإلى نوعيتي، خصوصاً أنه كان لديه فكرة أراد أن يتثبت منها.

وحين عودتنا إلى السجن المركزي وجدنا شاهر وهاجم الهنداوي، فسكنت معهما أنا وعبد الرحمن العرموطي. أمضينا في هذا الاعتقال مدة عام وشهرين جرت خلالها التغيرات والأحداث التالية:

أ ـ فشل محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسورية والعراق فشلاً نهائياً.

ب ـ فشل محاولة الانقلاب التي قام بها الناصريون في دمشق.

ج ـ سقوط حكم حزب البعث العربي الاشتراكي في بغداد واستيلاء عبد السلام عارف على السلطة في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣.

حينما عُيّن عبد السلام عارف رئيساً للجمهورية، ورفّع إلى رتبة مشير، بعد انتصار





ثورة شباط شعرت بعدم الارتياح لهذا التعيين، وقلت لأحد الرفاق ونحن في السجن، أن البعثيين يُحيون الأموات، لأن عبد السلام عارف كان قد مات كسمعة في محكمة المهداوي، لقد كان موقفه ذليلاً أثناء المحاكمة وكان الفرق شاسعاً بين موقفه الذليل ذلك، وموقف شهداء أم الطبول، وأخص بالذكر منهم (رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي) رحمهما الله، فهو لا يستحق إطلاقاً هذا التكريم.

وأنا طبعاً لم أعرف كيفية حدوث الثورة بالتفصيل ولا كيفية الإعداد المسبق لها، ولا الأسباب والعوامل التي سببت سقوطها، لأنه لم يتح لي الاطلاع على بحث أو دراسة حول هذا الموضوع، ولم يقم الحزب بأي جهد أعرفه في ذلك الحين يبين ذلك، ولكنني على ضوء تجربتي أستطيع أن أتبين العوامل الرئيسية التي سببت سقوط الثورة، وهي :

١ ـ إن الثورة على عبد الكريم قاسم كانت ثورة التيار القومي ضد اتجاه عبد الكريم قاسم ونهجه السياسي، صحيح أن الذين قاموا بالثورة وسقط منهم الكثير من الشهداء هم البعثيون في الحرس القومي والجيش، لكن الحكم مثّل الاتجاه القومي خاصة بعد وضع عبد السلام عارف على رأس الدولة، والكل يعرف أن التيار القومي لم يكن موحد الفكر، موحد النهج السياسي، وكان فيه تعارضات كبيرة وتناقضات بين بعض فصائله وأفراده وامتداداته لا يعرف إلى أين تنتهي إلّا الله وأصحاب العلاقة.

٢ ـ كان هناك تداخل وتعارض في المواقع والمسؤوليات، فعبد السلام عارف الذي لم يكن ينتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، أصبح رئيساً للجمهورية ولا أحد قادر في ذلك الحين على تقرير حدود مسؤولياته.

٣ ـ إن أمين سر القيادة القطرية والذي هو أعلى منصب قيادي في الحزب في العراق، والمفترض به أن يقود السلطة عن أحد الموقعين، أمانة سر القطر، أو الرئاسة التنفيذية، كان وزيراً في وزارة يرأسها أحد أعضاء قيادته. هذا التعارض في المواقع القيادية المسؤولة جعل المَسؤوليات متعارضة، والواجبات في تصادم مستمر.

٤ ـ والأمر الأكثر تعقيداً هو الحيز الواسع الذي ملأه الحرس القومي، فقد ملأ الساحات والشوارع والمنعطفات، بفرض إرادته وسلطته غير المحدودة على الناس يفتشهم ويعتقلهم، وبين هؤلاء الناس ضباط الجيش العراقي.

إن الذين قاموا بالثورة وقاتلوا من أجل نجاحها واستشهد منهم الكثير هم الحرس القومي، وكلهم في حينه ينتمون لحزب البعث العربي الاشتراكي، وبعض ضباط الجيش ممن كانوا في الخدمة أو خارجها، وهؤلاء هم الذين يستحقون الثناء والتمجيد. والذين قاموا بهذا العمل المجيد لم يكونوا بهذا العدد الذي ملأ كل فراغ في مدينة بغداد، لأنهم لو كانوا بهذا العدد لما احتاجوا إلى ثورة لإسقاط عبد الكريم، وكان يكفيهم أن يقوموا بمظاهرة مسلحة، وهذه الأعداد الكبيرة التحقت بالحرس القومي بعد نجاح الثورة، ومعروف دوماً أن الملتزمين بالمبادئ المقاتلين من أجل تحقيقها هم أكثر حياء وتواضعاً، أما التطرف في السلوك فهو سمة الانتهازيين والمشبوهين، الذين لم يقاتلوا والذين هم في الواقع ليسوا شجعاناً، وأهم هذه الأبعاد التي سببها تمتع هؤلاء الشبان بالسطوة، هو الصدع الذي حدث في العلاقة بين الحرس والجيش ليصبح مع الزمن شرخاً يصعب إصلاحه، وكان في مقدمة الساخطين الضباط البعثيون صغاراً وكباراً، وإذا ما أخذنا بالاعتبار الميزة التي يتمتع بها جيش العراق كجيش ذي تراث وطني لا يساويه تراث أي جيش آخر من جيوش الأمة العربية بعد الاستقلال، عرفنا أسباب السخط.

٥ ـ إن الثورة ضد عبد الكريم قاسم كانت ثورة التيار القومي، ومن طبيعة الأمور أن تظهر وجهات نظر كانت مطوية في مرحلة مواجهة الهدف الأساس، الذي هو إسقاط النظام (خصوصاً أنه لم يكن هناك برنامج عمل سياسي متفق عليه بعد سقوط النظام)، وأذكر بالتحديد سبباً رئيسياً قاد إلى فشل الثورة وهو فشل مباحثات الوحدة بين مصر وسورية والعراق.

## دور قيادة الحزب القومية خلال الأزمة

قام وفد من القيادة القومية للحزب بناء على دعوة وجهها في حينه اللواء المرحوم أحمد حسن البكر، عضو القيادة القومية رئيس مجلس الوزراء بزيارة إلى بغداد، تألف





الوفد من الأمين العام للحزب الأستاذ ميشيل عفلق، وعضوية الفريق أمين الحافظ واللواء صلاح جديد عضو القيادة القومية، وبعض أعضاء القيادة من أقطار عربية أخرى، إثر انقلاب عبد السلام عارف وحردان عبد الغفار التكريتي، وبعد عودة الوفد إلى دمشق صرح أحد أعضاء القيادة القومية في حينه وأظنه الأستاذ (نسيم مجدلاني) صرح قائلاً أن الحزب سيبقى مشاركاً في السلطة. هذا التصريح أعطاني انطباعاً ليس عن وضع الحزب في العراق ومشاركته في الحكم، فهذا الأمر كان واضحاً لي، فقد قام انقلاب ضد سلطة الحزب، شارك فيه بعض حسَني النية من البعثيين، وطبعاً بعض سيئي النية، واحتُجزت قيادته الشرعية، وسُفرت (بغض النظر عن حقيقة هذه القيادة)، وانتهى دوره كحزب حاكم، أو حتى كشريك، والانطباع الذي أعطاني إياه هذا التصريح هو عن حقيقة واقع هذه القيادة والتي لم يكن لها دور في تلك المرحلة، إلا تلطيف صيغ النعي لمنجزات الحزب.

إن القيادة القومية تتحمل مسؤولية كبيرة في النتائج التي وصلت إليها ثورة شباط في العراق، وهي التي تمتلك سيف الشرعية، وهي التي لها الحق في تقرير الخطأ والصواب في التطبيق الفعلي في أي موقع يقود الحزب فيه السلطة، فإذا لم تكن القيادة القومية هي المسؤول، فمن هو المسؤول إذاً؟ إن عدم اليقين يأتي من واقع آخر وهو هل كانت القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في حينه تمتلك القدرة والكفاءة والمعرفة لإدارة هذا الصراع؟ وأقول أن مسار مسؤولياتها والنتائج أثبتت أنها لم تكن قادرة على ذلك، ومن هنا أقول أن تكون صاحب فكر صحيح، وخلق أداة لتحقيق طموحات هذا الفكر في الواقع لا يعني أبداً أنك قادر على قيادة هذه الأداة لتحقيق طموحات هذا الفكر السياسي، وقليلون أولئك الذين انتجوا فكراً، وخلقوا أداة ووضعوا نهجاً لمهمة إنسانية صعبة كمهمة تحرير وتوحيد الأمة، وأية أمة؟ إنها الأمة العربية، المستلبة، والمجزأة والتي تتناوشها الذئاب من العمق والأطراف.. قليلون هم الذين حققوا أهداف هذا الفكر.

## الإضراب عن الطعام

بعد اثني عشر شهراً من الاعتقال غير المبرر، قاد البعثيون في معتقل الجفر، وعلى رأسهم الأمين القطري الدكتور منيف الرزاز وأعضاء القيادة المعتقلون، إضراباً عن

الطعام مطالبين بإطلاق سراحهم، وبعد الأسبوع الأول من الإضراب نقلوا إلى سجن عمان المركزي، ولم نعلم نحن السياسيين المعتقلين في سجن عمان عن هذا الإضراب، إلّا بعد أن دخلوا علينا السجن. ولقد قاد هذا الإضراب عن الطعام - الذي قام به سجناء سياسيون، لا يوجد مبرر من أي نوع لبقائهم في المعتقل - قاد إلى نشاط سياسي لم يشهد الأردن له مثيلاً منذ انقلاب الملك الحسين على الديموقراطية في نيسان عام ١٩٥٧.

وقامت نساء المعتقلين وعوائلهم، تساندهم التنظيمات النسوية المهنية بدور بارز في هذا النشاط، فقد قمن بتجمعات ومسيرات احتجاجية إلى رئاسة مجلس الوزراء، وإلى مجلس النواب حيث اعتصمن هناك، وتحدثنَ إلى النواب بأصوات عالية وغاضبة، مما أحرج الكثيرين منهم ولا سيما رئيس المجلس آنذاك السيد عاكف الفايز، الأمر الذي جعلهم يأخذون الأمر بجدية أكبر ونشاط أكثر من أجل إطلاق سراح المعتقلين، وقد قام الشيخ (عبد الباقي جمو) نائب مدينة الزرقاء بدور بارز في هذا النشاط، وكذلك علي الهنداوي، الذين زارا المعتقلين المضربين، وكان (هاجم) من بين الذين ساءت حالتهم الصحية جداً، فبنيته (رحمه الله) كانت ضعيفة، فلما رآه الأستاذ علي بكى.

ولقد زار الكثير من النواب السجن وتحدثوا إلى المضربين عن الطعام محملين بوعود الإفراج طالبين منهم فك الإضراب، قبل الإفراج، إلّا أن المعتقلين رفضوا فك الإضراب دون وعد من الجهة صاحبة القرار أي من الملك، وقد قام النائب الشيخ عبد الباقي بهذه المهمة، فاتصل بالملك حسين الذي كان حينها بمدينة الخليل ضيفاً على (الشيخ الجعبري) فأوضح الشيخ جمو للملك حسين حالة المعتقلين المضربين عن الطعام، ومطلبهم قبل أن يفكوا الإضراب، فقال الملك للشيخ عبد الباقي: أبلغهم أنه سيطلق سراحهم، وحينها أوقف المضربون الإضراب وأُطلِق سراحنا في أيار عام ١٩٦٤ أي بعد قرابة أربعة عشر شهراً من الاعتقال.

## العودة للعمل في مجلس الإعمار

بعد أسبوع من خروجنا من المعتقل ذهبت إلى مجلس الإعمار، لأستطلع الوضع بالنسبة إلى عملي، فأبلغوني أنني أستطيع العودة إلى العمل، وأبلغوني أن لي حقوقاً





ترتبت نتيجة غيابي القسري، والذي أدى إلى فصلي من العمل، وعدت إلى عملي السابق في المجلس، مساعداً للإدارة في مديرية المشاريع، وأعطوني تعويضاً مالياً قيمته سبعمائة وخمسون ديناراً، منحة لم أتوقعها، أسست بها منزلي الذي ما زلت أسكنه في مدينة مأدبا. ومن حسن الحظ أنني عملت في هذا القسم الهام من مجلس الإعمار، فقد شغلت هذه الوظيفة جل وقتي وكنت مفيداً كما أنني قد استفدت، فقد حدث أن اقرض الصندوق الكويتي للتنمية الحكومة الأردنية من أجل استكشاف الإمكانات الحقيقية للفوسفات في منطقة الحسا، جنوب الأردن، وقد تولت مديرية المشاريع في مجلس الإعمار مسؤولية تنفيذ هذا المشروع، وكان في هذا القسم خبير أميركي منتدب من هيئة الأمم (ينتمي إلى الماسونية)، فتعاونت معه من أجل إعداد الدراسات اللازمة لطرح هذا العطاء على الشركات العالمية، وفي أوائل عام ١٩٦٥ وبعد شهرين من طرح العطاء، وردت إلينا عروض الشركات العالمية التي تجاوزت الاثنتي عشرة شركة عالمية، حينها تقرر إرسالي لتقديم أسماء هذه الشركات إلى مكتب المقاطعة، حتى إذا كان بينها من شملته المقاطعة العربية «لإسرائيل» والشركات المتعاونة معها، يجري إسقاطها من قائمة المتنافسين، (أذكر هذه المرحلة هنا لأن لها علاقة بواقعة حزبية غريبة سنأتي على ذكرها فيما بعد).

## النشاط الحزبي منذ أن انتخبت عضواً في قيادة شعبة الأطراف

تم انتخابي عضواً في قيادة شعبية الأطراف في أواخر عام ١٩٦٢، ومنذ ذلك التاريخ حتى دخولنا السجن عام ١٩٦٣ في آذار، وخروجنا منه في أيار عام ١٩٦٤، لم يجر معي أي اتصال تنظيمي أو نضالي، لا من قيادة الشعبة التي انتخبت عضواً فيها، ولا من أي جهة حزبية أخرى، ولم يطلب مني أن أدفع الاشتراك، المفترض أن يدفعه كل رفيق في الحزب.

في أواسط عام ١٩٦٥ انعقد المؤتمر القومي للحزب، وفي هذا المؤتمر القومي الثامن، انتخب الدكتور منيف الرزاز عضواً في القيادة القومية والتي بدورها انتخبته أميناً عاماً للحزب بديلاً عن الأستاذ ميشيل عفلق مؤسس الحزب، الذي احتفظ بهذا المنصب منذ تأسيس الحزب عام ١٩٤٧.

قام الأمين العام الجديد الدكتور منيف الرزاز، وبناء على تجربته الحزبية الطويلة، ومعرفته بمعضلة الحزب في الأردن، بمبادرة كان يعي مبرراتها بناء على تجربته، وهذه المعضلة هي أن هناك حزبيين مدنيين وعسكريين، كانوا في الكادر المتقدم للحزب فقدوا مواقعهم الحزبية خلال فترة الحبس الطويلة والمتكررة، لأن نظرية التنظيم القائمة والمعمول بها في الحزب آنذاك تعوّض بملء الفراغات الحزبية الناجمة عن الاعتقال برفاق حزبيين يتم تعيينهم إلى أن يثبتوا في هذه المواقع بالانتخاب، وبهذا يصبح الكثير من الكادر المتقدم في الحزب بدون مواقع في الهيكل التنظيمي حين خروجهم من السجن، ولا مكان لهم إلّا في القاعدة، وكنت واحداً من هؤلاء، ولكن الكثيرين لا يستطيعون فعل ذلك لأسباب أهمها (العمر) ومواقعهم الحزبية السابقة. وحتى يجد الأمين العام مكاناً لهؤلاء المناضلين ذوي التجربة، في هيكل الحزب التنظيمي، أوجد مكتباً سماه (المكتب الاستشاري للقيادة القطرية) وعين فيه بعض الأسماء، أذكر منهم الأستاذ صبحي القطب، الأستاذ فايز مبيضين، وغيرهما ومن العسكريين: شاهر اليوسف، ومحمود المعايطة (والذي لم يكن موجوداً في الأردن في حينه)، وضافي الجمعاني، وعبد الرحمن العرموطي.

اجتمعنا مرتين في منزل الرفيق فايز المبيضين في جبل الحسين في ذلك الحين. في الاجتماع الأول لم يكتمل نصابنا، وفي الاجتماع الثاني ناقشنا مهمتنا ومسؤوليات هذا المكتب، وكيفية الارتباط بالقيادة القطرية. ولم نجتمع بعد هذا الاجتماع، لأن قيادة قطر الأردن للحزب اعترضت على تشكيل هذا المكتب، واعتبرت وجوده تعدياً على صلاحياتها ومسؤولياتها، خصوصاً أنه لا يوجد في النظام الداخلي للحزب ما يجيز إيجاد هذا المكتب. انظروا إلى هذه القيادة التي تقود حزباً مهمته الأساسية إجراء تغيير في الواقع السياسي في الأردن لصالح الأهداف المشروعة للأمة العربية، ترفض أن يكون لرفاق مناضلين موقع في الهيكل التنظيمي الذي تقوده وهي تعلم أن ليس هناك غنائم يجري من أجلها السباق، وليس هناك إلّا المصابرة والتضحيات. كنت أزور الرفيق المحامي إسماعيل محادين في مكتبه باستمرار، وفي إحدى هذه الزيارات، ناولني رسالة صغيرة ملفوفة بحذر وقال لي أنها من قيادة الحزب، وحين فتحتها لم أجد عليها ما يدل أنها موجهة لي، فهي لم تكن تحمل لا اسمي ولا صفتي كرفيق حزبي، ولا توقيعاً ولا تاريخاً، ولا دلالة على الجهة التي أرسلتها، ومع ذلك يمكن





تبرير ذلك من الناحية الأمنية. وكان مضمون الرسالة كالتالي: لقد أجريت عدد من اللقاءات والاجتماعات في منزل الدكتور جمال الشاعر، معه ومع آخرين، وجرى في هذه الاجتماعات أحاديث ونقاشات سياسية نطلب منك كتابة تقرير عن هذه الاجتماعات، وما دار فيها من آراء مع بيان الأسباب التي دعتك إلى ذلك. فأغضبني مضمون هذه الرسالة غضباً شديداً، إن كان من ناحية الأسلوب أو الموضوع.

لقد تعرفت بالدكتور جمال الشاعر في سجن عمان المركزي، خلال اعتقالات عام ١٩٦٣، وكان في حينها على ما أعتقد عضواً في القيادة القطرية، وبعد خروجه من السجن خرج من الحزب لأسباب أجهلها، لكن العلاقة بيني وبينه بقيت قائمة. ولم أجتمع به وحدي فقد كان يلتقي معنا الرفيقان حاكم الفايز، وهاجم الهنداوي (رحمه الله)، ومرة واحدة اجتمع معنا شاهر وأعلن بعد هذا اللقاء أنه لن يعود إلى هذه اللقاءات، وأنا أعرف السبب الذي دعا شاهر لذلك، فلم يكن هناك علاقة لهذا بالحزب، وعلاقة الدكتور جمال بالرفيقين حاكم وهاجم أقدم من علاقتي به بزمن، والأحاديث التي جرت كان بينها مسألة علنية الحزب ومناداته العلنية من أجل واقع سياسي ديموقراطي، وهذا العنوان كان جدياً وقد استهواني، فلماذا لا يكافح الحزب علناً بطرح شعاراته وآرائه السياسية والاجتماعية على رؤوس الأشهاد ليعرف الناس، كل الناس؟ لماذا يدخل البعثيون السجون مع معرفتي أن شق العلنية في النضال مستحيل، ضمن نهج النظام الاستراتيجي ورؤياه المستقبلية للواقع في الإقليم؟ أما شق النضال من أجل الديموقراطية فهو جوهر فكر البعث بالنسبة لفهمي، وقناعتي، وعلينا أن نعرف أن الحرية لا تُمنح بل تُنتزع كما حدث في أوروبا، فالملك حسين قام بانقلابه على الديموقراطية عام ١٩٥٧ في مغامرة كان من الممكن أن تكلفه عرشه، لأنه لا يمكن بالديموقراطية (الحرية) أن تقاد الناس إلى أهداف الأعداء معصوبي الأعين مكمّمي الأفواه مكتوفي الأيدي، أما الأسلوب السري في تنظيم الحزب المفتوح للمخابرات المستور عن الجماهير، والذي كان يحوي في طياته الكثير من المصايد، فلم يكن له لا هدف مرحلي ولا هدف استراتيجي ولا حتى مهام يومية، خارج النظرة التقليدية للتنظيم والوجود والشعار، لأنه لو كان له غير ذلك، لدافع عن الديموقراطية عام ١٩٥٧، وكان قادراً على حمايتها، والدكتور جمال الشاعر كان صديقاً في تلك المرحلة، مع الاختلاف الجذري في النظرة الفكرية والسياسية بيننا، وكنت أعي وعياً

تاماً ما يستهدفه من هذه الاجتماعات، أضف إلى حبه الذاتي أن يكون له مريدون، هذه القيادة التي تعتبرني حزبياً ملتزماً لتوجه إليّ رسالة يكتبها (محام)، بأسلوب بوليسي مخابراتي، تدل على المستوى المتدني للفهم الرفاقي، ومعنى المسؤولية القيادية، بدلاً من أن يلتقي بي أحد أعضاء هذه القيادة، أو أي رفيق حزبي ذي مسؤولية، ويسألني مباشرة: يا رفيق، أنت تجتمع مع الدكتور جمال الشاعر، أنت وآخرون وهو لم يعد في الحزب، هل لديك مانع من أن تجعل القيادة على بيّنة ومعرفة بمضمون هذه الاجتماعات، وهو أمر هام بالنسبة للقيادة؟ كنت حينها سأجيبه إجابة وافية ودقيقة عن هدف هذه الاجتماعات. هذه القيادة التي «اعتبرتني» عضواً في الحزب، من أجل أن توجه إلي مثل هذه الرسالة، لم تتصل بي ولو مرة واحدة منذ أن انتخبت عضواً في قيادة شعبة الأطراف، في منتصف ١٩٦٢ ولم يوجه إلي أمين هذه الشعبة لا دعوة لاجتماع ولا نشرة حزبية، بل لم يطلب مني أن أدفع اشتراكاتي الحزبية، وكأنه قد وصل إلى قيادة هذه الشعبة أمر بعدم الاتصال بي. وكانت إجابتي على هذه الرسالة كالتالي: أنا لست كاتب تقارير للقيادة القطرية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن أكتب تقريراً إلى أية جهة، حتى لو كانت القيادة القطرية، عن اجتماعات بين رفاق وأصدقاء لا يقال فيها ما يسيء للحزب.

في هذه الفترة من العلاقات المتوترة بيني وبين قيادة الحزب في القطر، مر عليّ رفيق صديق في مجلس الأعمار، وقال لي أنه ذاهب إلى دمشق وسألني إذا كان لدي ما أوصى به، فأطرقت، وكنت أعرف من خلال متابعاتي للواقع السياسي في سورية أنه كانت هناك خلافات بين قيادة الحزب القطرية وبين قيادته لقومية مما جعل حالة الحكم غير مستقرة، فقلت له: إن التقيت (أبو مؤنس) الدكتور منيف الرزاز الأمين العام للقيادة القومية في حينه، وكنت أعرف أنه سيلتقيه، قل له رأيي هذا، أن يعطي قيادة قطر سورية للحزب أطول مدى من الوقت في المسؤولية، حتى يتبين للحزبيين أولاً، وللناس ثانياً مدى قدرتها على الحكم وفعلها في تحقيق أهداف الحزب، فإن نجحت، فهذا هو المطلوب وإن فشلت يصبح حلها جزاء وفاقاً (وقد تبين لي فيما بعد أن الرفيق الذي مر عليّ ليطلب إن كان لدي ما أوصي به لم يمر عليّ مصادفة).

بعد هذا اللقاء بفترة ذهبت إلى دمشق أحمل رسالة إلى مكتب المقاطعة العربية «لإسرائيل»، للحصول من هذا المكتب على أسماء الشركات العالمية المقاطعة عربياً،



وبعد أن أنهيت مهمتي مع مكتب المقاطعة، واستلمت الكتاب المطلوب، توجهت من هناك إلى مبنى القيادة القومية لألتقي الدكتور منيف الأمين العام للحزب، ـ فلا يعقل أن أصل دمشق ولا أزوره ـ، وصلت إلى القيادة وطلبت من الحرس الذي يقف على باب القيادة أن يتصل بالأمين العام ويبلغه طلبي، وطبعاً أعطيته اسمي. جاء الرد سريعاً أن الأمين العام غير موجود وهو في جولة حزبية، وسيغيب لفترة من الزمن. هذه الجملة الأخيرة لفتت انتباهي، وهي تعني: لا تنتظر. ركبت سيارتي وعدت إلى الأردن، وبعد أيام من وصولي إلى الأردن، زرت الأستاذ إسماعيل محادين في مكتبه، فسلمني رسالة موجهة إلي من قيادة الحزب في الأردن، طبعاً لا يوجد عليها ما يثبت ذلك ولا لمن هي موجهة، وليس عليها توقيع ولا تاريخ. وكان أسلوب هذه الرسالة مماثلاً تماماً للرسالة التي سبقتها، مما يدل على أن المنشأ واحد، تقول الرسالة: إنك ذهبت إلى دمشق للقاء الأمين العام للحزب، الدكتور منيف الرزاز، نطلب إليك أن تبلغنا لماذا قمت بذلك، وأنت تعلم أن في ذلك تجاوزاً للمرجع. وقد أزعجتني هذه الملاحقة إزعاجاً شديداً، وقد شعرت أنني لست فقط ملاحقاً من قبل هذه القيادة (أو أفراد متنفذين فيها) ولكن كان هناك تشويه وتزوير متعمدان للحقائق، فأنا لم أذهب إلى دمشق لمقابلة الأمين العام لحزب، ولم أقابل الأمين العام، وكما أن هذا الأسلوب في التخاطب مع رفيق لا يماثله إلّا أكثر أساليب (العسكرتاريا) انحطاطاً، قررت أن أضع بنفسي حداً لهذه الملاحقة المقصودة، التي تستهدف الوصول بالنهاية إلى النيل مني كحزبي ملتزم، لحساب قوى معادية للحزب، فكتبت ردي وأعطيته للأستاذ إسماعيل محادين، وكان الرد حسب ما أذكر هو التالي: أنا مناضل يعتز بنفسه وبنضاله، وأنا أجمد انتمائي للحزب في هذه المرحلة، وأي إصرار على متابعة سلوككم هذا اتجاهي يعني خروجي من الحزب.

وهنا لا بد من التذكير بحقيقة وهي أن الإنسان حينما يكتب ذكرياته، يصفن طويلاً، ويستعيد كثيراً من تفاصيلها، وأنا هنا أقول: هل كان مرور الرفيق الصديق علي في مجلس الإعمار والطلب إليّ إن كان لديّ ما أقوله له وهو ذاهب إلى دمشق والوصية التي حمّلته إياها، وإرسالي أنا إلى دمشق، والنتائج التي قادت إليها هذه الزيارة على الصعيد الحزبي بالنسبة إليّ، هل كانت مجرد مصادفات؟ أقول لا، إنها لم تكن مجرد مصادفات! وإثباتاً لذلك، أذكر أنه في لقاء مع الدكتور منيف

في منزله في أواسط عام ١٩٧٠، وضمن حديث طويل قال لي: أنت كنت معاهم (أي مع حركة ٢٣ شباط قبل أن تحدث)، ورأي الدكتور منيف هذا مبني على التوصية التي حملتها للرفيق، والحقيقة أن رأي (أبو مؤنس) لم يكن صحيحاً، فأنا كنت ضد القيادة التاريخية، ومع أية حركة من داخل الحزب تطيح بها، ولم يكن لدي أي معلومة أو فكرة عن ٢٣ شباط قبل وقوعها (وواضح من هذه الواقعة أن هناك أواني مستطرقة تدفع بالمياه حيث مصلحتها)، لقد فكرت طويلاً في موضوعة الحزب في الأردن، والتي أهمها تساقط المناضلين من بين صفوفه، لا لسبب إلّا لكونهم سجنوا لفترات طويلة، أو تعددت المرات التي اعتقلوا بها وحل في مسؤولياتهم الحزبية رفاق آخرون، ولم توجد القيادات القطرية المتتالية لهم مهام أو مسؤوليات حسب إمكاناتهم في الحزب، بحجة أن المخابرات تعرف هؤلاء الرفاق، وأي تنظيم يعيدهم إلى مسؤولياتهم السابقة أو إلى أي موقع في الهيكل التنظيمي سيقود بالتالي إلى كشف التنظيم أو فتح ثغرات فيه، ولهذا ابتُدِعَت صيغة ما يسمي بعناصر الاتصال بهؤلاء المناضلين، مهمتهم أن يبقوا على هذه الصلة الواهية، وأن يجمع الاشتراك الحزبي من هؤلاء الرفاق، وأنا مقتنع أن هذه النظرية نجمت عن عاملين في ذلك الحين:

١ ـ عدم القدرة على استنباط الطرق والوسائل النضالية لتحقيق المهمات المرحلية ـ إن وجدت هناك مهمات.

٢ ـ إن هذه النظرة لم تكن عفوية فهدفها الأساسي أن يدفع بالمناضلين ذوي الخبرة والمعرفة خارج صفوف الحزب (أي على هامشه). لأنهم إذا تواجدوا داخل صفوفه وفي كادره المتقدم يعطونه معرفة ومناعة إن كان في الفكر السياسي، أو في الأسلوب النضالي، والهدف من ذلك هو إبقاء الحزب هزيلاً قليل المبادرة، مهما تكاثرت أعداد المنتمين إليه، لأن من هم في صفوفه وفي قياداته تنقصهم خبرة وتجربة المناضلين، وقد أثبت المسار صحة ذلك في اعتقالات عام ١٩٦٦. وقبل أن أغادر هذا الموضوع، أقول أنه لا يجوز أن يفقد رفيق في الحزب قيادي من الصف الأمامي موقعه بسبب الاعتقال بل العكس هو الصحيح، إذا لم يكن قد ضعف وتجاوز المحرمات، إلّا في حالات، منها تخليه هو شخصياً عن العمل، أو الفصل لأسباب النظام الداخلي، أو فقدان الموقع



نتيجة للانتخاب الحر. ولا بد أن أقول حقيقة، خبرتُها خلال التجربة الطويلة حول النظرية التنظيمية لحزب البعث العربي الاشتراكي، الذي تميز عن غيره من الأحزاب (خاصة الثورية)، أنه يعطي حيزاً مهماً للانتخاب الحر في صفوفه (بغض النظر عن الأساليب والممارسات والتكتلات، وهي أمور غير مشروعة ولكنها مورست في تاريخ الحزب)، ويتخذ من أسلوب الخلايا والفرق والشعب والفروع أساساً لهيكله التنظيمي، نظرية التنظيم هذه وجدت نفسها عاجزة عن حماية أمن الحزب في المرحلة التي أتحدث عنها، ففي هذه المرحلة كانت مخابرات النظام وأجهزة أمن السلطة في أوج سطوتها وخبرتها بعد أن تتلمذت على يد المخابرات المركزية الأميركية وأصبحت تابعاً لها، فمنذ عام ١٩٥٧ (عام الانقلاب على الديموقراطية)، عام إعلان الأحكام العرفية، وإلغاء قانون الأحزاب، وصولاً إلى عام الهزيمة في حرب حزيران عام ١٩٦٧، كانت المخابرات الأردنية وأجهزة حزب النظام، قد غربلت كل القوى السياسية في المجتمع الأردني، فلم تجد في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي أو الحزب الشيوعي الأردني قيادياً من الصفوف الأولى أو من الأعضاء العاملين أو الأنصار بل وحتى الأصدقاء الشخصيين لأفراد في هذه الأحزاب، إلّا ودخلوا السجون والمعتقلات، وفي أضعف الحالات حُقق معهم، إلّا الذين كان لهم صلة بأجهزة الأمن، ومن مصلحة النظام غض النظر عنهم، وقد وضعت أجهزة الأمن في الأردن منهاج عمل يستهدف الأجيال القادمة، في الثانويات والجامعات في الأردن وفي الخارج، ليس فقط من أجل منع أي نشاط سياسي أو نشر أي فكر سياسي متعارض ونهج النظام السياسي، أو رداً لأي مخاطر أمنية، ولكن من أجل الإحاطة الكاملة بالفعل الجماعي لإنسان الأردن والسيطرة عليه لمصلحة النهج السياسي الاستراتيجي في الإقليم (ولا أقول أن هذا كان نهج النظام الأردني فقط بل الكثير من الأنظمة العربية في الإقليم)، ومع كل ذلك لم يتطور أسلوب التنظيم ولا النظرية التنظيمية للحزب، الأمر الذي قاد إلى الإساءة البالغة للحزب في الاعتقالات التي جرت عام ١٩٦٦، على أثر (حركة ٢٣ شباط في سورية).

لكل واقع سبيل للتحرك من خلاله، إن الحزب هو (فكر، أداة، ونهج سياسي)، أي

فعل والأساس في وجود هذه الأداة هو تحقيق المهام الموكولة إليها، من خلال نشرها بين الناس وإعدادهم في داخل أطر معينة لتثبيتها والدفاع عنها.

في حزب مثل حزب البعث العربي الاشتراكي، انتشرت مبادئه التي تخدم مصالح أوسع الجماهير في الأمة العربية، فما على هذه الأداة إلّا تثبيت إيمانها وجدارتها بإصرارها الدائم على تذكير الناس بهذه المبادئ، وإثبات صحتها من خلال فضح سلطان الإفساد والهزيمة والتجزئة، ومن خلال التواجد الدائم في أعقد الظروف وأصعبها في ساحة النضال كمدافع حقيقي عن حق الناس في الحرية. وأنت لا تحتاج في هذه الظروف الصعبة إلّا إلى قائد سياسي مُكوّن نضالياً وفكرياً، ومطبعة بدائية وعدد لا يتجاوز عدة عشرات من المناضلين، ذوي الخبرة واسعي الحيلة في اختراع وسائل العمل لإيصال ألف منشور بطرق متنوعة ومتعددة إلى ألف جهة كل شهرين أو ثلاثة شهور، يتضمن هذا المنشور آراء وأفكاراً وحقائق تعبر عن الواقع، وتؤشر دوماً إلى طريق الخلاص، وأن يكون هذا النضال من أجل الهدف الاستراتيجي الثابت، والإصرار عليه والتذكير به، إلى أن يصل الناس إلى القناعة التامة أنه هو سارية النجاة، حينها تكون سلّمت الجماهير قضيتها وتكون أنت أداتها لتحقيق هذا الهدف (النجاة)، ولسوء الحظ أن القيادات الحزبية المتتالية لم تجر أية دراسات للواقع السياسي أو الأمني الذي يعيش الحزب في ظله وذلك لإيجاد وسائل وأساليب عمل لاختراقه، والعمل على إسقاط نهجه.

لا بد من الاعتراف هنا، أن الذي جرى بيني وبين قيادة الحزب في الأردن من قطيعة قد أقلقني، فأنا مناضل يؤمن بمبررات هذا النضال، وينوي أن يستمر فيه، ولا يوجد هناك خيار آخر لهذا الاستمرار إلّا في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي، ومن هذا الفهم، قررت أن أسوي وأصحح العلاقة بالحزب من خلال قيادته، فبدأت أسأل الرفاق الذين أعرفهم أن يدلّوني على رفيق عضو في قيادة الحزب القطرية حتى ألقاه وأتحدث إليه، فقال لي رفيق حزبي كان يعمل رئيساً لديوان مجلس الإعمار: إن أمين سر قيادة القطر هو المهندس (فايز السحيمات) الذي يعمل في دائرة الأشغال العامة على مثلث وادي السير. وفي صباح اليوم التالي، وأنا في طريقي حيث أسكن من مأدبا إلى مقر عملي في مجلس الإعمار وصلت باب مكتب المهندس السحيمات، ولما سألت الحاجب هل المهندس السحيمات موجود في مكتبه؟ قال لي: إنه لم يأت





اليوم إلى الدوام. فتابعت سيري إلى مقر عملي في مجلس الإعمار، وهناك علمت أنه جرت اعتقالات واسعة في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي، وحينها علمت لماذا لم يكن المهندس السحيمات في مكتبه، وهكذا فقدت الفرصة الأخيرة لتصحيح علاقتي بقيادة الحزب في الأردن.

## مشروع فوسفات الحسا

في أواخر عام ١٩٦٥ أحالت مديرية المشاريع في مجلس الإعمار، عطاء فوسفات الحسا على شركة (Parson's) الأميركية، وقد تكونت إدارة مستقلة للمشروع كان يرأسها المهندس عوني الساكت وهو شاب ممتاز نظيف خلوق، وعيّنوني حينها مديراً للإدارة في مشروع الحسا، وبقيت أعمل في هذا المشروع حتى اكتمل إنجازه. ويتكون هذا المشروع من المصنع ومكاتب الإدارة وقرية سكنية للمهندسين والفنيين، وطرق وآبار ارتوازية، وقد افتتحه ولي العهد في حينه الأمير حسن، وطبعاً لم أحضر الاحتفال. بعد ذلك بعدة أشهر، قررت الحكومة التي تملك المشروع، دمجه في شركة الفوسفات الأردنية التي تمتلك الدولة ٥١٪ من أسهمها، وحينها أصبحت موظفاً في ملاك شركة مناجم الفوسفات، عينت فيها مديراً للمشتريات الداخلية، وبعد عدة أشهر من هذا التعيين عُيّنت مديراً لمشتريات الشركة الخارجية وكان هذا الموقع الوظيفي في الشركة موقعاً مهماً، (خصوصاً لمن كانت يده طويلة). قدمت استقالتي من الشركة في نهاية عام ١٩٦٨ لأتفرغ للعمل الحزبي والعمل الفدائي.

## سورية من ٨ آذار إلى ٢٣ شباط ١٩٦٦

قبل الحديث عن ٨ آذار، علينا أن نعود للخلف إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. ظلت استراتيجية الاستعمار الفرنسي والبريطاني ثابتة حيال الوطن العربي وخاصة في مشرقه، وهي الإبقاء على التجزئة وتقوية العوامل التي تحافظ عليها وتعطيها منعة، فمنذ الوهن الذي دب في جسد الإمبراطورية العثمانية، والإنكليز قادة وسادة الأقليات في المشرق العربي عامة وفي بلاد الشام ومصر خاصة، وحينما تضع هذه الدول الاستعمارية (العتيقة) استراتيجية ما فإنها ستحافظ عليها وتخلق الوسائل المحلية

والدولية من أجل دعمها وإستمرارها بل وتقويتها، وإحدى هذه الوسائل المؤثرة على واقع المنطقة المجزأ، تحققت بإرادة هاتين الدولتين من خلال وعد بلفور، وبالرغم من عدم مشروعيته فلقد قاد وعد بلفور إلى خلق الكيان الصهيوني بعد الحرب العالمية الثانية وبهذا أضافوا عاملين من العوامل التي حافظت على واقع التجزئة وجعلته أكثر ديمومة وهما «إسرائيل» كدولة لها قوة الغرب، والصهيونية العالمية كتنظيم عالمي داعم لها.

إن هذه الاستراتيجية اصطدمت بواقع جديد، أفرزته الحرب العالمية الثانية حينما أصبحت الولايات المتحدة هي القوى الأولى المهيمنة في عالم الغرب الرأسمالي. فمن أولويات أميركا في حينه، إضافة إلى البحث عن مواقع النفوذ في العالم، كان إغلاق كل منفذ أمام امتداد النفوذ الشيوعي خارج حدوده. ومن هنا خابت محاولة احتلال قناة السويس وتغيير النظام في مصر، وبعد ذلك قامت الجمهورية العربية المتحدة ـ بعد خوف أميركا على سورية من النفوذ الشيوعي كما كان يقال حينها (وطبعاً لم يكن هذا هو السبب)، ولكن بعد (إذلال السويس) عرف الإنكليز والفرنسيون وكذلك الصهيونية حجمهم الحقيقي، فلاذوا حينها بالنفوذ الأميركي، خصوصاً بريطانيا والصهيونية العالمية، وأصبحت استراتيجية هذين الطرفين تقوم على التأثير على رؤية الولايات المتحدة تجاه المنطقة العربية، ولهذا نرى أنه بعد عهود أيزنهاور وكندي أصبح رؤساء الولايات المتحدة يتبنون في هذه المنطقة وجهات نظر مؤيدة للدولة الصهيونية، لا سيما بعد أن لم تستطع الولايات المتحدة إقناع عبد الناصر (لا بالحسنى ولا بالدبوس[٦]) كما يقال، بالتنازل عن أساسياته الوطنية، إنْ كان في ما يتعلق بالأحلاف أو المشاريع الاستعمارية كمشروع (أيزنهاور)، وما هو أهم (الاعتراف «بإسرائيل») والصلح معها، وحقوق شعب فلسطين. حينها، بدأت أميركا العمل ضد طموحات عبد الناصر المشروعة. وكان أبرز الأهداف التي تصيب هذا الطموح (وحدة مصر وسورية) ولما كان البناء الوحدي ضعيف الأُسس، لا يستند إلّا إلى عواطف الجماهير، استطاع أعداء الوحدة (المؤتلفون مع أميركا وأهمهم الحكام العرب) استطاعوا فعلاً إصابة عبد الناصر إصابة قاتلة من خلال فصل سورية عن الوحدة مع مصر، وهكذا عادت سورية إلى ما قبل الوحدة كواقع للاضطراب

(٦) الدبوس: العصا.





السياسي والانقلابات العسكرية، إلّا أن الذين فصلوا الوحدة صمموا هذه المرة أن تستقر سورية في نهاية المطاف ولو (مرحلياً).

في زمن الوحدة بين مصر وسورية، قامت نواة تنظيم عسكري بين الضباط السوريين الذين نقلوا إلى العمل في مصر (تحسباً)، من المعروف أنه حينما يتحقق واقع سياسي نتيجة دعوة وتبشير ونضال وعناء طويل وقناعة بأن الوصول إلى هذا الهدف يعني العيش الكريم والأمن والتقدم والاستقلال الوطني. والأهم أنه الخطوة الأولى على الطريق السليم لاستعادة أرضنا في فلسطين، ويتبين بعد فترة من الزمن أن المردود كان أقل بكثير من الطموح، حينها يبدأ الفتور وبعد حين تبدأ التساؤلات الهادفة ومن بعد يبدأ النقد وبعدها يبدأ كل من لديه سنارة يقوم بإلقائها ليصطاد، وطبيعي أن يستشعر المهتمون بالواقع السياسي وهُم القوى الخارجية والداخلية المرتبطة بهم، والميدان الأهم لهذا الاستشعار دوماً كان ضباط الجيش السوري ذوي التقاليد الراسخة في السطو على السلطة.

هذه النواة التنظيمية كان أساسها الضباط البعثيون الصغار، الذين كان انتماؤهم السياسي غير معروف أو محمياً، ومع ذلك لم يكن كل من انتمى إلى البعث في تلك المرحلة ملتزماً بأهداف البعث، هذه النواة التنظيمية لم يكن لها دور من أي نوع في عملية الانفصال التي تمت، ولكنها لعبت الدور الأهم في انقلاب ٨ آذار والمسار الذي سارت عليه سورية حتى يومنا هذا، والضباط المؤسسون لهذا التنظيم هم: محمد عمران ـ صلاح جديد ـ حافظ الأسد ـ أحمد الأمير ـ عبد الكريم الجندي ـ وكان الثلاثة الأول من طائفة العلويين والرابع من الطائفة الإسماعيلية. أما عبد الكريم الجندي فقد ترك والده الطائفة الإسماعيلية واتبع طريقة السنة، ومع ذلك كان يحسب دوماً على الإسماعيلية وهو بالتأكيد أصدقهم وطنية، إلّا أنه لم يكن يستطيع تحديد الحدود بين التقدم والعروبة. هذه النواة الصلبة للجنة العسكرية التي حصلت على شرعيتها كقيادة التنظيم العسكري لحزب البعث العربي الاشتراكي في القطر السوري في مؤتمر بيروت للحزب الذي انعقد بعد خروج الحزب من السلطة والحكم في الجمهورية العربية المتحدة. ومثّل اللجنة العسكرية في هذا المؤتمر صلاح جديد، الذي انتقد قيادة الحزب لموافقتها على حل الحزب في القطر السوري (كشرط لقيام الوحدة).

كان انقلاب الثامن آذار ١٩٦٣ حصيلة تحالف عسكري أساسه الضباط البعثيون والعميد زياد الحريري قائد الجبهة ومؤيدوه من الضباط، ومن أبرز الضباط البعثيين الصغار الذين نفذوا الانقلاب: الملازم الأول (سليم حاطوم) الذي قاد سريته في الجبهة، واستولى على الإذاعة في دمشق يسانده في تلك المهمة الملازم الأول (محمود حمرا)، الذي قاد سرية دبابات في حوران إلى دمشق لتحقيق هذا الهدف.

كان أول إجراء قام به الانقلابيون، إعادة جميع الضباط البعثيين الذين سرحوا إن كان أثناء الوحدة أو أثناء حكم الانفصال، إلى الجيش، والذين كان بعضهم في زنازين سجن المزة، ينتظر تنفيذ حكم الإعدام كالملازم (محمد إبراهيم العلي)، ومن بين الموجودين في السجن آنذاك العميد لؤي الأتاسي والعقيد محمد عمران اللذان سجنا إثر المحاولة الانقلابية الفاشلة التي جرت في حلب قبل انقلاب آذار، وكان العميد الأتاسي قريباً وصديقاً للبعثيين. ومن أبرز الذين أعيدوا للخدمة مباشرة بعد نجاح ٨ آذار المقدم صلاح جديد وحافظ الأسد، ومحمد عمران ومصطفى طلاس ومحمد رباح الطويل وغيرهم، وهؤلاء سرّحوا من الجيش في عهد الانفصال وسجنوا لفترات أطولها أربعة أشهر.

وبعد أن استقر الوضع لمصلحة الانقلابيين، تشكل تحالف عسكري وسياسي بين البعثيين والناصريين كأساس، عين على أثرهِ العميد لؤي الأتاسي رئيساً للدولة وقائداً للجيش بعد أن رفّع إلى رتبه فريق، بعد ذلك بدأت مباحثات الوحدة الثلاثية التي ذكرتُ بين مصر وسورية والعراق، وتبين فيما بعد أن هذا الهدف لم يكن الهدف الرئيسي في أولويات كل الأطراف، وأن الحواجز المنصوبة أمام تحقيقه يستحيل تجاوزها في هذه المرحلة، وأن الطريق مسدود لأسباب عديدة أهمها:

أ ـ الإرادة الدولية

ب ـ لم يعد هناك أرضية مشتركة يقف عليها المتفاوضون الثلاثة، بل الحقيقة أنه لم يكن هناك أرضية مشتركة يقف عليها طرفان من الأطراف الثلاثة، بعد التجربة الوحدوية الفاشلة بين مصر وسورية.



ج ـ أن المباحثات التي كانت تجرى، كانت تمويهاً على الرأي العام، والحقيقة هي أن أطرافاً خاصة في الجانبين المصري والسوري، كان لها استراتيجيات مختلفة، وكانت تناور لكسب الوقت لتهيئة الواقع لحالة مغايرة كلياً، بيّن الزمن اللاحق أبعادها.



وهكذا بعد أن وصلت مباحثات الوحدة إلى حائط الإعدام، أطلق عليها رصاصة الرحمة الانقلاب الفاشل الذي قاده العقيد (جاسم علوان) في أيلول عام ١٩٦٣ من أجل تحقيق فهم عبد الناصر للوحدة، وهو إعادة الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها المصري والسوري ومن بعد التفاوض مع العراق. وكانت عملية منظمة وجدية، والناصريون في حينه لم ينقصهم التأييد لا في الجيش ولا في صفوف الشعب في سورية، إلّا أن العملية كانت مرصودة ومخترقة، فلما قامت وجدت استعداداً لمواجهتها، فأحبطت وعُومل الذين ألقي القبض عليهم من المنفذين لها بقسوة، فقد جرت محاكمات (ميدانية) سريعة وإعدامات فورية لأكثر من عشرة عناصر من كتيبة مغاوير كان أكثر عناصرها من الفلسطينيين. جرت محاولة الانقلاب هذه والفريق الأتاسي في مصر، يحاول مع الرئيس عبد الناصر إعادة الحياة إلى مباحثات الوحدة، وكان الإحراج الذي وجد نفسه فيه كبيراً، خاصة بعد أن أجرى اتصالات عديدة بدمشق حاول خلالها منع تفاقم الأمور بين دمشق والقاهرة، إلّا أنه لم يجد في دمشق آذاناً صاغية، ولما عاد إلى دمشق لم يجد أمامه إلّا الاستقالة مخرجاً، وكان بديله جاهزاً، إذ تسلم منصبه الفريق أمين الحافظ وزير الداخلية والحاكم العسكري آنذاك.

وهكذا أُنزل تابوت الوحدة إلى القبر، وانفرد حزب البعث العربي الاشتراكي بالسلطة، بأجنحته المتناحرة وبتركيبه الطائفي، البعيد عن الفهم الموحد والانسجام العقائدي فكراً ونضالاً. وكان الخاسر الأكبر بين الأطراف الثلاثة هو سورية. (وأيديولوجية الوحدة العربية)، إذ لم تأت ٨ آذار إلّا من أجل حالة ديماغوجية تلغى تحت ضجيجها الديموقراطية، وخلق بدائل وهمية عنها في كل مرة تلغى فيها. وهناك تساؤل يفرض نفسه: إذا كانت الوحدة هي الهدف من انقلاب ٨ آذار وليس إلغاء الديموقراطية (لأنه بالديموقراطية لا يمكن أن تقاد سورية إلى الواقع الذي مرت به وتقف فيه الآن في عام ١٩٩٤ وحتى الآن في عام ١٩٩٩). أقول إذا كانت الوحدة هي الهدف، فلماذا

يبادر الأمين العام لحزب البعث الاشتراكي الأستاذ ميشيل عفلق وهو الذي قال حين قام انقلاب ٨ آذار في سورية أنها شقيقة ثورة ٨ شباط في العراق وصنوها (وهي طبعاً لم تكن كذلك)، لماذا لم يبادر إلى تحقيق الوحدة بين القطرين؟ ولماذا لم يقرن القول بالفعل؟ ولماذا لم تبادر قيادة الحزب القومية وهي تقود الحزب في العراق وسورية إلى الوحدة بين القطرين فوراً طالما أن مفاوضات الوحدة الثلاثية قد فشلت؟ لماذا لم يُصرّ إلى بدء محادثات جدية من أجل إيجاد واقع يجعل العلاقات بين القطرين نامية ومتطورة، وإثبات هذا الفعل ليس عملاً محورياً، وأن مصر بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ستبقى هي الهدف الذي تسعى للوصول إليه، من خلال الصيغ الجادة ومن خلال بناء وحدوي موضوعي نستطيع مجتمعين بناء القدرة لهزيمة الوهن. لماذا لم يحدث ذلك خصوصاً أنه لم يعد هناك عوائق؟ فقد ذهب النظام الملكي وغاب نوري السعيد ومعه (حلف بغداد)، وأصبح كل من العراق وسورية نظامين جمهوريين متحررين من الأحلاف، والنفوذ الأجنبي المباشر، والأهم من كل ذلك أنه بات يحكمهما حزب واحد له قيادة قومية واحدة، وهما قطران متجاوران ماؤهما واحد وأرضهما واحدة وشعبهما واحد، عرب وأكراد وأقليات، عشائرهما على الحدود مشتركة تسمى جبور، عقيدان، عنزة، وغيرهم الكثير، محاطين بالأعداء من الجهات الأربع، إمكاناتهم الاقتصادية متقاربة. لماذا لم تبادر قيادة الحزب القومية إلى هذا الفعل الصحيح؟ هل كانت تخاف غضب الرئيس عبد الناصر كما كان يقال ويشاع في حينه؟ لو كان الأمر كذلك لما جرت مذبحة الناصريين، وهل هو الخوف من القوى الدولية والإقليمية المنضوية تحت لوائها، هو الذي منع القيادة من أن تُقدم على هذا الفعل الصحيح؟ إذا كانت قيادة الحزب تخاف ذلك، فلماذا صاغت فكراً وخلقت أداة من أجل تحقيق هذا الهدف؟ وهي التي تعرف أن العالم كله ضد الوحدة العربية!!.

إن واقعاً متطوراً بين العراق وسورية يبقي الباب مفتوحاً بصدق وطني أمام مصر، ويحافظ باستمرار على كرامة الرئيس عبد الناصر وشخصه والاتصال الدائم به، وإطلاعه باستمرار على الواقع بصدق وبنيّة حسنة، كان من شأنه أن يجعل الرئيس عبد الناصر يندفع إليه بقوه، ومن المؤكد أن أي واقع سياسي في الأمة العربية يعطي الرئيس عبد الناصر اعتزازاً أكبر وقدرة أكثر، كان ليدفع الرئيس عبد الناصر لأن



يكون جزءاً منه رغم أنف كل معاونيه المعادين لتطلعاته. ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا وأحد مؤسسي الحزب الأستاذ صلاح البيطار وزير خارجية سورية، أو رئيس وزارتها يقول في تصريح حينذاك بأن أي لقاء ثنائي بين العراق وسورية (هو عمل محوري)! انظروا إلى هذا القول السياسي الذي يتناقض تماماً مع كل (البعث)، حيث لا أحد يعلم من هم الذين يراد تطمينهم؟ هل هم الكويتيون أم «الإسرائيليون» أم كل المعادين للوحدة العربية؟ لماذا لم تكن وحدة مصر وسورية عملاً محورياً في حينه؟ هل لأن أميركا كانت تؤيد هذه الوحدة (مرحلياً) لأسباب ظاهرها معروف؟ أما باطنها فخاضع للتحليل!! أما لقاء العراق وسورية فإنه لن يرضى عنه أحد، لأنه يخلق واقعاً يشكل سداً منيعاً أمام طموح الطامعين في نهبنا وسلبنا واحتلال أرضنا.

إذاً، على ضوء مقولة الأستاذ البيطار هذه، يكون إيجاد البعث فكراً وأداة، هو من أجل إيجاد مركز قيادي للأساتذة ومريديهم يمارسون من خلاله السياسة في الواقع العربي والدولي حسب رؤاهم وأهوائهم ومصالحهم.

## البعث وسورية بعد سقوط حكم حزب البعث في العراق

بعد حوالي شهرين من موت مباحثات الوحدة، وبعد محاولة الانقلاب الفاشلة في سورية التي قادها (العقيد جاسم علوان)، قاد المشير عبد السلام عارف الذي عينته ثورة شباط رئيساً للجمهورية انقلاباً على حكم الحزب في العراق، وبهذا أصبحت ظروف الحزب والحكم في سورية في غاية الصعوبة بعد أن انفرد بالسلطة هناك، وفي الواقع لم يكن الحزب موجوداً حين قيام انقلاب ٨ آذار في سورية، فالحزب قد أصبح شظايا بعد أن حل نفسه في القطر السوري لحساب الصيغة الوحدوية بين مصر وسورية، وكان لا بد من إيجاد شكل لأداة تحمل هذه اللافتة المرفوعة في واقع سياسي شديد التعقيد والاضطراب، إن الذين سعوا إلى انفراد الحزب بالسلطة وخلقوا عداوات في ساحة سورية لم يسبق لها أن كانت بهذا العمق منذ الاستقلال، ودون أن يكون هذا الخوف موجوداً، إنما خلقوا واقعاً (إن كان بقصد أو بدونه)، يضع البعثيين في واقع الخوف من المستقبل ليتم بعد ذلك خلق الحزب بالأسلوب الذي يخدم وصول الأمور إلى غاياتها، ولهذا فتحت أبواب الحزب على مصراعيها ليدخلوا زرافات

ووحداناً، ولكن من الأقليات والطوائف. والطائفية كالعشائرية في ذروة تماسكها، والفرق أن العشائرية، تكوّن تاريخي في عملية التطور الإنساني بينما الطائفية نتاج واقع اجتماعي وسياسي، سمته البارزة الاضطهاد والقهر والفقر. ومن هنا فهي أشد تماسكاً وأسلس قيادة، وبهذا الأسلوب الذي تم يكون الحزب قد ركب تركيباً طائفياً تتمتع به طائفة العلويين بالباع الأطول والنفوذ الأقوى المستند إلى النفوذ في اللجنة العسكرية.

(وهل أنا إلّا من غزية إن غوت    غويت وإن ترشد غزية أرشد)

ولما كان الجيش في سورية يضم النسبة الأكبر من العلويين منذ زمن الانتداب الفرنسي، لأنه كان أهم مصادر رزقهم الشحيحة، ولما لم يبق في صفوفه من الضباط وضباط الصف سوى البعثيين ومن الأهم بعد أن صفي من العناصر الناصرية والانفصالية، والأكثرية السكانية الساحقة من هؤلاء هم من الأكثرية السُّنية.

تتماسك الأداة إن كانت حزباً أو غيره من الأشكال التنظيمية، أو طائفة ما عندما يكون لها أعداء خارج تكوينها. وعندما يزول هذا العامل ولا يعود ملموساً، تبدأ التعارضات في داخل هذا التكوين غير المتجانس بالبروز على السطح، ويكون بروزها أسرع حينما يكون هناك من يحركها في داخلها. وفي حزب كان غير موجود قبل ٨ آذار وتناثرت زعامته، واتّخذ كل من قادته البارزين مواقف فكرية وسياسية صارخة التعارض، يكون من المستحيل اعتباره أداة قادرة وصالحة لتحقق حكماً مستقراً صالحاً وعادلاً في القطر السوري. دعك من الأهداف القومية التي من أجلها خلق هذا الحزب، هل كان القيّمون على هذا الحزب يتوقعون من هذا التكوين أن يحقق فكر البعث ونهجه السياسي، على الأقل في المجتمع الذي يقوده؟ إن كانوا يظنون ذلك، فذلك أمر خطير. أما إذا كان المنشود هدفاً لا يمكن لغير هذه الأداة تحقيقه، فهذا صحيح. من المعروف بداهة، أنه في الأحزاب التي تتكون من خلال الدعوة إلى اعتناق فكر مطروح لتحقيق أهداف مشروعة لأية أمة من الأمم (مثل الأمة العربية) تتعلق بصيرورتها، ومبنية على حقائق تاريخية تراثية وحضارية، يلمسها الإنسان العادي ويؤمن بها لأنها تحقق له الواقع الذي يطمح إليه، أمناً معاشياً واجتماعياً، فإنك لا



يمكن أن تخلق حزباً بالطريقة التي خلق بها حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية آنذاك.

إنك لا تستطيع بناء حزبٍ حقيقي، إلّا عبر مسار طويل، يتناسب والأهداف التي ينشد تحقيقها، والواقع الذي يتفاعلُ فيه، وحزب مثل حزب البعث العربي الاشتراكي، أهدافه في الأفق وطريقهُ شديد الوعورة، يحتاج إلى زمن وأساليب عمل، قادرة على اختراق هذا الواقع الصعب، الذي تكثر فيه مسالك التيه، يتدرّب فيه مناضلوه ويختبرون... يسقط من يسقط، ويستمر في التقدم الصابرون المؤمنون، وتتوحد خلال هذا المسار الصعب والشاق الفهم وأساليب العمل والرؤى المستقبلية وحتى السلوك الإنساني، تتكون حينه عبر هذه المعاناة أداة متجانسة. وكيف يمكن لحزب كان واقعه كما ذكرت أن يصبح أداة لتحقيق أهداف البعث في القطر السوري من خلال دفع أعداد كبيرة إلى جوفه من أناس مختلفي المشارب والاعتقادات والمطامح والمطامع والسلوك والمواقع الاجتماعية، وحتى الأهداف؟ فكل أمراض المجتمع المتخلّف، والواقع الذي يعيشه منتسبو هذه الأداة، من طائفية وتطلع غير مشروع، وجوع إلى ملذات الحياة، وعداء تقليدي موروث تعيشه هذه الأقليات في واقع قهر وعوز لم تتساو فيه الحقوق والواجبات لقرون عديدة كل الأمراض تجمعت في هذه الأداة، وفي هذه الحال، فإن أداة مثل هذه لن تحقق إلّا ما حققته. والخوف من الأخطر ظل قائماً طوال هذه الفترة أي منذ ٨ آذار عام ١٩٦٣ وحتى انعقاد المؤتمر القطري الأول، والسلطة بيد أعضاء اللجنة العسكرية التي كان يرأسها الفريق أمين الحافظ، من موقعه كرئيس للدولة وقائداً عاماً للجيش. إلّا أن التحكم في مسارها كان بيد الأعضاء الخمسة المؤسسين وهم محمد عمران – صلاح جديد – حافظ الأسد – أحمد الأمير – وعبد الكريم الجندي. وكان يضاف إليها ويخرج منها الكثير من الأسماء العسكرية بينهم سليم حاطوم – محمد رباح الطويل – مصطفى الحاج علي – أحمد سويداني – حمد عبيد وغيرهم. يضافون إليها حسب مواقعهم العسكرية ويخرجون منها، إما لفقدانهم هذه المواقع وإما لحساب مراكز القوى في اللجنة. وكان أقدر وأكفأ أعضاء اللجنة على الاحتفاظ بالموقع الأكثر تأثيراً هو اللواء صلاح جديد في تلك المرحلة. وكان لا بد أن يتم تكوين الحزب، ولو بالطريقة التي ذكرت، وإعطاء هذا الحزب دوره حسب نظامه، خاصة والنظام يستظل بلافتة البعث ساريتها وعنوانها ولو مظهرياً.

وهكذا انعقد المؤتمر القطري الأول في القطر السوري الذي انتخب بدوره قيادة قطرية انتخبت أميناً لها الأستاذ (حمود الشوفي). وأنا لم ألتق الأستاذ الشوفي، ولكن الرفاق الذين يعرفونه وتعايشوا معه قالوا عنه أنه شاب ذكي وذو معرفة ومقدرة، ولم يكن في هذه القيادة أي من أعضاء اللجنة العسكرية، ولا من الحزبيين الكبار أعضاء القيادة القومية. والواضح أن هذه القيادة قد مثّلت المؤتمر، ولم تمثل اللجنة العسكرية أو القيادة القومية للحزب في حينه. ولذلك بقيت أسيرة مكاتبها لا حول لها ولا قوة، لأن الحكم والسلطة بيد اللجنة العسكرية المغطاة من قبل القيادة القومية. وبقيت قيادة الحزب في القطر السوري على هذا الواقع إلى أن اتفق الأستاذ ميشيل عفلق، الأمين العام للحزب مع اللجنة العسكرية على إسقاط هذه القيادة حينها دعت القيادة القومية للحزب، المؤتمر القطري في سورية إلى الانعقاد في دورة استثنائية، وتلت على هذا المؤتمر قرارها بحل القيادة القطرية، وطلبت منه انتخاب قيادة قطرية جديدة، وهذا حق مشروع للقيادة القومية، حسب النظام الداخلي للحزب. وتم في حينها انتخاب قيادة قطرية جديدة تمثل نسبياً واقع الحزب والسلطة. ومن أبرز العسكريين الذين تمثلوا بها، الفريق أمين الحافظ ــ اللواء صلاح جديد، ومن المدنيين ــ الدكتور نور الدين الأتاسي والدكتور يوسف زعين والدكتور إبراهيم ماخوس. هذا التحالف مع العسكريين دفع الأستاذ الأمين العام ثمناً غالياً له، من قيمته الاعتبارية:

١ ــ لقد ثبت بالملموس أنه يناور ويتكتل ومع من؟ مع العسكريين!

٢ ــ أنه غير ديموقراطي حتى في المؤسسة التي يقودها.

٣ ــ سقط جزء هام من اعتباره الذاتي أمام الحزبيين المدنيين، والأهم من ذلك، العسكريين.

٤ ــ وهو الأهم، دفع الأمور خطوتين إلى الإمام باتجاه ما حصل في ٢٣ شباط.

## المؤتمر القومي الثامن للحزب

بعد كل مؤتمر قطري عادي في القطر الذي يحكمه الحزب، يجري على أثره عادة (مؤتمر قومي) يمثل كافة الأقطار العربية التي يتواجد بها الحزب. وطبيعي أن يكون أكثرية أعضاء المؤتمر من القطر الذي يحكمه الحزب. انعقد المؤتمر في جو مشحون



بالخلافات الفكرية. فقد كان الحزب في سورية يتجه إلى اليسار. ويقترب من الماركسية (وتبين فيما بعد أن هذا التوجه كان تكتيكاً من بعض قادة التكتلات لأنه سرعان ما انقلب الحزب إلى اليمين بعد الحركة التصحيحية). وفي هذا المؤتمر جرت اتهامات بين المتصارعين من كل نوع. وأبرز نتائج المؤتمر هي انتخاب قيادة قومية جديدة للحزب، أبعدت عن أمانتها الأستاذ ميشيل عفلق لأول مرة في تاريخ وجود الحزب. وكان البديل الدكتور منيف الرزاز. وبذلك أصبح الدكتور الرزاز أميناً عاماً لقيادة الحزب القومية. لكن القيادة القومية وباقتراح من الدكتور الرزاز قررت التعويض على الأستاذ ميشيل بأن منحته لقب (القائد المؤسس). واضح من هذا السرد العجول، أنني لا أستهدف التاريخ بهذه المرحلة وإنما أقصد الوصول إلى المحطات البارزة، في أسباب الفشل تحت قيادة الأستاذ ميشيل عفلق ورفاقه أعضاء قيادة الحزب التاريخيين. فبعد المؤتمر القطري الأول في سورية، والمؤتمر القومي الثامن بأقل من عام، جرت حركة الثالث والعشرين من شباط. لماذا؟ إن الأسباب الظاهرية التي يقول بها المختلفون، عديدة ومتنوعة، منها اليمين واليسار، ومنها الطائفية، ومنها الذاتية وحتى المسلكية، لكن واقع الأمور كان غير ذلك. إن جميع هذه الأسباب التي هي أكثر تنوعاً مما ذكرت، كانت أسباباً مظهرية للصراع. أما السبب الحقيقي فهو مستقبل سورية السياسي ودورها الإقليمي والقومي، ضمن الرؤيا الدولية لمستقبل الواقع في الإقليم، والذي كان مستوراً لا يعرفه إلّا الساعون إليه.

والواقعة الهامة التي قادت إلى بروز الانشقاق على السطح ومن ثم الاقتتال، هي قيام القيادة القومية للحزب، وبتأثير مباشر من الأستاذ ميشيل عفلق (الذي انتقل إلى لبنان بعد فقدانه أمانة الحزب) بحل قيادة الحزب في القطر السوري. ولكن هذا الحل لم يكن أمام مؤتمرها القطري، ليتسنى للمؤتمرين انتخاب قيادة بديلة حسب ما ينص عليه نظام الحزب. ولما طلبت القيادة القطرية للحزب في سورية من القيادة القومية دعوة المؤتمر القطري للانعقاد لانتخاب قيادة بديلة حتى يكون الحل مشروعاً، رفضت القيادة القومية هذا الطلب، الأمر الذي يعني أن الحل تناول القيادة ومؤتمرها القطري، والذي يعني أن القيادة القومية للحزب قد قامت بانقلاب على نظام الحزب. وأنها تنوي بناء حزب جديد في سورية يتوافق مع مقاييسها الفكرية والسياسية تماماً كما يفعل عادة الانقلابيون العسكريون في دول العالم الثالث. وقد تولت القيادة القومية المسؤولية المباشرة للحزب والسلطة في القطر السوري، وكلفت الأستاذ صلاح

الدين البيطار أن يرأس حكومة (القفزة النوعية)، وهو الوصف الذي أطلقه الدكتور منيف الرزاز على هذا الانقلاب. والأستاذ البيطار (وهو أحد اثنين كوّنا حزب البعث، هو والأستاذ ميشيل عفلق) الذي كلف برئاسة حكومة (القفزة النوعية) هذه لم يتمتع بأي تأييد في صفوف الحزب، فهو لم ينجح في الانتخابات التي جرت للمؤتمر القطري الأول، فقد فشل في الوصول إلى مؤتمر الشعبة لأسباب عديدة، فالأستاذ البيطار سلك طريقاً كثير التعرّج في تاريخه السياسي، لماذا هذه القفزة النوعية؟ والجواب هو: كيف يمكن أن تسير الأمور إلى أهدافها، إذا لم تحدث قفزات نوعية، في هذا المستوى؟ فالانفصال قفزة نوعية، و٨ آذار قفزة نوعية، و٢٣ شباط قفزة نوعية، وأخيراً «الحركة التصحيحية» القفزة الأخيرة من هذا النوع من القفزات.

التزمت قيادة قطر سورية قولاً ومظهراً. ولكنها اعتبرت نفسها هي القيادة الشرعية للحزب في القطر السوري، وأن حلها غير شرعي، وبدأت تعدّ نفسها للمواجهة الى الحتمية. فخارج الأهداف الاستراتيجية المتعارضة بين من يقود في كلا الطرفين، والمتوافقة بين أطراف أساسيين في الموقعين - (وحتى أكون أوضح)، فالصراع كان بين أمين الحافظ وصلاح جديد كل من موقعه ومن يسانده، على استراتيجيتين مختلفتين. وكانت مهمة العديد من الشخصيات الحزبية في قمة القيادة في كلا الموقعين، هي إيصال الصراع إلى نقطة الانفجار، وكان الحزب وأجهزة الأمن، ووحدات عسكرية أساسية في يد القيادة القطرية (أي بيد الأمين القطري المساعد اللواء صلاح جديد). ففي الجيش كان اللواء صلاح جديد، الذي أعيد إلى الجيش بعد انقلاب ٨ آذار برتبة مقدم، يتسلّم موقع مدير شؤون الضباط في رئاسة الأركان. وهذا الموقع في تلك المرحلة، كان له الباع الأطول في تقرير مصير الضباط (تسريحهم، ترفيعهم، تنقلاتهم، مواقعهم إلخ). واللواء صلاح جديد ذو قدرة هائلة على معرفة نوعية الرجال، نقاط ضعفهم، نقاط قوتهم طموحاتهم وانتماءاتهم السياسية. وكانت هناك وحدات جاهزة للعمل بيد القيادة القطرية. أما الوحدات الموالية للفريق أمين الحافظ، والقيادة القومية، وهي أكثر وحدات الجيش، فقد تم تحييدها.

وكانت مشكلة الفريق أمين الحافظ، أن المبادرة والقرار لم يكونا بيده، وإنما بيد القيادة القومية، ولا سيما أمينها العام الدكتور منيف الرزاز. ومن هنا كان الطريق ممهداً أمام الصف المنظم (أي القيادة القطرية) بقيادة اللواء صلاح جديد، الذي



فوضته القيادة، وأعطته حرية العمل على المبادرة. ومن هنا لم يكن هناك من يقاتل مع الفريق الحافظ صباح الثالث والعشرين من شباط، سوى شجاعته وأربعين عنصراً من عناصر الحراسة، أمام هجوم كتيبة مغاوير يقودها سليم حاطوم، وسرية دبابات يقودها عزت جديد (وهو ليس قريباً بالدم من صلاح جديد) ورفعت الأسد. ولم يستسلم الفريق الحافظ، إلّا بعد أن أصيب أكبر أبنائه، وفرضت عليه زوجته وأطفاله ذلك بعد أن دهمهم الخطر. أما اللواء محمد عمران والذي استدعته (القفزة النوعية) من إسبانيا ليكون سنداً لها ضد صلاح جديد كونه من الطائفة العلوية وله أنصار في الجيش، فقد اعتقل من مقره في وزارة الدفاع دون أدنى مقاومة. فيما اختفى الأمين العام للحزب الدكتور منيف الرزاز والقائد المؤسس الأستاذ ميشيل عفلق إلى أن تمكنا من الخروج من سورية. وهنا يرد إلى الذهن سؤال مشروع هو: إن قادة في هذا المستوى من المسؤولية يأخذون الاحتياطات المسبقة للتخفي والهرب، ولديهم شك في نجاح مسعاهم غير المشروع، لماذا قاموا بما قاموا به؟

## حركة الثالث والعشرين من شباط

لقد كنت مع حركة الثالث والعشرين من شباط فور حصولها، قبل أن أستمع إلى أي رأي آخر، إن كان في داخل الحزب أو من خارجه. والقارئ يستطيع أن يعرف لماذا؟ ولكن هل كنت سأعمل في صفوفها؟ أقول بصدق: لا، على الأقل لفترة من الزمن. لقد أتعبني السجن، وشعرت في تلك الفترة، أن أطفالي وزوجتي بحاجة إلى أكثر من أي وقت مضى. فقد كان لدي في حينه ولدان وابنتان عزيزتان أكبرهم سناً كان عمره ثلاثة عشر عاماً. وتوفيت لي طفلة في السنة الأولى من عمرها، وُلدت بعد خروجي من الجفر عام ١٩٦٢. وقد أحزنني موتها، واعتبرت نفسي مسؤولاً عنه (والمسؤول الحقيقي عن ذلك هو النظام الذي قام باعتقالي لمدة أربعة عشر شهراً دون مبرر ودون تهمة)، توفيت نهاية عام ١٩٦٣، وأنا في سجن عمان المركزي وكنت أعرف أن موتها كان سببه الحبس، لأن والدتها لم تستطع الاعتناء بها كعادتها بالاعتناء بأطفالها، وكانت (ترضع غلاً)، كما نقول.

مرة أخرى لماذا كنت مع حركة ٢٣ شباط؟ لقد بيّنت في هذه الذكريات بعض الأسباب التي أوهنت ثقتي بقيادة الحزب التاريخية، ولا ضرر في تكرارها. وكوني لم

أكن قادراً، لا من موقعي ولا واقعي الحزبي في حينه ومن مجمل الظروف في تلك المرحلة أن أمارس العمل ضدها بمشروعية، فكان من الطبيعي أن ألتقي مع أي تيار من داخل الحزب يعمل ضدها ويسعى جدياً إلى تغييرها، وكان البعض من الرفاق الحزبيين الذين تناقشت وإياهم يسألونني باستهجان (ولو باستخدام السلاح؟) وكنت أجيب نعم حتى باستخدام السلاح، طالما لم يعد هناك وسيلة أخرى، بعد أن أغلقت هذه القيادة كل الطرق إلى أي بديل سلمي. إن أهم المواقف التي وقفتها القيادة التاريخية وجعلتني في موقف المعارض لوجودها كقيادة هو موقفها من أحداث الأردن عام ١٩٥٧ الذي لا يمكن تبريره لا عقائدياً ولا سياسياً ولا أخلاقياً. فعقائدياً، على البعث دوماً أن يكون مع الحرية، أي مع الديموقراطية وضد الحكم المطلق ملكياً كان أم جمهورياً، وكذلك ضد النفوذ الأجنبي في أي مكان في الوطن العربي. ومسلكياً، سلمت قيادة الحزب التاريخية حزبها في الأردن مدنيين وعسكريين من خلال موفديْها (الأستاذ عبد الفتاح الزلط والمقدم مصطفى حمدون) إلى سلطة انقلابية قادت الأردن من نير الاستعمار القديم إلى نير الاستعمار الجديد ولكليهما معاً. وهذه لم تكن المرة الأولى التي تقف فيها هذه القيادة مواقف صارخة التناقض مع فكر الحزب ونهجه السياسي، فهذه القيادة شجعت وأيدت بل وشاركت في سلطة انقلابين عسكريين ديكتاتوريين على الديموقراطية في سورية. وبالتأكيد أن هذه الديموقراطية مهما كانت هزيلة، فهي حتماً أكثر وطنية وأخلاقية وشرفاً من انقلاب حسني الزعيم سيئ السمعة، وبعده انقلاب أديب الشيشكلي الذي قام بانقلابه ضد حزب الشعب وأكثريته في مجلس النواب، من أجل منع أي تقارب بين سورية والعراق. ومن الطبيعي أن يكون دورها في الأردن منسجماً مع توجهها اللاديموقراطي عبر تاريخها الطويل.

لقد ساهم الأستاذ أكرم الحوراني مساهمة جادة في شق طريق الانقلابات العسكرية في سورية، وكلنا يعرف الآن لماذا هذه الانقلابات العسكرية، التي أجبرته هو شخصياً، وكل قادة البعث على التشرد حتى الموت خارج وطنهم؟ هذه الحقائق التي التي سكنت نفسي منذ أن طَلبت هذه القيادة من الحزب أن يستسلم لسلطة انقلابية وقمعية في الأردن، في نيسان عام ١٩٥٧، كانت تستيقظ كلما جرّت الحزب إلى مطبّ حديد. وأهم هذه المطبات هي:

١ ـ الصيغة التي قُبلت بها وحدة مصر وسورية، وأخطر ما في هذه الصيغة هو



التسليم الكامل بصيغة الرئيس عبد الناصر، وهي أن لا أحزاب في جمهورية الوحدة (أي لا ديموقراطية ولا حرية) فإذا كان الحزب الذي (هو الفكر والأداة) التي وجدت من أجل تحقيق مضمون وأهداف هذا الفكر، فالمعادلة (الفكر والأداة)، وحدة لا تتجزأ، أي أنه يستحيل تحقيق أهداف هذا الفكر بدون أداته، وحينما توافق قيادة هذا الحزب على حل الأداة في قطر من الأقطار لصالح صيغة وحدوية اعتبرتها محققة للأهداف التي من أجلها قام الحزب، ولم يعد هناك مبرر لوجوده في هاتين الساحتين، فالأمر حينها، خصوصاً بعد النتائج المفجعة، يعطي دلالات صحيحة على تكوين هذه القيادة وهؤلاء القادة، وأهم هذه الدلالات أن إيمانها واستيعابها والتزامها بهذا الفكر وصحته وبمهمات وقدرات أداته ضعيف. وهي لم تكن قادرة على التفريق بين ما هو ظاهر وبين ما هو غاطس، وواضح أن فعلها هذا كان هروباً إلى الأمام، أي أنه فعل سياسي مبني على الوهم.

٢ ـ الامتهان الكامل لكل من هو دونها في الحزب، فهذا الحزب حزب قومي في صفوفه مناضلون قوميون مؤمنون، لذا كان عليها في حينه وضع رؤاها أمام مؤتمر قومي يقرر في هذا الأمر.

٣ ـ إن القيادة القومية مسؤولة مسؤولية مباشرة، عن النتائج التي صارت إليها ثورة رمضان في العراق، وهي التي تمتلك شرعية القرار في الحزب وهي التي لها الحق بتقرير ما هو خطأ وما هو صواب في التطبيق الفعلي لفكر الحزب في أي قطر يقود الحزب فيه السلطة.

٤ ـ إن القيادة القومية (وبالأخص أمينها العام الأستاذ ميشيل عفلق) مسؤول مسؤولية كاملة، عن إضفاء الشرعية (شرعية حزب البعث العربي الاشتراكي) على انقلاب ٨ آذار وما ترتب على هذا الانقلاب من نتائج خطيرة على سورية وعلى الأمة العربية.

## في صفوف حركة الثالث والعشرين من شباط

بعد قيام الحركة مباشرة، أرسل القائمون عليها موفدين حزبيين إلى كل الأقطار العربية التي يتواجد فيها الحزب، وذلك من أجل توضيح الأسباب والمبررات التي قادت إلى

هذا الفعل ضد القيادة الشرعية للحزب، والأهم أنها كانت محاولة كسب مؤيدين للحركة إن كانوا كتنظيمات، أو على الأقل أفراداً في هذه التنظيمات، وقد وصل إلى الأردن موفدون من أجل هذه الغاية، ومن بين الحزبيين الذين اتصل بهم هؤلاء الموفدون الرفيق حاكم الفايز. على ماذا اعتمدت قيادة الحركة في هذا الاختيار؟ لا أعرف. وكان الرفيق حاكم عضواً قديماً في الحزب، ولكنه انشق مع الأستاذ عبد الله الريماوي، وبقي كذلك حتى فشل محاولة الانقلاب التي قام بها العقيد جاسم علوان. إلّا أنه عاد بعد ذلك إلى الحزب في الأردن. أعيد الرفيق حاكم الفايز بتزكيه مني إلى الدكتور منيف الرزاز. وسبب الصلة الدائمة بيني وبين الرفيق حاكم هو أنه متزوج من ابنة عمي شقيقة زوجتي (أم موسى)، وقد اهتم بأطفالي أثناء وجودي في السجن... أشار حاكم على أحد هؤلاء الموفدين بالاتصال بي، وزارني هذا الموفد في منزلي في مأدبا وتحدث معي في الأمر فأبلغته الموقف النابع من قناعتي بوضوح، قلت له: ــ إنني مع ٢٣ شباط منذ وقوعها وأنا مع الخلاص من القيادة التاريخية، ولكنني غير قادر على الالتزام الحزبي ولا النشاط السياسي، ولا أنوي أن أقوم بذلك في هذه المرحلة.

وكان هؤلاء الموفدون ينشطون ويعودون إلى بيت الرفيق حاكم، ويظهر أن الرفيق (أبو فهد) أبلغهم أن موضوع الالتزام في موقف الرفيق ضافي يمكن تغييره. وقد عاد حاكم يلح عليّ في موضوع الالتزام، ولكنني قلت له: عليك أن لا تدفعني إلى الاستعجال في هذا الأمر، فأنا غير قادر على النضال في هذه المرحلة. سبق وغبت عن أطفالي طويلاً وهم بحاجة إلى وجودي في هذه السن، وأنا حينما ألتزم، أعطي هذا الالتزام كل جهدي، وهذا الأمر لا أستطيعه الآن.

لكن بعد أقل من أسبوع من هذا القول واجهني (أبو فهد) بالأمر الواقع قائلاً: إن لجنة تنظيمية للقطر، قد تشكلت من ثلاثة أشخاص هم.. الرفيق مجلي نصراوين الذي وُلّي مسؤولية أمانة اللجنة، وأنت مساعداً له، وأنا، وقال لي أنه في اليوم (الفلاني) سيعقد أول اجتماع في منزلي (في أم العمد).

وهكذا جُوبهتُ بالأمر الواقع الذي لم يكن بد من قبوله، فرفضي كان يعني أنني لا أنوي النضال أبداً وهذا لم يكن في نيتي. وفي اليوم المحدد للاجتماع ذهبت إلى بيت الرفيق حاكم في أم العمد، وهناك التقيت بالرفيق (مجلي نصراوين) لأول مرة،



والذي لم أكن أعرفه حتى حينه. وهناك واقعة ذات دلالة حدثت في سجن المزة في دمشق. يومها، وفي حالة صفاء واستعادة ذكريات، قال الرفيق مجلي قولاً أثار ظنوناً كامنة قال: في الزمان الماضي بعد خروجكم من السجن (سجن الجفر) كلفتني القيادة القطرية في الأردن أن أكون عضو اتصال بك. لم أعقّب على هذا الأمر واكتفيت بمعرفة هذه الحقيقة الهامة لم أسأله إذاً لماذا لم يجر هذا الاتصال وكان يمكن أن يتم. ولو قام بهذه المهمة لما وصلت الأمور بيني وبين قيادة الحزب في الأردن إلى كل هذا التعقيد. وأتساءل هل جرى هذا الأمر لأن الرفيق مجلي أهمل في واجباته الحزبية؟ فأقول لا. حصل الرفيق مجلي على شهادة الحقوق من جامعة دمشق، وكان أثناء الدراسة يعمل معلماً في الساحل السوري، وبعد أن أنهى دراسته عين قاضياً للصلح في دير أبي سعيد. والرفيق مجلي من البعثيين القلائل جداً الذين لم يدخلوا سجون المملكة الأردنية الهاشمية.

ترأس الرفيق مجلي الاجتماع الأول (للجنة تنظيم القطر) وهذا الاجتماع جدد مواقعنا نحن الثلاثة في تلك اللجنة، وهكذا يكون حزب ٢٣ شباط في بدايته يتكون من: الرفيق مجلي والرفيق ضافي كقيادة ومن الرفيق حاكم كقاعدة جماهيرية. وفي الموعد المحدد للاجتماع الثاني التقينا أيضاً في دار الرفيق حاكم في أم العمد، وحينما دخلت إلى غرفة الضيوف التي نلتقي بها وجدت الرفيق مجلي والرفيق حاكم ومعهم ثالث، فسلمت عليهم وجلست. وبعد أن قلت: عرفوني على الرفيق الضيف، أجابني الرفيق مجلي، أن هذا الرفيق هو (العقيد طيارة) الملحق العسكري في السفارة السورية في عمان، فسألت حينها: ولماذا سيادة العقيد هنا؟ فقال الرفيق مجلي أنه جاء ليحضر اجتماعنا. فقلت لا... إن الحزب ليس له علاقة بالملحقية العسكرية ولا بالسفارة السورية. حينها استأذن سيادة العقيد وخرج. والعقيد طيارة الذي أصبح فيما بعد عميداً، كان رئيس الوفد السوري الذي التقى وفداً «إسرائيلياً» للتفاوض بعد حرب تشرين (التحريكية).

في ذلك الاجتماع جرى حديث عام قصير عن مستقبل العمل، وكيف ندعو للاجتماعات. وكان هذا اللقاء لنا نحن الثلاثة كلجنة (لتنظيم القطر هو آخر لقاء لنا)، حيث إن رفيقيّ غادرا الأردن إلى دمشق لحضور (المؤتمر القومي التاسع) الذي سينعقد لانتخاب قيادة قومية (لحزب ٢٣ شباط) وبالتالي يعطي (حركة ٢٣

شباط) الشرعية الحزبية التي لا بد منها. إذ، أريد للافتة البعث أن تبقى مرفوعة – في دمشق.

وواضح أنهم في دمشق كانوا على عجلة من أمرهم. فقد غادرا دون أن يعلماني بذلك! وواضح أن ترتيبات السفر وما يترتب عليها من قضايا أمنية ومادية قد تمت مع الملحقية العسكرية السورية، وقد تساءلت بيني وبين نفسي أن رفيقيّ كانا يعلمان بتوقيت انعقاد المؤتمر، ولم يطلعاني على ذلك.. لماذا؟ فإذا كان لهما الحق أن يكونا عضوين في المؤتمر، فطبيعي أن يكون لي مثل هذا الحق فلماذا لم أدع للمؤتمر؟ إذاً تم كتم الأمر عني، ومن بعد تجاوزي، والقرار في هذا الأمر لا بد أن يكون من جهة مسؤولة في دمشق استندت إلى تصرفي مع الملحق العسكري!!

وتبيّن أن الجهات المسؤولة في حركة ٢٣ شباط، لم تكن فقط على عجلة من أمرها للوصول إلى الشرعية الحزبية، ولكنها كانت حريصة أيضاً على نوعية المؤتمرين لتكون بالتالي شرعيتها مكتملة بالشكل والمضمون. ولذا كان التمثيل القومي هزيلاً في هذا المؤتمر، فالأردن مثلاً، والذي كان الحزب في حينه قد أصدر بياناً يدين فيه حركة ٢٣ شباط ويعتبرها حركة انقلابية ضد الشرعية الحزبية وأن الحزب في الأردن يتمسك بقيادته الشرعية، ونتيجة لهذا النشاط السياسي قامت السلطات الاردنية باعتقالات واسعة في صفوف الحزب طالت الأكثرية الساحقة من مُنتسبيه، ومن هنا كان الحزب قيادة وقواعد في سجون الأردن في نفس فترة وصول موفدي قيادة حركة ٢٣ شباط، ولم يبق خارج المعتقلات إلّا من كان غير منظم، أو الذين وجدت أجهزة الأمن مصلحة لها في عدم اعتقالهم.

ومن هنا تمثّل الأردن بالرفيقين حاكم الفايز، ومجلي نصراوين، هذا عدا التمثيل المزور من الأردنيين والفلسطينيين المقيمين في دمشق.

ولم يكن تمثيل الحزب في الأقطار العربية الأخرى بأفضل من ذلك، ومع هذا التمثيل الأردني الذي ذكرت فقد كان نصيب الحزب في القطر الأردني ثلاثة أعضاء في القيادة القومية هم الرفيقان حاكم الفايز، ومجلي نصراوين والرفيق محمود المعايطة الذي انتخب غيابياً وكان في حينها يعمل في الكويت وليس عضواً في تنظيم الحزب



في الأردن، طبعاً هذا الواقع لم يأخذ مني أي نوع من الاهتمام، بل زادني فهماً وقناعة بطبيعة الأمور في دمشق...

وكان يهمني وقد تهيأت لي الفرصة التي لم أسع إليها، أن أعمل جاداً، وألملم شتات حزب البعث العربي الاشتراكي، وأحاول جاهداً بناءه إلى أقرب ما يكون البعث شكلاً ونهجاً نضالياً.

عاد الرفيق مجلي بعد انتهاء المؤتمر، وطبعاً لم يتحدث إلي عن المؤتمر وما جرى فيه ولا حتى عن نتائجه، عاد وتسلم مسؤوليته كأمين سر لجنة تنظيم القطر، وكانت قد ضمت القيادة المسؤولة في دمشق الرفيق هاجم الهنداوي كعضو في لجنة تنظيم القطر. فاجتمعنا نحن الثلاثة اجتماعاً واحد أيضاً، غادر بعدها الرفيق مجلي الأردن كعضو متفرغ في القيادة القومية في دمشق. وهكذا أصبحت في مواجهة مباشرة مع المهمة الصعبة: مسؤولية بناء حزب في واقع يسكن فيه الحزب منفردات محمد رسول الكيلاني مدير المخابرات في الأردن، ومعتقلات وسجون الأردن، وليس هذا فقط... فهذا الحزب (كأفراد) ويقف موقف العداء الشديد لحركة الثالث والعشرين من شباط التي كنت أعمل في صفوفها، وهنا لا بد من التنويه بالصفات الأخلاقية والمسلكية التي كان الحزب يحرص على وجودها في منتسبيه. لقد كان لهذه الصفات الدور الأساسي في تمسك البعثيين بالتزامهم برفض الأسلوب الذي قامت عليه حركة الثالث والعشرين من شباط، فلم أترك حزبياً أعرفه أو يشار عليّ بالاتصال به، إلّا والتقيته وتحدثت إليه، وكانت حجتي التي كنت دوماً أطرحها على كل من التقيته، أن الحزب ليس ملكاً لأحد ولكنه ملك لمبادئه وأهدافه، وبهذا لن يكون إلّا لنفسه، والحزب وحده من خلال فكره ونهجه السياسي، ونظريته التنظيمية ونظامه الداخلي من خلال مؤتمراته القطرية وقياداته المنبثقة عنها، هو الذي يتخذ الموقف النظري والعملي الذي يتفق مع كل ذلك. ومع ذلك فقد كان كسبي منهم ضعيفاً والكسب (إذا كان ذلك يعتبر كسباً)، هم من كانت القيادة القومية في دمشق تعيّنهم أعضاء في لجنة تنظيم القطر، وإن كان بوسائلها الخاصة أو بتنسيب من الرفاق الأردنيين الأعضاء في القيادة القومية.

في أواخر عام ١٩٦٦ التحق الرفيق محمود المعايطة بنا في الأردن بعد أن طردت

حكومة الكويت كل البعثيين المعروفين لها، بعد حركة الثالث والعشرين من شباط في سورية. وعين بعد وصوله إلى الأردن عضواً في لجنة تنظيم القطر التي كنت أميناً لها. وكان الرفيق محمود عضواً في القيادة القومية، انتخب في مؤتمرها القومي التاسع وأنا لم أكن عضواً في هذا المؤتمر المذكور ولا في القيادة التي انبثقت عنه، وهذا الأمر لم يكن سوياً. ولقد ذكرت أن كسبي من كادر الحزب (حزب البعث العربي الاشتراكي) كان ضعيفاً. لماذا؟ فعدا عن الأسباب التي ذكرتها في السابق، فهناك أسباب موضوعية أخرى، منها: ١ ـ أن حزب البعث العربي الاشتراكي كان يتكون كادره التنظيمي، رئيسياً من الأطباء والصيادلة والمحامين والمهندسين والقضاة والمعلمين وبعض الموظفين والطلبة، وقلة من بين صفوفه من العمال، ٢ ـ أن الحزب في الأردن لم يكن يعرف الحقيقة عن أحداث ١٩٥٧ في الأردن، عام إقالة الملك حسين لحكومة الأستاذ سليمان النابلسي (رحمه الله) في العاشر من نيسان لنفس العام المذكور، ولا دور القيادة القطرية والقومية للحزب في هذه الأحداث. ٣ ـ إن ولاء الأحزاب لقياداتها ولاء تقليدي لا يضعف إلّا بتكرار الأخطاء والنكسات مثلها في ذلك مثل الأنظمة، خصوصاً إذا كانت أكثرية الكادر الحزبي من شريحة اجتماعية معينة.

بالتأكيد أن علاقتي بقيادة الحزب في الأردن قد عُممت على الحزب بطريقة بعيدة عن الحقيقة، وهنا لا بد أن أذكر لقاءً متميزاً جرى بيني وبين ثلاثة أو أربعة من الرفاق الحزبيين الذين كانوا قد خرجوا لتوهم من السجون في الأردن، وكانوا كلهم معلمين، بينهم محمد فارس الطراونة (النائب والوزير فيما بعد)، وكانوا جميعهم من منطقة المزار في محافظة الكرك، وكان للحزب انتشار واسع في تلك المنطقة، وكنت حريصاً على كسبهم لصف الحزب الذي نبنيه، وأخص بالذكر منهم محمد فارس لموقفه الباسل أثناء التحقيق معهم في آخر اعتقالات جرت بعد بيان القيادة ضد حركة الثالث والعشرين من شباط، وقد أمضيت معهم ساعات طويلة شرحت لهم خلالها فهمي الذي ذكرت حول ما هو الحزب ولمن هو. وأجريت معهم حواراً حول كل ما له صلة بحركة ٢٣ شباط ومبرراتها ومسبباتها، ومع قناعتهم أنني أتحدث معهم بصدق وموضوعية، إلّا أنه عز عليهم التفريط بالتزامهم تماماً كما يعز على أي إنسان من أي عشيرة التفريط بالتزامه بعشيرته، وهذه لم تكن صفة سلبية، بل هي صفة حميدة في واقع المجتمع الأردني في حينه. ومع كل الصعاب التي واجهتنا إلّا أننا استمرينا بالنضال والمثابرة لكسب أعضاء لجانبنا في الحزب.



## بناء الحزب في الأردن

لقد بينت الصعوبات التي واجهتها في إعادة بناء الحزب في الأردن، وذكرتها ولكن لكل واقع مكوناته، وأنت تستطيع أن تنجح، إذا ما تمكنت من إضعاف سلبيات هذا التكوين بفعل يقنع الناس، والأهم الحزبيين المترددين خاصة، وقد طرأت على الواقع الحزبي عوامل جديدة بعد أن هدأت موجة الانفعال وخرج الحزبيون من السجون. من هذه العوامل:

١ ـ النتائج الحزبية التي نتجت من الاعتقالات الواسعة في صفوف الحزب، وتبين من خلال هذه الاعتقالات أن الحزب كان مخترقاً في أكثر من موقع من القيادة حتى القاعدة.

٢ ـ الموقف شبه الجماعي الذي وقفته قيادته القطرية أثناء التحقيق أو أثناء المساومات التي كانت تجري ثمناً للخروج من السجن، وقد وقف أعضاء هذه القيادة واحداً تلو الآخر أمام مذياع إذاعة عمان، الأمر الذي لم يكن مسبوقاً في تاريخ الحزب، فمبدأ الوقوف من قائد سياسي بإرادته أمام مذياع المملكة الأردنية الهاشمية أمر يثير الأسى. فماذا سيقول هذا القائد السياسي البعثي سوى ما هو مقرر له أن يقوله من قبل مخابرات (أبو رسول)؟

٣ ـ إن الانشقاق في أي حزب يضعف طاقات هذا الحزب وفعله، على الأقل زمنياً، لكنه أيضاً يمكن أن يكون ولادة جديدة. فإذا تمكن أحد شقي هذا الحزب من إثبات أنه موجود بفعل بيّن وقدرات ملموسة، نجعل الناس الذين يتمثلون مبادئ هذا الحزب إن كانوا من وسط الناس أو من وسط منتسبي هذا الحزب يشعرون بفعله، ويكون طريق النهوض أمامه قد انفتح. وقد ساعد حزبنا الذي كنا نبنيه أنا ورفاقي إضافة إلى ما ذكرت، أن كان هناك قطر عربي مجاور يستند إليه الحزب في ذلك الحين، بينما الشق الثاني من الحزب أصيب بضربتين، أولاهما النتائج التي ترتبت على الاعتقالات وإفرازات هذه النتائج، والثانية أنه قد فقد السند الذي كان يتوفر لنا قبل انقلاب ٢٣ شباط.

٤ ـ نتيجة لواقع حزبنا الملموس في الساحة السياسية في الأردن بعد هزيمة عام ١٩٦٧ التي جاءت بعد حركة الثالث والعشرين من شباط بعام وثلاثة أشهر، مثل

حزب البعث العربي الاشتراكي في التجمع الوطني الذي تكون بعد الهزيمة. التنظيم الفلسطيني الموحد الذي كنت أقوده ورفاقي أعضاء قيادته.

٥ ـ العلاقة الإيجابية بين حركة (فتح) حركة التحرير الوطني الفلسطيني التي أصبحت متواجدة على الساحة الأردنية في حينه. هذه العلاقة التي كانت تستند إلى علاقة (فتح) بحركة الثالث والعشرين من شباط.

هذه العوامل ساعدت على التسارع في إعادة بناء الحزب قبل أن يستند (شق القيادة التاريخية) من الحزب إلى القطر العراقي بعد انقلاب ١٧ ـ ٣٠ تموز عام ١٩٦٨ الذي استعاد من خلاله الحزب السلطة في العراق، وكنا حينها قد قطعنا شوطاً هاماً على الساحتين الأردنية والفلسطينية. وكانت خطتنا التي اعتمدناها أنا ورفاقي في إعادة بناء الحزب هي الانتشار أفقياً على أوسع مساحة ممكنة لكسب أكبر عدد من منتسبي حزب البعث العربي الاشتراكي، ولا سيما من كادره المتقدم الذين لهم مصلحة في النضال، وذلك كي يتواجد في كل موقع مهم شخصية حزبية ذات تجربة، ولأنه بدون ذلك يعني البداية من الصفر، وهذا الأمر عدا عن كونه عسير التحقيق في ظل واقع أجهزة الأمن المكتملة في الأردن قبل الهزيمة، فهو يعني تكريس الانشقاق في الحزب كهدف. وهذا الأمر يتناقض وقناعتي، فأنا لا أريد تكريس الانشقاق في الحزب بل إعادة بنائه على أسس جديدة، وكنت أعتبر أن تنظيم الحزب الذي قادته قيادته إلى الدمار قد انتهى كتنظيم وليس كأفراد بعثيين. انطلاقاً من هذا الفهم كان علينا بناء الحزب. فالحزب موجود وما علينا إلّا أن نعيد بناءه على أسس تنظيمية ونضالية أبرز مكوناتها واقع ما بعد هزيمة حزيران.

## المؤتمر التأسيسي للتنظيم الفلسطيني الموحد

لقد انعقد هذا المؤتمر بإرادة الحزب والدولة في سورية، حينما أفضت استراتيجية الحزب إلى أن تصبح (قوات الصاعقة) الجناح المسلح لحزب البعث العربي الاشتراكي جزءاً من العمل الفلسطيني المقاوم، وقد هيأت القيادة في دمشق لهذا المؤتمر مستلزمات تكوينه، حينما ضمّت قبل أشهر فرع فلسطين في دمشق إلى تنظيم الحزب في الأردن، وقد كان دوماً فرعاً مستقلاً يتبع القيادة القومية مباشرة. ولا أقول في منتسبي هذا الفرع ما هو ليس فيهم (والأصح في النسبة الأكبر) فإذا كان الوعاء



الأكبر وهو الحزب في سورية لا يشكل حزباً (موحد التفكير موحد السلوك نضالياً مؤمناً بأهدافه) فكيف بفرع امتهن غالبية منتسبيه سلوك الانتهاز والولاء الغير الثابت لمراكز القوى؟ وضمت القيادة كذلك إلى هذا التكوين حينه (منظمة الحزب في الكويت). طبعاً لم يكن لنا نحن قيادة الحزب في الأردن رأي حول طبيعة هذا التكوين، وكذلك الاسم الذي أطلق عليه، ولو كان لنا رأي لاقترحنا أن يكون اسم (التنظيم الموحد) لحزب البعث العربي الاشتراكي في الأردن، ولتفادينا إبراز القطرية وإضفاء قطرية الفلسطينيين على الأردنيين، ولكن يظهر أن المتنفذين في القيادة كانوا يزاودون على (فتح) في القطرية الفلسطينية.

انعقد المؤتمر وانتخب الرفيق محمود المعايطة رئيساً له وضافي الجمعاني نائباً لرئيس المؤتمر. وكان يجب أن ينتخب أحد الرفاق الفلسطينيين نائباً لرئيس المؤتمر.

## تعيين قيادة قطرية مؤقتة للحزب في الأردن

بعد حركة ٢٣ شباط عام ١٩٦٦ وحتى منتصف ١٩٦٧، كان الحزب في الأردن تقوده لجنة تنظيم القطر. أما بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، رأت القيادة القومية في دمشق أن الحزب أصبح في واقع يفرض أن تقوده قيادة مكتملة، وضمن هذا التصور، عينت القيادة القومية في دمشق الرفاق التالية أسماؤهم أعضاء في القيادة القطرية المؤقتة: وهم ضافي الجمعاني، محمود المعايطة، هاجم الهنداوي، يوسف قطناني، زهير محسن، فواز الصياغ، يوسف البرجي، أحمد عقل، أحمد اليماني، أحمد النجداوي، إبراهيم البرغوثي. ومن ثم استدعينا إلى دمشق والتقينا هناك الرفيق الدكتور نور الدين الأتاسي الأمين العام للحزب ورئيس الدولة في حينه، وكذلك الأمين العام المساعد اللواء صلاح جديد. وبعد ذلك دعانا الرفيق كامل حسين رئيس مكتب التنظيم القومي في القيادة القومية إلى الاجتماع برئاسته، نحن أعضاء القيادة القطرية المؤقتة، ودعانا إلى انتخاب أمين سر قيادة قطر الأردن، وقد ترشح لهذا الموقع القيادي كل من ضافي الجمعاني والرفيق محمود المعايطة، وبعد فرز الأصوات تبين أن هزيمة (أبو ساهر) كانت كبيرة. وهنا لا بد من ذكر حقيقة لم ترد إلى ذهني في حينها، أن محمود كان يسعى إلى هذا الموقع، وكان أمراً طبيعياً أن يسعى إليه فهو أولاً عضو في المؤتمر وعضو في القيادة القومية، ولم أكن عضواً في أي من

الموقعين. والأمر السوي أن يكون هو أميناً لسر قيادة القطر في الأردن، والأمر غير المفهوم لي هو لماذا لم تصحح القيادة القومية هذا الأمر؟ وقد تكررت عملية التنافس هذه ثلاث مرات. وقد يسأل سائل ما هو الأمر الذي كان يمنعني من التخلي عن موقعي لمحمود؟ قد يقول قائل إن هذا أمر طبيعي في النفس الإنسانية، وهذا صحيح. ولكن أقول هذا لم يكن السبب، فمحمود صديق وصداقتي له حميمة (حتى بعد أن خرجت من سجن المزة، وأطلعتُ على الماضي بشكل أدق، وحتى بعد أن كتب وحاضر، وابتلع كثيراً من الحقائق المفصلية في تاريخ الحركة الوطنية في الجيش). لقد عملت في معيّته حزبياً وعسكرياً، وأنا لا أشعر في أمرته بأنني مرؤوس له، أو أن إمكاناتي تقلّ في صنع القرار، وقد كنت دوماً أجعله يتقدمني في أي حفل سياسي واجتماعي، مع أنني المسؤول الأول في الحزب الذي ننتمي إليه معاً. وفي مرحلة لاحقة بعد أن انتخبتُ عضواً في القيادة القومية في المؤتمر القومي العاشر، وتوليت بعد ذلك مسؤولية مكتب العمل الفدائي في القيادة القومية، وقررت بعد فترة التنحي لأسباب عديدة، وأن أتخلى عن التفرغ في دمشق وأعود لأتولى مسؤوليتي الحزبية في الأردن، أصرّيتُ أن يتولى هنا المكتب (الرفيق أبو ساهر) وهو موقع يجعلني والحزب وقوات الصاعقة في الأردن مسؤولين أمامه. إن الأمر الذي منعني من التخلي عن موقعي لمحمود (هو تجربة الأردن عام ١٩٥٧، فمحمود لا يبادر، ومواقع التأثير عليه متعددة ومتنوعة).

## الأردن بعد تراجع مد البعث

إن الطبيعة الثابتة للسياسة في الواقع العربي ممثلةً (بالأنظمة العربية) منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ثم (سايكس – بيكو) ومن ثم مرحلة الاستقلال الوطني، هي عدم التلاقي وعدم التعاون (الطبيعة الدائمة والتي ميزتها، المحورة السياسية ذات الطبيعة المرحلية). ومن هنا فكل مظهر في الواقع العربي سواء أكان بين قطرين أو أكثر، فهو في حقيقته مظهر غير ثابت إن كان استقراراً أو اضطراباً، وهي حالة هدفها الأساسي منع أي تطور إيجابي في الواقع العربي، يكون في النتيجة خطوة إلى الأمام تقوّي هذا الواقع، (والبرهان الأثبت هو حال الجامعة العربية وما آلت إليه بعد نصف قرن من تأسيسها)، والأردن هو أحد الأنظمة الهامة في هذه الاستراتيجية الغربية. فالأردن مثله مثل مشيخات الخليج تجري كل التغيرات من حوله ونظامه ثابت لأنه يتمتع بقرار استراتيجي (من القوى المضادة لطموح العرب) من أجل أن يلعب دوره في التخريب



والمَحورة وتثبيت التجزئة. إلى أن تصل الأمور التي من أجلها خلق هذا الكيان وهو استيعاب الفلسطينيين المشردين والمهجرين من فلسطين حينما تسوّى قضية فلسطين حسب الرؤيا الغربية الصهيونية.

إن العقل الذي أوجد هذا الكيان، هو عقل عليم في كيفية تخريب وحدة الأرض والشعب، فالأردن شكّل (Pivot) تجمع عليه، وتنطلق منه، السياسة الخاصة بفلسطين، وهو كحقيقة استراتيجية (وتد) في حلق المشرق العربي. ومن هنا فقد لعب الأردن أبرز الأدوار ذات النتائج الخطيرة على مستقبل إنسان هذه المنطقة العربية، أدواراً لا تتناسب وواقع الأردن وإمكاناته المتواضعة. وقلائل من المفكرين والسياسيين العرب الذين يعرفون حجم الأذى الذي ألحقه هذا الكيان بالقضية القومية وركيزتها الأساس فلسطين، ويدلّك على ذلك حجم الرعاية التي يتمتع بها هذا النظام دولياً وإقليمياً، موقف قادة حزب البعث العربي الاشتراكي القطرية والقومية منه حين ارتد الملك حسين على الديموقراطية في الأردن عام ١٩٥٧، وكذلك موقف الرئيس عبد الناصر المشابه تماماً لموقف البعث في هذا الأمر، والأخ أبو عمار من حيث قفزه عن تاريخ المنطقة الحضاري والثقافي وحتى العرقي ليجعل من الأردنيين أمة أردنية والفلسطينيين أمة فلسطينية، وبعد ذلك يجعل من الصهاينة عبرانيين من أجل ماذا؟ من أجل أن تصبح (كل شاة معلقة بعرقوبها)، ولا صلة لأحد بأحد، لتسهيل تنفيذ المخطط، ومن أجل وضع النظام في الأردن خارج الرؤيا والمعرفة بمهماته، وهكذا لعب النظام دوره في تحديد مسار النضال الفلسطيني وخياراته عبر المسار الوحيد الذي يسير عليه الآن.

## (العاصفة) فوق الأرض السورية

(العاصفة) هي الجناح العسكري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). إنني لا أكتب تاريخاً فهناك من أهم أكفأ مني وأعرف بـ(فتح) وبالمقاومة، ولكنني أكتب ذكريات مرحلة عايشتها معايشة معاناة استهدفت العرب وأرضهم، وأضع رأيي الشخصي وتحليلي الذاتي المبني على الصدق والتماس المباشر بالأحداث.

انطلقت المقاومة الفلسطينية في كانون الثاني عام ١٩٦٥، وأثبتت انطلاقتها في ذلك التاريخ من خلال البيان العسكري الذي أعلنته (العاصفة) للعالم، وكان قد سبق هذا

الإعلان عملية تنظيمية في كل أماكن تواجد الشعب الفلسطيني في الأقطار المحيطة بفلسطين وفي الشتات، وقد اتخذت قيادة (فتح) دمشق مقراً لها ومركزاً رئيسياً لنشاطها تدريباً وتسليحاً وإعلاماً، ومن دمشق أعلنت (العاصفة) بيانها الأول. هذا التواجد وهذا النشاط كانا من بين الأسباب الرئيسية للخلاف في القيادة السورية، والذي حسم لصالح من قادوا حركة الثالث والعشرين من شباط. لقد كان الرئيس أمين الحافظ ضد هذا النشاط ولا سيما النشاط العسكري، ويعتبره نشاطاً خطراً وسابقاً لأوانه، وسورية غير مستعدة الاستعداد الكافي لمواجهة النتائج الخطيرة التي تترتب عليه، إلّا أن أشخاصاً ذوي تأثير في القيادة العسكرية السورية ظهر فيهم اللواء أحمد سويداني مدير الاستخبارات العسكرية في حينه، والرائد محمد إبراهيم العلي عضو المكتب العسكري الذي كان يعتبر نفسه (من مؤسسي العاصفة)، كانوا يؤيدون (العاصفة). هاتان الشخصيتان ما كانتا لتقولا بذلك التوجه الاستراتيجي (الكبير والخطير) لو أنهما لم تكونا تستندان إلى قوة أساسية قادرة على حمايتهما في القيادة السورية. فمنذ البيان الأول لـ(العاصفة) في دمشق، و(العاصفة) تملأ مساحة واسعة من الإعلام العالمي خاصة الغربي والعربي التابع له، هذا الإعلام الذي إذا ما حدد أهدافه ووضع مخططه موضع التنفيذ، يبدأ قصفاً إعلامياً شديداً، وشديد التضليل على هذه المساحة الواسعة من الواقع العربي والعالمي أقوالاً ورداً على الأقوال، أفعالاً وردود أفعال، أفكاراً وتحليلات أفكار باحثين كلهم يعملون للترويج للحدث ويوجّهون ويستهدفون، وكلها تنصب على انطلاقة (العاصفة) من أجل (تحرير فلسطين)! وكل الأقوال والأفكار والبحوث والتحليلات والأفعال وردود الأفعال تزول مع الأثير الذي بثه ليتجسّد كل ذلك في (العاصفة)، لتصبح ملء السمع والبصر، والأمل لهذا الإنسان العربي وخاصة الفلسطيني الساعي لامتلاك ناصية قضيته، التي تاهت بين أيادي المتسلقين، بأداة تمكّنه من الدفاع عنها وعنه.

بعد عام ونيف من انطلاقة (العاصفة)، قامت حركة الثالث والعشرين من شباط، وبهذا التغيير في سورية، سار الخط الاستراتيجي الذي تسير عليه حركة التحرير الوطني (فتح) خطوة إلى الأمام، وأصبحت حركتها ونشاطها أكثر أمناً. أما الخطوة الأهم التي حققتها حركة الثالث والعشرين من شباط، فكانت على صعيد العلاقات المصرية ـ السورية، فالرئيس الراحل جمال عبد الناصر كان لا يستطيع التعامل مع الرئيس



السوري في حينه الفريق أمين الحافظ وتجربته مع الأستاذ ميشيل عفلق الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي،كانت ـ حسب رأيه ـ ثمارها مرة، وكان يعتبر هاتين الشخصيتين عقبة في علاقة جدية بين مصر وسورية، وكان الرئيس الراحل يؤخذ بالظواهر وبالسلوك الذاتي تجاهه (دعك من المشيرين والمغرضين)، فلما قامت حركة الثالث والعشرين من شباط اعتبرها خطوة إيجابية في علاقات مصر وسورية، وقد سأله أحدهم عن رأيه في هذه الحركة فأجاب: راقبوا الإعلام الغربي، إن كان راضياً أو ساخطاً، فإن كان ساخطاً فهي ضد مصالحه. وهكذا أزال الواقع الجديد في سورية عقبتين عن الطريق إلى الهدف، أولاهما أن حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) أصبحت آمنة وقادرة على التحرك، وصار هناك تناغم في وجهات النظر بين حركة (فتح) وقيادة ٢٣ شباط، وأصبحت مقولة حرب التحرير الشعبية أكثر تداولاً وأصبح إنشاء التنظيمات الفدائية ومن بينها (الصاعقة) أمراً مسموحاً به. أما العقبة الأهم التي أزالتها حركة ٢٣ شباط فهي تمهيد الطريق أمام علاقات حميمة بين سورية ـ ومصر أيقظت في نفس الرئيس عبد الناصر حنيناً أصابه فقدانه إصابة بالغة نفسياً وجسمانياً ـ (وكان هذا هو الطعم الذي بلعه) يرحمه الله.

لقد كان الرئيس عبد الناصر يفتقر افتقاراً شديداً إلى نصائح العارفين بالشؤون العربية، الصادقين بالنصيحة. صحيح أن المرحلة لم تكن قد بلورت هذا الفهم وأوجدت شخصيات مطلعة اطلاعاً عميقاً على تكوين الواقع العربي إن كان واقعاً قطرياً أو واقعاً عاماً، فالمتتبع لمسار الرئيس عبد الناصر في السلطة، وفي النهج يلاحظ أن الشخصيات القوية والقادرة في القيادة المصرية، كانت دوماً تدفع إلى الابتعاد عنه، الأمر الذي جعل السادات وريثاً شرعياً حين غاب الرئيس بسبب الوفاة في ٢٨ أيلول ١٩٧٠. هل كان هذا صدفة أم فرضاً أما ماذا؟ والعامل المهم، أن مصر لها تطور تاريخي خاص بها وهو مختلف عن بقية أقطار الوطن العربي.

فمنذ انتهاء الحروب الصليبية غاب عامل التفاعل مع المحيط المبني على عقيدة مشتركة ومصالح مشتركة، أهمها العدو المشترك، وخاصة بين مصر وبلاد الشام، فالإسلام هو جوهر العروبة وهو الذي أحياها وأبقاها في كل مواقعها الحالية خارج الجزيرة العربية عنصراً وتراثاً وثقافة. فبعد نشوء الدولة القوية في عهد محمد علي، أصبح العامل الذي يقود خطوات مصر خارج حدودها هو عامل الدولة القوية، التي

تبحث عن مجال حيوي في محيطها، وبقي هذا الفهم هو السائد في البناء القومي للدولة، وبين المثقفين حتى في عهد الرئيس عبد الناصر. هذا التعامل جعل استراتيجية مصر العربية أقرب إلى التكتيك والمناورة السياسية منها إلى الاستراتيجية الثابتة المبنية على معرفة الواقع، والتصرف على ضوء هذه المعرفة بهدي (الأيديولوجية) المتبنّاة، وهي (أيديولوجية) القومية العربية. حيث كانت المسافة الزمنية بين ٢٣ شباط وهزيمة حزيران عاماً وأقل من ثلاثة أشهر.

لم تكن هزيمة حزيران هزيمة حرب بين قوتين، فالتاريخ في مساره العام حتى الحرب العالمية الثانية هو نتاج المعارك نصراً أو هزيمة، وكم من منتصرين فقدوا مواقعهم القيادية، وواقع العالم الحالي أثبت دليل على ذلك. ولكن هزيمة حزيران كانت مؤامرة أطلسية صهيونية ومن يلوذ بهم من الحكام العرب، مؤامرة نكراء وهي استمرار لحلقات التآمر التي بدأت مع النهوض الصناعي الأوروبي والتكون الجنيني للصهيونية الذي أسفر عن صدور وعد (بلفور) المشؤوم... إلى أن وصلت في يقين منفذيها إلى حلقة من حلقاتها الفاصلة، والتي تمثلت في هزيمة حزيران ١٩٦٧.

إن فرية اللاسامية غير صحيحة لا واقعياً ولا علمياً، وإن أساس العداء (اليهودي الأوروبي) لم يكن لأسباب عنصرية، فاليهود الأوروبيون شرقاً وغرباً، لم يكونوا ساميين، ولكن العداء هو بسبب التشابه حد التناقض في الخلق والسلوك والنظرة إلى الحياة، فكلاهما مرابٍ ومراءٍ ماديّ النظرة، يرتكب كل المحرمات من أجل مصالحه.

إن الحضارة الغربية بعد المسيح نبتت في تربة العهد القديم وليس لها صلة بتراث المسيح إلّا المظهر الشكلي، ومن هنا فالصهيونية التي ولدت من رحم الحضارة الغربية هي ومسيحية الغرب، وجهان لعملة حضارية واحدة، وإلّا فما معنى أن يعلن تشرشل (أعني المستعمرين) أنه الصهيوني رقم (١)؟؟ وبعده جونسون، وبوش، وتاتشر، وميجور، ومتيران... (والقائمة تطول) وما معنى أن يضع الغرب نفسه في خندق الصهيونية ضد العرب؟ بل والأدهى من ذلك، أنه هو الحامي لهذا الخندق. هذه هي اللاسامية، إننا نقول هذا القول الصحيح عن المتآمرين الأعداء. فماذا نقول



بحق أبناء جلدتنا العرب الذين يحكموننا؟ الذين دخلوا ويدخلون حتى اليوم في صلب المؤامرة على وطنهم وشعبهم وأمتهم وتراثها، والذين لولاهم لما كانت هناك مؤامرة؟ فحيثما يكون هناك غزو يكون هناك احتلال، ولكن ليس مؤامرة لأنه يستحيل على المؤامرة أن تنجح لو لم يكونوا هم لحمتها. إن اللغة العربية الغنية بالمفردات، والقادرة على النعت والوصف ليس بها ما يطابق حقيقتهم، يقول البعض إنهم (ملوك الطوائف)، كلا إن ملوك الطوائف حالة مختلفة جذرياً، فملوك الطوائف هم نتاج حالة مختلفه جذرياً، هم محصلة غزو وفتح لأرض ليست أرضهم، وحكموا شعباً ليس شعبهم، أخذ هذا الفتح مداه الزمني (سلطة وحضارة)، ثم انهار لأسباب عديدة أهمها مقاومة شعب هذه الأرض لهذا الاحتلال. أما هؤلاء الحكام فلا ينطبق عليهم موضوعياً إلّا أنهم إفراز عصور الانحطاط، التي خيمت على هذه الأمة قرابة سبعة قرون، والتي لو لم تكن أمة حيّة جذورها أعمق من أن تجتث لاندثرت كما اندثر غيرها من الأمم.

## حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)

إن حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) (بمظهرها وليس بجوهرها) هي نتاج تراث عميق من الإحباط المصمم، الذي نتج من التشرد والعوز والشعور بدونية المستوى، والظلم الذي عاشه الشعب العربي الفلسطيني، وكل ذلك كان يتفاعل في نفسه وعقله في كل أماكن تواجده في الوطن العربي وفي الشتات، وكل ذلك يتم مع الأسف في ظل دول عربية عميلة وحقيرة لا تؤمن لا بقومية ولا بدين ولا بإنسانية، وتقوم بقهره وتفرض عليه حلولاً إن كانت سياسية أو اجتماعية خارجة عن إرادته. وإذا ما حاول أن يكسب لواقعه من خلال الفعل، حدوداً إنسانية تقهره بقولها له (إنك بعت أرضك)، وهو لم يبعها بل سلبها المستعمرون الغزاة لحساب مخططاتهم ضد العرب بمعونة حكام نصّبوهم علينا بعد أن جزّأوا الأرض وإنسانها في ظل هذا الواقع الفلسطيني الذي ذكرت، وفي واقع عربي عاجز حتى في ظل زعامة عبد الناصر الذي قالها صادقاً أن ليس لديه خطة لتحرير فلسطين.

في ظل هذا الواقع الفلسطيني المؤلم والمرير الذي ذكرت، والذي هو أعقد بكثير، وبرغم قساوة ظروف هذا الواقع، كان الفلسطيني مصمماً على العودة إلى أرضه، فعدا

كل ما للأرض والوطن من جذور وأصول وقيم ومعانٍ لهذا الإنسان الفلسطيني، فقد أصبحت مخرجه الوحيد من هذا الواقع الأليم، بعد أن انتظر طويلاً نجدة أمته له وقد اعتقد حين ترك منزله في يافا وحيفا وغيرها من مدن وقرى فلسطين أن النجدة آتية لا ريب فيها، وبأسرع من وصوله إلى حدود كل من الأردن وسورية ولبنان، انتظر وانتظر أن يأتيه الفرج حتى تأكد أن الفرج قد غاب، هذا هو واقع الإنسان الفلسطيني وهذا هو واقع الأنظمة التي لم يكن واقع إنسانها بأفضل من ذلك، سوى أنه يعيش على أرضه وفي منزله وبين عشيرته وأهله، بعيداً عن صنع القرار.

في ظل هذا الواقع العربي المستباح للمستعمرين والمستلب من قبل الحكام العرب الذين أصبحت مصلحتهم الذاتية مرتبطة بمصالح المستعمرين، بات من الطبيعي أن يطرح السؤال نفسه، ما هو المخرج؟ ومن هي القوى المؤهلة لحفر خندق الخروج من هذا الواقع؟ إن القوى المضادة الخارجية والداخلية المرتبطة بها والتي خلقت هذا الواقع، هي المؤهلة طبعاً لحفر خندق النجاة المزعوم، وهم حتى لا يفرز الواقع السلبي في أية مرحلة من مراحل تطوره قوى حية تقوم بتغييره إيجابياً، يصنعون الشبه المضاد لهذا الواقع شكلاً ومظهراً حتى تأخذ هذه الحالة المزيفة مداها، وحينها يصاب الإنسان بالإحباط واليأس فيستسلم بعد ذلك للواقع المزيف... هذا هو أسلوبهم المكرر منذ وعد بلفور حتى اتفاقية أوسلو.

## وصول حركة التحرير الفلسطيني (فتح) لقيادة منظمة التحرير

في أوائل عام ١٩٦٩ على ما أذكر، انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة وقد تكوّن هذا المجلس من الفصائل التي قبلت أن تكون جزءاً منه، على أرضية قبول قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في ذلك الحين التنازل عن حق تمثيل الشعب العربي الفلسطيني لمصلحة فصائل حركة المقاومة الفلسطينية. وكان على هذه الفصائل أن تتفق فيما بينها على صيغة تمثيلية، تمكنها من الوصول إلى قيادة جماعية للمرحلة النضالية المقبلة. وهذه الفصائل في تلك المرحلة هي:

١ ـ حركة التحرير الوطني الفلسطيني ـ قوات العاصفة.

٢ ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.



٣ ـ طلائع حرب التحرير الشعبية ـ قوات الصاعقة.

٤ ـ ج ـ ت ـ ف جبهة تحرير فلسطين.

٥ ـ جيش التحرير الفلسطيني.

وكان قد انعقد قبل هذا المجلس مؤتمران لهذه الفصائل في القاهرة أيضاً للوصول إلى اتفاق ولكن كان مصيرهما في حينها الفشل، ولم أكن حينها أمثل فصيل قوات الصاعقة.

وفي هذا المجلس تعاونت حركة التحرير الوطني الفلسطيني ـ فتح والصاعقة كفصيلين أساسيين في حركة المقاومة في إنجاح هذا المؤتمر، من خلال انتخاب قيادة جديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية تمثل الواقع الفلسطيني الجديد. وكنت أحضر هذا المؤتمر بصفة (مراقب) كوني لم أولد في فلسطين. حضرت المؤتمر بصفتي أميناً عاماً لقوات الصاعقة في الأردن، وطبعاً هذا التوجه السوقي الذي اتخذته منظمة الصاعقة كان قد أقر في اجتماع للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في دمشق. ففي اجتماع مخصص لهذا الغرض طرحت وجهة نظري حول هذا المؤتمر الهام، وقلت: لقد حان الوقت للتعاون بين الصاعقة وحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) من أجل خلق قيادة لمنظمة التحرير الفلسطينية، تمثل التطور الجديد في النضال الفلسطيني. وكان هناك رأي قاله ودافع عنه الرفيق الدكتور يوسف زعين ومضمون هذا الرأي، هو أنه علينا أن نتحفّظ في دعم (فتح) وإيصالها إلى قمة المسؤولية في العمل الفلسطيني، قبل أن تقف الصاعقة على أرض صلبة. فأجبته، بالقول: أنا رأيي أن ندعم مشروع (فتح) ـ الصاعقة للوصول إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، ولو كان بشراكة أكبر لفتح، وقلت أن القضية الفلسطينية أغلى من أن يعوق التنافس عليها التقدم نحو تحرير فلسطين، والسير على هذا الطريق طويل وشاق، والذي لديه القدرة والطاقة والإيمان سيظهر خلال هذا المسير (وطبعاً كان رأي الدكتور يوسف زعين ـ أبو جابر ـ هو الأصوب) فيما يخص تقييمه (لفتح) وكان الأمين العام المساعد الذي يرأس الاجتماع يؤيد الرأي الذي طرحته فأخذ الاجتماع قراراً بتأييد هذا الرأي.

## في القاهرة لحضور المؤتمر

حين وصلنا إلى القاهرة لحضور المؤتمر، اختار القائمون على إدارة شؤون المؤتمر، وهم (فتح)، مكان إقامة لي بعيداً عن رفاقي أعضاء المجلس من منظمة الصاعقة، فقد أسكنوني في فندق (أسكوربيون) الذي يملكه أحد الفلسطينيين وأسكنوا رفاقي في فندق أطلس. وفي صباح اليوم التالي من إقامتي جلست بعد الإفطار في صالة الفندق ولم أكن أعرف أحداً من كل الوجوه التي كانت موجودة في الصالة في ذلك الحين، وكان يجلس قريباً مني ثلاثة أشخاص، اثنان على (صوفة) والثالث على كنبة وهو شاب في الأربعين من العمر يدخن غليوناً (على طريقة الإنكليز) فسمعت من يدخن الغليون يقول: إنها الآن (فرصة الفلسطينيين)، فقد انهزمت أنظمة اليسار العربي! هذا القول المقصود أن أسمعه بوضوح كوني أنتمي إلى اليسار القومي المهزوم، دفعني إلى التوجه مباشرة إلى القائل بالسؤال التالي: وبمن بعد الذي قلته، سينتهز الشعب العربي الفلسطيني فرصته ويحقق طموحه في استعادة وطنه؟ توجه إلي دون أن يستهجن تدخلي قائلاً: إن الشعب الفلسطيني سيكون الشمعة التي تحترق لتضيء الطريق. توقفت عن متابعة الحديث هنا، فهذا القول بقدر ما هو واضح شكلاً، بقدر ما هو غاض مضموناً، وكان من أطلق هذه العبارة بدايةً هو السيد خالد الحسن يرحمه الله عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ويحمل الجنسية الكويتية ويعمل أمين سر بلدية الكويت.

إن قول الحقيقة أمام حاكم ظالم يعني موتك بطريقة ما، وقول الحقيقة عن مناضلين شرفاء هم حصيلة الواقع ولا سيما واقع الشعب العربي الفلسطيني يسعون فيه لتحقيق هدف مشروع، هي حقيقة مرة... إنك لا تستطيع أن تتهم عبدة الأصنام، ولكنك تستطيع أن تسفّه إيمانهم وتدحضه بالبرهان. إن تسعة أعضاء وربما أكثر من اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، التي تراوح عددها بين التسعة والاثني عشر عضواً، استشهدوا في سبيل قناعتهم، وكذلك مئات من الكادر المتقدم وعشرات الآلاف من الفلسطينيين العرب ومن العرب المحيطين بفلسطين وخاصة المصريين، ومن هنا لا يستطيع الإنسان إلّا أن يجل هذه التضحيات، ولكنه حتى يكون أميناً وصادقاً مع نفسه ومع قومه لا بد أن يقول فهمه عن الأسباب التي حالت دون تحقيق الآمال المعقودة.



إن حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، هي نتاج المؤتمر الإسلامي (أي نتاج مركز النفط) فكراً واستراتيجية وتمويلاً، فكانت رأس الرمح هي ومن أعانها من النظم العربية على أخذ هذا الموقع الذي استهدف هزيمة العرب وفكرة القومية العربية في حينه ممثلة بعبد العناصر، وتحقيق الاعتراف «بإسرائيل» كدولة إلى الأبد وما سيترتب على هذه الحقيقة الاستراتيجية السياسية مستقبلاً على العرب، وهذا ليس اتهاماً (ولا قولاً يُرمى على عواهنه)، ولكنها حقيقة سأبيّنها بمكوناتها. لقد قلت إن المستعمرين القدامى والجدد، يعدّون المخططات، وكذلك الأدوات المنفذة لهذه المخططات وأيضاً الخطط اللازمة للملمة نتائجها، كونهم هم الأقدر وسيطرتهم حتى ذلك الحين تكاد أن تكون تامة. والصورة أوضح من أن يعاد تكرارها في تاريخ العرب الحديث.

فمنذ ثورة الحسين بن علي شريف مكة آنذاك ومروراً بوعد بلفور و(سايكس بيكو) وحتى قيام دولة «إسرائيل» وهُم ـ حتى لا يفرز الواقع في أية مرحلة من مراحل تطوره السلبي قوىً حية تواجه أفعالهم ـ يخلقون الشبه المضاد للواقع مظهراً وشكلاً مسبقاً. هذا الشبه المُسيطر عليه من قِبل القوى المضادة الذي خلقته، المرسومة استراتيجيته، مهمته الأساسية تضليل القوى الحية التي تجتمع بشهوة ونخوة ومصلحة حول شعارات التحرير حتى يأخذ المدى الكافي ليحصد بعد ذلك الأخضر واليابس من آمال هذه القوى.

وبعد الكارثة، تظهر الحقيقة التي تصيب الإنسان بالإحباط الشديد، الأمر الذي يسهّل على أصحاب المخطط الوصول إلى ما سعوا إليه دون صعاب تذكر. وهذه الأهداف معروفة، ومكررة وإن تنوعت وهي:

أولاً: إدخال القناعة الثابتة في عقل ووجدان الإنسان العربي عامة، والفلسطيني خاصة أن «إسرائيل» حقيقة أبدية.

وثانياً: أن العرب دول وليسوا قومية تسعى إلى التوحد. عند تحقيق هاتين الغايتين يكون الغرب والصهيونية قد سادا على العرب، وفي ذهن المستعمرين الغربيين أنهم سيبقون سادة في العالم إلى الأبد.

## المحطات البارزة في مسار القضية الفلسطينية بعد التقسيم

والآن عليّ أن أعود إلى المحطات البارزة في مسار القضية الفلسطينية بعد قرار التقسيم وإعلان (دولة «إسرائيل») هذه المحطات التي لا تحتاج إلى باحثين، ويمكن للإنسان العادي الذي عايشها أن يعيها. فبعد قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة الذي يقسم فلسطين بين العرب الفلسطينيين واليهود، قامت حكومة عموم فلسطين في غزة، وذلك بعد انسحاب الإنكليز وتدخل الجيوش العربية والنتائج التي أفرزها هذا التدخل. هذه الحكومة، بالرغم من التسمية وبالرغم من الواقع الذي أحاط بها وبقيامها، إلّا أنها حق أساسي من حقوق الشعب العربي الفلسطيني متفِق مع قرارات الأمم المتحدة، ويمكن اعتبارها ممثلاً شرعياً حتى يتحقق هذا الحق حسب قرارات الأمم المتحدة، وقد اعترفت بها أكثرية الدول العربية في الجامعة العربية آنذاك ـ إلّا إمارة شرقي الأردن في حينه بقيادة الأمير عبد الله والتي كان جيشها يحتل ما سمي بالضفة الغربية بعد ذلك، وما قام به الأمير عبد الله هو ضم ما تبقى من فلسطين بين يديه إلى إمارة شرقي الأردن، وذهب إلى لندن وعقد معاهدة استقلال، وبعد عودته إلى عمان أعلن قيام المملكة الأردنية الهاشمية ـ مواجهةً للمملكة العربية السعودية. ولم يكن ممكناً أن يقوم الملك عبد الله بكل ذلك بدون دعم بريطانيا. وهذا العمل ألغى حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مستقبله، ووضع قرارات الأمم المتحدة جانباً.. وتم تغييب هذا الحق من خلال عملية سياسية، سموها الوحدة بين الضفتين. لماذا؟ لأنه لو استمرت حكومة عموم فلسطين أو أي بديل عنها، يعطى الشعب العربي الفلسطيني حق الشرعية الذي يؤدي إلى قيام دولة فلسطينية حسب قرارات الأمم المتحدة وفق قرارات الشرعية الدولية، ولم يكن بمقدور أحد في الأمم المتحدة أن يقف ضد هذا الحق، لو لم تُغيِّبه أطراف عربية، لماذا غُيِّب هذا الحق الذي لم يتم فقط بإرادة الملك عبد الله، وإنما أيضاً بإرادة الإنكليز والصهيونية؟ لأنه لولا تغييب هذا الحق لأصبح للشعب العربي الفلسطيني قيادة شرعية ترعى مصالحه ولما أبعد وتشرد، واستغلت قضيته أبشع استغلال. تغييب هذا الحق هذه الفترة الطويلة خدم استراتيجية الصهيونية والمستعمرين خدمة كبرى، بأن جعل الصراع عربياً ـ صهيونياً وليس فلسطينياً ـ صهيونياً. من أجل ماذا؟ من أجل أن تقوم «إسرائيل» بالدور المرسوم لها في استراتيجية الإمبريالية العالمية ألا وهو خدمة المخطط الذي استهدف القومية العربية ووحدة الوطن العربي.



وكون هذا الحق كان دوماً مبرراً وصحيحاً، استمرت أكثر الدول العربية بقيادة مصر تطالب بشرعية فلسطينية مستقلة عن أي دولة عربية، إلى أن أقر هذا الحق في مؤتمر قمة الرباط عام ١٩٦٠، وقد مثل الأردن في ذلك المؤتمر رئيس الوزراء في حينه المرحوم (هزاع المجالي)، ولا أعرف الأسباب والعوامل التي جعلت رئيس الوزراء الأردني يوافق على هذا الأمر الذي بتقديري قد كلفه حياته! والسيد هزاع المجالي والسيد وصفي التل كلاهما من جذور أردنية وكلاهما اغتيل اغتيالاً، وبتقديري أن السبب الرئيس في هذا الاغتيال هو أن كلاً منهما كان يمثل تهديداً لشرعية الملك حسين في تمثيل الأردنيين. وبعد اعتراف الأردن بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي للشعب العربي الفلسطيني في قمة الرباط ١٩٧٤، باتت الدول العربية جميعها معترفةً بهذا الحق.

إلّا أن اعتراف الأردن في هذا الحق لم يأخذ شكلاً عملياً، ولم ينفذ واقعياً، كذلك لم يتمّ إعطاء الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم على أرضهم مستندين في ذلك إلى قرارات الأمم المتحدة، ونقل السلطة في الضفة الغربية وقطاع غزة إلى منظمة التحرير الفلسطينية. وقد بقي الملك حسين يقول بعد حصول جريمة الانفصال في ٢٨ أيلول ١٩٦١ بأن وحدة الضفتين هي الأبقى، لأنها تمثل إرادة شعبيها الحرة، حتى استولى عليها اليهود دون قتال.

لقد أردت الوقوف عند هاتين المحطتين البارزتين من أجل التذكير بحقائق مهمة وأساسية في مسار القضية الفلسطينية وحق الشعب العربي الفلسطيني الثابت في أرضه المحتلة، وسياسياً وقانونياً في أعلى هيئة دولية.

قبل أن أبدأ بالكتابة عن مرحلة النضال الفلسطيني المعاصر أي (المقاومة الفلسطينية)، لا بد من التعريج على بعض الحقائق والأمور. فبعد اعتراف الأردن في مؤتمر الرباط بـ(منظمة التحرير الفلسطينية) كممثل شرعي للشعب العربي الفلسطيني أصبحت كل الدول العربية مقرّةً بهذا الحق، ولم يبق إلّا أن يطبق واقعياً، وأهم دولة يتعين أن تطبقه هي الأردن بحكم التماس الجغرافي والسياسي لواقع الحال في فلسطين المحتلة، ولكنه حصل العكس، فلم يعوّق تطبيقه في حينه إلّا النظام في الأردن مناورة ومداورة (لأسباب بيّن الزمان أهدافها)، وهو في حينه لا يحتاج إلّا للأداة التي تفرض على

الملك حسين ذلك، وطبيعي أن تكون هذه الأداة فلسطينية. ومن هنا يطرح السؤال نفسه، وهو: لماذا لم ينطلق النضال الفلسطيني، وأقصد بذلك حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) بطرح شعار فك ارتباط فلسطين بالأردن، والنضال من أجل تحقيق هذا الشعار سياسياً؟ ومن ثم إذا لم تتحقق أهداف الشعار بالوسائل السياسية، تتحقق حينها بالكفاح المسلح، وهذا النضال مدعوم بقرارات الأمم المتحدة، وبقرارات الجامعة العربية، والداعية إلى قيام شرعية فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وعلى العكس من ذلك لم يكن هناك عائق أمام فك ارتباط مصر بقطاع غزة، خصوصاً وقد تبين بعد اثنين وعشرين عاماً من انطلاقة (فتح)، وشعارات تحرير فلسطين أن حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) لا تستهدف أكثر من ذلك، بل هي مستعدة إلى أقل من ذلك بكثير بعد أن بين اتفاق (أوسلو) بعض الغاطس من جبل الجليد. وهذا الكيان ستكون عاصمته (القدس الشريف) على رأي السيد ياسر عرفات، عاصمة بشكل طبيعي كاملة غير منقوصة، ناقصة فقط المستوطنات الجديدة والمستوطنين الجدد وهي عملية أسهل منالاً وأقل تضحيات بالقياس إلى حلول أخرى، وهي مشروعة عربياً ودولياً.

بالطبع هناك من سيقول إن «إسرائيل» لن تسمح بذلك، وستحتل الضفة الغربية كما قال بذلك (قادة تنظيم الضباط الأحرار) عام ١٩٥٧، مع الفارق طبعاً (بالمضمون الشرعي لكلتا الحركتين) واختلاف الزمن بينهما. وأقول رداً على ذلك: إن حق الفلسطينيين العرب في إقامة سلطتهم الوطنية على أرضهم هو حق شرعي معترف به عربياً ودولياً، ولم يكن يملك الملك حسين إلّا أن يعيد هذا الحق المغتصب، وإلّا وجد نفسه في موقف لا يستطيع الصمود فيه طويلاً. وإذا ما احتلت «إسرائيل» الضفة الغربية من أجل منع العرب الفلسطينيين من إقامة سلطتهم الوطنية، فحينها سيتحول كفاح الفلسطينيين العرب إلى كفاح مسلّح ضد «إسرائيل»، وستكون مبررات الكفاح أكثر مشروعية وأكثر إقناعاً. وبالتأكيد فإن الواقع «الإسرائيلي» بين عامي ١٩٦٠ - ١٩٦٥ كان أضعف منه في عام ١٩٦٧ وسيكون العرب والأمم المتحدة بجانب الشرعية الفلسطينية، ويستحيل على «إسرائيل» أن تجد المشروعية للهجوم على من جاورها من الدول العربية وتحقق نصراً سهلاً باحتلالها كل فلسطين وسيناء والجولان كما حصل. الأمر الذي يدل دلالة واضحة أنه كان (سيناريو) معداً سلفاً، وكان هدفه الرئيسي هزيمة العرب والوصول إلى



التسوية بين العرب كل العرب و«إسرائيل»، وإبقاء الواقع العربي مجزأً، وتعميق تبعية كل جزء من هذه الأجزاء، لمصلحة الهيمنة الغربية وخاصة الأميركية منها.

إن الاستعمار الغربي يصر إصراراً ثابتاً على إبقاء سيطرته على هذا الجزء من العالم أي (الوطن العربي) بشقيه الأفريقي والآسيوي، والسبب وراء هذا الإصرار هو خوفه من وحدة هذا الوطن وقد خبرها تاريخياً وخلق كل العوائق التي تمنع ذلك، وأهمها العائق «الإسرائيلي».

إن هذا الوطن يتمتع بميزتين استراتيجيتين لا تتوفران لأي موقع آخر في العالم، وهما الموقع الجغرافي والنفط، المادة التي لا بد لأية قوة عالمية تسعى للحفاظ على هذا الموقع من السيطرة عليها أو محاولة السيطرة عليها. ولهذا أعدت الخطط مسبقاً لإدامة هذه السيطرة وإضعاف وتدمير أي واقع مناهض قد يشكل خطراً على هذه الأهداف، وإصرارها على تدمير عبد الناصر دوراً وتجربة أوضح من أن يذكّر به، (ونحن الآن نعايش هذه الحقيقة معايشة معاناة من خلال صراع العراق مع الولايات المتحدة وبريطانيا ومن يمثلهما في الواقع العربي، بذوده عن استقلاله الوطني وحرية قراره السياسي). والسبب في إصرار الولايات المتحدة ومن تمثله على تدمير عبد الناصر هو أن مصر تحت قيادته كانت مستقلة وطنياً، معزّزة ببناء داخلي اقتصادي طموح، يمنح على أساسه الفقراء فرص العلم والعمل. وبالرغم من أن عبد الناصر في المرحلة الأخيرة من عهده (أي ما بعد الانفصال وفشل محاولات إعادة الوحدة) لم يعد كثير الاهتمام بالتوحيد، لكنه كان شديد الاهتمام والإيمان بالتضامن العربي. وكان يكفي أن تكون مصر مستقلة، وتسير نحو التقدم صناعة وعلماً واقتصاداً، وأن يكون عبد الناصر قائداً لها ليمنع بالتالي نفوذ الإمبريالية الأميركية من أهم موقع استراتيجي في أفريقيا وغرب آسيا. وبالتالي كان سيساهم في منع فرض التسوية المهينة في فلسطين، حسب الرؤية الأميركية ـ الصهيونية. وبوجود عبد الناصر تظل القومية العربية هي أيديولوجية الإنسان العربي عموماً وتظل الوحدة العربية أملاً وإن كان مكانها في الأفق. وللتذكير أقول للذين يقولون أن (جونسون) من أجل إعادة انتخابه، وبتأثير (ماتيلدا) أعطى «إسرائيل» كل إمكانات النصر السهلة على العرب المحيطين بها، أقول إنهم يضعون عوامل ذاتية بديلاً عن العوامل الموضوعية التي تخدم أهداف أميركا الاستراتيجية، وقد أثبت عبد الناصر للأميركيين وقبلهم للبريطانيين والفرنسيين أنه بدون

السيطرة على مصر تبقى إمكانية السيطرة على النفط في المنطقة محفوفة بالمخاطر.

ومن هذه الحقيقة استمر مخطط الغرب ضد عبد الناصر، وكان هذا المخطط ذا شقين، الهدف الرئيسي من هو تدمير عبد الناصر وما بناه في مصر، وكذلك تدمير (أيديولوجية) القومية العربية وبالتالي إمكانية تحقيق الوحدة العربية ليس بقهره وقهرها فقط، ولكن بخلق بديل فكري لها. وأهم هذه الأفكار، هي الفكرة الإسلامية (بعد أن فشلت فيها كل الأيديولوجيات البديلة كالفرعونية والقومية السورية وغيرها).

ومن هذه الحاجة الملحة انطلقت فكرة المؤتمر الإسلامي الذي خلقوا أهم مبررات وجوده بحريق المسجد الأقصى كفكر، إن لم يكن بديلاً للقومية العربية يكون على الأقل، موازياً لها.. وكمؤسسة إن لم تكن بديلاً للجامعة العربية على الأقل ستكون موازية لها، وتقود هذا المؤتمر المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي. وهذه عملية شيطانية. فالإسلام عميق الجذور في نفس الإنسان المسلم، والوطني غير غير المسلم (علمانياً كان أو مؤمناً). والذين يعتنقون الإسلام بصدق وإيمان هم عامة الناس، وهم الأكثرية الساحقة من الشعب العربي (حقيقة أريد بها باطل) فإذا كان العرب الذين أكثريتهم مسلمون، وسبق لهم في التاريخ أن كانوا دولة واحدة وهم في غالبيتهم العظمى من عرق واحد، لهم لغة واحدة، وتاريخ حضاري وتراثي واحد، لا يستطيعون أن يوحدوا فلسطين مع شرقي الأردن، ولا العراق مع الكويت، وهي جزء منه وأرضها جزء من أرضه اقتطعت منه من أجل إضعافه، لأنها بئر بترول لا بد من استغلاله فكيف يمكن أن يوحدوا العالم الإسلامي؟

إذا أردت أن توحّد المسلمين، فعليك بتوحيد العرب، هكذا فعل المسلمون (أصحاب الرسالة). أما المؤتمر الإسلامي الذي تقوده المملكة العربية السعودية التي تتخذ من الدين الإسلامي عقيدة لنهجها السياسي، فهو وجد فقط من أجل تشتيت الرؤيا؛ رؤيا العربي المسلم، عن مصلحته الحقيقية في وحدة أمته تدفعه إلى المستحيل (لتفادي الممكن)، وقد وُجد المؤتمر الإسلامي أولاً وأخيراً، من أجل ضرب فكرة الوحدة العربية وفكرة القومية العربية الساعية إلى توحيد العرب، هذا التوحيد الذي بدونه لن يحققوا النهوض والتقدم، وقد شكّل هذا المؤتمر نقطة الارتكاز في المؤامرة التي استهدفت قضية العرب الأولى (فلسطين). وكانت المراكز التي أنشأها هذا المؤتمر



بأموال النفط تحت ستار الدعوة للإسلام في أوروبا وأميركا أي في عالم الغرب، الذي لا يؤمن بدين والمعادي مبدئياً للإسلام، كانت في حقيقتها مراكز عمل معاونة لمخططات أميركا والغرب تحت ستار مقاومة الشيوعية ومن يتعاون مع الاتحاد السوفياتي من العرب خصوصاً وكان عبد الناصر أهم أهدافها.

## الأردن بين عامي ١٩٥٧ ـ ١٩٦٧

عشر سنين هو عمر الزمن الذي قاد إلى الهزيمة من واقع الأردن هذا، والذي بدأ بانقلاب الملك حسين على الديموقراطية، وهي أول تجربة ديموقراطية في تاريخ الأردن السياسي، ليحكم بعد ذلك حكماً مطلقاً أداته المخابرات والشرطة والقمع والإرهاب في ظل أحكام عرفية، لا يحدُّها قانون ولا عرْف. قمع وإرهاب وأسلاك شائكة حول الذهن، هدفها إيصال الناس إلى سلوك القطيع، فالصادق مشبوه، والذي لا يسرق مشبوه، والذي لا يسبّح بمجد السلطان مشبوه، وإذا تحدثت بعقل فأنت مشبوه، وعليك إذا أردت أن نتأكد من الثقة بك أن تصبح (ماسونياً)، إلى أن أفرغ عقل الإنسان ووجدانه في الشعب وأجهزة الدولة، وأهمها القوات المسلحة من أي تساؤل من مثل: ماذا بعد وإلى أين نسير؟ وما هو المصير؟ وصار همّ الأكثرية لقمة العيش أما الأقلية الحاكمة فهمومهم معروفة طبعاً خلال هذا الزمن.

كان هناك دوماً مؤسسات برلمان، ومجلس وزراء، وقضاء، وصحافة ولكنها كلها مظهرية وشكلية. فالسلطة كانت بيد أجهزة الأمن، حتى أن من يريد أن يرشح نفسه لمجلس النواب، عليه أن يأتي بوثيقة حسن سلوك من مديرية الأمن العام. هذه هي الديموقراطية التي تقود إلى الهزيمة دون قتال. من يمثل الشعب عليه أن يكون مخبراً في أجهزة أمن السلطان (وأنا هنا لا بد أن أشير أن هذا الواقع لم يكن في الأردن فقط، بل كان يشمل كل ساحة الوطن العربي في حينه، وإن تفاوتت مستوياته وطبيعة تجاوزاته، وأهدافه أيضاً)، ففي مصر وحدها في ذلك الحين كان أسلوب الحكم يبرر بفهم خاطئ لمعنى التقدم ومقاومة الاستعمار، وهنا لا بد من القول أن النظام في الأردن لم يفاجأ بالهزيمة بل هو على علم مسبق بها وقد عمل من أجل تحقيقها، مثله في ذلك مثل كل شريك في هذه المؤامرة مثل رئيس الولايات المتحدة، والمملكة العربية السعودية، والأكثرية الساحقة من ذوي العلاقات من الحكام العرب. ورُبَّ قائل سيقول:

وما هي مصلحة الملك حسين في أن يفقد نصف مملكته؟ وهو تساؤل مشروع، وبعض جوابي هو الرد على التساؤل بتساؤل وهو: ما مصلحة سورية في أن تفقد (هضبة الجولان)، المتوجة بجبل الشيخ والذي تروي مياهه دمشق وحوران، وهي الأرض الحصينة والمحصنة، والتي لا يمكن تجاوزها إلّا بخسائر لا يمكن لجيش الدفاع «الإسرائيلي» تحمّلها؟ وهنا تكمن المعضلة. إنها المؤامرة، وكل شريك فيها له دور يقابله ثمن فما هو هذا الثمن؟ إن الثمن العام هو التسوية، حسب الوعود للأطراف المشاركة، والتسوية بالنسبة لهذه الأطراف العربية المشاركة في المؤامرة والتي لا تؤمن بالوحدة العربية، وتعمل بالضد من مبرراتها، هي الاستقرار السياسي حسب فهمهم والانتهاء من الاضطراب السياسي والمادي الذي سببته القضية الفلسطينية. أما الثمن الخاص فهو في جيب المشاركين، فبعضهم استلم الحكم مسبقاً، ومنذ فترة طويلة، وبقاؤهم في الحكم يستوجب استمرارهم في تنفيذ المخطط، ومنهم من وصل إلى الحكم ثمناً لهذه المساهمة وقد بان الجزء الأهم من هذه الوعود، خلال هذا المسار الطويل. ثم ماذا يستطيع الملك حسين أن يفعل؟ (ووضعه هو محصلة مساره السياسي ومبررات وجود كيانه)! حتى وإن تجاوزنا الواقع، وقلنا أن نواياه كانت حسنة، أمام هذا الحشد من المتآمرين، كل الحكام العرب الفاعلين في المشرق والمغرب العربي، وأميركا وأوروبا وهم من هم بالنسبة إليه، ماذا كان يستطيع سوى أن يقبل بوعد مضمونه أن مملكته ستبقى سالمة، والملك حسين يعرف المبررات الاستراتيجية للكيان الأردني، وهو عمل جاهداً لتفادي هذه الحقيقة. وهنالك عامل طرأ على المرحلة، لا يستطيع إلّا أن يفكر طويلاً في كيفية التعامل معه، ألا وهو دخول العامل الفلسطيني الذي هو جوهر المشكلة، كطرف أساسي في هذه العملية السياسية، ممثلاً بحركة (فتح). وكان لهذا العامل تأثير بالغ على خيارات الملك حسين السياسية. فتأثير الفلسطينيين على الواقع السياسي كبير في الأردن، وانطلاقة (فتح) في عام ١٩٦٥ هي الحجر الذي رمي في مياه تبدو راكدة والتيارات التي سببها هذا الحجر، هي التي قادت إلى الحرب. وطبعاً هذا الحجر، لم يرم مصادفة، والإثبات على ذلك هو النتائج التي أفرزتها هذه الانطلاقة بين عامي ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧. هذا بعض الجواب على تساؤل مشروع من إنسان عادي لا يستطيع رؤية الغاطس من الحقيقة، أما أن الأردن وكل من يحكمه في واقعه حين ذاك، فلا يستطيع إلّا أن يكون أول السائرين باتجاه حل القضية الفلسطينية، وبالطريقة التي يراها حلف الأطلسي ودول النفط. فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان حتى من أهل النظام.



## الحرب

لقد كتب عن حرب حزيران وهزيمة الأنظمة العربية الكثير، ومن هذا الكثير، تسميتها التي أطلقها «الإسرائيليون» (حرب الأيام الستة). و«الإسرائيليون» لا يستطيعون إلّا أن يقولوا بذلك ليشكلوا منها حرباً. والحقيقة أنها (حرب الساعات الست) تقل قليلاً أو تكثر قليلاً لا يهم، ففي الفترة الزمنية التي استطاع فيها الطيران «الإسرائيلي» تدمير سلاح الجو المصري على الأرض، وتدمير مطاراته اعتبرت الحرب منتهية، والأيام المتبقية التي يعتبرها الصهاينة أيام حرب، لم تكن في حقيقتها إلّا المدة الواقعة بين تسلم القطاعات «الإسرائيلية» الأوامر بالتوجه إلى أهدافها لسيناء والضفة الغربية والجولان وتحقيق هذه الأهداف سيراً بآلياتها.

لقد كُتب الكثير وأذيع وأشيع الكثير، وهدف هذه الكتابات والإذاعات والإشاعات الهوجاء، هو الإنسان العربي ذاتاً وقضية، وإقناعه أن لا جدوى من المقاومة، وما عليه إلّا الاستسلام. وهذا جزء أساسي من المؤامرة حتى تصل إلى أهدافها، لكن الحقيقة أن أمة صمدت قرابة السبعة قرون أمام محاولات التغييب التاريخي والحضاري المتعمّد، لا يمكن أن تهزمها مؤامرة تقوم على تنفيذها قوى عالمية عاتية. ولا أثبت من هذه الحقيقة، أنه منذ أكثر من ثلاثين عاماً على حبك هذه المؤامرة والاستمرار في تنفيذ مراحل البرنامج الموضوع وما تعرض له الواقع العربي الحي من التدمير من الأعداء في ذاته، ومن هم خارج ذاته، في مصر في الأردن في سورية ولبنان والأهم في المقاومة الفلسطينية لا يزالون يزحفون ببطء شديد نحو هذا الهدف، هدف التسوية وتطويع الواقع العربي لقبوله.

لقد كانت هزيمة حزيران مبتكرة وشاملة، ومع ذلك فهي تمثل واقع الأقطار التي انهزمت على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هذا الواقع الذي عمل على إقصاء الإنسان العربي عن التعبير بحرية وانعتاق، وحيل بينه وبين المشاركة الفعلية في الحياة السياسية الداخلية، مما همّش دوره في معارك الوطن، ولذلك فقد كان رد فعله، رد إنسان فقد الإحساس بالمصائب.

في هزيمة عام ١٩٤٨ دفع المسؤولون عنها الثمن؛ منهم من فقد موقعه، ومنهم من

فقد رأسه، فقد اغتيل الملك عبد الله، وفقد شكري القوتلي موقعه كرئيس للجمهورية، بل وفقدت سورية معه في تلك المرحلة (النهج البرلماني)، وكذلك فقد الملك فاروق عرشه. قد يقول أحد المطلعين، ولكن هؤلاء فقدوا مواقعهم لأن القوى الدولية صاحبة المخطط (أي الغرب) ضمن رؤاهم المستقبلية عملوا على التخلص منهم. وأقول: صحيح، وأضيف إلى ذلك أن الملك عبد الله اغتيل بسبب شعوره بواقعه الصعب، فحاول الخروج من هذا الواقع فأرسل إلى رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الأسبق، يطلب منه زيارة الأردن وطلب منه حمل رسالة إلى القادة في العراق مضمونها توحيد الأردن والعراق تحت قيادته وتكون ولاية العهد بعده للملك فيصل الثاني، فاغتيل رياض الصلح وهو في طريقه ليغادر من مطار عمان العسكري في ذلك الحين وقد قام باغتياله رقيب في المخابرات العسكرية الأردنية، وبعد أسبوع من اغتيال رياض الصلح اغتيل الملك عبد الله في المسجد الأقصى. أما شكري القوتلي والنظام في سورية في حينه، فقد ذهبا بسبب رفض سورية الدخول في مفاوضات (الهدنة في ردوس) ومطالب سورية حول مطالب أنبوب نفط (التاب لاين) كانت مرتفعة، فجاءوا بحسني الزعيم وقام بالمهمتين. أما الملك فاروق فكان ملكاً فاسداً ونظامه على شاكلته فكان من المستحيل استمراره، والعامل الذي سرع في ذهابه هو الصراع الذي دار في حينه بين الاستعمارين القديم والجديد على مناطق النفوذ. والمعلن أن هؤلاء الحكام عاقبهم الشعب العربي لمسؤولياتهم عن كارثة فلسطين.

أما هزيمة حزيران المنكرة، فلم يكن لها ردود فعل شعبية في الأقطار المهزومة إلّا في مصر، فالإنسان العربي في مصر لم يجد أوثق من عبد الناصر، من تحمّل المسؤولية، مسؤولية القيادة في ظرف الهزيمة الصعبة. نعم لقد قبل شعب مصر مسؤوليته عن الهزيمة، ولكنه رفض تخليه عن المسؤولية في هذا الظرف الصعب، وكان رد فعل شعب مصر صادقاً ومعبراً تعبيراً واعياً عن نفسه، فالإنسان العادي في مصر يثق بعبد الناصر، بوطنيته وأمانته وأنه قائد بارز في العالم الثالث، والوطن العربي مستهدف من قوى الشر في الغرب والصهيونية العالمية، وقد أثبت المسار السياسي لمصر بعد عبد الناصر، سلامة وصحة شعور هذا الشعب. وكانت عودة عبد الناصر عن قرار التخلي عن المسؤولية من الأسباب الرئيسية التي أوقفت تسارع المؤامرة وعدم وصولها إلى أهدافها حتى الآن.



## الجبهة الأردنية

في أواخر عهد القيادة البريطانية للجيش الأردني، وضعت هذه القيادة خطة دفاعية في مواجهة أي هجوم «إسرائيلي» يستهدف الضفة الغربية وقطعات الجيش الموجودة هناك، وكان الجيش الأردني في حينه يتكون من فرقة مقاتلة وأسلحتها المساندة. وكانت الخطة تقتضي أن تنسحب الوحدات الموجودة في فلسطين حال وقوع هذا الهجوم، إلى مواقع معدة مسبقاً على السلسلة الشرقية لغور الأردن. وقد قال بعض الضباط العرب، وأنا منهم في حينه، أن الإنكليز ينوون تسليم الضفة الغربية إلى اليهود، ولكن الخطة ضمن موازين القوى العسكرية التقليدية بين الأردن و«إسرائيل» سليمة، وإن كان الانسحاب كاملاً فيه عوامل سياسية، فهناك مناطق في لواء نابلس يقترب فيها الجبل من النهر يمكن الدفاع عنها وإمدادها بسهولة. وأذكر أن الخطة أعيد فتح ملفاتها في حرب السويس عام ١٩٥٦ واستطلع بعض قادة الألوية وأركانهم الموقع المفترض أن تنسحب إليها قطعاتهم في حالة هجوم «إسرائيلي»، ومنهم العميد راضي الهنداوي قائد اللواء الثاني والرائد عبد الرحمن العرموطي رئيس أركان اللواء وأنا عن كتيبة مدفعية الميدان الثانية، التي كانت بإسناد اللواء، وكانت المواقع المستطلعة والمفترض الانتقال إليها تقع في منطقة (الكورة) كورة ابن رباع (ودير أبي سعيد) المطلة على الغور الشمالي.

إنني أسأل: لماذا لم تُطبّق قيادة الجيش الأردني هذه الخطة بعد أن تبين في اليوم الأول من الحرب أن مصر قد خرجت من المعركة، وحينما تخرج مصر من هذه المعركة فمن هو الذي سيقاتل؟ لقد تُرك الجيش الأردني يهرب كيفياً واستولى اليهود على أسلحته ومنها لواء مدرع في منطقة الخليل، وصله «الإسرائيليون» والشبك مرمي على دباباته، بعد أن تركه ضبّاطه وجنوده... وطبعاً قائدهم، وفروا هاربين كل منهم يحمل رأسه فقط (ولم يقاتل من الجيش سوى كتيبة دبابات كانت تأخذ مواقع لها شمال غرب نابلس قائدها من نجد يدعى صالح الشويعر استشهد هو وأركان حربه سليمان العطية من بني حميدة خلده أهل نابلس بأن عملوا له نصباً تذكارياً). هل خاف النظام في الأردن أن يقال أن الجيش الأردني قد سلّم الضفة الغربية وانسحب؟ إن هذا الأمر سينتفي نهائياً من أذهان الناس عندما ينتهي الجيش من انسحاب منظم، ليبدأ مجدداً بقتال منظّم، ولكن هذا التصور لم يكن وارداً إطلاقاً في ذهن المسؤولين الأردنيين.

إن جيشاً يقوده عامر خماش الذي لا يعرف أحدٌ بكم جهة معادية هو مرتبط؟ مثل هذا الجيش، لا يمكن إلّا أن يحقق طموح الأعداء. إن الأمر الذي يضعك في حيرة شديدة هو ما هي الأسباب التي جعلت الرئيس عبد الناصر يقبل دخول الأردن معه باتفاقية (دفاع مشترك)؟ ويحمّل مصر تبعات النتائج التي ترتبت على ذلك. ولا أعرف أيضاً لماذا حمّل الرئيس عبد الناصر أحد عسكريي مصر الكبار مسؤولية قيادات قوات جبهة قبل الحرب بفترة قصيرة؟ وهذا القائد، لم يكن يعرف الحدود الدنيا عن واقع هذه القوات ولا مواقعها. كان لدى الرئيس عبد الناصر تجربة طويلة ومعرفة واطلاع على طبيعة الارتباط الاستراتيجي للنظام في الأردن، ومع ذلك فقد استمر على وصل العلاقات، كلما انقطعت. لقد كان الرئيس عبد الناصر هدفاً لتضليل دقيق من أقرب معاونيه، وهذا أمر طبيعي طالما أنه ونهجه الوطني هما الهدف، فمن الطبيعي أن تتأسس المؤامرة على تضليله، لقد كان الأردن هو البلد الوحيد بين كل من يحيط «بإسرائيل» القادر على تجنيب مصر المفاجأة ولا أقول الهزيمة لأن الهزيمة، لم تكن ناتجة من عامل أو عاملين، بل هي محصّلة الواقع، فحين أصبحت الأزمة في ذروتها بين الغرب ممثلاً «بإسرائيل» وبين مصر حين أمر الرئيس عبد الناصر قوات الطوارئ الدولية بالرحيل، طار الملك حسين إلى القاهرة ووقّع مع مصر اتفاقية (دفاع مشترك).

وبين رأس الناقورة مروراً بجبل الشيخ حتى العقبة، لا يتواجد إلّا موقع واحد يستطيع المراقب منه رؤية كل «إسرائيل» ألا وهو (رادار عجلون)، هذا الرادار يستطيع أن يرى أول طائرة «إسرائيلية» تقلع من على مدرج من مدرجات المطارات «الإسرائيلية» مقلعة صوب مصر، وكان يستطيع أن يوصل إنذاره إلى أقرب المطارات المصرية إلى فلسطين في وقت يسمح لها بالاستعداد لملاقاة المغيرين إن بالطيران أو بمقاومة الطيران، ومع ذلك لم يأت هذا الإنذار إلّا بعد أن حقق الطيران «الإسرائيلي» أهدافه في مصر. لماذا؟ لأنها المؤامرة، وهذا الرادار بني أصلاً من أجل أن يكون أحد عواملها. لقد عميت «إسرائيل» عن هذا الرادار ولم تره من أجل ذلك، ولعله كان السبب الرئيس الذي دفع الرئيس عبد الناصر أن يقبل مبادرة الملك حسين بتوقيع اتفاقية (الدفاع المشترك)، وذلك لإبلاغ مصر مبكراً عن أي توجه للطيران «الإسرائيلي» صوبها، وكانت «إسرائيل» واثقة ثقة مطلقة أن هذا الرادار لن يرى شيئاً، وإلا كان



يستحيل عليها القيام بهجومها الجوي ذاك. ولو لم يكن هدفه كما ذكرت، لما سمحت ببنائه إطلاقاً، لأنه بعد أن أدى مهمته المذكورة، دمرته كما دمّرت راداراً آخر في منطقة المزار في محافظة الكرك أثناء حرب الاستنزاف بين مصر و«إسرائيل». وأنا هنا أتساءل: لو أن بناء الرادارات مسموح به فيما يحيط «بإسرائيل» وبالجبال العالية التي تشرف على الأسطول السادس في البحر المتوسط أما كانت الجمهورية العربية المتحدة بنَتْ راداراً على جبل الشيخ؟ ألم يتواجد في الجمهورية العربية المتحدة حينها عسكري واحد يفطن إلى هذه الفكرة؟

في اليوم الأول، حينما بدأت الحرب فجر الاثنين الخامس من حزيران، بادر محمود المعايطة وأنا فور سماعنا النبأ، بالذهاب للقيادة العامة للجيش لنعرض عليهم وضع أنفسنا تحت تصرفهم، وبالفعل وصلنا القيادة العامة للجيش حوالي الساعة التاسعة صباحاً، وكانت الحرب قد أعلنها كل مذياع في العالم. لم نلحظ أية دلالة على أن القيادة العامة للجيش الأردني لديها علم بأن الحرب قد وقعت، فكل كان في مكانه، لا تغيير إطلاقاً. ولم يكن هناك أي مظهر خارج المظهر الطبيعي ليوم عادي، أجابوا على عرضنا هاتفياً بالشكر وأنهم إذا دعت الحاجة سيتصلون بنا.

بعد هذه المهاتفة مباشرة، بدأت سيارات القيادة العامة المتجمعة بالانتشار وكأن أحدهم قد فطن، طالما وأن الناس قد سمعوا باندلاع الحرب وأن بعض الناس قد جاء متطوعاً، فيجب أن تظهر القيادة العامة للجيش أنها على علم مسبق أن الحرب قد اندلعت.

في اليوم الثالث لاندلاع الحرب توجّهت إلى إربد صباحاً لألتقي الرفيق هاجم الهنداوي (رحمه الله) مسؤول الحزب في الشمال، وقبل وصولي إلى جرش أوقفت سيارتي، ودخلت مقهى على الطريق العام، وكانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً ولم يكن في المقهى إلّا صاحبه وجندي يجلس وحده، جلست وطلبت فنجان قهوة وبدأت أشربه حين سمعت الجندي يتحدث لصاحب المقهى ويقول له: إن الجيش قد انسحب من الضفة. هذا القول دفعني دون وعي مني باتجاه الجندي قائلاً له بصوت مرتفع: يا جبان، لمجرد أنك هربت من المعركة تقول أن الجيش انسحب من الضفة الغربية! فوقف الجندي مذعوراً (مقتنعاً أنني شخصية رسمية) وقال: والله يا

سيدي إن الأوامر قد أعطيت بالانسحاب إلى الجانب الشرقي من النهر (وكل جندي على رأسه) وكان الصدق بادياً على وجهه، وكان يجب علي أن أصدق ما قاله الجندي.. جيش مرتزق، يقوده عامر خماش لم يبق به من يحارب بل ولم يبق به نفَس وطني.

في عام ١٩٤٨ حينما كان هذا الجيش يتكون من أربع كتائب وبعض السرايا المستقلة وكتيبة مدرعات خفيفة وبطاريتي مدفعية ميدان، وكانت عناصره من عشائر الأردن وخارج الأردن حويطات ـ صخور ـ بني حسن ـ شمر حرب ـ أمطير ـ كركية ـ طفايلة ـ شوابكة ـ وغيرهم كان فيهم شجاعة، شهامة، نخوة، صفات كريمة، أقلها (أن الهرب أمام اليهود عيب)، وكان الجيش العربي ـ على إمكاناته المتواضعة ـ لولا السياسة البريطانية ودورها في مسار الحرب، قادراً على منع الكارثة. نعم، لقد كان قادراً على فرض الاستسلام على اليهود في القدس وحماية اللد والرملة وهذا يكفي لمنع الكارثة... انظروا إلى جيش بناه (كلوب) من عشائر العرب في كل أقطار المشرق العربي وقاده ضباط صغار من هذه الأصول. وجيش بناه الملك حسين وقاده عامر خماش.

وصلت إلى أربد، والتقيت الرفيق هاجم الهنداوي والرفاق أعضاء قيادة فرع الشمال للحزب الذين قالوا لي: إن أعداداً كبيرة من الجنود السوريين قد قطعوا نهر اليرموك إلى الأردن، وأن بعضاً منهم وصل إلى إربد، فاستهجنت الأمر... فالحرب لم تبدأ بعد على الجبهة السورية. وأثناء عودتي من إربد أدرت راديو سيارتي، فسمعت الملك حسين يخطب ناخياً وداعياً جنوده إلى القتال بكل الوسائل التي يملكونها، بأسنانهم وبأظافرهم، فقلت في نفسي من تريد أن تخدع؟ إن الجنود الذين تنخّيهم، قد استلموا أوامر الهروب، وهم يقطعون الشريعة [نهر الأردن] ركضاً إلى الشرق، وكثير منهم يلبس لباس فلاحي فلسطين.

وفي اليوم التالي وأنا أتصفّح إحدى الجرائد الصفراء، قرأت خبراً وفوقه صورة الخبر يقول: (إن إحدى الدبابات الأردنية التي تحمل اسم الحسين حملها الجنود حملاً عبر نهر الأردن إلى الضفة الشرقية خوفاً على اسم الحسين من السقوط بيد الأعداء)، والصورة للدبابة والجنود يحملونها... أسمعتم أو قرأتم بقذارة أخلاق وانحطاط قيم



من هذا المستوى؟ وطن يسلّم دون قتال، ويهرب حماته كما يهرب اللصوص حين اكتشافهم، تسلّم فيه مقدساتنا كعرب ومسلمين بما فيها ثالث الحرمين وكنيسة القيامة والمهد وقبر الحسين بن علي وجثته واسمه ويخرج علينا صحافي مبتذل (وقد يكون ماسونياً) وصحيفة صفراء يمثلان حالنا، ويقوم بإطلاعنا على عمل بطولي يمنع سقوط اسم حفيد الحسين بيد الأعداء... فمن أجل الوصول بنا إلى هذا الواقع المنحط يسلط علينا الإمبرياليون والصهاينة صنائعهم.

## الجبهة السورية

في اليوم الثالث للحرب كما ذكرت، حينما وصلت إربد في شمال الأردن، والتقيت (الرفيق هاجم الهنداوي) الذي أبلغني حينها، أن مجاميع من الجنود السوريين قد قطعت نهر اليرموك إلى الأراضي الأردنية وبعضهم وصل إلى إربد. لم أسأل عن أعدادهم أو أسلحتهم كون الظاهرة بحد ذاتها ألجمتني، فلم يكن هناك قتال على الجبهة السورية بعد، لم يكن إلّا قصف مدفعي متبادل وقصف جوي للطيران «الإسرائيلي»، وحينما يكون لدى الإنسان قناعات مغايرة للحقيقة سلباً يصاب بالأسى والحزن، خصوصاً أنني لست من النوع الذي ينطبق عليه القول (عين الرضا)، ومعضلتي أنني إنسان لا يرتوي إلّا حينما يشرب براحتيه. أي أنني لا اعتمد آراء الآخرين أرضية لقناعاتي، وهذا طبعاً يأخذ زمناً وفي واقع مثل واقع الأمة العربية، قد يأخذ العمر كله، وهذا ما قد حصل. فخلال مسؤوليتي الحزبية بعد حركة الثالث والعشرين من شباط عام ١٩٦٦ لم ألتق القادة الحزبيين في سورية إلّا مرة واحدة وكانت للتعارف، ولم أبحث مع أي رفيق مسؤول منهم أية مواضيع خارج مسؤوليتي الحزبية في حينه، وكانت هذه الزيارة قبل الحرب بعدد من الأشهر، وبعد الحرب استدعيت إلى دمشق لأقدم تقييماً للواقع في الأردن أمام الاجتماع المشترك (أي القيادتين القومية والقطرية السورية) وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي بهذا الجمع من القياديين. وبعد أن قدمت تقريري وأجبت عن بعض الأسئلة التي وجّهت لي حول الوضع السياسي في الأردن والقوى السياسية الموجودة فيه والقوى السياسية التي قد تتواجد بعد الهزيمة، خرجت من الاجتماع، فأنا لم أكن عضواً في حينه في أي من القيادتين.

في اجتماعاتي اللاحقة مع القياديين السوريين، لم أبحث معهم أسباب ما حدث على

الجبهة السورية، ولكن في لقاء لي مع الدكتور نور الدين الأتاسي رئيس الدولة، والأمين العام للحزب في حينه، جرى حديث عام، وقد يكون هادفاً من جانبه، حول الحرب والأزمة السياسية التي قادت إليها. ومن جملة ما قاله الرئيس الأتاسي: إن الرئيس عبد الناصر قد ذهب بالأمور بعيداً. وحينها شعرت من خلال الحديث، أنه كانت هناك محاولة سورية لتحميل الرئيس عبد الناصر إيصال الأمور إلى ما وصلت إليه في زيارتي هذه. التقيت ملازماً أول احتياطياً في الجيش السوري عديلاً للدكتور شكري فيصل أستاذ الأدب العربي في جامعة دمشق على غداء خارج دمشق، دعانا إليه الدكتور فيصل (أنا وأم موسى زوجتي)، والدكتور فيصل هو أحد أخوال أم موسى، قال الملازم الأول: لقد كنت ضابطاً أقود سرية في أحد ألوية المشاة في الجبهة، نحن لم نقاتل ولم نصطدم بالعدو وكل القتال الذي حدث بالجبهة كان تبادل نيران المدفعية وقصفاً جوياً متقطعاً للطيران «الإسرائيلي»، ومع ذلك فقد هرب كل منا على رأسه.

في سجن المزة العسكري، التقيت اللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش في سورية في حرب حزيران، تحدث لي عن حرب حزيران حديثاً تبريرياً لا يمكن أن يصدق أو يقبل من قائد عسكري كان رئيساً لأركان الجيش في حرب حزيران، قال: تسلمت قيادة الجبهة فور وقوع الحرب بأمر من وزير الدفاع الفريق حافظ الأسد، وحسب الخطة المعدة لمثل تلك الحالة أعطيت الأوامر والتعليمات إلى الوحدات العسكرية ذات الواجبات، أن تأخذ مواقعها، إلّا أن الأوامر لم تُنفّذ ولم تقُم أي من الوحدات بواجباتها المحددة حسب الخطة، ولذلك لم نستطع أن نقوم بأية مبادرة هجومية. هذه هي زبدة الحديث الطويل الذي أسمعني إياه اللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش العربي السوري قبل عام وثلاثة أشهر من وقوع الحرب هي مدة كافية لأي رئيس أركان متوسط القدرات أن يكون على اطلاع كاف على مستوى قدرات قواته القتالية والتنظيمية خصوصاً أن هذه القوات لا تتعدى الفيلق المقاتل، إلّا أن الحقيقة المهمة والتي لم أكن أعرفها من قبل، هي أن اللواء سويداني قد قاد الجبهة إضافة إلى مسؤوليته كرئيس لأركان الجيش، ما معنى ذلك؟ كيف يمكن لرئيس الأركان في جيش يخوض حرباً في مستوى حرب حزيران، أن يكون قائداً للجبهة في الوقت نفسه، إن هذا يعني بوضوح أمرين:



أ ـ أنه لم يكن هناك حرب بالمعنى الحقيقي للحرب حسب رؤية القيادة العسكرية في سورية.

ب ـ أن الأمر تطلب وجود اللواء سويداني شخصياً قائداً للجبهة في ذلك الظرف. وعلى القارئ أن يعرف أن خسائر الجيش السوري في دفاعه عن هضبة الجولان الحصينة، كانت مائة وخمسة وعشرين شهيداً، وأن الإعلان عن سقوط مدينة القنيطرة عاصمة المحافظة، قد تم قبل وصول الجيش «الإسرائيلي» إليها بأربع وعشرين ساعة، (إنها صفقة).

## الفريق عبد المنعم رياض

حسب ما أتذكر، أن الفريق عبد المنعم رياض كان أحد قادة قوات مصر في اليمن، ثم قائداً لهذه القوات، ومن بعد رئيساً للدائرة العسكرية في الجامعة العربية.

تعرّف الملك حسين إلى الفريق رياض حينما كان رئيساً للدائرة العسكرية في الجامعة العربية. في كتاباته عن حرب حزيران، يذكر الأستاذ هيكل أن الملك حسين طلب من الرئيس عبد الناصر، إرسال الفريق رياض إلى عمان لأنه يرغب في تحميله رسالة شخصية إلى الرئيس عبد الناصر، ولما التقى الفريق رياض الملك حسين في عمان، حمّله الرسالة التي كان مضمونها أن القادة (السوريين يقومون بدور مشبوه). ولم يزد الملك حسين على هذا القول حرفاً، وعلى القارئ أن يعلم أن هذه الرسالة سلمت والأزمة في ذروتها، قبل انفجارها، وأن أي تصرف تجاهها أصبح مستحيلاً. ومع ذلك لم تصل الرسالة كما قال الأستاذ هيكل.

بعد توقيع الملك حسين على اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر، طلب من الرئيس عبد الناصر تعيين الفريق عبد المنعم رياض قائداً للجبهة الشرقية، وأن يكون مركزه عمان. وعلى القارئ أن يعي أن أي إنسان في موقع وواقع الملك حسين، لا يمكن أن يختار شخصية بعينها لتولي مسؤولية مهمة كمسؤولية الفريق رياض ودون أن يكون على بيّنة ومعرفة كافية، تدفعه إلى هذا الاختيار. لقد تسلم الفريق رياض قيادة الجبهة الشرقية في عمان قبيل الحرب بأيام، مدة لا تمكنه من الاطلاع السليم على المهام الأساسية

التي يجب أن يهتم بها قائد يقود جبهة تمتد من جبل الشيخ حتى العقبة، قائد يقود قطاعات عسكرية، يجب أن تكون على أتم الاستعداد لخوض حرب قد تقع في أية لحظة.

إن ما سمعته من أشخاص مطلعين، أن الفريق رياض كان هدفاً للتضليل والتشويش وإيصال المعلومات المتناقضة والكاذبة إليه، والتي جعلته غير قادر على تحديد موقف استراتيجي لقواته التي كان يقودها (إن كان هناك قوات أصلاً تحت إمرته!). قد يكون الفريق رياض قد وجد نفسه في بيت (عنكبوت نسج مسبقاً لاصطياده) ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل يمكن لقائد في مستوى الفريق رياض أن يكون بهذه الحدود من اللاوعي بمسوؤلياته؟ وحتى بأبجديات معنى القيادة في المستوى الذي يتحمل مسؤوليته؟

في صباح يوم الإثنين الخامس من حزيران، حينما توجهت أنا ومحمود للقيادة العامة كما ذكرت سابقاً، ولم نلاحظ أي مظهر يدل على أن القيادة العامة للجيش في الأردن لها علم أن الحرب قد وقعت، وطبعاً كان الفريق رياض موجوداً في هذه القيادة، هكذا يفترض وإلا أين يمكن أن يكون في مثل هذا الظرف؟ هذه واحدة، أما الثانية فهي أن أموراً حدثت لا يمكن التسليم بها خصوصاً أن هناك واقعة تثير الاهتمام والتساؤل، ففي اليوم الثالث أو الرابع للحرب، طلب الفريق رياض من القيادة العسكرية السورية بصفته قائد (الجبهة الشرقية)، إرسال قوة عسكرية من الجيش السوري تكون قادرة على الدفاع عن محور (الغور عمان)، لأنه لم يبق في الجيش الأردني من يستطيع القيام بذلك. الدفاع بوجه من؟ لا بد أن يكون ذلك من هجوم «إسرائيلي» محتمل على المرتفعات الشرقية لغور الأردن.. ولأن الواجب الذي أعطي إلى قائد اللواء الميكانيكي الذي وصل إلى الأردن حسب طلب قائد الجبهة الشرقية الفريق عبد المنعم رياض هو احتلال موقع دفاعي على سلسلة جبال جلعاد (السلط) المتحكمة بطريق (الغور عمان) والسؤال المحير هو: هل يعقل أن قائداً عسكرياً في مستوى الفريق رياض يمكن أن يخطئ حتى هذا المدى في تقدير الموقف الحربي لجيش الدفاع «الإسرائيلي»؟ إن سكان «إسرائيل» في عام ١٩٦٧ لم يتجاوز تعدادهم ثلاثة ملايين، احتلوا سيناء حتى ضفاف قناة السويس وكذلك ما تبقى من فلسطين، وكانوا في طريقهم لاحتلال المرتفعات السورية. (وسورية العامل الأساسي في تفجير



الحرب)، ولا بد لقائد مسؤول عن الدفاع عن الجبهة الشرقية، أن يدرك أنه بعد احتلال سيناء والضفة الغربية فبالتأكيد أنهم في طريقهم إلى الجبهة السورية، وكان واجب الفريق رياض أن يجمع شتات كل ما يستطيعه لتعزيز جبهة المرتفعات السورية لا أن يُطلب من السوريين إرسال أعز قطعاتهم في الحالة المتوقعة التي ذكرت، للقيام بواجب موهوم يستحيل وقوعه ضمن ما حققته «إسرائيل» وإمكاناتها البشرية آنذاك، وبالتأكيد أن الفريق رياض يعرف أن المبررات (السوقية) لوجود الكيان في الأردن وأنه جار عزيز، لا يمكن التعرض إليه قبل انتفاء مبررات وجوده، والتي لم تحن في ذلك الحين.

ولقد تبين فيما بعد، أن الهدف الأساسي من طلب هذه القوة التي كانت بقيادة ضابط كفء، والأهم أنه وطني وهو العقيد (صلاح نعيسة) كان ذا شقين:

١ ـ إضعاف الواقع العسكري السوري على الجبهة، فسحب لواء ميكانيكي مؤلف من كتيبتي مشاة محمولة وكتيبة دبابات حديثة مع حمايته الجوية يشكل هو واللواء (٧٠) المدرع، احتياط الجبهة القتالي يجعل إمكانية الهجوم المقابل ضعيفة.

٢ ـ لقد كان الشق الثاني من الهدف تآمرياً، فحين وصل اللواء إلى منطقة التجمع التقى بضباط أردنيين، ليعطوه ويشرحوا له الموقف. قالوا لقائد اللواء، إن عليك ترك آلياتك ودباباتك هنا، والسير بجنودك كمشاة للدفاع عن هذه المواقع، لأن طبيعة الأرض وعرة، لا تسمح للآليات والدبابات بالسير عليها، فرفض قائد اللواء ذلك وعاد بلوائه إلى حوران، ولما وصل كانت الهضبة السورية قد سقطت وجنودها قد فرّوا. وكان الهدف من إبقاء الآليات والدبابات بدون جنود هو الاستيلاء عليها، واستخدامها بعملية انقلابية ضد النظام في سورية. انظروا إلى دول البيادق، يحتل العدو أرضهم، ويشرد إنسانها وهي لا تلتفت إليه ولا تخافه إنما تلتفت بعضها إلى بعض، لأنها تخاف هذا البعض! هذه هي القطرية وهذا هو مضمونها الحقيقي، الصغير يخاف الكبير، فلا بد له أن يضعفه حتى يسلم ولو التجأ إلى ألد الأعداء. والآن نتحوّل بالسؤال إلى القيادة السورية التي بادرت بإرسال أهم قطعاتها العسكرية في الظرف المنهار الذي أحاط بالواقع العسكري على كل الجبهات، وهي تعلم أن نوايا العدو مؤكدة بأنه سيهاجم الجبهة السورية بهدف احتلالها. هل جاءت مبادرتها بإرسال

أفضل قطعة عسكرية لديها في الظروف التي ذكرت تحت بند إطاعة الأوامر؟ كلا. على القارئ أن يخرج الحقيقة على ضوء معطيات هذا الواقع. بعد أيام من وقف إطلاق النار سافرت أنا ومحمود إلى دمشق والتقينا هناك الأمين العام المساعد اللواء صلاح جديد، الذي أشار علينا أن نزور القيادة العامة للجيش السوري في موقعها الجديد في منطقة (الضمير) وأركبنا إحدى السيارات وأرسل معنا سائقاً يعرف موقعها فأوصلنا السائق إلى المكان، وكان الموقع مموها بشكل جيد. قادنا أحد الضباط إلى داخل الموقع، موقع مسلح تحت الأرض. دخلنا إلى غرفة بها اللواء في حينه حافظ الأسد وزير الدفاع واللواء أحمد سويداني رئيس الأركان، وكان يجلس كل منهما على طاولة عليها جهاز اتصال، وكان استقبالهما لنا غير بشوش، ولم نمكث معهما أكثر من خمس دقائق، سألنا حينها اللواء سويداني عن مواقع الجيش الأردني الجديدة، فتقدمت أنا إلى الخارطة المعلقة على الحائط فأزاح الستار عنها، وأنا طبعاً لم أكن أعرف مواقع الجيش الأردني الجديدة، ومع ذلك افترضت من عندي هذه المواقع على ضوء معرفتي بالأرض، وبالخطة القديمة التي كان يفترض أن ينسحب إليها الجيش في حالة هجوم «إسرائيلي» على الضفة الغربية، ولم أجد على خارطة رئيس الأركان هذه أية إشارات تدل على مواقع القوات المتقابلة على خط وقف إطلاق النار على الجبهة السورية وكانت قيادة فقيرة بكل معنى الكلمة، إن كان من الناحية التنظيمية لمستوى هكذا قيادة، أو فن قيادة الأركان. ولم أستطع تقدير أهداف اللواء صلاح جديد من إطلاعنا على هذا الواقع الفقير عسكرياً.

## الموقف السياسي في الأردن بعد الهزيمة

بعد الهزيمة جرى تحرك سياسي على الساحة الأردنية، وطبيعي أن يحدث ذلك، إذ كان يمكن للواقع السياسي أن يكون أكثر هيجاناً بسبب الهزيمة النكراء وفقدان أجزاء من الوطن الغالي على كل الجبهات، لولا أن الهزيمة كانت شاملة، الأمر الذي أفقد الشارع الشعبي زمام المبادرة، ووضعه في دوامة أفقدته القدرة على القيام بأي نوع من المبادرات السياسية الجماهيرية الجدية، ولهذا جاء التحرك السياسي من نوع (على قدر أهل العزم). عماد هذا التحرك آنذاك كانت النقابات المهنية التي كانت قائمة في حينه، وجمعية الأخوان المسلمون، والأحزاب السياسية الممنوعة، ومع ذلك نفض الغبار عن مواقعها كالحزب الشيوعي الأردني الذي خرج أعضاؤه من السجن بعد



الهزيمة، وحزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الوطني الاشتراكي، لا أعرف مَنْ مِنْ هذه القوى قام بالمبادرة؟ ولكنني أعي أن هذه المبادرة كانت تتفق تماماً ورؤى النظام في تلك المرحلة.

جرى أول لقاء لممثلي أطراف هذا التجمع في مجمع النقابات، وقد ضم هذا الاجتماع أكثر من عشرين شخصية مهنية وسياسية واجتماعية، وترأس هذا الاجتماع رئيس الحزب الوطني الاشتراكي (المحظور آنذاك) رئيس الوزراء الأسبق الأستاذ سليمان النابلسي (رحمه الله)، وكنت أنا ومحمود المعايطة نمثل حزب البعث العربي الاشتراكي، وقبل أن يفتتح الأستاذ سليمان النابلسي الاجتماع دخل إلى قاعة المجتمعين الملك حسين وولي عهده الأمير حسن وفي معيته محمد رسول ـ زيد الكيلاني مدير جهاز المخابرات، وقفنا جميعاً وتنحى الأستاذ سليمان عن الرئاسة ليتولاها الملك حسين ويجلس إلى جانبيه من كان في معيته، بدأ الملك حسين يتحدث للمجتمعين بصوت خفيض، ما كان لي أن أسمع كل ما كان يقوله وأنا أجلس على الجانب المقابل مباشرة، ثم إن دخول جلالته علينا وترؤسه لهذا الاجتماع، قد أحبطا المسعى الذي كان في ذهني حول المسار الذي يمكن أن يأخذه هذا الجمع من المهمتين بعد الهزيمة، وكانت بداية حديثة هي مقولته الدائمة التكرار، عن الثورة العربية الكبرى، ودور الهاشميين التاريخي قديماً وحديثاً وكأن الحاضرين لا يعرفون دور الهاشميين في التاريخ القديم السلبي والإيجابي فيه، ولا دورهم في التاريخ الحديث، وكأنهم لا يعرفون أيضاً الفروق بين المرحلة التي كنا فيها ودور جلالته، وبين مرحلة الحسين بن علي شريف مكة (طيب الله ثراه) الذي فقد ملكه وابتلي، وشُرِد، ونفي لأنه رفض قبول وعد (بلفور)، وأصر على تحقيق الوعود التي قطعها له الإنكليز الذين (لا وعود لهم ولا عهود).

وبعد حديث طويل مكرر، خَلُص جلالته إلى الأمر الذي أراد من المجتمعين أن يسمعوه ويعرفوه، وبعده قال: إن الأردن مع التسوية السياسية حسب القرار (٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن، وكان واضحاً من حديثه عن التسوية وعن القرار (٢٤٢)، أنه مقتنع في حينه، أن التسوية حسب مضمون هذا القرار، ممكنة التحقق، لماذا؟ لأن هذا القرار هو الوعد (الطعم) الذي استندت إليه المؤامرة، وابتلعه المتآمرون. وبعدها سأل إن كان هناك من يريد الحديث. لم أعد أذكر من تحدث في ذلك الاجتماع،

ولا الحديث الذي قيل فيه، لأن كل ما قيل لا يعلق في الذهن. لم يتحدث أحد، بمن فيهم أنا، عن الواقع الذي أدى إلى الهزيمة، ولا عن الرؤية المستقبلية لصيرورة الواقع السياسي في الأردن، وكنت قد رفعت يدي أطلب الحديث فتجاوزني أكثر من مرة، وقد سمح لي أخيراً بالحديث. قلت: يا جلالة سيدنا، إن هذه الأرض التي يطلب إلينا التنازل عنها ليست ملكنا لنتنازل بالتالي عنها. هي آلت إلينا بالوراثة فعلينا على الأقل إن لم نستطع استعادتها أن لا نتنازل عنها. فأجابني (أن يداً واحدة لا تصفق) وكأنه لا يوجد يد أخرى لها علاقة بهذه القضية، لا لأهلها ولا للإنسان العربي، ولا حتى لأي نظام عربي آخر. وعلّق الدكتور (كامل حمارنة) نقيب الأطباء آنذاك على حديثي قائلاً (إن هذا كلام بدوي صادق)، وكان هذا الاجتماع هو الأول والأخير للتجمع الوطني بهذا المستوى من التمثيل، وإن كان قد جرى لقاء آخر مع الملك حسين في فترة لاحقة، إلّا أن عدد الممثلين اقتصر على ممثل واحد لكل حزب ونقابة مهنية. وهنا لا بد من القول اجتهاداً، أن هذا التجمع بما مثله مهنياً وسياسياً، لم يأت بمبادرة ذاتية من القوى التي تكوّن منها، لأن هذا التكوين أحزاب سياسية محلولة وممنوعة من الوجود، ونقابات مهنية موجودة بموجب القانون، فهذا التكوين (التجمع) لا يمكن أن يتشكل ويتوحد، إلّا بإشارة من جهة صاحبة قرار في النظام، إلى أكثر من طرف في هذا التجمع. هُزم النظام هزيمة نكراء مشبوهة الأهداف، سلّم خلالها الأرض بدون قتال، وباتت هناك قناعة تامة لدى الفلسطينيين والنخبة من الأردنيين بأن هذا النظام لا يستطيع أن يقدم للقضية الفلسطينية أي فعل إيجابي، ولا حتى للقضية الوطنية بمضمونها الأهم. وأنه كان هناك فراغ جدي في الواقع السياسي الأردني، والذين سيملأون هذا الفراغ هم أولئك الأشد وضوحاً وعداوة للنظام، وخوف السلطة من أن يحدث ذلك هو الذي دعاها لدعم تكوين هذا التجمع.

فبعد قرابة الشهر من اجتماع مجمع النقابات، اتصل بي المرحوم الأستاذ كمال ناصر في مقري بشركة مناجم الفوسفات وقال لي: إن قادة التجمع الوطني مدعوون للاجتماع مع جلالة الملك حسين، ونحن بانتظارك في منزل الأستاذ (أبو فارس). فقلت له: إنني لا أستطيع أن أكون موجوداً في هذا اللقاء فلدي ارتباطات مسبقة وأنا أفوضك أنت وأبو فارس التحدث باسم حزب البعث العربي الاشتراكي، وكنت حقيقة راغباً عن حضور أي اجتماع شبيه باجتماع مجمع النقابات، لأنه لم يكن بين هؤلاء



السادة من يستطيع الرد بجدية وبمنطق على تبجحات الملك حسين غير المنطقية ولا على الصلف الذي يواجه به مستمعيه، الأمر الذي لا يتطابق مع النتائج المحزنة السياسية التي قادنا إليها جلالته خلال السنوات العشر الماضية، وكنت أخاف من نفسي أن يفرض علي موقف لا يستساغ، ويكون مسلكي خاطئاً. وكانت تجربة لقاء مجمع النقابات ماثلة في ذهني.

بعد أقل من خمس دقائق، عاد الأستاذ كمال ناصر واتصل بي قائلاً: يقول لك (أبو فارس) أنه إذا لم تكن ضمن الوفد، فإن الوفد لن يذهب إلى هذا اللقاء، فأحبط مسعاي في التهرب. وكنت أعرف سبب هذا الموقف، فأبو فارس نفسه لم يكن يستطيع أن يقول ما في نفسه ولا أحد في وفد التجمع كان قادراً على ذلك، ووجد أنني أقول ما لا يستطيع أن يقوله، وكان لا بد من أن ألتحق بالوفد. سرنا من منزل دولة الأستاذ سليمان النابلسي في قافلة واحدة إلى القصر الملكي، وقد صممت بيني وبين نفسي أن لا أتحدث في هذا الاجتماع، مهما كانت المبررات.

حين وصلنا إلى القصر الملكي أجلسونا في الغرفة المقابلة تماماً لمدخل القصر، بها طاولة معدة وحولها عدد من الكراسي، وكان عددنا أقل كما ذكرت، فكل حزب ونقابة تمثله شخصية واحدة. أما (الضمير) الأستاذ كمال ناصر، فلم أعرف من يمثل، وإن كنت قد خمّنت أنه كان يمثل جناح الأستاذ ميشيل عفلق.

بعد فترة قصيرة، دخل علينا الملك حسين وفي معيته ولي العهد الأمير حسن آنذاك ورئيس الديوان السيد زيد الرفاعي، وجلس على رأس الطاولة، ووضعوا أمامه قدحاً من الشاي. تحدث حديثاً موجزاً عن الوضع داخلياً، حديثاً لا يعلق في الذهن، ودخل مباشرة إلى الموضوع الذي من أجل الوصول إليه، جرت هذه المداولات الطويلة. وهو إيجاد صيغة تمثيلية بديلة عن مجلس النواب لاستحالة إجراء انتخابات نيابية.

وكان الأستاذ كمال ناصر من أوائل المتحدثين، وقد جلس إلى يمين الأستاذ سليمان النابلسي. لم أتبين بدقة ما قاله الأستاذ كمال، لأنه كان يتحدث بصوت خفيض لقربه من الملك، ولكنني عرفت مضمونه من رد الملك حسين عليه، فقد أشار على ما يبدو إلى الصيغة التي كانت قائمة عام ١٩٥٧، وحبذ العودة إليها، وهي الصيغة الديموقراطية

التي انقلب عليها الملك حسين عام ١٩٥٧، وكان رد الملك حسين شديد الجفاء قائلاً: «إن لنا تجربة مع الأحزاب عام ١٩٥٧ لا تشجعنا على العودة إليها».

هذا الرأي الذي أبداه الأستاذ كمال، ورّد جلالة الملك حسين عليه فرضا عليّ التدخل لإبداء الرأي. فرفعت يدي طالباً السماح لي بالكلام فرفض منحي ذلك وتجاوزني إلى آخرين مرة وثانية وثالثة إلى أن خاطبته قائلاً: «تسمح يا جلالة سيدنا» فقال لي حينها تفضل، فقلت: يا جلالة سيدنا، إن هيكل الدولة القائم حالياً هو نفسه الذي انهزم عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧، فما لم يجر تغيير جدي على هيكلية المؤسسات يتناسب مع الواقع الذي نحن فيه، فأي حديث في هذا الموضوع لا يقود إلى إصلاح حقيقي. إن تذكير الملك حسين بتجربة عام ١٩٥٧ هو الذي فرض علي الرد، فأنا مقتنع تماماً أن كامل أسباب هزيمة عام ١٩٥٧ وكل واقعنا الذي نحن عليه الآن، يستند إلى الارتداد على الديموقراطية عام ١٩٥٧. وفي هذه المرة لم يجبني جلالته وانتهى الاجتماع بعد هذا القول.

وكان هذا آخر اجتماعات (التجمع الوطني) الذي تآكل ومات بعد أن تجاوزه الواقع السياسي الجماهيري في الشارع السياسي في الأردن. فالعمل السياسي التقليدي من أحزاب سياسية ومنظمات مهنية ونقابات عمالية وغيرها، أصبح خارج إطار الواقع، كون المقاومة الفلسطينية المسلحة ممثلة بحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) قد تواجدت آنذاك على ساحة الأردن. وهذا الحدث الفريد في تاريخ الأردن السياسي كان بالغ التأثير على كل مناحي الحياة في الأردن سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. ومن هنا ما كان لأي تنظيم سياسي، له استراتيجية نابعة من أيديولوجيته، مهما كان مضمون هذه الأيديولوجية قطرياً أو قومياً أو أممياً إن كان لها أهداف سياسية إيجابية أو سلبية، إذا أرادت متابعة الطريق إلى أهدافها، لا بد لها حينها من الدخول إلى ساحة العمل المسلح. ومن هنا بادرت حركة القوميين العرب التي كان لها نشاط سابق يتوازى زمنياً ونشاط (فتح) إلى تشكيل جبهة من تنظيمات متعددة أهمها منظمة (أبطال العودة) أطلق عليها اسم (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، وكانت باكورة أعمالها في ميدان الكفاح المسلح هو (تكتيك) اختطاف الطائرات، وقد أحدث هذا الأسلوب (التحريري)؟ ضجة إعلامية عالمية واسعة أعطت المردود المطلوب الذي كانت تتوخاه قيادة الجبهة وهو إبراز نفسها كفصيل أساسي، يساوي الفصيل الآخر



أي حركة (فتح) في ساحة العمل الفلسطيني بقدر ما أعطى مردوداً سلبياً على العمل الفلسطيني المقاوم عامة، ملصقاً به تهمة الإرهاب، وساهم مساهمة جدية في إيضاح التباعد الذي لا يمكن حسره في حينه في ساحة العمل الفلسطيني.

أما الدولة الأردنية التي كانت الطائرات المخطوفة تهبط بالتتابع على أراضيها، في منطقة الأزرق، فقد كان هذا (التكتيك) لا يزعجها، وإن أظهرت غير ذلك، فقد كان يهمها أن تثير الرأي العام العالمي ضد الكفاح الفلسطيني، وهي كانت تسعى كذلك إلى إبراز التناقضات في ساحة العمل الفلسطيني وأن يتساءل الناس عالمياً ومحلياً فيما بعد عن علاقة اختطاف الطائرات، وترويع ركابها وأطفالها من جهة والكفاح المسلح من أجل حقوق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه من جهة أخرى.

## البعث والمقاومة الفلسطينية

من الطبيعي أن يكون للبعث دور في المقاومة والكفاح من أجل فلسطين، وليس دوراً هامشياً بل دوراً أساسياً، إذ إنه الحزب الذي يعتبر قضية فلسطين قضيته المركزية ويعتبر نفسه الأقرب فهماً إلى جوهرها من أي حزب سياسي أو فصيل مقاوم في ساحة العمل الفلسطيني، ووعيه لجوهر الصراع على فلسطين، من أنه لا يستهدف فلسطين فقط، بل هو المدخل إلى حقيقة الأمة العربية إما بإثبات هذه الحقيقة أو إسقاطها. ومن هنا فقد أصر فرع فلسطين في دمشق، مسلحاً بقرارات مؤتمرات الحزب القومية، على المساهمة الجادة في الكفاح المسلح خصوصاً بعد أن تواجدت (فتح) على الأرض السورية قبل وبعد حرب عام ١٩٦٧، وكان بعض المسؤولين السوريين، وأخص بالذكر منهم اللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش بعد ٢٣ شباط، وعضو قيادة الحزب في القطر السوري يقولون بعدم الحاجة إلى وجود تنظيم مسلح للحزب في ساحة العمل الفلسطيني، لأنه يمكن للبعثيين فلسطينيين كانوا أو غير فلسطينيين أن يكونوا جزءاً من كادر حركة التحرير الوطني الفلسطيني، إلّا أن هذا الرأي، لم يصمد أمام إصرار البعثيين الذين كانوا قد تبينوا في وقت مبكر الفروق الواضحة بين فهم البعث للمسألة الفلسطينية وبين فهم واستراتيجية حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). وهكذا شكّل فرع فلسطين للحزب في سورية، وبموافقة القيادة القومية تنظيماً فدائياً أطلق عليه اسم طلائع حرب التحرير الشعبية (قوات الصاعقة) وكان ذلك قبيل حرب عام ١٩٦٧.

## الحزب في الأردن بعد هزيمة عام ١٩٦٧

لقد اتسع تنظيم حزبنا (أفقياً وعمودياً) وأصبح أوضح في ما يتعلق بفكره الاجتماعي وهدفه السياسي حينما التزم بالنظرة العلمية لتحليل الواقع وبالموضوعية كأسلوب للوصول إلى الموقف الأصح مع الالتزام التام بأهداف البعث في الوحدة والحرية والاشتراكية. هذه الحقيقة جعلت حزبنا في تلك المرحلة واقعياً، وبات، جماهيرياً، هو الممثل الشرعي لمعنى البعث وأهدافه.

وفي أيلول من عام ١٩٦٨ انعقد المؤتمر القطري الأول للتنظيم الموحد لحزب البعث الاشتراكي في مدرسة الإعداد الحزبي في (يعفور) غرب دمشق، بعد أن جرت في الحزب انتخابات على صعيد القاعدة.

وقد افتتح المؤتمر الأمين العام المساعد اللواء (صلاح جديد)، وجرى طرح موضوعة (وحدة الحزب) من قبل بعض الرفاق أعضاء المؤتمر، وقد أرادوا من هذا الطرح أن يسمعوا الأمين العام المساعد مباشرة رأي قواعد الحزب في قضية الانشقاق في الحزب بعد حركة ٢٣ شباط، وفي حينها، كان انقلاب ١٧ ـ ٣٠ تموز الذي أعاد الحزب في العراق إلى السلطة، قد مضى عليه قرابة الشهرين، وقد شعرت أن الأمين العام المساعد قد أصيب بجرح شديد لحساسية الموضوع بالنسبة له، وهو لم يكن مستعداً للخوض في هذا الموضوع، وقد فوجئت أنا شخصياً في هذا الطرح ولكنني تفهمته، فانقلاب ١٧ تموز كان لا يزال تحيط به الشكوك من خلال بعض القائمين عليه، إذ كان هناك أكثر من شخصية في واجهته تثير التساؤل الشديد، ومن أبرز هذه الشخصيات الفريق حردان عبد الغفار التكريتي، فتاريخه الدامي ضد الحرس القومي، ودوره البارز في انقلاب عبد السلام عارف على سلطة الحزب، يجعل البعثيين يتحسسون تجاه تسلمه أي منصب كان. والأهم أن الذين كانوا في واجهة السلطة هم العسكريون، ولم يكن هناك في تلك المرحلة دور للحزب، يمكنك أن تراه أو تلمسه.

وكان أمام الحكم في العراق طريق طويل وشاق حتى يثبت انتماءه لحزب البعث الاشتراكي، لكن البعثيين الملتزمين المؤمنين أصيبوا إصابة بالغة إثر الانشقاق بعد



حركة ٢٣ شباط، وكان همهم الأكبر هو إعادة وحدة الحزب لأنه حسب فهمهم للأمور على السطح، أن وحدة الحزب تعني وحدة سورية والعراق التي بذهنهم هي سارية النجاة، بعد هزيمة عام ١٩٦٧، لكن انشقاق الحزب كان انشقاقاً سياسياً بتأثير عاملين هما: ١ ـ النفوذ الدولي ـ الأطلسي ٢ ـ الأيديولوجية الماركسية الستالينية ـ حلف وارسو.

وبعد أن أنهى المؤتمر أعماله انتخب قيادة قطرية كانت الأولى منذ حركة الـ ٢٣ شباط التي تولت مسؤولياتها بالانتخاب. وجرى أيضاً انتخاب أربعة عشر عضواً للمؤتمر القومي العاشر الذي انعقد مباشرة بعد مؤتمر الحزب في الأردن، كما أعيد انتخابي أميناً لسر قيادة القطر للحزب في الأردن.

## المقاومة الفلسطينية على ساحة الأردن

بعد حرب حزيران وحتى أيلول ١٩٦٨، تواجدت جميع المنظمات الفلسطينية العاملة في حركة المقاومة على أرض الأردن، ما عدا قوات الصاعقة وجبهة التحرير العربية التي لم تكن قد تكونت بعد. وهذه الفصائل هي:

(١) حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح).

(٢) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (التي تشظت إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية القيادة العامة (أحمد جبريل).

(٣) جبهة النضال الشعبي (سمير غوشة).

(٤) جبهة تحرير فلسطين (ج ت ف).

(٥) الهيئة العاملة عصام السرطاوي.

(٦) مجموعات فدائية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني، قوات اليرموك في دمشق، وكان لها قواعد ومراكز انطلاق في غور الأردن.

تواجدت جميع هذه التنظيمات في المخيمات الفلسطينية، وفي الأماكن ذات الكثافة السكانية الفلسطينية في المدن الأردنية، وكل هذه التنظيمات كانت تمارس النشاط التنظيمي والفكري والسياسي والإعلامي وتمتلك عناصر مسلحة ضمن إمكاناتها. والتنظيمان الوحيدان اللذان كان لهما قواعد خارج المخيمات الفلسطينية، ومواقع انطلاق إلى فلسطين في الأغوار هما تنظيما العاصفة (فتح) وفدائيي جيش التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) في دمشق. ومع أن هذه المنظمات جميعاً تقول بهدف واحد، وهو تحرير فلسطين كما تدّعي، إلّا أن أساليبها في العمل من أجل هذا الهدف العزيز كانت مختلفة، وأحياناً كثيرة متعارضة، وهذا أمر يمكن فهمه في المرحلة الأولى من النضال.

من طبيعة الأمور عند البدايات أن تكون الرؤيا غير موحدة، وأساليب العمل مختلفة، عند الساعين حتى إلى هدف واحد، باختلاف تكوينهم، وانتمائهم العقائدي، وأيضاً ارتباطاتهم. ولكن الأمر يصبح غير مفهوم ويخضع للريبة والشكوك حينما يستمر كذلك. وأكبر فصيلين في تلك المرحلة من العمل الفلسطيني المسلح، حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كان نشاطهما العسكري متباعداً جوهرياً وكذلك السياسي. كانت المهمة الأساسية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، هي إبراز الهوية الفلسطينية من خلال تكثيف النشاط السياسي والإعلامي، وخلق التكوينات الفلسطينية التي تعبّر عن انتماء الشعب الفلسطيني إلى فلسطين ورفع الهوية عالياً ليراها كل عربي فلسطيني أينما وجد في هذا العالم، من أجل الإيمان بها، والعمل من أجل تحقيقها. وهذا المنطق ومن خلال هذا المنطلق، لم يكن في مرحلته عملاً منحرفاً أو خاطئاً بل كان مطلوباً وأمراً موضوعياً، فالجهاد والكفاح هو من أجل فلسطين، لذلك من الطبيعي أن يكون الشعب العربي الفلسطيني طليعة هذا الكفاح. أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فقد مارست (تكتيك خطف الطائرات) الذي ذكرته وأبديت رأيي في سلبياته، والمردود الإعلامي الذي أبرز الجبهة، والذي كان ينتهي عادة في فندق الأردن، الذي كان ينزل فيه ركاب الطائرة المختطفة، بعد أن يوافق قادة الجبهة على نقلهم من المطار إلى الفندق حيث تنتهي العملية بمؤتمر صحافي يعقده الدكتور (جورج حبش) الأمين العام للجبهة، ثم يطلق بعد ذلك سراح المخطوفين. وهذا الأسلوب في النضال من أجل تحرير فلسطين، مارسته الجبهة بعد أن



تبنت النظرية (الماركسية اللينينية) كأيديولوجية وكنهج لنضالها، وفي حدود معرفتي أنه لا الصينيون ولا الفيتناميون مارسوا هذا النوع من النضال من أجل التحرير.

## أولى الغارات «الإسرائيلية» على (العاصفة)

قبل وقوع معركة الكرامة بفترة، أغار الطيران «الإسرائيلي» على قاعدة لقوات العاصفة، وكانت هذه الغارة هي الأولى من نوعها على المقاومة، وكانت هذه القاعدة تقع في الجبال جنوب مدينة السلط. وفي هذه الغارة استشهد قائد القاعدة الذي على ما يبدو كان الهدف الرئيسي لهذه الغارة، وهو عسكري محترف كان برتبة رائد في الجيش الأردني، وعلى ما يظهر أن تحركاته وأسلوب نظام عمله اليومي كانا مرصودين.

## معركة الكرامة الشهيرة

في آذار عام ١٩٦٨ جرت معركة الكرامة الشهيرة إعلامياً والتي ضاع المجد فيها بين مدعين حركة المقاومة الفلسطينية والنظام في الأردن، وحقيقة هذه المعركة البسيطة والتقليدية، والتي جرت من طرف واحد، وإن تخللها بعض المفاجآت التي لم تكن على ما يبدو داخلة في حساب «الإسرائيليين» أنه لم يجر في هذه المعركة فعل متميز. كان مخيم الكرامة قد خصص للنازحين الفلسطينيين، الذين نزحوا بعد هزيمة حزيران واحتلال الضفة الغربية، ويقع في الضفة الشرقية إلى الجنوب الشرقي (لجسر دامية) على نهر الأردن حيث كان مركزاً للتنظيمات الفلسطينية، مثله في ذلك مثل أي تجمع فلسطيني في الأردن وكان لـ«العاصفة» المركز الأثقل في هذا المخيم.

وموقع المخيم يجعل المقاتلين الفلسطينيين على حدود فلسطين، لا يفصلها عنهم سوى النهر الضحل، الأمر الذي سهل الانطلاق إلى فلسطين وخاصة جبال نابلس وجعله ميسوراً وسهلاً وإثر وقوع عمليات فدائية عديدة، ونظراً لموقع المخيم، قررت «إسرائيل» وضع حد للتواجد الفلسطيني فيه، وإجبار أهله والمسؤولين في دولة الأردن على نقله إلى مكان آخر بعيداً في داخل الأردن، ومن هذه الحقيقة ولدت العملية «الإسرائيلية»، وكان هدفها قتل وأسر أكبر عدد من الفدائيين والمنتمين للمنظمات فيه، ثم تدميره.

ومع طلوع الفجر، بدأت العملية «الإسرائيلية» ضد المخيم ومن فيه، بأن أنزلت قوات محمولة جواً على سفوح التلال الشرقية التي يستند إليها المخيم، هادفة بذلك إلى قطع طريق الهرب على الفدائيين إلى الشرق والجنوب، وفي الوقت نفسه وحسب توقيتات الخطة، قام رتل عسكري آلي من الدبابات وحاملات الجنود بعبور النهر من منطقة جسر دامية إلى الضفة الشرقية للنهر، مستهدفة حصر المخيم من الشمال والغرب، وهكذا يكون المخيم حسب الخطة «الإسرائيلية»، قد وقع في كماشة بين القوات المحمولة من الشرق والجنوب، والقوات الآلية من الغرب والشمال، وبعدها يجري تمشيطه قتلاً وأسراً، وتدميراً. اصطدمت طلائع القوة المدرعة التي عبرت النهر، بقاعدة لفدائيي جيش التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) التي كانت تحتل موقعاً على ضفة النهر الشرقية وعلى مقربة من الطريق العام الموصول للجسر، جرى تبادل لإطلاق النار بين عناصر القاعدة، وطلائع القوات «الإسرائيلية»، شكل إعاقة قصيرة العمر إلّا أن العامل الهام الذي لم تُدخله «إسرائيل» في حساباتها، هو قطاعات الجيش الأردني المتمركزة في السفوح المطلة على ميدان المعركة، معززة بمدفعية الميدان.

ما هي الأسباب التي جعلت وزير الدفاع «الإسرائيلي» (موشي ديان) في حينه يتجاهل هذه الحقيقة؟ هل كان لديه وعد بأن الجيش لن يتدخل في معركة بين الجيش الإسرائيلي والفدائيين؟ أم اعتمد على أن الجيش الأردني لن يتدخل خصوصاً أن عامر خماش يقوده؟ أم هي أسباب أخرى لا يعلمها إلّا الله والمتفاهمون؟

لقد تدخل الجيش الأردني بتقديري للأسباب التالية، أولاً: لا يستطيع أي قائد في أي مستوى، أن يعطي أمراً بعدم التعرّض لآليات الجيش «الإسرائيلي» المتقدمة نحو أهدافها شرق نهر الأردن، ولذلك حينما رأت المراصد الأمامية (مع الغبش) آليات ودبابات جيش الدفاع «الإسرائيلي» تتقدم نحوها أطلقت النار على القوات المتقدمة، لأن المراصد الأمامية كانت تشرف على تقاطع طريق جسر دامية مع الطريق العام الذي يتجه شمالاً إلى غور الأردن الشمالي وجنوباً إلى مخيم الكرامة، الشونة الجنوبية، وإطلاق النار هذا، أدّى إلى إيقاظ كل من كان غافياً أو غافلاً في هذه القوات، فإطلاق النيران هذا، الذي كان عملاً دفاعياً صرفاً ضد قوات تتقدم باتجاه مواقع الجيش الأردني، تعزز بأوامر قادة الوحدات في القطاع بالقتال بكل الوسائل المتاحة



ومنها مدفعية الميدان، هذه المفاجأة اربكت «الإسرائيليين» وجعلت سير عمليتهم أبطأ، الأمر الذي مكّن القسم الأكبر من الفدائيين من الانسحاب والهرب من المخيم. واكتفى جيش الدفاع «الإسرائيلي» كما هي عادته، بتدمير المخيم بالكامل طبعاً. أثناء المعركة تدخّل الطيران «الإسرائيلي» لإسكات المدفعية، كما هاجم قوافل الإمداد التي أرسلها الجيش الأردني إلى ميدان المعركة، لتتحول المعركة بين الأردن و«إسرائيل»، بين الجيش الأردني وجيش الدفاع «الإسرائيلي». ولعل هذه العملية الحربية التي كان هدفها الرئيس ترحيل أهل مخيم الكرامة، ومن ثم تدميره، كان لها هدف ثانوي آخر وهو إعطاء الفرصة للنظام، ليحصل على دور إيجابي من خلال إظهاره بمظهر المقاتل. ولقد دام ادعاء شرف هزيمة الجيش «الإسرائيلي» بين النظام والمقاومة زمناً طويلاً، حتى بعد أن أخذ التبجح الكاذب إعلامياً مداه الأقصى. على كل حال لم يكن بهذه العملية فعل متميز، لا لليهود ولا للعرب الأردنيين ولا للمقاومة، والذين بسبب جوعهم للبطولات خلقوا من هذه العملية بطولات وهمية. لقد ترك الإسرائيليون إحدى دباباتهم وطاقمها المحترق، الشرف الذي لم يحصل عليه الجيش الأردني منذ حرب عام ١٩٤٨.

## المقاومة وهدف تحرير فلسطين

كل عمل ثوري يستهدف تحرير وطن محتل، لا بد له أن يستند إلى ثلاث ركائز أساسية:

(أ) فكر واضح وصحيح.

(ب) أداة لتحقيق هذا الفكر.

(ج) شعب مؤمن بهذا الفكر، مُلتف من خلال التفاعل والفعل حول هذه الأداة التي تشكل العمود الفقري لهيكله من أجل السير باتجاه الهدف الذي حدده هذا الفكر. هذه الحقائق التي تشكل مجتمعة المبرر لكل التضحيات التي سيقدمها هذا الشعب من أجل تحرير وطنه المغتصب، كانت متحققة بنسب عالية، وكان أوضحها أو أعلاها نسبة تحقق، هو الهدف، أي تحرير الأرض التي اغتصبت، فكل فصائل

المقاومة المتواجدة على أرض الأردن، على اختلاف مشاربها الفكرية ومواقفها السياسية تقول وتعلن، أنها من أجل هذا الهدف المشروع هي موجودة في ساحة العمل، وتقول بذلك كل الأحزاب الأردنية والمنظمات المهنية والنقابية والشخصيات الوطنية والاجتماعية على اختلاف مذاهبها الفكرية ومواقفها السياسية، إن كانت أممية ماركسية أو إسلامية، قومية عربية، أو وطنية أردنية، أو فلسطينية، وإن كان هناك فروق بين هذا الفكر وذاك أو هذا التوجه وغيره يمكن مرحلتها ببرنامج عمل يتوافق والمواقف الفكرية والسياسية لكل هذه الأطراف.

ما هو الفعل الصحيح الذي إذا ما تحقق، سيقود إلى المنطلق الصحيح؟ ومن ثَمّ إلى الانطلاقة الصحيحة، هو: أولاً: تحقيق واقعين بدونهما أو بدون أي منهما يستحيل أن يكون هذا العمل ثورياً يستهدف تحرير وطن مغتصب بالفعل المسلح (أ) توحيد القوى التي تؤمن بهدف تحرير الأرض (ب) خلق قاعدة أمينة وآمنة على الأرض للانطلاق باتجاه تحقيق هذا الهدف.

حتى أيلول من عام ١٩٦٨، أي بعد مرور أكثر من عام على تواجد جميع فصائل المقاومة (باستثناء الصاعقة وجبهة التحرير العربية)، لم يكن قد تحقق من كل ما ذكرت حتى ولو بداية جدية من أي نوع، نعم لقد انعقد أكثر من مؤتمر لهذه التنظيمات ومن بينها مؤتمر في القاهرة من أجل تحقيق الحدود الدنيا من التعاون والتنسيق، أو حدود دنيا من رؤيا موحدة حول المستقبل، إلّا أن هذا لم يحدث وفشلت جميع المؤتمرات في تحقيق هذا الهدف، وقد خلق هذا الواقع غير المتناغم وغير المتوافق بين فصائل المقاومة، حالة على الساحة الأردنية غير مستقرة ومتعارضة الاتجاهات، خصوصاً أن الساحة ليست ملكاً للمقاومة بل إن فيها نظاماً معادياً لكل توجهات المقاومة، وأمر طبيعي أن لكل نظام أنصاره، وكان حصاد هذا الواقع الذي دام أكثر من عام، تضارباً في أبرز القضايا:

أولاً: التكتيك في العمل، وأبرزه في تلك المرحلة بين (فتح) والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

ثانياً: تبادل الاتهامات إعلامياً.



ثالثاً: الصراعات، وأحياناً المسلحة، التي كانت تقوم بين فصائل المقاومة.

رابعاً: الإعلام الكاذب وغير الصحيح عن الأعمال القتالية التي كانت تعلنها فصائل المقاومة. كل هذه العوامل وغيرها جعل الولاء للهدف الأساسي الذي من أجله قامت المقاومة يبعد عن الوعي المباشر للمقاتلين لمصلحة العصبية التنظيمية. مجمل هذه الحقائق خدم مخطط النظام والقوى الملتفة حوله، وكانت أبرز نتائج هذه المرحلة من تواجد المقاومة على أرض الأردن هي المردود الإيجابي الذي حصل عليه النظام في الأردن. وأبرز مؤشرات هذا المردود:

١ ـ غياب أي تساؤل عن ذهن المواطن الأردني، والأهم عن ذهن المواطن الفلسطيني، حول الهزيمة كان يتردد قبل تواجد المقاومة، من أمثلته... كيف سُلمت الضفة الغربية دون قتال؟ من هو المسؤول عن ذلك، ولماذا لا يجري تحديد المسؤولية خصوصاً أن ذلك كان يحدث في مصر في حينه؟

٢ ـ شعور المواطن في الأردن عربياً أردنياً، أو عربياً فلسطينياً ولا سيما لدى المناضلين والمسيّسين منهم، بأنهم امتلكوا إراداتهم وخرجوا على طاعة النظام وعلى الواقع الذي كان يفرضه، وأن النظام لم يعد مشكلتهم الآنية مما جعل النظام يغيب عن وعيهم بكل دوره التاريخي والسياسي المتعلق بالقضية الفلسطينية أو الدور السلطوي القمعي الذي مارسه ضد مواطنيه خلال أكثر من عشرة أعوام. هذه الحقائق مكنت النظام في الأردن في نهاية ١٩٦٨ أن يقف على قدميه مستنداً إلى أخطاء المقاومة.

٣ ـ أصيبت الحركة الوطنية التي من المفترض أن تكون الظهير السياسي لكل فعل تحريري بالشلل التام، فأي طرح سياسي أو اجتماعي، من مثل (النضال من أجل الديموقراطية) أصبح تقليدياً، وخارج الواقع هذا، عدا أن جماهيرها الفلسطينية والتي كانت الأساس في أي نهوض وطني، أصبحت مستقطبة كليةً في المقاومة الفلسطينية فيما الطرف الأردني كان يضع كفه على خده متأملاً في الواقع. أما قوى النظام وأي نظام كان، فهي دوماً مع النظام وهي معروفة ومشخّصة، هل كان هذا الواقع الذي خُلق عفوياً وجاء نتيجة عدم الوعي؟ سنرى أنه لم يكن كذلك، إن هذا الواقع الذي

وُجد في الأردن بعد مؤامرة حزيران وهزيمة مصر عبد الناصر قد ذكرني باستمرار في العام ١٩٥٧، الذي قاد بعد عشر سنين من هزيمة الديموقراطية في الأردن إلى هزيمة حزيران، استولى خلالها «الإسرائيليون» على سيناء والجولان والمتبقي من كامل فلسطين. فالمساران متشابهان والواقع المخلوق متشابه من حيث الجوهر على ساحة الأردن وإن اختلفت القوة الفاعلة فيه، والفارق أن الوضع في الأردن كان أبسط على التشخيص في عام ١٩٥٧، فالقوى الفاعلة فيه كانت محلية، سواء إن كانت القوى التي تسعى إلى التقدم بالديموقراطية أو القوى المضادة لذلك، وحتى القوى الأجنبية التي كانت تفعل باتجاه تقوية السلطة وجعلها فردية، كانت معروفة بينما هي شديدة التعقيد في عام ١٩٦٨، فالقوى الفاعلة فيها أكثر تعدداً وتنوعاً وأكثر عدة وأشد غموضاً، وبذلك فهي أصعب على التشخيص، مما كان الوضع عليه عام ١٩٥٧، ويأتي التشابه الجوهري، في أن الديموقراطية قد خُلقت من أجل الارتداد عليها وتصفية قواها حتى إشعار آخر. وها هي الصورة تتكرر ويخلق العمل المقاوم وفق التحليل السابق ليس من أجل الارتداد على كل ما يمثله وتصفيته لا إلى إشعار آخر ولكن إلى الأبد.

## دخول قوات الصاعقة إلى الأردن

بعد المؤتمر التأسيسي هذا بفترة لا تتجاوز الستة أشهر، انعقد المؤتمر القطري الأول لهذا التنظيم الذي بدوره انتخب ولأول مرة قيادة، وكان أعضاؤها هم محمود المعايطة ـ هاجم الهنداوي ـ أحمد النجداوي ـ أحمد اليماني ـ حسن الخطيب ـ يوسف البرجي ـ فواز الصياغ ـ يوسف قطناني ـ أحمد عقل ـ ضافي الجمعاني، وقد أعادتني هذه القيادة أميناً لها أثناء انعقاد مؤتمرها في أيلول عام ١٩٦٨، دخلت مجموعات من مقاتلي الصاعقة إلى الأراضي الأردنية من سورية، وقد حاولت السلطات في الأردن منع دخول هذه المجموعات بواسطة الجيش، وكاد أن يتحوّل هذا المنع إلى اشتباك بالسلاح ولم يمنع ذلك إلّا تدخّل جهات سورية مسؤولة، إضافة إلى قياديين في حركة (فتح)، بعدها سُمح لهذه العناصر بدخول الأراضي الأردنية، وقد استعيض عن المنع بالتشهير والدعايات المسمومة مثل أن هذه العناصر ليس لها علاقة بالقضية الفلسطينية، وإنما هي قوات من الصاعقة في الجيش السوري هدفها التدخل بشؤون الأردن ومن هنا جاءت التسمية العامة (الصاعقة السورية).



وكان يقود هذه العناصر، وجميعهم فلسطينيون في ذلك الحين، الرفيق هاجم (أبو مروان). وبتواجد الصاعقة على الأراضي الأردنية، والتي شكل حزب البعث العربي الاشتراكي العمود الفقري لهيكلها التنظيمي في مراحل لاحقة، أخذ اسم التنظيم الفلسطيني الموحد، يتميز عن باقي فصائل المقاومة الفلسطينية، بأنه التنظيم الوحيد بين هذه الفصائل الذي يتكون كادره من الفلسطينيين والأردنيين، وهذا التميز النوعي جعلنا هدفاً للمراقبة الشديدة من النظام خاصة، ومن بعض فصائل المقاومة وأهمها (فتح) ذات الإمكانات الكبيرة والسمعة التي لا تزال طيّبة.

تواجدت عناصر قوات الصاعقة في المرحلة الأولى من وجودها على أرض الأردن بقيادة الرفيق هاجم الهنداوي، في غور الأردن الشمالي خلف (قرية المشارع) وقد سميت هذه القاعدة بقاعدة المشارع، وكان يقودها (ملازم ثان) من جيش التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) لم أعد أذكر اسمه ويكنى (أبو بلال) وهو شاب شجاع، هادئ الطبع، يعرف واجباته، واستشهد يرحمه الله بعد شهرين من وجوده في القاعدة في كمين ليلي، لا يعرف من نصبه له، أهم اليهود أم عملاؤهم من العرب؟ وكنت قد تفقّدت عناصر هذه المجموعة وتجهيزاتها في قاعدة انطلاقها من درعا قبل توجهها إلى الأردن. يصعب عليك تقييم مستوى الرجال إن كان من ناحية التدريب، أو المستوى القتالي والمعرفي، فعلينا قبول هذا الواقع، والارتقاء به من خلال برامج عمل وأساليب تدريبية ونضالية ضمن الواقع الذي سيفرض نفسه علينا فيما بعد.

## الاستقطاب

لقد بدأت تتضح بوادر الاستقطاب بين مركزين على الساحة الأردنية بعد العملية العسكرية «الإسرائيلية» ضد مخيم الكرامة، إنني أقصد بمراكز الاستقطاب النظام من جهة والمقاومة من الجهة الثانية وكان أحد المركزين، واضح المقاصد والنوايا ويسعى بجد ودأب أن يفرض نفسه على الواقع مجدداً ليستطيع بالتالي فرض نهجه السياسي والاجتماعي إن كان داخل الأردن، أو باتجاه القضية الفلسطينية. أما المركز الآخر فهو المقاومة التي تقول كل فصائلها بتحرير فلسطين ولكن كيف؟

لا أحد في فصائلها خارج ممارساته وبرنامجه النظري يقول كيف. لم تبادر حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) كبرى فصائل المقاومة، بفعل يمكن أن يدل على كيف يمكن أن يتم ذلك. بل كان أسلوبها بالعمل والانفراد بنهج خاص بها، وعدم محاولتها التعاون في خلق نهج عام من أجل تحقيق شعار التحرير الذي تقول به كل الفصائل، مما جعل الشكوك تحوم حول عملية التحرير هذه. أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهي ثاني أكبر فصيلين مقاومين على الساحة الأردنية، فلم تكن أكثر من (فتح) وضوحاً، مع أنها تبنّت الماركسية كدليل عمل نظري لكفاحها، إلّا أنها اكتفت من هذا الدليل بالمنشور والصورة، ولم تضعه موضع التطبيق على الواقع موضوعياً، لأنها لا تستطيع ذلك، وأكثر من ذلك فهو موقف تكتيكي، له أهداف استراتيجية، أوضح المسار حقيقته فيما بعد، وإلّا لكانت قد دعت كل القوى ذات المصلحة والمؤمنة بالتحرير، إلى برنامج عمل جبهوي موحد تنضوي في إطاره كل هذه القوى التي تنادي بتحرير فلسطين، وهذا هو النهج الذي قامت به كل قوى التحرير العالمية، وقد توجت الجبهة الشعبية التزامها بهذا النهج باختطافها الطائرات والمسافرين عليها. كيف يمكن أن يكون اختطاف الطائرات أسلوباً لتحرير فلسطين؟ وفي رأيي هو أسلوب للإعلان والدعاية؟ ولكن ليس للتحرير.

هاتان الحقيقتان الواضحتان، حقيقة أهداف النظام وعدم وضوح أهداف المقاومة، حددتا الأسلوب الأمثل لنهج (التنظيم الفلسطيني الموحد) على أرض الأردن، وكان علي أن أتبين موقف أبو عمار وآراءه بطريقة ما، وكنت قد تعرّفت إليه في نهاية عام ١٩٦٧، فقد اصطحبني الرفيق يوسف البرجي، عضو قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد لزيارته، في مستوصف (العاصفة) في ضواحي مدينة السلط، وكان يشكو من آلام في ظهره، ذهبت بعد ذلك للقائه في أحد مواقع (فتح) العديدة، ولما التقيته، بادرته بدون مقدمات قائلاً له: يا أخ أبو عمار إنك تقسم الساحة السياسية في الأردن إلى معسكرين أردني – فلسطيني الأمر الذي يقود إلى تغييب العمل الوطني الأردني، وبالتالي الحركة الوطنية الأردنية، بل وإلغاء دورها، والتي يفترض أن تستند إليه المقاومة، وهي تكافح من أجل الوصول إلى أهدافها. أجابني بوضوح شديد ودون تردد «إن ما يهمني هو شعبي، الشعب الفلسطيني، ولا يهمني أي أمر آخر». وكان هذا القول أوضح من التساؤل ومن أي مناقشة.



وطرحت على نفسي المعضلة متسائلاً، حينما يصبح الشعب العربي الفلسطيني شعباً لياسر عرفات، والشعب العربي في الأردن مملوكاً أصلاً للملك حسين (فعلى أحد القراء أن يدل من مثلي وفي واقعي على طريق الخلاص؟؟) بهذا القول وأقوال وحقائق أخرى، أصبحت مقتنعاً تماماً أن حركة (فتح) لا يمكن أن تلتقي مع أي فصيل آخر من المقاومة أو مع المقاومة مجتمعة حول برنامج عمل، إن كان مرحلياً أو سوقياً، محدد الهدف موحد الأداة، موحد النهج الفكري والعملي. مما جعلني ذاتياً في مأزق حقيقي، لأنني كنت أعتقد اعتقاداً مؤمناً أن لا أحد، ولا سيما أولئك الذين يقولون بتحرير فلسطين وهم من أهلها، ويقودون أهلها من أجل تحرير أرضهم كما يعلنون، يمكن أن يتيهوا عن الحقيقة المطلقة في أسباب المسار التراجعي، الذي قاد إلى ضياع فلسطين والدور الرئيسي الذي لعبه كيان شرقي الأردني في هذا المسار، والذي لم يخلق أصلاً إلّا من أجل ذلك، سياجاً أمنياً بين فلسطين وبين أهلها في الشرق، عرب أردنيين وغير أردنيين.

لقد عشت وجود قوات حدود شرقي الأردن، التي شكلها الانتداب البريطاني من الأقليات (العرقية) في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة، وخيالة الجيش الأردني، وكذلك عرفت سبب فشل ثوار فلسطين خلال كل ثوراتهم، وأهمها ثورة عام ١٩٣٦ في جبال عجلون وهم يقطعون نهر الأردن إما ليتزودوا بالسلاح والعتاد أو بالتموين، وإما للأمان والاستراحة. فالذي يثور من أجل فلسطين عليه على الأقل أن يكون ملماً بتاريخ النضال الفلسطيني وأسباب فشله، ومن هذا الفهم كان موقفي واضحاً ومبنياً على إيمان مطلق أنه لا يمكن تحرير فلسطين أو أي جزء منها والنظام في الأردن قائم في عام ١٩٥٧، حيث كانت قناعاتي القائمة على ضرورة إلغاء الكيان الأردني نابعة من موقعه (الجيوبوليتيك)، المضاد للطموح الوحدوي، وكنت أؤمن أنه يجب أن يعاد وبطريقة إلى أصله كجزء من سورية الطبيعية (بلاد الشام)، أما في مرحلة بعد هزيمة حزيران وانطلاقة المقاومة الفلسطينية، وتواجدها بقوة على أرضه، فكانت قناعتي التي عملت من أجل تحقيقها هي إزالة النظام وليس الكيان، وتسليمه لحليف وطني للمقاومة حتى يكون القاعدة الأمينة والمنطلق الثابت من أجل تحقيق هذا الهدف العزيز، وإلّا كيف يمكن أن تحرر فلسطين أو نحقق حقوق أهلها التي أقرتها الأمم المتحدة، أو على الأقل الوصول إلى النقطة التي تفرض التفاوض

من خلال القتال وميزان قوى ليس به خلل كبير، وبخلاف ذلك لن يكون كياناً وطنياً مضمونه الاستقلال، بل كيان مقايضة يفرضه الطرف الأقوى أميركا، والصهيونية العالمية لإدامة الوضع العربي على ما هو عليه مجزأً ومستباحاً. ومن الصواب أن أشير هنا، أن قناعتي هذه نابعة من التزامي العقائدي ومن المعاناة بسبب التناقض الفاضح في مسار البعث النضالي بين الفكر والفعل، الذي كانت تقوده قياداته القومية والقطرية. وكان في ذهني أن الفرصة قد حانت لوضع حد لهذا التناقض. وهذا الرأي قد قلته للرفيق محمود المعايطة في حديث خاص بيني وبينه، قلت إن الحزب في الأردن لن يكون تابعاً لأحد، ولن يكون تابعاً إلّا لمبادئه التي تفرض استراتيجية وأسلوب نضاله فهو سيكون ممثلاً أميناً لمبادئ وفكر البعث، وملتزماً بأمانة بكل قيادة أعلى تقوم بذلك.

## تطور العمل في بناء الحزب وقوات الصاعقة

على ضوء ما اتضح خلال فترة عامين من تواجد حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) على أرض الأردن، ومن بعدها جميع فصائل حركة المقاومة، أن هذه الفصائل لن تجتمع أو تتوحد على برنامج عمل موحد يحكم مستقبل نضالها، لأن أكبرها وأقواها جماهيرياً ومادياً هي (فتح) والتي ليس في برنامجها أو استراتيجيتها هذا الأمر، وهي لن تقبل اللقاء على ذلك، مع أي فصيل آخر من فصائل حركة المقاومة. وبعد ذلك أصبحت مهمة الحزب والقوات (قوات الصاعقة) في التنظيم الفلسطيني الموحد محددة، أساسها الدفاع عن وجود المقاومة الفلسطينية على أرض الأردن، وجعلها قادرة على القيام بواجباتها تجاه فلسطين، وجعل الهدف السياسي لهذه القوات، هو مقاتلة العدو إن كان في الخط الأمامي الذي نتواجد عليه على طول نهر الأردن وغور الصافي، أو داخل الأرض المحتلة، وعدم الدخول في صراع من أي نوع، لا مع حركة التحرير الفلسطيني (فتح) ولا مع أي فصيل مقاوم آخر، والعمل باستمرار على خلق واقع تضامني بين هذه الفصائل، وكان علينا ضمن هذه الرؤيا أن نهيئ أداتنا ونجعلها قادرة على القيام بالواجبات والمهمات التي ذكرت.

بعد دخول عناصر قوات الصاعقة من سورية إلى الأردن، بقيادة الرفيق هاجم يعاونه عدد من الملازمين الأردنيين والفلسطينيين، الذين كانوا بالجيش السوري، وبجيش



التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) وتواجد هذه العناصر في غور الأردن الشمالي والأوسط، وقيادتها في منطقة عجلون كان الطابع العام لهذه القوات عسكرياً أكثر منه (قوات تحرير)، وهذا أمر طبيعي في بداية مرحلة التكوين، آخذين بعين الاعتبار من الذين أنشأوا هذه العناصر، مدرّبوها والذين يقودونها الآن، هم عسكريون محترفون، صغار السن صغار التجربة، والأمور لم تأخذ بعد المدى الكافي لاستقرارها مكاناً وزماناً من أجل البدء بعملية تدريب على المهمة المختلفة نوعياً عن المهمة العسكرية التقليدية من حيث التثقيف الفكري والسياسي الذي له صلة عميقة بالمهمة التي من أجلها تطوع هؤلاء المقاتلون، وحتى نصل إلى هذا المطلوب لا بد من وجود واقع مختلف عن الواقع الذي كانت عليه تلك القوات والحزب في هذه المرحلة كتنظيمين منفصلين ومختلفين تكويناً قتالياً ومعرفياً.

وحتى نصل إلى هذا الأمر، لا بد من وجود حالة مختلفة عن الحالة التي يتصف بها الحزب والقوات في هذه المرحلة، كتنظيمين منفصلين ومختلفين تكوينياً. إما من ناحية المعرفة أو مهمة القتال.

وفي اجتماع موسع لقيادة القوات، حضره الرفيق حسن الخطيب عضو قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد والرفيق هاجم [يرحمه الله] عضو القيادة وقائد القوات، وجميع من في أمرته من الملازمين، ناقشت معهم أماكن التواجد وشؤون التدريب والإدارة، وكذلك المهمات الآنية والمستقبلية لهذه القوات، وخلال هذا الاجتماع شعرت أنه كان هناك خلل خطير، إن كان في ما يتعلق باحترام المسؤولية وبالتالي المسؤول، وعدم وضوح واجبات المسؤولين وحدودها. وكذلك لمست أن هؤلاء الملازمين الذين تربوا في مدرسة الجيش العربي السوري يعتقدون أنهم هم أصحاب المسؤولية ولذلك كانت سيطرة قائد القوات عليهم ضعيفة، وكان واضحاً وأنا أتحدث إليهم أنهم لا يعيرون الاهتمام الكافي لما أقول فانزعجت ووجهت كلاماً غاضباً للمجتمعين، وانسحبت وغادرت الاجتماع وقلت للرفيق هاجم، أنني سأدعو القيادة وأتقدم لها بتقييم حول واقع القوات، وسأتقدم بمشروع كامل لمعالجة الخلل الخطير الذي لمسته. وفي اليوم التالي دعوت أعضاء القيادة للاجتماع وطرحت قناعتي التي تكونت منذ دخول عناصر قوات الصاعقة إلى الأردن، وقلت رأيي في الخلل الخطير الذي تبيّنته خلال اجتماعي الأخير مع قيادة هذه العناصر والذي

حضره الرفيق حسن الخطيب، وقدمت للقيادة مشروعاً لإعادة تنظيم القوات مبنياً على الأسس التالية:

أ ـ تتولى القيادة القطرية للتنظيم الفلسطيني الموحد مسؤولية قيادة القوات، إضافة إلى مسؤولياتها في قيادة الحزب.

ب ـ يتولى أمين سر القيادة القطرية للتنظيم الفلسطيني الموحد قيادة هذه القوات.

جـ ـ العمل على وضع خطة عمل مرحلية ومحددة الزمن، يصبح خلالها الحزب والقوات تنظيماً سياسياً وقتالياً واحداً، فعلى كل رفيق في الحزب أن يكون مؤهلاً للعمل في صفوف القوات، وعلى كل رفيق في القوات أن يؤهل ليصبح قادراً على القيام بواجبات الحزب.

هـ ـ تقسيم خطة المواجهة على حدود فلسطين إلى ثلاثة قواطع:

١ ـ من نهر اليرموك إلى نهر الزرقاء، القاطع الشمالي.

٢ ـ من نهر الزرقاء إلى نهر الموجب، القاطع الأوسط.

٣ ـ من الموجب حتى حدود العقبة، القاطع الجنوبي. على أن يتولى قيادة كل قاطع من هذه القواطع أحد الرفاق أعضاء القيادة القطرية.

وكان يتواجد في كل قاطع بين ثلاث وخمسة قواعد، وفي كل قاعدة، بين عشرة وخمسة عشر عنصراً. وكان يقود الحزب وعناصر قوات الصاعقة، الرفيق هاجم الهنداوي (أبو مروان) يرحمه الله، وفي القاطع الأوسط الرفيق محمد عيد عشّاوي عضو قيادة قطر سورية للحزب، وزير الداخلية والخارجية قبل استقالته من منصبه بسبب الصراع الذي بدأ يظهر على السطح في قيادة الحكم في سورية آنذاك، وتطوع للعمل معنا في صفوف الصاعقة في الأردن. وللحقيقة أن الرفيق (أبو وسمة) يرحمه



الله كان يتصف بصفتين ملازمتين لكل قائد مناضل حقيقي وهما: الشجاعة والقدرة على قيادة الرجال. وكان القاطع الأوسط أكثر القواطع فاعلية في القواطع تحت قيادته. وأيضاً تم في حينه تشكيل قيادة، مع كادرها المتواضع، للقوات وكان مقرها في منطقة عجلون في (عنجرة) وهناك أسسنا مدرسة إعداد ثقافي وأيديولوجي لكوادر القوات وأنشأنا بعد ذلك مركزاً لتدريب الرفاق الحزبيين على السلاح والقتال، وكان على كل رفيق في الحزب مهما كان موقعه فيه (خارج القيادة) أن يمضي فترة التدريب المقررة في هذا المركز، وبعدها أنشأنا مركز تدريب (أكثر تطوراً) على السلاح والتكتيك الحربي في شمال الأردن يقع شمال شرق إربد (قريباً من الحدود المطلة على نهر اليرموك)، وبهذا العمل استطعنا أن نضع الحزب وقوات الصاعقة في تنظيم يقف على قدميه.

## العمل داخل الأرض المحتلة

لقد كان حزب البعث العربي الاشتراكي دائم الوجود في فلسطين، وفي فترات عديدة كان تواجده مميزاً. صحيح أنه حوصر إلى حد الاختناق أثناء خلافه مع الرئيس عبد الناصر، ولكنه كان دوماً يعود إلى المسرح السياسي بقوة، بعد أن تثبت الأحداث، أنه لم يكن السبب الأساسي في نتائجها وقد شُكل مكتب في القيادة القطرية، سمي (مكتب شؤون الأرض المحتلة)، يتولى مسؤوليته الرفيق أحمد النجداوي الأمين القطري المساعد، كانت مهمته الأساسية تأمين مستلزمات ومتطلبات نضال (فرع الضفة الغربية).

في تلك المرحلة كان يتولى مسؤولية فرع الضفة الغربية الرفيق أحمد عقل عضو قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد، وقد اعتقل الرفيق أحمد عقل وبقي فترة طويلة في سجون «إسرائيل» بعد أن عُذّب تعذيباً شديداً، وكان (فرع الضفة الغربية) يضع القيادة القطرية في صورة الواقع من خلال الرسل، والرفاق الدائمي الزيارات إلى الأردن، عن العمل الذي كانوا يقومون به ضد العدو ووسائل هذه المقاومة. ولكن يبقى هناك حقيقة، وهي أنه من غير الممكن التأكد من جدية هذه التقارير، خصوصاً أننا لم نأخذ المدى الكافي حتى تتراكم خبراتنا ومعارفنا ليتطور بعد ذلك إلى أسلوب عمل، استناداً إلى خبرات متراكمة. وطبعاً كان يوهن التسارع في تطور الفعل ضد العدو المحتل،

إن كان على جبهة الحدود أو على جبهة الداخل، الواقع المفروض علينا في ساحة تواجدنا الرئيسية في الأردن، والذي كان يأخذ جل انتباهنا واهتمامنا من خلال التهديد المستمر الذي كنا نلمسه في كل ساعات اليوم الواحد والمتوقع أن ينفجر في كل لحظة. ومع ذلك وبعد استقرار واقع قوات الصاعقة حسب التنظيم والخطة التي وضعت ونُفّذت تنظيماً وتدريباً منذ منتصف عام ١٩٦٩ حتى منتصف عام ١٩٧٠، وهي الفترة التي بدأت بها (الصاعقة) تقوم بأعمال منتظمة ضد العدو على طول خط المواجهة، مستندة إلى تدريب وتنظيم جيدين وخبرة بدأت بالتراكم، بدأ العدو «الإسرائيلي» حينها يرد علينا بالطيران، فالمنظمة الوحيدة التي تعرّضت لسلسلة من الغارات المتتابعة منذ بداية عام ١٩٧٠ كانت منظمة الصاعقة، فقد أغار على مقر القيادة القطاع الأوسط التي كانت تقع إلى الشمال الشرقي من السلط مرتين، وفي المرة الثانية أصاب (المغارة) الذي كان يسكنها الرفيق محمد عيد عشاوي قائد القطاع بصاروخين إصابات دقيقة، الأمر الذي يعني دقة المعلومات لدى «الإسرائيليين» ولكن المغارة التي اهتزت اهتزازاً شديداً صمدت للصاروخين، واستشهد لنا عنصران وجرح عدد آخر. وأغار العدو مرتين على قاعدتين لنا على الخط الأمامي في غور الأردن فاستشهد ثلاثة عناصر وجرح عدد آخر. وأغار على مركز تدريب الصاعقة في شمال إربد، فاستشهد عنصر وجرح آخران، وأصابنا إصابات بليغة في آخر إغارة على قواعدنا تلك.

فقد شن بالطيران وبقوات محمولة، على قاعدة لنا في غور الصافي غارة استخدم خلالها قنابل النابالم واستشهد خلالها أكثر من عشرة عناصر.

ومعروف أن العدو «الإسرائيلي»، لا يقوم بأعمال انتقامية من هذا المستوى، إلّا حينما يكون قد أصيب إصابات بمستوى هذا الرد، وتكوّن لديه تصور من خلال الفعل، أن هناك تطوراً في هذه الجهة يشكل خطراً لا بد من المبادأة لإيقافه.

وقبل أن أغادر هذا الموضوع هناك واقعة لا بد من ذكرها، للتذكير. ففي صباح اليوم التالي لاجتماعي بالرفيق هاجم وعناصر قيادته، في قيادة القوات في منطقة عجلون، وبعد مغادرتي الاجتماع، فرّ من قوات الصاعقة ثلاثة ملازمين أردنيين، من أصل أربعة كانوا قادة قواعد في قوات الصاعقة، وكان هؤلاء الملازمون الذين



تخرجوا من كلية حمص العسكرية، والذين أرسلوا إليها كونهم بعثيين، والتحقوا في صفوف الجيش العربي السوري بعد ذلك، ضباطاً بالتعاقد، وبعكس الجيش العراقي (حتى الزمن الذي لم يكن فيه حزب البعث العربي الاشتراكي يقود السلطة في العراق)،(الدلالة على صدق الالتزام في كلا الموقعين). وكرد فعل لهذه الأمر طلب مني أحد الرفاق ـ عضو القيادة المسؤول عن الأمن في الحزب والقوات ـ الموافقة على مهاجمة بعض مكاتب (جبهة التحرير العربية) في عمان، والاستيلاء على الأسلحة فيها، فوافقت على ذلك. والموافقة لم تأت لأنني انزعجت من هرب هؤلاء الشباب ففائدتهم كانت قليلة، وهم أيضاً لم يهربوا إلى صفوف الأعداء، لكن موافقتي التي كانت ضد قناعتي جاءت لأسباب أخرى حكمت هذه الموافقة.

## حركة التحرير الفلسطيني (فتح) تحقق خطوة أساسية إلى الأمام

لقد ذكرت في سابق هذه الذكريات، كيف تم التعاون بين (فتح) والصاعقة، لتشكيل المجلس الوطني الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية من أعضاء هذا المؤتمر الذين ينتمون إلى (فتح) والصاعقة ومن مستقلين محسوبين على الطرفين، وهنا لا بد أن أذكر أنني عارضت بشدة تسلم (أبو عمار) رئاسة اللجنة التنفيذية، واقترحت بديلاً عنه شخصية فلسطينية كانت عضواً في اللجنة التنفيذية التي كان يرأسها الأستاذ أحمد الشقيري رحمه الله وهو الأستاذ عبد الخالق يغمور، الذي كان عضواً في مجلس نواب عام ١٩٥٧ عن منطقة الخليل ممثلاً للجبهة الوطنية في حينه، إلّا أن (فتح) أصرّت على أن يكون الأخ ياسر عرفات رئيساً للجنة. وحينما طرح الأخ أبو عمار رئيساً للجنة التنفيذية لم يكن عبد الخالق يغمور عضواً فيها، فلم يكن بالإمكان حينها العودة بالأمور إلى الوراء، وبهذه الخطوة كانت (فتح) قد خطت الخطوة النهائية في مسيرة تسلُّم الشرعية الفلسطينية. وأنا لا بد أن أجيب على تساؤل للرفيق عبد الوهاب الكيالي (يرحمه الله)، الذي كان أميناً للجنة المركزية لجبهة التحرير العربية، وكان حينها يحضر المؤتمر بصفة (مراقب) إذ لم تكن جبهة التحرير العربية قد تمثلت في المجلس الوطني الفلسطيني بعد، وكنت أسير وإياه في ساحة مبنى الجامعة العربية التي كانت تعقد فيها جلسات المجلس قال: أولاً أنت بعثي، وثانياً أنت لست فلسطينياً، فلماذا تؤيد ما معناه قطرية العمل الفلسطيني؟ ولم أجبه على هذا التساؤل المشروع

حينها. ولسوء الحظ لم يقرأ هذه الإجابة إذ اغتالته القوى المضادة لنهجه، ولكنه عرفها بذاته بعد حين، لأن جبهة التحرير العربية وجدت أنه لا بد لها أن تسلك نفس الطريق، وجاهد من أجل أن تكون جبهة التحرير العربية جزءاً من الشرعية الفلسطينية، حتى بعد أن أصبحت (فتح) أكثر وضوحاً، إن كان ذلك في هدفها الذي تسعى إليه أو في أساليب عملها للوصول إلى هذا الهدف. وحينها دخلت جبهة التحرير العربية منظمة التحرير، ودخلت أنا إلى سجن المزة قبل ذلك، ومع ذلك فأنا مطالب أن أجيب على تساؤل رفيق بعثي مؤمن وصادق، لماذا تعاونت مع حركة (فتح).. أولاً لإبراز قطرية العمل الفلسطيني وثانياً تسليمها شرعية هذا العمل؟ إن حزب البعث العربي الاشتراكي كان يقول باستمرار إن بأدبياته أو من خلال مقررات مؤتمراته القومية، أن للشعب العربي الفلسطيني الحق بأن يمتلك زمام أمره وشرعية قضيته، مثله في ذلك مثل أي شعب عربي آخر في كل أقطار الوطن العربي، ومن هنا ففي سورية وفي ظل حكم حزب البعث قبل ٢٣ شباط، أي في ظل قيادة الرفيق ميشيل عفلق للحزب، كان البعثيون الفلسطينيون منظمين تنظيماً خاصاً بهم يتبع القيادة القومية مباشرة، مثلهم في ذلك مثل أي تنظيم للحزب في كل الأقطار العربية يسمى فرع فلسطين لحزب البعث العربي الاشتراكي، لكن حزب البعث العربي الاشتراكي لم يبادر بالعمل على تحقيق حق، طالما نادى به وأقرته مؤتمراته، أي أنه لم يحقق هذا المبدأ على الصعيد القومي، بخلق تنظيم فلسطيني يضمّ من يرغب من الفلسطينيين أينما وجدوا في هذا الكون، والهدف من هذا التنظيم هو الكفاح والجهاد من أجل فلسطين (وهو الذي قال أن تحرير فلسطين يقود إلى الوحدة) (وهذا صحيح)، من أجل استعادة حقهم المشروع في أرضهم وعليها، وأن يكونوا قادة وسادة قضيتهم، والحزب أقدم من حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، التي انضم إليها المئات من البعثيين منذ أكثر من عشر سنين وهو أكثر وضوحاً فكراً ونهجاً، ولو أن البعث الذي تزامنت ولادته (كحزب بعث عربي اشتراكي) مع استفحال المخاطر على فلسطين وفي ذروة الصراع بين الفلسطينيين العرب والصهيونية وحليفها الاستعمار البريطاني، بادر إثر هزيمة الجيوش العربية الرسمية، إلى خلق تنظيم فلسطيني بقيادة فلسطينية، وأدخل في هيكل هذا التنظيم كل المناضلين الذين يحبون فلسطين، فهل كانت القضية الفلسطينية تنتهي إلى ما انتهت إليه؟ بل هل كان الواقع العربي الذي يحيط بفلسطين سيصير إلى ما صار إليه؟ طبعاً لا، فالفلسطينيون كانت قضيتهم حية في



نفوسهم وهم ما زالوا على أتم الاستعداد لمواجهة مخاطرها ولم تتقاذفهم الأيدي القذرة بعد، ولا زالوا يمتلكون الكرامة ودماء شهدائهم تدفع بهم إلى الأمام وحنينهم إلى فلسطين شديد. وكانت قضية فلسطين حينها حية وملهبة لشعور الإنسان العربي، وجاذبة بقوة للواقع الحي في نفسه، إن كان نخوة أو عاطفة دينية أو قومية، فلماذا لم يفعل الحزب ذلك؟ لأن هناك قصوراً بيناً وتناقضاً بين الفكر والفعل، ولا نستطيع إلّا أن نعترف بذلك. رب قائل سيقول، إن ظروف الواقع العربي، الشعبي، والسلطوي ودور القوى الدولية والإقليمية التي ساندت (فتح) في استراتيجيتها التي لا تتعارض مع المصالح القطرية، بل تتوافق معها تماماً ولا تعرض المصالح الاستراتيجية للقوى الكبرى وخاصة الغرب والصهيونية لأية مخاطر، بل وتسعى لعزل القضية الفلسطينية عن التأثير الفكري والمادي للقومية العربية، لا يمكن توفرها لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي تعاديه كل هذه القوى.

وأردّ على هذا الافتراض الصحيح، لكن التقليدي، أن البعث حزب ثوري، فكراً وأداة لأن من يدعو لوحدة الأمة العربية المجزأة أقطارها والمستعمرة ويخلق فكراً موضوعياً وأداة لتحقيق مضمون وأهداف هذا الفكر من خلال جماهير الأمة وليس من خلال حكامها، هو بالتأكيد حزب ثوري، ولو حقق البعث ما ذكرته في هذا الموضوع لاختلفت النتائج تماماً.

ومن هنا لا يجوز لا أخلاقياً ولا وطنياً طالما وقد بادرت (فتح) لخلق حالة أهّلتها للوصول إلى الشرعية الفلسطينية، ألّا نُعينها على ذلك، بغض النظر عن المآخذ على كل مضمون (فتح). وواقعاً ما كنا نستطيع هزيمة خط (فتح) في تلك المرحلة والذي كان سيحدث لو تعارضنا مع (فتح) وبذلك يسجل علينا أننا كنّا نشتت العمل الفلسطيني ونجزّئه من أجل فهم غير صحيح، ومصالح غير مشروعة. ويظل الذي قلته في اجتماع القيادة في دمشق صحيحاً، من أن فلسطين أغلى من أن نتنافس عليها، إلّا برص الصفوف وبالتضحيات من أجلها، والمسار الطويل والشاق، هو الذي سيخلق المؤهلين لهذه الشرعية. وبعد نصف قرن من التضحيات السخية التي قدمها الإنسان العربي، مصريون، لبنانيون، عراقيون، سوريون وأردنيون وأهمها تضحيات الفلسطينيين، كل هذا أهدر بسبب المسار المنحرف (لفتح).

فبالرغم من الوصول إلى طاولة المفاوضات من خلال واقع غير متوازن خصوصاً بعد أن كسر أنذال العرب سيفهم في العراق، كنا لا نزال بعيدين حتى عما يطالب به ياسر عرفات (كيان يمنح هوية للفلسطينيين). ولنفرض أنه صار هناك تسوية، فهي فرض واقع والواقع المفروض سيتغير. إن العرب لا ينسون، فهم لا يزالون يتذكّرون (الأندلس)، وهي ليست أرضهم فهل يعقل أن ينسوا فلسطين، وهي منذ أن وجدوا أرضهم؟

## حركة التحرير الوطني الفلسطيني والشرعية الفلسطينية

بعد أن تسلمت (فتح) قيادة العمل الفلسطيني وشرعيته، من خلال قيادتها لمنظمة التحرير الفلسطينية وهي الخطوة الأساسية التي لا بد منها للسير باستراتيجيتها إلى التحقق، لإيجاد كيان فلسطيني، لا أحد يستطيع أن يتنبأ بمواصفاته حتى الآن، مضافاً إلى الكيانات الهزيلة في بلاد الشام، وحتى يتحقق هذا الهدف المتوافق مع الاستراتيجية الدولية والإقليمية (عرب وغير عرب)، لا بد لها من تدمير الواقع الحي في الشعب الفلسطيني، وفي الشعب العربي المحيط بفلسطين، حتى تصل إلى الهدف المنشود. وهكذا التقت استراتيجية (فتح) مع استراتيجية النظام في الأردن، وكل نظام مع التسوية بل وكل الأنظمة العربية مع التسوية ما عدا العراق، والهدف الأساسي هو تنظيف الساحة من كل مقاوم لهذه الاستراتيجية.

في لقاء لي مع مدير المخابرات الأردنية اللواء (محمد رسول)، طلب هو ترتيبه من الرفيق عبد الرحمن العرموطي، مدير أمانة سر القطر في منزل اللواء (محمد رسول) في الشميساني، تحدّث (أبو رسول) في بداية اللقاء مطولاً، عن ميزات وقدرات الملك حسين وصفاته الإيجابية، وبعدها انتقل إلى الموضوع الذي من أجله عقد هذا اللقاء قال: إن الأخ أبو عمار والأخ أبو أياد التقيا بجلالة الملك حسين في هذا المكان الذي نجلس فيه، وأقسما له على القرآن أن (فتح) لا تستهدف النظام في الأردن، بل هي حريصة عليه. هذه الحقيقة كنت قد عرفتها في حينه، ولم أكن بحاجة إلى أن أسمعها من (أبو رسول)، ولكن مدير المخابرات كان بحاجة أن يسمعني إياها حتى إذا كان في ذهني غير ذلك أكون على بيّنة من موقف حلفائي، وأظنه قال ذلك متأملاً أن يسمع مني ما يماثله. ومع أنني في حينه قد فقدت الأمل في تحقيق أمانيّ حول



الأردن، إلّا أنني لم أقل ما قالته (فتح)، لماذا؟ لا أعرف، ولكن يمكن أن يكون وراء ذلك عامل ذاتي، إن أحد الأسباب التي في تقديري جعلت (أبو رسول) يلتقيني، كان النمو المتسارع للتنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي المتعارض والخط البياني لموضوع خط (فتح) السياسي، والخطر الذي كانت تستشفه (فتح) من هذا النمو ليس فقط في الرؤيا التي بدأت تنضج في أوساط المقاومة، بل في أوساط (فتح) ذاتها. ففي إحدى الليالي، وكنت وحدي أعمل في مكتبي لساعة متأخرة من الليل على الدوار الأول (لجبل اللويبدة)، دخل عليّ أبو عمار وأبو صبري والأستاذ كمال ناصر، وكان فرح (الضمير)، واضحاً حينما وجدني أعمل في هذه الساعة المتأخرة، وبعد أن جلسوا توجه إليّ أبو صبري مباشرة طالباً مني أن أقدم لقيادة (فتح) كشوفاً تحتوي أسماء وأعداد قوات الصاعقة وحزب البعث العربي الاشتراكي، فذُهلت لهذا الطلب، وأعيتني الحيلة على الرد المناسب فخرجت من الغرفة إلى الصالة، حتى تهدأ نفسي.. ولحق بي بعد حين الأستاذ كمال وعدت وإياه إلى الغرفة ولم نتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى.

والطرف الآخر المعني والأكثر اهتماماً، بمعرفة كل نواحي واقعنا بشكل دقيق، هو النظام في الأردن، فقد عمل الحكم في الأردن كل ما استطاعه حتى يكون على بيّنة ومعرفة بكل ما يدور داخلنا، ونوايانا وتوجهاتنا، وكنت أنا شخصياً دوماً في متناول يده، وكان له في واقعنا ممثلون على كل المستويات. وإلى القارئ هذه الحقيقة: لم يتواجد سائق يقود سيارتي إلّا وكان عميلاً للمخابرات أو استطاعت المخابرات أن تُجنّده بما فيهم أحد أقاربي الذي اضطر إلى ترك العمل معي، حتى لا يكون مخبراً علي، وقد عيّنت بديلاً عنه، شاباً من مأدبا أعرفه وأعرف عائلته اسمه (عبد الله الست)، وهو أصلاً من الشام، وأعرف أنه لا يمكن أن يكون له صلة بالمخابرات، ومن هذه الثقة ساق سيارتي من عجلون إلى جرش في زيارة ليلية (للرفيق ضيف الله مساعدة)، رائد في سلاح الطيران الأردني، وحينما عرفت أن الرائد ضيف الله قد اعتقل، اتجهت أفكاري إلى سائقي وأنه هو الذي أبلغ عن الزيارة وكنت حينها وإياه في الشام، فاستدعيته إلى غرفة في قيادة الصاعقة وبادرته قائلاً: أخبرني الحقيقة ولا تخف، هل أنت الذي أبلغ سلطات الأمن في الأردن عن زيارتي للرائد ضيف الله في منزله في جرش؟ فأجابني بنعم! ولما سألته: متى جندوك؟ قال لي: قبل شهرين. سألته:

من جنّدك؟ قال لي: وكيل في المخابرات اسمه بركات بركات، فتركته يذهب إلى الأردن. وكنت أعرف كل ممثلي السلطة وممثلي (فتح) وأيضاً ممثلي النظام السوري في صفوفنا، وخصوصاً القياديين. والحقيقة أنني لم أعد أهتم لذلك بل العكس هو الصحيح، كان يهمني أن تصل نوايانا إلى المراكز المسؤولة في السلطة. لماذا؟ لأنني في تلك المرحلة فقدت الأمل نهائياً في تحقيق تصوري في ما يتعلق بالواقع السياسي في الأردن من موقفين:

(أ) موقف وموقع حركة (فتح).

(ب) وهو الأهم: واقع الحكم في دمشق.

والملك حسين كان يعرف هاتين الحقيقتين بالرغم من (الهيزعات) والتدخلات المظهرية التي سببها الصراع على السلطة في سورية.

ولم يكن النظام في الأردن وحركة (فتح) هما فقط الحريصان على معرفة واقعنا بدقة في التنظيم الفلسطيني الموحد وقوات الصاعقة، بل أيضاً المؤسسة العسكرية ممثلة بوزارة الدفاع (والتي كانت واقعاً هي السلطة في حينه) وحواريوها من الانتهازيين، والذين لم يكونوا يقلّون عنهما حرصاً، وهم في طليعة القوى التي كانت تعمل لتمرير التسوية.

### الاستعداد للحسم

كان النظام في الأردن يجري على قدم وساق الاستعدادات اللازمة، والتجارب المستمرة من أجل حسم التناقض في ساحة الأردن بين السلطة والمقاومة لصالحه. لقد خدمته مرحلة المقاومة الفلسطينية، كما خدمته قبلها مرحلة الديموقراطية وكان يخرج من الأزمة سالماً صاعداً سلم الأخطاء التي خلقتها قوى المرحلتين، وكلتا المرحلتين صُنعتا لهدف يخدم استمرار النظام، فمرحلة الديموقراطية خُلقت من أجل الارتداد عليها ومن بعد ساقونا معصوبي الأعين، مكتوفي الأيدي، إلى هزيمة عام ١٩٦٧، وحركة التحرير الفلسطيني والعمل الفدائي على الساحة الأردنية، خلقا من أجل:



أولاً: محو مسؤولية النظام التاريخي من ذهن المواطن من جانب رئيسي في كارثة فلسطين منذ وجوده وحتى هزيمة عام ١٩٦٧ وتأهيله ليلعب الدور الأساسي في هزيمة المقاومة في أيلول عام ١٩٦٧.

ثانياً: حتى يساق عرب فلسطين وكل العرب الملتفين حول فلسطين من خلال التوافق والتناقض المسيطر عليه، إمبريالياً وصهيونياً إلى ساحة المهرجان وأيديهم معصوبة على علم فلسطين ليضعوه على قبة (الصخرة المشرفة) على رأي أبو عمار، هذه هي أساليب الاستعمار القديم والجديد وحليفهما الصهيونية.

وفي هذه المرحلة وفي كل مرحلة سبقتها من تاريخ الصراع على فلسطين، يخلقون واقعاً يمحون به من أذهان الناس، مرحلياً حقائق ترسّخت، من هنا فقد نسي الناس النظام وكل مآثره التاريخية إلى أن ذكّرهم هو بنفسه، بعد أن تأكد من واقعين. أولاً: أن القوى الحية في الشعب العربي مقيدة بسلاسل الكذابين. وثانيهما، أن الشعب في الأردن قد انقسم إلى جمعين، جمع الفلسطينيين وتقوده المقاومة الموجهة بنادقها إلى السماء، وجمع الأردنيين وأكثريتهم في تلك المرحلة مع النظام الذي كان مسؤولوه في منتصف عام ١٩٧٠ يجولون مدن الأردن وأريافه يوزعون السلاح قائلين: دافعوا عن أحسابكم وأنسابكم فالفلسطينيون يريدون الاستيلاء على أرضكم، هذه حقيقة الواقع قبل أيلول الأسود الذي سودت وجهة المقاومة و(فتح) خاصة.

### بداية الطريق إلى حسم التناقض

أصدرت حكومة السيد بهجت التلهوني أمراً إلى المقاومة يتضمن أربعة عشر قيداً على نشاط المقاومة، طالبة من المقاومة الفلسطينية وضع هذه القيود في معصمها. والسيد بهجت التلهوني، كان أكثر رؤساء الوزارات قرباً من الملك حسين. وهذه الأربعة عشر قيداً، صممت لتخرج المقاومة نهائياً من جلدها لتصبح بعد ذلك أداة من أدوات سماسرة السياسة الدولية. وحين أصدرت الحكومة أمرها هذا، كان السيد ياسر عرفات في زيارة للاتحاد السوفياتي، يقوم بجولة على المصانع، وفي كل مصنع من هذه المصانع علق العمال على صدره نيشان ذكرى زيارته لهذا المصنع. هذا التوقيت لم يأت مصادفة، ومن الطبيعي أن يكون رد فعل المقاومة على القيود رداً يتناسب

ومستوى الرفض، وكنت شخصياً حين إصدار هذه القيود خارج عمان، كنت بالتحديد في مقر قياد الصاعقة في قرية عنجرة. وقمت في اليوم التالي بزيارة لقيادة القطاع الأوسط، وأثناء وجودي في قيادة القطاع مع الرفيق (محمد عيد عشاوي) قائد القطاع، أجرت قيادة المقاومة اتصالاً معي تطلب مني التوجه إلى عمان لأن قتالاً كان يجري هناك في مناطق عديدة بين المقاومة وقوات الأمن في مدينة عمان (الأمر الذي يستدعي وجودك). لماذا وجودي أنا وهناك مسؤولون في حركة المقاومة وخاصة في (فتح) أكثر قدرة على التعامل مع هذه الأحداث، والتعامل مع السلطة مني؟ لقد تبين لي فيما بعد (أي قبل أن أتوجه إلى عمان) أن جهة ما نصبتني نائباً للأخ ياسر عرفات ومن هذا الموقع يفترض أن أكون موجوداً طالما أن الأخ أبو عمار غائب عن المسرح، فصفنت في الأمر.. إذ من خبرتي وتجربتي، أدركت أنه حتى لو كنت حقيقة نائباً لياسر عرفات، فهناك أطراف في المقاومة وخاصة في (فتح) يزعجها إبراز هذا الأمر. أما النظام، فمن المؤكد أنه لا يقبل التفاوض معي من هذا الموقع. إذاً ما هو المقصود الذي لم أتبينه في حينه؟.. وبعد ذلك كرروا الطلب بوجوب حضوري إلى عمان.

غادرت قيادة القطاع الأوسط لا يرافقني إلّا سائقي وسلاحي الشخصي، وعلى أول مرتفع على طريق السلط ـ عمان، اعترضني حاجز يحرسه رجال الأمن، ورفض هذا الحاجز السماح لي بالمرور، فأبلغتهم أن الحواجز على الطرق تمنعني من المرور. فاتصلوا بي ثانية وقالوا إن جميع الحواجز على الطرق «لديها أوامر بأن لا يعترضوك»، حينها شددت الرحال إلى عمان، وعلى مشارف مدينة عمان بعد خروجي مباشرة من تلال (الجبيهة) واجهت حاجزاً معززاً بالأمن والشرطة العسكرية وبمجموعات من الجيش تأخذ مواقع متخندقة لها على جانبي الحاجز، وقافلة طويلة من السيارات المدنية، كل منها تنتظر دورها بالمرور، في ظل إجراءات بطيئة متعمدة وحين واجهت بسيارتي الحاجز، تقدم مني مساعد شرطة فأخبرته من أنا، وقلت له أنا مطلوب للقاء الحكومة، فأجابني: إن مرورك غير مسموح به، فنزلت من السيارة وبندقيتي في يدي، وقلت له: إن وجودي في عمان ضرورة، فتقدم مني والتحدي باد عليه، ومسك بندقيتي من عنقها، وقال: لن تمر، ثم حاول سحب البندقية من يدي، فلم يستطع ذلك، فأمسكها بكلتا يديه، وحاول سحبها من يدي فلم يستطع، فنهرته وقلت له: لا تحاول ذلك إن بندقيتي لا تخرج من يدي وأنا حي، حينها ترك البندقية وقال: إنك



لن تمر، فعدت من حيث أتيت، ولما رآني الرفيق محمد العشاوي قائد القطاع قال: أراك قد عدت! فأخبرته ما حصل معي، وعادوا واتصلوا بي، فقلت: عليكم حل مشاكلكم وأنا لن أدخل عمان في ظل هكذا واقع.

هذه الحواجز والمواقع غير المتباعدة والمعززة على كل مداخل عمان، كانت مبرراتها معروفة، فهي اختبارات تجربها السلطة، وتهيئة نفسية لوضع أداة الحكم في موضع الاستعداد الدائم، ووضع المقاومة في وضع الترقّب والدفاع الدائم، ولكن الوضع الذي وجدت نفسي فيه، كان ذريعة خلق موقع نائب لياسر عرفات، ودعوني للتفاوض من موقعي المخلوق هذا ومن بعد إعادتي ومنعي من المرور لمرات عديدة مع تصرف خشن.. كل هذا لم أتبين مراميه بعد.

أمضيت فترة الظهيرة مع الرفيق (محمد العشاوي) قائد القطاع الأوسط، وعند العصر وصلت إلى قيادة القطاع سيارة أميركية سوداء (مزيونة) نزل منها الأستاذ كامل عريقات رئيس مجلس النواب (الذي انحل بعد هزيمة عام ١٩٦٧)، خرجنا له أنا والرفيق (أبو وسمة) ودعوناه للجلوس، فقال لي: إن الحكومة والأخوان في المقاومة ينتظرونك. فسألته: هل أنت قادر أن توصلني إليهم؟ قال: أنا من أجل ذلك قصدتك، فركبت معه في السيارة وقلت في نفسي وأنا راكب معه في السيارة (إن هذا الاهتمام غير العادي بي يثير الريبة). أنزلني من السيارة أمام منزل رئيس مجلس الوزراء الأستاذ التلهوني، أدخلوني إلى غرفة ضيوف صغيرة، وجدت فيها المرحوم أبو أياد والأستاذ إبراهيم بكر وكذلك الأستاذ عبد المنعم الرفاعي نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية. فجلست في المعقد الذي لا يجلس عليه أحد، وبعد دقائق قليلة، دخل علينا الملك حسين، يلبس قميص (سبور) وجلس في صدر الغرفة على كنبة وحيدة، وكأنها معدّة له، وكنت أجلس إلى يمينه، في مواجهة أبو أياد وإبراهيم بكر، فأخرج سيجارة في حركة هادفة، فوقفت وأشعلتها له. وجرى حديث ليس له هدف، لم يأخذ أكثر من دقيقتين، نهض بعدها (جلالته) ليغادر، ولما لم يتحدث أحد في الموضوع الذي من أجله تحملت عناء ومشاكل الوصول، ومنذ الصباح وأنا أغدو وأعود، توجهت إلى الملك قائلاً بالحرف: ماذا نقول للإخوان الذين ينتظرون أجوبة حول الحالة القاتمة؟ فابتسم الملك لهذا الأسلوب غير المألوف للتخاطب مع جلالته، وأجابني إجابة لم أفهمها ولكنه كان راضياً، والحقيقة أنني حتى تلك اللحظة لم أكن

قد اهتديت إلى الأسباب التي تبرر هذا الإصرار على أن أكون أنا شخصياً مسؤولاً عن الجانب المقاوم في هذه الاجتماعات، والتعامل غير العادي الذي عانيته طوال اليوم، هل كان الهدف هو تبيان موقفي الحقيقي من خلال النقاش وطرح الآراء، أم كان الهدف أن بعض الأطراف إن كانت في المقاومة أو في السلطة، كانت تعتقد أنني سأعقّد الموقف بشكل قد يقود إلى الانفجار العام؟ وهذا الأمر كان مستبعداً في تلك المرحلة، لأن النظام في حينه لم يكن قد وصل بعد إلى التقرير في حسم التناقض بعد خروج الملك حسين. وجدت أن هناك اتفاقاً بين أبو أياد وإبراهيم بكر والحكومة، أنْ يجري لقاء بين ممثلين عن المقاومة وعن الحكومة مساء اليوم نفسه في مبنى رئاسة الوزراء. والأمر الغريب أنني لم أُبلّغ بذلك قبل وصول الملك حسين ولقائنا به في منزل رئيس مجلس الوزراء.

بعد ذلك خرجنا نحن ممثلي المقاومة إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية، ودعونا جميع قادة الفصائل إلى هذا الاجتماع، وحين وصول جميع قادة فصائل المقاومة، أو من ينوب عنهم، عقدنا أول اجتماع في تاريخ تواجد المقاومة على ساحة الأردن، فشرحنا لهم مضمون اللقاء الذي تم في منزل رئيس مجلس الوزراء والاتفاق الذي جرى على اللقاء الساعة الثامنة والنصف مساء ذلك اليوم إلى مبنى رئاسة مجلس الوزراء، مع وفد يمثل الحكومة للتباحث في أمر القيود التي أمرت بها وأصدرتها حكومة المملكة الأردنية الهاشمية، وطلبنا منهم تعيين أعضاء هذا الوفد.

وكما ذكرت، كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ المقاومة الفلسطينية على ساحة الأردن التي يدعى بها كافة قادة فصائل المقاومة لبحث أمرٍ يخصهم جميعاً. وكان موقفي هذا انطلاقاً من موقعي الظرفي كنائب للأخ ياسر عرفات، وللتاريخ أن الأخ أبو أياد يرحمه الله كان مع هذا التوجه.

ومن هذا اللقاء ولدت صيغة ما سمي بعد ذلك (المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية)، وقد سمّى المجتمعون أعضاء الوفد وهم الأستاذ بهجت أبو غربية والمرحوم (أبو أياد) وأبو موسى (ضافي الجمعاني). انتقلنا بعد ذلك نحن الثلاثة إلى جبل عمان، حيث مبنى رئاسة الحكومة، وحين وصولنا التقينا بوفد الحكومة في قاعة



اجتماعات مجلس الوزراء المكون من: الأستاذ عبد المنعم الرفاعي نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الخارجية في حينه، ومدير المخابرات العامة اللواء محمد رسول زيد الكيلاني والمدير العام للأمن العام، وكان رئيس مجلس الوزراء موجوداً في مكتبه وفي قاعة الاجتماعات.

وما إن جلسنا إلى طاولة المفاوضات لنبدأ التفاوض، حتى وصل موكب الملك حسين إلى مبنى الرئاسة، فخرج أعضاء وفد الحكومة بمعية رئيس مجلس الوزراء لاستقباله، ودخل علينا في قاعة الاجتماعات وفي معيته رئيس مجلس الوزراء ورئيس الديوان الأستاذ زيد الرفاعي والوفد الحكومي، ومرافقوه العسكريون، وجلس على رأس الطاولة، وفي يده جهاز إرسال واستقبال وضعه أمامه بعد أن جلس، وجلسنا نحن وفد المقاومة إلى يمينه ووفد الحكومة، إلى يساره، وكان يجلس إلى يمينه المرحوم أبو أياد، وأنا إلى يمين أبو أياد ثم الأستاذ بهجت أبو غربية. وحين اكتمل جلوسنا جرى إبلاغه على الجهاز، أن المقاومة تهاجم (الآن) قيادة منطقة البادية، وقيادة منطقة البادية كانت في حينه مواجهة تماماً لمخيم الوحدات، وقام بإبلاغنا هذا الأمر، وبعد ذلك أردف قائلاً ما مضمونه: نريد أن نعرف هل هناك دولة وحكومة لهذا البلد أم أن هناك من يعتبر أن لا وجود لهذه الدولة، فإذا كنا جميعاً نعتبر أن الدولة موجودة وهذه الدولة لها حكومة عليها أن تقوم بواجباتها وتمارس مسؤولياتها، فلن يكون هناك خلاف بيننا، أما إذا كان هناك من يعتبر أن لا وجود لهذه الدولة ولديه قناعات مختلفة، فلا بد حينها أن نعرف ذلك. فانتظرت أن يجيب على تساؤله المشروع هذا أحد رفيقيّ، ولما لم يقل أي منهما قولاً يرد به على تساؤلات الملك حسين، عرفت حينها أنني المقصود بهذه التساؤلات وأن عليّ أن أجيب عليها، فقلت: يا جلالة سيدنا، أنت لست طرفاً في هذا الذي يجري بين الحكومة والمقاومة، بل أنت حَكم، فسبب هذه الأحداث هي الأربعة عشرة قيداً على حركة المقاومة التي أصدرتها الحكومة دون التشاور مع المقاومة. والمقاومة يا جلالة سيدنا، لا تستطيع قبول هذه القيود، لأنها بصدق تلغي مبررات وجودها كواقع مستقل له حرية العمل ضد عدو يحتل أرضها، هذه هي المعضلة. وحين سماعه لهذا الجواب الذي في تقديري لم يكن يتوقعه، (جواب موضوعي ولائق) نهض وتبعه أعضاء الوفد إلى مكتب رئيس الوزراء للتشاور. غاب مع مستشاريه قرابة النصف ساعة، ثم جاء ببيان جديد يفترض به أن يكون

مختلفاً عن شروط الحكومة التي سببت الأزمة، ولما قرأت البيان بتمعن وجدته تماماً كما يقال (بدلاً من أن تمسك أذنك اليمين بيدك اليمنى وتقول هذه أذني ترسل بيدك اليمنى فوق رأسك لتمسك أذنك اليسرى وتقول هذه أذني)، فصفنت في الأمر ووجدت أن أي نقاش ومحاورة حول مضمون هذا البيان، الذي لا يختلف عن بيان الحكومة الذي سبب الأزمة إلّا في الصياغة، لا يمكن أن يكون متفقاً مع اللياقة في أي من حدودها، فالمقاومة مبدئياً لا تستطيع أن تساوم النظام على منطلقها الأساسي، ولا على حرية عملها، وأيضاً قد يقود النقاش والحوار والجدل إلى زلات غير لائقة أمام الملك حسين، إن كان ذلك بالكلام أو السلوك، فوقفت وقلت: يا جلالة سيدنا والله لو أشنق على باب رئاسة الوزراء هذه، ما أخذت بياناً مثل هذا البيان لأعرضه على أخوتي في قيادة المقاومة. لم يظهر أي نوع من الغضب أو حتى الاستياء على ملامح وجه الملك حسين، وإنما الذي تعرض إليّ (ربما لأن مسعاه قد خاب) هو محمد رسول قائلاً ما معناه ـ ولم يقل الكلمة ذاتها ـ (وقاحة أو صلافة). فقلت له مباشرة وعفوياً (أنت ما لك عليّ شيء). وقد فهم الملك حسين معنى هذا الرد العفوي، فابتسم ابتسامة عريضة، وبعد هذا القول انفض اللقاء على أن يستأنف بعد ذلك.

ولقد سألت نفسي بعد خروجنا: لماذا كان جوابي على ما وجهه إلي أبو رسول هو ما قلت ولم أكن مهيأ لا لما سمعت، ولا لما قلت، ولم يكن هناك رد أفضل من ذلك، وقد تلقى أبو رسول الإجابة، وحاول ردها على طريقة المخابرات. أرسل رسولاً إلى محمود المعايطة (أبو ساهر) في دمشق، وأبلغه الواقعة مشوهة وقال إن ضافي كان يقصدك. ولما ذهبت إلى دمشق التقاني محمود بمنتصف الطريق إلى مكتبه، الذي كنت باتجاهي إليه، وهو (مستعد للهوش) لأول مرة في تاريخ العلاقة الطويلة بيني وبينه. ولما واجهني، قال: أنت قلت لمحمد رسول كذا فأجبته: وأنت ما هي علاقتك في الأمر، فاستدار إلى مكتبه، وبالتأكيد أن محمود لم يكن المقصود بجوابي ذاك، وهنا وصل مخطط تنصيبي نائباً لياسر عرفات إلى نتائج مختلفة عن النتائج المرجوة، وحين صفنت في الأمر قدرت التقدير التالي (الذي يبقى تقديراً ذاتياً) هو أن أطرافاً في السلطة أهمها زيد الرفاعي رئس الديوان الملكي آنذاك، ومدير المخابرات العامة اللواء محمد رسول حينها، (وأنا حينما أقول زيد الرفاعي فلأني



أعرف تأثيره من موقعه وعلاقته بحركة فتح) قرروا على ما يبدو، من خلال مخطط مدروس، دفعي إلى القبول علي الأقل بالمساومة على مبدأ حرية المقاومة، وهذا الأمر يعني الكثير لحركة (فتح) أولاً، وللنظام ثانياً، والأهم بالنسبة للتنظيم الموحد (لحزب البعث العربي الاشتراكي) وقوات الصاعقة المسؤول الأول عن قيادتهما، وإلّا ما معنى تعييني في هذا الموقع رغم مواقف (أطراف هذا اللقاء المعارضة لذلك) وذهابي وإيابي من على الحواجز المنصوبة على الطرق والعيون الحمراء التي واجهوني بها على جميع هذه الحواجز ومن بعد ذلك حضور الملك حسين شخصياً هذه الاجتماعات، الأمر الذي يفرض علي أخذ هذا الأمر بالاعتبار، وهو تقدير صحيح ومن ثم حضور شخصيات فلسطينية معروفة مثل كامل عريقات وداود الحسيني وغيرهم، ووجودهم يعني أنهم مع توجه النظام وهم كذلك، وأخيراً أنني من وجهة نظرهم (طالع من الدم) كما يقول المثل العشائري في عقليتهم، أي أنني لست فلسطينياً. وكنت قد اقتنعت تماماً في هذه المرحلة، أن حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) تسعى إلى الهزيمة أمام النظام وأن كل هذه العوامل مجتمعة، ترغيب وترهيب ومجاملة، كانت تسعى إلى دفعي للقفز فوق قناعاتي ولكنني لم أفعل. لقد قلت إن هذا اجتهاد، ففي المؤامرات التي لم تكشف، لا يعرف الحقيقة فيها إلّا المتآمرون.

## عودة أبو عمار إلى عمان

في صبيحة اليوم الثاني للقاء وفد المقاومة بالملك حسين ووفد الحكومة، عاد أبو عمار من رحلته إلى الاتحاد السوفياتي آنذاك وكان قادة فصائل المقاومة مجتمعين في مقر منظمة التحرير الفلسطينية لمناقشة ما دار في مباحثات الليل الفائت مع وفد الحكومة، وحين وصل أبو عمار إلى أحد مقار (فتح) العديدة، أبلغني أبو أياد بذلك، فذهب أبو أياد والرفيق يوسف البرجي عضو (قيادة التنظيم الفلسطيني) عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية لاصطحابه إلى مقر الاجتماع، إلّا أنهما عادا بدونه، فسألتهما لماذا لم يأت أبو عمار ليترأس الاجتماع؟ فقال لي أبو أياد (يرحمه الله): الأفضل أن تذهب أنت إليه وتتكلم معه، فاصطحبت أبا أياد وتوجهنا للقائه وقد أدركت أسباب التمنّع. فلما التقيناه هنأته بالسلامة وقلت له، يا أبو عمار لا أحد في المقاومة يستهدف تجاوزك، وهذا الاجتماع والصيغة التي يمثلها فرضتهما الأحداث التي جرت في غيابك وأنت حر في كيفية التصرف تجاهها فهذه

مسؤوليتك. فارتاح لما قلت ونهض معنا إلى مقر منظمة التحرير، حيث المجتمعون. ترأس الاجتماع، الذي كان من بين حضوره الدكتور منيف الرزاز ممثلاً لجبهة التحرير العربية، وبدأ هو حديثاً مطولاً. لا تعرف عن ماذا يتحدث؟ يسرح في المجتمعين بكل الاتجاهات، حديث ليس له علاقة بما هو مطروح في اللقاء، ولا بالظروف والأحداث التي سببت عقد الاجتماع. صلافة وقدرة على تجاوز حقيقة هذا الاجتماع وأسبابه والرجال المجتمعين في حينه لا يضاهيهما قدرة، فنظر إليّ الدكتور منيف بمعنى: ما هذا؟ فنهضت من مجلسي في الاجتماع وخرجت إلى الصالون أنوي الخروج إلى الحديقة، وحين فتحت الباب الرئيسي أهم بالخروج إلى الحديقة سمعت خلفي (نحيباً) فالتفتّ، فإذا بالأستاذ (بهجت) ينتحب قائلاً لي: (شو هذا يا أبو موسى). وأنت لا تعرف الكارثة!! إلّا حينما تسمع نحيب رجل مثل هذا الرجل الباسل الذي قتل مدير بوليس القدس وعمره آنذاك ستة عشر عاماً، هذا الرجل المؤمن بقضيته رفيق عبد القادر الحسيني، أفنى عمره يقاتل من أجلها، ينتحب لأنه يرى وطنه يُدفع به إلى الهاوية، وهو لأول مرة في تاريخه وتاريخها لا يستطيع الدفاع عنها.

إنني أضع هذه الصورة الحقيقية المعبرة أمام القارئ، لأعينه على معرفة الواقع الذي يجهله وكم كان المطب الذي يحفر لهذه الأمة وإنسانها عميقاً، وإلّا ما معنى أن يتجاهل (قائد ثورة الفلسطينيين) الواقع ويقفز فوقه؟ إلى أين؟ إلى المجهول...، لا لسبب، إلّا لأنه لا يريد من أحد، إن كان هذا الأحد مقاوماً، أو إنساناً عادياً مهتماً بقضيته، أن يعرف اتجاه المسار لا نسبياً ولا بالمطلق. تعتيم كامل على الحقيقة، وعلى الأطراف التي تعمل من أجل طمس هذه الحقيقة، وهذا الأسلوب الذي يعالج به رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الأزمة، يدل أنه لا يوجد هناك أزمة وأن الأزمة التي افتعلتها الحكومة مع المقاومة هي أزمة هادفة، الهدف منها اقتناص فرصة غياب ياسر عرفات لتحقيق نجاحات على صعيد تقييد حرية المقاومة، وإلصاق التفريط بالجبهة التي قادت هذه المفاوضات.

## تكرار الأزمات وصولاً إلى أيلول ١٩٧٠

من المعروف بداهة، أنه في واقع سياسي وصل التناقض فيه إلى نقطة التحول الكيفي



بين قوتين، كل منهما تريد فرض نهجها على الواقع سياسياً، من المفترض حينها أن يعدّ كل من الطرفين عدّته لحسم الصراع لصالحه. هكذا كان الموقف بين النظام في الأردن وبين المقاومة في أوائل النصف الثاني من عام ١٩٧٠ ـ وأنا هنا سأبيّن قوى هذا الواقع، المتقابلة ضمن التجربة التي عايشتها. لقد قلت أن من ينظر إلى الواقع من خارجه، يظن أن هناك خندقين متقابلين، هما خندق المقاومة الفلسطينية، وخندق النظام الأردني، والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك. لقد كان خندق النظام موحداً ولو ظاهرياً، هدفه إنهاء التناقض وإعادة السيطرة على الواقع وهذه طبيعة كل نظام. أما المقاومة التي كانت تقودها حركة التحرير الفلسطيني (فتح) وبالتالي يقودها (أبو عمار) من خلال رئاسته لمنظمة التحرير الفلسطينية، فلم تكن قواها موحدة وكانت رؤاها متعارضة بل متناقضة بين بعضها، فحركة (فتح) لا تستهدف النظام بل هي حريصة عليه كما هي حريصة على كل نظام يعينها على تحقيق استراتيجيتها، وكذلك فهي تخشى البديل عن النظام، لأن أي بديل للنظام لا بد أن يكون وطنياً يستحيل عليه تبنّي مضمون استراتيجية (فتح) (التي هي كيان فلسطيني غير معروف المواصفات) يتم الوصول إليه من خلال التفاوض، وليس الصراع. أما التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي، وقوات الصاعقة، ففكرهم واضح، ونهجهم واضح، وبالتالي فإن استراتيجية البعث متناقضة تماماً واستراتيجية (فتح).

صحيح أننا لم نطرح شعار إسقاط النظام، ولكننا طرحنا البديل الصحيح، وهو الدفاع عن المقاومة وصمودها أمام محاولات النظام لتدميرها، وأنت إذا صمدت أمام محاولات التصفية يعني أن عدوك يتراجع. ففي اجتماع لي مع تنظيم الحزب في الجيش، وكان بينهم قائد كتيبة، وقائد سرية محمولة، ومدرعات في منزل الرائد (فالح زعل الكتعان الفايز) في قرية (منجا) حضره الرفيق عبد الرحمن العرموطي، قلت للمجتمعين إننا لا نستهدف الإطاحة بالنظام، أو الاستيلاء على السلطة، إن هدفنا هو الدفاع عن أنفسنا وعن المقاومة، أمام هجوم النظام الذي يستعد له، فهدفه تصفيتنا، وأنا أطلب منكم من خلال مواقعكم في الجيش ومسؤولياتكم العسكرية العمل على إفشال هذا المخطط. طبعاً قلت هذا القول وليس لدي خطة لمواجهة المقبل من الأخطار. وأنا لم تكن لديّ هذه الخطة وهو قول عام، لأنني لا أستطيع أن أقول قولاً

هادفاً ضمن خطة لأنه لم يكن هناك خطة أولاً، وثانياً لأنك في هذا الواقع لا تعرف من معك ومن هو عليك.

لقد قلت أن الأربعة عشر قيداً على حرية المقاومة، التي ضمّنتها الحكومة الأردنية بيانها، كانت خط البداية لسير النظام في مخططه الذي يستهدف تصفية المقاومة، والمفترض أن يكون هنالك خطة مقابلة لإفشال مقاصد النظام، خصوصاً أن المقاومة لم تعد فصائل متفرقة لا يجمعها جامع، فقد أصبحت فصائل موحدة وجزءاً موحداً في وعاء منظمة التحرير الفلسطينية، تقودها قيادة سياسية واحدة، ودائرة عسكرية، كان يرأسها العميد عبد الرزاق اليحيى قائد جيش التحرير الفلسطيني سابقاً، قوات اليرموك، وهو عسكري وضابط كفء، فإذا لم توضع خطة موحدة لقوات المقاومة، ولم تكن المقاومة قادرة على إفشال خطط النظام، فهي قادرة على جعله يعرف قدر نفسه، ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ والهدف ليس سلامة المقاومة فقط ولا إفشال مخطط النظام ضدها والذي من المفترض أن يكون كذلك للحفاظ على وجود المقاومة ومكتسباتها، وإنما كان الهدف مع الأسف، هو الاستمرار بالمؤامرة، التي انتهت صفحتها الأولى بهزيمة ١٩٦٧ ثم بدأت صفحتها الثانية، وهي سحق القوى الحية في الشعب العربي الفلسطيني، وفي الشعب المحيط بفلسطين من خلال مخطط جهنمي لا يمكن أن تنتجه إلّا مخابر الإمبريالية والصهيونية وحلف الأطلسي، وينفذ بأيد وأدوات أصبحت أوضح من النهار، وهذا المخطط يقتضي صراعاً فلسطينياً ـ أردنياً، فلسطينياً ـ سورياً، وفلسطينياً ـ لبنانياً، تمثل الأنظمة القطرية فيه شعب كل قطر في هذه الأقطار ويمثل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات الشعب العربي الفلسطيني، من أجل أن يصبح كل عميل في هذا المخطط، بوقاً من أبواق الإمبريالية والصهيونية الفاغرة فاها في كل أنحاء العالم والممولة بشكل رئيسي من أموال نفط العرب في الجزيرة العربية.

إن هذا الشعب الذي يذبح بيد الأردنيين والسوريين واللبنانيين وغيرهم في أماكن تواجدهم حول فلسطين وحتى أبعد من ذلك لا بد له من أرض تعطيه هوية، يستطيع التنقل بها في بقاع العالم (مقولة أبو مازن محمود عباس) ونظام يهتم بشؤونهم ويحميهم من هذا التشرد والاضطهاد، وهي مقولة الصهيونية ذاتها التي تكونت في رحم الاستعمار القديم (شعب مضطهد ومشرد لا بد له من وطن يؤويه



وكيان يرعى شؤونه) يكررها الاستعمار الجديد، لأداة جديدة ومضمون جديد أكثر خطورة على الهدف الذي من أجله وجد كيان «إسرائيل» ألا وهو منع الأمة العربية من التوحد والنهوض، وإلا فما معنى أن يأخذ مسار تحرير فلسطين الذي قادته (فتح) ويقودها ياسر عرفات وحده، بعد أن لم يبق معه من إخوانه المؤسسين إلّا توأمه أبو اللطف؟ هذا المسار الخارج عن المعقول من سورية إلى الأردن، ومن ثم إلى سورية ثم لبنان ساحقاً خلال هذا المسار كل القوى الحية في الشعب العربي في الأردن وسورية ولبنان، والأهم في صفوف الشعب العربي الفلسطيني، بعد ذلك يخرج إلى المتوسط متجهاً غرباً، محمولاً على سفن الأطلسي (وكامب ديفيد) بعد أن دهمته قوات «جيش الدفاع الإسرائيلي» من فلسطين حتى بيروت وجيش «الحركة التصحيحية» في سورية من البقاع والشمال حتى طرابلس.. كيف يمكن أن يحدث ذلك لو لا أن القوى التي قادت هذا المسار هي قوى قادرة على فعل اللا معقول وغير الممكن؟

ومن الطبيعي أن يرد إلى ذهن القارئ هنا تساؤل مشروع، وهو: طالما أن التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي يمتلك الرؤيا الصحيحة والنهج السليم، لماذا لم يسلك الحزب وقوات الصاعقة هذا الطريق الصحيح لتحقيق رؤيته على الساحة الأردنية؟ أنا هنا سأجيب ليس على هذا التساؤل المشروع فقط، ولكن على فهم الكثيرين من ذوي النوايا الحسنة الذين كانت قناعتهم لا تتفق وحقيقة أسباب هزيمة المقاومة، وإن كان المسار الطويل المتعرج، قد أجاب على بعض هذه الأسباب. سأبيّن حسب معرفتي وقناعتي إمكانات القوى المتواجدة على ساحة الأردن، ودورها الذي مثلته أثناء عملية الصراع. وفي ما تقدم من هذه الفقرة، أوضحت فهمي وقناعتي لاستراتيجية (فتح)، وكذلك أهداف النظام في الأردن، والآن سأبين من خلال معرفتي وقناعاتي، واقع القوى على ساحة الأردن في حينه، ودورها الذي مثلته أثناء عملية الصراع التي أغلقت الطريق أمام الفعل الصحيح، الذي كان يمكن أن تقوم به القوى ذات الرؤية الصحيحة والنهج السليم وأقصد بذلك التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي وقوات الصاعقة.

والقوى المؤثرة والمتواجدة على ساحة الأردن آنذاك كانت:

أ ـ قوى النظام.

ب ـ القوات العراقية.
ج ـ حركة التحرير الفلسطيني (فتح).
د ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.
هـ ـ الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين.
و ـ التنظيم الفلسطيني الموحد، الصاعقة.
ز ـ الجبهة العربية لتحرير فلسطين.

### أ ـ قوى النظام

وأية قوى أخرى، هي في حقيقة الأمر امتداد لقوى النظام. إن النظام في الأردن كأي نظام يملك جيشاً ووسائل دعاية وإعلام تتناسب وإمكاناته. وهذه القوات مبنيّة ومجهزّة على شاكلة كل بناء يبنيه الاستعمار الجديد للدول التابعة له. ومعضلة النظام في الأردن تكمن في ذاته، فهو يعرف أنه لا يستطيع في يوم من الأيام أن يخلق قوة وقدرة من ذاته تحمي هذه الذات، ولذلك فهو دوماً يعتمد على الصهيونية والعالم الحر كما يسميه، وأيضاً بمن يلوذ بهذا العالم الحر من دول الإقليم عرباً كانوا أم غير عرب. صحيح أنه خلال الأزمة، كان يمتلك جيشاً قوامه أربعة ألوية مشاة مع أسلحتها المساندة إضافة إلى بعض الوحدات المستقلة كالحرس الملكي، يضاف إلى ذلك قوى الأمن الداخلي، لكن أداته هذه، كانت تحمل في تكوينها نقاط ضعف قاتلة، بعضها هو التالي: (أ) إن أداة النظام هذه تحمل إرثاً ثقيلاً من اللامصداقية لمقولات النظام الوطنية والقومية مهما كانت هذه الأضاليل متقنة. (ب) إن هذه الأداة تنقصها القناعة بصحة الهدف ومشروعيته، لا سيما أن الهدف هو قتال المقاومة. وهي التي تحمل إرثاً ثقيلاً من الهزائم أمام العدو الذي تقاتله المقاومة في الوقت الذي تنقص الأكثرية الساحقة من عناصر هذه الأداة قناعة التضحية بالنفس لمصلحة النظام ضد المقاومة. (د) الانقسام في هذه الأداة (عربي فلسطيني ـ عربي أردني). هذه الحقائق وغيرها تجعل أداة النظام هذه غير قادرة على هزيمة المقاومة.

### ب ـ القوات العراقيـة:

كانت القوات العراقية المتواجدة في شمال الأردن، والتي كان قوامها فرقة مع



أسلحتها المساندة موجودة على أرض الأردن باتفاق مع الحكومة الأردنية وبطلب منها، وهي بهذا ليست طرفاً مباشراً في الصراع، ولكنها لا بد أن تتصرف أمنياً وسياسياً بطريقة تصون أمنها، وتخدم نظرة العراق السياسية للوضع في الأردن وتأثيره على أمن العراق والرؤيا الاستراتيجية للعراق في الإقليم في ذلك الحين.

كان الاتجاه السياسي لبعض القادة العراقيين واضحاً. فالفريق حردان التكريتي، والفريق صالح مهدي عماش، كانا دائمي الإقامة في الأردن بالتناوب، في فترة الصراع بين المقاومة والسلطة في الأردن. وبالرغم من أساليب التمويه والتكتيك، كان العراق مع استمرار الوضع في الأردن، ومع الحفاظ على النظام، وهذا الأمر أثار نقداً شديداً في صفوف البعثيين على اختلاف مواقعهم الحزبية في تلك المرحلة. ولكن بعد النمو في الوعي والمعرفة من خلال التجارب، واتضاح مواقف الأطراف ذوي العلاقة في الصراع، تبيّن أن كل ما قيل في حينه بحق القيادة السياسية في العراق حتى وإن كان في صفوفها حردان التكريتي وصالح مهدي عماش، كان (أولاً) ناتجاً من الضيق الشديد الذي كانت تعانيه المقاومة (ليس بسبب عدم القدرة على مواجهة الواقع ولكن بسبب تشتت هذه القدرة)، فأنت حينما تصل الأرواح إلى الحناجر، لا تفكر باتزان موضوعي ونادراً هم الذين يفعلون ذلك خارج القادة التاريخيين. (ثانياً) إن العراق لا يستطيع أن يتجاوز القيادة السياسية لحركة المقاومة الفلسطينية التي كانت تمسك بشرعيتها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) وهي لا تسعى إلى تغيير النظام، بل هي تستهدف الهزيمة أمامه. (ثالثاً) لو تدخل العراق في الصراع لصالح أطراف معينة في المقاومة وأعني بهم البعثيين، لتطور الصراع إلى صراع إقليمي تدخل فيه أطراف دولية، والأهم أنه سيخلق وضعاً عشوائياً، ستكون نتائجه مدمرة على كل الواقع، وأهمه الواقع المستقبلي للحركة الوحدوية. ومع أننا مسؤولون أساسيون وأتحدث عن نفسي، أمضينا سنين طويلة في النضال والعمل السياسي، إلّا أننا لم نكن نعرف حتى البديهيات في العلاقة بين الدول، وكنا نعتبر أن الدولة القطرية وهمٌ يجب أن يزول. ولاحقاً تبيّن لنا أنها واقع راسخ في تلك المرحلة.

كان موقف الحكومة العراقية يستند في حينه إلى مشروعية وجود قواته في الأردن (أي إلى موافقة الحكومة الأردنية)، وذلك استناداً إلى الاتفاقية المبرمة بين الحكومتين وإلى موقف قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. (خامساً) إن أي اضطراب (أهوج) وعدم استقرار

على حدود العراق الغربية، سيفتح عليه ميداناً واسعاً للاحتمالات الخطرة، مع كل ما يحيط به. إلّا أن الأمر كان يمكن أن يكون مختلفاً جذرياً لو أن المقاومة كانت موحدة الاستراتيجية، وهدفها واضح بالنسبة للصراع مع النظام، فمن حقها الدفاع عن وجودها وحقها في قتال العدو، للوصول من خلال الفعل المسلح إلى حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره على أرضه، فحينها سيجد العراق أن الباب مسدود أمام المناورات، وما عليه إلّا الالتزام بالهدف الأساسي الذي من أجله تواجدت قواته على ساحة الأردن وهو الدفاع عن الأردن ضد أي عدوان خارجي، وأي موقف مغاير لهذا المبدأ حينها سيدفعه إلى أن يسحب قواته أو يقاتل المقاومة الفلسطينية.

## جـ ـ حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)

لقد ذكرت فيما سبق من هذه الذكريات، الكثير عن حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) واستراتيجيتها. كانت (فتح) أكبر المنظمات الفلسطينية، وأقواها قدرات وإمكانات مادية وجماهيرية، وكانت تتمتع بتأييد عربي كامل وخصوصاً من دول الخليج العربي. وسأذكر هنا نموذجين من العرب المؤثرين في السياسة العربية والدولية وهما: المملكة العربية السعودية والجزائر. ومع الفارق النوعي بين الدولتين في كل أبعاده، إلّا أن كليهما يؤيدان (فتح) بقوة، غير أن الأسباب التي استلهمها الرئيس (هواري بومدين) يرحمه الله، مختلفة جذرياً عن الأسباب التي كان الملك (فيصل) يرحمه الله يدعم (فتح) بسببها.

فالرئيس (هواري بومدين) كان يظن أن على (فتح) تطبيق استراتيجية الثورة الجزائرية من أجل الاستقلال، وأن على الدول العربية المحيطة بـ«إسرائيل»، أن تتعامل مع حركة التحرير الوطني (فتح) بنفس الطريقة التي تعاملت بها دول المغرب العربي مع الثورة الجزائرية، وعلى حركة التحرير الفلسطيني (فتح)، أن تفرض نفسها على الواقع المحيط بفلسطين، كما فعلت الثورة الجزائرية. إلّا أن (فتح) لم تفعل ذلك، ولم يعِ القادة الجزائريون الفارق النوعي العميق بين مكونات الواقعين بين الجزائر وفلسطين، والفروق النوعية هذه، تجعل من المستحيل تماثل (فتح) وجبهة التحرير الوطني الجزائري. وطبعاً لا يمكن تبيان هذه الفروق النوعية هنا، فهذا موضوع كبير يحتاج إلى عمق وتفصيل أكثر خصوصية، إلّا أن هناك فارقاً نوعياً رئيسياً يؤسس عليه. وهذا الفارق النوعي التاريخي، أن الجزائر والمغرب وتونس كانت دوماً دولاً مستقلة في



التاريخ الحديث قبل الاستعمار وبعده، بينما لم يكن في بلاد الشام، وفلسطين منها، دول مستقلة، بل كانت تاريخياً موحدة في زمن الإغريق والرومان، ومن ثم الإسلام مروراً بخلافة بني عثمان حتى سايكس بيكو، ولم تجزّأ إلّا بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك بهدف استعماري استراتيجي متفق عليه بين كل المستعمرين الأوروبيين، وهو إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين كمدخل إلى السيطرة على كل بلاد الشام، ومن بعد ذلك الوطن العربي (في مشرقه ومغربه).

لقد كانت (فتح) تمثل إرادة الشعب العربي الفلسطيني في بداية انطلاقتها، وبقيت كذلك وإن في حدود أدنى، حتى أيلول عام ١٩٧٠، أما بعد ذلك فقد فرضت قيادة (فتح) نفسها على الشعب العربي الفلسطيني من خلال الشرعية التي اقتنصتها اقتناصاً في ظروف سابقة مواتية، وحين تسلمت شرعية قيادة الشعب العربي الفلسطيني، صار مثلها في ذلك، مثل الأنظمة العربية التي تتعامل معها، فباتت تفرض نفسها على إرادة الشعب العربي الفلسطيني كما تفرض الأنظمة العربية في كل قطر من أقطار الوطن العربي نفسها على واقع شعبها، وأنا هنا أنوي أن أضع أمام القارئ نماذج من الأفعال التي قادت إلى واقعين هما: تقسيم ساحة الأردن، وإبطال فعل القوى الحية على هذه الساحة. وكما ذكرت في موقع سابق لقد قال (أبو عمار) لي في عام ١٩٦٨: إن ما يهمني هو شعبي أي الشعب العربي الفلسطيني، ومن هنا فإن الشعب العربي الفلسطيني أصبح مملوكاً في حينه إلى حركة التحرير الفلسطيني (فتح)، ومن ثم إلى ياسر عرفات، سواء كان بإرادة هذا الشعب المضللة بداية أو المفروضة عليه نهاية، ولما كان الشعب العربي الأردني مملوكاً أصلاً للملك حسين، ولما كان الملك حسين ونظامه وياسر عرفات متناقضَي الأهداف مظهرياً، متوافقَي الأهداف واقعياً وهدفهما هو إبطال فعل القوى الحية على ساحة الأردن فلسطينياً وأردنياً، هذه القوى المناهضة للتسوية حسب المفهوم الأميركي ـ «الإسرائيلي». ولما كان الملك حسين ونظامه المعروفة مواصفاته فاقداً لثقة هذه القوى، غير قادر على مواجهتها بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، وسجله حافل بالهزائم والمؤامرات لمصلحة أعداء نهوض العرب، إذن وبعد هذا كله فلا بد من حصان طروادة الذي يستطيع أن يحمل في جوفه القوى التي تستطيع ذلك، وقد حمل هذا الحصان في جوفه حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) واستراتيجيتها، والمخططات المادية والمعنوية، والقائد الذي سيقوم بهذا الدور.

فعلى صعيد الساحة الأردنية قسمت (فتح) الساحة عمودياً (عربي فلسطيني – عربي أردني) وألغت بذلك دور الحركة الوطنية إلغاءً كاملاً، واعتبرت (فتح) نفسها مسؤولة مسؤولية كاملة عن الشعب العربي الفلسطيني، وجيرت من خلال هذا الفعل الهادف الشعب العربي في الأردن للملك حسين ونظامه، وفي هكذا واقع منقسم تقوده قيادتان متوافقتان استراتيجياً متعارضتان تكتيكياً يفعل كل من هاتين القيادتين في الواقع الذي تقوده، الفعل الذي يخدم أهداف القوى الخارجية التي تقود خطواتهما، وبذلك لا بد من أن تسود مخططات هذه القوى على الأقل مرحلياً، وأنا هنا سأعطي نماذج من هذه الأفعال الهادفة لتحقيق هذا الانشقاق وتفعيله.

(أ) إن عشيرة بني حميدة التي أنتمي إليها وهي (من كبريات عشائر الأردن) لم تكن في يوم من الأيام عشيرة شر، ولم تكن ذات ولاء بيِّن للنظام، لأنه لم يتواجد في صفوفها الكثير من المستفيدين من النظام في حينه. ولقد جرت في بلدة ذيبان، حاضرة هذه العشيرة، جريمة نكراء أبطالها عملاء ومخبرون للنظام في الأردن، إذ هشّم هؤلاء المخبرون الذين أعرفهم رأسي فدائيين بالحجارة بعد أن أطلقوا الرصاص عليهما، عندما كانا يمران في البلدة متجهين إلى الجنوب، وذلك نتيجة للتحريض الذي كانت تقوم به السلطة، وشعاره (دافعوا عن أحسابكم وأنسابكم، فالفلسطينيون يريدون الاستيلاء على أرضكم).

(ب) لقد جرت في مدينة مأدبا، المدينة التي أسكنها، واقعة أخرى، كان الهدف منها إثارة فتنة طائفية وأبعد من ذلك فتنة بين (فلسطيني – أردني). كان أحد الطلبة الرهبان من عائلة العلامات في مادبا يسير وحيداً عصر أحد الأيام بلباس (طالب راهب)، فتصدى له عناصر يلبسون لباس المقاومة الفلسطينية وأطلقوا النار عليه، وأردوه قتيلاً، وطبعاً كانت عناصر الفتنة جاهزة لبثّ سمومها، ولحسن الحظ أنني كنت في ذلك اليوم في المدينة، وما إن سمعت بالخبر حتى سارعت إلى مخفر شرطة المدينة، ولما وصلت وجدت المكان مزدحماً فوقفت على باب الغرفة المزدحمة بالناس وبالأصوات المرتفعة، التي تحرض ضد المقاومة، وأنا طبعاً أعرف أصحابها ولكنني لا أريد هنا أن أذكر أسماء، فناديت بصوت مرتفع وأنا على باب الغرفة وقلت: ألا يكفي مأدبا محاولة زجها في فتنة طائفية عام ١٩٥٦ فها أنتم الآن تريدون زجها في فتنة جديدة ضد المقاومة عام ١٩٧٠، ففوجئوا بوجودي وبما قلته، ومن هناك سرت فوراً على



قدميّ إلى منزل السيد عيسى العلامات، ووجدت الكثير، من وجوه العزيزات هناك، فدخلت عليهم، واستغربوا هذا الدخول فأنا من المقاومة (وأعتبر مطروداً بالدم) ولكنهم رحبوا بي فقلت لهم: إنهم اليوم يحاولون إدخالكم نفس تجربة عام ١٩٥٦. ففي ذلك العام وقعت فتنة طائفية، وفي هذا العام ضد المقاومة الفلسطينية، فانتبهوا لهذا الأمر، فالأطراف هي نفسها، والأهداف نفسها، وإن تغيرت الأدوات والأساليب. فاختاروا حينها الموقف السليم، وسويت القضية.

(ج) أما الحادثة الثالثة فبطلاها عنصران من المقاومة أحدهما مسيحي أردني من (الصاعقة) والآخر فلسطيني من (فتح)، وهذان العنصران من أهل مأدبا، ولا يمكن أن يجمعهما جامع للقيام بهذه المهمة، إلّا ارتباطاتهما بأجهزة الأمن، كانا يسيران على طريق مأدبا – عمان على قدميهما، وقبل التقاء الطريق بوادي الحبيس التقت بهم سيارة (بك آب) متجهة إلى مأدبا فأطلقا النار على السيارة، التي كان يقودها أكبر أبناء الشيخ زعل الكنيعان الفايز، ومعه طفله المريض، قاصداً الطبيب في مدينة مأدبا، فأصابت إحدى الطلقات الطفل وقتلته على الفور.

ولكي تصبح الصورة أكمل، سأعطي القارئ دلالة على التثقيف السياسي والتحريض العنصري غير الصحيح، والذي كانت تلقِّنه (فتح) لعناصرها ضد أبناء جلدتها (وأعني ضد الأردنيين كشعب). في ذروة الصراع في أيلول ١٩٧٠ كنت و(أبو صبري) قائد قوات العاصفة في (فتح) في (دبين) وكان معنا في المقر العديد من العناصر الشابة في (فتح). خرج أبو صبري وبقيت أنا وهؤلاء الشباب، والحديث دوماً في تلك اللحظات كان عن المعارك الدائرة في عمان بين النظام والمقاومة، وكان هؤلاء الشباب يقولون (الأردنيون) بديلاً عن النظام أي أن القتال دائر بين الأردنيين والمقاومة الفلسطينية، وكانوا يصفون الأردنيين أوصافاً، وينعتونهم نعوتاً لا يرقى إليها وصف، نعوت تقال في (اليهود). وطال الحديث وأنا جالس وأستمع إليهم، فانتبه أحدهم وكان يعرف من أنا، فأبلغهم ذلك، فأصابهم حرج كبير، فضحكت، (وشر البلية ما يضحك).

هذا غيض من فيض، من الأحداث المتشابهة الهادفة لتعميق الفرز في ساحة الأردن، فالأردنيون للملك حسين والفلسطينيون لياسر عرفات ويجب أن يعرف القارئ أن فتح والنظام ما كانا يترددان في القيام بأي عمل يخدم استراتيجيتهما هذه. وهناك إثبات

هام من الإثباتات الكثيرة التي تبين أن (فتح)، وأعني قيادة (فتح) كانت تستهدف الهزيمة أمام النظام. فقبل وصول الصراع بين المقاومة والنظام في الأردن إلى نقطة الانفجار الشامل، انتدب اللواء صلاح جديد الأمين العام المساعد في سورية الرفيق حسن الخطيب عضو قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي، في مهمة مضمونها التحادث مع قيادة فتح وبالأخص أبو عمار، والبحث معهم في رؤيتهم للصراع بين النظام والمقاومة في الأردن، وهل لديهم النية إذا ما أصر النظام على (كنس) المقاومة من على أرض المملكة الأردنية الهاشمية التعرض له والإطاحة به (وأنا هنا لست بصدد تقييم هذه الواقعة ومدى جديتها بل أوردها كواقعة مجردة). وعند التقاء الرفيق حسن الخطيب أبو عمار وبصحبته أبو أياد (يرحمه الله) وأبو اللطف، فاتحهما بالأمر، فأجابه أبو اللطف عن إخوانه قائلاً إنه ليس في استراتيجية (فتح) تغيير النظام في الأردن، أو فرض نفسها عليه. وهنا لا بد أن أذكر، أنني كنت أعي هذه الاستراتيجية مبكراً ولكن حينما يكون الواقع الجديد يفرض عليك إحدى حالتين: أما المسير وأما الوقوف، والوقوف هنا ليس وقوفاً مجرداً من معانية في ظرفه فإنك ستختار السير تحدوك آمالٌ متنوعة. ففي إحدى دورات المجلس الوطني الفلسطيني في مبنى الجامعة العربية في القاهرة كنت جالساً وحدي في صالة الجلوس، وكان هناك جلسة منعقدة، اقترب مني شاب صغير السن، جلس على طرف الكنبة التي أجلس عليها وقال لي، أنا مندوب (على ما أعتقد) صحيفة (الأخبار) المصرية، وقال: أريد أن أسألك سؤالاً، قلت له تفضل، فسألني حينها سؤالاً حول المقاومة وقيادة المقاومة، لم أعد أذكر صيغته الحرفية فأخذ إجابة قصيرة سهلة، ما كان يظن أنه سيحصل عليها بهذه السهولة والوضوح، ولما أخذها، نهض واقفاً مكتفياً بهذه الإجابة (التي لا أعرف إلى أية جهة سيهديها) قلت له: إن قيادة كهذه لا تستهدف التحرير. وكان هذا الصحافي الشاب هو طلال سلمان (صاحب ورئيس تحرير صحيفة (السفير) اللبنانية الآن) وواضح مما ذكرت أن النظام في الأردن وحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) وضعا القوة الحية في حركة المقاومة وفي الساحة الوطنية في الأردن بين (حجري الرحى للطحن) ولم يكن المستهدف بالطحن المؤسسات الفلسطينية كمنظمة التحرير الفلسطينية أو قيادة (فتح)، ولا حتى قيادة الصاعقة أو غيرها من القيادات، بل كان المستهدف بالسحق هو جوهر المقاومة، أداتها التي آمنت وصدقت ما قيل وما طرح من شعارات حول تحرير فلسطين، والتزمت واستعدّت وقدمت



التضحيات الجليلة من أجل هذا الهدف العزيز، هي جماهير المقاومة ومقاتلوها. وما إن حقق أبو عمار هذا الهدف على أرض الأردن، حتى انتقل إلى أرض لبنان يمارس عليها نفس الدور، وإن بصيغ ووسائل مختلفة نوعياً، تتوافق والواقع اللبناني، وما يحيط به من مؤثرات. وقد نجح في ذلك، بعد أن قدم اللبنانيون العرب والفلسطينيون العرب تضحيات جسيمة مادياً وبشرياً، ولا زالوا يقدمونها حتى يومنا هذا. أما سورية فلم يكن هناك حاجة لأن يقوم بمثل ما قام به في الأردن ولبنان إذ لم يكن هناك قوى حية تعارض نهج النظام. فمنذ ٨ آذار ١٩٦٣ قام حلفاؤه الاستراتيجيون، القابضون على زمام السلطة، بخطوات ثابتة ونهج ممرحل، شديد التمويه، مغطى بكل وسائل التضليل في العالم (غربه وشرقه)، يساره ويمينه، اشتراكياً ورأسمالياً حتى وصل المصير إلى الحركة التصحيحية، التي قادها الرئيس حافظ الأسد، والتي أجهز من خلالها على ما تبقى من حياة في الجسد السوري خارج إرادة النظام، إلى أن أصبحت سورية جثة هامدة لا تسري الحياة فيها إلّا من خلال رئة النظام.

إن كل من عايش وقرأ عن القضية الفلسطينية، يعلم أنه لم تحدث انعطافة بارزة في هذا المسار، إلّا وقد تم الإعداد لها منذ زمن طويل، وأنا هنا سأروي واقعة عرفتها وأنا لا أزال ضابطاً في الجيش. ففي موضوع (فتح) قلت ما استطعت أن أقوله من خلال تحليل استهدفتُ الموضوعية فيه. وطالما والاستراتيجية ومكوناتها يقوم بتنفيذها قادة قائمون عليها، لا بد لي حينها أن أذكر ما كنت أعلمه عن إحدى الشخصيات التي كانت مسؤولة عن قيادة المقاومة عسكرياً في العاصمة عمان. لقد كان العقيد أحمد عفاني (أبو المعتصم) قائداً لقوات (العاصفة) في محيط وداخل مدينة عمان، ومن موقعه هذا قائداً لقوات المقاومة كان ضابطاً في الجيش الأردني، وصل إلى رتبة عقيد مسؤولاً عن الإنشاءات العسكرية (كما كانت تسمى في حينه) وأصبح في مرحلة ما مسؤولاً عن التنظيم العسكري في الجيش الأردني لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). لا أعلم من أين التحق العقيد عفاني بالجيش الأردني بعد انضمام ما تبقى من فلسطين، وسمي بالضفة الغربية حينذاك. هل كان في قوة حدود شرق الأردن، أم من البوليس الفلسطيني، أم من الجهاد المقدس؟ ولكنني أعرف واقعة لم أعد أذكر الجهة، أو الشخص الذي دسها عليّ، وهي أن العقيد عفاني بعد التحاقه بالجيش الأردني، كان قد كلف هو وضابط آخر اسمه عطا المناصرة، بمهمة داخل فلسطين المحتلة.

لا أحد كان يعرف هذه المهمة، إلّا (كلوب وأصحاب المهمة). وفي عام ١٩٥٦ في حرب السويس كان الجيش الأردني محتشداً في حينه حول القدس وكان «الإسرائيليون» بحاجة ماسة إلى معرفة نوايا ومواقع وحدات هذا الجيش، الأمر الذي اضطرهم أن يستنفروا كل عملائهم وجواسيسهم ومنهم عطا المناصرة لهذه الغاية. وقد ألقي القبض عليه في حينها متلبساً بالجرم المشهود.

## د ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

لقد تحدثت عن كيفية تكوين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقلت بعد ذلك كيف تجزأت وكانت في المرحلة الأولى من تواجدها على الساحة الأردنية تشكل فصلاً رئيسياً يأتي من حيث الأهمية والخبرة بعد حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، وقد عرّفت بذاتها عالمياً وإقليمياً من خلال تكتيك اختطاف الطائرات الذي مارسته في بداية عملها، والذي أعطى المردود المطلوب. حينها أخذ الدكتور جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين موقفاً استراتيجياً سليماً، ورفض دخول إطار منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة (فتح) ولكن لسوء الحظ بقي هذا الموقف مجرد موقف، فهي لم تبادر إلى خلق تيار ذي مضمون فكري ونضالي، يعطي دلالات منطقية عن أسباب موقف الرفض هذا من دخول إطار الشرعية الفلسطينية في ذلك الحين، وتبين فيما بعد أن الموقف السليم هذا لم يكن نابعاً من رؤيا استراتيجية متعارضة مع رؤيا منظمة التحرير الفلسطينية والفصائل المكونة لها في حينه وإنما كان موقفاً (تكتيكياً) مجرداً، فبعد أيلول عام ١٩٧٠ وانقلاب الفريق حافظ الأسد بما سمي بالحركة التصحيحية في دمشق عادت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وانضمت إلى منظمة التحرير الفلسطينية. والمعروف تاريخياً أن مواقف حركة القوميين العرب السياسية منذ ولادتها كانت دوماً (تكتيكية)، فقبل الوحدة كانت لصيقة بعبد الحميد السراج وأثناء الوحدة التزمت الرئيس عبد الناصر وبعد حرب عام ١٩٦٧ غادرت هذا الالتزام بعد نقد مر لنظام البرجوازية الصغيرة، مصر وسورية، وتبنت الماركسية شكلاً، وأخيراً وليس آخر غادرت حركة القوميين العرب موقفها الاستراتيجي والمبدئي الداعي إلى وحدة العرب، ليصبح بعد ذلك فصيلاً من فصائل الثورة الفلسطينية. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا لم تستمر الجبهة خارج إطار منظمة التحرير الفلسطينية، خصوصاً بعدما تبين أن سبب هزيمة المقاومة في الأردن هو المقاومة؟ فالخط الاستراتيجي



الصحيح هو أن تستمر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين خارج إطار شرعية (فتح)، ولا سيما بعد أيلول في الأردن، لا أن تدخل منظمة التحرير بعد ذلك، إلّا أن خاتمة المطاف تعطي الدلالات الحقيقية على سيرة القوميين العرب، بعد أن وصل الأمين العام المساعد إلى غزة وتقاعد الدكتور جورج حبش عن مسؤولياته القيادية. ويبقى علي أن أنوه هنا بأن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أظهرت على الساحة الأردنية بعد الانتهاء من اختطاف الطائرات سلوكاً متميزاً، إذ كانت أنظف فصائل المقاومة الفلسطينية ممارسة وسلوكاً وكانت متميزة بانضباطها والتزام عناصرها الأخلاقي.

## هـ ـ الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين

لقد كانت الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين فصيلاً صغيراً في حركة المقاومة انشق عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والانشقاق هو في الكادر المتقدم للقوميين العرب في حينه، انشق هذا الكادر بقيادة نايف حواتمة وبعض الشبان صغار السن بينهم ياسر عبد ربه. وما كان هذا الانشقاق ليصل إلى النتائج التي وصل إليها لو لا الدعم والحماية اللذان تلقاهما من حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) والتنظيم الفلسطيني الموحد (الصاعقة)، وبعد أن تكونت الجبهة الديموقراطية تلقت الدعم المادي من (فتح) والتسليحي من (الصاعقة) وكان هدف هذين الإسناد والحماية هو من أجل إضعاف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأنا شديد الندم على هذا الفعل (لأن الأصالة في النضال هو جمع الصف وليس تفريقه) خصوصاً بعد أن أثبتت الجبهة الديموقراطية بممارساتها ونظرياتها على ساحة الأردن سواء السياسية منها أو القتالية ضد العدو، أنها منظمة ديماغوجية تقول ما لا تفعل.

سلكت هذه الجبهة خط اليسار الانتهازي، وذلك من أجل أن تميز نفسها عن الخط الماركسي اليميني الذي هو خط الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكذلك عن اليمين الإسلامي، الذي تمثله (فتح)، واليمين القومي الذي يمثله حزب البعث العربي الاشتراكي. هذا ما تقوله وتدعيه تحليلاً الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، وهكذا كانت الجبهة الديموقراطية تصف الفكر السياسي لفصائل المقاومة الرئيسية. والصحيح أنه لم يتواجد في صفوف الجبهتين الشعبية والديموقراطية من يعرف الماركسية بعمق، ولو كان غير ذلك لكان الخط النضالي الذي سلكاه استراتيجياً ومرحلياً مختلفاً

جذرياً، كان اعتناقهما للماركسية تكتيكاً له أهداف استراتيجية.

لسوء الحظ لقد مارس هذا الفصيل الصغير دوراً تخريبياً كبيراً بالغ الأهمية على ساحة الأردن عامة، وفي صفوف المقاومة الفلسطينية خاصة. فقد خدمت هذه الممارسات الشاذة مخطط الأطراف التي كانت تهدف إلى تصفية المقاومة. فعلى صعيد الناس، استقطب هذا الفصيل المراهقين المتطفلين، مشوهي النظرة إلى الحياة، ودفع بهم إلى الساحة يعيثون بها عبثاً وفساداً. وقامت عناصر الجبهة الديموقراطية بأفعال وأعمال مستهجنة إلى حد كبير ألحقت ضرراً كبيراً بسمعة المقاومة، فلم توجد عبارة أو جسر أو مكان مشهود من الناس، إلّا وخُطّت عليه بالدهان الأحمر (كل السلطة للمقاومة) تشبهاً بشعار ثورة أكتوبر الشهير (كل السلطات للسوفيت)، ولا واجهة بارزة تتجه إليها الأنظار، إلّا وعلقت عليها صور (لينين). حتى المآذن لم تسلم من هذا الفعل، كل هذه الأفعال المستهجنة والشاذة لم تكن تخدم إلّا مصلحة النظام، والأطراف التي توافقه النظرة لمستقبل العمل الفدائي.

لقد كان الرفيق نايف حواتمة الأمين العام للجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين الذي كانت تربطني به علاقة أكثر من حسنة، شديد الشوق لمعرفة نوايا الأطراف الأساسية في العمل الفدائي حيث كان كثير الزيارات لي، شديد التنبيه لي، بأن لا أقع ضحية لمناورات اليمين الرجعي أي (فتح) وأتفق وأتعاون معهم على قلب نظام الحكم، والاستيلاء على السلطة، فسيكون الأمر، حسب قوله، لصالحهم وسيصفّوننا فصيلاً بعد آخر. لقد كان هاجس تغيير النظام يرعب أبو النوف، أليس هذا منتهى عدم المصداقية! تملأ ساحات وجسور العاصمة بشعار (كل السلطات للمقاومة) وترتعب من فكرة تغيير النظام خوفاً من يمين المقاومة!!

## و ـ التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي (الصاعقة)

لا بد هنا وقبل أن أخوض في تاريخ تطور واقع التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي (قوات الصاعقة)، ولماذا فشل في المهمة التي من أجلها تكوّن، أن أبدأ بالأسباب التي قادتني أنا شخصياً إلى هذه الاتجاه، أي اتجاه ٢٣ شباط.



في سجن المزّة بدمشق، وبعد عدد من السنين من تسلم الحزب السلطة في العراق في تموز ١٩٦٨، استقر الأستاذ ميشيل عفلق في بغداد بعد أن استدعت الظروف السياسية في لبنان الرحيل عنه، وكنت أستمع إلى كل كلماته التي كان يلقيها من خلال إذاعة بغداد بمناسبة ٧ نيسان عيد ميلاد حزب البعث العربي الاشتراكي، وكانت أبرز نقطتين يطلقهما الأستاذ ميشيل عفلق (يرحمه الله) على الحكم في سورية، هما (التجمع المشبوه الذي أطاح بسلطة الحزب بانقلاب عسكري ـ وكأن الحزب وصل إلى الحكم في سورية، من خلال الديموقراطية أو من خلال ثورة شعبية)، (الحكم الطائفي في سورية الذي يدّعي شرعية الحزب).

في لقاء الأستاذ ميشيل مع مجلة (Time) الأميركية أو (News week) لم أعد أذكر، له فيها صورة مع طفليه في ذلك الحين، أهم ما قاله في هذا الحديث، أن ٨ آذار في سورية هي شقيقة ٨ شباط في العراق وصنوها، وهي مكملة لها. وهكذا يعتبر الأستاذ ميشيل عفلق في هذا الحديث، أن ٨ آذار في سورية هي ثورة قام بها حزب البعث العربي الاشتراكي، وهو هنا يساويها بثورة شباط التي قادها الحزب في العراق وأسقط خلالها نظام عبد الكريم قاسم، بقتال ضده وضد من والاه والتي قدم خلالها البعثيون تضحيات سخية. صحيح أن دور الجيش والعسكريين كان أساسياً، ولكنه كان ضمن مخطط الحزب ومعركته، وهنا يحق لي أن أوجه السؤال التالي للأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي كوني أحد ضحايا هذا القول، وأنا لست نادماً إطلاقاً على المسير النضالي الذي سرته، فهو قد أهّلني أن أعرف وأن اكتشف أموراً وحقائق مهمة فيما بعد، وأنا أحاول من خلال ما أقوله أن أعرّف الناس والبعثيين خاصة، أن انقلاب ٨ آذار في سورية لم يكن ثورة الحزب هناك، ولم يكن توأماً ولا صنواً لثورة الحزب في العراق، كما يقول الأستاذ ميشيل عفلق. وأنا لا بد أن أسأل الأستاذ ميشيل: من أين جاء هذا التجمع المشبوه، ومن أي رحم ولد هذا الحكم الطائفي؟ فهو طبعاً لم يسقط من السماء! بل ولد في رحم الواقع السوري، والأدق أنه ولد من رحم ثورة ٨ آذار كما يسميها الأستاذ ميشيل تجاوزاً. والأستاذ ميشيل من أكثر الناس معرفة بهذا الواقع، والحقيقة الأشد مرارة.

أن الأستاذ ميشيل، هو الذي منح الشرعية الحزبية للجنة العسكرية في المؤتمر القومي الذي انعقد في بيروت بعد خروج الحزب من السلطة في الجمهورية العربية المتحدة.

ومثّل اللجنة في هذا المؤتمر المقدم في حينه صلاح جديد، وأعضاء هذه اللجنة هم : محمد عمران، صلاح جديد، حافظ الأسد، عبد الكريم الجندي، أحمد الأمير، وكان اللون الطائفي شديد الوضوح فيها. وبقيت هذه اللجنة ترفع لافتة الحزب وتحكم باسمه حتى يومنا هذا، وظل ثابتاً متوارثاً حتى بعد أن غاب جميع أعضائها وآخرهم الرئيس حافظ الأسد.

إنني أعيد وأكرر لأن الأمر يزداد بالتكرار وضوحاً، ويصبح ميدان التساؤل فيه أوسع: هل مسلسل الخيبات المتكرر الذي قاد إلى الإحباط المتكرر وما وقع فيه الحزب من تناقض واضح بين فكره وبين النهج والفعل الممارس الذي قادته خلاله قيادته التاريخية، نتج من سوء تقدير وتقييم خاطئ للحدث والظرف بدأ بتأييد الانقلابات في سورية بعد الاستقلال والمشاركة في أسوئها دوراً بتسليم الحزب في الأردن عام ١٩٥٧ بسلطة لا أقول عنها إلّا أنها غير ديموقراطية، ومن ثم حل الحزب في جمهورية الوحدة لصالح صيغة قادت إلى الانفصال، ومن بعد ذلك سقوط ثورة ١٤ رمضان في العراق، أما ثالثة الأثافي، فكانت إضفاء شرعية حزب البعث العربي الاشتراكي على انقلاب ٨ آذار في سورية، وما قاد إليه هذا الاعتراف من وضع عنق سورية، في كماشة قد تقود إلى الموت؟؟؟

وطبيعي أن يقول أحدهم قولاً يدحض به هذه التساؤلات التي يحتضنها الشك: إن الحزب وعلى رأسه الأستاذ ميشيل عفلق قاد ثورة في العراق، ثورة وطنية وقومية حقيقية تجذرت بعمق، في نفس وسلوك الإنسان العراقي وخلقت إنساناً وواقعاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، ونهوضاً علمياً وصناعياً وتكنولوجياً، صمد لأعتى الأعاصير وأخطر المؤامرات وأكبرها وأحقرها وأقذرها (خمينية) صهيونية، إمبريالية أطلسية، شرقية وغربية ومعهم حثالات العرب وأنذالهم النفطيون وغير النفطيين. وأقول نعم وبدون تردد، إن الحزب قد بنى كل ذلك وفعل وصمد أمام كل ذلك، وأنعم به من حزب بعث عربي اشتراكي، لأنه وجد تربة صالحة فسوّاها، وخلق فيها ما لا نظير له في الواقع العالمي في حينه، ضمن واقع العراق الجغرافي والديموغرافي زمنياً وواقعاً اجتماعياً، ولكن حزب من هذا؟

نعم إنه حزب البعث العربي الاشتراكي الذي أسسه الأستاذ ميشيل عفلق ورفيقه آنذاك



الأستاذ صلاح الدين البيطار، وبنى أسسه الفكرية، ولكنه الحزب الذي لم يقده الأستاذ ميشيل ولا قيادته التاريخية، وأعيد وأكرر: إن الفكر وحده لا يقود إلى تحقيق أهداف هذا الفكر، وأن تطرح فكراً سليماً، وتقوده قيادة عاجزة أو مشبوهة، لهو أخطر من فكر غير سليم وتقوده قيادة قادرة. وقد عرفت مبكراً حقيقة ٢٣ شباط، ومع ذلك فإن هذه المعرفة لم تزدني إلّا إيماناً وتصميماً على استغلال فرصة أتاحتها ظروف استثنائية لبناء حزب بعث يكون حر الإرادة مستقلاً لا يحكم سلوكه النضالي إلّا مبادئه، ولا تقوده قياده إلّا بإرادة منتسبيه. وتجدّد عزمي وإيماني بذلك، بعد هزيمة الانظمة العربية في حزيران وإقبال الناس على الانخراط في صفوف المقاومة، وظني في حينه أن الفرصة التاريخية قد سنحت، وما على المناضلين الصادقين إلّا منحها جهدهم ومعرفتهم وأن نبني حزباً بمواصفات البعث وبمضمونه الذي ذكرت، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلّا بمدى زمني محكوم بالواقع الذي تعايشه وتحاول أن تتخطاه بالفعل الصحيح، وبعوامل عديدة أهمها الحلقة الأعلى أي القيادة التي تقودك. وإذا ما كانت هذه القيادة ممثلاً أميناً لفكر البعث ونهجه وأهدافه، حينها ينجح مسعاك وحينما لا تكون كذلك يكون مسعاك في خطر، خاصة ونحن في الأردن، لا نقود نظاماً، بل نناضل في ساحة مليئة بالقوى (المكونة) وغير الواضحة، وفي ظل نظام لا يزال قائماً صحيح أنه مهزوم وعاجز في حينه، ولكنه قائم وينتظر فرصة لاستعادة سلطانه.

## المؤتمر القومي العاشر:

إنني أذكر هذا المؤتمر هنا لسببين رئيسيين، أولهما وهو الأقل أهمية أنني انتخبت عضواً في هذا المؤتمر في القياد القومية للحزب، وثانيهما بروز الخلاف بين اتجاهين في المؤتمر، الأول يمثله الحزب بأكثرية المؤتمرين، والثاني تمثله وزارة الدفاع وبعدد قليل من المندوبين، والخلاف كان حول استراتيجيتين سياسيتين متعارضتين، الأولى يقول بها الحزب وقيادته استناداً إلى مقررات مؤتمراته القومية والقطرية، وهي لقاء القوى التقدمية إن كانت أنظمة أو منظمات سياسية وشعبية، والثانية تقول بها وزارة الدفاع وهي استراتيجية التضامن العربي.

والصحيح أن هذا الخلاف لم يكن السبب الذي قاد إلى الصراع ومن ثم إلى الانقلاب على الحزب في حركة تشرين عام ١٩٧٠ التي أطلق عليها فيما بعد (الحركة

التصحيحية). والحقيقة أن النهج الاستراتيجي المصمم لسورية، منذ تشكيل أول نواة تنظيم عسكرية في زمن الوحدة والتي سميت بالتالي اللجنة العسكرية، وأخذت شرعيتها الحزبية في مؤتمر بيروت للحزب، هو إلغاء دور سورية الرائد في الدعوة إلى الوحدة، ومن ثم الدخول في استراتيجية الأنظمة العربية التي تدعو إلى التسوية وثبات التجزئة، هذه الاستراتيجية التي تقوها أميركا وحلف الأطلسي والصهيونية العالمية.

## وأصبحت عضواً في القيادة القومية:

لقد رشحت نفسي في هذا المؤتمر للقيادة، لأسباب ذاتية أولاً وأسباب موضوعية ثانياً. إن الأسباب الذاتية التي دفعتني، كان أساسها حجب عضويتي عن المؤتمر القومي التاسع الاستثنائي، بالرغم من حقي المشروع في الترشيح غيابياً حسب نظام الحزب، بينما تمتع رفيقاي عضوا لجنة (تنظيم القطر) بهذا الحق، وانتخب كلاهما أعضاء في القيادة القومية. والأمر المثير للتساؤل أن الرفيق محمود المعايطة تمتع بعضوية المؤتمر وبعضوية القيادة التي انبثقت عن هذا المؤتمر، ممثلا في القيادة عن تنظيم الحزب في الأردن، دون أن يكون عضواً في هذا الحزب، ودون أن يكون هنالك حزب أصلاً. وانتخب وهو غائب، يعمل في الكويت. طبعاً إن هذا الأمر، من أي اتجاه تنظر إليه، يشير إلى الانتقاء. لماذا؟

إذا كان هناك حزب كحزب البعث العربي الاشتراكي، واضح الفكر، واضح الهدف يعمل لتحقيق أهدافه بواسطة أداته التي هي مناضلوه، فالأكفأ فهماً وتجربة، والأكفأ نضالاً وقدرة على القيادة، يتقدم الصفوف في الحزب، لكن الأمور في الحزب كانت غير ذلك في قياداته التاريخية المتتابعة قبل ٢٣ شباط، الأمر الذي يدل أن الغاطس في السياسة المستهدفة، يتناقض تماماً مع ما هو مطروح من فكر وسياسة في الحزب والدولة، ومع ذلك قررت أن أرشح نفسي لعضوية (قيادة الحزب)، فتحدثت إلى رفاقي أعضاء قيادة (التنظيم الفلسطيني الموحد) ومندوبي هذا التنظيم إلى المؤتمر، وبيّنت لهم نيتي وشرحت لهم مبرراتها فوافقوا جميعاً، إلّا الرفيق يوسف قطناني الذي قال لي بوضوح: إنني لن انتخبك، لأنك حينها ستغادر إلى دمشق (وهو لم يرد أن يقول إنك تهرب وتتركنا) والعمل في الأردن أهم، وهو في هذا لم يكن على خطأ، فالعمل في الأردن في حينه وفي كل حين، هو الأهم.



لم أتحدث في هذا الأمر مع أي رفيق آخر في هذا المؤتمر لا من المسؤولين الحزبيين، ولا حتى مع رفيقيّ مجلي نصراوين وحاكم الفايز، وهذه سابقة في تقديري قلما حدثت بتاريخ مؤتمرات الحزب، فالقيادات تخرج إلى الوجود من خلال الاتفاقات بين مراكز القوى في الحزب من جهة، وبين من يقودون تكتلات داخل مؤتمرات الحزب من جهة أخرى.

## الأسباب الموضوعية:

السبب الأول فيها، هو أنني أمين سر قيادة حزب وقائد لقوات هذا الحزب على الساحة الأردنية التي يخوض بها الحزب وقواته معركة نضالية جدية ومصيرية، من هنا فإن وجودي في القيادة الأعلى أمر هام جداً كي أضع هذه القيادة في الصورة الحقيقية للواقع، وأكون أنا أيضاً على بيّنة ومعرفة برؤية هذه القيادة وواقعها. والسبب الثاني فيها، كان احترازياً، إذ أحدثت القيادة القومية مكتباً جديداً يضاف إلى مكاتبها سمّته (مكتب العمل الفدائي)، وكنت أخاف أن يتولى مسؤولية المكتب أحد أعضاء القيادة، الذي قد تقود مسؤوليته عن هذا المكتب، إلى ارتباكات في عملنا نحن في غنى عنها.

ولهذه الأسباب رشحت نفسي لعضوية القيادة القومية بعد أن اتخذ المؤتمر قراراته وتوصياته، وقد حصلت على أقل الأصوات من بين أعضاء القيادة المنتخبين، والسبب في ذلك، أن تكتلاً قوياً في المؤتمر كان قد وقف ضد وصولي للقيادة.

## رئيساً لمكتب العمل الفدائي

بعد انتخابي عضواً في القيادة، تسلمت فعلاً (مكتب العمل الفدائي)، ولكنني لم أستقل لا من القيادة القطرية، ولا من أمانة سر القطر، وكان عليّ أن أخوض هذه التجربة لأقرر بعدها أي الخيارين هو الأبقى. وبعد أقل من شهرين من مسؤوليتي عن هذا المكتب، قررت العودة لتحمل مسؤولياتي في الحزب في الأردن.

بعد تسلمي مكتب العمل الفدائي، طلب إلي اللواء صلاح جديد الأمين العام المساعد

في حينه أن أتقدم بدراسة للقيادة القومية تتعلق بطبيعة مسؤوليات مكتب العمل الفدائي حيث أمضيت أكثر من أسبوع وأنا أعد هذه الدراسة، وبعد أن أنهيتها سلمتها إلى (الأمانة العامة) التي بدورها قدمتها إلى اجتماع للقيادة لمناقشتها. وأنا في الحقيقة لا أذكر عنوان هذه الدراسة ولا أي شيء عن مضمونها، ولكن من المؤكد أنها تتعلق بطبيعة العمل الفدائي الذي توليت مسؤوليته والارتقاء بأسلوب هذا العمل إن كان من خلال الحزب وقوات الصاعقة، وكل قوى المقاومة الفلسطينية، أو من خلال الأقطار المواجهة لهذا التحدي، ومنها القطر العربي السوري.

وفي اجتماع للقيادة مقرر لمناقشة هذه الدراسة، قال الدكتور إبراهيم ماخوس، عضو القيادة القومية في حينه: إن هذه الدراسة لا تتعلق بالموضوع المطلوب، فطويت الدراسة دون أن يقول أحد من أعضاء القيادة شيئاً فيها، حتى ولا أنا. والذي يظهر أن الدراسة كانت مطلوبة لذاتها، لأن مضمونها يدل على فهم صاحبها، أي إن وصولي للقيادة دون الالتزام بأحد أو طلب مشورة أحد، أمر غير مقبول، خصوصاً أن مفهومي كان متناقضاً مع المستور من الاستراتيجية، ومن هنا كان لا بد من أن أواجه أنواعاً من الابتزاز ومحاولات الترويض من النوع الذي واجهه أول جهد أقوم به كعضو في القيادة.

بعد تسلمي بفترة قصيرة قدم إلى القيادة القومية تقرير من مخبر يعمل في جهازي المخابرات الأردنية والسورية، ففي ثاني أو ثالث اجتماع أحضره، وضع أمام أعضاء القيادة ومنهم أنا، تقرير من شخص يدعى أحمد راشد عبد الهادي، كان رقيباً مسلحاً في سلاح المدفعية في الجيش الأردني في بطارية الميدان الثالثة التي كنت أقودها في ذلك الحين، أي في عام ١٩٥٣. اعتُقل هذا الرقيب ورقيب أول يدعى محمود نعيم في عام ١٩٥٩ لقيامهما بنشاط ضد أمن الدولة في الأردن، وبعد التحقيق معهما ثبت أنهما كانا يعملان لصالح المخابرات السورية، وأرسل إلى سجن الجفر، ثم خرج من السجن نتيجة العفو الذي صدر عام ١٩٦٢، وخرج الرقيب أحمد راشد عبد الهادي إلى سورية بعد أن جندته المخابرات الأردنية في صفوفها.

وواقع الحال أن المخابرات الأردنية والسورية مفتوحة قنواتها على بعضها البعض، وفي دمشق مارس مهنته كعميل للمخابرات السورية، وزادوه شرفاً، بأن أضفوا عليه عضوية



حزب البعث العربي الاشتراكي وعينوه عضواً في المؤتمر القومي التاسع الذي انعقد من أجل إضفاء الشرعية (على حركة ٢٣ شباط).

هذا المخبر الذي كان يعمل لأكثر من جهة، والذي اتضح أن له علاقات مع جهات عدة، مما جعل المخابرات السورية تعتقله لفترة طويلة. هذا المخبر تقدم بتقرير ضدي وضد الرفيق محمود المعايطة إلى القيادة القومية، ووزير الدفاع أيضاً، لماذا وزير الدفاع؟ ولم يكن بيني وبين هذا الإنسان عداوة شخصية تدفعه إلى هذه الإساءة، بل العكس هو الصحيح. لم أعد أذكر الكثير مما ورد في هذا التقرير، إلّا أنه حوى الكثير من التجريح والتهجم، فهو اتهمني بسوء الأمانة، وأنني في يوم إقالة (الفريق كلوب) وترحيله كان وجهي أصفر (أي أنني كنت خائفاً)، انظروا (كيف ينتقم الاستعمار بواسطة مجنديه)، يحاول تجريدي من فعل وطني باتهامي أنني كنت خائفاً.

ولما قرأت التقرير الذي وُضع أمامي وأمام كل رفيق موجود في ذلك الاجتماع، قلت للأمين العام المساعد الذي كان يرأس الجلسة، إنني سأتقدم بردي غداً على هذا التقرير. وفي اليوم التالي أرسلت ردي على التقرير إلى اللواء صلاح جديد الأمين العام المساعد في حينه، ولا بد أن يكون التقرير محفوظاً في الأمانة العامة (إن كان هناك محفوظات). وبعد هذا الرد لم يطرح الموضوع وطبعاً لن يطرح، لأن الهدف من هذا التقرير كان أن يكتب ويقدم لأعضاء القيادة، للتشهير وأن يقرأه كل رفيق ليعتبر، والهدف هو الابتزاز والإرهاب وفرض الإذعان، وإلّا فما معنى أن يُشهّر برفيق عضو قيادة منتخب من مؤتمر هذه القيادة بهذه الطريقة، التي لا تحدث إلّا في مؤسسات المافيا.

أما الواقعة الثانية والتي كانت أوضح من أن تجعلني أستمر في تفرغي في هذه القيادة، وإلا عليّ أن أكون جزءاً من واقعها (مثلي مثل ربعي) فقد حدثت هذه الواقعة في مكتب الرفيق مجلي نصراوي. كنت أجلس معه في مكتبه، وكنا نتحدث في أمور منها المقاومة الفلسطينية فبادرني قائلاً: (أنت شاد على بغلتك لويش)، أي لماذا أنت تأخذ الأمور بهذه الجدية، فثارت ثائرتي ووقفت مهتاجاً وقلت الكثير الذي لا يرضي وأنا في تلك الحالة، وخرجت من مكتبه، وحينها قررت العودة إلى الأردن.

## بعد العودة إلى الأردن

لقد كان هناك شقوق في بنيان القيادة القطرية، وهذه الشقوق كانت موروثة منذ مرحلة (لجنة تنظيم القطر). إن القيادة المنتخبة من المؤتمر القطري الأول، والتي كانت هي نفسها القيادة المعينة من قبَل القيادة القومية، كانت تمثل مرحلتها، وقد تطورت قدرات الحزب والقوات ونمت نمواً متسارعاً واتسعت قاعدته التنظيمية والشعبية، وأخذ زمناً مداه مريح نسبياً، فتطور واقعه الفكري والنضالي وأصبح أداة متميزة ومعتبرة، وكذلك شخصياته القيادية. والسبب الرئيسي في هذا النمو خارج القدرة على القيادة وإثبات الوجود، هو أن البعث (دين فطرة) كما يقال، ففكره ليس معقداً كالماركسية ولا حتى (كالرأسمالية الليبرالية) وأهدافه المجسدة بشعاره الواضح بسيطة الفهم، سهلة الإقناع للإنسان العربي، فالوحدة هي مطمح هذا الإنسان خارج دوائر ذوي المصالح السلطوية والمادية، الداخلية والخارجية، لأنه يشعر في ظل هذه الوحدة ذات المضمون الحر، بالأمن السياسي والاقتصادي، الأمر الذي لا تستطيع توفيره له (دول البيادق)، ويعرف أنه يستطيع العيش في واقع مادي دون عوز وأن مستقبل أطفاله مأمون، وفوق كل ذلك إنها قوة التقدم والقدرة في كل مناحي الواقع اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً إقليمياً ودولياً.

لقد كان فكر البعث الذي جسده شعاره في الوحدة والحرية والاشتراكية، كان ولا يزال يشكل نهجاً ثورياً للوصول إلى هدف الوحدة العزيز على كل إنسان. إن كل وطني ومثقف، يعلم أن التجزئة مفروضة بالقوة الخارجية، من خلال أدواتها في كل قطر. وقد قال البعث كلمته الصحيحة في كيفية معالجة ومقاومة هذه القوى الباعثة، وهو النضال من أجل تحقيق الحرية في هذه التجمعات، ففي ظل هكذا ظروف لم تعد القيادة قادرة على (جر العربة الثقيلة). وبعد انعقاد المؤتمر التأسيسي (للتنظيم الفلسطيني الموحد) جرى تعيين القيادة السابقة نفسها، وقد أضيف إليها رفيقان جديدان هما زهير محسن وإبراهيم البرغوثي، ولم تكن هذه الإضافة إضافة نوعية. وكما ذكرت، فإن عربة الحزب والقوات أصبحت أثقل من أن تجرها هذه القيادة، وهذا أمر طبيعي. ففي مرحلة النضال يجب أن تعزز أي قيادة بقادة في معظمهم بمستوى الأحداث، يمثلون مستوى التطور في الأداة التي يقودونها، من هنا فعلى أي قائد يقود واقعاً مثل ذاك الذي كنا نعيشه، إن كان في مستوى مسؤوليته أن يبادر إلى تصحيح هذا الواقع، وهكذا فعلت.



فلقد طرحت على القادة مجتمعين ومنفردين تصوري من أنه لا بد من إجراء انتخابات في الحزب والقوات، وعقد مؤتمر قطري يقرر العمل المرحلي والمستقبلي بالنسبة للتنظيم الفلسطيني الموحد، ويقيم واقع المقاومة على ساحة الأردن، ومن بعد ذلك ينتخب قيادة جديدة للحزب والقوات في الأردن لمواجهة المرحلة الصعبة المقبلة علينا. هذه الرؤيا السليمة والصحيحة فتحت في جدارنا (طاقة) هبت علينا خلالها تيارات عاصفة أربكت عملنا وأوقعت في صفوف القيادة انقسامات خطيرة. لماذا؟ هناك عوامل رئيسية أهمها أن هذه القيادة هي محصلة قوى في جزئها الأهم خارج إرادة الهيكل التنظيمي للحزب وقوات الصاعقة، وأبرز مراكز القوى هذه هي (أ) القيادة الأعلى (أي القيادة القومية) – (ب) المقاومة الفلسطينية وأهمها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) – (ج) النظام في الأردن.

### (أ) القيادة القومية

كل (قيادة أعلى) من صفاتها الأساسية الحرص دوماً على أن كل ما دونها ملتزم بقيادتها بغض النظر عن مضمون قيادتها هذه، وكذلك ملتزم باستراتيجيتها، فإذا كانت استراتيجيتها المعلنة صادقة أي أنها مؤمنة قولاً وفعلاً بالهدف المعلن (أي التحرير)، حينها تحرص على تطوير أداتها التي هي الحزب والقوات، من أجل تحقيق هذا الهدف، وإذا لم تكن كذلك، فإن كل ما تقوله وتفعله وتعلنه هو مرحلي، أي أن كل هذا الواقع المفروض والمخلوق بفعل القيادة، إن كان في القطر الذي تحكمه أو الحزب الذي تقوده على أية ساحة عربية أو أي واقع تساهم في وجوده (كالمقاومة الفلسطينية مثلاً) هو من أجل الوصول إلى واقع متناقض تماماً مع الأهداف المعلنة، ولا صدق إطلاقاً في كل ما هو معلن ومطروح على الساحة السياسية.

### (ب) المقاومة الفلسطينية وتأثيرها على التنظيم الفلسطيني الموحد

صحيح أن التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي كان يمتاز عن باقي فصائل المقاومة بأن منتسبيه كانوا يمثلون المجتمع الأردني، فلسطينياً وأردنياً، أي أنهم يتكونون من مجموع الشعب في الأردن، ويمكن اعتباره حركة وطنية على ساحة الأردن، بديلاً عن الحركة الوطنية التي ألغتها حركة المقاومة الفلسطينية، وكان بإمكان

التيار أن يزداد تميزاً ويفعل بالاتجاه الوطني فعلاً جدياً، لو أن القيادة الأعلى كانت صادقة في التزامها المبدئي بأيديولوجية البعث، ولو أن قطبي الرحى، المقاومة والنظام، كانا صادقين في عداواتهما (أي في تناقضهما) أو على الأقل أن الطرف المقاوم كان صادقاً بالتزام الكفاح بالسلاح من أجل الوصول إلى حق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه. (ففتح) والنظام، كان لهما هدف استراتيجي واحد هو التسوية من خلال التفاوض تحت مظلة الولايات المتحدة الأميركية، بغض النظر عن الصراع الجاري بينهما والذي كان يستهدف حقيقة تنظيف الطريق من العوائق أمام هذا الاتجاه، (والواقع يفرض نفسه بواسطة قواه). هذا الصراع المظهري بين النظام والمقاومة سرّب (جرثومة) فلسطيني ـ أردني إلى الهيكل التنظيمي للحزب والقوات بمن فيه القيادة، فالنظام يمثل الأردنيين والمقاومة تمثل الفلسطينيين وكلا الطرفين النظام والمقاومة كان لهما ممثلون في قيادتنا، ولا يمكن الخروج من هذا المستنقع إلّا بفعل متميز، الطريق إليه مسدود. ولم يكن الاحتكاك بأشكال مباشرة، بل أتخذ أساليب غير مباشرة، منها مثلاً: كان مكتب الأمن في القيادة المسؤول عن أمن الحزب والقوات كأي مكتب أمن، له أساليبه غير المرتبة ومصاريفه كذلك، وفي ذروة الصراع بين النظام والمقاومة، تقدم الرفيق أحمد اليماني إلي بتقرير خطي، يتهم فيه مكتب الأمن في القيادة القطرية باتهامات أهمها، سوء التصرف بالأموال، وسوء التصرف بالمسؤولية. ومن أشكال الاحتكاك أنه صدر عن الرفيق يوسف البرجي، في العديد من المرات ولأكثر من شخص، منهم أعضاء في القيادة، أن الرفيق أحمد النجداوي هو عميل للمخابرات الأردنية، والغريب في الأمر أن الرفيق يوسف لم يكتب تقريراً خطياً يُضمّنه هذا الاتهام، وكنت أعرف أن الرفيق أحمد النجداوي له صلة بـ (محمد رسول) إلّا أنني مع ذلك لا أستطيع اتهامه ضمن ظروف المرحلة وواقعها. أخذ هذا الاتهام بعداً جدياً حينما قررت القيادة القومية التحقيق في هذا الأمر دون أن تسألني رأيي ودون أن أكون على علم بالأسباب التي جعلت القيادة الأعلى تقرر ذلك، وأنا المسؤول الأول في هذه القيادة وعضو أيضاً في القيادة الأعلى. أرسل الأمين العام المساعد الرفيق فوزي رضا رئيس مكتب التنظيم القومي للتحقيق في هذا الأمر، وبعده أرسل الأمين العام المساعد الرفيق مصلح سالم عضو القيادة أيضاً للتحقيق في هذا الأمر، وقد يستغرب القارئ أنني، وأنا المسؤول الأول في قيادة (التنظيم الفلسطيني الموحد) لحزب البعث العربي الاشتراكي، لم أُسأل لا من بعيد ولا من قريب عن هذا الأمر الذي يجري حولي، وفي



قيادة، أنا أقودها مما جعلني ـ بالفطرة ـ أبتعد، حتى أنني لم ألتقِ أياً من الرفيقين اللذين وصلا إلى عمان تباعاً لهذه الغاية، مع أن واجبي أدبياً يفرض علي أن ألقاهما وأن أحتفي بهما وهما صديقان لي.. لماذا؟ لأنه كان لدي شكوك حول القضية وأهدافها، من أنها مخلوقة في ذلك الظرف لإرباك عملنا، وقد قلت رأيي هذا إلى الرفيق فوزي رضا ـ رئيس مكتب التنظيم القومي، قلت له إن (الدلف يأتينا من السقف) أي أن الحال في قيادتنا هو ناتج من تدخلات القيادة الأعلى، وقد أبلغ الرفيق فوزي رضا رأيي هذا للأمين العام المساعد اللواء صلاح جديد.

هذا الواقع الانقسامي في القيادة القطرية للتنظيم الفلسطيني الموحد، وهو انقسام نابع من الواقع وناتج عنه إن كان في ما يتعلق بتكوين القادة وقدراتهم، أو الواقع السياسي الانقسامي في الساحة الأردنية وتصحيحه واجب، وهو من مسؤولية القيادة الأعلى التي كان حالها أسوأ من حالنا في ذلك الحين، وما كان يمكن أن يتم تصويب عمل قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد إلّا بإجراء انتخابات في الحزب والقوات من أجل قيادة جديدة تكون في مستوى المرحلة.

ولما دعا الأمين العام المساعد قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد إلى اجتماع برئاسته كنت مقتنعاً أن المناقشة في أسباب انقسام هذه القيادة ستقود بالتالي إلى إقرار القيادة الأعلى بضرورة إجراء انتخابات من أجل قيادة جديدة للتنظيم الفلسطيني الموحد.

جرى هذا الاجتماع في قاعة اجتماعات قيادة القطر السوري، وقد حضره من القيادة القومية الرفاق الأردنيون أعضاء هذه القيادة. وقد أدركت بعد أن انتهى الاجتماع، لماذا قاعة اجتماعات قيادة قطر سورية؟ لأنها مبطنة من الداخل (بالأسبست) الذي يمنع تسرب الأصوات العالية إلى الخارج، ومن هنا يبدو أن الأمين العام المساعد كان على اطلاع مسبق على مضمون ما سيقال في هذا الاجتماع، وظن أنه ستنشب معارك أقلها كلامية صاخبة. وحين افتتاح الجلسة، تحدث فيها معظم الرفاق أعضاء قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد ولم يتحدث أي من الرفاق أعضاء القيادة القومية، ولا حتى الأمين العام المساعد رئيس الجلسة، وصاحب المبادرة. تحدث من الرفاق أعضاء قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد على التوالي: أحمد النجداوي، وهاجم الهنداوي يرحمه الله، وأحمد اليماني. وكانت المفاجأة الكبرى أن حديثهم لم يتناول أسباب

الانقسام في القيادة ولا حتى القضية التي حقق فيها أعضاء قياديون حول اتهام الرفيق النجداوي بأنه عميل للمخابرات الأردنية، وإنما انصبّ الحديث هجوماً عليّ اتهاماً وتجريحاً، ولم أعد أذكر بالطبع كل ما قيل، إنما النقاط الأبرز في حديث أحمد النجداوي هي اتهامه لي بسوء الأمانة، وقضايا أخرى كثيرة، فهو محام، فيما اتهمني الرفيق هاجم (رحمة الله عليه) بأنني أحاول تصفيته، أما أحمد اليماني فالذي قاله لا يعلق في الذاكرة. وأهم ما في الأمر أنني لم أجد بين أعضاء القيادة التي أقودها من يدافع عني، صحيح أن أحداً لم يهاجمني غير هؤلاء الثلاثة، ولكن أحداً لم يدافع عني أمام هذا الهجوم اللئيم، حتى أقرب رفاقي، لماذا؟ لا شك أنه كان هناك جو مهيأ من قبل أشخاص متنفذين في القيادة الأعلى كنت خالي الذهن منه تماماً، جعل أكثر الرفاق قرباً مني يتهيب أي قول لصالحي، وإلّا ما معنى ذلك؟ فأنا لم أقد هذه القيادة لمدة تقارب الأربع سنين بإرادة مني فرضتها على أعضائها! وبعد أن أنهى الرفاق أعضاء قيادة التنظيم الفلسطيني الموحد كلماتهم رفع الأمين العام المساعد الجلسة للاستراحة من أجل أن يعطيني مهلة كافية للرد على الاتهامات التي وجهت إلي، إلّا أنني خيبت مسعاه في التقرير السنوي الذي يكتبه قادة الوحدات العسكرية عن مرؤوسيهم من الضباط، فقد قال قائد كتيبة مدفعية الميدان الأولى التي كنت أحد ضباطها، (أقود فيها بطارية الميدان الثالثة) قال عني في تقريره السنوي: إنه ضابط جيد جداً. وفي الوصف قال من بعض ما قاله (you con not predict his reaction) أي أنك لا تستطيع التنبؤ برد فعله، وهذا ما حدث في تلك الجلسة.

والحقيقة أنني أنا بذاتي لم أكن قادراً على التنبؤ بهذا الموقف الذي اتخذته من هذا الهجوم اللئيم والهادف. لم أخرج مع الذين خرجوا للاستراحة، ولم أتحدث مع أحد، وقد أوجعني رأسي وجعاً شديداً وسدت أمامي جميع منافذ التفكير من الألم والغضب، وحينما عادوا إلى الاجتماع وجدوني أقف في مكاني الذي أجلس فيه. ماذا يمكنني أن أقول رداً على أحمد النجداوي الذي اتهمني بسوء الأمانة، فإذا كان إنسان مثلي لديه هذه النقيصة؟ إذاً ما هو مبرر سيره في هذا الطريق الصعب والشاق، وإذا افترضنا أن ظروفاً معينة فرضت الأمر عليه في المرحلة الأولى من السير على هذا الطريق فماذا يعني استمراره بعد أن انفتحت الأبواب أمامه ودامت مفتوحة؟ وبماذا يمكن أن أرد على الرفيق هاجم، من أنني أسعى لتصفيته، لماذا تصفيته؟ من أجل



الاستحواذ على ملك أو سلطة، كيف يمكن أن يأتي ذلك ببال رفاق ليس أمامهم ما يتنافسون عليه سوى الموت؟.. ومن هنا لم أجد وسيلة منطقية للرد سوى عدم الرد على هذه الشتائم، واكتفيت بالقول رداً على كل ما قيل، إنني أقود قيادة منقسمة في واقع منقسم ومنهزم، وأنا لا أملك مسؤولية تصحيح وضعها، ومن هنا فأنا أمسك بواقعها من الوسط، هادفاً أن أبقيها إلى أن يتواجد حل لحالتها هذه.

وبعد هذا القول انفض المنتدى دون أن يقرر أمراً أو يجري تعقيب من أحد. وبدلاً من معالجة الأوضاع في قيادة التنظيم، زادها هذا الاجتماع عمقاً واتساعاً. وطبعاً لم تكن النتيجة المتوخاة من عقد هذا الاجتماع هي ما حدث، إن هذا الاجتماع الذي جاء مضمونه مغاير لانعقاده، ذكّرني بتقرير أحمد راشد عبد الهادي الذي ذكرته سابقاً، ولكن ذلك التقرير كان البداية، فإن لم تذعن فهناك البدائل الأكثر جدية والأعمق معنى، والأبلغ إساءة!! وكان علي أن أتخذ موقفاً أقله الاستقالة من أمانة سر القطر وقيادة التنظيم، وهذا بتقديري أقل ما توقعه المسؤول عن هذا المخطط، خاصة وقد هددت بالاستقالة أكثر من مرة، فلماذا إذاً لم أقدم استقالتي في ظرف جميع الطرق فيه مسدودة أمام الصادقين؟ وقد أعطوني المبرر، وفتحوا لي طريق الهرب. هناك عوامل عديدة دفعتني إلى عدم تقديم استقالتي، أهمها ذاتي، ومنها (أ) إنني حينما أشعر أن هناك من يحاول من خلال أساليب غير شرعية هدفها النيل مني كمناضل يعرف أهدافه، وحريص على هذه الصفة، فأنا أتخذ الموقف المضاد تماماً، لأنني لا يمكن أن أسمح لهؤلاء المتآمرين المعروفة مقاصدهم أن يحققوا هدفهم. (ب) إن التخلي عن مسؤوليتي في حينه يعني أن أتخلى عن النضال، وبالتالي عن عضويتي في حزب البعث العربي الاشتراكي الذي سيتبعه التخلي عن كل موقع قيادي أنا عضو فيه، وذلك هو المطلوب، ومن هنا كان لا بد لي أن أستمر في الواقع والموقع اللذين أنا فيهما، وإلا صار الأمر هروباً يتناقض والمعاني التي أتمثلها، الأمر الذي حاوله معي وصفي التل رئيس وزراء الأردن في حينه وكذلك الدكتور كمال الشاعر، فاخترت سجن المزة بديلاً عن ذلك. (ج) تغيير الموقع: إن هذا الأمر خارج تفكيري، فعدا عن هذه الحقيقة فليس هناك في الساحة الوطنية في الأردن ولا في ساحة العمل الفلسطيني، من يمكنني النضال في صفوفه، بديلاً عن حزب البعث العربي الاشتراكي. وإثباتاً لهذه القناعة، أسوق للقارئ الواقعة التالية، فبعد قيام «الحركة

التصحيحية»، والتي كان أبو عمار من مؤيديها، وعرف أبو عمار أنني لا يمكن أن أكون في صفوفها، وعرف أن العهد الجديد في سورية ينوي الاستيلاء على الحزب وقوات الصاعقة، وفي طريقي إلى بيروت في أحد الأيام لحقت به بعد بلدة (شتورة اللبنانية، فلما رآني في سيارتي، توقف وجاء وركب معي، وكان يركب معي في السيارة الرفيق حسن الخطيب، واجهني وقال، يا أبو موسى، إنني أعرض عليك الانضمام إلى (فتح) وأنا سأعينك قائداً للقوات في جنوب لبنان، فابتسمت فعرف جوابي، لماذا؟ لم أقبل هذا الموقع وهو من أشرف مواقع النضال وأنبل المهمات، لأنني كنت أعلم علم اليقين بأن أبو عمار لا يستهدف تحرير شبر من الأرض الفلسطينية بالكفاح المسلح. وفي ذلك اللقاء تحدث إليّ عن نفسه لأول مرة، قال: والله يا أبو موسى إنني تركت كل شيء لي في الكويت وهو مال كثير، وموقع عمل، والتحقت بما أنا عليه الآن في المقاومة.. وفيما هو يتحدث جرت واقعة حبيبة إلى النفس الإنسانية، مرت بنا سيارة كويتية في طريقها إلى بيروت فرأى ركابها سيارته وعليها (إيريال) جهاز الإرسال، فتراكض الأطفال إلى الشباك الخلفي للسيارة ورأوه وبدأوا يلوحون ويحيونه وهم فرحون، وطبعاً هم أطفال فلسطينيون، فالتفت إليه حينها، وقلت له صادقاً: هذا أجدى وأبقى يا أبو عمار.

هذا هو واقع التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي في ذروة الصراع على الساحة الأردنية والساحة السورية نظماً ومقاومة، هذا التنظيم الذي يعتمد في تمويله وتسليحه على القطر السوري يدفع إليه هذا التمويل شهراً بشهر وتحرص القيادة في سورية، خصوصاً وزارة الدفاع، أن تكون موجودة في المفاصل الأساسية لقوات الصاعقة ضمن هذا الذي بينت. هل يستطيع هذا التنظيم شق طريق مختلف ومضاد لقوى التسوية في حينه؟ كلا إنه لم يكن قادراً على فعل ذلك.

### الرفيق أحمد النجداوي

عليّ قبل أن أغادر هذا الموضوع أن أقول كلمة حق بحق الرفيق أحمد النجداوي، إنني لم أتعرف إلى أحمد النجداوي ولا إلى تاريخه النضالي، إلّا بعد أن عينته القيادة القومية عضواً في القيادة القطرية المؤقتة، بتوصية من الرفيق حاكم الفايز عضو القيادة



القومية في حينه. كان الرفيق أحمد النجداوي حزبياً قديماً، ويعتبر من الكادر المتقدم في الحزب منذ الستينيات، كان عضواً في القيادة القطرية بين أعوام ١٩٦٤ – ١٩٦٦، وأظنه هو كاتب الرسالتين اللتين وجهتهما القيادة في ذلك الحين إليّ فأسلوبهما أسلوب قانوني متمرس قادر على الاستفزاز. حضر المؤتمر القومي الثامن للحزب، وانتخب عضواً في هيئة المؤتمر، استقال من عضوية القيادة قبيل اعتقالها في شباط عام ١٩٦٦ بعد أن أصدرت بياناً تدين فيه حركة الثالث والعشرين من شباط، هل يعني هذا أنه استقال لأنه ضد الإدانة، ومع حركة ٢٣ شباط، التي انضم إلى صفوفها بعد ذلك؟ سترى أن هذا لم يكن السبب، لأنه بعد سقوط حزب حركة ٢٣ شباط، حاول العمل «مع الحركة التصحيحية» التي لم تستطع التعامل معه، فانتقل للعمل بعد ذلك (مع حزب القيادة القومية)، وأصبح من أبرز شخصياتها في فترة معينة، لم يتواجد بعثي عضو في القيادة أو كادر متقدم في الحزب، عضو عادي، نصير أو صديق للحزب، إلّا وتناولته المخابرات الأردنية، سجناً وجلداً، وأقلها التحقيق، إلّا الرفيق أحمد النجداوي الذي كان يلبس دوماً (طاقية الإخفاء).

### القوات العراقية في الأردن

كانت القوات العراقية المتواجدة على أرض الأردن، والتي كان قوامها فرقة مزودة بكل أسلحة إسناد الفرقة، وهي ليست طرفاً مباشراً بالصراع بين النظام الأردني والثورة الفلسطينية، ولكنها لا بد أن تتصرف أمنياً وسياسياً بطريقة تخدم بالتالي نظرة العراق السياسية للوضع في الأردن، وتأثيره على رؤية العراق الاستراتيجية للوضع في الإقليم في حينه، وكان الاتجاه السياسي لبعض القادة العراقيين أمثال الفريق صالح مهدي عماش، والفريق حردان التكريتي شديد الوضوح، فالفريق حردان التكريتي والفريق صالح مهدي عماش كانا دائمي الإقامة في الأردن بأسلوب تناوبي، وبالرغم من أساليب التكتيك والمناورة للتمويه على الرؤيا الحقيقية للعراق، كان العراق مع استقرار الوضع في الأردن والحفاظ على نظامه.

هذا الأمر أثار نقداً شديداً في صفوف البعثيين على اختلاف موقعهم التنظيمي، خصوصاً أن القائدين الموكل لهما تنفيذ هذه السياسة كانت معروفة اتجاهاتهما السياسية الموالية للغرب، ولكن (بعد أن ذاب الثلج وبان ما تحته) واتضحت مواقف الأطراف إن في

المقاومة أو في كل ما يحيط بفلسطين، تبين أن كل ما قيل بحق القيادة السياسية للعراق حتى وإن كان في صفوفها في حينه حردان التكريتي كان ناتجاً من:

أولاً: من الضيق الشديد الذي كانت تعانيه المقاومة ولا سيما المقاتلين والقادة الذين لا يعلمون ما هو المخطط.

ثانياً: إن العراق لا يستطيع أن يتجاوز منظمة التحرير وخصوصاً حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، التي كانت تقود منظمة التحرير الفلسطينية، وبالتالي الشرعية الفلسطينية، والتي لم تكن تسعى إلى تغيير النظام.

ثالثاً: لو تدخل العراق بالصراع لصالح أطراف معينة في المقاومة، وأعني بهم البعثيين ومن يحالفهم، لتطور الصراع في الأردن إلى صراع إقليمي تتدخل به أطراف دولية، والأهم أنه سيخلق واقع عشوائي، ستكون نتائجه مدمرة على كل الواقع وأهمه واقع ومستقبل الحركة الوحدوية، ومع أننا مسؤولون قياديون أمضينا سنين طويلة في النضال والعمل السياسي، إلّا أننا لا نعرف حتى البديهيات في العلاقات بين الدول.

إن موقف قيادة العراق في حينه كان بستند إلى:

(أ) شرعية وجود قواته في الأردن.

(ب) موقف قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وخصوصاً حركة (فتح) التي تقود شرعية العمل الفلسطيني.

(ج) أن العراق لا يستطيع إطلاقاً المساعدة على خلق واقع مضطرب في الأردن، وحافظ أسد في سورية، يسد عليه كل المنافذ إلى الغرب عبر سورية.

إن أي اضطراب وعدم استقرار على حدود العراق الغربية، يفتح عليه ميداناً واسعاً للاحتمالات الخطرة مع كل ما يحيط به. إلّا أن الأمر سيكون مختلفاً جذرياً، لو أن المقاومة موحدة الاستراتيجية والهدف وتتمتع بحقها في الدفاع عن وجودها وحقها في قتال العدو، للوصول من خلال الفعل المسلح إلى حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره على أرضه ووطنه، حينها سيجد العراق وغيره، أن الباب مسدود أمام المناورات السياسية، وما عليه إلّا أن يسحب قواته من الأردن أو أن يقاتل المقاومة.



## تصاعد وتيرة الاستعداد من أجل الحسم

لقد أعد النظام نفسه لليوم الموعود، وكانت الأربعة عشر بنداً التي أصدرتها وأعلنتها حكومة الأردن، قيوداً على حرية نشاط المقاومة ضد العدو والتي جرى التفاوض بشأنها دون الوصول إلى حل. كانت هذه القيود هي المنطلق الذي تصاعدت وتيرته وصولاً إلى أيلول. فقبل أسبوعين من حلول هذا الشهر، انفجر القتال في كل المواقع التي بها مقاومة وجيش، وكانت الواقعة التي آلمتني وأشعرتني بالغيظ واليأس، هي أن النقيب علي قاسم من جيش التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) كان معاراً لقوات الصاعقة، ويعمل في صفوفها يقف على مضخة بنزين في مدينة (صويلح) (ساه ـ لاه) فداهمته مجموعة مغاوير من الجيش الأردني وأردته قتيلاً. ولما وصلني هذا النبأ ضمن الأنباء التي كانت تتوارد عن تصاعد القتال في كل المواقع بين الجيش والمقاومة، حينها أرسلت برقية للقيادة في دمشق من خلال جهاز الاتصال الموجود في قيادتنا في عجلون. لا أتذكر نص هذه البرقية، ولكن أساس مضمونها (العمل على حماية المقاومة) التزاماً بمبادئ البعث. وبالتأكيد إن طلبي هذا لم يكن يعني إطلاقاً تدخلاً عسكرياً مباشراً، فهناك وسائل أفعل وأقل ظهوراً ومباشرة.

## الوساطات

في غمرة الأحداث وتصاعد الصراع، وكما هي عادات الحكام العرب، تكثر الزيارات والوساطات من أجل حل الخلاف وتسويته حسب رؤيا هؤلاء الحكام. وكان أول الوافدين وفد سوداني وزاري يرأسه الوزير في حينه (أبو عيسى) ونظام النميري في حينه في ذروة إشعاعه المزيف. وكان الوفد يضم الرائد حمد الله والرائد مأمون أبو زيد، وهما ضابطان مسؤولان في قيادة النظام ويمتازان بالفهم والوعي السياسي. التقى الوفد مع قيادة (فتح) في مقرها في جبل الحسين، ولا أعرف لماذا كنت موجوداً هناك في حينه. بدأ الحديث (أبو عيسى)، ولم يتحدث غيره أثناء وجودي، تحدث عن وجهة نظره في كيف يجب أن تكون استراتيجية المقاومة، وأساسها عدم التدخل في شؤون الأنظمة، وهنا قاطعته قائلاً بما معناه: إذا كانت الأنظمة لا تسمح بالنضال والقتال من أجل فلسطين، فكيف يمكننا الوصول إلى فلسطين؟ فرد علي بما معناه: (وأنت ما هي علاقتك)، فما كان مني إلّا أن انسحبت من الاجتماع (هذا الأبو

عيسى) عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني أقوى الأحزاب الشيوعية العربية، وأصدقها التزاماً وطنياً وأكثرها استقلالية، شق حزبه لمصلحة نظام (الفلاشا) وارتقى سلالم الانتهاز والزيف، حتى تربع على عرش أمانة الاتحاد العام للمحامين العرب، فإذا كنت أنا لا علاقة لي بفلسطين وهي أرضي ووطني تاريخياً منذ أن استقر الإنسان على هذه الأرض، فما هي علاقة (الأبو عيسى هذا) بتحديد استراتيجية النضال من أجل حق الشعب العربي الفلسطيني بأرضه، إلّا لكونه مجنداً في خدمة المخطط الذي يقول إن تاريخ هذه الأرض وإنسانها يبدأ من اتفاقية (سايكس - بيكو).

وتبيّن لاحقاً أن هذه الزيارة كانت زيارة استطلاعية تمهيداً لوساطة النميري التي كانت في حينه في باطن الغيب. أمضينا شهرين قبل أيلول ونحن في صراع دائم مع النظام، اتفاق على وقف إطلاق النار، وخروج دائم على وقف إطلاق النار، وفي أحد هذه الأيام قبل حلول شهر أيلول، وكان الفريق مشهور حديثة حينها رئيساً لأركان الجيش، وكنا قد أبرمنا معه للتو اتفاقاً لوقف إطلاق النار، بعد هذا الاتفاق مباشرة كنا أنا وأبو عمار، وأبو أياد وأبو اللطف، في قيادة (فتح) في جبل الحسين، وما هي إلّا أقل من عشر دقائق على سريان هذا الاتفاق، إلّا وبدأت قذائف المورتر ٤/٢ تتساقط على الموقع الذي كنا فيه، وحينما أصبح الأمر خطيراً قلت لأبي عمار والإخوان: فلننتقل إلى مقر الاتحاد النسائي لحزب البعث، وكانت دارة بين مجموعة من الدور الحديثة المتلاصقة، محمية بعمارات على جانبيها أعلى منها، وكانت لا تبعد عن مقرنا الحالي بأكثر من خمسين متراً. فانتقلنا إلى هناك، وما هي إلّا خمس دقائق من وصولنا إلى هذا المكان، حتى عادت القذائف تنهمر على مقرنا الجديد، الأمر الذي يدل أننا كنا متابعون من (ضابط ملاحظة) يشرف تماماً على تحركاتنا وموقعنا، وكان الرامي شديد الدقة، الأمر الصعب في المورتر ٤/٢. فبالرغم من موقع الدارة المتداخل مع العمارات الأخرى، إلّا أنه كان يصيب هذه الدار إصابات مباشرة، الأمر الذي اضطر أبو عمار أن يلجأ إلى أحد بيوت الجيران وبقينا أنا وأبو أياد (يرحمه الله) وأبو اللطف فتوجهت إليهم بالقول: يا إخوان، لا يوجد هناك حل وسط (يا يذبحنا هذا النظام يا نذبحه)، ونحن قادرون على ذبحه إذا اتفقنا على ذلك، فقال أبو إياد: هل عندك إمكانية؟ وشعرت حينها أنه يقصد معرفة إمكاناتنا خاصة داخل الجيش الأردني. قلت له: إذا اضفت إمكانات (فتح) فأنا متأكد أننا قادرون على ذلك، وأنا سأقول لك عن إمكاناتنا



داخل الجيش بالرغم من يقيني أنك لا تستهدف إلّا معرفة هذه الإمكانات، وأخبرته عنها. أما أبو اللطف فلم يعلق، عرفت حينها (أنني أنفخ في قربة مثقوبة). وبعد يوم حادثة المورتر هذا وفقداني الأمل نهائياً بعد كل حديثي هذا سالف الذكر، قررت الخروج من مصيدة المغفلين هذه، وخرجت من عمان ولم أعد إليها إلّا تحت علم جامعة الدول العربية برئاسة الباهي الأدغم.

توجهت إلى قيادة قوات الصاعقة في عجلون، وكان يتواجد فيها الرفيق علي أبو الهوى، حيث لم يكن في هذه المنطقة أي احتكاك بين الجيش والمقاومة، مع أنه كان يوجد فيها لواء مشاة على بعد كيلومترين إلى الجنوب من موقع قيادتنا، كان يقوده في ذلك الحين المقدم سعد صايل (يرحمه الله) يعسكر في أرض نسيطر عليها من جميع اتجاهاتها. وفي موقع قيادتي هذا، لم أكن على تماس بالأحداث ولا على بينة مما كان يجري، فسرت إلى جرش، فهناك في دبين كانت قيادة العاصفة بقيادة أبو صبري والمسؤول عن جميع قوات العاصفة خارج عمان، وكانت لديه وسائل اتصال بكل موقع لقواته، وفي جرش أيضاً كانت قيادة جيش التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) وكان لديهم اتصال بعمان وبدمشق أيضاً، وهناك تشكلت قيادة من أبو صبري والعقيد بهجت قائد جيش التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) وأنا كقيادة للمقاومة خارج عمان. وفي واقع أنت لا تقوده، وليس لك استراتيجية مستقلة عن استراتيجية من يقود، فأنت حينها لا تستطيع أن تنفذ رؤياك المتناقضة مع رؤيا من يقود، فليس أمامك حينها إلّا أن تصبح تابعاً لصاحب القرار. ومن هنا فإننا لم نستطع القيام بأي فعل ذي قيمة، سوى إرسال بعض المقاتلين في محاولات يائسة لمساندة المقاتلين في عمان، وكانت هذه النجدات لا تتجاوز مخيم البقعة.

وفي ذروة الأحداث قصدت قيادة أبو صبري في (دبين)، وقبل وصولي إلى مقر القيادة، وجدت أبو صبري يقف مع شخصين هناك، فترجّلت من سيارتي، وتوجهت إليهم فإذا المقدم سعد صايل بلباسه العسكري، وشاب من (فتح) كنيته حمدان، شاب ممتاز كان ينظر إلى كل ما يفعله أبو صبري بازدراء. سلمت على سعد، وكنت أعرفه معرفة جيدة حين كان ملازماً ثانياً في سلاح الهندسة، وكنت حينها أنا في رتبة نقيب، وقد ارتحت لرؤياه، وقلت له: خيراً يا سعد؟ فأجابني أبو صبري: إن المقدم سعد كان في اجتماع لقادة الأولوية في قيادة الفرقة وقد أعطيت الأوامر بالهجوم على

مواقع المقاومة في منطقة شمال نهر الزرقاء وتطهيرها من وجود المقاومة، وكونه لا يريد تنفيذ هذا الأمر التحق بنا، ونحن بدورنا نؤمّن وصوله إلى سورية. فقلت له: أتهرب يا سعد؟ لماذا؟ فلنذهب أنا وإياك إلى اللواء الذي تقوده، ونأخذ معنا القوة اللازمة للسيطرة على اللواء، ونبطل فاعلية كل العناصر الموالية للنظام فيه، ثم نسير به إلى عمان، وهناك ندعم المقاومة ونصفي حسابنا مع النظام. وكنت جاداً ومقتنعاً أنها فرصة لاحت، فضحك أبو صبري وبدا الحرج واضحاً على سعد، فتذكرت كلمة سعد زغلول وهو على فراش الموت (ما فيش فايدة يا صفية). وخرج من الجيش الأردني على طريقة سعد صايل لواء مشاة من أصل أربعة ألوية مشاة يتكون منها الجيش الأردني في حينه. عسكرت كتائب اللواء في سهل حوران إلى الشمال من درعا، وسمّي (لواء اليرموك)، قاده المرحوم سعد صايل. سحبهم (أبو عمار) من الجيش الأردني ليذبحوا في لبنان هم وقائدهم. جيش يخرج من صفوفه لواء من أصل أربعة ألوية والكثير من العناصر الهاربة لم تلتحق بهذا اللواء ونصف المتبقين في هذا الجيش لم تتسن لهم فرصة الهرب.. هل يعقل أن يستطيع هكذا جيش أن يهزم المقاومة؟ الذي هزم المقاومة هي المؤامرة، وكلنا يعرف المآل الذي آل إليه سعد صايل (رحمه الله) بعد أن أدى دوره بكفاءة في بيروت، وخرج هو وبعض قادة المقاومة وعناصرها من بيروت إلى دمشق، وفي جولة له على ما تبقى من قواته في سهل البقاع الشمالي، أطلقت عليه النار من كمين، وتُرك ينزف حتى الموت.

## إدخال الرئيس عبد الناصر في لعبة تصفية المقاومة

في ذروة الأحداث المختلفة، التجأ أبو عمار إلى السفارة المصرية، ومصر لم يكن لها نفوذ في حينه، ولا في أي وقت في الأردن، لماذا لم تكن سفارة المملكة العربية السعودية ذات النفوذ الأكبر والمال الأكثر هي المكان الذي لجأ له أبو عمار؟ أحاطت مجنزرات الجيش الأردني الحاملة رشاشات (٥٠٠) بالسفارة المصرية مظهرة أنها لن تترك ياسر عرفات يفلت هذه المرة، وبدأت تطلق نيراناً كثيفة من رشاشاتها طبعاً إلى السماء، ولم يكن الهدف تخويف ياسر عرفات ولا الوسيط الذي يجتمع معه في السفارة الشيخ سعد العبد الله الصباح ولي العهد ورئيس مجلس وزراء الكويت، وإنما كان الهدف، إرهاب وإرعاب أركان السفارة المصرية حتى يصل واقعهم هذا إلى عبد الناصر من أجل أن يتدخل، وهو لا يستطيع إلّا أن يفعل ذلك حفاظاً على



مكانة مصر، لأن الذين يقودون المؤامرة كان سعيهم ما يزال حثيثاً خلف عبد الناصر، فهم أرادوه جزءاً من اللعبة، فحين يلتجئ (أبو عمار) إلى سفارة مصر فهو (دخيل على مصر وعلى عبد الناصر)، فلا بد له أن يتحرك. ولم تكن مصادفة وجود النميري في مصر، فأرسله عبد الناصر مرة ثانية، وكان الهدف أن يأتي الحل عن طريق مصر، فدعا إلى مؤتمر قمة كانت محصلته بعثة (الباهي الأدغم) التي جرى تحت علَمها تصفية المقاومة الفلسطينية في الأردن. والأمر الثاني المهم، أن المخابرات المركزية الأميركية كانت على معرفة تامة بجدية مرض الرئيس الراحل، وأن عملية إرهاق من النوع الذي سببته الحرب الأهلية في الأردن، ومؤتمر القمة ومداولاته وتناقضاته، كانت كافية للقضاء عليه، وهذا ما حدث.

## الاجتماع بالفريق حردان التكريتي

كنت أنا وأبو صبري والعقيد بهجت قائد جيش التحرير الفلسطيني (قوات اليرموك) متواجدين في مدينة جرش، حيث مركز قيادة المقاومة خارج عمان، وكنا بشكل ما نعتبر محاصرين في ذروة الصراع من أجل الحسم في شهر أيلول. اتصلت قيادة القوات العراقية في المفرق، بأبي صبري في حينها، وطلبت منه إرسال وفد من المقاومة مزودين بما هو مطلوب من قيادة القوات العراقية من مساعدات، يستطيع الوفد أن يأتي إلى المفرق بسيارات الإسعاف التي تقوم بنقل مواد طبية إلى جرحى المقاومة في مستشفى جرش، فطلب أبو صبري من العقيد بهجت ومن هاني الحسن ومني، أن نكون هذا الوفد، فلبسنا ملابس الجيش العراقي ـ كما طلب منا ـ لأن هناك نقطة تفتيش للجيش الأردني على الطريق إلى المفرق في قرية (بلعما).

سارت بنا سيارة الإسعاف، وتوقفنا لدقيقة في نقطة التفتيش، ولم يفتحوا أبواب سيارة الإسعاف. وكانت القوة المتواجدة في نقطة التفتيش هي فئة مشاة مع أسلحتها العادية وناقلة جنود تحمل رشاش (٥٠٠). وصلنا قيادة القوات العراقية في المفرق في فترة الغداء وتناولنا الغداء معهم، وهناك التقيت الرفيق شاهر اليوسف، وكانت فرصة طيبة. وفي المساء تم لقاء العمل مع الفريق حردان التكريتي بوجود السادة عبد الخالق السامرائي واللواء حسن النقيب قائد القوات في الأردن، فألقى علينا الفريق حردان محاضرة مطولة عن كيف يجب أن تعمل المقاومة ضد «إسرائيل»، وقال إن ما يقوله مبنيّ على خبرة

الجيش العراقي الطويلة في شمال العراق، وقال إن المدن لا تصلح مقراً للمقاومة. وما قاله الفريق حردان التكريتي حول المقاومة، وأين يمكن أن تتواجد، وقوله أن المدن لا تصلح أن تكون مقراً للمقاومة، هو (بيت القصيد) في كل هذا الصراع بين المقاومة والنظام، فهو يريد أن تخرج المقاومة من المدن، لأنه في الريف الأردني يسهل عليه مطاردتها، بعد أن صار هذا الريف معادياً للمقاومة من خلال السياسة التي اتبعها النظام، وكذلك المقاومة، والمقاومة لا تجد مؤيديها وجماهيرها إلّا في المدن والمخيمات الفلسطينية. وبعد أن أنهى حديثه طلب إلينا أن نتقدم بالمطلوب من القوات العراقية في المفرق، ولما كانت الصورة التي ستؤول إليها الأمور واضحة في ذهني، طلبت أنا منه قائلاً: إن لدينا طلباً واحداً، هو أن تبقي القوات العراقية طريق المفرق ـ جرش مفتوحاً من أجل الإمداد، وكذلك إذا أجبرتنا الظروف على الانسحاب، فسننسحب باتجاه القوات العراقية، ويظهر أن هذا الطلب (نذر وصادفه ضيوف[٧]) كما يقول المثل عندنا، فقال فوراً: إن هذا الطلب مشروع، وأنا سأجيبكم عليه.

وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً دُعينا للقاء الفريق حردان، وحينما التقيناه، أبلغنا أنه تقرر فتح الطريق بين المفرق وجرش، وأن القوات العراقية ستقوم بهذا الواجب.. ولهذا يمكنكم غداً صباحاً الالتحاق بها، لأنها ستقوم بهذا الواجب في الصباح الباكر. وفي الساعة الخامسة صباحاً التحقنا وكانت القوات تأخذ الوضع القتالي. ولما دققت في حجم هذه القوة والتي لم تكن تقل عن حجم لواء مجحفل (حسب التعبير العسكري العراقي)، استهجنت الأمر، فبين المفرق وجرش لا يوجد إلّا فئة جنود من الجيش الأردني، ولما لم يكن في ذهني أية عوامل أخرى، كأسباب يمكن أن تكون هذه القوة قد تحشدت من أجلها شعرت وكأنني أغزو عشيرتي مع عشيرة أخرى. فانسحبت وانسحب معي العقيد بهجت، وبقي الأستاذ هاني الحسن كحلقة وصل بين المقاومة (وأعني (فتح)) وبين الجيش العراقي، ورب سائل يسأل: لو كانت هذه القوات هي قوات سورية، فهل كنت ستأخذ نفس الموقف؟ وأقول بالتأكيد نعم. لأن المقاومة لم تكن في حاجة لدعم أحد، لو كانت موحدة الاستراتيجية وصادقة في نواياها.

---

(٧) النذر هو الشاة التي تذبح لوجه الله إذا تحقق لصاحبها مراده.



بعد انسحابي والعقيد بهجت، سرنا إلى مقر قيادة قوات القادسية لجيش التحرير الفلسطيني، نقلتنا من هناك سيارة إلى مقر إحدى كتائب الدروع في الجيش العراقي على الحدود السورية، وهناك رافقنا ملازم ثان بسيارة جيب عراقية أوصلتنا إلى مدينة درعا، وحين وصولي درعا ظهراً كانت القوات السورية تدخل الأراضي الأردنية، الأمر الذي كنت أجهله تماماً، وحينها عرفت أسباب الحشد العراقي المتجه إلى جرش. والقوات السورية لم تكن طبعاً تنوي التوجه إلى عمان، فهذا العمل كان مناورة سياسية، ومظاهرة سببها الصراع المظهري على السلطة في ذلك الحين.

## استشهاد الرفيق هاجم الهنداوي (يرحمه الله)

بعد وصولي إلى درعا، التقيت الدكتور الرفيق يوسف زعين رئيس مجلس الوزراء الأسبق مسؤول منظمة الصاعقة في سورية، الذي أوجز لي الواقع السياسي والعسكري ودخول القوات السورية إلى الأردن لدعم المقاومة. توجهت بعد ذلك إلى إربد، وفي مدينة الرمثا التقيت الرفيق هاجم الذي لم ألتقه منذ بدء الأحداث، وهو لم يتوقع هذا اللقاء، فتعانقنا عناقاً رفاقياً صادقاً وتوجهت وإياه بسيارته إلى إربد، وكان الطيران الأردني (الضعيف) يغير على المدفعية السورية المتواجدة في حينه على الأرض الأردنية وكان تبادل القصف المدفعي مستمراً على الطريق العام الرمثا ـ إربد ـ وفي إربد التقيت الرفيق حاكم الفايز الذي كان قد دخل المدينة مع إحدى وحدات القوات الخاصة السورية، وكنت حينها مجهداً، فأنا لم أنم إلّا لفترات متقطعة خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية. وقد اجتمعت والرفيق حاكم وهاجم والرفاق أعضاء قيادة فرع الشمال للحزب، ولم يكن هناك ما نستطيع بحثه أو فعله، فقد خرج الوضع العسكري والسياسي من حدود مسؤولياتنا إلى ساحة المناورات الإقليمية والدولية. وبعد أن أمضيت عدة ساعات في إربد عدت إلى درعا، وفي درعا التقيت الدكتور يوسف زعين والأمين العام المساعد الرفيق صلاح جديد، الذي توجهت معه في سيارته إلى دمشق. وفي اليوم التالي عدت إلى درعا ومن هناك التحقت بقافلة تقل عناصر من حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) يقودها ملازم من قوات القادسية هدفها المفرق، ومن هناك إلى جرش.

لقد كان لقائي بالرفيق هاجم آخر لقاء لي معه في هذه الدنيا، ففي اليوم الثاني لعودتي

إلى الأردن خرج الرفيق هاجم ببعض الرفاق من إربد إلى درعا، بعد أن انسحبت القوات السورية من الأراضي الأردنية، وحين التقى الرفيق يوسف زعين والرفيق محمد عيد عشاوي (يرحمه الله) سألهما عني، فأبلغاه أنني قد عدت إلى الأردن. هذا الخبر الذي سمعه عن عودتي إلى الأردن كان السبب المباشر لكل التصرفات غير المعقولة التي قادت إلى استشهاده. وأنا سأتحدث هنا بشكل موجز عن الرفيق هاجم فهو يستحق الذكر والتقدير. إن الرفيق أبو مروان بعثي مؤمن ومناضل أصيل، تاريخه النضالي بارز لا يرقى إليه إلّا تاريخ القلائل جداً من البعثيين الأردنيين. كان ضابطاً في الجيش الأردني برتبة ملازم ثان حين انقلب الملك حسين على الديموقراطية في نيسان ١٩٥٧، سُرّح بعدها من الجيش، وكان ملتزماً منذ ذلك الحين بحزب البعث العربي الاشتراكي، وبعد تسريحه انضم إلى الكادر الحزبي المقاوم للانقلاب. قاد أكثر من عملية تفجير في عمان، اعتقل عام ١٩٦٠ إثر عملية الاستدراج التي قادها العميد مصطفى الخصاونة، التي استدرج خلالها المقدم قاسم الناصر من دمشق إلى الأردن، تحت عنوان (عمل انقلابي موهوم) ومن بعد إلقاء القبض عليه، الأمر الذي قاد إلى كشف كل الحزبيين الناشطين والداخلين في هذا العمل، بينهم الأستاذ بهجت أبو غربية وهاجم الهنداوي وحاكم الفايز والأستاذ ذوقان الهنداوي وعبد الكريم خريس وغيرهم الكثير، وقد عذبوا تعذيباً قل نظيره تحت إشراف (محمد رسول الكيلاني) مدير المخابرات في حينه، وقد تحدث إليّ الرفيق هاجم عن هذا الأمر، وخلال هذا الحديث، روى لي واقعة فريدة من نوعها لها دلالات على مستوى وعي الإنسان العادي وفهمه للواقع في حينه، قال لي: أخذونا ليعذبونا فقط لأنه لم يعد هناك ما نُسأل عنه، قال: بعد أن عذبوني جلداً وضرباً تركوني جثة مرمية على الأرض وذهبوا، وبقي أحدهم وهو الحارس واقفاً على رأسي. فخاطبني قائلاً: هل تعرفني؟ أجبته لا، لا أعرفك، قال: أنا فلان الفلاني. كنت سائق سيارة، تدهورت وتدمرت، وسلمت أنا، أدانتني هيئة التحقيق التي تشكلت لمعرفة أسباب الحادث ومدى الأضرار، وطلبت تغريمي مبلغاً لا أستطيع تسديده، لأن الإهمال هو السبب في الحادث، ولما وصلت المعاملة إليك بصفتك المسؤول، عارضت قرار هيئة التحقيق وأعفيتني من الغرامة (لقد كان الرفيق هاجم ضابط ميكانيك)، وأنا هنا سأجزيك على فعل الخير هذا.. ورفسني ببسطارة على ظهري وبطني ورأسي مرات عديدة وهو يقول: أبوك كان وزيراً وعمك وابن عمك وزراء وإخوانك محافظون، ماذا تريد أكثر من ذلك؟



واقعة الاعتقال هذه والتعذيب الشديد الذي تعرض له، تركت في نفسه حذراً شديداً من أن يعتقل مرة أخرى. كان هاجم رابع حزبي ينضم إلى لجنة (تنظيم القطر). وبعد حركة الثالث والعشرين من شباط استمريت اعمل وإياه وحدنا، بعد خروج الرفيقين مجلي نصراوين وحاكم الفايز إلى دمشق، إلى أن التحق بنا الرفيق محمود المعايطة من الكويت.

بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ كان الرفيق هاجم مسؤول الحزب في إربد ومنطقة شمال نهر الزرقاء، خرج هو ورفيق آخر إلى دمشق إثر تمرير معلومات إليه وإلى رفيقه أن المخابرات والشرطة تبحث عنهما لاعتقالهما، وحينما علمت بذلك من الجهاز الحزبي وعرفت أسباب الخروج، استهجنت الأمر، فالنظام في حينه (يطلب السترة) كما نقول، ففضيحته الناتجة من الهزيمة مدوية، لذا لا يمكن أن يعتقل شخصية في مستوى شخصية الرفيق هاجم. ولأسباب سياسية في حينه ومن فهمي هذا، كتبت رسالة شخصية للأمين العام المساعد، أرجو منه أن يبلغ الرفيق هاجم أننا هنا في الأردن في حاجة ماسة إليه، وليس هنالك مخاطر على وجوده في الأردن في هذه المرحلة، هذا ما أتذكره من مضمون هذه الرسالة التي تركت تأثيراً غير مريح لدى الرفيق هاجم، شكّل بداية تحفظ تجاهي.

وحيثما تكون في دمشق في ذلك الحين، فأنت في واقع معادٍ للنضال وللمناضلين، فنظام مهزوم وهزيمته منكرة (وهو مع ذلك غير مستح) يرفع لافتة البعث ويحكم باسمه، والنظام في سورية من خلال القوى الأساسية فيه هو في جوهره مشابه من حيث الأهداف للنظام في الأردن، فكلا النظامين يسعى لتثبيت ذاته قطرياً، وكلاهما يسعى إلى التسوية وكلاهما يعادي القوة الحية التي تسعى جادة لقتال العدو. ففي سورية يحكم النظام باسم حزب البعث العربي الاشتراكي، وهذا يجعل وسائله في تحقيق أهدافه أكثر تعقيداً، والقوة الفاعلة في هذا النظام وصلت إلى موقفها هذا بفعل منظم متنامي القوى والتماسك، والمسار التالي يدلل على صحة هذا القول: فمنذ ٨ آذار وما أفرزته نتائج الصراع في سورية من تصفيات في الساحة السياسية والساحة العسكرية حتى ٢٣ شباط، التي قادت إلى تصفيات في الساحتين السياسية والعسكرية تناولت جميعها القوى القومية في المراحل الأولى والبعثيين خاصة بعد ٢٣ شباط وما تلاها على صعيدي الحزب والجيش، الأمر الذي قاد إلى هزيمة حزيران المذلة وأخيراً

«الحركة التصحيحية» التي كانت المصفاة النهائية لهذه المرحلة في سورية منذ الاستقلال. ففي ظل هكذا واقع، هذه حقيقته، وهذه أهدافه، لا بد أن يخلق في واقع أداته المزيفة تلك، (أي حزب البعث العربي الاشتراكي)، الذي كان يعيش فيه، الكثير من الشقاق والنفاق والتكتلات وصراعات اليمين واليسار المزورة، والاتهامات والتجريح والإشاعات الهادفة. كل ذلك، من أجل تفكيك هذه الأداة وتفريغها تماماً من مضمونها النضالي والمبدئي لمصلحة الأداة الأساسية التي يستند إليها النظام وهي الطائفية، وكان نصيب المناضلين في التنظيم الفلسطيني الموحد لحزب البعث العربي الاشتراكي ومنهم أنا كبيراً.

هذا الواقع الذي عايشه الرفيق هاجم الهنداوي، كان له تأثير بالغ على نظرته إليّ، وهكذا حينما وقعت المعركة في أيلول والمقررة نتائجها مسبقاً، فمن هم (كباش الفداء) الذين سيقدمون قرباناً لهذه الهزيمة من قبل قوى الهزيمة القائدة؟ بالطبع هم المناضلون الصادقون، فإما أن يموتوا أو يشتروا، أو يهانوا سمعة ونضالاً.

ولهذا حينما خرجت من عمان إلى جرش ومن بعد ذلك إلى سورية، تُوج هذا الهروب كما وصفوه، بكل ما قيل عني بقصد النيل، وطبعاً عرف الرفيق هاجم الذي عايش كل هذه الأقاويل والاتهامات، عرف أنني هربت لأنني التقيته في الرمثا وفي إربد، ومن بعد ذلك عدت إلى درعا، فلما خرج من إربد ولا لوم عليه، لأن كل القوى خرجت بعد خروج الجيش السوري من الأراضي الأردنية، ووصل درعا والتقى الرفيقين - أبو جابر (يوسف زعين) وأبو وسمة (محمد عيد عشاوي)، وسألهم عني وأبلغوه أن الرفيق أبو موسى عاد إلى الأردن.. هذا النبأ أصاب الرفيق أبو مروان بإحراج شديد دفعه إلى السير باتجاه الموت بخطى ثابتة، لأنه قرر العودة إلى إربد بعد خروج الجيش السوري، وبعد أن أغلق اللواء المدرع الأول الأردني الحدود مع سورية، وقد حاول الرفيقان أبو جابر وأبو وسمة جاهدين منعه من ذلك، ولكنه أصر على العودة إلى إربد، فلما عاد إلى الأردن هو ورفيقاه وقعوا في كمين لإحدى مفارز المدرعات المنتشرة على الحدود، ولا أعرف من استلمهم بعد ذلك ولكن تمت تصفيتهم بناء على أوامر عطا الله غاضب قائد الفرقة في ذلك الحين (يرحم الله الرفيق هاجم).



## الهجوم الأخير على المقاومة في عمان

لقد أوصلت القارئ من خلال ما ذكرت إلى معرفة نتائج هذا الهجوم مسبقاً، وأنا هنا أستهدف إطلاع القارئ على نماذج من السلوك والأخلاق الشاذة التي تدل على نوع المسؤولية التي لا تلتزم لا بالقيم السماوية ولا الوضعية المتعارف عليها في المجتمعات الإنسانية المتحضرة. لقد أباح النظام لجنوده المحرمات. أباح لهم في كل موقع يحتلونه انتهاك الحرمات والنهب والسلب واستباحة الأعراض.

حينما تدخّل الإنكليز عسكرياً ضد ثورة (مايس) في العراق في الجنوب من الكويت وفي القرب من شرقي الأردن، قاد (كلوب) ما يقرب من لواء من قوات مختلطة من بدو الأردن ونجد وسورية وحتى العراق، وقبل وصوله إلى الـ (H5) التي هي الصفاوي الآن. أشار (كلوب) بطريقة ما على جنوده، أن ينهبوا مستودعات ومتاجر شركة (Spenneys) الإنكليزية التي كان لها متاجر ومستودعات على امتداد خط أنابيب نفط العراق في الأردن، وكان هدفه إيقاظ روح الغزو وشهوة السلب والنهب في نفوسهم، ولكن كلوب لم يقل لجنوده إن مدن العراق وقراه مباحة لكم تنهبون وتسلبون وتنتهكون الأعراض.. لماذا؟ لأنه يعرف المسؤولية ويلتزم بحدود من الأخلاق يستحيل عليه تجاوزها. أما النظام فقد أباح لجنوده عاصمة ملكه. وأنا هنا سأورد ثلاثة أمثلة بارزة. لأن المصابين من عوائل بارزة. فقد هتك عرض سيدة كريمة من عائلة كريمة متزوجة من سيد ثري ومن عائلة كريمة، وهم بالتأكيد لم يكونوا من أنصار المقاومة، وواقعهم يدل على ذلك، فأنصار المقاومة الفقراء في الأحياء الفقيرة. وقتل فتى كان ضيفاً على شقيقته زوجة اللواء (محمد رسول)، المشهور مدير المخابرات العامة، الأمر الذي يدل على مدى الاستباحة، فلا فرق بين من يعتبرونهم أعداء النظام وبين أركان النظام. وقتل عبد المجيد سلطان العدوان، وهو أشهر من أن يُعرف، لأنه حاول الحفاظ على عاداتنا وتقاليدنا، فقد دخل عليه في بيته أحد عناصر المقاومة صائحاً: أنا دخيل عليك يا ابن عدوان، فواجه أبو سلطان جنود الجيش قائلاً: الرجل دخل علي في بيتي، فقتلوه وقتلوا عنصر المقاومة.

إن جلالة سيدنا العميق الافتخار بانتسابه إلى الأشراف من قريش إلى بني هاشم آل الرسول عليه السلام الذين نصروه، والمعتز دوماً بانتسابه لقائد الثورة العربية (طيب الله

ثراه) الشديد التمسك بإرثها، ووارثها المؤمن إيماناً مطلقاً بمبادئها (قولاً وفعلاً)، هذه العناوين التي ذكرت، توظّف لإعطائه القدرة على العمل بالطريق المضاد لها تماماً.

وأسوق للقارئ نموذجاً بسيطاً خارج إطار السياسة. كان في زمن ما؟ يصور في جنوب الأردن في المواقع التي مر بها جيش الثورة العربية بقيادة فيصل، فيلم عن (لورانس العرب) كما يطلق عليه الإنكليز والفرنسيون وأقرباؤهم، وفي إحدى مراحل تصوير هذا الفيلم تواجد الملك حسين وبعض مرافقيه في موقع التصوير، وفي إحدى اللقطات نثر المخرج ما يفترض أن يكون ذهباً تقليدياً، وكان جمع من البدو جمعوا لهذه الغاية (من أجل التقاط صورة للمشهد)، وقد تدافعوا على الذهب يلتقطونه في منظر ولا أشد حقارة وانحطاطاً، فشعر أحد مرافقي جلالته بعمق الإهانة فقال: يا جلالة سيدنا كيف تسمح بهذا؟ فكان رد سيدنا (أليس هذا حقيقة؟). كلا إن هذه ليست حقيقة، ولو كان الإنكليز يفعلون ذلك لما كانوا مستعمرين مستغلين، نعم لقد كان الإنكليز يضعون ذهبهم في صناديق ويهبونه لمن يخدم مصالحهم ومنهم الحسين ابن علي وعودة أبو تايه وغيرهم، وأنا هنا لا أعرّض بهؤلاء السادة، فالقضية التي تجندوا لها كانت قضية عادلة، وكل ذهب الإنكليز الذي صرفوه على هذه الثورة لا يساوي إلّا القليل القليل من الخدمة الكبرى التي قدمتها لهم، والتي ما زلنا نعاني نتائجها بسبب غدرهم والنكث بوعودهم وعهودهم كما هي عادتهم، لكنني أعرض بواقعة حقيرة، أراد الملك حسين أن يجعل منها حقيقة. فمن هو القادر على خلق هذه الشخصيات التي تحمل في ذاتها هذا التناقض غير حضارة المستغلين المستعمرين؟

## العودة إلى جرش

لقد ذكرت كيف عدت مع قافلة تحمل عناصر التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، ومن جرش سرت إلى عجلون، ثم إلى الأماكن التي كانت تتواجد بها عناصر الصاعقة في قلعة الربض، وجبال عجلون. وهناك التقيت بأبي عمار الذي كان مشغولاً جداً في بناء التحصينات وإنشاء مستودعات للتموين والذخيرة وكان يأخذني معه في بعض الأحيان، وكنت أتساءل من يريد أن يقنع أبو عمار بهذا العمل بأن المقاومة قائمة ومستمرة، وأمامها فرص للنجاة بعد هزيمة عمان وبعثة الجامعة العربية. بالتأكيد أنه لا يضعني بين الذين يستهدف إقناعهم، لأنه وهو يقوم ببناء التحصينات ومستودعات



التموين والعتاد، طلب مني أن تخلي قوات الصاعقة قلعة الربض ومنطقتها، وأن تسلمها إلى الجيش الأردني باعتبارها معلماً أثرياً يجب المحافظة عليه كما طلب منه ذلك المسؤولون الأردنيون. وقلعة الربض هذه بناها الصليبيون، لها موقع عسكري ممتاز نستطيع الدفاع عنه بعناصر قليلة أمام أية قوة مهاجمة، ومع أنها لا تقع على أعلى مرتفع في جبال عجلون، إلّا أنها تقع على تله منفردة (٩٠٪) عما يحيط بها من منحدرات عميقة. ومن هذه القلعة نستطيع رؤية كل ساحل فلسطين من رأس الناقورة إلى حدود سيناء لا يمنعك من ذلك إلّا البعد. وكنت ألتقي أبو عمار يومياً، وفي أحد الأيام جاء وفد مرسل من قبل رئيس الوزراء في حينه السيد وصفي التل، يطلب من أبي عمار إرسال وفد من المقاومة من أجل البحث في القضايا المعلقة، وكان الوفد يتكون من السيدين عمر عبد الله الوزير في حينه في حكومة السيد وصفي التل، والدكتور كمال الشاعر المقرب من رئيس الوزراء.

إن السيد عمر عبد الله هو من أفضل الأردنيين أخلاقاً وعملاً وسلوكاً، وحين التقيا أبو عمار وأبلغاه ما هي مهمتهم، طلب إلي أبو عمار أن أرافقهما إلى عمان حتى أكون عضواً في هذا الوفد. فركبنا في سيارتي، أنا بجانب السائق، والأستاذ عمر والدكتور كمال في الكرسي الخلفي، يقودنا رائد في المخابرات الأردنية من أجل تسهيل وصولنا إلى عمان. وبعد قرية عنجرة، كان هناك حاجز للجيش، ونقطة تفتيش على الطريق إلى جرش، بالقرب من قاعدة (الرادار المدمرة). أوقفونا على هذا الحاجز، وطلبوا أسماء من في القافلة، ولما رأوا اسمي قالوا: إن هذا لن يمر، وعليكم إنزاله لنسلمه إلى القيادة، وقد خبرت هذه الأساليب وأسبابها، فلم أنزل من سيارتي، إذ لم يعد هنالك ما يدخل الريبة إلى النفس، وكان الجنود وضباط الصف الموجودون على الحاجز، يأتون ويقفون أمامي ينظرون إلي دون عداء، وإنما هناك فضول، فهم فقط يرغبون أن يتعرفوا إلى هذا الذي قالوا لهم عنه، إنه ليس فلسطينياً وهو أردني وكان ضابطاً في الجيش وقف مع الفلسطينيين. وصلنا إلى عمان، والتقينا وفد الحكومة برئاسة رئيس الوزراء. ولم تكن هناك مباحثات جدية، فحقيقة هذه المباحثات هي تصفية تركة، تريد حكومة وصفي التل الانتهاء منها بأسرع ما يمكن. وأثناء رحلتي هذه إلى عمان، أرسل أبو عمار إلى الشيخ أحمد الكحيمي سفير المملكة العربية السعودية، يطلب منه أن يلتقيه في مكانه الذي هو فيه، فذهب الشيخ

الكحيمي إلى منطقة عجلون، وهناك التقى أبا عمار، تحدث أبو عمار إلى السفير حول الواقع الذي وجد نفسه فيه. ظروف صعبة، ومطاردة ونوايا مبيتة تجاهه. وقال لي من روى الحادثة وهو من (فتح) أن أبا عمار بكى، وأبو عمار كما يعرف الجميع يستطيع أن يبكي متى أراد ذلك، فأركبه الشيخ الكحيمي في سيارته وعلم المملكة العربية السعودية يرفرف على مقدمتها حتى أوصله درعا في سورية. ولعل قصة الوفد وتعييني عضواً فيه هي من أجل أن لا أعرف أن أبا عمار ينوي الخروج ولا كيف خرج من الأردن.

## المقاومة الفلسطينية

إن بحث موضوع المقاومة الفلسطينية التي أرادت لها كل القوى المؤتلفة عرباً وغير عرب أن تكون الميناء الذي سترسو فيها «سفينة السلام»، هو موضوع شائك يتسع ليشمل كل مراكز القوة والضعف على هذه الأرض، له علاقة أساسية أو هامشية بالرؤيا المصممة لهذا الوطن العربي وإنسانه، وهو يذهب إلى العمق الذي لا يستشعره الإنسان خارج مراكز الدراسات والبحوث المعدّة لهذا الغرض وخارج نطاق القوى المسؤولة عن تنفيذ هذا المخطط. والإنسان الذي تراوده نفسه بالدخول إلى جوهر هذه المعضلة وكشف حقيقتها عليه أن يكون صاحب تجربة معاشة، ذا عقل ومعرفة، وليس مرتبطاً بنفوذ قادر على متابعة هذا المسار باستشراف غير تقليدي منذ الغزو (النابليوني والفرنجي) حتى ولادة مؤتمر (بال)، وهذا غير ممكن أن يتوفر بجهد إنسان واحد. وعلينا أن نتذكر أن هذا الغزو والفتح لم ينتج من الأسلوب التقليدي المعروف تاريخياً، ولكنه نتج من فعل تآمري خبيث مدعم بقوى عالمية عاتية، وبالدراسات والأبحاث، وهذه هي التجربة الأولى من نوعها في التاريخ الإنساني التي يراد بها ومن خلالها السيطرة على واقع جغرافي معين يسكنه إنسان له جوهر حضاري واحد، والهدف هو تفكيك أسس هذه الحضارة، التي تجعل من هذه الأرض أرضاً واحدة، ومن الشعب الذي يعيش عليها شعباً واحداً، من أجل السيطرة عليها وعليه، وتحويلها جذرياً إلى واقع مختلف، يخدم أهداف ومصالح أصحاب هذا المخطط.

إن الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي الذي كان يقوده، من خلال رؤى تفكيكية



مختلفة الوسائل، باختلاف الجذور الحضارية ومستوى التطور، استطاع أعداؤه أن يحققوا أهدافهم بتفكيكه وهزيمته في خلال نصف قرن من الزمان. أما هذه الأمة العميقة بجذورها في التاريخ والمتميزة بعطائها له، فإن ما حققه أعداؤها خلال أكثر من قرن من الزمن، هو أنهم ما زالوا يقاتلون على شواطئها بالرغم من الفارق النوعي بين واقعهم وواقعها المتباعد جداً في كل مناحي المعرفة وفي كل مكونات التقدم حين بداية هجومهم المستمر، هذا وبالرغم من كل إمكاناتهم المادية والعلمية والتكنولوجية التي ليس لها مثيل في تاريخ ما قبل اليوم.

في ما يلي من السطور، سأرسم بعض العناوين، متطرقاً إلى مضامينها، لعلي بذلك أعطي صورةً للقارئ عن انطلاقة المقاومة وما استهدفته هذه الانطلاقة.

لم يتواجد بين أصحاب الرسالات إلّا من كان مؤمناً وصادقاً، ولا بين المصلحين الإنسانيين من هو غير صادق أو غير مؤمن بدعوته، ولا بين القادة الثوريين في العصر الحديث، الذين دمروا أنظمة طاغية وفاسدة، من هو غير مؤمن بما يفعله، وقد يكون مخطئاً ولكنه مؤمن بما يفعله ولا يمكن لمن يتصدى لحمل مسؤولية إنسانية كمسؤولية إعادة حق لشعب اغتصبت حقوقه في أرضه بأساليب باطلة ودعاوى مزورة، أن يكون كذاباً مخادعاً، أو مناوراً يبطن غير ما يظهر، يزور جوهر القضية ويجتزئها، من أجل إضعافها وإضعاف هذا الكل. والكل يعرف أن فلسطين لم تكن في تاريخها يهودية (دعني من الصهيونية)، نعم لقد كان جزء منها مملكة يهودية في فترة تاريخية، مثلها في ذلك مثل الكثير من الممالك التي قامت في حينه وبعد ذلك الحين، في ما يسمى الآن (المشرق العربي)، في اليمن وجزيرة العرب في بلاد الشام وما بين النهرين. إن مملكة الأنباط التي قامت في تاريخ لاحق في جنوب الأردن، تركت آثاراً تدل عليها أكثر مما ترك داود وسليمان والعبرانيون الذين جاءوا من الشرق مثلهم في ذلك مثل الكنعانيين الذين سبقوهم إلى فلسطين والفينيقيين والآراميين والعمونيين والمؤآبيين، وغيرهم الكثير من الممالك في بلاد الشام، من عرق واحد. من هنا فاليهود والنصارى وكذلك المسلمون في هذه البلاد هم عنصرياً من عنصر واحد. وامتدت اليهودية كدين ورسالة خارج مساحة حدودها وعنصرها، وهي بالطبع أولى الرسالات السماوية التي خرجت كلها من هذا الوعاء، وكذلك المسيحية، ومن بعدها الإسلام، والامتداد خارج الحدود والأرض هو السمة الأساسية للديانات، وكذلك

(الأيديولوجيات)، فما هو الحق الذي يجعل لكل اليهود في العالم حقاً في فلسطين متجاوزاً حقوق أهلها ذوي العرق الواحد إن كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين؟ إن من يقول بذلك هم المستعمرون، فهم أهل لذلك، لا يعصمهم لا خلق ولا دين، ولكن ماذا نقول بالذين ادعوا أنهم أصحاب القضية ليتولّوا مسؤولية الدفاع عنها وهم يساعدون الآن في تحقيق هذه الفرية. إن الأصابع التي خلقت جمعية (الاتحاد والترقي)، وهيأت لها أيديولوجية شوفينية تتناقض مع أيديولوجية الخلافة ودفعت بها للاستيلاء على السلطة، وأوجدت في حينه المدخل لتنفيذ المؤامرة، لقادرة على خلق التكوين الذي في ذهنهم، لوصول المؤامرة إلى أهدافها.

## هدف المؤامرة

إنني سأضع ثلاثة أقوال لثلاث شخصيات عربية وأجنبية، تكوّن مجتمعة تحليلاً للجوهر الحقيقي لاستراتيجية من يقود حركة (فتح) الفصيل الأساسي والعمود الفقري لمنظمة التحرير الفلسطينية، والتي لم يكن من الممكن ضمن ظروف المرحلة تجاوزها. وأحد هذه الأقوال (وقد ذكرته) للسيد خالد الحسن حينما التقيته في الفندق في القاهرة كما اسلفت في موقع سابق من هذه المذكرات. وخالد الحسن، يعتبر من أبرز قادة ومؤسسي حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). قال في أوائل عام ١٩٦٩: (أما وقد انهزمت أنظمة اليسار العربي، فقد جاءت فرصة الشعب الفلسطيني)، ولما سألته، وبمن سيحرر الشعب الفلسطيني أرضه بعد الذي قلت؟ قال رداً على تساؤلي، إن الشعب الفلسطيني سيكون الشمعة التي تحترق لتضيء الطريق. لم أسأله حينها تضيء الطريق أمام من؟

أما القول الثاني فهو للملك الحسن الثاني الذي لا ينطق إلّا عن الهوى، قال إن مال العرب، ويقصد بذلك مال النفط الذي لا يملكه العرب، والعقل اليهودي، إذا ما تعاونا سيجعلان من المنطقة منطقة معمورة، المقولة ذاتها التي قالها (وايزمن – لفيصل) يقولها الملك الحسن الثاني للعرب، انظروا إلى البعد والتطور الذي أخذته هذه الرؤيا! أما القول الثالث فهو للسيد (شو إن لاي) أحد أبرز ثلاثة في قيادة الصين التاريخية ورئيس وزرائها، قال: لم يحدث في التاريخ الإنساني أن كانت الطائرة قاعدة انطلاق لحركة تحرير وطني، هذه هي استراتيجية حركة (فتح) ويتبناها خاصة، من هم



الآن في المسؤولية، وهي التضحية بالشعب العربي الفلسطيني. من أجل ماذا؟ من أجل إنارة الطريق لمن؟ للذين سيعمرون المنطقة بالمال العربي (مال النفط) والعقل الصهيوني!! وحتى نصل إلى هذا الهدف، لا بد أن تكون قاعدة التحرير (طائرة)، وإلّا فأين ستكون هذه القاعدة طالما أن الهدف ليس التحرير بل الإعمار، وليس العداء بل التعاون، وحتى يتم الإعمار ويصل إلى أهدافه المرجوة، لا بد من تنظيف الأرض في فلسطين، وفي كل ما يحيط بفلسطين من الفلسطينيين والعرب بل وبالمحيط الأبعد، من كل ما يعوق الوصول إلى هذا الهدف.

لقد قلت في سياق هذه الذكريات أن المستعمرين ومن يلوذ بهم من حلفاء وعملاء، حينما يضعون مخططاً وينفذون إحدى مراحله، يضعون الخطط للملمة هذه النتائج التي توصلوا اليها عبر مسيرة التآمر المعروفة، وفي القضية الفلسطينية والتي هي جوهر مشكلة الإنسان العربي الرئيسية، وخصوصاً في مصر والمشرق العربي، والتي تشكل المنطلق الأساسي للمؤامرة على العرب وعلى وطنهم، والتي يشكل وعي الإنسان العربي لمخاطرها، وحقيقة أهداف القوى التي تقف وراء هذه المؤامرة، أعلى نسب الوعي والمعرفة، لا بد عندئذ أن تكون الخديعة في المستوى المطلوب. لم يهتم الإنسان العربي في كل أقطاره بالمقولة التي قيلت، أن المقاومة الفلسطينية، أي حركة التحرير الفلسطينية (فتح) في حينه، هي السبب الرئيسي الذي قاد إلى هزيمة عام ١٩٦٧، بل للحقيقة نقول أن كثيراً من الأوساط الواعية في الشعب العربي، كانت مقتنعة بهذه الهزيمة، وتبررها بموضوعية، أما الشعب العربي الفلسطيني، فهو مع أداة كفاحه التي انتظرها طويلاً كما تنتظر الأرض العطشى ماء السحاب، وما كان يهمه قطعاً، النتائج التي كان سيقوده إليها كفاحه ضد المحتلين لأرضه على الأنظمة العربية المحيطة «بإسرائيل»، خصوصاً أنه ترسخ في وعيه وفي وعي كل إنسان عربي وطني من خلال الواقع الذي تزامن وتراكم، أن هذه الأنظمة هي التي تحمي «إسرائيل» أكثر من حلف الأطلسي والولايات المتحدة. تحميها من موقعين.

أولاً: إنها غير قادرة على مواجهتها ضمن تركيبها الاجتماعي والسياسي وصلاتها الدولية، وهذا هو واقع الحال في ذلك الحين بالنسبة إلى جمهورية مصر العربية.

والثاني: إن دول البيادق المحيطة بـ«إسرائيل»، لا تمنع الإنسان العربي الفلسطيني

فقط، من ممارسة حقه في أن يناضل ويخلق رؤيا في صفوف أصحاب القضية، ومن يساندهم من الشعب العربي للوصول إلى حقهم المشروع في وطنهم، خارج رؤيا هذه الدول المرتبطة رؤياها واقعياً بالرؤيا الأميركية وبعضهم بالصهيونية، بل أيضاً تمنع مواطنيها من فعل ذلك بعيداً عن الاستغلال الذاتي لهذه الأنظمة للقضية الفلسطينية. وهي من أجل الحفاظ على واقعها الهزيل واستثماره، تدخل في حلقات التآمر الدولية على هذه القضية، من أجل تسويتها بالأسلوب والنتيجة التي تحفظ لها بقاءها واستمرارها كأنظمة قطرية هزيلة عميلة متسلطة، قاهرة لشعوبها لا تملك مقومات القوة من ذاتها. هذا هو مضمون فهم الشعب العربي الفلسطيني، والشعب العربي المحيط بفلسطين حين انطلاقة الكفاح المسلح في الفاتح من كانون عام ١٩٦٥.

إن استراتيجية إحياء الآمال ومن ثم تدميرها، التي اتبعها المستعمرون، كانت تستهدف حقيقة الإنسان العربي من حيث كونه عربياً ينتمي إلى شعب ووطن واحد. والأمثلة عديدة في تاريخ العرب الحديث، وأبرزها ثورة الحسين بن علي، والتي كان مبرر قيامها وعنوانها الوحدة العربية، والتي قادت بنتائجها مع الأسف، إلى تقطيع الأوصال في المشرق العربي، ومن بعد ذلك وعد بلفور المشؤوم ونتائجه اللاحقة بتأسيس الكيان الصهيوني على تراب فلسطين عام ١٩٤٨، ومروراً بالوحدة المصرية السورية، ونتائجها المؤلمة بتحقيق جريمة الانفصال عام ١٩٦١، وأخيراً وليس آخراً وقوف سورية وليبيا مع إيران ضد العراق، وبعد ذلك وقوف الأنظمة العربية العميلة في الخندق الأميركي ضد العراق في حفر الباطن، ليكسروا سيفهم هناك ويذهبوا إلى مؤتمر مدريد وهم عراة!!

إن التجزئة التي سادت تاريخ العرب الحديث المسيطر عليه إمبريالياً وأطلسياً، هي التي جعلت تطوره منذ الاستقلال يكاد أن يكون ثابتاً على نموذج محدد من الخطى (خطوة إلى الإمام وخطوتين إلى الخلف) وأصدق مثال على ذلك هو حال جامعة الدول العربية بعد مرور قرابة ستة عقود على تأسيسها.

وكل ناتج هذه السيطرة، وعلى الأخص منذ حرب (السويس) وحتى هجوم الأنظمة العربية المتحالفة مع أميركا والأطلسي على العراق وما بينهما، هو من أجل تسوية الواقع العربي، ليستقبل الضربة المقصود بها أن تكون مميتة لطموحات العرب كافة،



وهذه الضربة تأتي من خلال خلق واقع سرابي عام في صفوف الشعب العربي الفلسطيني، في الداخل وفي الشتات، وفي صفوف الشعب العربي المحيط بفلسطين، واقع (سراب) اسمه تحرير فلسطين يخترق الشعب العربي الفلسطيني، والقوى المحبة في الشعب العربي المحيط بفلسطين، مادياً ومعنوياً في الطريق إلى هذا الهدف، المبرمجة مراحله بدقة، من قوى عاتية، لا تستطيع أن تفلت من سيطرتها في مرحلتها أو خارج إطارها، في قمة اندفاعها، أية قوة تنوي أن تشق طريقاً مضاداً.

نعم إن المستعمرين والصهيونية يعرفون تاريخ المنطقة بدقة، ولكن مشكلة المستعمرين والصهاينة الذين هم جميعهم من طينة واحدة، تكمن في اعتقادهم بالقدرة على خلق مكونات التاريخ، وبالتالي صنعه.

إن الأمة العربية التي هي من أقدم الأمم، وقد تكون أميزها لأنها تمتلك جميع العوامل التي تكون الأمم. إن هذه الأمة الممتدة وجوداً من الخليج حتى المحيط، ومن بحر العرب حتى جبال (طوروس)، قد تكونت عبر أكثر من خمسين قرناً قبل السيد المسيح عليه السلام، لم يغير جوهرها، لا الاحتلال اليوناني ولا الروماني، ولا الفارسي بعد ذلك، إلى أن جاء الإسلام، فأحياها وأبقاها وأظهر ميزاتها وأثبتت أنها أمة واحدة من خلال انتشاره السريع في ربوعها لغة وعادات وتراثاً وحضارة، ومر عليها بعد الإسلام نابليون والصليبيون والمغول والتتار وبنو عثمان في القرنين ( ١٤ ـ ١٦ ). وغابت عن الفعل في الحياة قرابة السبعة قرون، غياباً يكاد أن يكون كاملاً، حتى ظن البعض أنها ماتت ثم عادت لتصحو على واقع أشد خطورة وأعمق لؤماً، مسلح بعوامل القوة مادياً ومعنوياً يستهدف إعادتها إلى ما قبل الإسلام، كما ويستهدف آمالها وأمانيها المستقبلية، بأن هؤلاء المغفلين المتسلقين المارقين العبثيين سيصلون إلى الحقيقة التي بان نورها في أم المعارك الخالدة بأنهم يخلقون السراب ويظنونه الحقيقة. وأنا قبل أن أغادر هذا الموضوع لا بد أن أذكر واقعة عانيتها في الأردن إبان حرب حزيران عام ١٩٦٧، وقولين لشخصين مسؤوليتهما أساسية في المملكة العربية السعودية. الواقعة والقولان، يعطيان القارئ تصوراً عن الذين يقودون العرب إلى ميناء الاستسلام هذا.

لقد اختارت حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) الأردن قاعدة انطلاق من أجل تحرير فلسطين، وهذا أمر صحيح، والحقيقة أنه ليس هناك قطر عربي، في كل من

يحيط بفلسطين من الأقطار من هو أكثر تهيؤاً وأكبر استعداداً لقبول المخاطر من أجل تحرير فلسطين، من الشعب في الأردن. فالأردن تاريخياً أكثر بلاد الشام تماساً بفلسطين جغرافياً وديموغرافياً، اقتصاداً وحياة، فهو يمتد شرقاً على امتداد فلسطين تقريباً، ومن الموجب حتى العقبة تمتد عشائره وعشائر فلسطين، بل وسيناء أيضاً من أصول عشائرية واحدة، بالإضافة إلى نسبة عالية من الذين غادروا فلسطين ليعيشوا في الأردن قبل تأسيس الإمارة وأثناء الإمارة، حتى الهجرة الكبيرة، إثر النكبة. وكانت فلسطين المركز الوحيد الذي تسوق فيه المنتجات الزراعية والحيوانية. هذه الحقيقة يعرفها اليهود ومن والأهم، ويعرفها الوطنيون والإنسان العادي في الأردن، والصراع هو من يحقق من المتقابلين، رؤياه في طبيعة العلاقة بين الأردن وفلسطين.

لقد هيأ الاستعمار الإنكليزي (منذ سايكس بيكو) ووعد بلفور، الواقع في الأردن من أجل تطبيق رؤيا الاستعمار والصهيونية، وخصوصاً بعد تسلم الملك حسين مقاليد السلطة، وإلى القارئ الإثبات الذي يدل على عمق (سيكولوجية) الهزيمة في نفس أهل الأردن، من خلال فعل السلطة الهادف.

ففي الليلة التي تلت هجوم الطيران «الإسرائيلي» على مطارات مصر وتدميرها وانتهاء الحرب بهذا الفعل المدبر، بدأت عناصر الشرطة والمخبرين التابعين للنظام والخاصين التابعين للدول الحليفة للسلطة ـ فالأردن مفتوح لكل هؤلاء، ومغلق على من هو ضدهم ـ بدأوا في مدينة مأدبا التي أعيش فيها بإبلاغ الناس من سكانها أنه على كل بيت أن يدهن شبابيك بيته بالدهان الأزرق، أو أن يضع ستائر سوداء سميكة على الشبابيك، لمنع تسرب النور إلى الخارج، وكون الناس لم يعطوا الوقت الكافي لعمل ذلك فوراً، ولأن الأكثرية منهم لا يملك ثمن الستائر السوداء، فهم في النهاية، لا بد أن يضيئوا منازلهم، ومهما كان هذا الضوء خافتاً، لا بد أن يراه هؤلاء المتربصون، الهادفون إلى إدخال الرعب إلى نفوس الناس، بدأت هذه العناصر التي تكاثر عددها فجأة، والتي لا يعرف كيف نبتت، بدأوا ينادون أصحاب البيوت بأصوات مرتبعة وغاضبة وأيضاً خائفة، بأن يطفئوا الأنوار في منازلهم. هذه الأوامر المتكررة شديدة الغضب والظاهر خوفها، خلقت توتراً نفسياً شديداً لدى الأهلين وتساؤلاً مبرراً، أنه لا بد أن لهذه الأوامر المشددة أسباباً تتعلق بالحرب. وفي إحدى الليالي التالية لهجوم جيش الدفاع «الإسرائيلي» على الضفة الغربية واحتلاله لها، سرت شائعة قوية مفادها



أن اليهود أنزلوا مظليين عند الحاووز غرب المدينة. من هو مصدر هذه الشائعة؟ طبعاً الطابور الخامس! فما كان من الناس في المدينة ولا سيما الحارة الشرقية التي أسكنها، وكنت ليلتها موجوداً، إلّا أن تدافعوا مذعورين خارج بيوتهم لا يحملون سوى أطفالهم إلى وادي الحبيس قرابة الكيلو مترين شرق المدينة. هذا ما فعله الأسياد وأدواتهم بهذا الشعب يهيم كل على وجهه دون راع، وقد نسي بعض هؤلاء الناس أنهم كانوا يقولون للفلسطينيين: لقد تركتم أرضكم وهربتم، والفلسطينيون في أكثريتهم لم يهربوا إلّا بعد أن بدأ بهم الذبح، أما شعب (سيدنا) البعيد عن العدو مئات الكيلومترات، فقد فروا مذعورين تاركين وراءهم كل شيء بفعل إشاعة، وكان هذا الفعل فعلاً هادفاً، يرمي إلى خلق بلبلة ذهنية ونفسية حتى لا يصفن الناس ويتسألوا كيف هرب جيشنا، وسلّم أرضنا ومقدساتنا دون قتال.

أما القولان اللذان قيلا لي في سجنين مختلفين، وتاريخين متباعدين، فقد قص عليّ القول الأول شاب من آل الشاعر، في سجن عمان المركزي عام ١٩٦٣ وهو محدث لبق وذكي. قال: كنت دائم التردد على مجلس الشيخ الأكبر من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأظنه محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وفي إحدى الزيارات سألته قائلاً: طال عمرك كم عمرك الآن، فرد عليّ قائلاً: والله (يا إوليدي) يوم ظهور الإسلام وأنا (أدرج) أي عند ظهور الإسلام كنت أمشي. والتالية رواها لي الرفيق نور الدين الأتاسي (يرحمه الله) في سجن المزة في دمشق، قال: بعد ثورة ٨ آذار كنت وزيراً للداخلية، سافرت إلى القاهرة لحضور اجتماع لوزراء الداخلية العرب وبعد وصولي قمت بزيارة مجاملة للأمير فهد بن سعود وزير الداخلية في المملكة العربية السعودية في حينه، وكان ينزل في فندق (هيلتون)، ولما دخلت عليه وجدت أمامه كأساً من شراب الليمون وكان شهر رمضان الكريم، فسألته باستهجان: ألست صائماً؟ فدفع يده إلى جيبه وأخرج (فتوى) تتيح له الإفطار لأنه على سفر. انظروا هذا الفهم للإسلام من حماة الإسلام.. ظهور الإسلام بعد ظهور محمد بن عبد الوهاب، والسفر بالطائرة من الرياض إلى القاهرة كالسفر على بعير في صحراء النفوذ، ومن يقول بذلك؟ شيخ المذهب الوهابي وخادم الحرمين الشريفين.

## بروز الخلاف بين وزارة الدفاع والحزب في المؤتمر القومي العاشر

تميز تاريخ سورية الحديث بعد الاستقلال، بعدم الاستقرار، وفي ثنايا كل تغيير جديد

في سورية يولد تناقض، لا بد أن يتفاعل ليخلق واقعاً جديداً يقرب سورية من حقيقتها أو يبعدها عن هذه الحقيقة. وكل انقلاب عسكري في سورية إن كان قد قام تحت لافتة البعث أو من هم قبل ذلك كله، هو من أجل إبعاد سورية عن حقيقتها، وكل واقع ديموقراطي قام في سورية كان يقرب سورية من حقيقتها. ولهذا كله، كان يجري دوماً انقلاب عسكري على هذا الواقع، ففي أيلول عام ١٩٦٨ انعقد المؤتمر القومي العاشر لحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في سورية، وفي هذا المؤتمر ظهر فجأة تعارض في الرؤيا السياسية في صفوف المؤتمرين، فالحزب وقيادته كان يتبنى استراتيجية لقاء القوى التقدمية (أنظمة أو قوى سياسية في الوطن العربي) ووزارة الدفاع وبعض المؤتمرين (علناً أو سراً)، كانوا يقولون بالتضامن العربي المطلق. ونحن هنا لسنا بصدد صحة هذه الرؤيا أو تلك، فالأساسي في الموقف الاستراتيجي هو مضمون أداته إن كانت هذه الأداة قادرة أو غير قادرة على تحقيق استراتيجيتها، صادقة أو غير صادقة في ما تقوله وتعلنه.

وفي حديث للفريق حافظ الأسد وزير الدفاع في حينها كان مطولاً، زبدته أن سورية من خلال التضامن العربي، تستطيع أن تبسط جناحيها على لبنان والأردن، والنقطة الهامة الأخرى، أنه لا يؤمن بالكفاح المسلح كأسلوب لتحرير فلسطين (وأن دبابة واحدة خير من فصيل من المقاومين).

وقد ظل الفريق الأسد صادقاً مع هذا القول، (رغم أن أكثر من ثمانمائة دبابة دمرت في أقل من ست ساعات في حرب تشرين عام ١٩٧٣، وتراجع الجيش السوري في أقل من ٢٤ ساعة إلى ما بعد سعسع). والحقيقة أن الخلاف كان موضوعياً، ويقيني أنه مصمم من أجل السير إلى (الهدف المنشود)، والهدف المنشود هو وصول الفريق الأسد إلى الموقع الأول في السلطة، وبالتالي يحكم بواسطة الطائفة التي ينتمي إليها. ولم يكن ممكناً لسورية أن تأخذ وضعاً مستقراً ذا اتجاه سياسي محدد وواضح بقيادتها وبمضمون هذه القيادة في ذلك الحين، وقد حاول المسؤولون في الحزب والدولة لملمة هذا الخلاف في المؤتمر، حينما تقدم اللواء صلاح جديد (يرحمه الله) إلى الاجتماع المشترك (قيادة القطر السوري للحزب في سورية والقيادة القومية للحزب) بمشروع سماه في حينه (تغيير مراكز القوى) يقضي من بين ما يقضي أن يتولى الأمين العام للحزب (رئيس الدولة) رئاسة مجلس الوزراء إضافة إلى مسؤولياته، ويتحمل



مسؤولية المرحلة على أن يتم من خلال هذا التشكيل الحكومي التغيير المطلوب في مراكز القوى بما فيها الجيش (أي وزير الدفاع ورئيس الأركان). وبعد أن أقر الاجتماع المشترك هذا المشروع استقالت حكومة الرفيق الدكتور يوسف زعين وشكلت الحكومة الجديدة برئاسة الدكتور نور الدين الأتاسي، وضمت تشكيلة الحكومة الجديدة الفريق حافظ الأسد وزيراً للدفاع، وبقي رئيس الأركان في موقعه، الأمر الذي يعني أن المستهدف في التغيير هو رئاسة الوزراء التي لم تكن إحدى مراكز القوى في حينه وليس غير الدكتور يوسف، لماذا؟ لأن (كتلة الدير) كما كانت تدعى آنذاك والتي فيها الدكتور يوسف، كانت تشكل تناقضاً أساسياً مع كل ما ذهبت إليه سورية بعد ذلك. وكتلة الدير هم الدكتور يوسف زعين ـ محمد عيد العشاوي ـ فوزي رضا ـ مصلح سالم. وأنا هنا سأتحدث عن صاحب هذا المشروع وصاحب الدور الأبرز الذي قاد المرحلة من ٨ آذار عام ١٩٦٣ حتى اعتقاله في ١٤ ـ ١٠ ـ ١٩٧٠، أي حتى «الحركة التصحيحية».

إن اللواء صلاح جديد (نسيبي) ـ ونحن نقول (كون نسيب ولا تكون ابن عم) ـ فابنته أمل متزوجة من ابني موسى، ولهما طفلان هما ضافي وصلاح، وهذان السيدان يفرضان عليّ احترام هذه العلاقة. إن اللواء صلاح جديد من عائلة محترمة من منطقة (جبلة) على الساحل السوري، جده كان في مجلس (المبعوثان) زمن الخلافة، ووالده كان (قائم مقام) أيضاً في ذلك الزمان، وهم كعائلة ضحوا أكثر ما يمكن في سبيل ما يؤمنون به.

انتسب اللواء صلاح جديد لحزب البعث العربي الاشتراكي، وهو طالب في الثانوية في حمص إثر محاضرة حضرها للأستاذ ميشيل عفلق، وبعد أن أنهى الثانوية انتسب إلى الكلية العسكرية وتخرج منها في زمن الوحدة، نقل هو وكثير من الضباط الذين كان يُشك في انتمائهم السياسي إلى البعث، إلى الإقليم الجنوبي (مصر)، وفي مصر ولدت نواة للتنظيم، في صفوف الضباط السوريين هناك، بادر بتكوينها الضابط محمد عمران، وكان صلاح جديد أول الملتزمين بهذا التنظيم بعد مؤسسها، ومن بعده حافظ الأسد وأحمد الأمير وعبد الكريم الجندي، وكلهم كانوا ينتمون لحزب البعث العربي الاشتراكي. ومن هنا وحينما انعقد المؤتمر القومي في بيروت، بعد خروج البعثيين من المسؤولية في حكومة الوحدة، انتدب هذا التنظيم الرائد (في حينه) صلاح جديد ليمثله في هذا المؤتمر. اعترفت القيادة التي انبثقت عن المؤتمر بالتنظيم وأسمته

(اللجنة العسكرية لقيادة الحزب في القوات المسلحة)، ومن هنا أخذت هذه اللجنة شرعيتها الحزبية، التي لم تقتصر على التنظيم العسكري في القوات المسلحة، بل تعدته إلى قيادة كل الحزب في سورية، كونه لم يكن هناك حزب في سورية بعد أن حل نفسه كشرط من شروط الوحدة، ومن هنا جاء الدور المؤثر والفاعل لهذه اللجنة منذ ٨ آذار ١٩٦٣ وحتى الحركة التصحيحية في تشرين الثاني ١٩٧٠، ومن هذه اللجنة استمد صلاح جديد (أبرز وأميز أعضائها) دوره المؤثر حتى حركة الفريق حافظ الأسد.

**صفاته**

كان اللواء صلاح جديد شديد الوسامة، قوي الذكاء، جلداً على العمل، طويل النفَس، ذا قدرة كبرى على إخفاء نواياه، يعرف كيف يتعامل مع وسطه من الرجال، قادراً بشكل قل نظيره على تفريق صفوف المعادين له، ذا إرادة غير عادية يفرضها على نفسه في مواجهة واقع لا يستسيغه، فقد أمضى أكثر من عشرين عاماً في غرفته في سجن المزة العسكري لا يخرج منها إلى الساحة العامة التي كنا نقضي فيها ساعتين ونصف الساعة (للتنفس)، لا يخرج من غرفته إلّا لقضاء حاجاته الطبيعية، قال مرةً لأحد المقربين منه: إنني لا أدعو من لي علاقة بهم إلى اتخاذ مواقف، بل أتركهم على طبيعتهم، وهذا بالضبط هو السلوك السياسي الذي قاد به اللواء صلاح جديد المرحلة منذ ٢٣ شباط ١٩٦٦ حتى انقلاب حافظ الأسد في تشرين الثاني ١٩٧٠.

لم يكن له تطلع إلى المركز الأول في سورية، لكنه كان حريصاً أن يكون في المركز الأقوى، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل كان باستطاعة اللواء صلاح جديد هزيمة اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع؟ وأقول نعم، إذاً لماذا لم يفعل؟؟ وهنا أجتهد لأقول بأنه كانت هناك أسباب عدة منها:

أ ـ إن الصراع سيكون عسكرياً بين قوتين في الجيش، قوة الحزب التي كان يملكها اللواء صلاح جديد، وقوة وزير الدفاع وأخيه قائد سرايا الدفاع، وسيكون هذا الصراع بين العلويين في الجيش، وستزهق أرواح كثيرة، الأمر الذي هابه اللواء صلاح جديد.



ب ـ الأمر الآخر الهام، هو أن القيادة كانت منقسمة وتهاب الصراع عسكرياً، الأمر الذي قد يؤدي إلى تقوية أحد الطرفين، وخصوصاً خط اللواء صلاح جديد.

ت ـ إن سورية كانت تنفرد تفرداً ناشزاً، فكل الدول العربية والمقاومة الفلسطينية، مع القرار (٢٤٢)، وسورية كانت هي الرافض الوحيد، والواقع في سورية لا يتحمل هذا الرفض، وقيادتها لم تكن بمستوى تحمل مسؤولية هذا الرفض.

هذه بتقديري بعض الأسباب التي جعلت اللواء صلاح جديد يختار سجن المزة على المواجهة. (يرحمك الله أبا أسامة).

## حكومة الدكتور نور الدين الأتاسي (١٩٦٨ ـ ١٩٧٠)

قام الدكتور نور الدين الأتاسي، الأمين العام للحزب رئيس الدولة في حينه، بتشكيل الحكومة الجديدة، وبقي وزيراً الدفاع محتفظاً بمنصبه في هذه الحكومة، بعد أن رفض تنفيذ قرار الاجتماع المشترك (تغيير مراكز القوى). وكان الدكتور نور الدين يجيب المتسائلين وأصحاب الظن حول استمرار وزير الدفاع (حافظ الأسد) في منصبه، بأنه يتحمل المسؤولية عن المرحلة، حسب قرار الاجتماع المشترك، وعليه أن يقود بالطريقة التي تقود إلى حل التناقض بطريقة سلمية، وقد قاد الدكتور نور الدين المرحلة خلال عامين، فقد خلالهما الحزب سيطرته على القوات المسلحة، فخلال هذين العامين تمكنت وزارة الدفاع من قلب المعادلة في القوات المسلحة لصالحها بعد أن فقدت قيادة الحزب القدرة على حماية العناصر والقوى المؤمنة في الجيش. وما إن شعرت قيادة الجيش بسيطرتها المطلقة على القوات المسلحة حتى قررت حينها بأنها لم تعد بحاجة إلى هذا الغطاء الذي دام أكثر مما يجب، حينها أقدمت على أعمال متعددة ومتنوعة، قادها رفعت الأسد بقصد (تطفيش) الدكتور نور الدين وقد تحقق لها ما سعت إليه، فطرح استقالته على القيادة، وقال أنه لا يستطيع الاستمرار. وكان لا بد من حل لهذا الواقع الذي وصل إليه التناقض إلى حد التحول، حينها قررت القيادة القومية دعوة المؤتمر القومي العاشر إلى عقد مؤتمر استثنائي للقطر والتقرير في هذا الأمر، لماذا المؤتمر القومي وهو لا يملك سوى إصدار القرارات؟

بعض القياديين في الحزب ومنهم اللواء صلاح جديد صاحب اقتراح دعوة المؤتمر القومي، قالها في سجن المزة في دمشق قال: من أجل تسجيل موقف للتاريخ. والبعض قال من أجل إظهار وحدة الحزب في مواجهة قيادة الجيش، والصحيح ليس من كل ذلك، فمجريات السياسة منذ أيلول عام ١٩٦٨ وحتى تشرين الثاني عام ١٩٧٠، تمت قيادتها في سورية بمسير هادف، لأن تصبح وزارة الدفاع في الموقع الأقوى، حتى يجري التغيير حين حدوثه بدون مقاومة من أي مستوى، وبما يتوافق والأوضاع الإقليمية.

فقد جرى التغيير بعد هزيمة المقاومة في الأردن في أيلول عام ١٩٧٠، وكذلك بعد موت عبد الناصر في الفترة نفسها، حينها كان طبيعياً أن يتم التغيير. فالسياسة الاستراتيجية السورية كانت متناقضة تماماً مع كل ما هو في الإقليم من توجه سياسي، وحتى سياسة عبد الناصر. فهي كانت:

أولاً: ترفض القرار ٢٤٢.

ثانياً: تنادي بحرب التحرير الشعبية، الأمر الذي يتعارض مع استراتيجية قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

ثالثاً: كانت ترفض مبادرة (روجرز) الأمر المتعارض مع سياسة عبد الناصر. كانت ترفض كل ذلك، دون أن تكون مقومات واقعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي في مستوى هذا الرفض. لماذا إذاً هذا التوجه؟ إنك حينما تخطو خطوة منفردة خارج النسق تبدو شاذاً، ويستهجن الناس الذين تقودهم هذا النهج المنفرد، خصوصاً إذا كانوا يعرفون أن هذا الموقف المتطرف للنظام والدولة ليس في مستوى مخاطره، هذه هي الحالة التي كان المطلوب استشعارها من قبل الرأي العام.

قبل التغيير، انعقد المؤتمر القومي، وبعد مداولات دامت أسبوعاً، جرت محاولات تسوية الأمور سلمياً كما حدث في بداية الأزمة، إلّا أن أطرافاً في القيادة رفضت التسويات، فأقر المؤتمر دعوة الرفيقين وزير الدفاع ورئيس الأركان إلى التخلي عن منصبيهما في القوات المسلحة، وقد نالت هذه الدعوة اثنين وثمانين صوتاً من أصل



خمسة وثمانين، هم الموجودون في قاعة المؤتمر، ولم يكن غائباً في حينه إلّا الدكتور نور الدين (الأمين العام للحزب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء في حينه)، وصوّت ضد هذه الدعوة ثلاثة فقط هم الفريق حافظ الأسد ـ واللواء في حينه مصطفى طلاس رئيس الأركان ـ والرفيق محمد حيدر عضو قيادة فرع دمشق. وبعد يومين من انفضاض المؤتمر، ألقي القبض على بعض القادة البارزين وهم اللواء صلاح جديد والدكتور يوسف زعين ومحمد عيد عشاوي وفوزي رضا ومصطفى رستم في منزل الدكتور يوسف زعين. ولم يحتج وزير الدفاع، إلّا إلى أقل من عشرين عنصراً من الشرطة العسكرية، للقيام بعملية الاعتقال هذه ومن ثم الانقلاب.

في السادس عشر من تشرين الثاني، أعلنت القيادة القطرية المؤقتة التي شكلت بعد الانقلاب قيام الحركة «التصحيحية» في بيان مطول حول أسباب التصحيح.

وبعد أسبوع اعتقل الدكتور نور الدين الأتاسي الأمين العام للحزب في منزله، بعد أن فرضت عليه الإقامة الجبرية قبل ذلك. وهكذا أسدل التاريخ ستارة على حركة ٢٣ شباط التي مهدت لمرحلة أشد ظلاماً وأعمق عداء للعروبة.

وأعود وأتساءل لماذا «الحركة التصحيحية»؟ لم يكن هناك واقعياً أي مبرر موضوعي إن كان اقتصادياً أو أمنياً، يبرر استيلاء الفريق حافظ الأسد وزير الدفاع على السلطة. فسورية خرجت من الحرب مهزومة كنظام، وأرضها محتلة، وجيشها مدمر، وكذلك مطاراتها العسكرية ومصفاة النفط الوحيدة فيها، مثلها في ذلك مثل مصر. وسورية كانت القطر الوحيد من الأقطار الثلاثة، التي احتلت أراضيها، والتي لم يقرر لها مؤتمر القمة في الخرطوم ١٩٦٧، أي عون مادي.

والمعونة الوحيدة لسورية بعد حرب حزيران، جاءت من الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات المتحدة، وقيمة هذه المعونة كانت خمسة ملايين دولار، ومع ذلك بين حزيران ١٩٦٧ وحزيران ١٩٧٠، كانت سورية قد أعادت بناء جيشها بواقع أفضل مما كان عليه (إلّا قيادته التي ظلت على رأس الجيش رغم الهزيمة)، وأعادوا بناء اقتصادها الوطني بناء سليماً. فقد كان الدولار يساوي أربع ليرات سورية، وكانت قيمة الليرة السورية تساوي ٧٢٪ من قيمة الليرة اللبنانية المرتفعة القيمة، وكان لديها

فائض في ميزانها التجاري يقدر بعشرات الملايين من الدولارات، فيما منحت مصر معونة غذائية من الحنطة كميتها (ثلاثين ألف طن حنطة).

وسأعطي مثالاً على وعي الإنسان العادي على هذه الحقيقة، فقد التقيت في مدينة مأدبا أحد شيوخ العشائر من بني حميدة، إنساناً لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه يهتم بالشؤون السياسية، ويعرف علاقتي بالحزب في سورية، قال لي (لماذا استقالت حكومة سورية)؟ والله إنهم رجال طيبون، لقد كنت بالشام من مدة قصيرة، فالحياة رخيصة (أي المعيشة) والناس مرتاحون. نعم لقد كان الاستقرار بيّناً، ولم يتواجد في سجون سورية من السياسيين في حينه إلّا عدد من البعثيين (حزب القيادة القومية) لا يتجاوز عددهم العشرين، وكانت إجراءات تقرير وضعهم قائمة، وتتجه القيادة بالوضع الداخلي إلى الانفراج. وهكذا فهذا التغيير الذي جرى في سورية هو إثبات لما ذكرته في سياق هذه الذكريات، وهو أن استقراراً أو اضطراباً في أقطار العرب في هذا الإقليم أو ذاك، لا يستمر إلّا بالقدر الذي يخدم أهداف المخطط، حسب الرؤيا الغربية بزعامة الولايات المتحدة.

فكل مسارات النضال القومي والوطني في كل ساحات الوطن العربي في حينه لم تستطع خلق قوى وواقع لا تستطيع الولايات المتحدة وقوى حلف الأطلسي اختراقه وتدميره، فالقوى التي كانت تدفع بالأمور في الوطن خارج إرادة أهله كانت قوى عاتية لئيمة قادرة على ستر خطاها وفرض ممثليها، إن كان الذين يقومون بأدوارهم عن وعي ومعرفة، أم أولئك الذين لم يعوا الحقيقة إلّا بعد أن غاصوا إلى الحد الذي لا يمكن الفكاك منه، أو التراجع عنه، ولم يكن عليهم إلّا الاستمرار بالشوط إلى نهايته. وضمن هذا الفهم، تكون «الحركة التصحيحية»، هي الهدف الذي استهدفته في حينه القوى المضادة لطموحات الإنسان العربي.

إن سورية حتى حينما كانت موحدة (وتسمى بلاد الشام)، لم تشكل في التاريخ مركزاً للقوة من ذاتها، بخلاف شقيقيها في وادي النيل والرافدين. نعم لقد شكلت مركزاً للقوة في التاريخ لفترة قصيرة في خلافة بني أمية، ولكن القوة لم تكن من ذاتها. وشكلت أحد عنصري القوة مع مصر في فترة الصراع مع الصليبيين. ومن هنا فهي لا تستطيع أن تكون مركزاً للقوة من ذاتها، وكذلك فهي لا تستطيع أن تستقر



بذاتها. نعم إن سورية تتمتع بموقع استراتيجي هام فهي تشكل (الرأس والعنق) لما وراءها من المشرق العربي، مثلها في ذلك مثل مصر، ومن هنا كانت دوماً ممراً في التاريخ للمخاطر، إذاً لا بد من واقع إقليمي يجعل سورية دائمة الاستقرار، ما هو هذا الواقع الذي سيجعل سورية مستقرة؟ إنه هو الواقع الذي سينتج عن المخطط الذي تسعى إلى تنفيذه الولايات المتحدة وحلفاء الصهيونية العالمية، (والذي من أجله اخترعت أكبر (فرية) في التاريخ من أن فلسطين، هي وطن اليهود في كل العالم، وأن الصهيونية هي حركة نهوض قومي). وهذا الواقع الذي يسعون إليه، هو خلق هلال خصيب منزوعة أحشاؤه، متجانس سياسياً واقتصادياً يتكون من أقليات عرقية ودينية، ليس له علاقة بالعروبة في نهاية مطافه، ومن ثم يلحق هذا الواقع اقتصادياً وسياسياً في مركز السيطرة الإمبريالي، ومثله في ذلك مثل الجزيرة والخليج والمغرب العربي، وكذلك وادي النيل.

وما المؤتمرات التي كانت تعقد في دمشق وعمان دورياً ويدعى إليها من هب ودب، التي كانت تبحث في تاريخ بلاد الشام كجزء منفصل عن تاريخ العرب، إلّا أحد عوامل التمهيد والدعوة لما هو في الذهن. وما الكلمات التي وضعت في أفواه القادة والساسة وكتّاب الرأي في سورية من مثل (دور سورية الإقليمي)، وسورية هي مفتاح الحرب والسلام في الإقليم، (ولا أحد يستطيع تجاوز دور سورية الإقليمي)، إلّا بعض الدلالات على التوجه الاستراتيجي لسورية، بعد «الحركة التصحيحية» وسعيها الجاد والخبيث بالفعل وليس بالقول فقط، للوصول إلى هذا الهدف.

فقد تقاربت مع الأردن، بعد أن عاونته على تصفية آخر جيوب المقاومة في منطقة عجلون، وتبودلت الزيارات بانتظام بين الرئيس حافظ الأسد والملك حسين، وتشكلت لجنة عليا برئاسة رئيسي مجلسي وزراء البلدين، لبحث مجالات التعاون الاقتصادي وإقامة مناطق حرة للتجارة بين البلدين على حدود كل منهما، وخلال هذا التقارب طرحت سورية على الأردن عقد اتفاقية أمنية بين القطرين الشقيقين، إلّا أن الملك حسين المغطى بجناح أقوى وأوسع من الجناح السوري، تملص من هذا الالتزام حتى يحين الوقت المناسب.

والدور الذي لعبته سورية في لبنان مشهود بدعم أميركي وأطلسي وطبعاً «إسرائيلي»،

وبدعم عربي، مصري سعودي خليجي بغطاء ما سمي بقوات ردع عربي، والذي قاد إلى ما قاد إليه من تدمير الحركة الوطنية في لبنان، واغتيال زعيمها المرحوم المناضل كمال جنبلاط، وإخراج المقاومة الفلسطينية منه.

من هو القادر على فعل ذلك إلّا النظام في سورية والغرب؟ وكان الهدف الأهم بهذا الهلال هو العراق، جوف هذا الهلال، والذي لا يمكن أن يكون هناك هلال خصيب بدون بعضه أو كله.

## العراق وسورية

إن القطرين العربيين الوحيدين المتجاورين والشقيقين فعلاً لا قولاً، اللذين لم تقم بينهما علاقات سليمة أو حتى طبيعية هما العراق وسورية، وكانت سياسة المستعمرين الطامعين والعرب التابعين، وكذلك دول الإقليم تدفع بكل منهما بعيداً عن الآخر، تدفع بالعراق باتجاه إيران وتركيا من ميثاق (سعد أباد) إلى حلف بغداد، وتدفع سورية باتجاه السعودية ومصر والمغرب العربي. لماذا؟ لأن علاقة جدية متطورة ونامية بالاتجاه الصحيح بين هذين القطرين، تجعل اختلال ميزان القوى في الإقليم مؤكداً لصالح الأمة العربية، وتجعل النفوذ الدولي غير قادر على احتوائه، وتضع «إسرائيل» في حجمها الحقيقي، هذا التباعد وصل حد العداء في مراحل متعددة منذ الحرب العالمية الأولى، ولم يتحسن بعد الاستقلال واستمر حتى يومنا هذا، لقد كان ذلك من أهم الأسباب التي لم تمكن الواقع العربي من التماسك في حدوده الدنيا.

هناك موقعان في الوطن العربي يستطيعان أن يكونا مركزاً للقوة من ذاتها هما مصر والعراق، أي (وادي النيل والرافدين)، والتاريخ شاهد على ذلك. استطاع أصحاب المخطط ضد الأمة العربية أن يبطلوا فعل مصر ولو مرحلياً بعد موت عبد الناصر، وطنياً وقومياً من خلال اتفاقات (كامب ديفيد) سيئة الصيت. أما ما كان مرسوماً للعراق، فلم يكن هدفه إبطال فعل مرحلي، ولكنه يهدف إلى تدمير وتمزيق، يستحيل على العراق بعدهما، أن يشكل مركزاً للقوة من ذاته.



## انقلاب ١٧ ـ ٣٠ تموز في العراق

في اليوم السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨، قام انقلاب عسكري في العراق أعاد حزب البعث العربي الاشتراكي إلى السلطة في العراق بعد خمسة أعوام من انقلاب عبد السلام عارف على سلطة الحزب آنذاك، عاد إلى السلطة وله شركاء من بينهم المقدم عبد الرزاق النايف، مدير المخابرات العسكرية في نظام عبد الرحمن عارف، والرائد (إبراهيم الداود) قائد إحدى كتائب الدبابات في الحرس الجمهوري. تولى المقدم النايف رئاسة مجلس الوزراء والرائد وزارة الدفاع بعد أن رفع إلى رتبة فريق، الأمر الذي يعني أنهم كانوا شركاء رئيسيين في السلطة. والأمر الواضح أنه كان وراء هذا الانقلاب نفوذ غربي (إنكليزي أميركي). والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا سهّل الإنكليز والأميركان عودة حزب البعث العربي الاشتراكي إلى السلطة في العراق في تلك المرحلة، مرحلة ما بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧؟

بالتأكيد أن مصلحة العراق الوطنية لم تكن المبرر لهذه المعاونة، ولا بد أن يكون (هؤلاء المعينون) قد استهدفوا تحقيق غايات مهمة من خلال هذه المعاونة، ليست في صالح العراق، وإنما تخدم في النهاية استراتيجيتهم ورؤيتهم لمستقبل العراق، ومن هذه العوامل التي ستساعد هؤلاء المستعمرين على تحقيق أهدافهم:

(أ) إن العراق يتكون من قوميات متعددة أكبرها العرب ومن بعدهم الأكراد، ومن طوائف دينية أهمها السنة والشيعة.

فأن يتولى السلطة فيه حزب قومي الاتجاه، ينادي بوحدة الأمة العربية، وهو أميل إلى العلمية برؤياه الاجتماعية، يخلق واقعاً بين الأقليات القومية والطوائف الدينية، فيه خوف وتوجس، يجعل في تقدير المستعمرين الاصطياد في مياهه التي يسهل تعكيرها أمراً سهلاً.

(ب) يخلق المبرر لأنظمة الخليج العربية ولا سيما السعودية والكويت، الغارقتان في مستنقع المخطط المعادي لكل مركز قوة عربي، وكل دعوة جدية للتضامن (دعني من الوحدة العربية)، والمساهِمتان جدياً في تحقيق المخطط

الأميركي في المنطقة العربية.

(ج) يعطي شاه إيران المعادي للقومية العربية والداخل في كل مخطط ضد العرب، والمتطلع إلى أن يجعل من منطقة الخليج العربي ساحة لنفوذه مبرراً للتدخل.

(د) هناك مسلّمة في السياسة الإيرانية، تعتبر العراق أهم المجالات الحيوية (للإمبراطورية الفارسية) وحق شاه إيران مشروع في التدخل في شؤون العراق، والحفاظ على هذه المسلّمة.

(هـ) خلق حاجز عقائدي بين العراق وسورية يمنع التقارب ويؤجج العداء (بين يسار البعث في سورية ويمين البعث في العراق) كما يصفونه، وهذا افتراء على الحقيقة. فانقسام البعث هو انقسام سياسي، ناتج من النفوذ الدولي العربي والإقليمي التابع.

(و) إن التجربة السابقة لحكم البعث في العراق، شجعت على إعادة الكرة، وكانوا متأكدين ١٠٠٪ أن هذه العوامل وغيرها ستقود العراق والبعث إلى الهاوية التي لا نجاة منها.

وفي ٣٠ تموز من الشهر نفسه، قام البعثيون بإبعاد شريكهم المشبوه، كما وصفوه في البيان الرسمي، إلّا أن هذا الإعلان عن الشُبهة، لم يقنع الكثير لا من العراقيين ولا من العرب وخصوصاً البعثيين منهم، لأن الناس لا يعرفون صلات عبد الرزاق النايف في الدوائر الغربية، ولكنهم يعرفون صلات حردان التكريتي بهذه الدوائر، وهو أكثر شُبهة وأكبر جريمة، وقد ذبح ما ذبح من الحرس القومي، ونكّل بمن بقي منهم على قيد الحياة.

بعد فترة، وكنت في سجن المزة في دمشق، تم إقصاء حردان التكريتي عن عضوية مجلس قيادة الثورة، وأرسل سفيراً إلى الخارج، وحينما رفض هذا الإقصاء والتعيين، انتقل إلى الكويت ليقوم بدور تآمري (ذبح جهاراً نهاراً)، هذا الأمر لفت الانتباه أنه



كان هناك في القيادة في العراق من يحاول تنظيف البيت العراقي.

وفي مرحلة لاحقة جرت عملية تآمر، لا شك أنه تخللها ملابسات غريبة، قتل بها المتآمر الأول مدير الأمن العام (الدموي) ناظم قزاز، والضحية كان الفريق حماد شهاب وزير الدفاع، وجرح عضو مجلس قيادة الثورة سعدون غيدان.

وفي رأيي الشخصي، رغم القرآن الكريم الذي تُلي على روح الشهيد وزير الدفاع، إلّا أنه كان عائقاً جدياً أمام سير العراق الصحيح.

وفي غياب هذين الرجلين، المتآمر والشهيد، أصبحت الأمور أقل صعوبة لنزع العوائق من على خط سير العراق بالاتجاه الوطني السليم. وأقصي بعد ذلك عن مجلس قيادة الثورة ووزارة الداخلية عائق هام آخر هو الفريق صالح مهدي عماش، الذي عين سفيراً في إحدى الدول الأوروبية. هذه الإجراءات أضعفت النفوذ الخارجي، والعقلية المحافظة المتخلفة، وجعلت واقع القيادة أكثر انسجاماً. والأهم، أنها جعلت نفوذ الحزب في مركز القرار، أكبر. وهنا لا بد من القول حسب قناعتي الذاتية، أنه لولا قيادة الرئيس البكر (يرحمه الله) لتلك المرحلة، والذي كان يحظى باحترام في أوساط لجيش (ويؤمن بالحزب تقليدياً)، لكانت مهمة الحزب وطليعة قيادته في الوصول إلى مركز القرار أكثر صعوبة.

هذا الواقع السياسي والذي بدون حدوثه ما كان يمكن الإقدام بعده على أية خطوات جدية، تحدد اتجاهاً واضحاً، لمسار العراق وللأهداف التي يقصدها هذا المسار وطنياً وقومياً.

وبعد خلق هذا الواقع المتوافق وطنياً، أقدمت قيادة العراق على تأميم شركة نفط العراق في شمال العراق في الأول من حزيران عام ١٩٧٢.

لماذا؟ أتذكر هذا التاريخ، كنت في حينه مسجوناً انفرادياً في منفردات سجن المزة بعد عام يقل عشرين يوماً من اعتقالي، دون أن يسألني أحد حتى عن اسمي.

ففي حوالي الساعة التاسعة والنصف ليلاً أُدخلت إلى الممر الفاصل بين الزنازين (سماعة مذياع) وبدأت تردد أناشيد وطنية وقومية تدل على وقوع حدث هام، وعلى القارئ أن يصفن ليستشعر الحالة التي تغدو عليها حالة سجين سياسي منفرداً منذ قرابة العام، يزحم الأمر الذي يسمعه فكره وعقله وحواسه، بكل أنواع التصورات والآمال والأماني.

بقيت هذه السماعة تردد أناشيدها حتى الساعة الحادية عشر ليلاً، حينها أعلن المذيع نبأ قيام الجمهورية العربية السورية بتأميم ممتلكات شركة نفط العراق على الأراضي السورية. فصفنت في الأمر واستهجنته، إذ إن هذه الممتلكات تعود إلى شركة نفط العراق، والعراق على الأقل يملك الجزء الأهم منها، والاستيلاء عليها يعني أزمة بين العراق وسورية، لكنني لم أصل إلى السبب الحقيقي الذي سبب تأميم سورية لهذه الممتلكات. وفي التنفس الذي كانت مدته خمس عشرة دقيقة، التقيت رئيس الحرس، وسألته عن الأمر، فقال لي: إن العراق قد أمم شركة نفط العراق، ونحن بدورنا أممنا ممتلكاتها في سورية، فقلت له (بارك الله فيكم على هذا العون الكبير). فأدركت مبررات هذا الإنجاز العظيم للنظام في سورية. وفي جريدة البعث التي صدرت في اليوم التالي، كانت هناك صور لجموع المهنئين الأردنيين، الذين كانوا يتوافدون على السفارة السورية في عمان، مهنئين بهذا الإنجاز الوطني العظيم!! ولفت انتباهي صورة واسم المحامي البارز الأستاذ إبراهيم بكر، الذي بالتأكيد كان يعرف أسباب هذا الإنجاز ومضمونه كذلك، ويعرف أن ممتلكات شركة نفط العراق كانت تعود في كل بقاع العالم إلى العراق، بعد أن أمم هذه الشركة، أو على الأقل تخضع للتجميد، إلى أن يجري التفاوض عليها بين حكومة العراق وممثلي مالكي أسهم شركة نفط العراق.

ولكنها (جوقة) اليسار المزيف (الذي لونه أحمر وجوفه أبيض) قشره سوفياتي ومضمونه إنكليزي! كلنا يعرف الجو السياسي الدولي الذي أثاره هذا الفعل والتهديدات البريطانية والغربية، والموقف البائس الذي وقفه الاتحاد السوفياتي، ومع ذلك فقد أثبت شعب العراق من خلال التضحيات المادية التي تحملها طواعية، أنه يعي أهمية هذا الفعل الذي قدّم من أجل الوصول إليه، تضحيات جدية خلال العقود الماضية.



وفي آذار عام ١٩٧٣ سوّى العراق نزاعه مع شركة النفط الإنكليزية، وبذلك نجح التأميم، وأثناء حرب تشرين عام ١٩٧٣ أكمل العراق مشواره من أجل سيطرته الكاملة على ثروته النفطية، بعد أن أمم كل حصص الدول الغربية في شركة نفط جنوب العراق.

هذا الواقع الذي صار عليه العراق القطر ذا الإمكانات الاقتصادية الكبيرة، والشعب القادر على الفعل، إذا ما تهيأت له قيادة تعي الأمور وتعرف أهدافها، هذا الأمر جعل القوى الدولية والأخص الغربية منها، تشعر بالقلق على مخططاتها في الإقليم، بعد أن أصبح واضحاً أن النظام في العراق بعد خمسة أعوام من وصوله للسلطة، قد دمر إمكانية الانقلاب عليه، بعد أن عزز سيطرته على مقاليد الأمور في الجيش.

ولما كان للإنكليز دوماً أكثر من احتياط يرمونه في ساحة الصراع إن كان داخلياً أو خارجياً، فإن يترك العراق يستمر في نهوضه وتقدمه سالماً من كل العوائق على طريق هذا التقدم، فإنه سيقلب موازين القوى في موقعين، القضية الفلسطينية، والخليج العربي، ومعروفة أهمية هذين الموقعين للغرب وخصوصاً أميركا، ومن يسير في ركابها في المنطقة والعالم.

وما إن أصبح واضحاً أن أية إمكانية لإيقاف سير العراق باتجاه النهوض والتقدم خارج أداة النظام، مستحيلة، عندها رموا باحتياطهم الأخير داخل العراق، أي داخل أداة النظام أي داخل (حزب البعث العربي الاشتراكي) خاصة، ولهم أكثر من تجربة في هذا الميدان في سورية والعراق.

إن أي حزب في أي مجتمع من مجتمعات العالم الثالث، هو من هذا المجتمع، فمهما كانت نظريته صحيحة وتحليله للواقع سليماً، فإن أمراض هذا المجتمع من ضحالة في الوعي وتخلف في تطوره، وتوزع في ثقافته، وانتماء في تكوينه، ينقسم إلى شرائح اجتماعية متعددة، ووضع طبقي هلامي، يجعل تماسكه هشاً، والوعي بمهمته غائماً. ولكي تخلق أداة مغايرة كلياً ومختلفة نوعياً، متجانسة فكرياً وثقافياً، ومختبرة نضالياً تعي أهدافها الاستراتيجية، فمن المؤكد أنك تحتاج إلى أكثر من عقدين من الزمان، لتصبح هذه الأداة واعية لمهماتها من خلال الاحتكاك بأعدائها

داخلياً وخارجياً، ولم يكن قد تحقق للحزب في العراق، هذا المدى الزمني، خصوصاً أن تجربة عام ١٩٦٣ قصيرة العمر، كانت مضطربة.

## المؤامرة على النظام في العراق من خلال أداة النظام

إنني لا أملك معلومات في أي مستوى عن هذه المؤامرة، ولكنني أملك معرفة تاريخية ومعايشة ذاتية ورفقة نضال ببعض شخصيات مشتركة في هذا التوجه. إن الحديث عن بعض شخصيات هذه المؤامرة هو شديد الإحراج، لأنه يتناول رموزاً في حزب البعث العربي الاشتراكي هي (رموز مطهرة). فالحديث عن المسار السياسي لهذه الشخصيات البارزة يصيب الكثير من الوطنيين وخاصة البعثيين منهم بالإحراج، ومنهم كاتب هذه الذكريات، فمن بين هذه الرموز من كان قائداً ومعلماً له، إلّا أن المسار القومي والوطني لهذه الأمة خلال أكثر من نصف قرن مضى ووصل إلى ما وصل إليه من حالة مأساة، يحتم على كل من عايش هذه المرحلة معايشة فعل ومعاناة خالية من الغرض الذاتي، أن يساهم بجد صادق أساسه المعرفة والمعايشة والموضوعية ليتشكل حينها (مجرى عام) يكشف أهم الأسباب التي قادت إلى هذا الانهيار العام على مستوى النضال القومي.

وهنا لا بد من العودة إلى الوراء لتتبع تسلسل الأحداث والشخصيات المشاركة فيها. إن الأستاذ ميشيل عفلق عاد بعد حركة ٢٣ شباط واستلم قيادة الحزب وشرعيته بعد أن تخلى عنها للدكتور منيف الرزاز في المؤتمر القومي الثامن، واكتفى بلقب (القائد المؤسس). وإعطاؤه هذه الصفة لم تكن للتكريم فقط. إنني لم ألتق الأستاذ ميشيل عفلق ولكن الذين يعرفونه يقولون أنه يعتبر الحزب جزءاً من ذاته وهو لم يكن ليتخلى عن مسؤوليته، حتى لو أعاد تنظيمه مبتدئاً بنفسه. إذاً هل أجبر على ذلك لإيمانه بالديموقراطية؟ (وهو أكثر الناس معرفة بديموقراطية المؤتمرات في حينه). في كتابه «التجربة المرة»، انتقد الدكتور منيف الرزاز الأستاذ ميشيل، وانتقد اللواء صلاح جديد نقداً مراً، وفي لقاء لي مع الدكتور منيف في منزله بعمان قبيل (أيلول الأسود) عام ١٩٧٠ ـ وكان الصراع على السلطة في سورية لم يحسم بعد، إلّا أن وزير الدفاع الفريق حافظ الأسد، قد أصبح في الموقع الأقوى، وهو ينتظر الظرف المناسب حينها ـ قال لي: إنك كنت مع ٢٣ شباط قبل وقوعها، وهذا قول خاطئ لأنني لم أكن



أعرف في حينه، لا من قادة حركة ٢٣ شباط ولا من القيادة القومية إلّا الدكتور منيف، وقد اعتمد في هذا القول على التوصية التي أوصلتها إليه، بألا يحل القيادة القطرية في سورية، إلّا حينما يشعر الناس أنها فشلت.

وفي هذا اللقاء طلب إلي أن أتدخل مع المسؤولين السوريين ليسمحوا له بنقل مكتبته من دمشق إلى عمان، وأردف قائلاً: إن الفريق حافظ الأسد صديق لي، وأن الأستاذ ميشيل عفلق إنسان طيب، ويجب أن لا يؤخذ بظواهره، فهو (كماركس) لا يحسن الصداقات.. وحاول أن يتابع ولكنه تردد ثم توقف، اعتقدت فيما بعد أن أبا مؤنس كاد أن يطلب مني أن أقرر موقفي من الصراع على السلطة في سورية لصالح الفريق حافظ الأسد، (وهذا يبقى اعتقاداً). وهنا لا بد من العودة إلى ٢٣ شباط، وتقرير من هي الشخصيات التي لعبت الدور الرئيس فيها؟

لقد كان اللواء حافظ الأسد قائد سلاح الطيران في حينه، عضواً في قيادة الدكتور منيف الرزاز القومية، ومن موقعه ذاك، وافق على قرار القيادة القومية بحل قيادة الحزب في القطر السوري، ووافق أيضاً على أن تتولى القيادة القومية مسؤولية الحكم في القطر السوري، إلى أن تستطيع بناء حزب بعث عربي اشتراكي حسب رؤاها بالضبط، كما يفعل قائد عسكري أو ملك قام بانقلاب على الشرعية القائمة، ويقوم ببناء الجيش بعد ذلك بالأسلوب الذي يضمن أمن مساره السياسي المستقبلي. وهنا لا بد من الإشارة إلى واقعة تاريخية هامة، وهي أن صلاح جديد تردد وتراخى في الإقدام على عمل عسكري ضد القيادة القومية، وأن قيادة قطر سورية المنحلة، قد قررت القبول بالأمر الواقع والنضال للعودة إلى السلطة من خلال الحزب، والعامل الأهم الذي جدد همة صلاح جديد، وأنهى تردد قيادة قطر سورية، هو انضمام اللواء حافظ الأسد عضو القيادة القومية، وقائد سلاح الجو في حينه إلى خندق صلاح جديد وقيادة قطر سورية ضد القيادة القومية التي كان اللواء الأسد عضواً فيها، ومن موقعه هذا، دعم قرار حل قيادة قطر سورية للحزب بطريقة غير شرعية (أي ليس أمام مؤتمرها)، هذا الأمر الذي يتعارض مع النظام الداخلي للحزب، وبذلك تعزز موقف اللواء صلاح جديد وقيادة القطر السوري.

إن الذين هاجموا منزل الفريق أمين الحافظ، رئيس الدولة في حينه، هم سليم حاطوم يقود كتيبة مغاوير، وعزت جديد الذي لا تربطه قرابة بصلاح جديد، ورفعت الأسد

شقيق الفريق حافظ الأسد. إن لعبة الأنفاق هذه، كان هدفها الرئيسي الإطاحة بالفريق أمين الحافظ، لأنه كان العقبة الوحيدة التي إن تم تجاوزها، يصبح الطريق مفتوحاً إلى «الحركة التصحيحية».

نعم كان الفريق أمين الحافظ هو العقبة، لذلك لم تترك له فرصة المبادرة التي طلبها، وهي اعتقال القادة والنشطاء في صفوف أنصار القيادة القطرية. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن للدكتور منيف أن يكون صديقاً للفريق الأسد، العضو في قيادته القومية، صاحب الدور البارز في الانقلاب على هذه القيادة؟ وأنا لا أريد أن أذهب إلى أكثر من طرح السؤال!

في مذكرات الدكتور جمال الشاعر، الذي أرسل لي نسخة منها بناءً على طلبي وأنا في سجن المزة، جاء فيها من بين الكثير المهم، أنه ذهب ومحمود المعايطة بعد استيلاء الفريق حافظ الأسد على السلطة في دمشق إلى بيروت، للقاء الأستاذ ميشيل عفلق، وحين التقيا به وطرحا عليه فكرة لقاء البعثيين في تجمع سياسي موحد على الساحة الأردنية، وافق على الفكرة. وأنا هنا لن أناقش حق الأستاذ ميشيل في الموافقة على مبدأ تنظيمي وسياسي يدخل في صميم معنى الحزب ومضمونه، دون الرجوع إلى المؤسسة الحزبية صاحبة العلاقة والقرار.

ولما كان الدكتور جمال الشاعر غير ملتزم تنظيمياً بأي من أجنحة البعث وله فهم أعرفه عن الحزب، ودوره السياسي مختلف تماماً عن مبادئ الحزب والأهداف التي يناضل البعثيون من أجل تحقيقها، وكان الرفيق محمود المعايطة قد التزم حزب «الحركة التصحيحة» ومن موقعه هذا يتباحث مع القائد المؤسس ويقترح عليه، الأمر الذي يعني أن الأستاذ ميشيل يعتبر «الحركة التصحيحية» ومن يلوذ بها أحد أجنحة البعث، وهو يوافق على أن يكون البعث الذي يقوده هو (أي البعث الأصيل) في الأردن والبعث الملتزم «بالحركة التصحيحية» ويقوده الرفيق محمود المعايطة وتجمع البعثيون غير الملتزمين بتنظيم، ويقودهم الدكتور جمال الشاعر، أن يتجمعوا في حركة سياسية واحدة، ما معنى هذا الخلط؟ وما هي مراميه بعد هزيمة المقاومة في الأردن؟ ومجيء اللجنة العربية لتصفية جيوبها في الأردن؟.

التقيت الدكتور منيف الرزاز وقد كان مسؤولاً عن جبهة التحرير العربية، ومن موقعه



هذا ناشد القيادة العراقية بإلحاح، للتدخل عسكرياً لمصلحة المقاومة، التقيت به في مقر قيادة أبو عمار في الأشرفية، وكان الدكتور قد اعتقل طوال فترة القتال، وبقي معتقلاً لفترة أطول من شهر، إلى أن شكل الأستاذ وصفي التل الحكومة، فأفرج عنه وعن جميع المعتقلين القياديين في المقاومة. قال الدكتور منيف لياسر عرفات، وأنا أستمع، يا أبا عمار، إنني أنصح المقاومة أن تتعاون مع الأستاذ وصفي من أجل تهدئة الأوضاع في الأردن، وأكمل قائلاً: إنني هنا لأبلغك أنه لم يعد لي علاقة بجبهة التحرير العربية ولا بحزب البعث العربي الاشتراكي، فنهضت لأخرج بعد سماعي هذا الكلام، فتوجه إليّ قائلاً: أقعد يا أبا موسى، فقعدت وجلست، فقد كنت حريصاً على احترامه. وبعد هذه الواقعة بعدد من السنين سمعت وصفه من إذاعة بغداد بالأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي، وقد سررت في حينه لذلك (فمن عاد ما هرب).

لقد اعتمدت المؤامرة ضد النظام في العراق في تلك المرحلة على تعويم معنى البعث (إن صح التعبير) كتنظيم وكنهج وسلوك سياسي، بأن كل من قال (أنا بعثي) وانتمى في مرحلة معينة من مراحل نضال البعث إلى الحزب، بغض النظر عن الأسباب الفكرية والسياسية النضالية والمسلكية التي فرضت خروجه من الحزب، يحق له، حسب الصيغة التي اتفق عليها الدكتور جمال الشاعر ومحمود المعايطة مع الأستاذ ميشيل، العودة إلى صفوف الحزب، وفي أي موقع يستدعي التوجه السياسي أن يحتله. وهذا بالضبط ما حدث مع الدكتور منيف، فقد عاد للحزب بالرغم من التجربة المرة وبالرغم من الموقف الذي أبلغه لياسر عرفات، وكأن غربال الخمسين عاماً الذي كان دائم الاهتزاز لم يسقط من ثقوبه الواسعة ولا بعثي واحد ليصبح بالتالي صدام حسين مثل حافظ الأسد، وطارق عزيز مثل فاروق الشرع، وعدنان خير الله (يرحمه الله) مثل مصطفى طلاس، للوصول بعد ذلك، إلى أن سبب العداء بين سورية والعراق اللذين يحكمهما حزب البعث العربي الاشتراكي هو الصراع الشخصي بين صدام حسين وحافظ الأسد على الزعامة. أين يطبخ مثل هذا الخبث إلّا في مطابخ أعداء العرب؟!

إن موضوع المؤامرة على العراق هو الحلقة الأخيرة من سلسلة حلقات ناجحة على مصر وعلى سورية، على المضمون المقاوم للإنسان الفلسطيني، والعربي المحيط بفلسطين. ولكن المؤامرة على العراق هي الأهم ليس لصعوبتها في ذهن القائمين على المؤامرة، ولكن لأنها الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة التآمرية الناجحة، التي بعد

نجاحها يكون مصير العرب قد تقرر إلى مدى غير منظور، فالمغرب العربي ممسوك، وكذلك وادي النيل، وبلاد الشام، أما الجزيرة والخليج فليست ممسوكة فقط، بل وتقاتل بالمهم الذي تملكه من مال ونفط، في صفوف الأعداء، فلم يبق إلّا العراق وهو غير قادر على الشذوذ عن هذه القاعدة أمام هذا الحشد من الأعداء، ولقد أسند الدور التنفيذي في المؤامرة إلى الحكم في سورية، لماذا الحكم في سورية؟.

لأن التوجه الاستراتيجي السوري إقليمياً، يستند إلى العداء المطلق للعراق، ليس العداء المجرد، لكنه عداء مضمونه الفعل لكل الطاقات السورية وغير السورية الموظفة لتحقيق هذا الهدف.

فإما الحكم في سورية ومشروعه المتبنى (أي هلال خصيب بمن فيه)، الذي يستدعي إسقاط النهج الاستراتيجي للعراق، ووضعه ضمن الخارطة السياسية المتصور فرضها، وإما العراق ومشروعه المضاد، وهذه قضية حياة أو موت بالنسبة للنظام في سورية ولمن يقفون في صفه، فليس هناك من دول الإقليم المجاورة من يمتلك عوامل التأثير على العراق أكثر من سورية.

فجغرافياً تمتد حدود العراق الغربية مع سورية مسافة ستماية (٦٠٠) كيلومتر، تسكن على جانبيها عشائر متعددة أصولها واحدة، وماء الفرات يصل إلى العراق عبر الأراضي السورية، ونفط العراق يذهب إلى المتوسط عبر سورية، ويمنع القطر العربي السوري العراق من الوصول إلى المتوسط متى أراد ذلك، لا نفط ولا تجارة، وسورية دولة عربية تدعو إلى الوحدة العربية إعلاناً، يحكمها حزب البعث العربي الاشتراكي (بغض النظر عن حقيقة هذا الحكم، وأيضاً بغض النظر عن إيديولوجية هذا الحزب الذي يقود السلطة) وهي تنشر كل دعاوى التضليل المطبوخة في مطابخ أعداء العرب ضد العراق، ويوظف النظام في هذا الميدان الحكام العرب ذوي التأثير المادي الكبير، ولا سيما دول النفط الذين يرتعدون خوفاً من تقدم العراق وقوته. إضافة إلى كل ذلك، ليس هناك من هو مؤهل للعب هذا الدور بكفاءة، إلّا القيادة في سورية، التي تستند إلى أداة حكم ليس لديها شك في شرعية قيادتها وعصمتها من الخطأ، هذه الأداة التي جاء تصورها مسبقاً لانفصال سورية عن مصر، علماً أنه بسبب هذا التصور المسبق، فشلت مباحثات الوحدة، ومن دون هذه الأداة لا يمكن أن يتحقق المشروع الذي سيجعل سورية مستقرة إلى الأبد. وهذا الرأي قاله أحد السجناء السياسيين، وهو



عسكري برتبة عميد من الطائفة العلوية، اسمه (شفيق عبده). حينما تسلم الفريق حافظ الأسد رئاسة الجمهورية قال العميد آنذاك شفيق عبده: إن هذا أمر خطير، فعامّة العلويين يؤلهون الحاكم العلوي. إن طائفة العلويين تشكّل ١٠٪ من الشعب في سورية، ومن المعروف أن أي حزب سياسي تكون نسبة منتسبيه ومؤيديه ٤٪ من مجموع الشعب، يستطيع الحزب أن يصل إلى السلطة إن كان بطريق ديموقراطي أو طريق ثوري انقلابي، إن كان معداً لذلك.

وهكذا توج المسار السياسي انقلاب آذار عام ١٩٦٣، بالاستلام المباشر للأداة التي تكونت عبر هذا المسار في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٧٠، فانفتح أمامها كل ما كانت محرومة منه في الحياة، وهو الكثير الكثير. ومن حينه أصبحت حريصة جداً (حتى بدون وعي منها) على موقفها هذا، فهي مع الأداة التي تضمن لها ذلك، هذه الأداة المنظمة والمتماسكة خلف قائدها، والتي ترفع شعار البعث عالياً (في الوحدة والحرية والاشتراكية) وتقول هذا هو البعث (فمن هو الذي يقول غير ذلك). لا يهمها في تلك المرحلة إلّا:

أولاً: البقاء في السلطة.

وثانياً: المزيد من المكاسب، وهي من أجل ذلك تبيح المحرمات، وأينما توجه القائد فهي خلفه.

وأنا هنا لا أستهدف التعريض أو اللوم لطائفة العلويين، فأناسها غير ملومين إطلاقاً، إنما يعود الأمر أولاً، إلى عصور الانحطاط وثانياً للقصور التاريخي لذوي السلطان منذ الاستقلال، وثالثاً للإستغلال الاستعماري لهذه الظواهر في العالم المستعمر، وأخيراً وليس آخراً، الشخصيات التي استغلت هذا الواقع لتحقيق مخططات سياسية معادية لإنسان هذه المنطقة، ولتخدم بالتالي مصالح القوى المعادية للحقوق المشروعة لمواطن هذه الأمة.

## «الحركة التصحيحية» وتوجهها الاستراتيجي ضد العراق

لقد مر جهد القيادة في سورية من أجل إسقاط نهج العراق بمراحل عدة، فلم يجر

تآمر أجنبي في العراق إلّا وكان النظام في سورية على صلة به. ولم يحدث تدخل خارجي إلّا وكان النظام في سورية حليفاً له بكل طاقاته منذ الحرب العراقية ـ الإيرانية، وصولاً إلى حلف حفر الباطن سيئ السمعة والذكر.

بدأت المرحلة الأولى حين تسلم الفريق حافظ الأسد كامل السلطات بعد أن تسلم رئاسة الجمهورية، وانتهت بفشل حرب تشرين على الجبهة السورية. فلقد قام الرئيس حافظ الأسد بإحدى أولى زياراته خارج سورية إلى إيران، وهناك التقى شاه إيران وعبّر له عن نواياه تجاه العراق، ولكن شاه إيران الذي يقيم نفسه وإيران عالياً، ما كان ينوي أن يؤخذ عليه تحالف مثل هذا، فأكرم الرئيس الأسد بأن منحه قرضاً مالياً! وهكذا نرى أن نية سورية بالتعاون أو التحالف مع إيران، كانت سابقة لـ«ثورة الخميني»، فلا تحالف شاه إيران مع «إسرائيل» عائق أمام هذا التعاون، ولا ادعاء الخميني بتحرير فلسطين عبر العراق دافع لهذا التعاون، وإنما الهدف استراتيجي لسورية: العراق نظاماً ووطناً.

## حرب تشرين التحريرية؟!

إن الحروب بقادتها، وأقصد بذلك حروب التحرير. فمنذ الإسلام مروراً بثورة أكتوبر وحروب التدخل ضدها، إلى تحرير الصين وتوحيدها، وحروب التحرير الفيتنامية العظيمة، حتى أم المعارك الخالدة، والحروب ونتائجها مرتبطة بقادتها، لأن المبادئ هي التي تقود خطى المحررين المؤمنين الذين يقاتلون من أجل تحقيق هذه المبادئ التي يمثلونها، وتستهدف هزيمة العدوان والطغيان والاستعمار، وتنشد العدالة والمساواة.

إن الدلالات العميقة إنسانياً لهزيمة الاستعمارين، الفرنسي والأميركي الطاغي في أوج جبروته وتبجحه أمام إيمان شعب صغير فقير مؤمن، كالشعب الفيتنامي، لا يماثلها تاريخياً ضمن الواقع التاريخي لكل منهما سوى هزيمة الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على يد العرب المسلمين.

إن هذين الحدثين التاريخيين يعطيان دليلاً أوضح من الشمس، أن هؤلاء البغاة المستعمرين، إذا ما واجهوا شعباً مؤمناً مهما كان حجمه صغيراً قياساً إلى حجومهم، وفقيراً قياساً إلى غناهم، وقوة روحية قياساً إلى خوائهم الروحي، فإنهم سيهزمون



الهزيمة المنكرة، كما حدث لهم أمام الفيتناميين المؤمنين بحقهم في الوحدة والحرية تاركين أحذيتهم على أسطح منازلهم.

أما حروب «إسرائيل» وبعض العرب المحيطين بها، فهي على شاكلة صانعيها، حروب مؤامرات ومتآمرين صغار، عرباً وصهاينة، ونتائجها على مستوى قادتها، صغيرة وهزيلة التأثير وهي من نوع الخنادق والكمائن المعوقة لوصول العرب إلى حقيقتهم التاريخية. إنني لا أنوي الحديث عن هذه الحرب (حرب تشرين) إلّا في موقعين:

الأول: إن السبب الرئيسي لهذه الحرب هو التسوية، حسب الرؤيا الأميركية ـ الصهيونية، التي منعها نهوض عبد الناصر إثر وقوعه أرضاً عام ١٩٦٧، ثم كان موقف خليفته أنور السادات (الذي أزالت جرافات الإمبريالية كل العوائق من أمامه للوصول إلى هذا الموقع الذي لم يكن أهلاً له)، كان موقفاً واضحاً (وهو الوصول إلى التسوية من واقع الحرب المُسيطر عليها). هذه هي استراتيجية أنور السادات الواضحة المستندة إلى رؤية وزير الخارجية الأميركي آنذاك، هنري كيسنجر، ولكن الأمر المحير للفهم هو حالة القيادة السورية وموقعها، هذه القيادة التي لا تقرأ ولا تكتب ولا حتى تسمع خارج رؤيتها لواقعها الذاتي، والتي يتمثل همها الأساس في كيفية البقاء في الحكم والحفاظ عليه، ليوفر لها إمكانية الصلة بكل مراكز القوى في العالم، (ليتحقق لها مشروعها المنتظر)، وهي لا تعي أن همها هذا لن يزول، بل سيكبر ما دامت لا تعطي ولو بقدر قليل، المعرفة والوعي بالواقع السياسي والعسكري، وهي تواجه عدواً يحتل أرضها مدعوماً من أقوى مراكز القوى في العالم (إنني مقتنع أنها كانت تستهدف استعادة أرضها). أما أن تهمل الوعي الحقيقي لهذا الواقع إهمالاً مطلقاً، وتكون بمجرد دخولها (في صفقة العمر) مع أصحاب المشروع في الإقليم، هذا المشروع الذي آمنت إيماناً «تاماً» أن لا ريب في تحقيقه، ومن هذا الإيمان كانت تنام على حرير أداتها، التي لا يأتيها الخلل من أي جانب من جوانبها، وتسخّر كل جهدها في ميادين نشاطها وفعلها كقيادة مسؤولة عن شعب، وعن وطن من أجل سد الثغرات فقط، التي قد تنفتح عليها في بعض الحالات في جدران أداتها، مقتنعة قناعة مطلقة أن كل خلل سيصحح حال تحقيق (مشروع الهلال الخصيب المنزوعة أحشاؤه).

ومن هذا الإيمان ازدادت عداوتها للعراق قبيل الحرب، هادفة من هذا العداء التمهيد

لتوظيف نتائج الحرب (وهو النصر الذي ستحققه والذي كانت تظنه مؤكداً كأحد العوامل الرئيسية ضد العراق)، لكن (حساب السرايا لم يتطابق وحساب القرايا) كما نقول.

إن القيادة العسكرية السورية منذ حرب عام ١٩٦٧، لم يكن يهمها نتائج الحرب، إلّا بالقدر الذي تقدمه هذه النتائج من دفع المشروع المعد مسبقاً لهذا الإقليم إلى الأمام، فهي لم تحارب عام ١٩٦٧، وتخلت عن المرتفعات السورية ( الجولان)، كجزء من الثمن لاستمرارها في السلطة، في ظنها أنها في حرب عام ١٩٧٣ ستستعيد الجولان، وتوظف هذا النصر في خدمة مشروعها، ومشروع من هم ضد العراق، وكانت قناعتها مطلقة أن ذلك سيحدث.

إن القيادة السورية التي تصب كل اهتمامها (وليس جله) محلياً وعربياً ودولياً فقط، من أجل إظهار واقعها على غير حقيقته (الفاشية الطائفية)، وهي مكرهة على فعل ذلك، لأن مشروعها السياسي منذ ٨ آذار ١٩٦٣، الذي تسعى إلى تحقيقه متناقض تماماً مع (الأيديولوجية) المتبناة، أيديولوجية حزب البعث العربي الاشتراكي، ولا تستطيع ستر هذه الحقيقة وإخفاءها، إلّا بجهد متميز في الداخل إن كان قمعاً أو تضليلاً. إضافة إلى جهد أصحاب المشروع الذين يملكون وسائل مادية وإعلامية ومخابراتية قادرة، وهي قوى حلف الأطلسي وأتباعها من العرب والصهاينة، القادرين حتى على توظيف إعلام المعسكر الاشتراكي ومواقعه ومواقف مؤيديه في الوطن العربي بهذا الاتجاه، لخدمة موقف النظام في سورية، وكل ذلك من أجل جعل أداة النظام مقتنعة بقيادتها ومشدودة إليها.

وطبعاً هذه الصورة التي يقدمها الإعلام الغربي والمتأثرون به في العالم، مدفوعة الثمن سلفاً، بالضبط كما تدفع أية شركة ثمن إعلاناتها لإحدى الفضائيات التلفزيونية، إلّا أن الثمن هذا مختلف نوعياً، فهو يدفع من مصلحة سورية والوطن العربي، وكلما أصبحت البضاعة أردأ، ارتفع سعر الإعلان، وأنا هنا لا أتجنى، وسأورد مثالاً واحدا من عدة أمثلة على ذلك، قيلت في ندوة مفتوحة، أقامتها الجبهة الوطنية، التي يعلن النظام زوراً أنها صاحبة السلطات في سورية، وهذا القول للشاعر والمسرحي السوري ممدوح عدوان، وهو من الطائفة العلوية، قال: إن هذا النظام يكذب في النشرة الجوية، وفعلاً يكذب في النشرة الجوية، لأنه غير قادر على قول الحقيقة، فالحقيقة



مضادة لوجوده ولمضمون هذا الوجود، ومن هنا كيف يمكن للأفراد والقوى الفاعلة أن يتبقى لديها من الفعل والإرادة، ما توظفه في خدمة الهدف الذي تسعى إليه؟ وأقصد بالهدف: تحرير الجولان.

لقد كان المسؤولون السياسيون والعسكريون السوريون، وعلى رأسهم الفريق حافظ الأسد، يظنون أنه بقدر ما لديهم من دبابات وطائرات ومدفعية وصواريخ وغيره، بقدر ما يكونون قادرين على تحرير الأرض وتحقيق النصر. وكأن هذه الأسلحة تفعل فعلاً تحريرياً ذاتياً، ولا تحتاج إلى أداة عاقلة مدربة ذات كفاءة، وهذه الصفات لا بد أن تتوج بعامل أساس، وهو المواطنة الحرة، التي تجعل كل فرد من هذه الأداة مقتنعاً أنه يدافع عن وطنه الذي يوفر له الأمن والحرية والعيش الكريم، وهذا لم يكن متوفراً في حده الأدنى.

ألا بحق السماء والأنبياء وكل ما مر على هذه الأرض من الصالحين، كيف يمكن لهذا الجيش الذي يقف على رأسه وزير للدفاع، والذي ليس بين اهتماماته المتعددة والمتنوعة في كل مناحي الحياة من السياسة والاقتصاد والشعر والفن ودور النشر، (ومزارع الفرّي) حتى (وكالة المرسيدس)، ليس بين هذه الاهتمامات حيز يجعله قادراً على التماس ميدان مسؤولياته الأساسية.

ووزير الدفاع هذا، الذي تُدفع كل مصاريف منزله من إصلاحات وديكورات وماء وكهرباء وحتى (الورق الصحي ـ الكلينكس) الذي يوضع في دورة المياه، تدفع من ميزانية وزارة الدفاع، بالرغم من كل ما جمعه من مال.

والأمر الأكثر استغراباً ومرارة، هو حالة قائد سلاح الجو (ناجي جميل)، الذي لم يكن في حياته طياراً، إنما كان ضابطاً إدارياً في سلاح الطيران، دُرب لفترة قصيرة على طائرة نقل، وسمي بمرسوم بعد ذلك كضابط طيار، وتسلم بعد مسلسل الأحداث في سورية منصبه قائداً لسلاح الطيران ونائباً لوزير الدفاع. ولم تكن قيادة سلاح الجو في هذه المرحلة هي اهتمامه الأول، فلقد أصبحت مهمته الأساسية بعد الحركة التصحيحية، مهمة أمنية، فلقد كان مسؤولاً عن مكتب الأمن القومي، ورئيساً لهيئة تحقيق دائمة ـ كان بسببها دائم التواجد في سجن المزة العسكري. هذان نموذجان في قمة الهيكل التنظيمي للقوات المسلحة أذكرهما لمعرفتي الذاتية بهذا الأمر، فكيف

يمكن أن يكون عليه مضمون هذا الهيكل الذي يقف على رأسه مثل هذه النماذج؟

هذه واحدة. أما الثانية فالعالم كله يعرف وهم يعرفون، أن حليفهم أنور السادات كان ينسق مع أميركا، فظنوا أن هذا يخدم مصالحهم وأهدافهم، فهم أيضاً لم يكونوا بعيدين عن هذه العلاقة، إلّا أنهم لم يدركوا الفروق بين ما تستهدفه أميركا من مصر، وما تستهدفه أميركا من سورية، وهم لم يهتموا بكل ذلك، فالجولان منطقة صغيرة المساحة، والمنطقة المستهدفة من قبل هذا الحشد، أقل من مساحة الجولان، فحشد ثمانمائة دبابة وفرق آلية وفرق مشاة ومدفعية وصواريخ بالقدر الأكثر من المطلوب مع الطيران، سيقود وحده حتماً للنصر وهم لقناعتهم هذه، لم يهتموا لزيارة وزير الدفاع «الإسرائيلي» (موشى دايان) إلى المرتفعات السورية قبيل الحرب التي عزز خلالها صنفي: الدرع وضد الدرع، بينما لم يقم بزيارة مماثلة لجبهة سيناء (قناة السويس)، ولم يجر أي تغيير على الوضع في هذه الجبهة.

هل لأن «الإسرائيليين» (ساهين لاهين)؟ لو كانوا كذلك، لما عززوا جبهة الجولان، ويستحيل على «الإسرائيليين» أن يكونوا بهذه الغفلة، هم من هم في أميركا، وفي الواقع العربي المفتوح لهم، بل لأن العملية متفق عليها بين أميركا والسادات، في ما يتعلق بالتسوية بين مصر و«إسرائيل» وما قعقعة السلاح إلّا من أجل إخراجها إلى الحياة.

وقد ظهر أن هناك عملية غدر، قام بها السادات ضد أشقائه وحلفائه السوريين، وهذا أمر طبيعي، فالغدر دوماً من شيم هؤلاء القادة العرب، وذلك منذ ظهور القضية الفلسطينية، وحتى أم المعارك الخالدة. إلّا أن القيادة السورية كانت تعتقد دوماً أنها هي الأذكى! ولهذا كان رعبها حقيقياً حينما ظهر لها في نهاية اليوم الثاني للحرب، أن جيشها قد خارت قواه، وأن معظم ما زجوا به في المعركة قد دمر، هذا الرعب دفعها إلى ما تكرهه أشد الكره، وهو النداء بأعلى صوتها (العراقيين يا هلي) النجدة، النجدة. وبسرعة انهيار الوضع العسكري على جبهة الجولان، وعلى قدر الهلع الذي أصاب القادة السوريين، جاءت فزعة العراق وهي فعلاً (فزعة عرب) (والعرب هنا العشائر الرحل) عندما حينما تغزوهم عشائر أخرى وتسبى نساؤهم وحلالهم.. يأتي الصايح[٨] مجهداً فرسه، صائحاً بأعلى صوته منادياً أفخاذ العشيرة: وين راحوا

(٨) الصايح: خيال يطلب النجدة.



النشامى، فيسرعون للنجدة ـ كلٌّ وما يملكه دون تنظيم ـ وهكذا كانت فزعة العراق. لماذا؟

إن الأمر المؤكد أن العراق كان لديه معرفة أن حرباً ستقع بين مصر وسورية من جهة وبين «إسرائيل» من جهة اخرى، قد لا يكون توقيتها معروفاً. فعدا عن إمكانات العراق الاستخبارية هناك (طبل وزمر) في مقر السادات، وهناك (هرج ومرج) مع أطراف عديدة على رأسهم الولايات المتحدة، والوفود العسكرية بين القاهرة ودمشق دائمة التنقل، وعدا عن كل ذلك، فقد زود العراق مصر بناءً على طلبها، بسرب من طائرات (هوكر هنتر) مع طياريها، القادرة على القيام بطلعات عسكرية تمتاز بها، الأمر الذي يعطي دلالات أكيدة على توجه مصر الحربي، وتوجه مصر هذا: يعني توجه سورية أيضاً. ويدلك على نوايا السوء لدى القيادة السورية، أنها لم تفعل ما فعلته مصر التي طلبت عوناً مجدداً من العراق. لماذا؟ لأنهم لا يريدون أن يمنحوا العراق شرف المشاركة في النصر الذي سيحققونه، ويوظفوه بالتالي ضد العراق، ولو كان هناك لواء مدرع عراقي واحد لما انهارت الجبهة السورية خلال ٤٨ ساعة على بدء القتال، وأقول، بتقديري الذاتي، أن القيادة السياسية في العراق كان لديها تقدير وموقف صحيح لأسباب الحرب، ومن هنا كان لديهم توجس وتحسب من نتائجها.

فإذا ما حقق السوريون نتائج إيجابية (كأن يستعيدوا الجولان بالحرب) مثلاً، دون عون منهم من أي نوع، بل ومن موقع عدائي، فإن ذلك سينعكس عليهم سلباً، ولا سيما مع نظام قادر على تحويل الهزائم إلى انتصارات، مدعم بالإعلام العالمي وصانعيه شرقاً وغرباً، ومن هنا جاءت سرعة العراق في تلبية طلب النجدة لأن هماً كبيراً انزاح عن صدر القيادة في العراق، طبعاً هناك عوامل أساسية سأبينها ضمن السياق.

وأنا هنا أسأل: لماذا لم يتصرف العراق تجاه طلب سورية النجدةَ في أصعب حالة بالنسبة لقيادتها، تصرفاً استراتيجياً يقود بالتالي من خلال الفعل المشروع، إلى علاقة دائمة متفاعلة نامية بين العراق وسورية؟ بل تصرف بديلاً عن ذلك تصرفاً تكتيكياً، زالت آثاره فور قبول سورية لقرار وقف إطلاق النار؟

إن نتائج نجدة العراق بالطريقة التي تمت بها، وظفتها القيادة السورية لمصلحتها،

واستطاعت أن تطمس دور جيش العراق الحاسم في إيقاف زحف جيش الدفاع «الإسرائيلي» باتجاه الطريق الدولي دمشق ـ درعا ـ عمان. بل ولعبت بهذه الورقة الهامة، وهي (لقاء سورية ـ العراق) التي طالما استخدمتها كورقة ابتزاز غالية الثمن، تطرحها في ظروفها الصعبة، إقليمياً ودولياً، (سعودياً وكويتياً و«إسرائيلياً»)، وبها لعب كيسنجر مع «الإسرائيليين»، وقد عرف منهم كم كان تدخل جيش العراق حاسماً في منع وصولهم إلى أهدافهم، فقد قبلت (غولدا مئير) رئيسة وزراء «إسرائيل» حينها قراري مجلس الأمن ( ٢٤٢- ٣٣٨) بوقف إطلاق النار، اللذين رفضت قبولهما قبل وصول الجيش العراقي إلى الجبهة، وبرقيتها إلى وزير خارجيتها في هيئة الأمم تدعوه فيها إلى قبول وقف إطلاق النار، قائلة: إن تدخل العراقيين أوجب ذلك أو (بهذا المعنى) تقريباً. والخوف كان أكبر لدى «الإسرائيليين»، وكيسنجر، من استمرار القتال على الجبهة السورية، لأن ذلك يستوجب وجود العراق بثقل أكبر على أرض سورية، الأمر الذي ستكون نتائجه حاسمة بالنسبة لهضبة الجولان وأيضاً بالنسبة للعلاقة السورية ـ العراقية المستقبلية.

ولقد كان بإمكان العراق أن يجني نتائج هامة جداً على صعيد علاقاته المستقبلية بسورية لو أنه تصرف بهدوء وبرؤيا استراتيجية، وهذا ما كان سيكلفه كثيراً، لا على صعيد السمعة الفورية ولا على صعيد الفعل المستقبلي، فكل العرب والعجم شعوباً وحكومات، يعرفون أن العلاقات بين سورية والعراق دوماً غير سوية، بل عدائية. ويفرض هذا العداء النظام في سورية، وأكثر الحكام العرب ودول الإقليم فرحون بذلك، لأنه جاء نتيجة مساعيهم الخبيثة، ومن هنا أقول، لو أن العراق تعامل مع هذا الحدث بتمعن عميق، كان سيحصل حينها، أن عليه أن يحقق من خلال هذه النجدة واقعين ثابتين وحقيقتين ظاهرتين، (خصوصاً أن العراق له تجارب مريرة نتيجة لتدخله الدائم في حروب المحيطين «بإسرائيل» مع «إسرائيل») فهو يدعى للقتال أو يتبرع بالقتال، وهو ينسحب أو يطرد حينما تبدأ مرحلة المساومات.

وقد هيأت الظروف الفرصة لتحقيق هاتين الغايتين.

أولاً: من خلال طلب القيادة السورية النجدة.



وثانياً: وهو الأهم الذي لا يتكرر عادة في مدى منظور، هو موافقة الاتحاد السوفياتي في حينه على تدخل العراق العسكري في الحرب لإسناد سورية. والعراق ليس كمصر تفصله عن الاتحاد السوفياتي دول وبحار. وقد ساهم في إنجاح هذا العامل موافقة شاه إيران على طلب العراق تهدئة الأوضاع المضطربة في حينه على الحدود بين العراق وإيران. ولو تقدم جيش العراق بالأسلوب المنهجي العسكري السليم الذي يتقنه بالتأكيد، واصطدم مع العدو من موقع الاستعداد الكامل، وهذا زمنياً يؤجل دخوله المعركة لفترة لا تتجاوز ثمانياً وأربعين ساعة، ولا أحد يستطيع توجيه اللوم إليه بالمطلق لأخذه هذا الزمن المقبول، بل الأكثر من مقبول ضمن الحالة السائدة بينه وبين إيران في حينه، وأيضاً حالة العداء التي كانت قائمة بينه وبين النظام في سورية، هذا الحشد العسكري السليم ثم الاصطدام مع جيش العدو، كانا يمكّنان العراق من استخدام كل قدراته العسكرية ولو لفترة محددة، حتى تتغير المواقف وتتغير نتائج الصراع. وذلك يكفي العراق لتحقيق هاتين الغايتين وهما:

أولاً: إيصال القيادة السورية إلى الهزيمة الكاملة، (وقد كانت تستعد للهروب من دمشق).

وثانياً: سيكون فعل جيش العراق بيناً وبارزاً وظاهراً يعترف به القاصي والداني، وسيحفر في أرض سورية عميقاً، بواقع لا يستطيع أن يجتثه أحد. إذاً.. لماذا لم يفعل العراق ذلك؟.

يقال: (ما أسهل الطعن على الواقف!) وأنا طبعاً واقف، ولا أعرف ظروف القيادة السياسية في العراق وكل ما يحيط بالعراق في حينه، وأعي أيضاً المخاطر الجدية التي ستنجم عن أي تصرف غير محسوب، ولكنني أيضاً عايشت مرحلة نصف قرن من الأحداث السياسية التي كانت دوماً تدفعنا إلى الخلف وأعرف قادتها. ومن هنا فإن تقديري الذاتي أن العراق (القيادة السياسية في العراق)، سلكت هذا الأسلوب لنجدة سورية، مدفوعة بالعوامل التالية:

١ ـ أن طلب سورية النجدة من العراق، قد أفرحه وأزال عن صدره ثقلاً كبيراً، كأن تنجح سورية باستعادة الجولان دون مساعدته والفرحان يدفعه هذا الشعور إلى التصرف والاندفاع.

٢ ـ هناك في القيادة السياسية في العراق، الكثير من الأعضاء القياديين الذين ظنوا أن الفرصة قد سنحت لتحقيق العلاقة التي طمح إليها العراق مع سورية.

٣ ـ والأمر الآخر الهام، هو الموقف الذي كان يقفه الأمين العام للحزب الأستاذ ميشيل عفلق، والذي كان حتى حينه يتخذ من بيروت مقراً لإقامته، وهو أمر غير طبيعي، متخذاً موقفاً يكتنفه الغموض من «الحركة التصحيحية»، ومن النظام في سورية، محاولاً خلق واقع في قيادة قطر العراق وفي القيادة القومية للحزب يخدم رؤيته السياسية. موقف الأمين العام هذا، كان له تأثير على الأسلوب الذي اتبعه العراق في نجدة سورية، لئلا تتهم بالتباطؤ من قبل القائد المؤسس. لقد قلت إن الأستاذ ميشيل عفلق كان يقيم في بيروت حتى حينه، لأنه حينما عادت القوات العراقية التي ساهمت في القتال على جبهة الجولان، استعرضها الأستاذ شبلي العيسمي وفي معيته الرئيس البكر. الأمر الذي أغاظ الرفيق الدكتور يوسف زعين، لأنه اعتبرها (كبيرة)، أن يستعرض جيش العراق شبلي العيسمي وفي معيته الرئيس البكر.

## المرحلة الثانية من جهاد القيادة في سورية ضد العراق

بدأت هذه المرحلة بعد قبول سورية لقرار وقف إطلاق النار الذي أصدره مجلس الأمن وقرار الحكومة العراقية بسحب قواتها من أراضي سورية، وقد أرادت الحكومة السورية إبقاء هذه القوات على أراضيها، إلّا أن العراق رفض ذلك، فلم يكن في نية الحكومة العراقية إبقاء جيشها على أرض حكومة معادية، وخارج سيطرتها الأمنية.

إنني لا أستطيع ذكر الأحداث بتواريخها ولا الاحتكاكات الصغيرة ولكنني أذكر ما أستطيع ذكره من الأفعال المؤثرة خلال هذه المرحلة. لقد بدأت مرحلة العداء هذه بانسحاب الجيش العراقي من أراضي سورية في نهاية عام ١٩٧٣ وحتى مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية باتجاه العراق. بين هذين الحدثين وقعت أحداث امتدت زمنياً لعدد من السنين، أثبتت خلالها القيادة في سورية، دوام خطها الاستراتيجي وثباته المعادي للعراق، بالأفعال البارزة التالية:



أ ـ إنكار دور جيش العراق الفاعل على جبهة الجولان، الأمر الذي لا يساويه في تاريخ العرب إلّا (جزاء سنمار).

ب ـ قطع مياه نهر الفرات عن العراق قطعاً كاملاً من خلال تحويل مجرى النهر إلى بحيرة الأسد في سد الفرات. الأمر الذي أهلك الزرع والضرع على حوض هذا النهر في العراق. هذا الحوض الذي كان يعيش على أرضه ثلاثة ملايين مواطن عراقي في ذلك الحين. وقد جرت وساطات عديدة إلّا أن جميع هذه الوساطات كان مآلها الفشل. وحتى تدرك مدى الشعور باللذة والتشفي والأذى، الذي كانت تحسه السلطات السورية، عليك أن تقرأ الصحف السورية التي كانت تكتب وتقدم دراسات حول هذا الموضوع، وكنت أقرأها في حينه في سجن المزة في دمشق، إلى أن رأت القيادة السياسية في العراق، أن هذا الأذى المتعمد قد طال، وألحق بمواطنيها نكبات جدية، لا تستطيع تبرير قبولها والسكوت عليها أمام شعبها. فقام الرئيس البكر باستدعاء السفير السوفياتي، واستقبله في وزارة الدفاع (الأمر الذي له دلالة)، لأن السوفيات هم الذين بنوا سد الفرات، ومن المفترض بهم أن يحافظوا على حقوق العراق في مياه النهر ضمن اتفاقية البناء، حسب القوانين الدولية ذات العلاقة بأمر مثل هذا الأمر. وواضح أن القيادة في العراق كانت جادة، في مطالبتها بإيجاد حل لهذه المعضلة ولو بالقوة، الأمر الذي قاد بعد ذلك إلى توقيع اتفاقية بوساطة الشيخ أحمد زكي اليماني وزير النفط والمعادن السعودي آنذاك. وما إن زال هذا البغي، حتى ظهر في موقع آخر بواقع أوضح بغياً وأشد عداوة.

## جبهة الصمود والتصدي

إن الذين خلقوا السادات، خلقوا أيضاً الدول والمنظمات المعادية لنهجه. ومن هم هؤلاء المناضلون الشرفاء، الذين يكوّنون جبهة الصمود والتصدي؟ هم قوى التقدم والاشتراكية في الوطن العربي المعادون للإمبريالية، وهم سورية، اليمن الديموقراطي، الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى (التي يدلك أسمها على العقل الذي اخترع هذا الاسم) ثم ـ لسوء الحظ ـ الجزائر. أما المنظمات فهي: فصائل منظمة التحرير الفلسطينية.

تداعت هذه الدول والتنظيمات إلى اجتماع عقد في طرابلس الغرب، لتقرير كيفية التصدي لمشروع السادات الاستسلامي التصفوي، أي بعد زيارة العار للقدس المحتلة، التي قام بها أنور السادات عام ١٩٧٧؟؟ ودعوا العراق للمشاركة في مؤتمر رؤساء هذا التشكيل، وقد قبل العراق الدعوة وأرسل وفداً مخولاً برئاسة الأستاذ طه ياسين رمضان، من أبرز وجوه القيادة السياسية في العراق. والعراق كان يملك معرفة دقيقة لطبيعة هذا التكوين، والقائمين عليه، فجل هذه الدول أظهرت له العداء، بل ومارسته ضده، وللعراق في حينه، استراتيجية مختلفة أملتها ظروف المرحلة، وطبيعة القوى الفاعلة فيها، أساسها جمع العرب وعدم خلق محاور عدائية في صفوفهم لمواجهة مخطط السادات وعزله. ويحق للقارئ أن يسأل: طالما العراق يعرف طبيعة هذا التكوين، فلماذا يستجيب لمثل هذه الدعوة، ويتعامل معها؟ والجواب، أن الصراع (البارد) يعتمد على المناورات السياسية وتضليل الرأي العام العربي والأهم الوطني فيه، وفي تلك المرحلة كان هناك ظاهرياً خندقان، خندق السادات وخندق المقاومة الفلسطينية ومن يناهضون خط السادات. وحقيقة الأمر أن الخندقين وجهان لعملة واحدة وأثبت الزمان هذه الحقيقة. أما الخندق المناهض لكل هذا الواقع فكان خندق العراق، الذي لم يكن يقف معه فيه أحد في تلك المرحلة.

## مؤتمر طرابلس لجبهة الصمود والتصدي

وهكذا، فما إن انعقد الاجتماع الأول، وأدلى قادة النخبة بآرائهم عن أهداف هذه الجبهة حتى تبين أن هذا التجمع مظهري، ويستهدف الإعلان بصوت عال، أن هناك تجمعاً، يدين نهج السادات وتوجهه الاستسلامي، وأنه لا جدية ترتب المسؤولية على أي من أطراف هذا التجمع مادياً ومعنوياً. وحين طرح العراق رأيه في كلمة الأستاذ طه ياسين رمضان ممثل العراق، طرح رؤية متكاملة لمعنى هذا العمل ومضمونه، الذي يرتب خلقه ووضع الحياة فيه، وجعله قادراً على مواجهة المهمة الصعبة التي يتصدى لها، وهو مشروع (الاستسلام والتصفية الذي قاده السادات)، يتطلب أولاً تحديد الهدف من هذا التجمع والالتزام وإيجاد واقع يبنى عليه هذا الهيكل المحدد المسؤوليات لكل من أطرافه، كل قدر استطاعته. والأهم الاستدلال على العوامل المهمة ذات التأثير في الصراع وتنميتها، وتقوية أسسها لصالح ردع مخطط السادات وبالتالي هزيمة مخطط القوى التي تقف خلف هذا المخطط. ومن هنا يتبين أن



الفجوة بين ما قاله العراق، وما قاله الآخرون لا يمكن جسرها. جرت حينها محاولات استفزاز للوفد العراقي من مثل قول «من لم يكن في جبهة الصمود والتصدي فهو في خندق السادات»، وقد استمعنا في سجن المزة إلى الأستاذ طه ياسين رمضان في إذاعة بغداد في أكثر من حلقة يروي تفاصيل ما جرى في هذه القمة وكانت المفاجأة. بالنسبة لنا الذين استمعنا إلى ما قاله الأستاذ طه في هذا الملتقى وإلى قدرته المنطقية والتحليلية للأمور السياسية المعقدة. لماذا المفاجأة؟ لأن رفاقنا من القطر العراقي، كانوا يعطوننا صوراً غير صحيحة، عن القيادة السياسية في العراق، وهذا ممكن حدوثه. فعدا عن العداوة السياسية غير المبررة، فالعمل والفعل هو الذي يبرز قدرات القادة، ولهذا فشل العراق في أن ينال شرف الانتماء إلى جبهة الصمود فكسب عداءها. من ليس في خندق جبهة الصمود فهو في جبهة السادات، وبيّن الزمن اللاحق من كانوا في خندق السادات، ولو لم يكونوا كذلك لكانوا اهتدوا إلى الحل الأوضح من بدر الصيف، وهو دعم قاعدة متلاحمة بشرياً، واقتصادياً وسياسياً بين سورية والعراق، ودعمها بالجهد المادي والسياسي من ليبيا والجزائر، ووضع استراتيجية طويلة النفس لفصائل منظمة التحرير الفلسطينية، تتفق والنهج المتبنى لإفشال مخطط التسوية والتصفية. عند ذاك يواجه مخطط السادات ومن يقف خلفه بواقع يصعب إحباطه. إلّا أن هدف الجبهة الحقيقي كان المناورة على هذه الحقيقة لأن النظام في سورية لا يستهدف مخطط التصفية، بل يستهدف العراق قبل ذلك، وما عليك إلّا أن تستمع إلى إذاعة لندن العربية هذه الإذاعة التي تجعل من الكلب ذئباً، ومن الجبان أسداً ومن عملاء الغرب من الدول والتنظيمات والشخصيات، راديكاليين، يساريين، حلفاء الاتحاد السوفياتي. والذي كان يفعله الاتحاد السوفياتي هو ترحيبه الحار بهذه الفرية، والتعامل معها على أنها حقيقة. لماذا؟ من أجل أن يبيع أسلحة لصاحب (الكتاب الأخضر) و(من تحزب خان). لقد كانت قيادة الاتحاد السوفياتي بعد (خروتشوف) قيادة (كمسيون سياسي). تبيع وتشتري في سوق السياسة الدولية مصالح من يصادقونها، ومهمة إذاعة لندن تسويق هذا النهج، هذه الإذاعة العتيقة صوت الاستعمار العتيق والخبير، التي تستطيع بيسر تسويق الباطل على حساب الحق والافتراء على حساب الصدق، إن هذه الإذاعة التي تجعلك تصفن مذهولاً وأنت تستمع إلى من ينبحون فيها بالعربية، كيف تجعل من «الإسرائيليين» ضحية تطرف العرب الفلسطينيين، وتجعل من العراقيين وخاصة قيادتهم بغاة طغاة، ومن

شعب العراق طوائف وتسوغ لتسهيل مهمة إيران التي تكبر العراق بأربعة أضعاف مساحةً وسكاناً وجيشاً وحتى اقتصاداً في تلك المرحلة، وهي دولة طامعة دوماً، أن تجعل من العراق ميداناً لنفوذها بحجة ماذا؟ بحجة تصدير الإسلام، ومن هو هذا الذي يصدر الإسلام، هو الخميني الماسوني الفارسي الشعوبي، إلى من!! إلى العرب، هؤلاء هم الإنكليز الذين ساهموا في صناعة ثورة الخميني كما ساهموا من قبلها في تحويل حركة إصلاح ديني في نجد إلى حركة سياسية، استولى بها عبد العزيز بن سعود على نجد والحجاز ومن ثم على عسير. ثم استمع إلى هذه الإذاعة وهي تتحدث عن مأساة لبنان، وتضع اللوم كاملاً على الفلسطينيين واللبنانيين. الفلسطينيون يجعلون من لبنان، قاعدة انطلاق للتخريب في «إسرائيل» واللبنانيون لأنهم غير قادرين على منعهم من ذلك، فصفوفهم منقسمة إلى طوائف وشيع: موارنة، دروز، سنة، شيعة. فلا علاقة للمستعمرين الإنكليز والفرنسيين ومن بعد حلف الأطلسي والأميركان، لا علاقة لهؤلاء بما يجري في لبنان وفي فلسطين والمنطقة ولا لأدواتهم في المنطقة من عرب نفطيين وغير نفطيين ولا لقاعدة الاستعمار المخلوقة في فلسطين. هذه هي إذاعة التزوير العليمة بوضع السم في الدسم.

## الصفحة الأخيرة من المؤامرات الداخلية على العراق

لقد رمى النظام في سورية بآخر الأوراق، أوراق كل القوى المضادة لتقدم العراق، وكانت هذه المحاولة هي آخر محاولات التآمر داخل العراق، استهدفت جوهر النظام من خلال أداته (أي الحزب)، مثلها في ذلك مثل حركة ٢٣ شباط، مع اختلاف الواقع والظرف في الحالتين. انتهى عداء سورية مظهرياً، بانعقاد مؤتمر قمة بغداد الذي دعا إليه العراق من أجل مواجهة نتائج زيارة السادات إلى القدس المحتلة، رأس هذا المؤتمر الرئيس البكر بصفته رئيس الدولة الداعية والمضيفة، ورأس وفد العراق نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الأستاذ صدام حسين، الذي أثبت باعتراف المراقبين الأكثر بعداً والقريبين قدرته المنطقية والسياسية على سد الثغرات التي كان يحاول فتحها من هم في خط السادات، في التوجه الذي كان يستهدف عزل السادات وإيقاف مخاطر نهجه، وخلق إجماع عربي ضد سياسته المدمرة، وكلنا يعرف من هم وراء السادات ومن هم في صفه.



نجح المؤتمر وأرسل وفداً يخبره بقرارات المؤتمر وبالتزام الأمة العربية بدعم مصر مادياً ومعنوياً حيال كل النتائج التي تترتب على تخلي الرئيس السادات عن نهجه السياسي. وقد قرر المؤتمر كذلك عوناً مادياً للأردن وسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وهكذا نجح المؤتمر وما كان له إلّا أن ينجح، فلم يجد أي من المؤتمرين الذين أيدوا السادات ــ وهم كل دول الخليج وعلى رأسهم السعودية والأكثرية الباقية من الدول العربية ــ لم يجدوا مخرجاً إلّا الموافقة إلى أن يفرجها الله وفرج الله قريب، فما إن يعود كل إلى بلاده، إلّا ويصبح الحال مختلفاً فيصبح التنصل حينها سهلاً إن مباشرة أو مداورة أو مماطلة. وهكذا أنهي عداء نظام سورية للعراق مظهرياً وبدأ النظام ومن هم وراءه يحشد للجولة المقبلة من الصراع الذي ظاهره التقارب وباطنه التآمر.

## سورية والتفرد بشرف المواجهة

إن الحل المنفرد هو جوهر القرار (٢٤٢)، وهي استراتيجية ثابتة للغرب والصهيونية، والذين يعلنون من القادة العرب عن وحدة الموقف العربي، هم منافقون ومضللون، ولا يخدعون الإنسان العربي، فالعرب قد يقاتلون مجتمعين ولكن عليهم أن يفاوضوا ويوقعوا الاتفاقيات منفردين. هكذا كانت حرب عام ١٩٤٨، وهكذا جرت اتفاقيات الهدنة التي نتجت عنها. لماذا يحاربون مجتمعين في تلك المرحلة؟ لأن فلسطين أرض عربية، لا يستطيع أي حاكم عربي في حينه إلّا أن يدخل القتال من أجلها، بغض النظر عن قوة هذا الحاكم أو ضعفه، وبغض النظر عن موقفه السياسي، طالما هو يحكم شعباً عربياً مؤمناً بهذه الحقيقة آنذاك. ومن هنا لا بد لكل حاكم عربي أن يقدم نوعاً من الدعم إن كان بعيداً، أو القتال إن كان يحيط بفلسطين. هذه الحقيقة كان يفهمها سادة الحكام العرب في حينه، ومن هنا يقرر الحكام العرب القتال مجتمعين، ويقرر سادتهم نتائج هذه الجولة من القتال، ثم إن استراتيجية الصهيونية داخلياً وخارجياً دعايةً وإعلاماً وسيكولوجية مبنية على عداء العرب الجماعي «لإسرائيل» حتى يبرر موقف الغرب العدائي ضد العرب والداعم والحامي لهذه الدويلة، واحة الديموقراطية في صحراء البداوة هذه! ومن هنا فالعرب يقاتلون مجتمعين، مظهراً ومخبراً، كل منهم يعرف حدوده، ومن هنا فكل منهم يحاول أن يبطل فعل الآخر بالتآمر ضد مصر منذ حرب عام ١٩٤٨، بل وفي كل حروبها ما عدا حرب السادات

لأن مصر في حينه وفي كل ما مضى كانت تمثل الثقل الذي لا بد لأعداء العرب من تخفيفه، وقد أدرك الرئيس عبد الناصر هذه الحقيقة بعد التدخل في اليمن، وهزيمة عام ١٩٦٧ (وطبعاً كان إدراكاً متأخراً). لقد قال حينما التقينا به قبل أيلول عام ١٩٧٠ في استراحة المعمورة في الإسكندرية «إن مصر ستعتمد على نفسها باستعادة أرضها ولو بالقتال». وبعد (كامب ديفيد) حين ارتفع في مصر شعار أن حرب تشرين هي آخر الحروب مع «إسرائيل»، تحول الثقل الاستراتيجي لأعداء العرب نحو العراق، ولا يظن أحداً أن النظام في سورية كان قلقاً أو ساخطاً على قرار رفيقه في السلاح والهزيمة، وإدارة ظهره له مسرعاً إلى (كامب ديفيد)، العكس هو الصحيح، فمشروع النظام السياسي في حينه، كان يقتضي خروج مصر نهائياً من ساحة العمل العربي المشترك، ولهذا حتى لو نجح النظام في سورية في استعادة بعض الأرض أو كل الأرض في الجولان، فإنه لن يصل إلى صلح مع «إسرائيل» إلّا بعد أن يحقق مشروعه السياسي في العراق، وهو ليس مشروعه بل هو مشروع دولي في حينه معه (الغرب والشرق) مع الفوارق في المصالح، والنظام في سورية كان رأس حربة وعنواناً لهذا المشروع في المرحلة التي أنا بصددها أي منذ «الحركة التصحيحية»، وحتى المؤامرة على صدام حسين، (أما حلفه مع إيران ومن بعد دخوله مع تحالف حفر الباطن فقد كان موقفه ذليلاً) إلّا أنه لسوء حظه، والأصح لسوء نيته، انهار جيشه بعد أقل من ٤٨ ساعة على بدء القتال، وكان لا بد أن ينهار، فتركيب هذا الجيش وقدرته القتالية واستعداد عناصره المعدوم للتضحية، كل ذلك كان لا بد أن يقود إلى ذلك الانهيار، حينها أصابه الذعر الذي دفعه إلى طلب النجدة من العراق، وكانت المعضلة التي واجهته بعد دخول جيش العراق، وقتاله البطولي إلى جانب الجيش السوري، معضلة لم يكن باستطاعته حلها، والاستمرار في سعيه لتحقيق مشروعه ضد العراق، فجاء لنجدته هنري كيسنجر وزير خارجية أميركا، وما كان بمقدور أحد أن يحل معضلة الرئيس السوري سواه، فحشد له التأييد (إقليمياً ودولياً وخاصة سوفياتياً) وأخلى له الساحة من جميع المقاتلين، يصول ويجول فيها إعلامياً، وكأنه لم يخسر أرضاً في حرب عام ١٩٧٣ ضعف ما خسره عام ١٩٦٧، حاملاً صليب العرب والمدافع الوحيد عن حقوقهم، أمام (الهجوم الإمبريالي الصهيوني).

أما جماهير هذا الموقف (فقد تم حشدها أطلسياً وسوفياتياً وإقليمياً)، وكلنا يعرف كم



كانت قوة هذا الحشد، وحينما تخرج مصر من المعركة فكل من شهر سيفه من دول الطوق فهو فارس، ولقد استغل النظام في سورية هذا الأمر أفضل استغلال، وهو المناور البارع، المستند إلى أداة لا تزال متماسكة رغم الهزائم التي لحقت به، فهو الآن المواجه الأول والوحيد «لإسرائيل» وهذا حقيقة بغض النظر عن مضمون هذه المواجهة، فبعد خروج مصر من المواجهة لم يكن هناك في النظرة التقليدية للأمر من هو أكبر من سورية من دول الطوق، فهي الأكبر مساحة، والأكثر سكاناً والأوسع إمكانات، والأمر الثاني الهام أنها ترفع شعار الوحدة والحرية والاشتراكية على أعلى المواقع في حدودها وعلى مؤسساتها، وهي التي تلقن جنودها وطلابها شعار البعث صباح كل يوم عمل، ومن هو أكثر من البعث وحدوية؟ ومن هو أكثر منه معاداة للاستعمار؟ ومن هو أشد ولاء لفلسطين؟ وكم هم الذين يعرفون الحقيقة؟ وكم منهم من يستطيع قولها؟ وكم هم الذين يسمعونها في خضم هذا الصخب الشديد؟ والأمر الهام الثالث أن سورية الحليف الاستراتيجي لقوى التقدم والتحرر في العالم، وليس هناك أكثر إثباتاً في حينه على هذه الحقيقة المزيفة، من موقف الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، المعلن قولاً وفعلاً، والداعم سياسياً وعسكرياً للموقف السوري، وهو الذي حشد الأحزاب الشيوعية، وقوى التقدم الملتفة حول هذه الأحزاب في العالم لنصرة سورية ودعم موقفها السياسي أضف إلى ذلك إعلام النظام المتبجح والنباح وإعلام الغرب المؤيد له، وخصوصاً إذاعة لندن والإعلام «الإسرائيلي» الخبيث، الذي يطل علينا بين الحين والآخر أن سورية تتسلح، وأن نوايا سورية عدوانية، وأن الرئيس الأسد يسعى إلى تحقيق مشروع (سورية الكبرى). هذا الواقع المخلوق والمصنوع والمستغل استغلالاً مثمراً، جعل الموقف السوري يملأ سمع وبصر الإنسان العربي المهتم بمصيره وفي ظروف المرحلة التي بدأت بحرب تشرين عام ١٩٧٣ وانتهت بكامب ديفيد، والتي كانت مليئة بالمفاجآت غير المعقولة (مثل زيارة السادات للقدس المحتلة، ١٩٧٧) وصلت أرواح الناس في الوطن العربي إلى الحناجر. وطالما ليس هناك تيار مقاتل، يمارس الفعل مختبر المعرفة مثله، يؤمن به الناس، يصبح حينها، كل سراب حقيقة، وكل سيف مشرع سيف فارس، وكل رأي غثّ، رأياً سميناً. وطبيعي أن تتجة أنظار الناس بعد خروج مصر من ساحة الصراع إلى سورية والعراق، هذين البلدين المتجاورين المتعاديين اللذين يقود السلطة فيهما حزب البعث العربي الاشتراكي، لماذا لا يلتقيان، بل لماذا لا يتوحدان وهما اللذان إذا

التقت إمكاناتهما بفعل صادق وتفاعل موضوعي، قادران على الصمود في وجه هذا الهجوم الطاغي؟ الباغي؟ هذه كانت نظرة الإنسان العادي إلى الواقع، والبعثيون من هذا الشعب ومن أكثريتهم الساحقة، وعيهم في مستوى وعي السياسي العادي، والفرق أنهم ملتزمون بالنضال من أجل تحقيق طموحات هذا الإنسان، ومن هنا فهم أكثر تعلقاً بهذا الطرح، وأشد حماسة له. في هذا الجو المشحون باليأس، قذف الرئيس الأسد بالكرة إلى مرمى القيادة في العراق، طالباً اللقاء لتدارس الموقف، والخروج بعلاقة تجعل البلدين قادرين على مواجهة المخاطر المحدقة.

وحتى يكون القارئ على بيّنة من تأثير هذه المبادرة في نفوس الناس، لا بد له أن يطلع على ردة الفعل عند نموذج من الأشخاص، لهم تجربة ولديهم خبرة نضالية، والنموذج الذي أنا متأكد من حقيقة شعوره هو كاتب هذه الذكريات، الذي أرسل فور إعلان المبادرة، برقية إلى صاحبها الرئيس حافظ الأسد، ومن سجن المزة العسكري بدمشق، يؤيده في هذا التوجه ويبارك مسعاه. قال في البرقية: إن سورية والعراق اللذين يحيط بهما الأعداء من كل حدب وصوب، يحمي كل منهما صدر الآخر وظهره. ولم أخبر أحداً من رفاقي الذين أعيش وإياهم في السجن عن هذه البرقية، والأمر الغريب أنني لم أجد بينهم من أخذ هذه المبادرة مأخذ الجد، رغم أنهم قادة في حزب البعث العربي الاشتراكي قبل ٢٣ شباط وبعدها، ومع ذلك اعتبرت أن آراءهم ناتجة من الواقع الذي كنا نعيشه في السجن، إلّا أن النقيب الرفيق كامل حسين ـ الذي كنت أثق أنه يعرف الحقيقة ـ التقيته في الساحة العامة وهو في طريقة لعرض نفسه على الطبيب، فهو لم يكن يعيش معنا، وهو صديق لي ويتعامل معي بصدق. قال لي: إنها مناورة سياسية وهي غير جدية. فحزنت لهذا.

حينها، وفي هذا الظرف الصعب تذكرت رأياً قاله الرفيق الدكتور يوسف زعين، رئيس وزراء سورية الأسبق، قال: إن الميزان بين سورية والعراق لا يمكن أن يتوازن إلّا خارج إرادة القوى المضادة لنهوض العرب وتوحدهم، ومطلوب الآن أن يتوازن، ولكن لمصلحة المخطط وإرادة القوى المضادة لوحدة العرب ونهوضهم.

والتساؤل الذي يرد إلى الذهن: من هو المستهدف خداعه أو التأثير فيه بهذه المناورة؟



معروف أن ورقة العراق ـ سورية، ورقة شديدة التأثير، غالية الثمن عربياً وإقليمياً ودولياً، والمتتبع للسياسة السورية المعلن منها والمنشور بعد «الحركة التصحيحية» (وحتى قبلها)، يعرف أنها مع التضامن العربي، أي مع مصر السادات، وخليج السعودية، وهي دولياً بالرغم من المعلن من أنها حليف للاتحاد السوفياتي، فضمن سياسة الوفاق، التي رممت واقع النظام بعد الهزيمة في حرب تشرين (التحريرية ١٩٧٣!!!)، وخلقت له الواقع الذي يصول ويجول فيه، هو في حقيقة الأمر مع السياسة (الإنكليزية ـ الأميركية)، وهو بالتأكيد لا يستطيع خداع الإنكليز أو الأميركان بهذه المناورة.

إذاً من هو المستهدف بالخديعة؟ لا بد أن يكون العراق. والسؤال: كيف يمكن للرئيس الأسد توخي نتائج إيجابية من أي نوع في العراق؟ إن كان قيادة وإن كان شعباً.

إن لدى الشعب العراقي والقيادة، قائمة طويلة من المآخذ، بل والمآسي التي أصابت العراقيين من جراء سياسة العداء التي انتهجتها القيادة السورية تجاه العراق منذ قيام «الحركة التصحيحية» وحتى مبادرة الرئيس الأسد.

منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) تأميم ممتلكات شركة نفط العراق العائدة قانونياً وواقعياً إلى الحكومة العراقية، بعد التسوية بين الحكومة العراقية ومساهمي شركة نفط العراق.

(٢) زيادة رسوم مرور أنبوب نفط العراق بعد التأميم إلى ثلاثة أضعاف ما كانت تتقاضاه سورية من شركة نفط العراق.

(٣) الدعم المطلق والكامل لعناصر التمرد في شمال العراق.

(٤) الإنكار التام لدور جيش العراق الحاسم على الجبهة السورية في حرب تشرين.

(٥) إيقاف تدفق مياه نهر الفرات باتجاه العراق، الأمر الذي أهلك الزرع والضرع على حوض هذا النهر في العراق.

(٦) إتلاف عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من أطنان البضائع العراقية، المستوردة

عبر الموانئ السورية واللبنانية.

(٧) غلق الأجواء السورية في وجه الطيران المدني العراقي.

(٨) تدمير السفارة العراقية في بيروت تدميراً كاملاً، وقتل كل نفس كانت بها.

(٩) بناء ساتر ترابي ملغّم على طول الحدود السورية ـ العراقية، وقد طُبع على كل جواز سفر سوري عبارة «صالح للسفر لكل البلدان ما عدا «إسرائيل» والعراق». ويتضح لنا هنا، أنه لم يكن هنالك مصلحة أو منفعة أو مؤسسة للعراق، تطالها قدرة الحكم في سورية بالأذى والتدمير، إلّا وأصابها ذلك. إذاً ما هو العامل أو العوامل التي دفعت بالرئيس الأسد إلى القفز فوق هذا التراث العدائي المؤثر، والذهاب إلى النقيض، (طبعاً علينا أن نتجاوز الكسب الدعائي والإعلامي الذي سيتلقاه الرئيس الأسد بين الجماهير العربية، وخصوصاً من هم في فلسطين ومن يحيط بها ـ لأنه كسب مؤقت لم يكن هدفه الأساس). إذاً لا بد من سبب هام استدعى هذه المناورة الاستراتيجية.

واتضح فيما بعد، أن الهدف هو التأثير في واقع العراق الداخلي لمصلحة صاحب هذه المبادرة، ولما كان شعب العراق بنسبة الكبرى ضعيف التأثر بهذه المبادرة، أولاً: لما لحقه من أذى من صاحبها، وثانياً: صحيح أن شعب العراق قومي التوجه عروبي النزعة، لكنه أيضاً مثله مثل أي شعب آخر غني بثرواته، يطمح إلى مستوى من العيش عال، إلّا إذا اقتضت قيادته، أن عليه أن يقدم مساعدات طوعية، تجعل العراق أكثر أمناً وأمتن استقلالاً وطنياً.

ومن الصعب التصديق أن الرئيس الأسد كان يطمح من خلال مبادرته تلك إلى التأثير في قطاع هام ومؤثر في ساحة العراق، وهو الجيش، لأن جيش العراق غادر أرض سورية غيرَ مشكور، على فعله المشهود.

إذاً، من هو المستهدف بالتأثير داخل صفوفه من خلال هذه المبادرة الوحدوية؟ هو حزب البعث العربي الاشتراكي، أداة النظام وركيزة حكمه، هذه الأداة التي لم تبخل عليها قيادتها التاريخية بالتجهيل، خلال مسيرته النضالية والسياسية، عبر ممارساتها السياسية المتناقضة تماماً مع أيديولوجية البعث، هذه القيادة التي اتخذت من المناورة



السياسية والانقلابات العسكرية أسلوباً لتحقيق أهداف البعث، الأمر المستحيل حدوثه، وإن حدث مرة، فقد حدث من أجل أن يفشل.

والاستمرار على هذا النهج له دلالة لا يمكن دحضها، وهي أن المطلوب ليس فقط رأس العراق ولكن رأس البعث أولاً، ومن خلاله رأس العراق. وعلينا أن نعود إلى الخلف إلى اللقاء الذي تم بين الدكتور جمال الشاعر والرفيق محمود المعايطة بالأستاذ ميشيل عفلق في بيروت، وتم فيه الاتفاق بين الثلاثة، على تشكيل تنظيم سياسي موحد في الأردن من التنظيم الذي يقوده الدكتور جمال الشاعر، الذي يمثّل البعثيين المستقلين، والتنظيم الذي كان يقوده محمود المعايطة، ومثل «الحركة التصحيحية»، وتنظيم الحزب القومي الذي رأسه الأستاذ الأمين العام للحزب، الأمر الذي يدل أن الأستاذ ميشيل، كان يعتبر «الحركة التصحيحية» جناحاً من أجنحة البعث، ( أما ما هي اعتباراته بالنسبة للدكتور جمال الشاعر، الذي لا يخفي نفسه في مذكراته، فعلى الباحثين استنباط تلك الاعتبارات)، وتساءلت حينها ما معنى هذا الخلط؟ والآن قد بان معنى وأسباب وأهداف هذا الخلط. فعلينا أن نتذكر، أن الدكتور منيف الرزاز الأمين العام المساعد للقيادة التي يقودها الأستاذ ميشيل في العراق، هو صديق للرئيس الأسد، إذاً، فالأستاذ ميشيل عفلق والدكتور منيف الرزاز اعتبرا الحركة «التصحيحة» حركة تصحيح لانقلاب ٢٣ شباط، ولا بد هنا من العودة إلى انقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣، الذي قال فيه الأستاذ القائد المؤسس في حينه، إن ثورة آذار في سورية، هي توأم ثورة شباط في العراق.

ومنذ ٨ آذار، قاد الأستاذ ميشيل عفلق الحزب في سورية، وأعاد بناءه وتركيبه حتى المؤتمر القطري الأول الذي انعقد بعده مباشرة المؤتمر القومي الثامن، الذي انتخب قيادة قومية انتخبت الدكتور منيف الرزاز أميناً لها، ومن ثم أميناً عاماً للحزب.

إن تركيبة الحزب هذه، التي بناها الأستاذ ميشيل عفلق في سورية، قادت إلى حركة الثالث والعشرين من شباط، التي ولدت من رحم ٨ آذار. وطبيعي أن تلد حركة الثالث والعشرين من شباط ولادة محسّنة ومصفّاة، فكانت «الحركة التصحيحية».

هذه الولادات المتتالية من أجل ماذا؟ هي من أجل الوصول إلى الأداة التي تنفذ

المخطط، تحت لافتة البعث، بعد تصفية البعث من كل من لا يقبل ذلك؟ فهل يعقل ألّا يدرك قائد، ومفكر ممارس ومجرب، وهو ابن هذه المواقع، كالأستاذ ميشيل عفلق ليعتبر بالتالي «الحركة التصحيحية» المصفاة النهائية لمضمون البعث ومنهجه، يعتبرها تصحيحاً لانحراف ٢٣ شباط.

وعلينا أن نتذكر أنه قبل ٢٣ شباط كان الدكتور منيف الرزاز أميناً عاماً للحزب، وكان القائد المؤسس عضواً في القيادة القومية التي كان أمينها الدكتور منيف، وأثناء مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية كانت المعادلة معكوسة، كان الأستاذ ميشيل عفلق أميناً عاماً للحزب وكان الدكتور الرزاز أميناً مساعداً له، بعد أن أعيد الدكتور منيف إلى الحزب رغم (التجربة المرة)، ورغم ما أعلنه أمامي للسيد ياسر عرفات، من أنه لم يعد له علاقة لا بجبهة التحرير العربية ولا بحزب البعث العربي الاشتراكي، وأنه في حركة الثالث والعشرين من شباط لم يقطع إلّا رأس الفريق أمين الحافظ، أما الأستاذ ميشيل والدكتور منيف، فقد أعيد تركيبهما، والذي تبين فيما بعد، أن هدف مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية، هو قطع رأس واحد في القيادة العراقية في حينه، ومن بعد قطع رأس العراق، وهو الهدف الاستراتيجي المطلوب، وكلنا يعرف النتائج التي ترتبت على مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية، على صعيد الحزب في العراق قبيل وأثناء تسلم الرئيس صدام حسين أمانة سر القطر ورئاسة الجمهورية.

ورب سائل قد يسأل: وما علاقة الأستاذ ميشيل بهذه المؤامرة، وأنا هنا لن أدخل إلى متاهة لا أملك القدرة على الخروج منها. ولكنني أقول إن استمرار الأستاذ ميشيل على رأس الحزب في العراق والتكريم الذي حظي به ويحظى به بعد مماته، لا يعني أن ما قلته من قول غير صحيح، فقد يكون غير دقيق. ثم إن الأستاذ ميشيل إنسان لا يمكن التعامل معه كأي إنسان آخر في حزب البعث العربي الاشتراكي، لكنه هو المسؤول الأول عن الثبات الاستراتيجي الذي كان يجب أن يدوم عليه نضال البعث، وهو النضال من أجل الديموقراطية على كل ساحات الوطن العربي ومقاومة الانقلابات العسكرية مقاومة لا هوادة فيها، إلّا تكتيكاً مرحلياً ضمن واقع تفرضه معطيات دولية يقود بالتالي بالتأكيد إلى الديموقراطية، وهذه الاستراتيجية مسؤول عنها الأستاذ ميشيل عفلق.



أما الأسلوب الثاني والذي يمارَس في الواقع الذي لا توجد به حرية وإن وجدت فهي فرية تخدم مصالح الأنظمة سياسياً واجتماعياً، فهو النضال في صفوف الناس من أجل المطالبة بالحرية وتوضيح معناها ومضمونها ودورها في تصحيح الواقع الاجتماعي والسياسي. وأنت بالتأكيد عندما تناضل بإيمان من أجل ذلك (كحزب بعث عربي اشتراكي)، ستصطدم بقوى التخلف والتجزئة وبالقوى المضادة التي تقف وراءهم، وسيأخذ الصراع مع هذه القوى زمناً مضمونه الفكر والحركة والفعل، إلى أن تصل إلى نقطة التحول أي من احتجاج جماهير إلى فعل جماهيري تقوده أداة توحدت رؤاها السياسية والاجتماعية والمسلكية عبر هذا المسار حول البناء المستقبلي للوطن، الذي هو هدف البعث الاستراتيجي.

أما إبدال هذا النهج بالمناورات السياسية وبالانقلابات العسكرية والقفزات النوعية، فهو الذي قادنا إلى ما نحن فيه الآن من عدم وجود ردود فعل جماهيرية على مساحة الوطن العربي، ردود أفعال على البغي الأميركي والإنكليزي على العراق، والطغيان الصهيوني المدعوم أميركياً على شعب فلسطين. يزول رد الفعل هذا من ذاته، بعد أن يأخذ دفعه الذاتي مداه، لأنه لم تتكون عبر النصف قرن الماضي، طليعة مناضلة مقاتلة تواجه هذا الواقع وتدمره، تدعمها نقاط الارتكاز في العراق وفلسطين.

فمن هو المسؤول عن ذلك في حزب البعث العربي الاشتراكي؟؟

## آراء في بعض السياسات والأحداث

### بريطانيا والعرب

إن بريطانيا العظمى هي ألد أعداء العرب، وأكثرهم إيذاء بين المستعمرين، واستمر العداء حتى بعد أن أصبحت في الموقع الأخير بين الدول الكبرى، واستدعت مصالحها في الوطن العربي أن تنتهج استراتيجية مختلفة تخدم هذه المصالح.

يمكن فهم هذا العداء لوحدة العرب وتطلعهم إلى التضامن والتقدم، من وجهة نظر دولة استعمارية تسعى إلى إدامة مصادر قوتها واستعمارها، أما بعد أن تراجع دورها

بعد الحرب العالمية الثانية، والأخص بعد (إذلال السويس) فما هو السبب الذي جعل قادة السياسة البريطانية يصرون على هذا النهج السياسي تجاه العرب؟

بعد هزيمة عام ١٩٦٧، قطعت سورية علاقاتها مع أميركا وبريطانيا، أسوة بما قامت به مصر. وفي اللقاء الذي تم بين السفير البريطاني ورئيس وزراء سورية آنذاك الدكتور يوسف زعين، من أجل إبلاغ السفير بقرار قطع العلاقات، قال السفير البريطاني من بين ما قاله: إنكم في سورية تدعون وتعملون من أجل الوحدة العربية، (تأكد أنه لن تقوم وحدة عربية) لماذا هذا التصميم على عداء العرب؟ بتقديري الذاتي، هناك عاملان رئيسيان:

أولهما: ذاتي خاص ببريطانيا وقادتها، وهو أن هذه الدولة الأعظم في حينه الصغيرة مساحة، التي جعلتها صدفة الموقع الجغرافي ومميزاته ومناخه بعيدة عن مثال الطامعين، كانت تكرة الدول ذات الحجوم الكبيرة. ومن هنا جزأت الكثير مما طالت قدراتها.

والثاني: أن قادة السياسة البريطانية في سعيهم وبحثهم عما يضعف العرب، وجدوا ضالتهم في الصهيونية العالمية في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، هذا التحالف أدى إلى ولادة وعد (بلفور)، بالرغم من الوعود والعهود التي قطعوها للعرب، والتي أخذوا مقابلها فعلاً استراتيجياً أجلى جيش الخلافة العثمانية عن شرق السويس وبلاد الشام؛ مقابل هذا الفعل المشهود، حقق الإنكليز للصهيونية كياناً في فلسطين بالتشريع الظالم والتمييز والقهر، وخلُق وسلوك المستعمرين وخبرة الصهيونية ومعارفها. عندها أصبح الساسة البريطانيون أسرى هذا التحالف، خصوصاً بعد أن تراجع دور بريطانيا العالمي، ونما دور الصهيونية بعد أن نقلت مركز تأثيرها إلى مركز القوة الجديد الولايات المتحدة الأميركية.

لقد كانت بريطانيا الدولة الأكثر صلة بالواقع العربي سواء عن طريق المعرفة أو عن طريق النفوذ منذ الاستشراق، ورعايتها لخلافة بني عثمان حتى استعمارها المباشر لمشرقه من ليبيا حتى الخليج، يستثنى من ذلك سورية ولبنان ويمن الإمامة. الأمر الذي جعلها سيدة مصيره بعد الحرب العالمية الأولى، وبقيت كذلك حتى الحرب العالمية الثانية، التي ظهر أثناءها وبعدها مدى أهمية هذا الوطن استراتيجياً ونفطياً ولا



سيما مشرقه. وظهر خلال هذه الحرب وبعدها أيضاً أن الدور البريطاني عالمياً قد بدأ انحداره، وبدلاً من تمتين الواقع العربي وتكتيله، وبناء علاقات صداقة مبنية على تبادل المنافع، وعلى أسس سياسية واجتماعية سليمة أمام الهجوم الأميركي على مواقع نفوذها والمد السوفياتي المتنامي في الواقع العربي خاصة، وقد خطت خطوة أساسها سليم وهام بهذا الاتجاه، حينما دعت ودعمت قيام جامعة الدول العربية. بديلاً عن ذلك، بقيت أسيرة تراثها الاستعماري الثقيل وسياسة فرق تسد، وخلال انحدارها عن القمة بعد الحرب العالمية الثانية، مارست أسلوباً سياسياً جديداً في الواقع العربي فرضه عليها موقعها الجديد في السياسة الدولية، فقد مارست نفس الدور الذي تمارسه كل شابة امتهنت البغاء، وأجبرها عمرها على التقاعد، فأصبحت قوادة ضد مصالح المستضعفين في السياسة الدولية وخاصة العرب. لقد وظفت بريطانيا معارفها ونفوذها وعلاقاتها، إن كان مع سلاطين الواقع العربي ومشيخاته وملوكه أو أقلياته الدينية والعرقية، وعملت بقوة على دفعه باتجاهين رئيسيين، كلاهما يهدف إلى دفع الواقع العربي بعيداً عن مركز مصلحة العرب الذاتية، إن شعوباً أو حكاماً، وكلا الاتجاهين لا يخدمان بشكل رئيس، إلّا مصلحة الصهيونية العالمية وقاعدتها في فلسطين، لأن مصلحة الصهيونية أن يدوم تمزق العرب بل ويزداد إلى حد التفتت، وهي فعلاً عملية (قوادة) لا تستهدف إلّا إضعاف العرب، وتشتيت رؤاهم وقدراتهم من خلال تجيير القيادات في بعض الأقطار العميلة، التي خلقتها وكونت نهجها السياسي كسورية (الحركة التصحيحية) وليبيا القذافي واليمن الجنوبي (ماركسية ـ لينينية)، في تظاهرة قبلية متخلفة جوهراً ليتكون منها (جبهة الصمود والتصدي) المعادية للإمبريالية والصهيونية والساداتية حليفة الاتحاد السوفياتي المدافع الأمين عن مصالح الشعوب المستضعفة فيما الاتحاد السوفياتي (بقيادة بريجنيف) يرحب بهذه الخديعة من أجل أن يبيع السلاح بالدولار، كل ذلك من أجل أن يكون العرب منقسمين إلى حالتين كلّ واحدة في اتجاه: اتجاه الأكثرية تحت المظلة الأميركية، والثاني حليف زور للاتحاد السوفياتي، وليس هناك من العرب من هو مع نفسه أو مع قومه. وهذا الواقع يؤمن لبريطانيا العظمى حسب رؤيتها أهدافاً عديدة بعضها التالي:

أ ـ إضعاف العرب والمزيد من استقطابهم.

ب ـ حماية «إسرائيل» وتقويتها.

جـ ـ إضافة عوامل تعقيد في علاقات الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي آنذاك.

د ـ محاولة الحد من النفوذ الأميركي في المنطقة.

وحينما يصفن الإنسان ويتساءل أين تكمن مصلحة الإنكليز في هذه السياسة طالما هي لم تعدُ القوة النافذة في العالم، إذ عجزت اقتصادياً أن تبقى هناك والوطن العربي هائل الإمكانات.. ولو أنها تعاملت معه من منطلق التكبير وليس التقزيم، لكانت أكثر دول الغرب استفادة معنوية واقتصادية؟! لقد كانت أكثر دول الغرب صلات بالعرب إن ثقافة أو فكراً أو تجارة وحتى سياسة، قبل استعمارهم أو بعد استعمارهم مباشرة. لماذا لم تفعل ذلك؟ ليس هناك مبرر منطقي سوى أنها ظلت أسيرة هذا التراث الاستعماري الثقيل والمنهجية التي ترسخت عبر قرون قيادتها للعالم. ثم إن الصهيونية أمتطت الساسة البريطانيين، وكانت ثالثة الأثافي (مارجريت ثاتشر) المصنوعة صهيونياً منذ أن تطوعت للعمل والعيش في المستوطنات الصهيونية وهي شابة، مروراً بمركزها الانتخابي حتى موقعها كرئيسة وزراء لبريطانيا.

لقد كانت عداوة بريطانيا لمركزي القوة في الوطن العربي مصر والعراق عداوة لامهاودة فيها، فعداؤها لعبد الناصر عداءً مراً من موقعين. الأول أنه أجلاها عن مصر عسكرياً وسياسياً واقتصادياً حين تأميمه قناة السويس. أما الموقع الثاني فهو تبنيه القومية العربية كأيديولوجية لنظامه ومن ثم دعوته للوحدة العربية والتضامن العربي ضد الأحلاف والمشاريع الاستعمارية. فحرضت وحاكت مؤامرة مع الصهيونية وأميركا لحمتها الأنظمة العربية العميلة و«إسرائيل» إلى أن هزمته في حزيران عام ١٩٦٧.

أما عداؤها للعراق فكان أكثر سفوراً وأسوأ نية، وكان واضحاً أنها تقود القوى المؤتلفة ضده دون أن تستر نفسها. وكانت هذه القوى، المستور منها والمعلن، من صنع إنكليزي، العربية منها والإقليمية تطرحها في ساحة العراق صفحة إثر صفحة وكلما فشلت صفحة رمت أخرى. وكانت أولى هذه الصفحات هو التمرد المزمن للملا مصطفى البرزاني عميل بريطانيا الشهير التي طواها العراق إثر اتفاقية الجزائر. والصفحة الثانية تمثلت في جبهة الصمود والتصدي وعمودها الفقري الحكم في سورية مدعومة بأموال النفط. أما الثالثة فكانت أشد لؤماً وأكثر إيلاماً وهي المؤامرة في داخل الحزب، صنو ٢٣ شباط في أهدافها وربما ستكون الأخطر على مستقبل العراق.



وحينما فشلت كل هذه الصفحات، رمت بريطانيا العظمى العراق بإيران الخميني وإسلامه. لقد كانت إيران في كل المراحل التاريخية التي تلت سقوط بغداد وانحسار الخطر المغولي تعتبر العراق مجالاً حيوياً لنفوذها. حتى في زمن خلافة بني عثمان كانت دوماً تزحف باتجاهه، فهي قد وصلت إلى حدودها الخالية مع العراق عبر زحف تتراجع أمامه دوماً الخلافة. وبعد أن استولت بريطانيا على العراق أثناء الحرب العالمية الأولى واضطرت بعد ثورة العشرين في العراق أن تتخلى عن استعماره المباشر جاءت بفيصل الأول ونصّبته على العراق (وفيصل أهل لذلك). إلّا أن إيران لم تعترف بالعراق كدولة إلّا بعد عدد من السنين أظنها في عام ١٩٢٧ وكان المقابل لهذا الاعتراف دخول العراق في ميثاق (سعد أباد). حينها عقدت أول معاهدة ترسيم حدود في عام ١٩٣٧ التي ألقاها شاه إيران عام ١٩٧١ وصار يمر في شط العرب خارج أحكام هذه المعاهدة فارضاً واقعاً جديداً على العراق.

## لماذا رحل شاه إيران؟

بالرغم من كل ما قيل وأعلن عن نوعية شاه إيران وحقيقة نظامه إن كان كسلطة قمع وإرهاب أو كنظام عميل لأميركا والغرب، إلّا أنه ما كان سيرحل لولا أنه حاول الخروج على الرؤيا المرسومة لإيران أميركياً وغربياً (فمثله في المنطقة من هو أسوأ). فهو في الفترة الأخيرة من حكمه كان يعمل من أجل أن تكون إيران قوية تفرض سيطرتها على الخليج وجواره، وحتى يصل إلى هذا الهدف لا بد من إيران قوية من خلال استقلال ثروة إيران النفطية والغازية وغيرها، ومن هنا كان دوره بارزاً في تكوين منظمة الأقطار المصدرة للنفط، وأخذ زمام المبادرة بتسعير النفط خارج إرادة وسلطة الشركات الاحتكارية متعددة الجنسية، الأمر الذي قفز بسعره قفزة كانت الأعلى في تاريخه حتى ذلك الحين، وكان يسعى لمد أنبوب عبر الاتحاد السوفياتي إلى أوروبا أو بديلاً عنه، فيموّن هو جنوب الاتحاد السوفياتي ويمون الاتحاد السوفياتي أوروبا بالغاز. وكان يقوم بمبادرات سياسية مستقلة إن كان مع دول الجوار أو على النطاق العالمي، ومن هذا التوجه جاءت اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران، هذه الاتفاقية التي أطلقت يد العراق المشدودة إلى إيران ويد العراق اليسرى المشدودة إلى الملا مصطفى البرزاني في شمال الوطن كانت هي العصا التي قصمت ظهر شاه إيران بالنسبة لبريطانيا العظمى لأن إطلاق يدي العراق هو نهاية المشروع السياسي الإنكليزي للهلال

الخصيب، وكان يمكن أن يبتلع الأميركان والإنكليز كل هذه التصرفات لشاه إيران لولا أنهم أصبحوا على معرفة بمستقبل الاتحاد السوفياتي القريب الأمر الذي يجعل دور (إيران ـ الشاه) الاستراتيجي يفقد مبرراته. وقد أورث شاه إيران الخميني جيشاً هو خامس جيش في العالم يمتلك أحدث الأسلحة وأوفرها، مدرباً تدريباً جيداً مُعَدّاً لتأخير وصول الجيش الأحمر لمنابع النفط حتى وصول الجيش الأميركي أو قوات حلف الأطلسي، يمتلك عشرة آلاف دبابة حديثة وأكثر من أربعمائة طائرة حديثة منها على سبيل المثال أربعون طائرة (ف ـ ١٤) لا يملك من نوعها في ذلك الحين إلّا الجيش الأميركي. وورث الخميني مصانع من كل الأنواع التي تبنيها دولة ذات إمكانات اقتصادية تستهدف أن تصبح دولة متقدمة وقوية: بنى تحتية متكاملة، موانئ وتمديدات نفطية وغازية تستطيع أن تصدر ثمانية ملايين برميل نفط يومياً. بهذه التركة قاتل الخميني العراق حرباً ضروساً لمدة ثمانية أعوام، وليس بالفتاوى والتعاويذ ومفاتيح الجنة، وكان لا بد لهذا لإرث أن يدمر فرموا به العراق ليدمروه ويدمروا العراق. وحينما أقول أن بريطانيا رمت بالاحتياط الاستراتيجي الذي تملكه في المنطقة كاملاً في وجه العراق فإنني أعني ذلك ولا إمكانية لدحضه وهو: ما معنى أن تقف دول عربية يُلزمها ميثاق جامعة الدول العربية التي هم أعضاء فيها بالوقوف إلى جانب العراق ـ أن تقف هذه الدول ضد العراق؟ وإذا كانوا مؤمنين أن الخميني صادق في ما يقول وتعلن ثورته، فعليهم، على الأقل التزاماً بهويتهم أن يقفوا على الحياد. ما هو الجامع المانع الذي يجعل سورية القومية (مظهراً) التي يحكمها حزب البعث العربي الاشتراكي ولو زوراً، ما هو هذا الجامع المانع الذي يجعلها تقف وتقاتل في خندق الخميني ضد العراق الشقيق؟ وينطبق هذا التساؤل المشروع تماماً على (الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى) ـ والكتاب معروف من عنوانه ـ والتي تقع في الشمال الأفريقي على المتوسط والتي لا يربطها بإيران أية علاقات تاريخية وتراثية ومع ذلك تقف في خندق الخميني ضد العراق وتزوده بالصواريخ لضرب بغداد بالرغم من الالتزام العقائدي بالعروبة وبالرغم من التزامها بميثاق جامعة الدول العربية؟ وكيف يمكن قبول الموقف الذي وقفه اليمن الجنوبي (أتباع الماركسية اللينينية) مع ثورة الخميني الإسلامية ضد العراق؟ لا بد أن يكون هذا الجامع مكيناً وأصحابه ملتزمين ومؤمنين به الرغم من الأيديولوجيات المعلنة لأنظمتهم، وما تُبنى هذه الأيديولوجيات إلّا للتحايل والتضليل حتى يتحقق الهدف الذي هو هدف الصهيونية وبريطانيا



العظمى: إدامة التمزق العربي والتحشد ضد أي مركز قوة في الوطن العربي قادر على الفعل ضد هذه الاستراتيجية، ودعم هذه الأنظمة العربية للخميني يدل على توافق استراتيجي، وهذا التوافق الاستراتيجي سيؤدي إلى تغييرات استراتيجية في الإقليم لها تأثيرها في السياسة العالمية وفي مستقبل العرب لمدى غير منظور.

## الحرب بين العراق وإيران

حينما بدأ الصراع المباشر بالقتال، وهو بالنسبة للعراق صراع مصير، قال الأميركان والإنكليز وعميلهم أنور السادات أن العراق هو الذي بدأ القتال وهو الذي هاجم إيران واحتل أرضها، والعراق لم يهاجم إيران بل هاجم التحشد الإيراني على حدود العراق الذي كان قد بدأ القصف بالمدفعية وأحياناً بالطيران على طول الحدود الجنوبية والغربية للعراق، وهذا التحشد الذي بدأ بالقصف استعداداً للهجوم هو الذي هاجمه العراق، والعراق في هذا الهجوم لم يحتل أرضاً إيرانية وإنما استعاد أرضاً عراقية احتلها شاه إيران وأعيدت إلى العراق بموجب اتفاقية الجزائر ورفض الخميني إعادتها، بل ورفض الاعتراف بهذه الاتفاقية وهاجمها، وهي أرض حيوية للدفاع عن عاصمة العراق التي لا تبعد أكثر من ٢٠٠ كلم عن الحدود. وقال الفريق حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية العربية السورية، والعقيد معمر القذافي قائد ثورة الفاتح من سبتمبر أمين القومية العربية، أن صدام حسين (عميل للإمبريالية الأميركية) هاجم الثورة الإسلامية ليمنعها بالتالي من التصدي للدولة الصهيونية، أي أنه كان على قيادة العراق أن تنهزم أمام الخميني وتسلمه العراق، من أجل ماذا؟ من أجل أن تتصدى إيران الخميني لدولة «إسرائيل» أي نعطي العراق (ولا أكبر من هذا العطاء) على أمل أن يتصدى الخميني لدولة «إسرائيل»، ومن يقول بذلك؟ الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي في دمشق وأمين القومية العربية في ليبيا! و«إسرائيل» لا تتطلب قدرة ثورة الخميني الجبارة (على حد رأيهم) لوضعها في حجمها الحقيقي (هذا إذا افترضنا أن هذا القول فيه شيء من الصحة، وطبعاً ليست فيه ذرة من الصدق) فـ«إسرائيل» حينما يسقط سورها الأمني المحكم والقائم على الأنظمة العربية المحيطة بها، فالفلسطينيون والأردنيون، أو الفلسطينيون واللبنانيون، قادرون على وضعها في حجمها الذي يقررون، دعني من السوريين والمصريين وغيرهم.

وهكذا فالأميركان والإنكليز يمثلون الغرب والرئيس الأسد والعقيد القذافي يمثلان

القومية العربية، واليمن الجنوبي والأحزاب الشيوعية يمثلون اليسار الرسمي والشعبي، ومن الطبيعي أن يكون الاتجاه الإسلامي في الوطن العربي مع الثورة الإسلامية. أينما قامت هذه العينات تعطيك صورة دقيقة عن الواقع إقليمياً ودولياً، شعبياً ورسمياً. خاصة والاتحاد السوفياتي صار يغازل ثورة الخميني ويمالئها، إذاً من هو الذي كان مع العراق في هذا الواقع المخطط والصعب؟ لم يكن مع العراق في حينه إلّا شعبه وقائده وقدرة هذا القائد ورفاقه على خلق الواقع القادر على مواجهة هذا الخطر. نعم لقد أعد صدام حسين العراق مسبقاً لمواجهة إيران حينما كان شاه إيران يقودها، فقد حان الوقت، حسب رؤية صدام حسين وفهمه آنذاك، أن يثبت العراق فيه بالملموس أنه قادر على كسر هذه القدم العريضة التي تضعها إيران على عنقه. ولما صارت ثورة الخميني لاقاها غير هيّاب مؤمناً ومتأكداً من قدرة العراق على مواجهتها، بل وأقول أن صدام حسين كبّر جهل الخمينيين وهيّج غرورهم بثبات قل نظيره وأعصاب لا تهتز. نعم لقد عاونت دول الخليج العربية العراق في حربه مع إيران مادياً ومعنوياً تسليحاً وتمويلاً. وأمير المساعدين كانت المملكة العربية السعودية التي دعمت العراق بسخاء مالاً وسلاحاً لا يرد. وهكذا نجد أن العرب كانوا منقسمين على ذاتهم عملاء الإنكليز في هذه المرحلة من الصراع (ومعهم «إسرائيل»). كانوا في خندق إيران الخميني بكل إمكاناتهم ما عدا الأمر الذي لا يستطيعونه وهو التدخل العسكري المباشر، وأخص بهذا الرئيس حافظ الأسد. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان الإنكليز والأميركان مختلفين استراتيجياً حول نتائج الصراع؟ أقول نعم، ولكن هذا الخلاف ليس خلافاً يقود إلى العداء، إنه خلاف تستطيع أن تسميه (خلافاً عائلياً) حيث صاحب الباع الأطول في الأحداث والنتائج يأخذ النصيب الأكبر عند تقاسم الغنائم والنفوذ. ومن هنا وقف الأميركان على الحياد مظهراً وحاولوا الإيحاء بأن مصلحتهم أن لا ينهزم العراق وأن مهمتهم الأساسية هي إطالة أمد الحرب إلى الواقع الذي يجعل الطرفين يخرجان من الحرب مهزومين. ومن هنا نجد أن كل الأنظمة العربية الخليجية وغير الخليجية التي تعمل بالنصيحة الأميركية قد ساعدت العراق مادياً وسياسياً. هذا مع التبيان أن هناك أنظمة بين هذه الدول تقتضي مصلحتها الأمنية استراتيجياً أن تقف بقوة إلى جانب العراق وأخص هنا المملكة العربية السعودية التي فعلت ذلك.

والسؤال هو: هل ساعدت دول الخليج العربي العراق من أجل أن يحقق نصراً كالنصر



الذي حققه؟ وأقول كلا طبعاً لقد كان أشدهم تفاؤلاً مقتنعاً أن العراق قد لا يهزم ولكنه سيعجز عن تحرير أرضه التي احتلتها إيران وبالأخص شبه جزيرة الفاو والنصف الغربي من شط العرب وكذلك الأرض المحتلة على الحدود الشرقية كجزر مجنون في الوسط والشمال، وهذا العجز هو ما كانت تسعى إليه السياسة الأميركية لأن هذه الحالة تضعه في وضع مشابه لحالة دول الطوق المحيطة «بإسرائيل» وتضطره إلى التنازل عن مشروعه السياسي والاجتماعي وتجعله لصيقاً بدول الخليج وبواقع أقل مطاولة من بعض دوله ملتفاً بالعباءة الأميركية. أما دولة الكويت فكانت مقتنعة تماماً أن جارها القادم سيكون الخميني، ولذلك مدت حدودها إلى داخل العراق وبدأت باستخراج النفط من أرض العراق حتى إذا ما وصلت جيوش الخميني إلى هذه الحدود قالت له إن هذه حدودنا، ومعروف من هو الذي سيوقف الخميني عند هذه الحدود، إنهم الأميركان. ومن هنا فأنت حينما لا تتوقع الفاجعة يكون تأثيرها أكبر من الفاجعة نفسها، فحين حرر العراق أرضه غرب شط العرب وشبه جزيرة الفاو وجزر مجنون وكل شبر من أرضه وحتى شط العرب، كانت الفاجعة بالنسبة للإنكليز وحلفائهم فاجعة حقيقية، فقد تساءلت بصخب شديد على لسان أحد النباحين في إذاعة الـ(B.B.C): من هي الجهة في العراق التي تتخذ قراراً بمستوى هذا القرار؟ والتساؤل بالنسبة لبريطانيا ومستواها وخبرتها مشروع، فلا هي ولا غيرها من الدول الكبرى اعتادت أن تتخذ دولة في مستوى دولة العراق قراراً بتحرير أرضها التي يحتلها العدو بمعزل عن سراديب السياسة الدولية والعرض والطلب فيها. وهكذا ما إن انهزم الخميني وفشل المشروع الإنكليزي وحلفاء في الغرب حتى ظهر على المسرح الأميركان وأتباعهم من العرب. ولا بد من سائل يطرح سؤالاً:

لماذا يكره الخليجيون العرب نصر العراق الناجز؟ أو لماذا يكره الخليجيون العرب وكذلك النفطيون العرب عراقاً قوياً أو مصر قوية أو يمناً قوياً أو أي قطر عربي آخر في المشرق العربي كالسعودية مثلاً قوياً؟

بينما هم لا يكرهون إيران قوية أو تركيا قوية وحتى «إسرائيل» قوية؟ هذا تساؤل مشروع ولكنه تاريخي ومعقد وأنا لا أستطيع أن أوفيه حقه من التبيان ولكن هناك مداخل أساسية يمكن السير على هديها. أولاً علينا أن نأخذ في حسابنا أكثر من قرن من الزمان تمرغت فيه منطقة صحراوية واسعة وشعب صغير فقير ليس لديه مما

وصلت إليه الحياة في حينه إلّا القليل القليل، تمرغت في وحل الاستعمار الإنكليزي صاحب استراتيجية التجزئة والتفتيت وسياسة فرّق تسد وتسعير العداوة بين العشيرة والعشيرة والأخ وأخيه الاستراتيجية التي خلقت واقعاً قل نظيرة في العالم في مناخ إقليمي شديد الركود عديم المنافسة. هذا الواقع الفقير مادياً، الفقير معرفياً الذي كانت تقوده بريطانيا في أدق جزئياته حتى ظهور النفط على سواحله وازدهاره بداية الخمسينيات من القرن العشرين. وحتى يكون القارئ على بيّنة من الواقع في بعض نواحيه، نذكر أن الشيخ شخبوط آل نبهان شيخ إمارة أبو ظبي في ذلك الحين، كان يضع المال الذي تعطيه إياه شركات النفط في قماش يضعه تحت فراشه ويرفض أن يفتح بنكاً يضع فيه هذا المال. هذه الثروة التي نبعت من الأرض ولم تهبط من السماء كان لها تأثير بالغ على التطور والتكون الاجتماعي والفكري، أهمه الحرص والخوف على هذه الثروة. هذا في ميدان الاجتماع والتطور الحضاري. أما في ميدان السياسة فقد قال (تشرتشل) إن نقطة من النفط تساوي نقطة من الدم. وهذا القول لرجل مثل (تشرتشل) هو قول مانع قاطع لا يمكن الإضافة إليه أو الإشارة إلى عمق مدلوله في ذلك الحين. وهذا الفهم لأهمية النفط رتب على بريطانيا العظمى العمل على الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على هذه المادة الحيوية لخدمة مصالحها الاقتصادية وأهدافها الحيوية، وقد فعلوا ذلك في أهم ميدانين، الميدان العالمي والميدان الداخلي، في مواقع النفط ودوله. ففي الميدان العالمي أفهموا الاتحاد السوفياتي في (يالطا) أن أية محاولة للاقتراب من منابع النفط تعني الحرب، وقد فهمها الاتحاد السوفياتي وبقي ملتزماً بها من (ستالين) مروراً بـ(بريجنيف) حتى (غورباتشيف). أما الميدان الثاني وهو ميدان منابع النفط ذاتها، فقد خلقوا واقعاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ملتزماً بسياساتهم أميناً على مصالحهم غير قادر على الفكاك منها لم تستطع أية دولة من دول النفط الخروج عليه حتى نهاية القرن العشرين. ولقد توافق استخراج النفط على نطاق واسع وازدهاره وصعود تيار القومية العربية بعد الحرب العالمية الثانية وقيام دولة «إسرائيل». ونما هذا التيار وأصبح قوياً بعد انقلاب ٢٣ يوليو في مصر وتوج مدّه بقيام الوحدة بين مصر وسورية. ومن بين الشعارات التي طرحها هذا التيار شعار (نفط العرب للعرب) وكلنا يتذكر العداء الشديد بين هذا التيار القومي والاستعمار البريطاني الذي يعتبر مسؤولاً مسؤولية مباشرة وكاملة عما حدث في فلسطين. شعار (نفط العرب للعرب) أرعب أهل النفط، وأنا هنا لا أقول أن طرح هذا الشعار كان خطأ



خدم سياسة المستعمرين. كلا، فالتزام أهل النفط باستراتيجية سادتهم مطلقة أثبتت الأحداث المتتالية خلال النصف الأخير من القرن العشرين عمق ثباتها ولا يمكن أن يزيدها عمقاً أو يعبّر عن حقيقتها شعار هو موضوعياً صحيح وأساسي بالنسبة لأيديولوجية هذا التيار. تيار القومية العربية، الذي تحول من كم إلى كيف حين قيام الوحدة بين مصر وسورية، جعل رؤيا أهل النفط تتحدد بأن الخط على واقعهم ووضع الأمور في نصابها وتوزيع ثروة العرب على كل العرب يأتي من القومية العربية التي تدعو إلى الوحدة العربية وليس من أي أيديولوجية أخرى أو قوة أخرى خارج قوة الغرب، وخصوصاً بريطانيا وأميركا، كونهم عرباً وشعوبهم عربية، فهناك مشروعية لهذه الدعوى ومن هذا المنظور أصبح عداء أهل النفط للقومية العربية ودعوتها عداء لا يساويه عداء لأي فكر ولا لأية دعوة، وقد انسحب هذا العداء إلى أبعد من مداه فصاروا ضد أي واقع عربي (قوي بذاته) إلى أن أصبحوا عوناً مطلقاً للمستعمرين علانية وعلى رؤوس الأشهاد على أبناء جلدتهم ودينهم دون مبررات تمس أنظمتهم ومصالحهم. هكذا تعاونوا مع الأعداء لهزيمة مصر عبد الناصر وهكذا عملوا على هزيمة عراق صدام حسين في أشرس عدوان على هذا البلد الذي واجه وحيداً أعتى القوى، والذي وضّح وفضح أدق الجزئيات والتفاصيل لأهداف الإنكليز والأميركان والصهيونية. والعدوان في النهاية لا يستهدف العراق فقط وإنما العرب.

# المؤلف

**ضافي موسى الجمعاني**

ـ ولد في مضارب عشيرة الجماعين ـ بني حميدة عام ١٩٢٧ شرق قرية ذيبان جنوب محافظة مأدبا.

ـ توفي والده قبل أن يعينه.

ـ تعلم القراءة والكتابة في هذه المضارب على يد الخطيب يوسف من قرية (سنجل) قضاء نابلس.

ـ انتقل بعدها إلى بيت عمه في مأدبا ودرس في مدرستها حتى نهاية صفوفها ـ الرابع الابتدائي. انتقل بعدها إلى مدرسة المطران في عمان كتلميذ داخلي وفيها أكمل الثانوية العامة.

ـ التحق في الجيش العربي (كما كان اسمه آنذاك) ورشح ضابطاً وأكمل دورة المرشحين في مدرسة مرشحي الاحتياط في بريطانيا (Aulder Shot).

ـ أرسل إلى بريطانيا عام ١٩٥٢ لمتابعة دورة (قائد موقع) في مدرسة المدفعية.

ـ تسلم قيادة بطارية مدفعية عام ١٩٥٣ وهو برتبة ملازم ثان في واقعة غير مسبوقة في الجيش العربي آنذاك.

ـ انضم إلى تنظيم الضباط بعد مؤسسيه شاهر اليوسف ومحمود المعايطة وكان أصغر أعضاء قيادة التنظيم سناً ورتبة.

ـ انضم إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي في آذار عام ١٩٥٦ وأصبح عضواً في اللجنة العسكرية التابعة للقيادة القطرية في حينه.

ـ في أواخر عام ١٩٥٦ عين قائداً لكتيبة مدفعية الميدان الخامسة.

ـ اعتقل ورفاقه قادة تنظيم الضباط بعد انقلاب الملك حسين على الديموقراطية وعوقبوا جميعهم باعتقالهم لعشر سنوات، والمبرر القانوني لهذه العقوبة أن وجودهم على رأس وحداتهم شجع المتآمرين على التآمر (حكم سياسي).

ـ أفرج عنه إثر العفو الذي أصدرته حكومة السيد وصفي التل الأولى بعد أن أمضى في الاعتقال ٥٨ شهراً.

ـ أعيد اعتقاله وقادة تنظيم الضباط والكثير من البعثيين إثر ثورة شباط في العراق وانقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣ في سورية وأمضى في هذا الاعتقال ١٤ شهراً.

ـ التحق في صفوف حركة الثالث والعشرين من شباط (لأسباب بيّنها في هذه المذكرات) وعين حينها عضواً في لجنة تنظيم القطر ومن ثم رئيساً لهذه اللجنة. وبعد عام من ذلك التاريخ تولى أمانة سر قيادة قطر الأردن لحزب البعث العربي الاشتراكي (قيادة سورية).

ـ انتخب عضواً في قيادة الحزب القومية في دمشق في المؤتمر القومي العاشر وتولى



إدارة العمل الفدائي في هذه القيادة لفترة قصيرة عاد بعدها إلى الأردن حيث وجد أن العمل هناك أشرف وأجدى.

ـ تولى بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، إضافة إلى مسؤوليته الحزبية، قيادة تنظيم الحزب المسلح (طلائع حرب التحرير الشعبية) (قوات الصاعقة) التي شكلها فرع فلسطين للحزب في دمشق مساهمة من الحزب في الحرب الشعبية (المزعومة) لتحرير فلسطين.

ـ ساهم مساهمة جادة في إيصال حركة المقاومة إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من خلال تحالف حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) والصاعقة. ومن هنا اعتبر الرجل الثاني في حركة المقاومة الفلسطينية.

ـ تولى مسؤولية التفاوض مع حكومة المملكة الأردنية الهاشمية حينما أصدرت حكومة السيد بهجت التلهوني في أوائل عام ١٩٧٠ قراراً فيه أربعة عشر قيداً على حرية المقاومة وكل بند في اللائحة يجعل المقاومة الفلسطينية أسيرة للسلطات الأردنية.

ـ من موقعه كنائب لقائد قوات المقاومة الذي كان في زيارة للاتحاد السوفياتي آنذاك، دعا جميع قادة فصائل المقاومة إلى الاجتماع لتدارس الموقف. وقد لبى الدعوة قادة الفصائل ومن ناب عنهم. في هذا الاجتماع، انبثق المجلس المركزي (لمنظمة التحرير).

ـ اعتقل في دمشق في حزيران عام (١٩٧١) إثر انقلاب الفريق حافظ الأسد (الحركة التصحيحية).

ـ بقي في الاعتقال حتى (٣٠ ـ ١٠ ـ ١٩٩٤) ثلاثة وعشرين عاماً ونصف العام من دون أن يسأل عن اسمه.

ـ يعيش الآن في الأردن في مدينة مأدبا جنوب عمان.

# فهرس الأعلام

## أ


آل سعود، فهد بن سعود (الملك) ٣٢٥
آل المعشر ٩٩
آل نسيبه ٦٣
آل نبهان، شخبوط ٣٧٦
آل نهيان، زايد بن سلطان ٣٣١
ابن عدوان، شونة ٣٩، ٤٣
أبو إدخينة، حمد ٢٤، ٢٥
أبو أياد انظر خلف، صلاح
أبو تايه، عودة ٣١٦
أبو زيد، مأمون ٣٠٥
أبو شاحوت، شاهر ١٧١
أبو صبري ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩
أبو صخر ٣٩، ٧٣
أبو عمار انظر عرفات، ياسر
أبو غربية، بهجت ١٦٠، ١٧٠، ٢٧٠، ٣١٢
أبو غنيمة، صبحي ٢٠
أبو فرحة، خالد ٣٧، ٥٩، ١٠٦
أبو قعود، مسلم ١٢٦، ١٣٨
أبو اللطف انظر القدومي، فاروق
أبو مازن انظر عباس، محمود
أبو نوار، علي ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٣، ٨٠، ٨١، ٨٨، ٩٢، ٩٤، ١٠٤، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٧، ١٢٥، ١٣١، ١٤٩
أبو نوار، فوزي ٣٧، ٥٩
أبو نوار، معن ١٢٧
أبو هاشم، محمد هاشم ١٣٩
أبو الهدى، توفيق ٣٣، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٥١، ١٧٠
أبو الهول انظر عبد الحميد، هايل
الأتاسي، لؤي ١٩٠
الأتاسي، نور الدين ١٩٦، ٢٠٩، ٢٣٤، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣١
إرشيد، مصطفى ٣٤
الأسد، حافظ ١٢٢،١٢٣، ١٤٨، ١٨٩، ١٩٥، ٢٣٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٠، ٣٠٤، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٧٣
الأسد، رفعت ١٩٩، ٣٢٩، ٣٤١
الأمير، أحمد ١٨٩، ١٩٥، ٢٩٠

إيدن، أنطوني ٤٧
أيزنهاور ١٨٨

## ب

البرجي، يوسف ٢٠٩، ٢٥٢، ٢٩٨
البرغوتي، إبراهيم ٢٠٩، ٢٩٦
البرغوتي، عبد الكريم ١٢٧، ١٢٩
بركات، بركات ٢٦٦
بريجنيف، ليونيد ٣٦٩، ٣٧٦
بطشون، سامي ١٦٦
بكر، إبراهيم ٤٧، ٧٤، ٧٥، ٢٦٩، ٣٣٧، ٣٣٨
البكر، أحمد حسن ١٧٦، ٣٣٧، ٣٥٤، ٣٥٥
بن بيلا، أحمد ١٤٦
بوش، جورج ٢١٤
بومدين، هواري ١٤٦، ١٦٢، ٢٨٠
البيطار، صلاح الدين ١٦٣، ١٩٣، ١٩٨، ٢٩١
البيطار، عبد الله ٢٩

## ت

تاتشر، مارغريت ٢١٤، ٣٧٠
الترك، رياض ١٥٦
تشرشل، ونستون ٢١٤، ٣٧٦
التكريتي، حردان عبد الغفار ١٧٧، ٢٧٩، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٣٦
التكريتي، عبد الغفار ٢٤٤
التل، عبد الله ٣٩
التل، مصطفى وهبي ١٣٢
التل، وصفي ٧٦٥ ١٥٧، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ٢٢١، ٣٠١، ٣١٧، ٣٤٣
التلهوني، بهجت ٨٦، ٩٥، ٢٦٧، ٢٦٩
تمبلر (الجنرال) ٤٩

## ج

جديد، صلاح ١٧٧، ١٨٩، ١٩٥، ١٩٦،١٩٨، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣١١، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٤١
جردانة، نزار ١٣٧
الجمعاني، أحمد ضافي ١٢، ١٧، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٥٦، ٧٢، ٧٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢٧، ١٨٠، ٢٠٢، ٢٠٩، ٢٥٢، ٢٧٠
الجمعاني، سليمان ١٢، ٣٠، ٣٢
الجمعاني، مبارك ١٢١
الجمعاني، منصور ١٧٣
جمعة، مدحت ١٢٩
جمو، عبد الباقي ١٧٨
جميعان، إميل ٥٩
جميل، ناجي ٣٤٩
جنبلاط، كمال ٣٣٤
الجندي، أحمد صدقي ٥٤
الجندي، عبد الكريم ١٨٩، ١٩٥، ٢٩٠
جونسون ٢١٤، ٢٢٣

## ح

الحاج سري، رفعت ١٧٥
الحاج علي، مصطفى ١٩٥
حاطوم، سليم ١٩٠، ١٩٥، ٣٤١
الحافظ، أمين ١٧٧، ١٩١، ١٩٦، ١٩٨، ٢١٢، ٢١٣، ٣٤١، ٣٤٢
حبش، جورج ٢٤٦، ٢٨٦، ٢٨٧
حداد، وديع ١٥٢
الحديد، نايف ١١٨، ١٢٠، ١٢٧
الحديدي، سليمان ١٠١، ١١٨
الحريري، زياد ١٦٨
حسن (الأمير) ٦٥، ١٨٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٣٢٠
الحسن، خالد ٣٢٠
الحسن، هاني ٣٠٩، ٣١٠
الحسين بن علي (الشريف) ٤٣، ٥٦، ١٦٣، ١٧٠، ٢١٩، ٢٣٣، ٢٣٩، ٣١٦، ٣٢٢
حسين بن ناصر (الشريف) ١٧٠
حسين، صدام ١٠٣، ١٢٤، ٣٤٣، ٣٥٨، ٣٦٦، ٣٧٤
حسين، كامل ٢٠٩
حسين (الملك) ٣٤، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١٢٣، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٨، ١٨١، ٢٠٦، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨١، ٣١٢، ٣١٦، ٣٢٤، ٣٣٣
حسيني، أمين ٢٠، ٣١
الحسيني، داوود ٢٧٣
الحسيني، عبد القادر ٢٧٤
حلواني، إحسان ١١٨
حمارنة، بطرس ٣٤
حمارنة، كامل ٢٤٠
حمارنة، مصطفى ٣٤
حمدون، مصطفى ١٠١، ٢٠٠
حمرا، محمود ١٩٠
حواتمة، نايف ٢٧٨، ٢٨٨
الحوراني، أكرم ١٠١، ١٦٣، ٢٠٠
الحياري، توفيق ١١٨، ١٢٧، ١٧٢، ١٧٣
الحياري، علي ٣٩، ٥٣، ٦١، ٧٣، ٨٠، ١٠٩، ١١٧، ١١٨
حيدر، محمد ٣٣١

## خ

الخالدي، عواد ١٠٥
خروتشوف، نيكيتا ٣٥٧
خريس، عبد الكريم ٣١٢
الخصاونة، علي ١٤٨
الخصاونة، كمال الحمود ٢٧، ٢٨
الخصاونة، مصطفى ٣٢٦٠، ٣١٢
الخطيب، حسن ١٢٣، ٢٥٢، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٨٤، ٣٠٢
خلف، صلاح ٧٤، ٧٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٤، ٣٠٦
خماش، عامر ١١٩، ٢٣٠، ٢٣٢
الخميني، روح الله الموسوي ٣٤٦، ٣٥٨، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥
خير الله، عدنان ٣٤٣

## د

الداعوق، أحمد ٦٤
الداود، إبراهيم ٣٣٥
ديان، موشي ٢٤٨

## ر

الرزاز، منيف ١٣٧، ١٣٩، ١٤٨، ١٧١، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٧٤، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٦٥، ٣٦٦
رسول، محمد ١٧٤، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٩٨، ٣١٢، ٣١٥
رشيد، نذير ٣٨، ٣٩، ٥٣، ٥٦، ٨٧، ٨٩، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣١
الرشيدات، شفيق ٦٣، ٦٨، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ١١٨
رضا، فوزي ١٢٣، ٢٩٩، ٣٢٧
الرفاعي، زيد ٢٤١، ٢٧٢
الرفاعي، سمير ٧٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢
الرفاعي، عبد المنعم ٢٦٩، ٢٧١
رمزي، عصمت ١٢٧
رمضان، طه ياسين ٣٥٦، ٣٥٧
الرواحنة، الشراري (الشيخ) ١٢٦
الروسان، فايز ١٤٨
الروسان، محمد توفيق ١٢٥، ١٢٦
الروسان، محمود ٣٨، ٥٥، ٥٦، ٦١، ٦، ٦٧، ١٤٩
رياض، عبد المنعم ٢٣٥
الريماوي، عبد الله ٣٤، ٣٥، ٤٧، ٦٣، ٦٨، ٧٦، ٨٩، ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١١٨، ١٢٣، ١٢٩، ١٣١، ١٧٠، ١٧٣، ٢٠٢

## ز

الزبن، عكاش ١٢٧، ١٢٨
زعرور، أحمد ٣٨، ٥٦، ٦١، ٩٠، ٩٦، ١٠٧،

١٠٩، ١١١، ١١٨، ١٢٠، ١٢٧
الزعيم، حسني ١٦٥، ٢٠٠
زعين، يوسف ١٢٣، ١٩٦، ٢١٧، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣٢٧، ٣٣١، ٣٦٢
زغلول، سعد ٣٠٨
الزلط، عبد الفتاح ١٠١، ٢٠٠
زيادين، يعقوب ٦٣، ٧٧، ١٤٨

## س

السادات، أنور ٢١٣، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٣
الساكت، عوني ١٨٧
سالم، مصلح ٣٢٧
السامرائي، عبد الخالق ٣٠٩
ستالين، جوزيف ٣٧٦
السحيمات، فايز ١٨٦
السراج، عبد الحميد ٢٨٦
السرطاوي، عصام ٢٤٥
سعادة، أنطون ٣١
السعد، نايف ٤٢
السعيد، نوري ٤٢، ٤٨، ٩٨، ١٣٥، ١٤٦، ١٦٦
سلمان، طلال ٢٨٤
سويداني، أحمد ١٩٥، ٢١٢، ٢٣٤، ٢٣٨

## ش

الشاعر، جمال ١٨١، ١٨٢، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٦٥
الشاعر، كمال ٣٠١، ٣١٧
شاكر (الشريف) ٣٢
الشامي، جعفر ٣٨، ٥٦، ٩٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٧، ١٧٢
الشبول، شوكت ٣٨، ٣٩، ٥٦، ٩٧، ١١٨، ١٢٧، ١٥٢
شجاوة، عزيز ١٢٨
الشخابنة، كساب (الشيخ) ١٢٦
الشرع، صادق ٢٤، ٨٠، ١٢٩، ١٣٧، ١٤٩
الشرع، فاروق ٣٤٣
الشرف، زين (الملكة) ٤٣
شفيق، منير ١٤٨
شقير، أمين ١٠١، ١٤٨
الشقيري، أحمد ٢١٦
الشنقيطي، محمد الأمين ١٦، ١٧
شهاب، حماد ٣٣٧
الشوارب، حنا ١٤
الشوفي، حمود ١٩٦
الشويعر، صالح ٢٢٩
الشيشكلي، أديب ١٠١

## ص

الصالح، عبد القادر ٦٤، ٦٨
صايل، سعد ٣٠٧، ٣٠٨
الصحن، عبد الرحمن ٦١
الصعوب، عبد الله ١٢٧
الصلح، رياض ٣١
الصياغ، فواز ٢٠٩، ٢٥٢

## ط

الطبقجلي، ناظم ١٧٥
الطراونة، خالد ١٤٩
الطراونة، محمد فارس ٢٠٦
طلاس، مصطفى ٣٣١، ٣٤٣
طلال (الملك) ١٦، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٤٢، ٤٣
الطويل، محمد رباح ١٩٥

## ع

عارف، عبد الرحمن ٣٣٥
عارف، عبد السلام ١٧٤، ١٧٥، ١٧، ١٩٣، ٢٤٤، ٣٣٥
عامر، عبد الحكيم ٧٣
عباس، محمود ٢٧٦
عبد الله، عمر ٣١٧
عبد الله (الملك) ١٧، ٢٠، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤٨، ٥٨، ٦٠، ٣٣، ٨٣، ٢٢٨
العبد الله، راضي ٣٩



عبد الحميد، هايل ٧٤، ٧٥
عبد الدايم، محمد خليل ٣٧
عبد ربه، ياسر ٢٨٧
عبد القادر، كامل ١١٩
عبد الناصر، جمال ٤٩، ٥١، ٥٦، ٥٧، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٨٢، ١٣٤، ١٤١، ١٤٨، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٢، ١٩١، ٢٠١، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٥٢، ٢٨٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٦٠، ٣٧٠
عبد الهادي، أحمد راشد ٢٩٤
عبد الهادي، حافظ ١٤٨
عبد الهادي، داوود ١٥٣، ١٧٢، ١٧٣
عبده، شفيق ٣٤٥
عبيد، حمد ١٩٥
العجلوني، مازن ٣٨، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٩٧
عدوان، ممدوح ٣٤٨
العربيات، عبد الحليم النمر الحمود ٦٣، ٦٨، ٩٨، ٩٩، ١٠٠
العربيات، غازي ٣٨، ٥٦، ٩٧، ١٠٣
عرفات، ياسر ٧٤، ٧٦، ٢٢٢، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣١٧، ٣١٨، ٣٤٣، ٣٦٦
العرموطي، عبد الرحمن ١٧٤، ٢٢٩، ٢٦٤، ٢٧٥
عريقات، كامل ٢٦٩، ٢٧٣
عزيز، طارق ٣٤٣
العسيمي، شبلي ٣٥٤
عشاوي، محمد عيد ١٢٣، ٢٥٨، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣١٢، ٣١٤، ٣٢٧
عصفور، عبد العزيز ٣٦
العطية، سليمان ٢٢٩
عفّاني، أحمد ٢٨٥
عفلق، ميشيل ٩١، ١٦٣، ١٧٧، ١٧٩، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٤١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٢٧، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٥٤، ٣٦٥، ٣٦٦
عقل، أحمد ٢٥٢، ٢٥٩
عقله، كريم ١٢٧
علوان، جاسم ١٧٣، ١٩١، ١٩٣، ٢٠٢
علي، عبد اللّه ٢٦٥
العلي، محمد إبراهيم ١٩٠، ٢١٢
عماش، صالح مهدي ٢٧٩، ٣٠٣
عمران، محمد ١٨٩، ١٩٥، ١٩٩، ٢٩٠، ٣٢٧
العمري، محمد ١٣٧
عناب، راضي ٦١
عناب، منذر ١٥٣
العوض، مريم ١١

## غ

غندور، عزت حسن ١٢٤
غورباتشوف ٣٧٦

## ف

الفايز، حاكم ١٧٣، ١٨١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٣١٢، ٣١٣
الفايز، عاكف ١٢٩، ١٧٨
الفرحان، حمد ٣٩، ١٧٢
فيصل (الملك) ٣١، ٤٢، ٢٨٠، ٣١٦
فيصل، شكري ٢٣٤

## ق

القاسم، أديب ٢٤
قاسم، عبد الكريم ١٤٧، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٥، ١٧٦، ٢٨٩
قاسم، علي ٣٠٥
قاعد، عبد الله ٣٨، ٥٣، ٥٦، ٩٧، ١١٨، ١٢٧
القدومي، فاروق ٧٤، ٧٥، ٣٠٦، ٣٠٧
القذافي، معمر ٣٦٩، ٣٧٣
القريوتي، محمد رشيد ١٤٩، ١٥٣
قزاز، ناظم ٣٣٧
قطناني، يوسف ٢٠٩، ٢٥٢
القطب، صبحي ١٨٠
القميزة، حماد ١٤٣

القوتلي، شكري ٢٢٨

## ك

الكحيمي، أحمد ٣١٧، ٣١٨
كرادشة، سليم ١٥٥
كلوب باشا (الفريق) ١٧، ٢٥، ٣٠، ٣١، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٧٨، ٨٠، ٨٢، ٨٦، ٩٦، ٩٨، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١١٢، ١١٣، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٥، ٢٨٦، ٢٩٥، ٣١٥
الكواكبي، عبد الرحمن ١٦٣
الكيالي، عبد الوهاب ٢٦١
كيسنجر، هنري ٣٤٧، ٣٦٠
الكيلاني، زيد ٢٣٩، ٢٧١

## ل

ليفنغستون ٧٠
لينين، فلاديمير أ. ١٥٦، ٢٨٨

## م

ماخوس، إبراهيم ١٩٦، ٢٩٤
ماركس، كارل ٩١
ماهر، فواز ١٢٧
مبيضين، فايز ١٤٨، ١٨٠
المجالي، حابس ٣٣، ٨٠، ١٢٦
المجالي، هزاع ٤٩، ٥١، ٥٣، ٦٣، ٧٨، ١٢١، ١٦٩، ٢٢١
مجدلاني، نسيم ١٧٧
المحادين، إبراهيم ٣٧
محادين، إسماعيل ١٤٨
محسن، زهير ٢٠٩، ٢٩٦
محمد بن عبد الوهاب ٣٢٥
محمد علي باشا (الخديوي) ٢١٣
المحيسن، جودت ٦٤
مدانات، عيسى ١٤٨
مساعدة، ضيف الله ٢٦٥
مسمار، علي ٦٢
المصري، حكمت ٦٣، ٦٨
مطر، عمر ٦٣، ٨١
المعايطة، محمد محمود ٣٥، ٣٨، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦١، ٦٧، ٧٣، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ١٠١، ١٠٣، ١٠٧، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٥٣، ١٨٠، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٧٢، ٢٩٢، ٢٩٥، ٣١٣، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٦٥
المفتي، حسام الدين ١٨
المفتي، سعيد ٣٠، ٤٨، ٤٩، ٦٦، ١٠٤، ١٢٩
المفلح، رياض ٥٤
الملقي، فوزي ٤٣
المهداوي ١٦٧، ١٧٥
مهيار، عزمي ٥٩، ٦٧، ٨٨
الموسى، محمود ٦٥، ١١٨، ١١٩
مئير، غولدا ٣٥٢
ميتران ٢١٤
ميجور ٢١٤

## ن

النابلسي، حسن ١٣٧
النابلسي، سليمان ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٦، ٧٨، ٩٥، ٩٦، ١١٢، ٢٠٦، ٢٣٩، ٢٤١
ناصر بن جميل (الشريف) ٤٣، ١٠٥، ١٠٦، ١١٤
الناصر، قاسم ٣٥، ٣٨، ٥٥، ٥٦، ٩٠، ٩٧، ٣١٢
ناصر، كمال ٣٤، ٤٧، ٦٣، ١١٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٦٥
نايف (الأمير) ٣٣
النايف، عبد الرزاق ٣٣٥، ٣٣٦
النجداوي، أحمد ٢٠٩، ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٣
نجيب، محمد ٣٨، ٥٧
النحاس باشا ٥٧
نسيبة، أنور ١٢٨
نصراوي، مجلي ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٩٥، ٣١٣
نعواس، عبد الله ٣٤، ٣٥، ١٠١، ١١٨



نعيسة، صلاح ٢٣٧
نعيمة، ميخائيل ١٦
النقيب، حسن ٣٠٩
النميري، جعفر ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٩
نويران، وليد ١٦٦

## هـ

هاشم، محمد ١٥٤، ١٥٥
الهنداوي، تركي ٣٥، ٣٨، ٤٢، ٥٣، ٥٦، ٩٧، ١١٨، ١٢٧
الهنداوي، ذوقان ٣١٢
الهنداوي، رافي ١١٨، ١٧٤، ١٨١، ٢٠٩، ٢٢٩
الهنداوي، علي ١٧٨
الهنداوي، هاجم ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٩٩، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤
هيكل، محمد حسنين ٧٤، ٧٥، ١٧٢

## و

وراد، فائق ٦٣، ١٤٨

## ي

اليحيى، عبد الرزاق ٢٧٦
يغمور، عبد الخالق ٢٦١
اليماني، أحمد ٢٠٩، ٢٥٢، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٥٥
اليوسف، شاهر ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٥٠، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦٥، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٦، ١٠٠، ١٠٢، ١١٣، ١١٨، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٨٠، ١٨١، ٣٠٩

# فهرس الأماكن

## أ


أبو ظبي ٣٧٦
آسيا ٢٢٣
الاتحاد السوفياتي ٧٣، ١٣٥، ١٥٧، ٢٧٣، ٣٣٨، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٦
إربد ١٣، ٤٧، ٣١، ٢٣٣، ٣١١، ٣١٣
الأردن ١٨، ٢٠، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٨٣، ٨٩، ٩٠، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٥٧، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٤٣، ٣٦٥
أريحا ٢٣، ٢٩، ٤٩، ٥٠، ٧٧
إسبانيا ١٩٩
إسرائيل ١٩، ٧٢، ١٠٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٤١، ١٥٨، ١٦٧، ١٧٩، ١٨٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٥٩، ٢٧٧، ٣٢١، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٩، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٦
أفريقيا ١٤٠، ٢٢٣
الإكوادور ١٥٦
أم الرشراش (القرية) ٣٠
أميركا ٧٠، ٧٦، ٢٢٥، ٣٢٢، ٣٥٠، ٣٦٨
الأندلس ٢٦٤
أوروبا ١٨١، ٢٢٥، ٣٧١

إيران ٤٦، ٥١، ٩٠، ١١٨، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٤٦، ٣٦٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥

## ب

باريس ٥٥، ٦٦، ٨٩
البحر الأحمر ٣٠، ١٣٣
بحر الجليل ٢١
البحر الميت ٧٧
البحرين ١٣٣، ١٦٧
بحيرة طبريا ١٩
بريطانيا ٢٧، ٣٧، ٤٨، ٥١، ٦٨، ٧١، ٧٦، ٨١، ٩٥، ١٤٠، ١٥٨، ١٨٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٦، ٣٧٧
بغداد ١٧، ٤٦، ٥٣، ٥٦، ٥٧، ٦٢، ١٢٤، ١٧٤، ١٧٦، ٢٨٩، ٣٣٤
بلاد الشام ١٨٧، ٢١٣، ٢٥٥، ٢٦٤، ٢٨١، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٤٤، ٣٦٨
بورسعيد ٢٧
بيروت ١٦، ٢٧٧، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٢٧، ٣٤٢، ٣٥٤، ٣٦٤

## ت

تركيا ٤٦، ٣٣٤، ٣٧٥
تل أبيب ١٩، ٢٢
تونس ٢٨٠

## ج

جبال طوروس ٣٢٣
جبل بني حميدة ٢٠
جبل الشيخ ٢٣١، ٢٣٦
جبل اللويبدة ٢٦٥
جرش ٣٢، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١١، ٣١٦
الجزائر ١٤٧، ٢٨٠، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٧٣
الجزيرة العربية ١٣٣، ٣١٩
جزيرة الفاو ٣٧٥
الجمهورية العربية المتحدة ١٥٠، ٢٣١
الجولان ٢٢٧، ٢٣٥، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٤

## ح

الحجاز ٣٥٨
حطين ٢١
حلب ١٠١
حيفا ١٨، ٢١، ٢٢
حوران ١٩٠، ٣٠٨

## خ

الخليج العربي ٢٨٠، ٣٣٦
الخليل (مدينة) ١٧٨

## د

درعا ٣٨٠، ٣١١، ٣٥٢
دمشق ٦٧، ١١٤، ١١٨، ١٢٥، ١٣٢، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٣٤، ٢٤٣، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٧٢، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٢، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٢، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٢

## ر

رام الله ٤٣، ٦٣، ٧٢
الرباط ٢٢١
الرملة ٢٤، ٢٥

## ز

الزرقاء (منطقة) ٣٠، ٤١، ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٩٤، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٨، ١٢٠، ١٧٨، ١٧٩

## س

السعودية ٥١، ٨١، ١٥٧، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٨٠، ٣٠٨، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٩، ٣٧٥
السماكية (بلدة) ٦٣
سهل حوران ٣٠٨
سورية ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤١، ٥٦، ٧٦، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٣، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٦٦، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٧٧
سيناء ٧٣، ١٤٣



## ش

الشام ٢٠

## ص

صويلح (مدينة) ٣٠٥

## ض

الضفة الشرقية ٧٣، ٢٣٢، ٢٤٧
الضفة الغربية ٤٧، ٧٢، ٧٣، ١١٧، ١٤٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٤٧، ٢٥٩، ٣٢٤

## ط

طبريا ١٩، ٢١
الطفيلة (مدينة) ٦٤
الطيبة (قرية) ٧٣

## ع

العالم الثالث ٧٤، ٧٩، ٩٩، ١٠٢، ١٥٠، ١٩٧، ٣٣٩
عجلون ٢٥٩، ٢٦٥، ٣٠٧، ٣١٦
العراق ٢١، ٣١، ٤٢، ٤٦، ٤٩، ٥٦، ٩٨، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٧، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٧٧، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٨، ٢٢٣، ٢٤٥، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٠، ٣١٥، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥
عمان ١٣، ١٤، ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٦، ٤٧، ٥٠، ٥٩، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧٤، ٧٧، ٨١، ٨٧، ٩٨، ١٠٦، ٢٠٧، ٢٢٠، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٨٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٥٢

## ف

فرنسا ٧١، ٧٦، ١٥٨
فلسطين ١٨، ٢٠، ٢٢، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٣، ٤٨، ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٧٢، ٨٣، ٨٧، ٩٧، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٦، ٣٤٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٢٣٣، ٣٤٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٦

## ق

القادسية ٣١١
القاهرة ٦٦، ١٩١، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٠، ٢٨٤، ٣٢٥، ٣٥١
قبرص ١٤٢
القدس ١٣، ١٩، ٢٢، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٩، ٥٠، ٦٣، ٧، ٢٧٤، ٣٥٨
قطاع غزة ٢٢، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٨٧
قطر ١٣٣

قناة السويس ٢٧، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٨، ١٥٨، ١٥٨، ٢٣٦، ٣٥٠، ٣٦٨

## ك

كامب ديفيد ٣٣٤، ٣٦١
الكرك ١٣، ١٤، ٦٣، ١٢١، ٢٠٦
الـكـويـت ٤٢، ١٤١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٢٤، ٣٠٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣٣٥

## ل

لـبنان ٣١، ٣٤، ١٣٣، ١٤٢، ١٦٥، ٢٢٧، ٢٧٧، ٢٨٥، ٣٢٦، ٣٥٨، ٣٦٨
اللد ٢٤، ٢٥
لندن ٢٧، ٥٥، ١١٣
ليبيا ٣٥٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٣
ليفربول ٢٧

## م

مأدبا (بلد) ١٢، ١٥، ١٧، ٣٢، ١٧٩، ٢٨٢
مـصـر ٣٣، ٣٦، ٣٨، ٥١، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٢، ١٣٤، ١٤١، ١٤٩، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٥١، ٢٨٦، ٣٠٩، ٣٢١، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٧٠، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧
المغرب العربي ٢٨٠، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٤

## ن

نابلس ١٢، ٣٩، ٦٤، ١١٤، ٢٢٩
الناصرة ١٩، ١٤٨
نجد ٣١٥، ٣٥٨
نهر الأردن ١٨، ٧٧، ٢٣٢، ٢٤٧، ٢٥٦
نهر الزرقاء ٤١، ٢٥٨، ٣١٣
نهر الفرات ٣٦٣
نهر الموجب ٢٥٨
نهر اليرموك ١٨، ٢٥٩

## هـ

الهلال الخصيب ٣٤، ٣٣٤، ٣٤٧، ٣٧١، ٣٧٢

## و

وادي النيل ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٤٤
واشنطن ٥٥، ٦٧
الوطن العربي٥٧، ٩٧، ١٣٣، ١٥٦، ١٦٨، ٢١٣، ٢٦٢، ٢٨١، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٤٨، ٣٧٠، ٣٧٣
الـولايات المتـحدة الأمـيركـيـة ١٨٨، ٢٢٣، ٢٩٨، ٣٢١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٥١، ٣٧٠

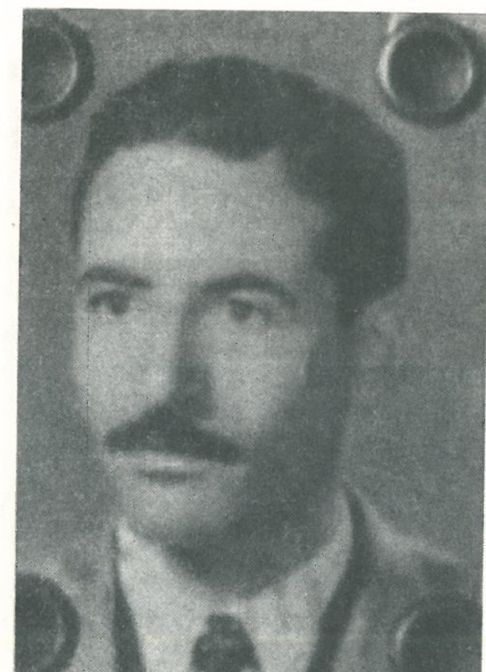
## ي

يافا ١٩، ٢٢، ٢١٦
الـيـرمـوك ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٧٦، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨
اليمن ١٤٧، ٢٣٥، ٣١٩
اليمن الجنوبي ٣٦٩

# ملحق صور



ضافي الجمعاني



ضافي الجمعاني في الجيش



مع مجموعة من المقاومين



متكلماً في أحد المؤتمرات



مع وصفي التل وآخرين



مع وصفي التل



مع الرئيس جمال عبد الناصر



مع الملك حسين



مع وصفي التل وياسر عرفات



أحد اجتماعات المقاومة



في الجيش العربي الأردني



في مدرسة المطران




# This is to certify that

LT DAFI JAMANI (689) of 1st Arty Regt (JORDAN)

Attended No. A 26 - 4 Regimental Officers Course

from 3 Oct 51 to 19 Dec 51 at School of Artillery, LARKHILL, Salisbury Plain

and that he obtained the following report:- Grading C

This officer had had some experience in field artillery work. He therefore had a good knowledge of GIO's work. By the end of the course he had an average knowledge of all the subjects taught. He ran a well organised command post. His ability as an instructor is good. He is capable of being a CPO.

Station LARKHILL
Date JAN 52

Brigadier
Commandant

ضافي الجمعاني

# من الحزب إلى السجن

## ١٩٤٨ـ١٩٩٤

ولد في مضارب عشيرة الجماعين - بني حميدة عام ١٩٢٧ شرق قرية ذيبان جنوب محافظة مأدبا.

التحق بالجيش العربي (كما كان اسمه آنذاك) ورشح ضابطاً وأكمل دورة المرشحين في مدرسة مرشحي الاحتياط في بريطانيا (Aulder Shot).

انضم إلى تنظيم الضباط بعد مؤسسيه شاهر اليوسف ومحمود المعايطة.

انضم إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي في آذار عام ١٩٥٦ وأصبح عضواً في اللجنة العسكرية التابعة للقيادة القطرية في حينه.

اعتقل ورفاقه قادة تنظيم الضباط وأفرج عنه إثر العفو الذي أصدرته حكومة السيد وصفي التل الأولى بعد أن أمضى في الاعتقال ٥٨ شهراً.

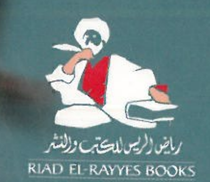
أعيد اعتقاله وقادة تنظيم الضباط والكثير من البعثيين إثر ثورة شباط في العراق وانقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣ في سورية وأمضى في هذا الاعتقال ١٤ شهراً.

التحق في صفوف حركة الثالث والعشرين من شباط وتولى أمانة سر قيادة قطر الأردن لحزب البعث العربي الاشتراكي (قيادة سورية).

انتخب عضواً في قيادة الحزب القومية في دمشق في المؤتمر القومي العاشر.

ساهم في تحالف «فتح» و«الصاعقة» ضمن حركة المقاومة الفلسطينية.

اعتقل في دمشق في حزيران عام (١٩٧١) إثر انقلاب الفريق حافظ الأسد (الحركة التصحيحية). وأفرج عنه في ١٩٩٤/١٠/٣٠.





ISBN 9953-21-242-2
9 789953 212425